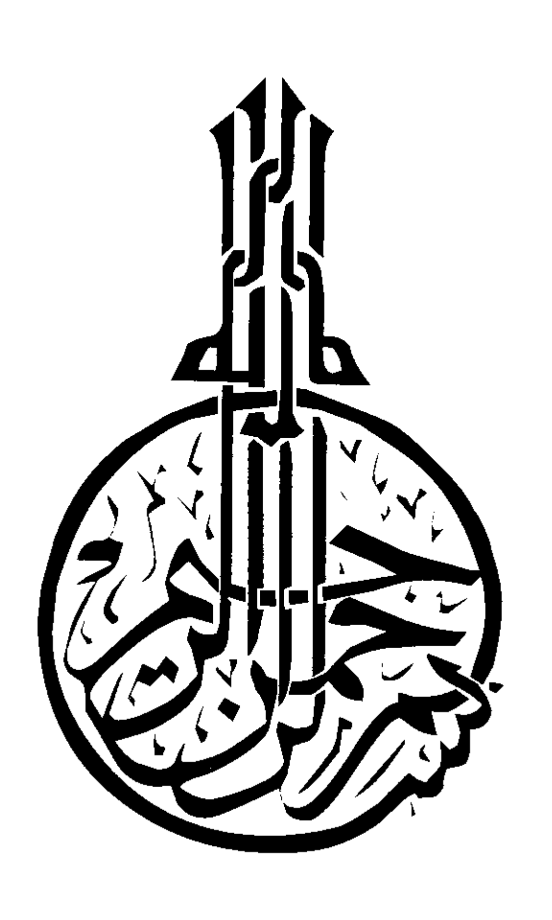
العرب في أحقاب التاريخ
(٢)

التاريخ العربي ومصادره

تأليف
أمين مدني

دار القوافل للنشر والتوزيع
الرياض: ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨م





التاريخ العربي ومصادره

الجزء الثاني

تأليف
أمين مدني

الطبعة الثانية

دار القوافل للنشر والتوزيع
الرياض : ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية اثناء النشر

مدني ، امين عبدالله

التاريخ العربي ومصادره. / امين عبدالله مدني ؛ عبدالرحمن الطيب الانصاري - ط٢ . . - الرياض ، ١٤٢٩هـ

..ص ؛ ..سم

ردمك : ٤-١-٩٠٠١٦-٦٠٣-٩٧٨

١ - العالم العربي-تاريخ ٢- العالم العربي-تاريخ - مصادر ٣ - التاريخ الاسلامي ا . الاتصاري ، عبدالرحمن الطيب (محقق) ب . العنوان

ديوي ٩٥٣ ١٤٢٩/٢٠٧٢

رقم الإيداع : ١٤٢٩/٢٠٧٢

ردمك : ٤-١-٩٠٠١٦-٦٠٣-٩٧٨

الإهداء

إلى الذين قادوا ويقودون المسيرة العربية

في طريق الأهداف

أمين مدني

المحتويات

التوطئة

الموضوعات :

١- هدف هذا الجزء.

٢- ما فرضته فصول هذا الجزء على البحث.

٣- مخطط هذا الجزء.

٤- الأعلام في غناء عن الألقاب.

٥- الكلمة الأخيرة في هذا الجزء تكمل الكلمة الأولى منه.



توطئة وتمهيد

١ - إذا لم يكن بد من أن أضع توطئة لهذا الجزء : (التاريخ العربي ومصادره) بعد أن مهدت للمؤلّف بكامله (العرب في أحقاب التاريخ) بمقدمة وضّحت فيها موضوعاته، والغرض من تأليفه؛ نُشرت مع الجزء الأول (التاريخ العربي وبدايته)، فما عليّ الآن إلا أن أقول كلمة موجزة عن الهدف الذي توخيته في هذا الجزء. والهدف الذي توخيته والذي يبدو واضحًا في كل فصل من فصوله يتمثل : في معرفة مصادر التاريخ العربي من البداية، فنحن اليوم نرجع إذا ما أردنا الكتابة في قضية من قضايا التاريخ العربي إلى الموسوعات التاريخية، ونحن إذا ما رجعنا إلى الموسوعات التاريخية نراها تستند إلى أقوال أوائل الرواد من المفسرين وجامعي السيرة والمغازي وأيام العرب وأشعارها ولغاتها. ونحن إذا ما رجعنا إلى أولئك الرواد في تراجمهم نجدهم قد جمعوا أخبار العالم القديم من تراث قدامى الأمم، وإذا ما رجعنا إلى التراث القديم نجد كل أمة من الأمم القديمة أخذت ممن سبقها من عوالم الماضي المجهول ما بنت عليه معتقداتها في أصل الخليقة وعالم ما قبل الطوفان، مما تحدثت به الأنبياء والرسل وأطلق عليه البحث اسم : (التاريخ الديني).

٢ - فبناء على ذلك فرض عليَّ البحث التقصي، وفرض عليّ التقصي أن أسير مع المصادر من مراحلها الأولى التي اكتشف معالمها من تقدمني من الباحثين؛ وكذلك فرض عليّ البحث أن أعرف حقيقة النصوص التي اعتمد عليها مؤرخو الشرق العربي، وفرضت عليّ معرفة حقيقة النصوص أن أفرد لكل مصدر من مصادر التاريخ فصلاً خاصًا يوضح ما هو جدير بالإيضاح، ويناقش ما هو خليق بالمناقشة .. والإيضاح والمناقشة ألزماني بأن أعود إلى العصور القديمة، وأنظر بمنظار أبنائها وأقف مع آرائهم في كل مكان ظهر فيه نشاط علمي ذو أثر في دعم الدراسات التاريخية وتطويرها، وأبحث معهم في أمهات التاريخ ومصادره.

٣- فعلى هذا الأساس رسمت مخطط هذا الجزء. قسمت موضوعاته، وقدمت ما في استطاعة البحث تقديمه لمعرفة مصادر التاريخ العربي، ومناهل رواده، ومراجع المؤلفين فيه، ومسالكهم، وأساليبهم، والجهد الذي بذلوه في تطوير البحث التاريخي كل فيما اتجه واشتغل به.

٤- ومما رسمته لهذا المؤلَّف تجريد الأعلام مما هم في غنوَةٍ عنه عند ذكر أسمائهم؛ فأسماء أئمة الرواد، ونوابغ المؤلفين، وأعلام المؤرخين، وفحول الشعراء في الماضي؛ ومن أصحاب الشهادات الجامعية: الليسانس، والماجستير، والدكتوراة في الحاضر. أكبر من الألقاب، وإنهم ولا شك ليعتزون بإنتاجهم العلمي أكثر مما يعتزون بالألقاب والشهادات.

٥- ومما رسمته لهذا المؤلَّف: كتابة كلمة أخيرة لكل جزء بعنوان: (نهاية المطاف) ألخص فيها النتائج التي وصلت إليها بحوث الجزء وفصوله. والكلمة الأخيرة (نهاية المطاف) هي - كما لعلك قرأتها في الجزء الأول، وكما تراها في هذا الجزء - تكملة للكلمة الأولى فيه: المقدمة. أخرتها ليطالع القارئ النتائج وهو على علم بما جاء في الفصول ومباحثها، ولذلك تراني أجلت الكلام عن كل فصل من فصول هذا الجزء إلى نهاية المطاف؛ وعليه فإنني أترك القارئ ليطالع ما يشاء أن يطالعه من بحوث هذا الجزء، ويعرف ما يريد أن يعرفه. فإلى اللقاء في نهاية المطاف.

وإلى اللقاء مرة ثالثة في الجزء الثالث من مؤلَّف (العرب في أحقاب التاريخ) الذي يبحث في جغرافية الجزيرة العربية القديمة. إن شاء الله.

أمين مدني

الفصل الأول

فكرة التاريخ ومصادره

نشأة التاريخ ونصوصه



فكرة التاريخ ومصادره

موضوعات البحث :

١- فكرة التاريخ.

٢- التاريخ الحجري.

٣- مصاعب البحث التاريخي لا تزال قائمة.

٤- أين توجد نصوص التاريخ العربي؟

٥- نصوص التاريخ العربي قبل الميلاد.

٦- النصوص التاريخية بعد الميلاد.

٧- النصوص الأثرية.

٨- ما يحتاج إليه تأليف تاريخ عام متصل الحلقات.

٩- نصوص تاريخ العرب بعد الإسلام.

١٠- سؤال بلا جواب !!

١ - تعتقد أكثرية الباحثين في نشأة التاريخ : أن علم التاريخ فكرة بدأت أولاً بالنقش على ضرائح ومعابد الأمم ، وأن أقدم الأمم التي وصلت نقوشهم إلى أيدي الأثريين في العصر الحاضر ، مثل : (السوموريين) و(البابليين) و(الآشوريين) في العراق ، ومثل: (العماليق) جبابرة الشام ، و(الفينيقيين) سكان لبنان ، و(الفراعنة) في وادي النيل ، ومثل : (المعينيين) و(السبئيين) و(الحميريين) في اليمن ، ومثل : (الثموديين) في الحجاز ، ومثل : (الجرهائيين) في الخليج الإسلامي العربي[1]- أخذوا فكرة النقش عن الأمم التي سبقتهم؛ فعن تلك الأمم التي أشارت إليها أقدم النصوص نقل (السوموريون) ، ومن بعدهم (الآشوريون) ، الأنباء الغامضة عن آدم وأمم ما قبل الطوفان.

فالنقوش التي عثر عليها في المقابر تؤبن العظماء الذين انتقلوا من حياة كلها نشاط وصخب إلى أبدية كلها خلود وصمت ، وعثر عليها على جدر المعابد تحتفظ بأدعية وصلوات ، وعثر عليها على مسلات اتخذت سجلات للوائح وقوانين ونظم وأحكام ، إلى غيرها من الآثار التي سجلت عليها أسماء ملوك الماضي القديم وأخبارهم وحروبهم وانتصاراتهم . فهذه النقوش تعدّ البداية في تدوين التاريخ.

٢ - فللتاريخ في رأي البعض عصور حجرية ، مثلما للإنسان عصور حجرية ، فكما أن الإنسان في أول حياته سكن الكهوف ، واستخدم الحجارة آنية وسلاحًا ، كذلك هو بدأ تدوين التاريخ بالنقش على الجبال ، واتخذ من الحجارة سجلات تحفظ آثاره.

---

(١) الخليج الإسلامي: هو الخليج العربي كما تسميه العرب ، والخليج الفارسي كما تسميه الفرس ، ولقد اقترحت في المحاضرة التي ألقيتها في قاعة محاضرات الرابطة الإسلامية بمكة المكرمة أن يسمى : الخليج الإسلامي؛ بناءً على أن الشواطئ التي تحيط به جميعها إسلامية ، وقد طبعت محاضرات الرابطة ، فراجع المجلد الثاني ، ص٩٠ .

ولهذا الرأي أدلة معقولة تؤكدها النقوش الأثرية، فالنصوص الحجرية - جريًا مع حرفية هذا الرأي - تجعل من هذا الظن حقيقة؛ فمن النقوش التي ظهرت ما هو أقدم من التاريخ، وعلى النقوش التي ظهرت تتضح المحاولات الأولى لتدوين الأحداث تاريخًا تقرؤه الأجيال.

ولقد أخذ المحققون في نشأة التاريخ وفي مصادره يستخدمون كلمة (نص)، ويبحثون في أعماق الماضي عن النصوص التاريخية؛ لتنير لهم زوايا الماضي، وتبدي لهم خفاياه.

والنص في اللغة : رفعك الشيء، ونصّ الرجل نصًّا إذا استقصى ما عنده، ونصّ كل شيء منتهاه[1] - فالنص التاريخي معناه : الخبر المرفوع إلى مصدر يعد منتهاه.

ومن طلب المستحيل : أن نريد من كل نص تاريخي أن يستقصي لنا كل ما يستدعيه الخبر، لا سيما نصوص التاريخ العربي القديم؛ فما فتئت الشكوى من سقم نصوص التاريخ العربي القديم يرددها كل باحث في ماضي الجزيرة وفي تاريخ شعوبها، وما فتئت بواعث هذه الشكوى تتجدد بتجدد المعارف واتساع آفاقها؛ فالصعوبة التي يلاقيها اليوم من يكتب في التاريخ العربي لا تقل متاعبها عن تلك التي لا قاها بالأمس الذين نهضوا لجمع النصوص وتدوينها . فمثلما كان على المؤرخين الذين بدأوا تدوين التاريخ العربي بعد الإسلام أن يطرقوا كل باب لسماع خبر، أو نقل نص .. أصبح على الذين يكتبون في التاريخ أن يقفوا عند كل خبر رواه القدامى، أو نص نقلوه؛ لتجريد الحقيقة من الخيال والظنون؛ فليس كل نص معصومًا من المبالغة، وليس كل خبر حقيقة لا ريب فيها ؛ فمن كاتبي النصوص الحجرية عاميون لا يطمأن إلى معلوماتهم، ومن رواة الأخبار قصاصون لا يتورعون عن خلط ظنونهم بحقائق ما يسمعونه ويرونه.

---

(١) لسان العرب، مادة نصص ٣/٩٨ .

٣- ونصوص التاريخ القديم التي بين أيدينا لم تجمع إلا في العصر الإسلامي، ونصوص التاريخ التي جمعت في العصر الإسلامي وجدها القدامى من الرواد في أسفار بني إسرائيل، وفي مؤلفات اليونانيين، وفي تراث الفرس، والسريانيين، واللاتينيين ؛ وفي آثار أمم الماضي .. منها ما هو بالخط اليوناني، ومنها ما هو بالخط العبري، ومنها ما هو بالخط السرياني، ومنها ما هو بالخط المسماري، ومنها ما هو بالخط الثمودي، ومنها ما هو بالخط الحميري؛ ومنها ما هو بلغتي الفرس واليونانيين، ومنها ما هو بغير لغتيهما. وإذا كنا نجد المدونات الإسرائيلية والفارسية غارقة في الخيال. فكذلك نحن نجد الخيال متراكمًا على المدونات اليونانية والسريانية؛ فالمبالغة في الخيال الواضحة في (الإلياذة) اليونانية وفي قصة (مغارة الكنز) السريانية، لا تقل عن مبالغات الخيال فيما ألفه الفرس عن ملوكهم وأبطالهم، وفيما قاله العبرانيون عن دولة أنبياء بني إسرائيل؛ لذلك قال المستشرقون : (إن المواد المستمدة من القصص اليهودي والمسيحي كانت منذ أمد بعيد قد وجدت سبيلها إلى التاريخ العربي تحت ستار تفسير القرآن، وهو أمر لم يكن في مصلحته تمامًا وكذلك كان أثر الرواية الفارسية فيه سيئًا)[1] .

٤- زد على ذلك : أن أخبار الأمم العربية في المدونات الإسرائيلية كان أكثرها محدودًا في نطاق ضيق، وخاضعًا للخصومة التي كانت بين بني إسرائيل والعرب في سوريا وفلسطين منذ هجرة بني إسرائيل من مصر؛ فالأسفار الإسرائيلية لم تتحدث عن كثير من أحقاب التاريخ العربي. فهي لم تذكر (الثموديين) ودولتهم في شمال الحجاز، والأسفار الإسرائيلية عندما تتحدث عن العرب تتحدث عنهم أعداءً لدولتها كافرين بعقيدتها، فهي لذلك تحرص على ذكر الجوانب المظلمة من حياتهم.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٤/ ٤٩١ .

ولقد أقبل المؤرخون العرب على جمع النصوص الإسرائيلية بكل ما فيها من حملات على الخارجين على بني إسرائيل ، وبكل ما فيها من غيظ دفع الإسرائيليين إلى إخراج العماليق من نسب الساميين، كما يؤكد ذلك (جواد علي)[١] . وهذا الحقد هو الذي جعلهم يخرجونهم من قائمة النسب التي تربطهم بالساميين . ولقد أقبل العرب على النقل من التوراة بدافع الاعتقاد في أن التبديل والتحريف الذي حدث في كتب بني إسرائيل كان محصورًا في التأويل، كما قال ابن عباس: إنما بدلوه وحرفوه بالتأويل[٢] . وأقبل المؤرخون العرب على ما في النصوص الإسرائيلية من أنباء بدافع الرغبة في معرفة أخبار العالم القديم التي وجدها بعضهم فيما قرأه من الأسفار، وسمعها بعضهم ممن وثق فيهم من أصحاب الكتاب[٣] .

٥- وأقدم الأخبار التي وردت في المؤلفات اليونانية عن البلاد العربية . هي الأخبار التي ذكرها (هيرودتس) المتوفى سنة ٤٠٦ق.م، عندما كتب عن الحروب بين الفرس والمصريين، ثم (بروسوس) المتوفى سنة ٣٠٠ق.م، فقد ذكر دولة عربية قامت في بابل. ويرجع تاريخ العرب الذين ذكرهم (هيرودتس) إلى القرن السادس قبل الميلاد. ويقول (بروسوس) : إن الدولة العربية التي قامت في بابل استمرت مئتين وخمسة وأربعين عامًا[٤] .

وما جاء فيما نقل عن هيرودتس، وبروسوس. يعدّ أكثر وأعمق من الأخبار التي نسبت إلى غيرهما من المؤرخين اليونانيين في عصر ما قبل الميلاد. وما نقل عن هيرودتس وبروسوس يُعد نصوصًا ذات قيمة ، على ما هي عليه من إيجاز ، وعلى ما

---

(١) تاريخ العرب ٢٦٥/١ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ٨/١ .

(٣) راجع بحث : الأسفار مصدر من مصادر التاريخ .

(٤) العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان ، ص ٢٦ و ٥٢ .

فيها من غموض تراكم بتراكم الزمن على أخبار ما قبل الميلاد. وما نقل عن هذين المؤرخين لا يتجاوز شمال الجزيرة وسواحلها، ولا يسد فراغ تاريخها الواسع في ذلك الماضي الحافل بالأحداث.

ولقد احترم المؤرخون العرب القدامى ما وصل إليهم من تراث ما قبل الميلاد، واعتمدوا عليه فيما دونوه عن الأمم الغارقة في القدم[1] .

ونحن إذا ما انتقلنا من فلسطين إلى مصر نجد (جون ويلسن) يقول عن النصوص الفرعونية : إنها كثيرة الأنانية، لا تتحدث إلا عن كل ما هو فرعوني. أما عن العماليق الذين أطلق عليهم اسم (هكسوس) أو (شاسو)[2] ، فلم تتحدث عن حضارتهم وتاريخها في مصر . فمما قاله جون ويلسن عن الهكسوس في مصر: (فإذا ما أردنا التحدث عن الهكسوس أنفسهم، فإننا نرى أمامنا ظاهرة محيرة هي : عدم وجود وثائق مكتوبة عن عصرهم، فإذا كان الغزو ذا أثر سيئ كما تقول فكيف سكتت الكتابات المصرية سكوتًا تامًا!؟ ... وجوابنا على ذلك هو : طبيعة وغرض النصوص المصرية نفسها، فهي كانت تهدف إلى تسجيل ما هو خالد، ولم تعن بالأشياء الزائلة؛ وكانت لا تهتم إلا بما يخلد مظاهر الحياة التي شعروا بأنها تمثل خير تمثيل ما تريده الآلهة لمصر؛ فلهذا لم تستسغ عقليتهم، أو نفسيتهم، أن يكون هناك باعث لتسجيل إذلال وطني لهم. وهم يسجلون مثل هذا الحادث عندما ينجحون في طرد الهكسوس. فعندما أقاموا احتفالاً في مدينة (صان ـ الحجر) في شمال شرق الدلتا ـ كانت (صان)[3] عاصمة في عصر الأسرة التاسعة عشرة، كما كانت عاصمة الهكسوس في عصر الفترة

---

(1) راجع بحث : **فكرة التاريخ وتراث ما قبل الميلاد**.

(2) **العرب قبل الإسلام**، ص٧٠ وما بعدها .

(3) هي مدينة (صان الحجر ـ سايس)، ونلفت النظر إلى أن (الحجر) اسم عرفت به أكثر من مدينة في الجزيرة العربية. راجع كتاب : **مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي**، و**معجم البلدان**.

الثانية من قبل؛ ولم يكن من المعقول أن تعيد الأسرة التاسعة عشرة المجد لذلك المكان بدون أن تتجاهل تلك الحقيقة وإلا تكون قد أقرت بها. فقد فضلوا الإقرار بما حدث ولكن بطريقتهم في إيجاد حل وسط، وهذا الحل هو أن يحتفوا بذكرى حكم الإله المصري (ست) الذي كان يعترف به الآسيويون[1] أيضًا كإله لهم، وقد أقاموا لوحة نقشوا عليها رسم الملك يقدم الاحترام للإله (ست) وهو يلبس الملابس الآسيوية. وبهذا التدبير اللطيف اعترف المصريون بتأسيس مدينة (صان الحجر. تانيس) كمدينة مهمة على يد الهكسوس دون أن ينسبوا إلى الهكسوس أي فضل في هذا الأمر)[2].

فما وصل إلى علم المؤرخين العرب في الماضي عن (إبراهيم) و(يوسف) و(موسى). جاءهم عن طريق القصص الإسرائيلي؛ فأقدم مؤرخ مصري هو (مانيتو) الذي صنف تاريخه باللغة اليونانية، ويقول عنه (برستد) : (ومانيتو عاش أيام بطليموس الأول الذي حكم مصر من سنة ٣٠٥ إلى سنة ٢٨٥ق.م)، ويقول عن مؤلّفه : [ولم يصل إلينا من كتاب (مانيتو) غير المقدمة، وكتاب (مانيتو) قليل الأهمية لارتكانه على روايات عامية وخرافات متداولة][3]. وما وصل إليهم عن الفتح الإسكندري والاستعمار البيزنطي، جاءهم عن طريق المؤرخين اليونانيين والبيزنطيين. وما وصل إلى علم المؤرخين العرب في العصر الحاضر عن (العماليق) و(المعينيين) جاءتهم به الآثار التي اكتشفت أخيرًا في وادي النيل.

وإذا انتقلنا إلى الشمال الشرقي من الجزيرة، إلى العراق، نجد النصوص الآشورية مشغولة بتفخيم الانتصارات الآشورية، حريصة على التقليل من شأن الأمم العربية التي اشتبكت مع الآشوريين في حروب دامية. فهي لا تتحدث عن ثروة العرب

(١) الإله (ست) إله آسيوي نقل عبادته إلى مصر الوثيون العرب. راجع تاريخ سوريا للمطران الدبس ٢٠٦/١.

(٢) الحضارة المصرية لمؤلفه جون ويلسن، ص٢٦٤ وما بعدها.

(٣) تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ص٣.

وحضارتهم؛ إلا عندما تتكلم عن انتصارات الجيش الآشوري وغنائمه التي غنمها من الممالك العربية في أطراف العراق والشام، من جمال وذهب وفضة وطيب، ولا تتحدث عن بسالتهم؛ إلا عندما تصف انتصارات آشور على العرب الأقوياء بسلاحهم وخبرتهم بحرب الصحراء[1] . ونجد النصوص الآشورية تعتمد على ما وصل إلى الآشوريين والكلدانيين من نصوص (سومورية) تشير إلى معارف القدامى عن أصل الخليقة وعالم ما قبل الطوفان.

ونجد المؤرخين العرب قد توصلوا إلى نصوص غير هذه التي اكتشفها الأثريون وتحدث عنها المستشرقون. واعتمدوا عليها فيما كتبوه عن الآراميين في العراق : النبط والسريان، وفيما قالوه عن (بابل) عاصمة الكلدانيين، وعن (نينوي) عاصمة الآشوريين، وعن طبقات دول الفرس والأسر الحاكمة[2] .

وإذا ما انتقلنا إلى جنوب الجزيرة، إلى (اليمن) ، نجد في (أخبار عبيد ابن شرية) و (التيجان لوهب بن منبه)، ملامح تمثل النصوص التبعية التي أغدقت الخيال على ملوك اليمن القدامى، وعنيت بفتوحاتهم، ونجد هذه النصوص، التي تظهر ملامحها على صفحات هذين المؤلفين المنسوبين لابن منبه وابن شرية، خاضعة للتحزب العنصري إذا ما تكلمت عن العدنانيين، ونجد القليل من المؤرخين هم الذين لم يتأثروا بهذه الملامح.

وهنا في قلب الجزيرة العربية يتحدث التاريخ العربي عن قوم (عاد) و (ثمود) و(جرهم) و(عبيل) و(طسم) و (جديس) وغيرهم من الأمم العربية التي أطلق عليها المؤرخون العرب اسم (العرب البائدة). ومصدر المؤرخين العرب فيما قالوه عن العرب

---

(١) **تاريخ جواد علي** ٢/٢٩٩ وما بعدها .

(٢) الطبري، وابن خلدون، وكتاب **سني ملوك الأرض** لحمزة الأصفهاني.

البائدة هو الأخبار التي كان الجاهليون يتناقلونها عبر الأجيال، فلقد جاء في الفهرست لابن النديم : أن (هشامًا الكلبي) ألف كتابًا خاصًا بتسمية من نقل عن عاد وثمود والعماليق وبني إسرائيل من العرب[1] .

وقال جواد علي عن قوم عاد : (ويدل خبر عاد في القرآن وفي الشعر الجاهلي على أن القصة كانت شائعة بين العرب الجاهليين، معروفة عندهم، وأنهم كانوا يتصورون بأن قوم (عاد) كانوا من أقدم الأقوام، ولذلك ضربوا بقدمهم المثل. وقد وردت قصة هود مع قومه ونهيه لهم عن عبادة الأوثان في القرآن الكريم. وجمع المفسرون القصص التي قيلت فيه، وهي في الجملة من أقوال (كعب الأحبار) و(وهب بن منبه). و(كعب الأحبار): يمني يهودي العقيدة قبل إسلامه و(وهب ابن منبه) فارسي الأصل عاش في اليمن، وكلاهما مطلع على المدونات القديمة. فلقد قال (وهب بن منبه) : لقد قرأت اثنين وتسعين كتابًا أنزلت من السماء. اثنان وسبعون منها في الكنائس وفي أيدي الناس، وعشرون لا يعلمها إلا القليل)[2] .

إذن (كعب الأحبار) و(وهب بن منبه) رويا للمفسرين عن مصادر كان الكثير منها في الكنائس وفي أيدي الناس، وكان النزر منها لا يعلمه إلا القليل. ولعل العرب نقلوا من هذه المصادر قصصهم التاريخي، وتحدث به شعراؤهم جاهليين ومخضرمين : (أمية ابن أبي الصلت) و(طرفة) و(النابغة) و(زهير) و(مالك بن نويرة) وغيرهم[3] . وربما رجع إلى هذه المصادر بطليموس الذي نقل عنه جواد علي : [أن قوم (عاد) كانوا يسكنون في الأرضين الشمالية الغربية من شبه جزيرة العرب في أعالي الحجاز وعلى مقربة من

---

(١) الفهرست ، ص١٤١.

(٢) تاريخ العرب لجواد ٢٣٦/١ - ٢٣٧ ، وراجع ترجمة كعب الأحبار وابن منبه في هذا الجزء.

(٣) تاريخ الطبري ١٦٢/١ .

مناطق (ثمود)][1] . ويؤكد بطليموس ما جاء في معجم (ياقوت الحموي) عن مساكن عاد في وادي القرى، فقد قال : [وقرح. سوق وادي القرى، وقيل بهذه القرية كان هلاك عاد قوم هود][2] .

ولا غرابة فيما نجده من روايات جاهلية عن (ثمود)، فلا بد أن آثار الثموديين في الحجاز لفتت نظر الأجيال الجاهلية، واستمعوا لمن بقي من الثموديين المحتفظين باسمهم إلى ما بعد الميلاد، ولا بد أن يكون في كل جيل جاهلي رجال اهتموا بأخبار أمم الماضي مثل : (قس بن ساعدة)، ولا يبعد أن يكون أولئك الرجال قد اطلعوا على تلك المصادر التي اطلع عليها (وهب بن منبه) وقرأوا الخطوط الثمودية، فرووا عن تلك المصادر والخطوط أخبارًا تناقلها الجاهليون، كما روى (كعب) و(ابن منبه) عنها قصصًا تناقلها المؤرخون بعد الإسلام. ومما هو جدير بالإشارة إليه أن التوراة لم تذكر شيئًا عن ثمود[3] .

ويقول (جرجي زيدان) عن (طسم) و(جديس) : [إن هذين الاسمين مقترنان في تاريخ العرب. اقتران عاد وثمود، والاكتشافات الأثرية لم تصل إليهما بعد. فنكتفي بما يستنتج من كلام العرب واليونان][4]. وينقل جواد علي عن مجلة الهلال السنة الخامسة: [أن جرجي زيدان ذهب إلى أن طسمًا) هي (لطوشيم) وهي قبيلة وارد اسمها في التوراة]. وينقل جواد علي عن بعض المستشرقين. أنهم قالوا : إن بطليموس ذكر (جديسًا) في جغرافيته، وإنهم كانوا معروفين في سنة ١٣٠ب.م. ويقول جواد علي :

(١) معجم البلدان ٤٨/٧و٤٩ .

(٢) تاريخ العرب ٢٣٤/١ ومعجم البلدان ٤٨/٧و٤٩ .

(٣) راجع بحث الأسفار في هذا الجزء.

(٤) العرب قبل الإسلام ، ص ٧٩.

[ويرى المستشرق الفرنسي (كورين دي برسفال) أن إغارة (حمير) على (جديس)، وهلاك (طسم) و (جديس) نتيجة لهذه الغارة، إنما كانت حوالي سنة ٢٥٠ب.م][1] .

وعن قبيلة (عبيل) التي قال عنها المؤرخون العرب : إن منازلها في منطقة المدينة، وإن مهلكها بالجحفة. قال جواد علي : [ورد اسم (عوبال) في التوراة، وقال بعض علماء التوراة: إن من الممكن أن يكون (عبيل) هو (عوبال)]. وقال عن شعب (وبار): [وجاء في جغرافية بطليموس اسم شعب قال عنه المستشرقون إنه شعب (وبار)][2] .

فعلى ما جاء في بحث جرجي وجواد. أن ما يتحدث به العرب الجاهليون، والمؤرخون الإسلاميون عن (عاد) و(ثمود) و(طسم) و(جديس) و(عبيل) و(وبار) له أصل وصل إليه اليونانيون، مثلما كان لما قاله العرب عن (الكلدانيين) و(الآشوريين) و(الكنعانيين) الذين انتقلت منهم : قبائل من (الخليج الإسلامي. العربي) إلى سوريا، وعرفوا هنالك باسم (الفينيقيين). أصل في المصادر غير العربية، فهذه النصوص وغيرها التي تحدثت عن الشعوب العربية في العصور الجاهلية. تلك الشعوب التي استعمرت كل جزء من أرض الجزيرة، والتي سيأتي ذكرها مفصلاً في الجزء الخاص بجغرافية الجزيرة العربية القديمة. هذه النصوص تثبت أن ما جاء في مؤلفات المؤرخين العرب لم يكن من وحي الخيال الذي لا يصدر عن مراجع تاريخية .. بيد أن ما دوّنه العرب من تاريخ ما قبل الميلاد قليل وغامض ومشوش بالنسبة للدول العربية في تلك العصور البعيدة، وأن ما دونه العرب يحتاج إلى دراسة على ضوء ما وصلت إليه معارف الأثريين ونتائج المحققين .

---

(١) العرب ٢٥٣/١و٢٥٤.

(٢) تاريخ العرب ٢٥٦/١و ٢٥٨.

فالتاريخ العربي بدأ - كما قلت في الجزء الأول : التاريخ العربي وبدايته - من عصر (إبراهيم) الذي رفع قواعد البيت و(إسماعيل) . وعهد إبراهيم يرجع إلى بداية الألف الثاني قبل الميلاد. والأمم التي سكنت بجوار البيت مع إسماعيل وبعد إسماعيل، والأمم التي سكنت المدينة دار الهجرة، حظيت جميعها بعناية المؤرخين العرب وغير العرب الذين وجدوا نصوصًا تاريخية أتاحت لهم معرفة الذين سكنوا (مكة)، والذين سكنوا (المدينة) .. من فجر تاريخ هاتين المدينتين المقدستين إلى عصر (قريش) في مكة و(الأوس والخزرج) في المدينة، كما توارثت الأجيال أرض الجزيرة: نجدها ويمنها وعراقها وشامها، وسطرت عليها تاريخًا نحن في حاجة إلى معرفته.

٦- ونحن إذا ما طوينا صفحة التاريخ العربي قبل الميلاد، ونشرنا صفحة التاريخ العربي بعد الميلاد، نجد نصوص التاريخ العربي بعد الميلاد أكثر تفصيلاً ووضوحًا ومصادر من نصوص تاريخ ما قبل الميلاد؛ فتاريخ العراق ارتبط بالفرس الساسانيين آخر الأمر بعد أن أخفقت قبيلتا (قضاعة) و(إياد) وحلفاؤهما في تحرير العراق من النفوذ الفارسي، فامتزج تاريخ (المناذرة - اللخميين) بتاريخ (الفرس - الساسانيين) الذين وصل نفوذهم إلى اليمن - وارتبط تاريخ (الحيرة) بتاريخ فارس.

وارتبط تاريخ (سوريا) بالروم منذ نشأت دولة (أذينة) في (تدمر)، ومنذ نشأت دولة (النبط) في (بطرا)، ومنذ نشأت دولة الغساسنة في (البلقاء). وعلى اختلاف العلاقات التي ربطت بين (الروم) و(العرب)، والتي كيفتها الأحداث التي مرت بأرض العروبة، كانت نتائجها في غير الجانب العربي، فقد أصبحت سوريا جزءاً من الإمبراطورية الرومانية، وأصبحت المطامع الرومانية تتطلع إلى قلب الجزيرة، بعد أن ذابت دولة النبط من الوجود كأن لم تكن. وأخذت تلك المطامع تزداد مع الزمن الذي لم يكن في مصلحة العرب، وتتربص الفرص لتحقيق ما عجزت عنه حملة القيصر (أوغسطس) التي هبطت مرفأ (لويكة كومة) سنة ٢٤ أو ٢٥ ق.م، لغزو العرب في عقر

دارهم وباءت بالخيبة، كما جاء في تاريخ جواد علي[١]، وحملة (أوليوس غاليوس) قبل سنة ٢٥ق.م، كما يقول جرجي زيدان[٢] - تلك الحملة التي أراد منها (الروم) أن تفعل ما فعله غزو (بختنصر) الذي سبقها بنحو خمسمائة وثمانين عامًا، فبلغ (تيماء) التي اتخذها (نبونيد) مقرًا له سنة ٥٥٢ إلى سنة ٥٤٥ ق.م[٣].

وعلى أرض الدولتين العربيتين : أعني دولتي المناذرة والغساسنة - قام صراع عنيف وطويل بين أكبر إمبراطوريتين : الكسروية الساسانية، والقيصرية الرومانية، وكانت أرض العراق تارة، وأرض سوريا تارة أخرى، ميدانًا لتلك الحروب المتكررة، وكان موقف اللخميين في صف الساسانيين، وموقف الغساسنة في صف الرومانيين.

فارتباط تاريخ العرب في العراق بالفرس، وارتباط تاريخ العرب في سوريا بالروم، جعل الكثير ممن عنوا بتاريخ الفرس والرومان يتحدثون عن تاريخ الشعوب العربية في الهلال الخصيب، مثلما جعل الذين عنوا بتاريخ العرب يتحدثون عن تاريخ الفرس والروم، وعن المدى الذي بلغه فهم العرب مجرى الأحداث العالمية، والذي ظهر واضحًا عندما تحزب المسلمون للدولة الرومانية الكتابية ضد قريش التي تحزبت لدولة الساسانيين الوثنية .. وظهر واضحًا في مواقفهم المشرفة بجانب اللخميين والغساسنة والحميريين ضد الفرس والروم، مثل موقفهم في (يوم ذي قار)، وفي يوم (الصفقة)، إلى غيرها من المواقف التي تحدث عنها شعراء الجاهلية فلفتوا الأنظار بما نظموه في أيام العرب، وفيما أشاروا إليه من أحداث الجزيرة وامتداد النفوذ الفارسي إلى اليمن عبر الخليج الإسلامي، واصطدام المسيحية باليهودية في نجران.

---

(١) تاريخ العرب لجواد ٩٧/٨ .

(٢) العرب قبل الإسلام، ص٢٧ وما بعدها، فقد ذكر جرجي : أن وفاة (استرابون) الذي رافق الحملة كانت سنة ٢٤ ق.م.

(٣) تاريخ جواد ٣٣٥/٢ .

فلقد حفظ المؤرخون العرب القدامى مثل (ابن جرير) و (ابن خلدون) و(أبي الفرج الأصفهاني) و(ابن عبد ربه) - أخبارًا عن دولتي سوريا والعراق العربيتين تجدها نثارًا في كتب التاريخ والأدب والتراجم والأنساب، وتجد رواتها يرفعون إلى ذلك الرعيل الذي صارت أقواله عند المؤرخين نصوصًا تاريخية. مثل: ابن الكلبي وغيره ممن سنتكلم عنهم في هذا الجزء. كما جمع المؤرخون العرب المعاصرون مثل: (جرجي زيدان) و(جواد علي) و(كرد علي)، وغيرهم ممن اهتموا بالتاريخ العربي القديم، أقوال المؤرخين اليونانيين والبيزنطيين والفرس الذين انبروا للكتابة في تاريخ الشرق الأوسط. ويقول جرجي زيدان: إن اليونانيين ذكروا دولاً وقبائل وأماكن لم يعرفها مؤرخو العرب على الإطلاق كدولة (الأنباط) و(المعينيين) و(السبئيين) وغيرهم مما سنأتي على تفاصيله[1].

ونحن لا نعجب إن وجدنا الجاهليين يتحدثون عن دولة (كندة) التي نشأت في (غمرة ذي كندة) كما جاء في معجم البلدان لياقوت[2]، أو (بطن عاقل جنوب (وادي الرمة كما قال غيره[3]؛ فمملكة (كندة) ذات مساحة مترامية في قلب الجزيرة، وملوك كندة يعدون من الشعوب القحطانية، وأسرتهم من الأسر البارزة في جنوب الجزيرة وفي شمالها. وقد كانت النسأة فيهم[4] كما جاء في (أخبار مكة) للأزرقي.

ولا غرو! إن وجد (هشام الكلبي) نصوصًا شتى تتيح له تأليف كتابه (ملوك كندة). فلملوك كندة تاريخ حافل بالأحداث، منه ما يتعلق بملوك (الحيرة) اللخميين، ومنه ما

---

(١) العرب قبل الإسلام، ص٢٧. للبحث تعليق على هذا القول سيأتي. فالمؤرخون العرب يعرفون سبأ وغيرها من الدول التي ذكرها اليونانيون.

(٢) معجم ياقوت مادة (غمر).

(٣) تاريخ العرب لجواد ٢٣١/٣.

(٤) النسيء شهر كانت العرب تؤخره في الجاهلية. والعظماء في الجاهلية هم الذين كانت لهم النسأة أي تأخير الأشهر.

يتعلق بملوك (البلقاء) الغساسنة، ومنه : ما له علاقة بالفرس وما له علاقة بالروم. ومن ملوك كندة : أمير شعراء الجاهلية (امرؤ القيس) .

ومثلما حفظ الشعر الجاهلي نصوصًا تاريخية في حياة (امرئ القيس) وحروبه في سبيل أخذ الثأر لأبيه ورحلته إلى ملك الروم، كذلك حمل الشعر الجاهلي نصوصًا تاريخية عن حياة (المهلهل)[1] وأخيه (كليب)، وعن الحروب الطويلة التي خاضها ليأخذ بثأر أخيه؛ فالمهلهل - في تحقيقات مؤرخي الشعر الجاهلي - هو الذي هلهل الشعر .. وشعر المهلهل أكثره نظمه في الحروب التي عرفت في التاريخ الجاهلي بحرب البسوس. والشعر الذي قيل في حرب البسوس يعد من أقدم الشعر الجاهلي[2]، ومن أكثره انتشارًا.

وأخبار الشعوب التي سكنت المدن الحجازية : مكة، المدينة، الطائف، مدين وغيرها - من أكثر الأخبار انتشارًا في الجاهلية، ففي مكة البيت الحرام، والبيت الحرام قدسته اليهودية كما قدسته المسيحية، وإلى المدينة هاجر اليهود انتظارًا لنبي آخر الزمن، ومن المدن التي اشتهرت بالكتابة والقراءة (الطائف)، ومن المدن التي تحدثت عنها الأشعار (أرض مدين). فكل هذه الأسباب وفرت للمؤرخ نصوصًا تاريخية أضاءت جوانب مهمَّة في تاريخ الحجاز.

٧- والمؤرخ الذي يبحث اليوم في تاريخ الشرق العربي القديم - لا يستغني عن النصوص الأثرية التي وصلت إلى أيدي المنقبين عن الآثار. فعلى آثار البلاد العربية اطلع المهتمون بالتاريخ القديم على فصول مهمة من تاريخ الآشوريين، والبابليين في العراق،

---

(١) يقال : هلهل فلان شعره إذا لم ينقحه وأرسله كما حضره، ولذلك سمي الشاعر مهلهلاً. ومهلهل اسم شاعر، وهو امرؤ القيس بن ربيعة أخو كليب، وقيل سمي مهلهلاً ؛ لأنه أول من أرق الشعر - وقيل لرواد شعره. لسان العرب - ٧٠٦/١١.

(٢) قصة الأدب في العالم ٣٥٤/١.

والعماليق، والكنعانيين في سوريا وسينا ووادي النيل، والدادانيين والثموديين وغيرهم في وادي القرى، والمعينيين، والسبئيين والحميريين وغيرهم في اليمن.

ولقد أخذ المحققون ـ شرقيين ومستشرقين ـ يبحثون في النصوص الأثرية ويقابلونها بما لديهم من النصوص التي وجدوها في المدونات الكلدانية، واليونانية، والعبرية، والسريانية، واللاتينية، والعربية .. وأخذت الثقة المطلقة بالنصوص الأثرية تدفع بعضهم إلى اتهام النصوص المدونة التي تتعارض مع ما تحقق لديهم على ضوء النصوص الأثرية. ولقد قلت في الجزء الأول من هذا الكتاب: إنني لا أستبعد عن المؤرخين القدامى الذين تحدثوا عن العصور الغارقة في القدم، العثور على نصوص أثرية أفادتهم؛ فبروسوس عندما عين سني الدول القديمة بالنسبة للعصر الذي عاش فيه لم يرجع إلى التوراة، فالتوراة لا تزيد عمر الإنسان في هذه الأرض على بضعة آلاف من السنين، في حين وصل بروسوس بسني الدول إلى نصف مليون سنة تقريبًا[(١)].

٨- وعلى كثرة النصوص المدونة ـ القديمة منها والجديدة، ووفرة النصوص الأثرية الجديد اكتشافها والقديم، فإن جمع المواد التاريخية وتحقيقها وتصنيفها تاريخًا عامًا مرتبط الحلقات من بداية التاريخ العربي إلى فجر الإسلام هو ـ ولا شك ـ فوق طاقة الفرد. وما هذه المؤلفات التي تحمل أسماء تدل على العمومية مثل: (تاريخ الأمم والملوك) و (البداية والنهاية) و(ديوان المبتدأ والخبر)؛ إلا محاولات مهد بها المؤلفون القدامى الطريق لمحاولات جديدة قام بها الذين عنوا بالتاريخ العربي القديم مثل (الألوسي) في مؤلفه (بلوغ الأرب) و(جرجي زيدان) في كتابه (العرب قبل الإسلام) و(جواد علي) في كتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام).

---

(١) راجع بحث **دول ما قبل التاريخ** في الجزء الأول: التاريخ العربي وبدايته من هذا المؤلف ٦٣/١.

فعلى ما قدمته المحاولات القديمة من فوائد ضخمة لا يمكن جحود فضلها على كل من يبحث في تاريخ الشرق العربي، وعلى الخطوات الواسعة التي خطتها الدراسات التاريخية في العصر الراهن - ما زال مسلسل التاريخ العام تنقصه حلقات، وسيستمر كذلك ما لم يتصد لتأليف تاريخ عام جهد جماعي ترعاه دولة من الدول العربية الغنية - تهيئ لهذا الجهد التفرغ، والوسائل القادرة على جمع النصوص وتحقيقها، وربط حلقات البحوث المتناثرة في مؤلفات لا تجمعها لغة واحدة ولا يوحدها هدف واحد، إلى غير ذلك مما يحتاج إليه تأليف موسوعة تاريخية مرتبطة الحلقات.

٩- ونحن إذا ما انتقلنا من العصور الجاهلية إلى العصور الإسلامية نجد التاريخ العربي الإسلامي يبدأ بالسيرة والمغازي النبوية، وما أكثر عناية المؤرخين بالنصوص التي تألفت منها سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومغازيه، وتنحصر نصوص السيرة والمغازي في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وأقوال صحابته. ولقد تفرغ الكثيرون؛ لتحقيق كل حديث نبوي، وكل أثر صحابي، وبينوا المجمع على صحته من الأحاديث، والثابت من الأقوال المأثورة ، وأبدوا آراءهم في رواة الحديث والأثر.

ثم يأتي بعد السيرة والمغازي تاريخ الخلفاء الراشدين. والعناية بتاريخ الخلفاء الراشدين تأتي في المرتبة الثانية، لا سيما خلافة (أبي بكر) و(عمر). أما الأحداث التي وقعت بعدهما فكثير منها لم يسلم من التحزب للعلويين والتحزب للعثمانيين الأمويين.

ومن بعد الخلفاء الراشدين بلغت مواد التاريخ العربي من الكثرة وتعدد الموضوعات التاريخية ما حصر جهد المؤلفين في جمع النصوص كما وصلت إليهم دون أن يعيروا رواتها شيئًا من الاهتمام الذي بذلوه في معرفة رواة الحديث والأثر، وأخذت المؤلفات التاريخية تنتقل من الموضوعية إلى موسوعات في التاريخ السياسي والأدبي والاجتماعي، وفي تقويم البلدان وتراجم الأعلام وأرومات الأنساب إلى غيرها من الموضوعات التي تألفت منها ثروتنا التاريخية.

ومن أواخر العصر العباسي بدأت الغيوم تتكاثف وتحجب الأحداث التاريخية ـ لا سيما في قلب الجزيرة وشواطئها الغربية والشرقية والجنوبية ـ فلقد انزوت أقطار عربية في ظلام حالك حجب عن الأنظار حياتها، فجهل العالم ما يحدث فيها، وجهلت هي ما يحدث في العالم، بل من تلك الأقطار ما جهل أهله ما يحدث في أرضهم. وهذا ما جعل النصوص التاريخية لفترات طويلة من زمن البلاد العربية في مستوى النصوص الجاهلية في عصورها المظلمة: قلةً وغموضًا.

فتصفية نصوص التاريخ العربي الإسلامي من الشوائب، وتلخيصها في مؤلف واحد يطلق عليه اسم ـ التاريخ العربي الإسلامي العام ـ هو: أيضًا يحتاج إلى جهد جماعي تحتضنه دولة غنية من الدول العربية.

١٠- واليوم يتساءل الباحثون في التاريخ: ما هي نصوص تاريخ القرن العشرين التي ستطلع عليها الأجيال القادمة؟!

إنني أترك الجواب عن هذا السؤال إلى رجال المستقبل. وعليّ الآن أن أبحث في أرومات نصوص التاريخ العربي التي استندت إليها.

الفصل الثاني

التاريخ في القرآن

١- القصص القرآني.

٢- القصة في القرآن .

٣- الأمثال القرآنية .

٤- النص القرآني أصدق النصوص.

البحث الأول :

القصص القرآني

من موضوعات البحث :

١- أنباء الغيب في القرآن .

٢- قصص القرآن كان وما زال هدفاً للتهم والشكوك .

٣- المستشرقون يجددون الشك في قصص القرآن .

٤- لماذا نفند التهم المجددة؟

٥- جهل بعض المستشرقين بخواص اللغة العربية وجهل بعض الباحثين بحقائق التاريخ هما من مسببات الشكوك .

٦- حقيقة الأمثلة التي اعتمدت عليها الشكوك المتعثرة.

٧- ما أشبه رأي المستشرقين اليوم — برأي الخارجين عن الإجماع بالأمس.

٨- القرآن لم ينف عنه : ما جاء في صحف إبراهيم وموسى .

٩- طبيعة الشك هي التي جعلت المستشرقين يخلطون النص القرآني بأقوال المفسرين.

١٠- عودة بعض المستشرقين إلى محجة الصواب.

١١- ليس القرآن تاريخاً يتتبع الأخبار فصلاً فصلاً .

١٢- تطور البحث في قصص القرآن .

القصص القرآني

١- ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] صدق الله العظيم.

إن في هذه الآيات البينات تعريفاً واضحاً بما جاء في القرآن من قصص: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ . وإن في هذه الآيات إشارة صريحة إلى ذلك الجدل العنيف الذي أثاره خصوم الإسلام من قريش : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

٢- ولقد ظن الذين كانوا يجادلون في القرآن : أن تغليط القصص القرآني يمكن الوصول إليه عن طريق الكتابيين، فأخبار الأولين تحدثت عنها التوراة، وتحدث عنها الإنجيل، وتحدث عنها المؤرخون الفرس، والمؤرخون اليونان؛ فمن السهل الاستعانة بما دونه الفرس من أخبار الماضي، ونقل من الحيرة إلى مكة، فقد يكون فيه ما يشبه القصص القرآني، ومن السهل الاستعانة بيهود يثرب على هذا القرآن الذي حير قريشاً أمره، فما هو بالشعر الذي عرفوا : رجزه وهزجه !! وما هو بالسحر الذي عرفوا : نفثه وعقده !! وما هو بالكهانة التي عرفوا : زمزمتها وسجعها؛ وليس الشعر وليس السحر وليست الكهانة في شيء منه !! فما على المكذبين : إلا أن يوالي (النضر بن الحارث) الجلوس في مجلس محمد صلى الله عليه وسلم، والتحدث بما جمعه من تاريخ فارس وأساطير ملوكها وأبطالها . وما على المكذبين ؛ إلا أن يوفدوا إلى يثرب رجالاً يسألون يهودها عن القرآن، وعن رأيهم فيه!

---

(١) سورة هود، الآية : ٤٩ .

(٢) سورة هود، الآية : ١٢٠.

ففي مكة ملأت الأندية : أحاديث (النضر بن الحارث) و(عقبة بن أبي معيط)، وفي المدينة وضع اليهود أسئلتهم التي رجع بها الموفدون من قريش يسألون محمدًا صلى الله عليه وسلم : ما هي الروح؟ وكم كان عدد فتية أهل الكهف؟ ومن هو الرائد الذي جاب مشارق الأرض ومغاربها؟

ولم يكن القرآن من عند محمد صلى الله عليه وسلم حتى يجيبهم تلقائيًا، بل هو تنزيل من عزيز حكيم، فمكث محمد صلى الله عليه وسلم صابرًا ينتظر أن ينزل عليه الجواب، ومكثت قريش في شعابها تتربص الإخفاق لمحمد صلى الله عليه وسلم، ومكثت اليهود في آطامها تترقب ما يحدث، إلى أن جاء الحق فأخرس المجادلين من قريش، ولم يجد المكذبون من اليهود مطعنًا فيه[١].

٣- ولقد جدد المحققون في مصادر التاريخ : البحث في أخبار القرآن، فسار بعضهم في طريق المرتابين في قصص القرآن، فقالوا : إن في القصص القرآني أنباء لا تقرها الحقائق التاريخية الثابتة، وأنباء خلطت بين الأشخاص والزمان والمكان. واستشهدوا على الأنباء التي لا تقرها الحقائق : بكلام عيسى في المهد، وحجتهم في ذلك هي : أن كلام من كان في المهد صبيًا من الظواهر الفذة التي لا يمكن أن تسكت عن التحدث بها ألسنة الذين شاهدوا هذه الخارقة. فَلِمَ لَمْ يتحدث عنها النصارى وهم أتباع عيسى بن مريم؟!. ولِمَ لَمْ يذكرها اليهود مع أن أحبارهم شغلوا بالمعجزات؟

وقالوا : إن من الأنباء التي خلطت بين الأشخاص والزمان قصة (موسى) مع (فرعون) ، فإن (هامان) الذي كان وزيرًا في العصور الفرعونية جاء بعد مضي زمن طويل على وفاة (موسى) و(فرعونه). وقالوا : إن في القرآن قصصًا مكررًا. وإن القصص الذي تكرر في القرآن يختلف باختلاف القصد من تكراره، مثل : رحلة موسى

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٠٠.

مع أهله إلى مصر؛ فمن رأيهم : أن ما جاء في سورة (طه) عن موقف موسى في الوادي المقدس : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾[1] ﴿إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً﴾[2]، يختلف عما جاء في سورة النمل : ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[3] ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4]. وقالوا : إن العصا التي اهتزت في الوادي المقدس كأنها جان، ظهرت أمام فرعون ثعبانًا يلقف ما صنع السحرة، فالجان : هو الصغير الدقيق الأبيض من الحيات، والثعبان: هو الكبير الضخم منها. فالفارق جد كبير بين الجان والثعبان !!

٤ - إن هذا النقد - كما تراه - لا يعتمد على فهم لغة القرآن وأسلوبه، وعلى تحقيق متعمق في أنبائه، وإن النقاش في هذه الآراء وتفنيدها يعد من لزوم ما لا يلزم في بحث مصادر التاريخ العربي، لو لم أستهدف : وضع صورة واضحة للمصادر وفهمي لها - بين يدي القارئ، ولولا أن هناك بعضًا قد اقتنع بهذه الآراء فقال: (وهذه الأقوال وكثير غيرها إنما كانت؛ لأن المسلمين قد حرصوا الحرص كله على فهم القصص القرآني على أساس من التاريخ، ولو أنهم أعرضوا عن هذا الأساس، وحاولوا فهم القصص القرآني على أساس من الفن الأدبي لأغلقوا هذا الباب الذي جاءت منه الريح، ولسدوا على المشركين والمبشرين : السبل، وحالوا بينهم وبين الطعن في النبي صلى الله عليه وسلم وفي القرآن الكريم)[5].

---

(١) سورة طه، الآية : ٩.

(٢) سورة طه، الآية ١٠.

(٣) سورة النمل، الآية : ٧.

(٤) سورة النمل، الآية ٨.

(٥) القصص القرآني، ص٢٨ و٣٢.

فأين هذا النقد من حقيقة القرآن؟! إن القرآن لم ينزل تاريخًا يتحدث عن أخبار الأمم كما يتحدث عنها المؤرخون، فما جاء فيه من قصص جاء عبرًا تفرض الاستفادة مما حل بالماضين في بناء حياة سليمة من أخطاء الماضي وضلالاته.

٥- وإن اقتصار القرآن على العبر التاريخية لا ينبني عليه : أن القرآن لم يقصد في قصصه أحداثًا تاريخية، وأن العقلية الإسلامية أخطأت في فهمها : أن ما جاء في قصصه : حقائق تاريخية. وإننا لنجد أكثر من دليل يؤكد لنا : أن فهم القرآن على أساس من الفن الأدبي نبع من ظنون بعض المستشرقين، وأن النقد الذي قام على هذا الفهم لا يعتمد على معرفة تامة بأسلوب القرآن، ولا يعتمد على معرفة تامة بلغة القرآن وأسرارها وغريبها - فإذا كان (عمر بن الخطاب) يلتبس عليه معنى التخوف في الآية الكريمة : ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾[1]، إلى أن يفسره له شيخ من هذيل؛ لأن التخوف من لغة هذيل، وإذا كان (ابن عباس) يعترف بأنه كان لا يدري ما معنى ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[2]، إلى أن احتكم عنده عربيان في بئر، فقال أحدهما : أنا فطرتها أي بدأت حفرها[3] - فحريّ بأولئك المستشرقين أن يجهلوا الكثير مما جاء في القرآن، وأن يظنوا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم حرف اسم (إلياس) إلى إلياسين) في سورة الصافات لضرورة السجع[4] ؛ لأنهم يجهلون كما يبدو : أن العرب كثيرًا ما كانوا يزيدون أو ينقصون أو يبدلون حروف الأسماء الأعجمية، فتارة يقولون : إلياس، وتارة يقولون : إلياسين. كما يقولون تارة : ميكائيل، وتارة ميكائين.

---

(١) سورة النحل، الآية : ٤٧.

(٢) سورة الأنعام من الآية : ١٤.

(٣) تفسير الطبري ١٤/٧٧، والنيسابوري المهمش على الطبري، وراجع: مصادر الشعر الجاهلي، ص١٥٢ وما بعدها، وترجمة حماد الراوية في هذا الجزء.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة إلياس ٢/٦٠٥ .

ومثلما وقف جهل بعض المستشرقين بينهم وبين فهم القرآن على ضوء اللغة العربية، ومثلما وقف التعصب الصليبي بين بعضهم ومعاني القصص القرآني، فلم يبحثوا فيه بروح نزيه مخلص لوجه الحقيقة والعلم. كذلك وقف عدم التقصي بين بعض كتابنا العرب الباحثين في القصص القرآني، وحقائق التاريخ، فأخطأوا فيما هو صريح وواضح.

ومثلما تأثر بعض الباحثين العرب بآراء المستشرقين. قد يكون بعض المستشرقين تأثروا بأخطاء البحوث العربية المستعجلة، وقد يكون بعض المستشرقين استعانوا بها على علم بأخطائها في تغليط قصص القرآن. فمن البحوث المستعجلة: كتاب (أبو الأنبياء إبراهيم)، فقد جاء فيه: (كان ملوك الأرض قبل إبراهيم. أربعة: سليمان ابن داود عليهما السلام وذو القرنين. وكانا مؤمنين، ونمروذ وبختنصر)[1]؛ فلو أن مؤلف هذا الكتاب (حسني عبدالمجيد)، كلف نفسه مؤنة البحث لعرف: أن سليمان ولد بعد إبراهيم بنحو ألفي سنة وأن بختنصر ظهر على مسرح الشرق العربي بعد إبراهيم بنحو ألف وخمسمائة عام.

أليس مثل هذا التعجل في البحث. يحمل المستشرقين على اتخاذ هذا الفهم مرآة. للمعارف الإسلامية؟ أفلم يكن المستشرقون هم الذين اتخذوا من كتاب (قصص الأنبياء)، للنيسابوري. أنموذجًا لفهمنا القصص القرآني وثقافتنا التاريخية؟

ومما يستلفت النظر كذلك: أن يضع (عبدالوهاب النجار)، في كتابه (قصص الأنبياء)، مع الآيات التي ذكرت قوم (عاد)، والتي اعتمد عليها النجار فيما كتبه عن قصة (هود): الآية رقم (٤١) من سورة المؤمنون: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2] فلعل النجار اعتمد على ما جاء في تاريخ (ابن كثير)

---

(١) كتاب أبو الأنبياء - إبراهيم، ص١٦.

(٢) قصص الأنبياء - للنجار، ص٥٤و ٥٥ الطبعة الرابعة.

الذي ذكر هذه الآية في قصة (عاد) خطأ[1] قد يكون سببه : أن هذه الآية جاءت في سورة المؤمنون بعد قصة (نوح)، وقوم عاد نشأوا بعد قوم نوح، وفي أكثر السور ذكروا بعدهم - فلو أن النجار تدبر سورة المؤمنون لعرف من الجدل الذي قصته سورة المؤمنون ومن النهاية التي ختمت بها حياة الظالمين في هذه الآيات: أن القصة هنا تشير إلى (ثمود) قوم صالح لا على (عاد) قوم هود ، وأن موضع هذه الآية في قصة (صالح) لا في قصة هود[2] .

فهل يبعد عن الافتراض : أن يأتي مستشرق فيأخذ من وضع هذه الآية في قصة (عاد) قوم هود - دليلاً على أن القرآن يكرر القصة بأخبار متناقضة - فمرة يقول : إن قوم عاد . دمرتهم ريح صرصر . ومرة يقول : أخذتهم الصيحة؟

٦- وبعد ، فإذا كان علينا أن نفند المزاعم التي تصر على أن كلام عيسى في المهد لا تقره الحقائق التاريخية؛ لأن اليهود والمسيحيين القدامى لم يقولوا عنه شيئًا - فعلينا أن نعلم : أن عماد هاته المزاعم. هو : ما جاء في تفسير الرازي عن كلام عيسى (واعلم : أن اليهود والنصارى ينكرون : أن عيسى عليه السلام تكلم في زمان طفولته) إلى آخر ما نقله عن تفسير الرازي - (محمد أحمد خلف الله)، وبنى عليه رأيه : (هذه الأقوال وكثير غيرها قصد إليها - المبشرون والملاحدة ليثبتوا : أن القرآن من عند محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لو كان من عند الله لما وجدت فيه هذه الأخطاء التاريخية)[3].

فما جاء في تفسير الرازي يشير إلى نكران اليهود والمسيحيين : أن عيسى بن مريم تكلم في المهد . فالرازي لا ينكر : أن عيسى تكلم في المهد. وما جاء في تفسير الرازي جاء

---

(١) تاريخ ابن كثير ١/١٢٦ .

(٢) ابن جرير الطبري ١٨/ ١٥ وما بعدها.

(٣) الفن القصصي في القرآن الكريم، ص٢٥.

في تفسير النيسابوري (وعن اليهود والنصارى أنهم أنكروا تكلم عيسى في المهد قائلين : إن هذه الواقعة مما تتوافر الدواعي على نقلها ، فلو وجدت لاشتهرت وتواترت مع شدة غلو النصارى . في المسيح وفي مناقبه - وأيضًا : إن اليهود مع شدة عداوتهم له لو سمعوا كلامه في المهد بالغوا في قتله ودفعه في طفولته. وأجاب المسلمون من حيث العقل بأنه لولا كلامه الذي دلهم على براءتها (مريم) من الذي قذفوها به لأقاموا عليها الحد ولم يتركوها. ولعل اليهود لم يحضروا هناك ، فلذلك لم يشتغلوا وقتئذ بدفعه)[1] .

ونحن إذا ما أتممنا قراءة الآيات التي جاءت في سورة مريم نجدها تنتهي بقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾[2] ، فاليهود والنصارى اختلفوا في حقيقة عيسى بن مريم؛ فلقد زعم اليهود : أنه ساحر كذاب. فكفروا به. أما النصارى فاختلفوا فيه . فقال بعضهم : هو الله ، وقال بعضهم : هو ابن الله ، وقال آخرون هو : كلمة الله وعبده وهم مسلمة أهل الكتاب[3] .

ونحن إذا ما رجعنا إلى تاريخ المسيحية . نجد : أن (متى) كتب إنجيله باللغة (الآرامية) سنة ٥٠-٥٥ب.م ، ونجد الباحثين في إنجيل (متى) يقولون : في إنجيل (متى) ، سند طويل يصل نسب (السيد) بالنبي (داود)[4] - ونجد في سنة ٣٧٩ب.م : الخلاف يشتد وينتشر بين العامة . هل المسيح مولود أو غير مولود[5] ؟ - ونجد : في سنة ٤٢٩ب.م (نسطوريوس) ، يؤكد : أن مريم لم تلد إلهًا ، بل إنسانًا[6] - مما يدل على تبلبل استمر طويلاً .

---

(١) تفسير النيسابوري المهمش على تفسير ابن جرير ٤٦/١٦ .

(٢) سورة مريم ، الآية : ٣٤.

(٣) تفسير ابن جرير ٦٣/١٦ .

(٤) الروم ٤٠/١ .

(٥) الروم ٩١/١.

(٦) الروم ١٢٣/١ .

ونجد المؤرخين الذين عاصروا المسيح وكتبوا عن أخبار عصره لم يذكروه. ويقال: إن إشارة (يوسفوس. يوسف اليهودي) إلى السيد المسيح أضيفت إلى كتاب يوسف. فعلى سكوت المؤرخين انبنى شك بعض المسيحيين المتأخرين في وجود المسيح. وكذلك نجدهم لا يتحدثون عن المسيحية والمسيحيين إلا بعد انتشار المسيحية وازدياد المؤمنين بها. ويقول (عباس محمود العقاد): (والغريب في شأن هؤلاء العلماء. أنهم لم يكلفوا أنفسهم تفسيرًا مقبولاً لوجود المسيحيين بهذه الكثرة بعد جيل واحد من عصر الميلاد)[1] - ولقد تساءل (عبدالوهاب النجار): أين كان المسيح من عهد أن كانت سنه اثنتي عشرة سنة إلى أن بلغ تسعًا وعشرين سنة. فإن الأناجيل ساكتة عنه؟! إن الأوربيين يقولون: إنه ذهب إلى الهند وتلقى تعاليم بوذا[2] !!

إنني لم أعرض هذه الأقوال إلا لأبين: أن ليس من المفسرين من يغلط نص القرآن بحجة أن اليهود والمسيحيين لم يذكروا ما جاء في النص القرآني، وأن المفسرين كانوا أمناء في بحوثهم، فهم يذكرون النص ولا يكتمون اعتراض اليهود والمسيحيين عليه. ولأبين أن مولد المسيح ونشأته أحاط بهما كثير من الغموض بما جعل بعض المسيحيين يرتابون في وجوده، فضلاً عن كلامه في المهد. ومما يرد في كلام عيسى في المهد. ما جاء في سفر (لوقا) أن (مريم) ولدت (المسيح) في نزل جعل مأوى للرعاة[3] - ولعل ذلك هو الذي جعل النيسابوري يقول: ولعل اليهود لم يحضروا هناك، فلذلك لم يعملوا لدفعه. فمولده في نزل جعل مأوى للرعاة لم يلفت أنظار غير الذين تهمهم (مريم) - ولأبين أن المسيحية لم تلفت الأنظار إليها إلا بعد انتشارها، وأبين أن المسيحيين اختلفوا في حقيقة المسيح فبعضهم قال: إنه كلمة الله وعبده وبعضهم قال إنه إله أو ابن إله.

---

(١) **عبقرية المسيح - بحث**: تاريخ ميلاد المسيح.

(٢) **قصص الأنبياء**، ص٣٨٧.

(٣) **قصص الأنبياء**، ص٣٨٥. الطبعة الرابعة.

ولأبين أن الأسفار اليهودية والتاريخ المسيحي لم يسكتا عن كلام (عيسى ابن مريم) في المهد فحسب، بل سكتا عن كثير من أخبار طفولته وصباه، وأن اليهود والمسيحيين كانوا مختلفين في أمر المسيح. فلا غرابة إن لم يذكر اليهود كلام عيسى في المهد؛ فهم قد كذبوا برسالاته، فكيف يتحدثون من معجزاته؟! وهم لم يكونوا بجانبه ساعة مولده، وهم لم يتحدثوا عنه إلا بعد رجولته وقيامه بواجب رسالته، ولا غرو! إن لم يذكر المسيحيون كلام عيسى في المهد ؛ فالمسيحيون لم يكونوا مسيحيين إلا بعد أن آمنوا بعيسى، ولم يؤمنوا بعيسى إلا بعد أن أخذ يؤدي رسالته - ولم يؤد رسالته إلا بعد أن مضت ثلاثون عامًا أو أكثر من حياته، فما وصل إليهم من أخبار طفولته وشبابه وصل إليهم عن طريق اليهود. وموقف اليهود من المسيح ونكرانهم كل ما ثبت عنه، معروف للجميع.

فإذا كان علينا أن نأخذ بذلك المنطق الذي لا يصدق إلا بما تحدث به اليهود وقاله المسيحيون. فعلينا ألا نصدق بوجود الثموديين الذين لا تزال آثارهم باقية في شمال الحجاز، ونعد ذكرهم في القرآن من الفن الأدبي؛ لأن التوراة لم تذكرهم وعلينا ألا نصدق بوجود المسيح عيسى بن مريم نفسه، ونعد ذكره في القرآن من الفن الأدبي؛ لأن المؤرخين المعاصرين له لم يذكروه.

وإذا كان لا بد لنا من أن نوضح ما جاء في قصة (موسى) عن (هامان) - فعلينا أن نعرف : أن ما جاء في تفسير (الرازي) - هو أيضًا الدعامة التي اعتمد عليها رأي (خلف الله) الذي نقل في كتابه عن الرازي: (قالت اليهود : أطبق الباحثون في التواريخ: أن هامان ما كان موجودًا ألبتة في زمان موسى وفرعون) إلى آخر ما جاء في كتابه[1].. ونحن بعد أن عرفنا هذا ليس علينا أن نعيد القول في مواقف المفسرين وأمانتهم. فلقد

(١) الفن القصصي في القرآن، ص٢٥ وما بعدها .

سبق ذلك. وإنما علينا أن نعلم أن النيسابوري رد على اليهود الذين طعنوا فيما جاء في القرآن عن (هامان) بقوله: (إن الطعن في تاريخ اليهود المنقطع الوسط لكثرة زمان الفترة أولى من الطعن في القرآن المعجز المتواتر أولاً ووسطًا وآخرًا)[1] - وإن إشارة النيسابوري إلى انقطاع تاريخ اليهود مفيدة في إظهار الحقيقة؛ فلقد أثبت الذين تعمقوا في بحث مصادر تاريخ بلاد العرب : (أن التوراة التزمت الصمت من بداية هجرة الإسرائليين من مصر إلى ما بعدها زمنًا طويلاً)[2] .

زد على سكوت التوراة عن أحداث مهمة من تاريخ بني إسرائيل : أن (هامان) الذي جاء ذكره في القرآن لا يعدو أن يكون مهندسًا أمره فرعون موسى أن يوقد على الطين نارًا ويبني له صرحًا؛ لعله يطلع إلى إله موسى، فهل التوراة التي التزمت الصمت من بداية هجرة الإسرائليين من مصر إلى ما بعدها ذكرت المهندسين الذين كانت لهم مكانتهم في عصر الفراعنة جميعهم، ولم تذكر واحدًا منهم كان يسمى : هامان ؟!

وإذا كان عليّ أن أبدي شيئًا عما ظنه البعض اختلافًا في خبر موسى في الوادي المقدس ـ يثبت : أن كلاً من الخبرين قصة مستقلة، وأن ما ورد في سورة (طه) يختلف عما ورد في سورة (النمل)، وما جاء في السورتين يختلف عما جاء في سورة (القصص)، وعما قالوه على أساس هذا الظن : (إن الموقف واحد، وإن الحادثة واحدة، ولكن الوصف مختلف، والحوار غير الحوار، وحديث الرب العلي مع موسى النبي في موطن غيره في آخر ؛ فمقصد القرآن من قصة موسى في سورة (طه) غيره من قصة موسى في سورة (النمل) قصة مستقلة. ومن الوجهة الأدبية هذه قصة وتلك أخرى، وعلى هذا لا تكرار ولا اختلاف ولا تشابه)[3] !

(١) تفسير النيسابوري المهمش على الطبري ٤٦/٢٤ .

(٢) التاريخ الجغرافي للقرآن لمؤلفه نادي، ص١٨٨.

(٣) الفن القصصي في القرآن ، ص ٣٣ و ٣٤ .

إن ما قالوه ـ أولاً : (إن الموقف واحد ، وإن الحادثة واحدة ، لكن والوصف مختلف ، والحوار غير الحوار) يتعارض مع ما قالوه ثانيًا : (هذه قصة ، وتلك قصة) ـ ثم إننا لا نرى في اختلاف الوصف ، واختلاف الحوار ـ ما يخرج الخبر عن حقيقته التاريخية فالخبر في كل سورة يؤكد أن موسى رأى نورًا ؛ فآنس نارًا ، فأمر أهله بالمكوث ريثما يعرف حقيقة ذلك النور؟ هل هو : نار فيأتيهم منها بقبس ، أو أنه يجد على النار هدى؟! ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً﴾[1] . ثم أين الاختلاف الذي يجعل الحوار غير الحوار والقصة غير القصة؟ هل هو : اختلاف حرفية الألفاظ ـ مثل : (رأى - آنس ، وجذوة - شهاب)؟ أو ـ هو : اختلاف صياغة الجمل ـ مثل : (إذ رأى نارًا ـ وآنس من جانب الطور نارًا) ـ فإذا كان مثل هذا الاختلاف ـ يفرض علينا أن نقتنع بأن قصة موسى في سورة (النمل) قصة أخرى غير التي في سورة (طه) ؛ فعلينا أن تعتقد : أن قصة (هود) و(صالح) و(إبراهيم) و (يوسف) و(سليمان) في كل سورة هي قصة غير التي في السورة الأخرى ـ لوجود مثل ذلك الاختلاف !! وإذا كان هذا الاختلاف ينبني عليه من الوجهة الأدبية ـ استقلال قصة (النمل) عن قصة (طه) فعلينا أن نعتقد : أن أكثر من موسى أرسل إلى فرعون ؛ إذ لا بد لكل قصة من بطل ! وعلينا أن نعتقد : ألا وجود لموسى ـ وأنه من خيال الأدب الفني ، ونعتنق شكوك المستشرقين الذين شكوا في وجود الأنبياء : إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ـ ورجحوا : أن المسيح شخصية من شخصيات الخيال[2] وعلينا أن نفهم : ما جاء في القرآن عن إبراهيم وإسماعيل ، وأنهما رفعا قواعد البيت على أساس من الفن الأدبي لا على أساس أنه خبر عن حدث تاريخي !!

---

(١) سورة طه ، الآية : ٩٩.

(٢) **عبقرية المسيح** ، ص٨٠ .

ولقد نسي الذين يظنون ذلك الظن : أن القرآن لم يذكر موقف موسى في الوادي المقدس في هذه السور الثلاث فحسب، بل ذكره في سورة (الشعراء) وفي سورة (النازعات)، وأشار إليه في سورة (الفرقان) وفي سورة (السجدة) وأنه عندما أشار إلى الرسالة التي تلقاها موسى في الوادي المقدس قال في سورة السجدة : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[1] وقال في سورة الفرقان : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً﴾[2] ونسوا : أن القرآن قصد من تكرار الموعظة التاريخية رسوخها ولو أنها كررت حرفيًا لما كان لها أثرها في النفوس ـ وأن هذا هو أسلوب القرآن ـ المعجزة الذي لم يستطع فصحاء العرب أن يأتوا بسورة من مثله.

إن الذين لا يعرفون اللغة العربية وبلاغة أساليبها هم الذين لا يلاحظون أن اختلاف وصف العصا مرة بالجان ومرة بالثعبان اختلاف مقصود لا يخرج القصة عن حقيقتها؛ فتشبيه العصا بالجان يهتز أمام موسى في الوادي المقدس، ووصفها بالثعبان يلقف ما صنع السحرة أمام فرعون والجمهور الغفير الذي حضر ليشهد ما يصنع السحرة بموسى هو وصف دقيق للموقفين يزيد القارئ المحقق إيمانًا بصحة الخبر وأنه حدث تاريخي لا ريب فيه .

٧- وإنه لخليق بالبحث وقد ناقش الجدل المتجدد في القصص القرآني وما قاله ناقدوه عن موقف موسى في الطور : أن يشير إلى أن الجهمية أنكروا من قبل : أن الله كلم موسى؛ لأن الكلام لا يكون إلا من جوف وفم ولسان وشفتين، ويشير إلى ما أثاره هذا الإنكار من جدل شغل علماء المسلمين به وبالرد على من أنكر : أن موسى كلم الله؛

---

(١) سورة السجدة ، الآية : ٢٣ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٣٥ .

لنعلم : أن الأجيال كانت وما زالت تختلف في فهمه وفي تفسيره، وأن نقد القصص القرآني اليوم هو صدى للجدل الذي ما فتئ يتكرر منذ نزل القرآن.

فعلى ذلك نحن لا نستغرب إذا رأينا المستشرقين والذين خلبوا بآرائهم واعتنقوا شكوكهم : يثيرون في عصرنا الحاضر الجدل من جديد. ولا نستغرب إذا ما رأينا الخطأ في الفهم : يتكرر في قصة موسى عندما كان في الوادي المقدس يتلقى رسالة ربه وعندما كان في مصر يجادل فرعونها ويناظر سحرته وأخيرًا في قصة موسى مع العبد الصالح التي أخذ المستشرقون يجددون الشك الذي أثاره من قبل (نوح البكائي) ويشبهونها بالأساطير الهندية : ويقولون : إن (التشابه بين القصتين عظيم حتى لا يدع مجالاً للشك في أن القصة الواردة في القرآن أصلها القصة اليهودية)[1] ويجدّدون إنكار الوثنيين من قريش الذين قالوا : إن القرآن لم ينزل من عند الله، فمثلما قال المشركون من قريش : إنه أساطير الأولين تملى عليه، يقول المتعصبون من المستشرقين : إنه مستمد من التوراة ومن الإنجيل ومن أساطير اليونانيين والفرس والسريانيين؛ ومثلما لجأ القريشيون المتحجرة قلوبهم إلى (بِيَع الحيرة) و(أحبار يثرب) لجأ المستشرقون المتعصبة أفكارهم إلى التوراة وإلى الإنجيل وإلى ما وصل إليهم من تراث اليونانيين والسريان والفرس، وطفقوا يقابلون ما جاء في القصص القرآني بما ورد في المدونات التي سبقته، فإذا كان في القرآن نبأ سبق ذكره في التوراة أو في الإنجيل قالوا : إن محمدًا استمده من التوراة ومن الإنجيل، وإذا كان له ذكر فيما أرخه اليونانيون والفرس والروم قالوا : إن محمدًا علم هاته الأنباء من بعض الفرس والروم الذين استقروا في مكة وقالوا : أكثر من ذلك تجنيًا على الحقائق عندما أخذوا يقابلون النص القرآني بما جاء في أسفار السامريين قالوا : إن في القرآن أخبارًا مأخوذة من

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٦٠٧/٢.

السامريين الذين لم تعرف مدوناتهم إلا بعد الإسلام[1] وإذا لم يجدوا لأخبار القرآن ذكرًا في تلك المصادر قالوا : إنها ليست حقائق تاريخية إنما هي قصص أدبي جدير بالمسلمين أن يفهموها على أساس من الفن الأدبي لا على أساس أنها حقائق تاريخية.

٨- إننا نخطئ إن اعتقدنا : أن القرآن لا يذكر شيئًا مما جاء في التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم - فالقرآن ينص على ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[2] . وعلى أن مما جاء فيه موجود في صحف إبراهيم وموسى : ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۞ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[3] .

بيد أن تخطئة هذا الاعتقاد ليس معناه : أن القصص القرآني مستمد من التوراة أو غيرها . وأن ما جاء في القرآن من أنباء الماضي . هو : منقول من التوراة كما يظن بعض المستشرقين، فلو كان شيء من ذلك صحيحًا لما سكت عنه اليهود الذين كانوا يتابعون القصص القرآني ويسألون عنه ويجادلون فيه.

٩- ونحن لا نعجب : إن وجدنا بعض المستشرقين يخلطون نصوص القصص القرآني بأقوال المفسرين الذين اعتمدوا على مدونات أهل الكتاب وغيرهم، وعلى ما يرويه لهم اليهود في تفسير القصص القرآني، وتأليف قصص الأنبياء؛ لأن هذه طبيعة الشكوك لا سيما التي تمليها الخصومة ويسوق إليها التعصب. فلقد ربطت هذه الشكوك بين ما جاء في بعض التفاسير وفي بعض قصص الأنبياء . بين (الخضر) . وبين قصة موسى مع العبد الصالح . وخلطت بين نص سورة (الكهف) وبين الروايات التي جمعها المفسرون. ثم بنت على ذلك حكمها (يطلق جمهور المفسرين على هذا

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١١/٨٨ وما بعدها .

(٢) سورة النمل ، الآية: ٧٦.

(٣) سورة الأعلى، الآيتان : ١٨-١٩.

العبدالصالح : اسم الخضر. أما غيرهم فيجعلونه فتى موسى، وللتفسيرين أصولهما في الأساطير الشرقية. ويمكن تتبع القصة القرآنية وردها إلى مصادر رئيسة ثلاثة. هي: (ملحمة جلجمش) و(قصة الإسكندر) و(الأسطورة اليهودية الخاصة بإيلياء والرباني يوشع)[1] .. وفي القرآن قصة عن إلياس آخر وإن لم يصرح باسمه. وتذكر الأساطير اليهودية رحلة إلياس مع يوشع بن ليفي أتى فيها إلياس بمثل ما عمل ذلك العبدالصالح الوارد ذكره في القرآن. والتشابه بين القصتين عظيم حتى إنه لا يدع مجالاً للشك في أن القصة الواردة في القرآن : أصلها القصة اليهودية)[2] .

إننا لا نرى عجبًا إذا ما اتفق الخبر الوارد في القرآن مع ما جاء في التوراة، فهذا الاتفاق لا يزيدنا إلا ثقة في حقيقة هذا الخبر، فموسى الذي في القرآن هو : موسى الذي في التوراة، والأحداث التي وقعت للأنبياء تحدثت عنها الأسفار وتحدث عنها القرآن، ولكن الذي نلفت النظر إليه، هو : بُعْدُ الخيال الذي خلطه المستشرقون بالنصوص القرآنية عن حقيقة القصص القرآني؛ فالقرآن لم يقل عن نبي من الأنبياء أو صالح من الصالحين : إنه خالد على هذه الأرض لا يراه إلا عباد الله الصالحون؛ إنما أخيلة بعض المفسرين وبعض مؤلفي قصص الأنبياء والصالحين هي التي تصورت ذلك.

واستغلال المتعصبين ضد القصص القرآني من المستشرقين هو الذي جعلني ألفت النظر إلى ما جاء في كتاب (أبو الأنبياء إبراهيم الخليل) عن ملوك الأرض قبل إبراهيم، وإلى وضع (النجار) في كتابه (قصص الأنبياء) ما جاء في سورة المؤمنون عن (قوم ثمود)، ضمن الآيات التي نزلت في (قوم عاد).

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٣٤٧/٨ .

(٢) المصدر نفسه ٦٠٧/٢ و ٥٤١/١ وما بعدها.

١٠- فإصرار هذه الجماعة من المستشرقين على أن صحة ما جاء في قصص القرآن تتوقف على وجود أصل له فيما سبقه من كتب مقدسة ومصادر مدونة . تعسف رجع عنه الكثيرون . مثل : (توماس كارليل) الذي يقول في كتابه (الأبطال) : (لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدن من أبناء هذا العصر : أن يصغي إلى ما يظن من أن الدين الإسلامي كذب وأن محمدًا خداع)[١] ومثل : (غوستاف لوبون) الذي يقول في كتابه (حضارة العرب) : (ولم أجد في القرآن ما يعاب به الشرقيون . وما يمكن أن يعاب به)[٢] إلى غير ذلك مما جاء على ألسنة المستشرقين عن النصوص العربية وصحة أكثرها .

ثم هذه أخبار (عاد . المعينيين)[٣] وأخبار (ثمود) التي انفرد بذكرها القرآن والتي كانت إلى وقت قريب موضع شك المستشرقين - أصبحت أخبارًا ذات قيمة في البحوث التاريخية بعد أن اكتشف الباحثون آثارهم في شمال الحجاز وفي اليمن . ولا أراني مبالغًا إذا قلت : إن اتساع المعارف الأثرية . أقنع جمعًا من الباحثين غير قليل بأن القصص القرآني يشير إلى حقائق تاريخية[٤] .

١١- ولابد لي هنا أن ألفت النظر إلى أن هدف القصص القرآني لا يقتضي تفصيل أخبار الماضي وتتبع أحداثه مثلما تفصل التواريخ : الأخبار ، ونتتبع الأحداث؛ فالقصص القرآني ذكرى وموعظة . ونحن إذا ما رجعنا إلى القرآن وتلوناه سورة سورة - نجد القرآن حريصًا على ما ينير العقول ويهديها ، ويقوم الأخلاق ويوجهها . وينظم الروابط الاجتماعية ويصون الحقوق الفردية . يضرب الأمثال ويقص من أنباء الماضي

(١) كتاب الأبطال ١/٩٦ .

٢) حضارة العرب، ص ١٢٤.

(٣) راجع الجزء الخاص بجغرافية الجزيرة وشعوبها ، ففيه رجحت أن العاديين هم : المعينيون .

(٤) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب .

ما فيه موعظة وعبرة ليتجنب المؤمنون به : الأخطاء التي تورط فيها من سبقهم من الأمم؛ فلو أن القرآن ذكر جميع ما يترتب على كل ما أمر به ونهى عنه، وفصّل ما رغب في التفكير فيه : في السماء، والأفلاك، والأرض، وما خلقه الله عليها من إنسان وحيوان وزرع، وتحدث عن كل أنباء الماضي- لما وسعت القرآن أكبر مكتبة في العالم. ولما استطاع المسلمون أن يحفظوه ويحافظوا عليه. ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾[1].

فلا غرو! إن نحن لم نجد في قصص القرآن تاريخًا كاملاً لأمة من أمم الزمان الغابر. ولا غرو ! إذا كان قصص القرآن. جاء على صورة الخبر القصير، والقصة الواعظة والمثل المضروب، وإذا كان قصصه عني بالنتائج واكتفى بالإشارة والخبر القصير. ولا غرو! إذا كانت أنباء الأمم ومواقف الرسل تتكرر في القرآن، فإن الغرض الأول من ذكرها : العبرة. فكلما تكررت الموعظة زاد تأثيرها. ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[2].

١٢- أما جمع أخبار الماضين المتناثرة في سور القرآن وشرحها ، فهي المهمة التي اضطلع بها المفسرون، واستهدفها المؤرخون ، كل واحد منهم بمنطقه وما وصل إليه علمه ؛ فمن الطبيعي أن تتفرق الآراء، وتتنوع الأفهام، وتختلف أساليب البحث في القرآن، وتتطور مع تطور المعارف واتساع الآفاق العلمية، ومن الطبيعي أن يتجدد البحث في قصص القرآن تبعًا لما جد من معلومات في الحياة المتجددة. فعقلية إنسان اليوم الذي تعمق في بطن الأرض؛ ليعرف حقيقة الماضي، وانتقل إلى سطح القمر؛ ليدرس جيولوجية الأفلاك. غير عقلية إنسان الأمس الذي حجب عنه الزمن حياة

---

(١) سورة الكهف، الآية : ١٠٩ .

(٢) سورة يوسف ، الآية : ١١١ .

الماضي، فأخذ يبني حضارة مجددة على أساس تفكير له منطقه وموازينه، فلم يصبح اليوم الطوفان أمرًا عجيبًا. فلقد وجد في طبقات الأرض ورءوس الجبال ما يدل على حدوثه[1]. ولم يصبح استخدام سليمان الرياح: مستبعدًا، فعالم اليوم استخدم الرياح وتجاوزها.

ولذلك نرى الذين تحملوا مسئولية تفسير القرآن في العصر الحاضر يرجعون إلى ما جاء فيه عن خلق السموات وأفلاكها، وعن الجبال التي تمر مرّ السحاب. وعما شهدته هذه الأرض من أحداث أشار إليها قصص القرآن. ونرى المحققين منهم يزيلون من على قصص القرآن الخيال الذي جمعه بعض المفسرين من متعدد المراجع التي اعتمدوا عليها، ويزيلون عنه شكوك المتطرفين المتمسكين بعقلية القرن التاسع عشر الميلادي التي جعلت من قصص القرآن مجالاً للنقد والشك.

ونرى الشكوك المتجددة لم تأت بما يقنع الباحث في قصص القرآن: أنه من الأدب الفني الذي لا أصل له من التاريخ، فهل القصة في القرآن مثل قصصه؟!

(١) راجع البحث الثاني من الجزء الأول من هذا المؤلف الذي ظهر بعنوان: **التاريخ العربي وبدايته**.

البحث الثاني :

القصة في القرآن

من موضوعات البحث :

١- معنى القصة وفنيتها .

٢- قصص القرآن ليست متحررة من الحقائق .

٣- شطوط الباحثين في قصص القرآن .

٤- أمثلة أخطأوا في فهمها .

٥- هل القرآن لم ينف عنه الأساطير ؟!

٦- سر خطأ الظنون المتعثرة .

٧- روعة قصص القرآن لا شبيه لها .

القصة في القرآن

١- تشترك (القِصة) بكسر القاف مع (القَصص) بفتح القاف في معنى (الخبر) فالقصة: الخبر، وقصَّ عليّ خبره قصصًا أورده. وتشترك معه في معنى (البيان)؛ فالقصة: الجملة من الكلام، ونحوه قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[(١)]، أي نبين لك أحسن البيان. (القِصص) بكسر القاف جمع قصة[(٢)] والقصة المعروفة اليوم. هي: النوادر الخيالية. وأول ما بدأ تأليف القصة بدأ بشخصيات تاريخية اتخذت أبطالاً للقصص مثل: سيف اليزن، وعنترة بن شداد. ثم أخذ مؤلفو القصص لا يتقيدون بأيِّ شخصية حقيقية.

ومن الذين تصدوا للبحث في قصص القرآن، كثرة تأثرت آراؤها بأسلوب القصة الفنية، فانطلقت تفرض الخيال في قصص القرآن وتتلمس الأدلة على ذلك. ومن الذين تأثرت آراؤهم بفنية القصة، كثرة حصرت قصص القرآن، في نطاق القصة الخيالية والفن الأدبي فيها.

لا شك في أن لرأي الناقد الذي يستهدف فنية القصة الأدبية ويعتمد على مقاييسها، مجاله في مضمار القصة الفنية، وفي الموضوع الذي تعالجه. أهو: من شطوط الخيال غير الهادف؟ أم أنه خيال هادف يصور حقيقة من حقائق الحياة؟ وإن لحكم نقّاد القصة بمعناها الذي عرفت به اليوم قيمته الأدبية. أما في القصص القرآنية، فالموضوع يختلف، فليست مقاييس القصة الفنية مفروضة عليها؛ لأن

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣.

(٢) لسان العرب، مادة قصص ٧/٧٣.

القصص القرآنية شيء، والقصص الفنية شيء آخر. فالقصة التي احتلت مكانها اليوم في الأدب العربي لا تتقيد بالحقائق التاريخية، فلكاتب القصة مطلق الحرية في استلهام الخيال، وعلى كاتب القصة : أن يثير اهتمام القارئ بكل ما أوتي من قدرة أدبية وخيال خصب، فلا بأس عليه إذا هو خرج عن حقائق الحدث التاريخي - أو هو أسند إلى الشخصية التاريخية ذات الدور البطولي في روايته : كلامًا لم تقله، وفعلاً لم تفعله - ولا جناح عليه : إن شد أزر البطل بأعوان لا صلة لبطل القصة بهم، أو لا وجود لهم على الإطلاق، وإن هو وضع في طريق البطل : خصومًا خياليين؛ ليضفي على بطل القصة صورًا من الشجاعة والإقدام !! وأكثر من هذا لمؤلف القصة اليوم : أن يتخيل بطلاً خياليًا يسند إليه أحداثًا تاريخية.

٢- أما القصة في القرآن، فإنها حقيقة ليست من الخيال ولا الخيال منها، فما ورد في القرآن عن (هود) و (صالح) و(يوسف) هو : حقائق لامراء فيها، وما جاء في قص القرآن عن (إبراهيم) و(إسماعيل) هو : حدث تاريخي آمنت به الجماهير، روما جاء في القرآن عن (فتية الكهف) : حق لم يجد فيه اليهود مطعنًا. ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾[1].

٣- فلقد شط أولئك الذين اتخذوا : فنية القصة الأدبية وموازينها أساسًا لدراسة قصص القرآن، فمن الخطأ، أن يحسب أولئك النقاد - أن حرية القصة وجدت طريقها إلى قصص القرآن، وأن القرآن قصد إليها، وأن من ظواهر القصة الفنية في القرآن :إسناد بعض الأحداث لأناس في سورة ثم إسنادها إلى أناس آخرين في سورة أخرى، وأن من ظواهرها : إنطاق الشخص الواحد في الموقف الواحد بأقوال مختلفة، وإنطاق الفرد والجماعة بما لا يمكن أن يقوله الفرد أو الجماعة.

---

(١) سورة الكهف ، الآية : ١٣..

فبتأثير هذه الظنون قالوا : [إن هذه الظواهر تتجلى فيما قصه القرآن عن موسى في الوادي المقدس. وعن اليهود الذين قالوا : ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾[1]] وفي عباب هذه الظنون عامت بعض الأفكار. فسار بعضها بسلامة نية متحمسًا لفنية القصة، وخاض العباب بعضها مدفوعًا برغبة التشويش على القرآن، والتشكك فيما جاء في قصصه. فالشك إذا ثبت في جزء؛ افترض في بقية الأجزاء.

٤- فالأمثلة التي اتخذوها دليلاً على ما يقولونه عن القرآن، وأنه أسند أقوالاً وأفعالاً إلى أناس، ثم أسندها إلى أناس آخرين قاصدًا التحرر القصصي، يتضح انحراف فهمها إلى هذا النحو لكل من يتتبع تاريخ الشعوب التي أشار إليها القرآن؛ فأديان شعوب الماضي البعيد متشابهة في فلسفتها وعقول أصحابها، متقاربة في فهم حقيقة رب هذا الوجود، وهذا التقارب يظهر جليًا في وثنية (قوم نوح) و(قوم هود) و(قوم صالح) وأخيرًا في وثنية (قريش) بالرغم من فواصل الزمن، فلقد أثبت البحث في أديان الشرق العربي : أن (وُدًّا)، كان إلهًا عند (قوم نوح)، كما كان إلهًا عند (المعينيين)، وأن (اللات) كان إلهًا عند (ثمود) كما كان إلهًا عند (قريش). وأثبت أيضًا : أن عقيدة الثالوث المقدس اعتنقها اليمنيون، والسوريون والمصريون من قبل أن يولد (المسيح بن مريم)، بآلاف السنين. ولقد أشار القرآن إلى ذلك : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[2] .

وكذلك أثبت البحث التاريخي : أن شعوب الماضي القديم تنقلت في أنحاء الشرق العربي، حاملة معها عقائدها، وأفكارها، وتقاليدها، ولغاتها، وأسماء مدنها وأوديتها وجبالها إلى المكان الذي اتخذته بديلاً من وطنها الأول. كما فعل الكنعانيون في

(١) سورة النساء، من الآية : ١٥٧ .

(٢) سورة التوبة، الآية : ٣٠.

الماضي البعيد عندما هاجروا من شواطئ (الخليج الإسلامي- العربي) إلى شواطئ البحر الأبيض. وكما فعل الأوربيون في الماضي القريب عندما هاجروا إلى أمريكا - فهل ترك الكنعانيون أفكارهم وعقليتهم ومنطقهم في سواحل الخليج الإسلامي؟ وهل ترك الأوربيون عقيدتهم ومنطقهم وعقليتهم في أوربا؟ وهل هم اليوم في أمريكا يفكرون بعقلية الهنود الحمر؟

فليس من حرية القصة : تشابه المواقف وتشابه الأحداث وتشابه الجدل، بين الأمم الغابرة وبين أنبيائها المرسلين. وما تعمّد القرآن كما يظنون : إسناد بعض الأحداث إلى أمة، ثم إسنادها إلى أمة ثانية؛ قاصدًا حرية القصة التي لا تتقيد بالحقائق التاريخية، بل إن الأحداث هي التي تكررت فلا بد من ذكرها على حقيقتها.

وإننا لنجد الدليل الفصل الذي يفنّد ما يظنون : في قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾(١) ، فما أكثر ما يعيد التاريخ نفسه. وهذا هو : قد أعاد نفسه فيما مر بنا من أقوال المستشرقين في القصص القرآني التي تشبه أقوال الوثنيين من قريش.

ويكفينا مؤنة البحث في قصة موسى في الوادي المقدس ما سبق في بحث القصص القرآني، فقد أثبت البحث هناك أن القرآن لم ينطق موسى بأقوال مختلفة، فكل ما جاء عن موقف موسى في الوادي المقدس لم يخرج الخبر عن حقيقته التاريخية، واختلاف الألفاظ عندما يتكرر الكلام عن الخبر الواحد. هو : من أسلوب القرآن.

والحقيقة فيما يزعمون : أن القرآن. أنطق اليهود بما لا يمكن أن يقوله اليهود ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾(٢)؛ قاصدًا تحرر القصة من قيود

---

(١) سورة الزخرف الآية ٢٣ .

(٢) سورة النساء، الآية : ١٥٧.

الحقائق التاريخية - تظهر لكل من يتتبع الخبر الذي جاء في القرآن - عن ظن اليهود : أنهم قتلوا المسيح - فلقد جاء في الآية نفسها : ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً﴾[1] . يقول ابن جرير : إن الذين اختلفوا في عيسى هل هو الذي بقي في البيت بعد خروج من خرج منه لفي شك من قتله[2]؟ - وفيما يقوله ابن جرير وغير ابن جرير - ما يصور لنا الشك الذي ساور الجمهور في زعم اليهود الذين أصروا على أنهم قتلوا المسيح ، ويصور لنا الشك الذي غيم على اليهود ، وكثرة الأخذ والرد بين خصوم المسيح وبين أنصاره على مسمع ومرأى من الجماهير ، فلا يبعد على العامة التي تجمهرت أن تسأل هل قتل المسيح رسول الله؟ ولا يبعد على اليهود الذين يحاولون إقناع العامة بقتله - أن يقولوا : ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ ؛ فهم عندما قالوا ذلك لم يقصدوا الإيمان بالمسيح ، كما أنهم عندما قالوا لقريش : إن وثنيتهم أفضل من دين محمد صلى الله عليه وسلم لم يكونوا يؤمنون بأن الشرك أفضل من التوحيد ، وإنما قصدوا : تأكيد قتلهم عيسى بن مريم.

واليوم ماذا ترى اليهود قالوا : عندما تبرأوا من زعمهم أنهم قتلوا المسيح؟! أتراهم: تقيدوا بما يعتقدونه في المسيح عيسى بن مريم في براءتهم التي قدموها إلى (بابا الفاتيكان)؟! أم أن المناسبة اضطرتهم إلى غير ذلك؟ وهل ترى : من غير المتوقع أن يأتي في المستقبل مؤرخون يقولون : إن هذه البراءة أنطقت اليهود بما لم يكن أن يقولوه: إنا لم نقتل المسيح بن مريم ابن الله ، وإن إنكار اليهود زعمًا أصروا على حدوثه طيلة هذه القرون المديدة - : هو نوع من الفن الأدبي؟!

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١٥٧ .

(٢) تفسير ابن جرير الطبري ١٣/٩ .

٥- وما برح الذين تأثرت آراؤهم بفنية القصة . يقولون : إن القرآن لم ينف عنه وصف خصومه له بأنه أساطير الأولين، فمن كتابنا العرب المسلمين الذين بحثوا في القصص القرآني[١] جماعة أخذت بهذا القول ظانة : أن القرآن لم ينف عنه وصف الأساطير ووقفت واجمة أمام هذه الآية : ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۝ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾[٢] .

إن الاستغراب من عدم نفي القرآن عنه : الأساطير . هو : نتيجة لفهم الأساطير على أنها أباطيل الخيال . فكان على الذين ذهب بهم الفهم إلى هذا المعنى أن يرجعوا إلى ما تدل عليه الأساطير . فللأساطير معان . منها : ما لا يمت إلى الأباطيل بصلة ، فالسطر في اللغة العربية : الخط والكتابة؛ وللسطر في اللغة العربية جموع : أسطر، وأسطار. وأساطير، وقال (الزجاج) : أساطير الأولين خبر لابتداء محذوف. (وقالوا الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم : أساطير الأولين. أي ما سطره الأولون . وواحد الأساطير . أسطورة)[٣] - فالآية هذه نزلت ردًا على ما كان يقوله (النضر بن الحارث) الذي كان يعقب رسول الله ﷺ في مجلسه فيحدث في مجلسه فيتحدث عن تاريخ ملوك فارس. ويقول : هذه أساطير الأولين . أي أخبارهم، أنا اكتتبتها ، وأنا أتحدث بها. كما استكتب محمد أساطيره وتحدث بها !! وإنها تملى على محمد ﷺ بكرة وأصيلاً ، فنزلت الآية ترد على هذا الزعم : ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ترد على هذا الزعم بأن محمدًا لم يستكتب أخبار الأولين كما اكتتبها (النضر بن الحارث) ومن الواضح : أن مما سطره الأولون حقائق تاريخية ذكرها

---

(١) القصص القرآني ، ص ١٨٠ .

(٢) سورة الفرقان ، الآيتان : ٥-٦ .

(٣) لسان العرب ، مادة سطر .

القرآن، ومنها أباطيل نفاها القرآن بشدة ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلافٍ مَهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ۝ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾(٢) فلو كان ما جاء في القصص القرآني عن أمم: نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى- من أساطير الخيال لرد القرآن على الذين يجادلون فيه: أن هذا القصص. أمثلة الغرض منها الموعظة؛ فالقرآن وضع الأشياء في المواضع التي تصل إليها عقول الذين خاطبهم. فعندما سألت اليهود عن عدد أهل الكهف. جاء الجواب: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾(٣) وعندما سأل المسلمون عن الأهلّة. جاء الجواب: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾(٤) فما نزل عن أنبياء بني إسرائيل يقص أكثر ما كان اليهود فيه يختلفون. فلو كان من أساطير الخيال الذي لا ظل فيه للحقيقة لاكتشف ذلك اليهود. وما نزل عن (هود) وقومه (عاد) وعن (صالح) وقومه (ثمود) حقائق أزالت عنها شكوك الذين يجادلون في عاد وثمود: الآثار التي اكتشفت في العصور الأخيرة.

٦- ففي هذه الظنون تعثر بعض كتابنا مأخوذين بمنطق المستشرقين ومقاييسهم، فأبدوا أسفهم لفهم العقلية الإسلامية: قصص القرآن على أساس من التاريخ! وبنوا دفاعهم على الاعتراف بخطأ العقلية الإسلامية، وعلى تسويغ وجود الأساطير الخيالية في القرآن، فقالوا: (وإذا قال المستشرقون: إن بعض القصص القرآنية كقصة أصحاب الكهف أو قصة موسى في سورة الكهف قد بنيت على بعض الأساطير.

(١) سورة القلم، الآيات: ١٠-١٥.

(٢) سورة البقرة، من الآية: ٢٦.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٢١.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

قلنا : ليس في ذلك على القرآن من بأس . وإنما هذا سبيل الآداب العالمية والأديان الكبرى، فالقصة الأسطورية إذن من القصص الأدبي الذي نجد من المفسرين من أجاز أن يكون موجودًا في القرآن الكريم)[1] .

وما في هذه الظنون لا يضطرني لأن أزيد البحث إيضاحًا وتفصيلاً؛ لتبيان حقيقة تشابه حوار وجدال الأمم المتفاوتة أزمانها والمتباعدة أمكنتها؛ ذلك التشابه الذي قالوا عنه : [وهكذا ترى : أن الأساس الذي قام عليه بناء القصتين: قصة (هود) وقصة (لوط) واحد ، وأن الروح التي تسود القصتين واحدة ، وإن اختلفت العناصر من أحداث وأشخاص وحوار في بعض الأحيان. إن السر في هذه الوحدة هو : أن القصد الذي يرمي إليه القرآن من القصتين واحد . وهو الذي أشار إليه في أول السورة من حرص على هداية قومه. ثم موقفهم منه ، ولعل هذه الروح هي التي سادت ما في السورة من قصص ، ومن هنا بنيت بناء متشابهًا ، واتفقت في كثير من مواد البناء .. ونستطيع أن ننتهي من هذه الفقرة إلى القول : بأن المنطق العاطفي هو الذي يسود القصة التاريخية في القرآن . ومعنى ذلك أن القصص التاريخي في القرآن . قصص أدبي أولاً وأخيرًا)[2] .

فالبحث هنا ليس في حاجة إلى زيادة الإيضاح، فلقد سبق أن وضحت تشابه العقائد والفهوم، فالسر في هذه الوحدة لا يكمن في أن القصص القرآني قصص أدبي لا تاريخي. إنما السر يكمن في الحقيقة التاريخية الثابتة ألا وهي : تشابه العقائد ، فإذا تشابهت العقائد تشابهت العقول والفهوم، وتشابه منطقها وجدلها ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾[3] .

---

(١) الفن القصصي في القرآن ، ص١٨٠ .

(٢) الفن القصصي في القرآن ، ص١٢٨ وما بعدها .

(٣) سورة الزخرف ، الآية : ٢٣.

والسر في انصراف هذه الظنون إلى أن القصص القرآني : قصص أدبي هو : أن معارف أصحاب هذه الظنون - أدبية أكثر منها تاريخية ، فلو أن هؤلاء تعمقوا في الدراسات التاريخية لما تورطوا في نقد لا يثبت أمام الحقائق التاريخية ، ولو أن هؤلاء رجعوا إلى النصوص التاريخية ودرسوا بتعمق القرآن وما جاء فيه من تشابه المواقف والأقوال - لما فهموا القرآن على أساس العقلية الأدبية فحسب.

إنني لا أعتقد : أن أحدًا من الذين يتدبرون القرآن بإيمان وعلم يؤخذ بهذه الآراء فيقول : إن القصص القرآني من الفن الأدبي الذي لا بأس عليه من الخيال؛ فينظر إلى قصص الأنبياء والرسل وأممهم على أنها من قصص الأدب الرفيع - مهما أضفى على هذه الآراء من مظاهر البحث العلمي وزخرف القول ، ومهما تظاهر أصحابها بسلامة النية وحسن القصد.

وإذا كان هناك بعض المفسرين رجع إلى روايات الإسرائيليين وخيال الفرس فملأ مؤلفه بهما ؛ فإن هذا البعض لا يمثل العقلية الإسلامية وانطباعاتها ، فإذا كان بعض المفسرين تحدث عن قصة (العبدالصالح) بخيال الإسرائيليين ، فليس يعني ذلك أنه يعتقد ما تقوله الرواية الإسرائيلية عن (إلياس) وخلوده: حقيقة؛ فإن جميع المفسرين يؤمنون بقوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾[1].

وإذا كان بعض المفسرين فسر القصص بما في المصادر الإسرائيلية ، فإن تفسير المفسرين شيء ونص القرآن شيء آخر - فما جاء في التفاسير لا يمكن بوجه من الوجوه أن يكون حكمًا على ما جاء في القرآن الكريم .

فالحكاية ، أو القصة ، أو الرواية ، بالمعنى الذي احتكر هذه الكلمات اليوم؛ ليست بمثل قصص القرآن؛ فما جاء في قصص القرآن حق ليس فيه شيء من حرية القصة

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٣٤ .

الفنية التي تبيح للكاتب أن يقول ما لم يقل، ويتحدث بما لم يحدث. أما القصص الأدبية بجميع أنواعها تاريخية، أو اجتماعية ـ (دراما)، كما يقولون فيها شيء من الجدية والألم، أو (كوميدي) فيها الكثير من المرح والفكاهة، فهي التي تحررت من كل ما يلزم الخبر التاريخي.

٧- قد يحاول بعض مؤلفي القصة الأدبية: حياكة القصة بأسلوب القرآن. وقد تشبه القصة الفنية قصص القرآن في نهجها وموضوعها وألفاظها، ولكن إذا ما تلمسنا روعة القرآن التي تهز الشعور وتملأ القلوب. لا نجدها في غير مواعظ القرآن وقصصه؛ فأين قولهم: القتل أنفى للقتل من قوله تعالى: ﴿فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[(١)]؟! فالذين يحاولون أن يجدوا مثيلاً لقصص القرآن وقصصه. يفعلون كما يفعل الشعراء عندما يذكرون في شعرهم بعض آيات من القرآن ليست من الشعر ولا الشعر منها.

وإذا كان البحث: في قصص القرآن وعلى أي أساس يجب أن نبني فهمنا عليه، قد انتقل بنا إلى القصة في القرآن، وهل فيها شيء من تحرر القصة الفنية؟ فكذلك البحث في قصص القرآن سينتقل بنا إلى البحث في الأمثال التي جاءت في القرآن.

(١) سورة البقرة، من الآية: ١٧٩.

البحث الثالث :

الأمثال في القرآن

من موضوعات البحث :

١- في الأمثال حكمة ولها قصص .

٢- أمثال القرآن في رأي الباحثين .

٣- القصص المثلية .

٤- الأمثال التي لا تشير إلى حدث بالذات .

٥- أمثال تحدثت عن أفراد ذكرهم التاريخ .

٦- أمثال لا تشير إلى حدث أو شخص بالذات .

الأمثال القرآنية

١- كثيرًا ما نقرأ في كتب التاريخ والأدب أمثالاً عربية، وكثيرًا ما نجد في الأمثال العربية صورًا رائعة لما يسمى: السهل الممتنع، وكثيرًا ما نلمس في تلك الصور الرائعة نصيحة مجرب، وإرشاد واعظ، وكثيرًا ما تشير النصيحة إلى حدث جدير بالقارئ أن يحذر من مغبة نتائجه، وكثيرًا ما نجد بعض الأمثال التاريخية امتزجت بالخيال الفارسي والإسرائيلي والمسيحي - الذي دخل على التاريخ والأدب من الباب الذي دخل منه الفرس واليهود واليونانيون والروم إلى المجتمع العربي.

ومن الطبيعي: أن يهتم المؤرخون بالأمثال التي تشير إلى خبر تاريخي، ومن المتوقع أن يتخذ الخبر القصير الذي يتضمنه المثل: مجالاً للخيال. ولقد أطلق بعض الباحثين القدامى لأخيلتهم العنان في القصص التي ذكر فيها المثل، كالمثل الذي يعزى تارة إلى امرئ القيس الكندي، وتارة إلى المهلهل التغلبي: اليوم خمر وغدًا أمر.

٢- وفي القرآن الكريم كثير من الأمثال الهادفة إلى موعظة وحكمة وإرشاد. وفي القرآن الكريم كثير من الأمثال اختلف الباحثون في فهمها وتفسيرها؛ فمهد الاختلاف في فهم الأمثال التي جاءت في القرآن: الطريق لظنون تشبه الظنون التي تكأكأت على قصص القرآن والقصة فيه.

٣- فمن أمثال القرآن التي تشير إلى قصة تاريخية وصل إلى سمع الأمة التي خاطبها القرآن غوامض من أنبائها - قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ۝ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ

مُرْسَلُونَ﴾[1] ، فالقرية معرفة لا نكرة ، والقرية وأصحابها كما يظهر من كلمات هذه الآية . والله أعلم . معروفة عند العرب الذين كانوا يجوبون أرض الروم بتجارتهم ، فيسمعون قصصهم التاريخية ؛ لذلك نرى أقوال المفسرين تكاد تجمع على أن القرية هي : التي تسمى بعد الإسلام : (أنطاكية) ، ولذلك نرى أقوال المفسرين في تفسير هذه الآية ، متأثرة بما في القصص اللاتينية واليونانية من خيال.

وهذا النوع من الأمثال أسماه بعض المشتغلين بدراسة أمثال القرآن وقصصه : القصص المثلية . وقالوا عن القصص المثلية في القرآن : إنها نوع من القصة الفنية التي لا يلزمها الاعتماد على شخصية حقيقية ولا تتقيد بحدث .. والفرق بين القصة في القرآن وبين قصة الفن الأدبي سبق الكلام عنه ، فليس ثمة ما يدعو إلى التكرار.

٤- ومن الأمثال التي ضربت في القرآن : أمثال لا تشير إلى حدث معين ، ولكن ما فيها من ملامح تتوافر في ذات أو في مكان صرف الأذهان إلى الشخصية أو الأرض اللتين تتوافر فيهما الصفات التي يتضمنها المثل كقوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[2] فأوصاف هذه القرية تنطبق على مكة التي نعمت بدعوة إبراهيم ، فكان حرمها مثابة وأمنًا . وكانت شعابها أسواقًا تجارية . فكفرت برسالة محمد ﷺ فاستهدفت خصومة المسلمين؛ فبناء على ذلك جزم بعض المفسرين بأن هذه القرية هي : مكة غير متنبهين إلى تاريخ نزول هذه الآية ، فهذه الآية من آيات سورة النحل ، وسورة النحل نزلت عندما كان محمد ﷺ في مكة وعندما كان القرشيون لا يخافون تسلط المسلمين على غيرهم. وقال آخرون : إنها المدينة مستدلين بوضعها عندما حاصرها الخارجون على الخليفة (عثمان بن عفان) . وفات هؤلاء : أن

(١) سورة يس ، الآيتان : ١٣- ١٤ .

(٢) سورة النحل ، الآية : ١١٢.

المثل أشار إلى حدث وقع قبل الإسلام، فهو يحذر الذين خاطبهم ألاّ يتورطوا في مثل ما وقع لغيرهم[1] - أما القرآن فلم يقل : إن تلك القرية - هي : مكة أو المدينة. وإنما ضرب مثلاً ينطبق على كل قرية كانت في الماضي - آمنة مطمئنة فكفرت بنعمة الأمن وسعة الرزق، فأذاقها الله لباس الخوف، والجوع - وعلى كل قرية تكون في المستقبل ناعمة مستقرة، فتكفر بأنعم الله وتنحرف عن الطريق المستقيم.

٥- ومن أمثال القرآن - ما يشير إلى ذات معروفة في التاريخ كالمثل الذي جاء في هذه الآية ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾[2]، فامرأة (نوح) - وامرأة (لوط) معروفتان في التاريخ، ولقد سار المفسرون في تفسير هذا المثل وراء ما علموه من التوراة ووصل إليهم من قصص الغابرين.

٦- ومنها ما لا يشير إلى ذات معينة كقوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[3]، فاجتهد المفسرون في تفسير هذا المثل على النحو الذي فسروا به مثل القرية الآمنة المتقدم، فعرف بعضهم العبدين وروى عنهما قصصًا؛ على أن ما جاء في هذه الآية : مثل ينطبق على الكثيرين في كل زمان وفي كل مكان؛ ففي كل زمان ومكان أغنياء وفقراء اتجهوا للعمل الصالح .. الفقير بإيمانه والغني بإيمانه وماله، فهل يستوون ؟ الحمد لله، بل أكثرهم لا يعلمون.

إن مواقف تلك الجماعة من المستشرقين الذين صادفتنا آراؤهم ونحن نبحث في القصة والقصص في القرآن، من أمثال القرآن، تشبه مواقفهم في القصة وقصص القرآن، وإن أمثال القرآن، سواء ما كان منها يشير إلى حدث تاريخي، وما كان منها

(١) راجع تفسير ابن جرير.

(٢) سورة التحريم، الآية : ١٠.

(٣) سورة النحل، الآية : ٧٥.

عامًّا لا يتقيد بحدث أو شخصية تحدث عنهما التاريخ. لا تتجاوز نطاق القصة والقصص، فلقد ضرب الله الأمثال للناس : مواعظ للأفراد والجماعات، توجههم إلى المستوى اللائق بإنسانية الفرد وكرامة المجتمع، وتبين لهم أسباب الانحلال التي تدفع الأفراد والجماعات من النور إلى الظلام، ومن الرخاء إلى الفقر، ومن الأمن إلى الخوف ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾[1] ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾[2] ولقد وجد الباحثون في أمثال القرآن. على اختلاف عقولهم فيضًا من المعاني المشرقة؛ فأخذ كل باحث ينظر إليها بمنظاره، ويحلق معها بقدر طاقته العلمية، فمنهم من لم يخطئ في فهم المثل والقصة والقصص. وجانب التوفيق الذين قصر إدراكهم عن فهم مقاصد القرآن، في مثله وفي قصته وفي قصصه .. وهذه سنة الله في خلقه؛ ففي المدارس والجامعات : طلبة نوابغ وآخرون ذوو عقول مغلقة لم تفلح محاولات المعلمين في فتحها، وفريق في مكان وسط ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾[3]، فلو كان الناس في درجة واحدة من النبوغ لما كان ناموس الحياة على ما هو عليه منذ خلق الله الناس.

(١) سورة الجن، الآية : ١٦.

(٢) سورة البقرة، الآية : ١٧.

(٣) سورة السجدة ، الآية: ١٣..

البحث الرابع :

النص القرآني أصدق النصوص

من موضوعات البحث :

١- النص القرآني يشير إلى حقائق .

٢- الشكوك التي تحوم حول القصص اليوم هي شكوك الماضي نفسها .

٣- إن قديم الشكوك وجديدها ليس فيهما ما يقنع .

٤- لماذا أطال البحث الوقوف أمام هذه الشكوك ؟

النص القرآني أصدق النصوص

١- لئن اختلفت الطرق بالباحثين، ولئن تطورت معارف المحققين في قصص القرآن وأمثاله .. مع تطور الزمن وتطور الثقافات، ومع تدرج عقل الإنسان واتساع آفاقه - إن قصص القرآن : خبرًا ومثلاً - ما زال يشع بحقائق لم تذهب عنها بعيدًا العقول التي تحلق في أجواء السماء لتعرف : ما في هذا الكون العظيم ، وتتوغل في بطن الأرض لتعرف : تاريخ أمم العصور الغارقة في القدم، فلقد علم المحلقون في السماء: أن الشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون، وعلموا : أن هذه الجبال الشامخة تدور مع الأرض فتمر مع دورة الأرض مر السحاب !! وعلم المنقبون في أعماق الأرض : ما كانت عليه صحارى الجزيرة العربية في عصورها الخوالي - فرجع الكثيرون عن إنكارهم ما جاء في القرآن من أنباء الماضي وأممه مثل : قوم (عاد) و(ثمود) ، وما كان لهم من مال وبنين ، وجنات وعيون، وبأس شديد ، عندما شاهدوا معالم ذلك على آثارهم، وعندما اكتشفوا ما كانت عليه حياة (الجرهائيين) في أرض (الخليج الإسلامي - العربي) وما كان عليه (وادي القرى) وأرض (اليمامة) و(بلاد حضرموت) و(معين) و(سبأ) في اليمن ورمال (سينا) - من عمران ونشاط اقتصادي وفَّر حياة وارفة الظلال لعالم ذلك الزمن[1] .

٢- إن الشكوك التي استعرضناها في كلامنا عن القصص، والقصة، والأمثال في القرآن، واستعرضنا معها أدلتها، والتي تحاول أن تصرف العقلية الإسلامية عن فهم

---

(١) راجع بحث (إرم ذات العماد) في الجزء الأول من هذا الكتاب : **التاريخ العربي وبدايته** ٢٩٩/١ .

القرآن - على أساس من التاريخ إلى فهمه على أساس من الفن الأدبي المتحرر من الحقائق - هي : شكوك لا تستند إلى غير شكوك تشبهها أنكر بها اليهود من قبل ما جاء في القرآن عن كلام عيسى في المهد ، وأنكروا ما جاء فيه عن قول الذين زعموا أنهم قتلوا المسيح : ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ ولا تستند إلى غير منطق المستشرقين الذين أصروا على أن قصة موسى في سورة (طه) غير القصة التي في سورة (النمل) ، والذين أصروا على أن (هامان) الوزير في عصر الفراعنة كان بعد عصر موسى وفرعونه؛ لأن التوراة والمؤرخين في عصر الفراعنة ، لم يذكروا أنه كان يوجد وزير اسمه (هامان) في عصر فرعون موسى.

٣- وإن هذه الشكوك قديمها وجديدها ، لا تملك من الأدلة ما يقنع الباحث في التاريخ: أن قصص القرآن لا يتحدث عن حقائق تاريخية .. إننا إن وقفنا حيارى حيال المتشابه من القرآن ، والذي لم تصل إلى حقيقته معارفنا كما وقفت معارف الذين من قبلنا حيال قوله تعالى : ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾(١) ، وقوله تعالى : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ﴾(٢) ، فليست حيرتنا معناها : الشك ، فما زال الإنسان يسير في الأرض فينظر كيف كانت عاقبة الذين من قبل ، ويحلق في السماء يتفكر في خلق السموات والأرض ، وما زالت حقائق القرآن تتجلى فيؤمن بها الذين يدرسون القرآن من دون خصومة وحقد؛ إيمانًا نابعًا من اقتناعهم بأن ما في القرآن ليس من شطوط الخيال ولا من فنون القصص الفنية.

٤- وبعد ... فإخالك أيها القارئ قد عرفت وجهة البحث في قصص القرآن ، وعرفت : أني لست من الذين يشكون في خبر من أخبار القرآن ، ولست ممن يعدون : أن

(١) سورة النمل ، الآية : ٨٨.

(٢) سورة الرحمن ، الآية : ٣٣.

القرآن في قصصه. قصد تحرر القصة وسار على طريقة الفن الأدبي، فيما قصد من أنباء الغيب، ولست من الذين يخطئون العقلية الإنسانية؛ لأنها فهمت القصص على أساس من التاريخ، ويقولون : كان الأجدر بها أن تفهم ما جاء فيه عن الأنبياء والرسل وأممهم على أساس أنه قصص أدبي أولاً وأخيرًا .

فهذا أنا أضع القصص القرآني في مقدمة النصوص؛ لأنه أصدقها، وهذا أنا أعتمد على كل ما حدثنا به من أنباء ماضي البلاد العربية وأممها. وإنني أصارح القارئ بأنني لم أطل الوقوف أمام تلك الشكوك؛ إلا لأزيلها عن القصص القرآني وأستجلي حقيقة الأخبار التي جاءت فيه، وأبين سلامتها من الخرافة والخيال، وأحدد موقف هذا الكتاب من نصوص القرآن، والله أسأل أن يجنبنا خطأ الفهم ويهدينا إلى سواء السبيل.

الفصل الثالث

الأسفار والتراث القديم

- الأسفار مصدر من مصادر التاريخ .
- المؤلفون في التاريخ قبل الميلاد وبعده .

البحث الأول :

الأسفار مصدر من مصادر التاريخ

من موضوعات البحث :

١- معجم الأسفار.

٢- التوراة بين المتطرفين والمعتدلين .

٣- رأي الرواد العرب في تحريف التوراة .

٤- أسباب التحريف.

٥- استغلال اليهود موقف المسلمين من التوراة .

٦- ما حقيقة الأسفار ؟

٧- أدلة التحريف في الأسفار .

٨- الأسفار في نظر المؤرخين .

٩- رأي اليهود في الأسفار .

١٠- الفرق بين الناسخ والمنسوخ في القرآن والمؤول والمحرف في الأسفار.

١١- موقف الرواد المسلمين من الأسفار .

١٢- كيف حافظ المسلمون على القرآن وفرط اليهود في الأسفار .

١٣- آراء مستشرقة بالغت في الشك، وآراء عربية تمسكت بشكوك المستشرقين .

١٤- رجوع المستشرقين عن المبالغة في شكوكهم .

١٥- ما في الأسفار لا يخلو من المبالغة والخيال، والمؤرخ العربي مغال في النقل عنها.

١٦- نتائج البحوث المتعمقة في التحقيق .

١٧- ليس لنا : أن نرفض أخبار الأسفار بدون دليل .

١٨- بيان بأسماء الأسفار وعددها .

الأسفار مصدر من مصادر التاريخ

١- السفر بكسر السين: الكتاب. ويطلق على الكتاب الكبير. وقيل هو: جزء من التوراة، وجمعه أسفار، والسَّفَرة بفتح السين المشددة: الكتبة، والكلمة نبطية[١].

فالسفر الواحد جزء من التوراة، والتوراة هي: الأسفار التي تنسب إلى (موسى)، وهي خمسة: (التكوين) و(الخروج) و(اللاويين) و(العدد) و(التثنية). وهذه الأسفار الخمسة هي: قسم من مجموع أسفار بني إسرائيل، ولكل سفر. عنوان خاص به. وكل سفر من التوراة ينقسم إلى عدة فراسات - و(الفراسة) معناها: السورة، وتنقسم كل فراسة إلى عدة أبسوقات و(الأبسوقة) معناها الآية[٢].

وأسفار بني إسرائيل قسمها الباحثون. إلى قسمين:

الأول: العهد العتيق. وهو: أسفار ما قبل (عيسى بن مريم).

والثاني: العهد الجديد. وهو: أسفار ما بعد (عيسى بن مريم). ومجموع العهدين: العتيق والجديد. يسمى (بيل)؛ وبيل. اصطلاح يوناني[٣].

واختلف الباحثون في عدد كتب العهد العتيق. فقال بعضهم: إنها سبعة وأربعون سفرًا[٤]، وأحصاها بعضهم حسب النسخة (الكاثوليكية) فبلغت ستة وأربعين سفرًا[٥].

---

(١) لسان العرب ٣٧١/٤.

(٢) الفهرست ص٣٤.

(٣) كتاب إظهار الحق ٥١/١.

(٤) المصدر نفسه ٥١/١ و٥٢.

(٥) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، ص٦.

واسم التوراة عبري الأصل . ومعناه : القانون[١] - أما الإنجيل . فاسم يوناني: أصله: (إنكليون) ومعناه : البشارة والتعليم. وقد أطلق اسم (الإنجيل) أولاً على أربعة أسفار هي : (إنجيل متى) و(إنجيل مرقس) و(إنجيل لوقا) و(إنجيل يوحنا)، ثم أطلق مجازًا على مجموع كتب العهد الجديد. مثلما أطلق اسم التوراة على أسفار العهد القديم مجازًا[٢] .

وكتب العهد الجديد . هي أيضًا تنقسم إلى قسمين :

الأول : عدده عشرون سفرًا .

والثاني : عدده سبعة أسفار وبعض الفقرات من الرسالة .

٢- والأسفار من الموضوعات الشائكة التي يستلزم البحث فيها : دراسة دقيقة متأنية نزيهة ، فالبحث في التوراة ، والبحث في الإنجيل ما زالا موضوع نقاش شائك ، والنقاش في التوراة والإنجيل ، أو بقول أعم : البحث في الأسفار . ما فتئ يختلف موضوعه ، ويختلف نهجه ولهجته تبعًا لعقيدة الباحث وعقليته ، والمصادر التي يعتمد عليها؛ فمن الباحثين من ينظر إلى (موسى) وأنبياء بني إسرائيل من بعده نظرة احترام وإجلال؛ فيقف موقف الحذر المتروي مما ينسب إلى الأنبياء والمرسلين .. ومن هؤلاء : علماء المسلمين الذين يؤمنون بما أنزل على (موسى) و(عيسى) وغيرهما من الأنبياء والرسل، ومن الباحثين من تجاوز شكه كتب موسى وعيسى إلى حقيقتهما ، فهو يشك في وجودهما ، ومن هؤلاء : بعض المستشرقين الذين أطلقوا للشك عقاله وألقوا حبل التهم على غاربها ، فوضعوا توراة موسى وإنجيل عيسى مع القصص الخرافية واتهموا (سليمان) و(داود) بما يبرأ منه سليمان وداود.

---

(١) دائرة معارف . فريد وجدي ٢/٧٠٢.

(٢) كتاب إظهار الحق ٥٢/١ و٥١ .

٣- فالرواد القدامى من المسلمين، تقيدت أكثريتهم برأي (ابن عباس) في التوراة، وما يقال عن التبديل والتفسير فيها، فمن رأي ابن عباس: أن تبديل الكلم عن مواضعه: تحريفه. بالتفسير والتأويل اللذين اختلطا بنص التوراة بصورة جعلت من العسير تمييز ما هو من توراة موسى مما هو من تفسير أحبار اليهود، ويستشهد لرأيه بقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [1]، فلوا أنهم بدلوا من التوراة ألفاظها لم يكن عندهم التوراة التي فيها حكم الله[2] - مما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾، أي: وعندهم التوراة فيها "حدود الله"[3]، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾[4] - أي: أن الأحبار من اليهود احتفظوا بكتاب موسى في قراطيس فأبدوا بعضها وأخفوا كثيرًا منها.

فما جاء في هذه الآيات الكريمة يدل: على أن اليهود دونوا الكتاب الذي جاء به موسى، وأنهم كانوا في عصر نزول القرآن يبدون بعضه ويخفون بعضه، ومن الطبيعي: أنهم يبدون ما يرونه في مصلحة موقفهم من الإسلام والعرب، وما يرونه يسوّغ أخطاءهم التاريخية فهم يكتمون ما قاله (يوشع) عن قتلهم (موسى)[5]، ويجهرون بتكذيبهم (عيسى) ومحاولة اغتياله. ويؤولون. ما لا بد لفهمهم من تأويله. ولقد حذر القرآن الكريم[6] اليهود الذين كانوا يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون: هذا من عند الله يشترون به ثمنًا قليلاً من مغبة ما يفعلون. فلا شك في أن (ابن خلدون) أحسن الظن في أسباب التأويل عندما قال: (فتطرق من الغفلة وعدم الضبط وتحريف من

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٣.

(٢) تاريخ ابن خلدون ١/٨.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٣، وتفسير الطبري ٦/١٦٠.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩١، وتفسير الطبري ٧/١٧٨.

(٥) مجلة الهلال العدد ٧٢ السنة السابعة والسبعون أول يوليه سنة ١٩٦٩م.

(٦) تفسير ابن جرير ١/٣٠٠ وما بعدها.

لا يحسن الكتابة، بنسخها، وذلك يمكن في العادة لا سيما وملكهم قد ذهب وجماعتهم انتشرت في الآفاق، واستوى الضابط منهم وغير الضابط، والعالم والجاهل، ولم يكن وازع يحفظ لهم ذلك لذهاب القدرة بذهاب الملك)[1] .

٤- والذي يبدو على كلام (ابن خلدون) : أنه متحمس لما في الأسفار من تاريخ. فهو لا يريد أن يدخل عليها ما ينجم عن تعمد التأويل من شكوك؛ فالتأويل لم يكن نتيجة لهذه الأسباب فحسب. بل هناك أسباب أعمق من الغفلة وعدم الضبط انساق معها الأحبار فأكثروا التأويل المتعمد؛ لأسباب منها : مسايرة عالم ذلك الزمن في تأليه الرجال الصالحين والعظماء البارزين، فما جاء في الأسفار عن تأليه عيسى أدخل عليها جريًا مع العقائد السائدة في ذلك الزمن، فهل نزل على نبي من أنبياء بني إسرائيل : أن عزيرًا ابن الله ؟! ومنها السير مع أطوار الحياة والتكيف مع الأحداث، فما جاء في الأسفار من تنبؤات ودفاع عن الإسرائيليين انطبع بطابع عقلية الأمم التي جاورها الإسرائيليون والأحداث التاريخية .

٥- فليس من شطط الظنون أن افترضنا أسبابًا كثيرة للتأويل فلقد فطن اليهود في صدر الإسلام لما جاء في القرآن عما نزل على الأنبياء ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[2] ، فاستغلوا موقف المسلمين المعتدل من الأسفار، وإقبالهم على ما يظنونه : أنه جاء فيها من أخبار الأمم التي ذكرها القرآن وعن أنبيائها . فنسبوا قصصهم الشعبية إلى الأسفار، فنقلها البعض بدون تحقيق، وحققها الأعلام، فرجعوا عن بعض ما رووه عنها كما ثبت عن (ابن عباس) وغيره[3] .

---

(١) تاريخ ابن خلدون ١/٨ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٣٦.

(٣) راجع ترجمة ابن عباس في هذا الجزء .

فكثير من الروايات المنقولة عن الإسرائيليين تدل على أن قدامى المسلمين شغلوا بمعرفة أحكام القرآن في العبادات أكثر مما شغلوا بقصص القرآن وأخباره، وشغلوا بتحقيق الأحاديث النبوية وأقوال التابعين التي تخص السيرة والمغازي عن التحقيق فيما يرويه العبرانيون من أخبار بني إسرائيل ومن سبقهم من أمم العالم القديم. فطفقوا يروون عن الأحبار بكثير من التسامح. وهذا هو السر في تناقض الروايات التي جمعها (ابن جرير) في تفسيره وفي تاريخه؛ فلقد جمع ابن جرير عن قصة (الذبيح) روايات متناقضة أسندت إلى مصدر واحد، فلقد جاء في تفسيره: أن (ابن عباس) قال عن الذبيح: إنه (إسحاق). ثم قال: (إن المفدى. إسماعيل؛ وزعمت اليهود: أنه إسحاق وكذبت اليهود).

ولم يذكر لنا ابن جرير متى قال ابن عباس: إنه إسحاق؟ ومتى قال: إنه إسماعيل؟.. بيد أن المتتبع لقصة الذبيح ورأي المؤرخين الإسلاميين فيه. يجد: أن رواية كعب التي نقلها أبوهريرة: (قال كعب لأبي هريرة: ألا أخبرك عن إسحاق بن إبراهيم؟ إنه الذبيح الذي رأى إبراهيم: أن يذبحه). انتشرت بين المفسرين والمؤرخين. دون أن يهتم أحد بتحقيقها، ولعل ابن عباس. هو من الأوائل الذين حققوا في هذه الرواية التي كان هو نفسه من رواتها، فرجع عنها. كما رجع عنها (ابن عمر)، وأخذت الرواية الأخيرة تنتشر بين مفسري القصص مثل: (الشعبي) و(ابن جبير) و(ابن مهران) و(مجاهد) و(ابن أبي رباح)، وغيرهم من الذين رووا عن ابن عباس. قوله إنه إسماعيل.

ولقد استمرت قصة الذبيح ورواية الإسرائيليين لها: موضوع نقاش وتحقيق، فلقد نقل (ابن جرير) رواية أسندها إلى (محمد بن كعب القرظي)، الذي يرى: أن الذبيح. هو: إسماعيل. جاء فيها: أنه ذكر ذلك لعمر بن عبدالعزيز. وهو خليفة، وأن (عمر بن عبدالعزيز) قال له: هذا الشيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما هو. وإنه سأل: من حسن إسلامه من اليهود. فأجابه: أنه (إسماعيل)، وإن يهود لتعلم بذلك

ولكنهم يحسدون العرب على أن يكون لأبيهم الفضل الذي ذكره الله فزعموا : أنه إسحاق ـ لأن إسحاق أبوهم[1] .

فالذي يبدو واضحًا من قصة الذبيح : أن من أسباب التأويل والتحريف: الدوافع العنصرية التي جعلت (يوسفرس ـ يوسف) يقول من قبل : إن الهكسوس هم : بنو إسرائيل[2] وإن أغلبية اليهود استغلت اقتناع الرعيل الأول من المسلمين ـ بالخبر الذي يسند إلى التوراة ، وإن أكثرية ذلك الرعيل كانت تقف أمام ما يرويه الأحبار عنها موقف (عمر بن عبدالعزيز) وإني لأراه كما هو !!

على أن رأي (ابن خلدون) لا يبعد عن الواقع ، فكثير من اليهود كانوا يعتمدون على عدم الضبط ورداءة نسخ بعض الأسفار ، فيرتجلون أجوبة على بعض ما كان يسألهم عنه المؤرخون في العصر الإسلامي ، متأولين أو مفسرين بما تهواه أنفسهم ووصلت إليه مداركهم ، وساعدهم على التأويل والتفسير : أنهم كانوا يقرأون الأسفار بالعبرانية ويفسرونها بالعربية[3] ، وكثير من اليهود كانوا أميين يكذبون الرسل ولا يصدقون الكتب ولا يعلمون من التوراة شيئًا ، وإنما كانوا يتحدثون بالظن وبما تجنح إليه أمانيهم[4] .

ولقد جاء في الفهرست لابن النديم : (قرأت في كتاب وقع لي قديم النسخ يشبه أن يكون من خزانة (المأمون) ذكر ناقله فيه أسماء الصحف وعددها والكتب المنزلة ومبلغها ، وأكثر الحشرية والعوام يصدقون به ويعتقدونه وقال (أحمد بن عبدالله بن سلام) : ترجمت صدر هذا الكتاب ، والصحف والتوراة والإنجيل وكتب الأنبياء

---

(١) تفسير ابن جرير جزء ٥١/٢٣ إلى ٥٥ .

(٢) الحضارة المصرية ، ص٢٦٦ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ٦/٣ .

(٤) تفسير ابن جرير ٢٩٦/١ .

والتلامذة من اللغات: العبرانية واليونانية والصابئة . وهي لغات أهل الكتاب إلى اللغة العربية حرفًا حرفًا ، ولم أبتغ في ذلك تحسين لفظ ولا تزيينه مخافة التحريف، ولم أزد على ما وجدته في الكتاب الذي نقلته ولم أنقص)[1] . وجاء في الطبقات : أن (عامر ابن عبدالله بن عبدالقيس) كان يستمع في مسجد بالشام إلى (كعب) يقرأ له سفرًا من أسفار التوراة[2] .

وما جاء في الفهرست وفي الطبقات يؤكد لنا : أن حرص المسلمين على حرفية ما ينقلونه من الأسفار إلى اللغة العربية ، ليس بأقل من حرصهم على سماع ما يرويه الأحبار ونقله حرفيًا .. وهذا الذي جعل القصص اليهودي ينتشر كما هو بين العامة ، ويصدقه ضعاف المؤرخين . ويوضح لنا : أن الأسفار دونت بلغات وخطوط عبرية وإرمية ويونانية ، والنقل من لغة إلى أخرى لا بد أن يصحبه التأويل والتفسير كما قلت من قبل.

٦- ونحن إذا ما رجعنا إلى معلومات العرب الجاهليين عن الأسفار ، نجدها معلومات مشوشة وصلت إليهم من الذين جاوروهم في أرض الجزيرة من يهود ومسيحيين، ونجد العربي الجاهلي ينظر إلى ما في أيدي الرهبان والأحبار، نظرة احترام تمنعه من أن يجادل فيها ، وإذا ما رجعنا إلى معلومات الباحثين في الأسفار نجدهم : يسألون عن الأسفار اليهود والنصارى، ونجد ما يُدْلي به إليهم اليهود والنصارى، يشير إلى اختلاف اللغات التي دونت بها الأسفار، ويشير إلى تفسير المفسرين وتأويل المؤولين اللذين اختلطا بنصوص الأسفار التي تسند إلى (موسى) و(عيسى) ومن جاء بعد موسى، ومن جاء بعد عيسى من أنبياء بني إسرائيل والتلامذة، اختلاطًا يجعل تمييز الأصل من المؤول والتفسير من المتن : من أصعب الصعاب؛ فلقد جاء في الفهرست لابن النديم : (سألت رجلاً من أفاضلهم عن التوراة

(١) **الفهرست** ، ص ٣٢ و٣٣ .

(٢) **الطبقات** ١١٠/٧ .

التي في يد اليهود وعن أسماء كتبهم فقال : أنزل الله جل اسمه على (موسى) التوراة وهي : خمسة أخماس وقال : لموسى كتاب يقال له (المشنا) ومنه يستخرج اليهود : علم الفقه والشرائع والأحكام، وهو كتاب كبير ولغته (كسداني) و(عبراني). ومن كتب الأنبياء بعد ذلك : كتب (يهوسع) و(سفطي) و(شمويل) و(سفر أشعيا) و(سفر إرميا) و(سفر حزقيل) و(ملخى) وهو سفر داود وأصحابه ويعرف بتفسير ملخى الملوك و(الأنبياء) وهو اثنا عشر سفرًا صغارًا ، ولهم كتب يقال لها : (بطارات) مستخرجة من كتب الأنبياء الثمينة. ومن كتبهم : (عزور) و(دانيال) و(أيوب) و(سيرسيرين) و(أخا) و(روث) و(قوهلت) و(زبور داود) و(أمثال سليمان) و(ديوان الأيام) فيه سير الملوك وأخبارهم (وحشوارش) ويسمى (المجلة). ويقول ابن النديم: إن (سعيد الفيومي ألف عددًا من الكتب لها قيمتها بين الأسفار منها : كتاب "العبور" وهو التاريخ) .

وعن الإنجيل وأسماء كتب علماء النصارى ومصنفهم سأل ابن النديم (يونس القس) عن الكتب التي يفسرونها ويعملون بها مما خرج إلى اللسان العربي ، فقال له يونس : (من ذلك كتاب "الصورة" وينقسم إلى قسمين : الصورة العتيقة. والصورة الحديثة. وزعم: أن العتيقة هي : السند القديم على مذهب اليهود ، والحديثة على مذهب النصارى. قال : والعتيقة تستند إلى عدد من الكتب أولها : "التوراة" وهي : خمسة أسفار - كتاب "محتوى" ويحتوي على عدة كتب منها : كتب "يوسع بن نون" و"الأسباط" وهو كتاب القضاة ، و"شماويل" و"قضية داود" و"أخبار بني إسرائيل" و"قضية رعوث" و"سليمان بن داود" في الحكم و"قوهلت" و"سيرسيرين" و"حكمة هويسع بن سيرين" و"الأنبياء" ويحتوي على أربعة كتب "أشعيا النبي" و"إرميا" و"الاثني عشر نبيًّا" و"حزقيل" ، وكتاب الصورة الحديثة ويحتوي على الأناجيل الأربعة : "إنجيل متى" وإنجيل مرقس" و"إنجيل لوقا" و"إنجيل يوحنا" وكتاب "الحواريين" ويعرف باسم "فراكسيس" ، وكتاب "بولس السليح" أربع وعشرون رسالة .. إلى غير ذلك من كتب في الفقه والأحكام)[1] .

---

(١) فهرست ابن النديم ، ص ٣٤ و٣٥ .

٧- فهذه الكتب التي ذكر أسماءها ابن النديم استنادًا إلى من وثق بهم يبدو من عناوينها التي جاءت أولاً : عن اليهودي الذي قال عنه ابن النديم : (من أفاضلهم) وثانيًا : عن يونس الذي قال عنه ابن النديم : وكان فاضلاً : أن نسخها تعدد في أزمنة متفاوتة ولأسباب متعددة. وتفاوت أزمنة التدوين، واختلاف اللغات وتجدد العناوين يبعث أمام الباحث مختلف الظنون .. بيد أنني لا أستطيع أن أقول : إن تعدد العناوين التي اتسمت بها الأسفار مثل : سفر (التكوين) الذي أطلق عليه اسم (الخليقة) و(المشنا) التي جمعت أخيرًا ونسبت إلى (موسى) وتعدد اللغات واختلاف الأسلوب باختلاف البيئة والزمن. نشأ عنه تحريف المدونين والمفسرين وتأويل المؤولين؛ لأنني لم أطلع على جميع نسخ الأسفار حسبما يستدعيه إبداء الرأي فيها. لذلك أترك القول لمؤلف كتاب: (إظهار الحق) ؛ فمؤلف الكتاب[1] (رحمة الله) كما يبدو في بحثه. من نوابغ القرن الثالث عشر الهجري الذين أضافوا إلى دراساتهم الإسلامية، الاطلاع على الأسفار وأبدى تفهمًا لمنطق الآراء التي لا تقنع بغير الدليل المادي، فزادتهم المعرفة إيمانًا وعلمًا كان لهما أثرهما في إظهار الحق. ولقد كان رحمة الله في كتابه. حريصًا على أن تكون أدلته من الأسفار، ومن المؤلفات اليهودية والمسيحية التي بحثت في حقيقة الأسفار، وكان واضحًا في بيان الحقائق التي استهدفها، والتي كان في مقدمتها : الفرق بين المنسوخ في القرآن والمؤول في الأسفار. وكان مستوعبًا في نقاشه كل ما يفيد المؤرخ الذي تفرض عليه بعض القضايا التاريخية : الرجوع إلى نصوص الأسفار. فهو قد ناقش كل سفر نقاشًا خاصًّا به، وبين الأخطاء التي على المؤرخ توقي الوقوع فيها، لا سيما التي تخص الأمم العربية والأرض العربية.

---

(١) يتضمن كتاب إظهار الحق مناظرات جرت بين مؤلفه وبين بعض القساوسة في الآراء التي تجعل النسخ في القرآن يشبه التأويل في الأسفار. ورحمة الله ليس هو : رحمة الله السندي صاحب المؤلفات الفقهية المتوفى سنة ٩٩٣هـ.

فمن الأخطاء التي بينها : إحصاء بني إسرائيل عندما هاجروا إلى فلسطين، فلقد كان ذلك الإحصاء من اجتهاد مفسري التوراة والمؤلفين الذين فسروا برأيهم نصوصها، ومن الأخطاء التي اتخذها رحمة الله : دليلاً على زيادة المفسرين المؤولين في توراة موسى. ما جاء في سفر الخليقة : [وهؤلاء الملوك الذين ملكوا في أرض "آدوم" (قبل أن يملك لبني إسرائيل) فما عُزي إلى (موسى) يدل على أنه قيل بعد أن ملك بنو إسرائيل، وبنو إسرائيل لم يملكوا إلا بعد وفاة موسى بثلثمائة وستة وخمسين عامًا][1]. إلى كثير من الأخطاء التي جاءت في الأسفار. ومما قيل عن اختلاف الكنائس في نسخ الأسفار التي دونت قبل المسيح، والتي دونت بعده، مما لا يلزمني في بحث مصادر التاريخ العربي : الحديث عنه، فلذلك تراني أترك للقارئ المستزيد : حرية الرجوع إلى كتاب (إظهار الحق) لافتًا نظره إلى أن مؤلفه استهدف: الدفاع عن القرآن وإظهار الفرق بين الناسخ والمنسوخ في القرآن وبين المؤول والمحرف في الأسفار في جدل احتدم بينه وبين بعض القسيسين في الهند. ولذلك تراني اقتطفت من الكتاب ما يخص التاريخ، وتراني قبل أن أتكلم عن الفرق بين المنسوخ في القرآن وبين المؤول في الأسفار بقدر ما يستدعيه البحث. أستعرض معك آراء الذين عنوا بالتاريخ في الأسفار ليسير البحث حسب المخطط المرسوم لهذا الكتاب.

٨- فلقد عقد (محمد دروزة) في كتابه : (تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم) فصلاً خاصًا بتعريف الأسفار. جاء فيه : (أن أسفار العهد القديم التي ستكون مستند هذا الكتاب. منها : ما هو تاريخي من الدرجة الأولى. مثل : (التكوين) و(الخروج) و(العدد) من الأسفار المنسوبة إلى (موسى) . ومثل : (يشوع) و(القضاة) و(شمويل) و(الملوك) و(أخبار الأيام) و(إستير) و(عزرا) و(نحميا) و(دانيال) و(إرميا) و(راعوث) و(يهوديت) و(طوبيا) و(المكابيين) فهذه الأسفار تربط بين سيرة ووقائع بني إسرائيل وبين آبائهم وبين سلوكهم الديني) .

---

(١) كتاب إظهار الحق ١/٦٣ و ٢٣٩ .

وتوضح لنا مقدمة كتاب دروزة : وجهة المؤلف، فغرض المؤلف من كتابه هو : فضح المزاعم اليهودية بصورة أوضح من الصورة التي رسمها (المطران الدبس) في مؤلفه: (مقالة في العبرانيين)؛ فلتحقيق هذا الغرض حرص على كشف المغالطات التي دسها المفسرون والمؤولون في أسفار أنبياء بني إسرائيل ونسبوها إلى أسفار ليس لها وجود[1].

ويؤكد دروزة ـ كغيره : [أن في أسفار (موسى) عبارات كثيرة تدل على أن هذه الأسفار لم تكتب من قبل موسى ولا في أيامه ولا بإملائه. وإنما كتبت بعده بأقلام كتاب عديدين، وفي أزمنة مختلفة، وقد تكون كتبت بعده بمدة طويلة، بل قد كتبت أو أعيدت كتابتها ـ بعد سبي بني إسرائيل من أورسليم ـ القدس. وعودتهم من السبي في القرن السادس]. ويفرض (محمد دروزة) ـ على بقية الأسفار مثل هذا الفرض. عندما قال : [وما قلناه عن الأسفار الخمسة يصح أن يقال : بالنسبة لمعظم الأسفار التي تحتوي على أحداث ما قبل السبي، وخاصة التاريخية منها][2].

وجاء في كتاب الروم وصلاتهم بالعرب تأليف (أسد رستم) عن الإنجيل : [ويستدل من أقوال بعض الآباء : أن (متى) تولى تبشير اليهود فكتب إنجيله لهم باللغة (الآرامية).. بينما كان (بطرس) و(بولس) يعملان في رومة (٥٠-٥٥) وفي تضاعيف هذا الإنجيل. ما يدل على أنه كتب لليهود. فهنالك سند طويل ينسب السيد المسيح بداود الملك، وثمة تفاصيل تجعل من سيرة المسيح تكملة لنبوات التوراة. وأن بطرس الذي كان يبشر في (رومة) يجهل اللغة (اليونانية) ولا يعرف سوى (الآرامية) لذلك استدعى (يوحنا) ليترجم له بين الرومانيين. وأن (بولس) التحق به (مرقس) : من يهود قبرص كان يتكلم اليونانية ويقرأ ويكتب بها، فدون سيرة (المسيح) بعد وفاة (بولس) بدون الترتيب الذي اتبعه المسيح في أعماله وأقواله، وحسب رواية (بطرس) الذي تكلم بحسب ما دعت إليه

---

(١) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم : المقدمة، ص٦ و ٩ وما بعدها.

(٢) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، ص٦.

الحاجة ودونما تقيد بتسلسل الأحداث. أما سفر (متى) فقد ضاع الأصل الآرامي وبقيت ترجمته إلى اليونانية][1] .

وجاء في كتاب (تاريخ العرب قبل الإسلام) لجواد علي عن (التوراة) و(التلمود) وصلتهما بالتاريخ العربي [وقد جاء ذكر العرب في مواضع كثيرة من أسفار التوراة ، والتوراة : مجموعة أسفار كتبها جماعة من الأنبياء في أوقات مختلفة . كتبوا أكثرها في فلسطين . وأما ما تبقى منها . مثل : سفر (حزقيال) و(المزامير) فقد كتب في وادي الفرات أيام السبي ، وأقدم الأسفار هو : سفر (عاموس) ويظن : أنه كتب حوالي سنة ٧٥٠ق.م. أما آخر ما كتب منها . فهو : سفر (دانيال) والإصحاحان : الرابع والخامس من سفر (المزامير) وقد كتبت هذه في القرن الثاني قبل المسيح]. ويقول جواد علي : [وهناك نوعان من التلمود : التلمود الفلسطيني الأورسليمي[2] كما يسميه العبرانيون اختصارًا ، وضع كما يفهم من اسمه في فلسطين . وقد تعاونت على تحبير هذه الشروح والتفاسير المدارس اليهودية في الكنائس (الكنيس) . وأقدم صورة من صوره في أواسط القرن الثالث الميلادي. وقد أضيفت إليه بعد ذلك شروح وتفاسير عدة إلى أن اتخذ هيئته النهائية في القرن الرابع الميلادي. والنوع الثاني : التلمود البابلي، فقد بدأ بكتابته الحبر (آشي) المتوفي سنة ٣٤٠ ميلادية ، وأكمله الأحبار من بعده إلى أن اتخذ صيغته النهائية في أوائل القرن السادس للميلاد . ولكل من التلمودين طابع خاص به . هو طابع البلد الذي وضع فيه ، ولذلك يغلب على التلمود الفلسطيني طابع التمسك بالرواية والحديث. أمَّا التلمود البابلي فيظهر عليه الطابع العراقي الحر ، وفيه عمق في التفكير وتوسع في الأحكام والمحاكمات ، وغنى في المادة.. وهذه الصفات غير موجودة في التلمود

---

(١) الروم وصلاتهم بالعرب ١/٤٠ وما بعدها .

(٢) يفهم الكثيرون : أن اسم أورشليم . أي القدس . اسم عبري . والحقيقة . أنه اسم عربي أصله : (أورسليم) وسليم هو مؤسس مدينة القدس .

الفلسطيني . وقد وردت في (التلمود) إشارات إلى العرب، وتفيدنا إشاراته في تدوين تاريخ العرب؛ لأن التلمود مكمل لأحكام التوراة. أما الفترة بين الوقت الذي انتهي فيه من كتابة التوراة والوقت الذي بدئ فيه بكتابة التلمود فيمكن أن يستعان في تدوين تاريخها بعض الاستعانة بالأخبار التي ذكرها المؤرخ اليهودي (يوسف - يوسفوس فلافيوس) الذي عاش بين (سنة ٣٧ - ١٠٠) للمسيح تقريبًا؛ ففي كتبه معلومات ثمينة عن العرب وأخبار مفصلة عن العرب (الأنباط) لا نجدها في كتاب آخر قديم، لا أنه عاصرهم .. بيد أنه لم يهتم بهم إلا من ناحية علاقتهم بالعبرانيين، ولم تكن بلاد العرب عنده إلا مملكة الأنباط، كما يعثر المفتش عن أخبار العرب قبل الإسلام على مواد تاريخية في (الأبوكريفا) وهي الكتب غير القانونية التي أضيفت إلى العهد القديم وبعض الأسفار الملحقة بالعهد الجديد][1] .

٩- أما اليهود أنفسهم، فإنهم يعترفون بأمور خطيرة منها : قتل (موسى) نبيهم الذي أنقذهم من عبودية الفراعنة ومنها : تحريف ديانته : ومنها ضياع نص التوراة، فلقد جاء في كتاب (موسى والتوحيد) لمؤلفه (فرويد) اليهودي : [وعندما قويت المجموعة المتمردة هاجمت مجموعة الرب وقتلته، وما قام به العبرانيون كقتلهم موسى وهجر ديانته هو تكرار لتلك التجربة الإنسانية. ويقول المؤرخ الألماني (سيلين) : إن مقتل موسى معروف على الدوام عند رجال الدين، وقد ظل هذا سرًّا حتى أذاعه (هوشع)]، وجاء فيه عن التوراة [أنه حدثت عملية إبدال وهي عملية سيكولوجية معروفة، فأضيف تاريخ شخصية أخرى إلى تاريخ (موسى).. فمن الحقائق المعروفة في تواريخ اليهود : أن التوراة أعيدت كتابتها عدة مرات، وفي إحدى هذه المرات ضاعت، تمامًا، فاجتمع سبعون من كبار رجال الدين وأعادوا كتابتها من الذاكرة][2] .

---

(١) **تاريخ العرب لجواد** ٢٢/١ إلى ٢٤ .

(٢) **مجلة الهلال** . العدد السابع من السنة السابعة والسبعين ، أول يوليو سنة ١٩٦٩م.

وبعد ! فمن الصعب إحصاء الآراء التي أبديت في الأسفار، ومن الصعب أن يسير البحث مع كل تحريف للاسفار، فالآراء التي أبديت في الأسفار كثيرة ومتشعبة، وكل مؤلف له هدف يرمي إليه؛ فرحمة الله استهدف بيان الفرق بين المنسوخ والمؤول. والفرق بينهما : جد واضح، فالناسخ والمنسوخ في القرآن شيء، والتحريف والتأويل في الأسفار شيء آخر، والناسخ والمنسوخ موضوع بحث فيه علماء الفقه الإسلامي، وانتهى بعضهم إلى أن ليس هناك منسوخ. فقوله تعالى ﴿لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾[1]، لم ينسخه قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2]، فإذا ما تورط المسلم في شرب الخمر، فعليه ألا يقرب الصلاة حتى يزول أثرها ويتبين ما يقول. ثم إن الناسخ لم يزد على القرآن وإن المنسوخ لم يحذف من القرآن. فكل من الناسخ والمنسوخ آيات من القرآن.

١٠- والفرق بين القرآن والأسفار : أن القرآن دوّنه كتّاب الوحي عن رسول الله ﷺ وجمع بعد وفاة النبي في عهد (أبي بكر)، وتوراة موسى لم تدوّن إلا بعد قرون من وفاته، والقرآن دوّن كما نزل حرفيًّا، وجمع بعد مراجعة ما في أيدي المسلمين من القرآن وما يحتفظ به كتّاب الوحي، وبعد إجماع الحفاظ الذين حفظوه عن النبي ﷺ مباشرة وكما نزل، والتوراة لم تدوّن حرفيًّا، ولم يدونها الذين عاصروا موسى ولا الأجيال القريبة من عصر موسى، والقرآن دوّن باللغة العربية وحدها منذ دوّن إلى الآن، والتوراة دوّنت بعدة لغات، وفي كل مرة دونت فيها الأسفار اختلط بأصلها ما يؤوّله المؤولون ويفسره المسفرون، وقل أن تطابق كلمة بكل معانيها كلمة أخرى إذا ما نقلت من لغة إلى لغة، وقل أن تجد نسخة خطية من الأسفار مطابقة للنسخة الأخرى التي دونت بعدها أو قبلها.

(١) سورة النساء، الآية : ٤٣.

(٢) سورة المائدة، الآية : ٩٠.

ولا أراني في حاجة إلى أن أقول : إنه لا يوجد بين ملايين المصاحف طيلة عصور القرآن مصحف واحد يزيد حرفًا أو ينقص حرفًا عن بقية المصاحف. بالرغم من تعدد المذاهب الإسلامية وشذوذ بعضها ؛ فهذه معجزة القرآن : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1] ، ولا أراني في حاجة إلى أن أقول : إنه لا توجد نسخة من الأسفار جدد تدوينها تطابق غيرها حرفيًّا ، فلقد قال هذا الكثيرون.

والأسفار : قديم العهد منها وجديده لم تخل في اعتقاد المسلمين مما نزل على الأنبياء ، ولا تخلو كذلك من المحرف والمؤول ، ولذلك وقف المسلمون منها موقف الحذر ، فهم لا يشكون إلا فيما يثبت التحقيق : الريبة فيه ، وهم لا يصدقون إلا ما يؤكد التحقيق الثقة فيه ، لا سيما فيما يعود إلى غير التاريخ.

وموقف الرواد المسلمين من التوراة في مظهريه : التصديق والشك لم يكن باعثه التعصب ضد اليهود ؛ لأنهم أعداء الإسلام ، أو التعصب لمصلحتهم ؛ لأنهم كتابيون يؤمن المسلمون بما نزل على أنبيائهم ، وإنما الإيمان بما نزل على الأنبياء هو الذي بعث الحذر مما انتحله المؤولون والمفسرون وزجوه في صلب الأسفار.. فنحن إذا نظرنا إلى موقف المسلمين من الأحاديث النبوية نجد : موقفهم منها قريبًا من الأسفار[2] ، فهم لا يأخذون بالحديث ما لم تثبت صحته وسلامة سنده من الضعف ، وإنما الفرق بين رجال الحديث وبين رجال التاريخ : أن علماء الحديث قريبو عهد من الأحاديث النبوية فبذلوا جهدًا منتجًا في تحقيق الصحيح منها والموضوع والقوي السليم من الضعيف المعلول. أما علماء التاريخ فلم تكن لديهم مراجع يعتمد عليها في معرفة الأصيل من الدخيل في الأسفار.

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٩.

(٢) كتاب نظرات في القرآن لمحمد الغزالي ، ص٥٣ وما بعدها .

١١- فهذا هو الفرق بين المسلمين وبين اليهود والمسيحيين، ن فالمسلمون حفظوا القرآن وحافظوا على نصه ولم يخلطوه بالحديث، وحفظوا الحديث ولم يخلطوه بأقوال الصحابة، فالقرآن الكريم كما نزل على محمد ﷺ لفظًا ومعنى والحديث كما ورد عن النبي ﷺ ، فإن كان هناك اختلاف في بعض ألفاظ الحديث، أو زيادة في رواية ونقص في رواية أخرى. كرر الحديث حسب أسانيده؛ لتوضيح ما اختلف في لفظه أو ما زيد فيه أو ما نقص منه. والأثر حقق ونسب إلى مصدره، فما كان عن (أبي بكر) أسند إلى أبي بكر، وما كان عن (عمر بن الخطاب) أسند إليه، وما كان لغيرهما أسند إليه ، وما كان للسلف الصالح نسب إلى صاحبه، فلذلك لم يصل الشك إلى القرآن، ولم يترك الموضوع من الأحاديث دون التنبيه إليه. ولقد انتهى التحقيق في الحديث إلى التسليم بالصحاح، على أن الإجماع انحصر في الأحاديث التي اتفق عليها الإمامان (البخاري) و(مسلم)، ولذا نجد المؤرخ المحقق مطمئنًا لنصوص التاريخ العربي الإسلامي، متأكدًا من أصلها.

١٢- ورأي المؤرخين المسلمين المتأخرين في التوراة واضح في تحقيقاتهم، وتحقيقاتهم تعترف بأن هناك كتبًا أنزلت على أنبياء بني إسرائيل .. بيد أنها تشك في الأصول التي تداولها الإسرائيليون والمسيحيون، وأسباب الشك عند المتأخرين هي : الأسباب عينها التي جعلت القدامى يشكون في أصول الأسفار، ولقد جاءت تحقيقات أكثر المستشرقين يهودًا ومسيحيين. تؤكد : أسباب الشك، فتحقيقات هؤلاء تؤكد : أن أصول الأسفار التي دونت في بداية تدوين اليهود أسفارهم فقدت، وأن المدارس اليهودية والمسيحية زادت عليها فيما تجدد تدوينه : تفاسير اجتهد المفسرون فيها بتأويل ما التبس عليهم وما رأوه في مصلحة العقيدة اليهودية ومبادئها وأهدافها. ولقد عُدَّت تفاسير المفسرين وتأولاتهم جزءاً من الأسفار، فقد جاء في (موسوعة تاريخ العالم): [أما أسفار موسى الخمسة التي نشرت في. صورتها النهائية سنة ٤٠٠ ق.م

وأما الكتب التاريخية : يشوع ، القضاة ، صمويل ، الملوك ، فإنها انتشرت على أنها كتب دينية حوالي ٥٥٠ ق.م ، وفي حوالي سنة ٢٠٠ ميلادية جمعت النصوص القانونية اليهودية في (مشنا) كتاب التعاليم وفي (التلمود) حوالي سنة ٥٠٠ ميلادية][١] .

١٣- وهناك بحوث عربية متأخرة اقتدت بآراء المستشرقين في كتب العهد القديم ، وفي كتب العهد الجديد ، فبالغت في الشك مثلما بالغ المستشرقون على أساس حرية النقد ، وتحرر البحوث من العقائد التي تفرض الحذر من الغلو الذي تدفع إليه في كثير من الحالات جرأة البحث وحرية النقد.

فالجديد في هذه البحوث هو : آراء المستشرقين الذين هاجموا التوراة بأسلوب ساخر ، ونقدوا أحبارها نقدًا لاذعًا ، فلقد جاء في دائرة معارف (لاروس) عن التوراة : [قد أثبت العلم العصري ولا سيما النقد الألماني ؛ بعد أبحاث مستفيضة في الآثار القديمة والتاريخ وعلم اللغات: أن التوراة لم يكتبها (موسى) وأنها عمل أحبار لم يذكروا اسمهم عليها ألفوها على التعاقب معتمدين في تأليفها على روايات سماعية ، سمعوها قبل (أسر بابل) ، بل ذهب العلماء إلى أن هذه الأسفار الخمسة ليست فيها الروايات الإسرائيلية جميعها ، ولكنها تحتوي فقط على إشارات ورموز وحكايات ، وأن هجرة مصر ما هي إلا قصة وهمية أو حادثة رمزية ليس لها أدنى أصل حقيقي][٢] .

ولقد مر بنا في بحث القصص القرآني في هذا الجزء : أن شك بعض المستشرقين لم يقف عند كتب أهل الكتاب ، بل تجاوزها إلى الشك في وجود (إبراهيم) و(موسى) و(عيسى) !!

ونحن بعد ما سبق أن قلناه في الجزء الأول من هذا الكتاب ، وبعد الذي قلناه في هذا الجزء عن شكوك بعض المستشرقين لا نرى : ضرورة للبحث في هذه الشكوك مرة

---

(١) الموسوعة ١/٦٦ .

(٢) دائرة معارف . وجدي . مادة توراة ٢/٧٠٢ .

أخرى، وإنما الضروري هنا البحث فيما يقوله المستشرقون عن الرواية العربية وتأثرها بالقصص اليهودي والمسيحي ، فلقد علق بعض المستشرقين على رواية المؤرخين في العصر الإسلامي بقوله : (إن القصص اليهودي والمسيحي وجد طريقه إلى التاريخ العربي تحت ستار تفسير القرآن ، وهو أمر لم يكن في صالحه تمامًا)[1]، ولقد تعلق بعض الحريصين على مصلحة التاريخ العربي بهذا الرأي، دون أن يتنبهوا إلى أسلوب المستشرقين في نقدهم، والقواعد التي يقوم عليها ، فلو أنهم قوموا بحوث المستشرقين لوجدوها في كثير من الموضوعات محدودة الثمن لا أنها تعتمد على عقلية العصر الحاضر ومنطقها، فما اتفق معها هو في رأيهم : حقيقة تاريخية، وما تعارض معها هو في رأيهم : خرافة خيالية ، لذلك نراهم في نقدهم كثيري التحول من الشك إلى الثقة وبالعكس، في بحث واحد وفي موضوع واحد .. فبينما نرى (غوستاف لوبون) يقول : "وما كانت الكتب العبرية المقدسة وحدها هي : التي حاكت نسيج هذه السير ، فإن التواتر والأساطير وغيرها أيضًا نقلتها إلينا" ، نراه يقول مرة أخرى : "ومما يجب التسليم به هو : أن الكلدانيين من أقدم شعوب العالم ، والكتب العبرية والتواتر يؤيدان: أن كلدة كانت أقدم بلد معمور"[2]، في حين نرى (غوستاف لوبون) مرة أخرى : ينتقد التوراة التي جعلت الكلدانيين أولاً من أقدم سكان أرض ما بين النهرين : [عادت التوراة أخيرًا كما جاء في سفر "إشعياء"، فجعلتهم مستعمرة بسيطة من مستعمرات الآشوريين] ويقول: (فهذه الرواية الثانية لا يصح الأخذ بها لعدة أسباب سنذكرها)[3]، فلو كان يوجد متسع في البحث لتعقبنا الأسباب التي سيذكرها ، فيكفينا هنا أن نقول: إن غوستاف لوبون في بحثه تاريخ الكلدانيين ، أكد : أن الكلدانيين كانت لهم دولة قديمة ،

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٤٩١/٤ .

(٢) بابل وآشور ، ص٢١ و ١٧ .

(٣) بابل وآشور ، ص١٧ .

وأن الآشوريين في عهدهم الثاني شادوا إمبراطورية شملت بلاد ما بين النهرين وامتدت إلى سوريا وغزت مصر، فكانت دول ما بين النهرين ومن ضمنها دولة بابل مستعمرات آشورية إذن فما هو: وجه التناقض في رواية التوراة ؟!

١٤- ثم جاء عصر اكتشاف الآثار، فأخذ المستشرقون يرجعون عن كثير من شكوكهم على ضوء النصوص الأثرية، فمثلما رجع (غوستاف لوبون) عن شكوكه عندما قال: "وما كان أحد في أوربا من خمسين سنة يصدق: أنه سيأتي يوم تؤيد فيه عيوننا بطريق المشاهدة تلك الروايات التي كنا نقرؤها ولا نصدقها"(١)، كذلك رجع (ديتلف نيلسن) عندما قال: "فمن هذه الصورة المتعددة الألوان التي نكونها من مجموعة النقوش، نتبين: الثقافة الحقيقية التي نمت وازدهرت في الشرق الأدنى، كما نتبين اللغة الغامضة الواردة في العهد القديم، والتي كثيرًا ما تحدثنا عن سبأ وثرواتها وزيارة ملكتها لسليمان الواردة في "سفر الملوك" الأول الإصحاح العاشر"(٢).

١٥- على أنني في دفاعي هذا عن الأخبار المنسوبة إلى الأسفار، لا أنزه كل ما وصل إلى المؤرخين العرب وغير العرب، فمنها: ما هو من مبالغات الخيال الذي ذهب بتأويل المؤولين وتفسير المفسرين إلى تيه النصوص السومورية، مما جعل المستشرقين يقولون: "فكل الأساطير المختصة بآلهة الإغريق، وكذلك قصة الخليقة الواردة في سفر التكوين من توراة العبرانيين تجد مثلها في معتقدات كلدة وآشور الدينية"(٣)، ويظنون: أن التوراة مأخوذة من قانون (حمورابي)(٤)، فما قاله (المطران الدبس) عن الأنساب، [فمن أي أصل تفرع نسب الشعوب الذين لم يذكر (موسى) أنسابهم، هذا مبحث آخر

---

(١) المصدر نفسه، ص١٠٤.
(٢) التاريخ العربي القديم، ص٣٠.
(٣) بابل وآشور، ص٩١.
(٤) الوحي المحمدي ٥١.

لا يعتاص علينا الاهتداء إلى وجهه][1] ، فلابد أن هناك الكثير مما لم يرد في الأسفار، ولم يعتص على الأحبار الاهتداء إلى وجهه، ومن هنا دخل التأويل والتفسير إلى الأسفار يصحبهما خيال المؤول والمفسر المتأثر بأساطير (بابل) (ونينوى) وتراث السوموريين.

ولا أنزه بعض المؤرخين العرب من حشو مؤلفاتهم بروايات لا يتثبتون من صحة سندها إلى أحبار الكتابيين، مثل : (كعب الأحبار) وغيره، فكثير من الروايات نسبت إلى كعب الأحبار رجمًا بالغيب، أثبت التحقيق فيها : أنها من صنع رواة الأخبار، فمن هذه الروايات : الخبر الذي تناقلته بعض المؤلفات العربية عن كعب الأحبار، وحديثه عن الآثار التي قيل : إن رجلاً يسمى (عبدالله ابن قلابة) عثر عليها في أحقاف اليمن، فقد جاء في هذه القصة : أن (معاوية ابن أبي سفيان) سأل كعبًا عنها، فقال له كعب : يا أمير المؤمنين، إنها (إرم ذات العماد) وإن توراة موسى أشارت إليها[2] ، في حين أن معاوية لم يصل إلى إمارة المؤمنين إلا بعد وفاة كعب، فإما أن يكون راوي هذا الخبر أضاف إلى حديث كعب مع ما أضاف : لقب أمير المؤمنين، أو أن الخبر بكامله - موضوع - فكثرة ما يسنده المؤرخون إلى الأسفار، ويروونه عن أحبار الكتابيين جعل بعض المحققين يتخيل وجود كتاب آخر غير توراة العبرانيين[3].. ولعل سبب كثرة ما يرويه المؤرخون العرب نشأ عن ادعاء اليهود : أن الله لم يخلق في الأرض شيئًا إلا وقد فسره في توراة موسى!! ذلك الادعاء الذي كان له أثره على الذين كان ديدنهم النقل والتدوين.

١٦- فالنتيجة التي نحصل عليها من البحوث التي حررها المتعمقون في دراسة الأسفار، ومن التحقيقات التي قام بها المتتبعون لنصوص التاريخ العربي وأروماتها، تتلخص فيما يأتي :

---

(١) تاريخ سوريا للمطران الدبس ٩٩/١ .

(٢) قصص الأنبياء للنيسابوري، ص١٤٢.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ٤/٦ .

أولاً : أن التوراة وكتب الأنبياء بعد موسى، وأن الإنجيل والأسفار بعد عيسى؛ دونت بعد وفاة الذين نسبت إليهم الأسفار، فلقد دونت التوراة بعد قرون كثيرة من وفاة موسى، وأن توراة موسى وأسفار الأنبياء من بعده نقلت من لغة إلى لغة ودوّنت عصرًا بعد عصر، وأن الذين نقلوها من لغة إلى لغة ودوّنوها جيلاً بعد جيل، تركوا لأنفسهم الحرية في التأويل بدافع ما يفرضه نقل كتاب من لغة إلى لغة - وجريًا مع ما يلائم بيئة اللغة ومنطق أصحابها، وما يمليه تطور الزمن وتجدد الحياة، ويساير ما ارتأته المدارس اليهودية وقرره رهبان الكنائس وأحبارها في مجالس نتج عنها تحول الفهم اليهودي عن اعتبار بعض الأسفار على أساس ديني إلى فهمها على أساس أدبي وتاريخي، وفي مجالس نتج عنها جمع النصوص القانونية في (كتاب التعاليم - المشنا) في عام ٥٠٠ ميلادية ونسبت هذه المجموعة إلى موسى[١]، وفي المجالس التي عقدها (قسطنطين) وقرر المجتمعون فيها : عدم التسليم بغير كتاب (يهوديت)[٢]. وأقدم الأناجيل : الإنجيل الذي دوَّنه (متى)، وقد دُوِّن بلغة الآراميين وبمنطق العبرانيين، والإنجيل الذي دونه (مرقس) على أساس ما سمعه من (بطرس)، وما سمعه (مرقس) ينحصر فيما كان يتحدث به (بطرس) حسبما تدعو إليه حاجة الحديث[٣]، ولذلك لم يخل سفر من الأسفار من التأويل والتفسير. ولقد سبق أن تكلمنا عن أسباب التأويل والتفسير وتحريف الكلم عن مواضعه في تضاعيف هذا البحث.

ثانيًا : أن وجهة نظر المؤرخين في اعتبار الأسفار مصدرًا من مصادر التاريخ العربي، تعتمد على قدم نصوص الأسفار؛ لذلك نراهم يرجعون إلى ما جاء فيها من أسماء القبائل والأماكن العربية. وإلى ما تحدثت عنه من أخبار الزمن البعيد، كما فعل

---

(١) موسوعة تاريخ العالم ١/٦٦ وما بعدها.

(٢) إظهار الحق ١/٥٣.

(٣) الروم وصلاتهم بالعرب ١/٤٠ و ٤١.

(جرجي زيدان) في كتابه: (العرب قبل الإسلام) وكما فعل (جواد علي) في كتابه: (تاريخ العرب قبل الإسلام) ، فمما قاله جواد علي: أما الفترة ما بين (التوراة) و(التلمود) [فيمكن الاستعانة في تدوين تاريخها بالأخبار التي ذكرها بعض الكتاب، ومنهم المؤرخ: يوسف فلافيوس][1] فإذا كان هناك تحريف في الاسم حدث من نقله من لغة إلى لغة بينوه كما فعل جرجي زيدان وجواد علي وغيرهما من الذين استشهدوا بأسماء عبرية ويونانية. ولسوف يأتي الكلام عن اختلاف الأسماء التي تنقل من لغة إلى لغة في البحث الآتي من هذا الفصل. وإذا كان هناك اشتباه في النص لفتوا النظر إليه كما فعل (رحمة الله) في كلامه عن أرض (أرغوب) وقرى (يابر)[2] وإذا كان هناك انحراف عن الحقائق التاريخية أظهروا حقيقته وأسبابه مثلما فعل (جون ويلسن) في كلامه عن الهكسوس[3]، وفعل ابن جرير في كلامه عن الذبيح[4].

إن قيمة النصوص الإسرائيلية تقدر على أساس قدم زمنها، فمثلها من الوجهة التاريخية مثل كل تراث قديم يصور لنا معلومات الأجيال الغارقة في أعماق الزمن. ومعلومات الأجيال التي دونت في عصورها الأسفار، يأتي الكلام عن مصادرها في البحث الآتي، فمن رأي (غوستاف لوبون): أن ما في الأسفار عن عالم ما قبل الطوفان وأصل الخليقة يوجد مثله في نصوص (السوموريين) وعالم ذلك الزمن[5]. ومن رأي بعض المستشرقين الألمان: أن شريعة (موسى) مستمدة من شريعة (حمورابي) البابلي الآرمي[6]، ومن رأي الذين اعتمد عليهم (جواد علي) في مؤلفه: أن الأسفار يتلوّن

---

(١) تاريخ جواد ٢٤/١.

(٢) كتاب إظهار الحق ٢٤٠/١.

(٣) الحضارة المصرية، ص٢٦٦.

(٤) تفسير ابن جرير ٥١/٢٣ وما بعدها.

(٥) بابل وآشور، ص٩١.

(٦) الوحي المحمدي، ص٥١.

طابعها بلون البيئة التي دونت فيها، فما دون في العراق ظهر عليه الطابع العراقي، وما دون في فلسطين ظهر عليه الطابع الفلسطيني[1].

فهذه الآراء كما تراها: مبنية على أساس اختلاط وحي (موسى) والأنبياء الذين جاءوا من بعده، ووحي (عيسى) والأنبياء الذين جاءوا من بعده، بتفسير المفسرين، وبما أضيف وأوّل من قبل المدارس اليهودية والمجالس المسيحية. وما فسّر وأضيف. وأوّل، في رأي المؤرخ الذي لا يهمه غير الخبر التاريخي، هو: نص له قيمته بالنسبة للتأريخ الذي يعود إليه ذلك النص، يفيد في معرفة الماضي، لا سيما أن الآثار قد أثبتت صحة الكثير من الأخبار التي تحدث عنها تراث القدامى، والتي كانت إلى وقت قريب هدفًا لسخرية الشكوك.

فبناء على كل هذا: كان على المؤرخ البحاثة؛ ألاّ يصدق نصًّا إسرائيليًّا أو يشك فيه؛ إلا بعد تحقيق وتثبت، فالمؤرخ الذي يسجل كل ما يروى عن الأسفار على عاهاته يفقد تاريخه قيمته العلمية، مثلما يخسر التاريخ الذي يخلو من نصوص التراث القديم قيمته التاريخية. وكذلك: كل بحث يأخذ بجميع الشكوك يضيع الكثير من حقائق التاريخ، مثلما يخسر كل بحث يرفض الشكوك مهما كانت أدلتها واضحة: نتائج لا تستغني عنها الدراسات التاريخية.

١٧- والأسفار يهودية ومسيحية، هي: في مقدمة نصوص التاريخ القديم، لها قيمتها في تاريخ البلاد العربية الجاهلي بالنسبة لانتشار الجاليات اليهودية والمسيحية في أرجاء البلاد العربية، تلك الجاليات التي هاجرت إلى شبه الجزيرة العربية من مصر، ومن آسيا الصغرى ومن البحر الأبيض المتوسط، والتي لم يغفلها التاريخ العربي ولم تهمل ذكرها مصادره، فلقد ورد ذكرها في أخبار الجاهلية وأشعارها، ولقد تحدث القرآن الكريم عن

---

(١) تاريخ جواد علي ١/ ٢٤.

أصحاب الأخدود وعن أنبياء بني إسرائيل في سوريا ومصر إلى غير ذلك، مما لابد للمؤرخ من الكلام عنه والتحقيق فيه .

فالأسفار كغيرها من مصادر التاريخ العربي لها مكانتها بين نصوص التاريخ لا يمكن تجاهلها ، والأسفار ككل مصدر من مصادر التاريخ عرضة للشك ما خلا تلك النصوص التي تثبت عصمتها. وكل نفي أو إثبات لا بد أن يسبقه تحقيق يستند إلى أدلة تؤكد النتائج التي يصل إليها : وكل تحقيق لا يقوم على أدلة واضحة منصفة سليمة من التطرف وسليمة من الجمود هو : في نظر الباحث المتزن والقارئ المعتدل هراء .

والأسفار التي ذكر البحث أسماءها هي قليل من كثير نظم به البيان الآتي تكملة لبحث الأسفار :

بيان بأسماء الأسفار وعددها :

أولاً : القسم الأول من العهد العتيق :

١- سفر التكوين ويسمى سفر الخليقة
٢- سفر الخروج .
٣- سفر الأحبار .
٤- سفر العدد .
٥- سفر التثنية .

هذه الأسفار الخمسة منسوبة إلى موسى عليه السلام

٦- سفر يوشع بن نون.
٧- سفر القضاة.
٨- سفر راعوث .

٩- سفر صموئيل الأول .

١٠- سفر صموئيل الثاني .

١١- سفر صموئيل الملوك الأول .

١٢- سفر صموئيل الملوك الثاني .

١٣- سفر أخبار الأيام الأول .

١٤- سفر أخبار الأيام الثاني .

١٥- سفر عزرا .

١٦- سفر عزرا الثاني ويسمى نحميا .

١٧- سفر أيوب .

١٨- سفر زبور .

١٩- سفر أمثال سليمان .

٢٠- سفر الجامعة .

٢١- سفر نشيد الإنشاد .

٢٢- سفر أشعيا .

٢٣- سفر إرميا .

٢٤- سفر مراثي إرميا .

٢٥- سفر حزقيال .

٢٦- سفر دانيال .

٢٧- سفر هوشع .

٢٨- سفر يوئيل .

٢٩- سفر عاموس .

٣٠- سفر عوبديا .

٣١- سفر يونان .

٣٢- سفر ميخا .

٣٣- سفر ناحوم .

٣٤- سفر حبقوق .

٣٥- سفر صفونيا .

٣٦- سفر حجي .

٣٧- سفر زكريا .

٣٨- سفر ملاخيا .

ثانيًا : القسم الثاني من العهد العتيق :

١- سفر أستير .

٢- سفر باروخ .

٣- جزء من سفر دانيا .

٤- سفر طوبيا .

٥- سفر يهوديت .

٦- سفر وزدم .

٧- سفر إيكليزيا ستيكس .

٨- سفر المكابيين الأول .

٩- سفر المكابيين الثاني .

ثالثًا : القسم الأول من العهد الجديد :

١- سفر إنجيل متى .
٢- سفر إنجيل مرقس .
٣- سفر إنجيل لوقا .
٤- سفر إنجيل يوحنا .

وهذه الأسفار الأربعة هي التي أطلق عليها اسم إنجيل ، وأطلق على الباقي مجازًا .

٥- سفر أعمال الحواريين
٦- سفر رسالة بولس الأولى .
٧- سفر رسالة بولس الثانية .
٨- سفر رسالة بولس الثالثة .
٩- سفر رسالة بولس الرابعة .
١٠- سفر رسالة بولس الخامسة .
١١- سفر رسالة بولس السادسة .
١٢- سفر رسالة بولس السابعة .
١٣- سفر رسالة بولس الثامنة .
١٤- سفر رسالة بولس التاسعة .
١٥- سفر رسالة بولس العاشرة .

رسائل إلى بعض المدن .

١٦- سفر رسالة بولس الحادية عشرة .
١٧- سفر رسالة بولس الثانية عشرة .
١٨- سفر رسالة بولس الثالثة عشرة .
١٩- سفر رسالة بولس الرابعة عشرة.
٢٠- سفر رسالة بولس الخامسة عشرة .

(١٦-٢٠) رسائل إلى بعض الأشخاص .

رابعًا : القسم الثاني من العهد الجديد ، وهو كناية عن رسائل وبعض فقرات من الرسالة الأولى ليوحنا :

١- سفر رسالة كلوسى .
٢- سفر رسالة بطرس .
٣- سفر رسالة يوحنا الثانية .
٤- سفر رسالة يوحنا الثالثة .
٥- سفر رسالة يعقوب .
٦- سفر رسالة يهوذا .
٧- سفر رسالة مشاهدات يوحنا .

ومن كتب العهد الجديد سوى الكتب التي ذكرت في هذا البيان : كتب جاوز عددها السبعين منسوبة إلى عيسى ومريم والحواريين وتابعيهم ، وهي في نظر المسيحيين المتأخرين كتب موضوعة باسم عيسى ومريم والحواريين.

أما الأسفار المذكورة في هذا البيان، فلقد سبق الكلام عنها عمومًا ، وسبقت الإشارة إلى أن من اليهود من لا يعترف بأن التوراة نفسها من إملاء (موسى). ولقد

تصدى (رحمة الله) الذي ننقل عنه هذا ا لبيان للمناقشة في هذه الأسفار، فبين عدم وجود سند متصل لها، وما في هذه الأسفار من اختلاف وأغلاط، وما فيها من تحريف لفظي وتحريف بالزيادة والنقص، وبين الرسائل المنسوبة إلى غير واضعيها والكتب المفقودة إلى غير ذلك مما تجده في كتاب (إظهار الحق).

وأخيرًا وآخرًا أكرر القول : إن قيمة الخبر الموجود في الأسفار في نظر المؤرخ تقدر على أساس تاريخ الخبر، وإن على كل مؤرخ ألاّ يأخذ خبرًا ما لم تثبت صحته سواء كان الخبر من الأسفار أو من غيرها.

البحث الثاني :

المؤلفون في التاريخ قبل الميلاد وبعده

من موضوعات البحث :

١ - بداية الثقافة.

٢ - التاريخ الديني .

٣ - من المرجح : أن الجزيرة العربية هي : مهد التدوين .

٤ - صلات اليونانيين وغيرهم بالعرب وبواعثها.

٥ - البيان الذي نظمه جرجي زيدان بأسماء أقدم المؤرخين .

٦ - مصادر التاريخ الأقدم من القديم .

٧ - ليس كل ما ألفه القدامى خرافة وخيالاً .

٨ - وقفة مع نقاد التراث القديم .

٩ - مصادر قدامى المؤرخين الذين تكلموا عن العرب .

١٠ - حقيقة المصادر التي رجع إليها العرب فيما كتبوه عن تاريخ اليهودية والمسيحية القديم.

١١ - من أي نوع كانت معارف اليونانيين في عصر الإسكندر الأكبر .

١٢ - إيضاح عن أسماء الشعوب والأماكن التي ذكرها القدامى غير العرب .

١٣ - أسباب مبالغة المؤرخين .

١٤ - أمثلة معاصرة .

١٥ - تصحيف الأسماء وأسبابه.

١٦ - ميول المؤرخين .

المؤلفون في التاريخ قبل الميلاد وبعده

١- لم يأل الإنسان جهدًا في بناء مستقبل أبنائه على ضوء تجاربه وما تعلمه من آبائه، منذ ظهر في هذا الوجود، ولم يُرحِ الإنسان عقله من التفكير في بداية هذا الوجود ومصيره، منذ عرف معنى الحياة، فكما ورَّث الإنسان الأول أبناءه تجاربه، توارثت الأجيال الأفكار جيلاً بعد جيل، وكما تطورت التجارب وسارت في طريق التقدم، تطورت الأفكار وتشعبت بها مسالك الاستطلاع والمعرفة.

فمن بداية البحث الفردي أخذت المعارف تنمو وتتسع كلما نمت حياة الإنسان واتسعت عقليته، وأخذت الأفكار تتخطى العقبات في طريق التجمع، وأخذت النتائج تتبلور على صورة البحث العلمي، وهكذا دواليك أخذت المعارف تنتقل من مرحلة إلى أخرى حتى وصلت معارف إنسان اليوم إلى ما وصلت إليه.

٢- والبحث في بداية الوجود وأصل الخليقة، شغل به الإنسان منذ بدأ يفكر في هذه الحياة؛ فمن الزمن المجهول ظهرت عباقرة الرسل والأنبياء يذكرون الناس بماضيهم ويلفتون نظرهم إلى مصيرهم المحتوم. ومن هنا كانت نقطة البداية للمعارف التاريخية، وهذا الجزء من التاريخ: بداية الوجود، وأصل الخليقة، ونشأة الإنسان- عدّته الأجيال تاريخًا دينيًا عليها أن تؤمن به ولا تشك فيه. وحول هذا الجزء تجمعت الأفكار وأخذت تسطر التاريخ.

ومن أقدم ما وصل إلينا مما سطرته أجيال الماضي: ما ظهر تحت معاول المنقّبين عن الآثار في أرض وادي الفرات، ورمال وادي القرى، وبطون أهرامات وادي النيل، وفي أقدم ما وصل إلينا من التراث القديم: الأنباء التي دار حولها الفكر التاريخي، ومن تلك الأنباء: ما أصبح حقائق تاريخية، ومنها: ما لا يزال أساطير خيالية.

٣- وإذا صح: أن الكنعانيين هم الذين نقلوا الحضارة الأولى من الخليج الإسلامي- العربي إلى سهول سوريا وجبال لبنان[١]، وإذا صحّ ما قيل عن هجرة جماعة من ا لكنعانيين إلى اليونان، وعن رائد هذه الجماعة (قدموس) الكنعاني، وأن (قدموس) هذا هو الذي وضع الحروف اليونانية[٢]؛ تكون شواطئ الجزيرة العربية على الخليج الإسلامي، هي: المدرسة الأولى التي انبعث منها التدوين، وبالتالي التدوين التاريخي.

٤- ونحن إذا ما أردنا أن نبحث عن صلات اليونانيين بشرقنا العربي، نجدها: صلات أقدم من تاريخ الغزو الإسكندري، ونحن إذا ما أردنا: التثبت من تلك الصلات نخرج بالبحث عن موضوعه بدون ضرورة تدفعنا إلى الخروج عنه، فبواعث عناية اليونانيين وغير اليونانيين بحضارة شرقنا العربي وتاريخها، واضحة؛ فالأدوار السياسية والحضارية التي برزت فيها دول هذا الشرق من قبل عصور التاريخ ومن بعدها، اجتذبت أنظار الطماحين إلى الفتوحات واستهوت طلاب المعارف وعشاق المال؛ ففي أرض دجلة والفرات، والنيل، والنحاس، والذهب، والبخور، والطرق التجارية، والموانئ العالمية، تقابلت الأديان وتلاقت الثقافات وزخرت المجتمعات بكل ما تتطلع إليه آمال ذلك الزمن، وفي بعض هذا: ما يلفت النظر، ويبعث الهمم على العمل لإنشاء صلات أو فرضها على سكان هذه الأرض؛ فمن تلك الصلات التي نشأت ثم فرضت: صلات شعوب (مقدونيا) وغيرها من سكان شبة (جزيرة البلقان)، وأمم (البحر المتوسط) التي سبقت الكثير من شعوب أوربا إلى الحضارة بسكان شبه الجزيرة العرب وأمم الشرق الأوسط العريقة في تمدينها، وتعايش العناصر في أرض واحدة لا بد أن تنشأ عنه صلة الدم كالتي قال عنها الكلاسيكيون، ونفتها شكوك المتأخرين الذين عدّوا حديث القدامى عن صلة الدم تلك: من الأخبار الساذجة التي تناقلتها الكتب الكلاسيكية[٣]، ولم يلتفتوا إلى ما قيل عن هجرة قدامى الكنعانيين إلى مقدونيا وهجرة المقدونيين إلى الشرق الأوسط.

---

(١) راجع بحث الخطوط السامية . العربية . في الجزء الأول من هذا الكتاب.

(٢) تاريخ سوريا للمطران الدبس جزء ١، مجلد١، ص٢٥٧ و٢٦٣ .

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي، ٢٥/١ .

فمما لا شك فيه : أن لأمم كثيرة صلات قديمة بالشرق العربي في المجالين : الثقافي والسياسي ، وفي مقدمة هذه الأمم : اليونانيون، وأن لأمم الشرق العربي صلات كثيرة بشعوب آسيا ، وإفريقيا ، وشبه جزيرة البلقان، وفي مقدمة هذه الأمم الكنعانيون وخلفاؤهم الفينيقيون. ومما لا شك فيه : أن مدارس اليونانيين القديمة في مقدونية عنيت بأحداث هذا الشرق الذي امتد نفوذ دوله في عصور ما قبل الميلاد إلى (جزيرة قبرص) وروابي (الأنضول) و(أرمينية)[1] - وأن مدارس يونانية نشأت بعد غزو الإسكندر الأكبر، في المستعمرات اليونانية التي نشأت بعد ذلك الغزو - في (إيران) وأطراف (العراق)، وفي (الإسكندرية) وشواطئ مصر.

ولقد زادت في التحام الثقافة الإغريقية بالثقافة الفارسية الآرية والثقافة السامية العربية، في العراق، وسوريا ، ومصر : انتصارات الإسكندر المقدوني الأكبر حوالي سنة ٣٣٦ ق.م، مثلما ربطت فيما بعد الثقافة الرومانية بجميع تلك الثقافات : انتصارات القيصرية البيزنطية على سوريا ومصر. ولقد وجد الإسرائيليون في فلسطين التي خضعت لملوكهم، مجالاً لنشر أسفارهم، وكما كان العراق أيام السبي : مأوى الإسرائيليين - كانت أرضه المكان الذي دون فيه أقدم أسفارهم سنة ٧٥٠ ق.م.

فمن التحام هذه الثقافات انبعث نشاط فكري سجلته اللغات الحية في ذلك الزمن: اليونانية والسريانية بخطوطهما الواضحة المهذبة؛ مدونات أفادت وما زالت تفيد الدراسات التاريخية ، وأنارت سبل الذين نهضوا يؤلفون ويحققون في تاريخ الشرق الأوسط القديم.

٥- ولقد نظم (جرجي زيدان) في كتابه: (العرب قبل الإسلام) بيانًا بأسماء أقدم رواد التاريخ حسب سني وفياتهم : كلدانيين ويونانيين ويهودًا وبيزنطيين - ننقله بحذافيره هنا.

---

(١) قصة الحضارة ٢٦٨/٢ .

الاسم		سنة ا لوفاة قبل الميلاد
١-	هيرودتس	٤٠٦ ق.م
٢-	ثيوفراست	٣١٢ ق.م
٣-	بروسوس	٣٠٠ ق.م
٤-	أرسطون	٢٥٠ ق.م
٥-	إيراتوسنتيس	١٩٤ ق.م
٦-	أغاثارسيدس	١٥٤ ق.م
٧-	ديودورس الصقلي	٨٠ ق.م

الاسم		سنة الوفاة بعد الميلاد
١-	إسترابون	٢٤ ب.م
٢-	بلينيوس	٧٩ ب.م
٣-	صاحب كتاب (الطواف)	٨٠ ب.م
٤-	يوسيفوس ـ يوسف	٩٣ ب.م
٥-	أبولودورس	١٣٠ ب.م
٦-	بطليموس القلوذي	١٤٠ ب.م
٧-	إريان	١٧٥ ب.م
٨-	هيروديان	٢٥٠ ب.م
٩-	أوسابيوس	٣٤٠ ب.م
١٠-	أثناسيوس	٣٧٣ ب.م
١١-	زينوفون	٣٥٩ ب.م
١٢-	هيرونيموس	٤٢٠ ب.م
١٣-	فيلوسترجيوس	٤٢٥ ب.م
١٤-	بروكوبيوس البيزنطي	٥٦٥ ب.م
١٥-	ستيفانوس البيزنطي	٥٦٧ ب.م

٦- من الضروري للبحث أن نقف قليلاً عند هذه الأسماء التي جاءت في بيان (جرجي زيدان) لمعرفة مصادر هؤلاء المؤرخين الذين جمعوا ذلك التراث الذي وصل جزء منه لأيدي الذين تعمقوا في دراسة التاريخ القديم، ولمعرفة من أين أتت إلى (هيرودتس) و(ديودورس) و(إسترابون) أخبار (سميراميس)؟ ومن أين عرف هؤلاء قصورها؟ وعلام اعتمدوا في وصف الحضارة (البابلية) و(الآشورية)؟ ومن أي طريق وصلت إليهم أخبار القبائل العربية ومدنها؟ ومن أين أتتهم أخبار عالم ما قبل الطوفان؟!!

إن الشكوك في التاريخ الأقدم من القديم لم تصرف الباحث عن حقيقة ما فتئ يرددها، حقيقة تظهر في عباب الشكوك مؤكدة: أن للكثير من قصص القدامى أصلاً تاريخيًّا، وأن الأقدمين لم تنعدم في عصورهم النصوص الأثرية، بل كانت لديهم نصوص لا تقل عن النصوص التي اعتزّ بها المفتخرون بالاكتشافات الأثرية في العصور الأخيرة، ونالت ثقة مطلقة من الذين يعتقدون: أن المؤرخ في العصر الراهن أصبح بفضل الكشف الأثري يعرف عن التاريخ القديم ما لم يعرفه المؤرخون القدامى الذين سبقوا الميلاد، والذين عاصروه، والذين جاءوا من بعده إلى عصر الاكتشافات الأثرية. فمما جاء في التعليق على كتاب (قصة الحضارة) لمؤلفه (ول - دبورانت) - : [لقد كان كشف هذه الحضارة المنسية من أروع القصص غرابة في علم الآثار. لقد كان الرومان، واليونان، واليهود - وهم: الذين نسميهم القدماء - أكثر جهلاً منا بالمدى الواسع لأحقاب التاريخ، لا يعرفون شيئًا عن (سومر)، ولعل (هيرودیت) لم يصل إلى علمه شيء عن هؤلاء الأقوام. وإذا كان قد وصل إلى علمه شيء عنهم، فقد أغفل أمرهم؛ لأن عهدهم أبعد إليه من عهده لنا!! ولم يكن ما يعرفه (بروسوس) وهو مؤرخ بابلي كتب حوالي سنة ٢٥٠ ق.م عن (سومر)؛ إلا مزيجًا من الخرافات والأساطير - فقد وصف في تاريخه جيلاً من الجبابرة يقودهم واحد منهم يسمى (أوانس) خرج من الخليج الفارسي - الخليج الإسلامي - وأدخل في البلاد فنون الزراعة، وطرق المعادن، والكتابة، وقد ترك لبني الإنسان كل الأشياء التي تصلح أمور حياتهم، ولم يخترع من

ذلك الوقت شيء حتى الآن، ولم تكشف بلاد (سومور) إلا بعد ألف سنة مما كتبه بروسوس][1] .

إن القول بأن أولئك القدامى لم يعرفوا شيئًا عن (سومر) وأن تراثهم مزيج من الخرافة والأساطير - يعتمد على أدلة النفي ويهمل شواهد الإثبات التي جاءت في النتائج التي وصل إليها تحقيق الباحثين في مصادر المدونات القديمة. ولقد تأرجحت آراء البعض بين الشك في معارف القدامى وبين الثقة فيها . مثل : (غوستاف لوبون) الذي قال مرة : إن مكتبة (آشور بانيبال) مملوءة بنتف كثيرة من النصوص (السومورية) الأكادية القديمة، وإن تلك النصوص كانت الخاطر الأول الذي ألهم الكتاب النينويين[2] - ووجدت بمكتبة (آشور بانيبال) في قصر (فويونجيك) بنينوى (عاصمة . الآشوريين) : نصوص من لوحات الآجر تمثل كتلة لا تقل مساحتها عن مئة متر مكعب تكفي سطورها لتملأ ما لا يقل عن خمسمائة مجلد . وكانت كتابة الآشوريين والسوموريين والأمم المجاورة في بلاد (مادي) و(فارس) و(أرمينية) على أسلوب خطي واحد . هو : الخط المسماري[3] - وكان لهذه المكتبة التي تُعد أول مكتبة عرفت في العالم . نظام دقيق[4] .

ثم عاد (غوستاف لوبون) مرة ثانية فوقف مع الناس الذين وقفوا أمام نصوص التوراة وتراث قدامى المؤرخين .. بين الشك فيها والتصديق بها : [ووقف الناس حيارى عند العبارات المبهمة التي جاء ذكرها في التوراة، والأساطير التي وردت على لسان (هيرودوس) و(ديودورس)، و(إسترابون)؛ منقولة عن (ستيزباس) وهو طبيب إغريقي في بلاط (أرتخرسيس) الثاني (نيمون) الذي ملك الفرس من سنة ٥٠٥ إلى سنة ٣٥٩

---

(١) قصة الحضارة ١٤/٢ .

(٢) حضارة بابل وآشور لغوستاف لوبون، ص٤٦، والنينويون: هم الذين نسبوا إلى (نينوي) عاصمة الآشوريين الواقعة في منطقة الموصل بالعراق.

(٣) المصدر نفسه، ص٤٢ و ٤٣.

(٤) انتصار الحضارة، ص٢١٤.

ق.م. وهو مرجع تلك الروايات البعيدة عن كل تصديق؛ ولذلك لم يبق غير مرجعين وحيدين، وإن كانا مشكوكًا فيهما أيضًا وهما: (أوزيب) و(يوسفوس. يوسف) اللذين نقلا عن بعض أوراق من كتاب كاهن كلداني اسمه (بيروز - بروسوس) معاصر للإسكندر. وهو الذي كتب تاريخ الآشوريين نقلاً عن المخطوطات المسمارية، فكان في هذا التاريخ مثل (مانيتون) فيما وضعه عن تاريخ مصر.. وكانت الكتب العبرية المقدسة وحدها[1] هي التي حاكت نسيج هذه السير، فإن التواتر والأساطير وغيرها أيضًا نقلتها إلينا من بلاد العرب بأسماء تختلف عما جاء في ذلك التراث، فقد جاء اسم (نوح) بدلاً من اسم (كزيسوسروز) واسم (نمرود) بدلاً من اسم (يستوبار)][2].

فغوستاف لوبون المحتار هو نفسه يؤكد: [وكان الكلدانيون لا ينشرون مكتشفاتهم، أو يخلدون أخبارهم بعبارات موجزة، أو بروايات مبهمة، بل كانوا يصنفون في ذلك كتبًا حقيقية ومؤلفات شاملة تتناول كثيرًا من الموضوعات: كالتاريخ، والعلوم، والدين، حتى القصص والأساطير. وبترجمة النصوص السومورية الأكادية القديمة قد نتمكن من معرفة أصل هذه الكنوز؛ لأن مكتبة (آشور بانيبال) مملوءة بنتف كثيرة منها، لا بد أنها كانت الخاطر الأول الذي ألهم الكتاب النينويين. وكان ملوك آشور يعنون كثيرًا بترجمتها، ولكن هذه التراجم تحول بيننا وبين صحة الحكم على قيمة الأسفار الكلدانية الأدبية ما دمنا لا نستطيع الحصول على غير أصول وتراجم نينوية، وكل ما يمكننا أن نقوله الآن أخذًا عن الآثار الآشورية: أن الكلدانيين كانت لهم مكتبات وكتب ومدارس، ودور علم عامرة منذ أربعة آلاف سنة قبل المسيح، أي في عصر (سرجون) القديم الذي أشرنا إليه. ولقد أخذ المؤرخ (بيروز) تاريخه مباشرة عن كتب (بابل)؛ لأن (الإغريق) يذكرون هذه الكتب التي طالت شهرتها وذاعت حتى إن

---

(١) ما يخص التوراة تجد البحث فيه في الفصل الخاص بالأسفار من هذا الجزء.

(٢) بابل وآشور، ص١٩ وما بعدها.

(داسماشيوس) حدثنا في رسالة (الأصول الأربعة) عن أصل الخليقة، مما استنبطه من مخطوطات كلدانية وجد لها ترجمة في مكتبة (آشور بانيبال)][1] .

فاستقصاء البحث يفرض علينا : أن نفتش عن مصادر النصوص السومورية التي وجدت في مكتبة (آشور بانيبال)، ومن أين عرف الكلدانيون أصل الخليقة؟! ونحن إذا ما أخذنا نفتش عن تلك المصادر نجد : المستشرق (ل. ديلابورت) قد سبقنا إلى التفتيش عنها وقال : [فإذا سرنا إلى أبعد من ذلك عرضت لنا في الحال أسرة (أجادة) حوالي سنة ٢٨٤٥ ـ ٢٦٤٩ق.م ، وقد أقام (سرجون) مؤسس هذه الأسرة مملكته على أنقاض قوة (لوجالزا جيس ـ من أدرك ملك سومير) . وقد تغلب هذا بدوره على (أوروكاجينا) من (لاجاش) وابتداءً من هذا الملك توجد وثائق معاصرة تسمح بالذهاب إلى أبعد من هذا حتى تصل إلى (أورنينا) . وأقدم أثر منقوش يتضمن واقعة مؤكدة هو : رأس دبوس حلي برسوم الحيوانات مقدم للإله (نينجر)، وفي (نيبور) يوجد أثر نذره للإله (أتليل) إيشكاكون كبش يدعى : (أوتوج) وعليه كتابة أكثر إمعانًا في القدم][2] - ونجد أنفسنا بعد الذي قاله (ل. ديلابورت) مضطرين إلى الرجوع إلى ما قيل عن فكرة التاريخ ونصوصه الحجرية، أفلا تكون تلك النتف التي ملأت مكتبة آشور، وتلك المدونات الكلدانية، اعتمدت على آثار خلفتها الأمم التي سبقتها مثلما اعتمد المؤرخون اليوم على آثار : آشور، وبابل ـ وأن المعنيين بالآثار في العصور القديمة حلوا رموزها كما حل الأثريون اليوم رموز الآثار التي اكتشفوها ؟؟ - وإذا كان القدامى قد مزجوا : التاريخ بالخيال ـ فهل سلمت ظنون الأثريين في عصرنا الحاضر من الخيال؟!

أوليس (بروسوس ـ بيروز)[3] - في تقديره عمر الإنسان في هذه الأرض، أقرب إلى الحقائق التي توصل إليها الجيولوجيون والأثريون في العصر الحاضر، من الإسرائيليين

---

(١) المصدر نفسه، ص٤٦ وما بعدها.

(٢) كتاب - **بلاد ما بين النهرين**، ص٢٢ وما بعدها .

(٣) بروسوس ـ وبيروز وبيروس ـ مؤرخ اختلف المترجمون في نقل اسمه إلى العربية.

والمسيحيين الذين كانوا إلى زمن قريب لا يزيدون عمر الإنسان على هذه الأرض أكثر من بضعة آلاف من السنين؟؟ أوليس (بروسوس) ـ ذكر دولاً قامت قبل الطوفان ودولاً نشأت بعده قبل عصر سرجون بمئات الألوف من السنين فجاء المكتشفون في العصر الحاضر بنصوص أثرية ذهبت بظنون الباحثين في التاريخ القديم إلى حضارة ما قبل الطوفان؟!(١) .

فمن رأيي : أن الحكم على المؤرخين القدامى بأنهم كانوا على جهل تام بالأمم التي اكتشفت آثارها ، وأن الحكم على تراثهم بأنه خليط من الخرافة والخيال حكم مجحف؛ فهذه البحوث المتعمقة كما نراها تؤكد لنا : أن أولئك القدامى كانوا يملكون نصوصًا تاريخية ، وأن من أولئك القدامى من وصل إلى نتائج لا تبعد كثيرًا عن النتائج التي وصل إليها الجيولوجيون والأثريون. وها نحن أولاء نرى (غوستاف لوبون) عندما ينتقل من موقف الشك إلى عتبة الثقة ـ يقول : [ولقد انفصلت تحت معاول الفعلة أجزاء مهمة من طلاء جدران قصر (سرجون الثاني الأكادي) القريب من المدينة المعروفة الآن باسم (خورزاباد) كانت مغطاة بنقوش بارزة بديعة وكتابة لم يفهم لها معنى إلى الآن وكاد الأمل يخيب في حل رموز الخطوط المسمارية المخالفة لغيرها من الخطوط ، وبفضل عبقرية علماء الآثار الذين وضعوا في أيدينا مفتاح الباب الذي ندخل منه إلى مجاهل ذلك التاريخ وتلك الحضارة التي كان يحوم الشك حول وجودها ، لم يصعب بعد ذلك علينا الوقوف على ماضي الكلدانيين والآشوريين؛ لأنهم هم أنفسهم : الذين تكفلوا بأن يقصوا علينا أخبارهم ، وإن المستقبل كفيل بإماطة اللثام عما لا تزال رموزه غير مفهومة](٢) .

---

(١) راجع **العرب قبل الإسلام** لجرجي زيدان ، ص٥٢ ، والجزء الأول من هذا المؤلف : بحث دول ما قبل التاريخ ١/٦٣.

(٢) **حضارة بابل وآشور** ، ص٢٦ وما بعدها.

٧- فنحن إذا كنا نعتمد على عبقرية علماء الآثار، لم نحرم القدامى من مثل هذه العبقرية، فالعبقرية ليست من مميزات الإنسان في هذا الزمن! فليست معارف العصر الحديث إلا ثمرة دروس مرت بالإنسان، وتجارب مارسها. وما دمنا نسمع عن آثار غارقة في القدم، ظهرت عفوًا، وآثار اكتشفها التنقيب العلمي؛ فما الذي يمنع القدامى من العثور على آثار ربما كان الوصول إليها قبل ألفين وخمسمائة عام أسهل من العثور عليها اليوم؟؟

إننا لا نستبعد أن يكون (ديودورس) قد وقف أمام آثار ماضية يسألها: أن تنبئه بأخبارها، فلما لم تجبه عن كل ما تهمه معرفته؛ لجأ إلى معارف (ستيزياس) يستوضحها، كما لجأ إليها (إسترابون). وكما قد يكون (هيرودتس) لجأ لمعاصره (ستيزياس)، واستعان بتقديره فيما كان يخشى أن يتهم فيه بالمبالغة[1] شأن كل مؤرخ مستطلع في الماضي والحاضر.

ولعل (ستيزياس) رجع إلى نصوص وصلت إلى (أرتخوسيس - نيمون)؛ فلقد كان ملوك ذلك الزمن الذين تكفلوا بأن يقصوا علينا أخبارهم واحتفظوا بمكتبات ملأتها النصوص الأثرية. حريصين على تدوين الأخبار بالتفصيل. أما (بيروز) الذي نقل عنه (أوزيب) ونقل عنه (يوسفوس). فقد نقل عن مخطوطات مسمارية كما جاء في بحث غوستاف لوبون.

على أننا لا نستبعد: أن يكون خيال بعض أولئك القدامى، أو بعض من أخذ عنهم تدخل في تفسير بعض الغوامض فصاغ الأساطير عن حدائق (سميراميس) المعلقة ومخترعات عصر (أوانس)[2] وتصور الحدائق المعلقة، حدائق معلقة في الهواء، وأن (أوانس). هو وحده الذي اخترع كل ما يحتاج إليه عالم ما قبل الطوفان، في حين أن

---

(١) **بابل وآشور**، ص١١٧ وما بعدها.

(٢) لعله يقصد (إدريس).

الحدائق المعلقة تعد من روائع الفن المعماري القديم القائم على قواعد هندسية كتب عنها المؤرخون، وبينوا حقيقتها البعيدة عن صور الخيال الساذج[1] .. وفي حين أن عصر (أوانس) يعد من العصور الذهبية التي مرت على الإنسان في عصور ما قبل الطوفان، كما تؤكد ذلك رواية الكلاسيكيين، وتؤكده النصوص الأثرية[2] .

إنني لا أستكثر على القدامى النبوغ في الفن المعماري، بعد أن رأيت في (الهند) روائع الفن القديم السابق لمدنية أوربا الحديثة، وسمعت عنها في (إيران).. ففي الهند رأيت مسجدًا في (أحمد أباد) تهتز مآذنه، وسمعت: أن في إيران مثل هذا المسجد، وبعد أن رأيت في (بعلبك) قلعتها وفي (الجيزة) أهراماتها. وبعد أن رأيت في (روما) آثار الرومانيين - إلى غير ذلك من آثار (ثمود) في الحجاز و(الأنباط) في فلسطين.

إنني لا أستكثر كل ذلك؛ لأنني أعلم أن الذين شيدوا تلك الآثار ملوك وملكات سخروا الطاقات العامة في بناء تلك الآثار، وإنني لا أستكثر على الذين عاشوا قبل الميلاد اختراع ما هو ضروري لحياتهم؛ لأنني أسمع أن أدلة وصلت إلى أيدي المنقبين جعلتهم يتخيلون، أن عصورًا ذهبية أظلت الإنسان القديم حينًا من الدهر.

٨- وإنني في اعتقادي هذا أقف مع الذين لم يسرفوا في اتهام ذلك الرعيل من المؤرخين بالخرافة والخيال، ولم يبالغوا في الثقة بما دونوه؛ فلقد جاء في تاريخ (جواد علي) عن (هيرودتس) : [وهو على حرصه على النقد والمحاكمة لم يتمكن من أن يكون بنجوة من الأفكار الساذجة التي كانت تسود ذلك العالم الابتدائي في ذلك العصر][3] .

والذي يقف مع متتبعي العقلية التاريخية، ومراحل التصنيف في التاريخ، تقابله في الألف سنة التي سبقت الميلاد، انطلاقة التدوين من خصوصية حجزته في قصور

---

(١) بابل وآشور، ص١٠٩ وما بعدها.

(٢) قصة الحضارة ٢/١٦ .

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام ١/٢٦ .

الملوك إلى عمومية وضعته في مهب المتناقضات : حقائق، وخرافات، وتنبؤات : جاء بعضها في تراث السوموريين، والأكاديين، ومن سبقهم إلى أرض الفرات، وجاء بعضها مع الأسفار الإسرائيلية التي اختلطت نصوصها بالتفسير والتأويل، وجاء البعض الآخر من القصص الفارسي والهندي والإغريقي -في الوقت الذي ملأت الشرق العربي أحداث جسام لا مفر للمؤرخ من سماع أخبارها وتسجيلها، ففي ذلك الألف- توالت الحروب، وملأ أرض ما بين النهرين- اليهود المرحلون، وفي غضون ذلك الألف أخذ الإسرائيليون يدوّنون أقدم أسفارهم، وفيه تحطمت إمبراطورية آشور العظمى بين عشية وضحاها.

فمن ضياع النصوص التي احتفظت بها مكتبة الآشوريين، ومن انتشار تنبؤات (ناحوم) التي جاءت بعنوان (وحي على نينوى)[١] ، ومن القصص الإيراني والهندي، نجم امتزاج مصادر التاريخ، فأصبحت المدونات مزيجًا من مختلف المصادر بكل ما فيها من حقيقة وخيال، فلقد اختلط الخيال اليهودي بأوهام الكلدانيين؛ فرسم لأجيال تلك العصور أربابًا وضعوا على قمة (الأولمبية)[٢] اليونانية إلى غير ذلك، مما جعل الأساطير المختصة بآلهة الإغريق، وقصة الخليقة الواردة في سفر التكوين من أسفار العبرانيين تشبه القصص الواردة في معتقدات كلدة وآشور[٣] .

وبناءً على هذا الامتزاج والتشابه افترض المستشرقون : أن توراة موسى مأخوذة من قانون (حمورابي)[٤] - وقالوا عن الأسفار التي دونت في (بابل) - : يظهر عليها الطابع العراقي الحر، وعمق التفكير وغنى المادة[٥] .

---

(١) **بابل وآشور** ، ص٣٩.

(٢) الأولمبية: ألعاب رياضية كان اليونانيون القدماء يحتفلون بها كل أربع سنوات (المبو) فيستندون إليها في تاريخ الأزمنة (المنجد).

(٣) **آشور وبابل** ، ص ٩١.

(٤) **الوحي المحمدي** للسيد رشيد رضا ، ص ٥١.

(٥) **تاريخ العرب قبل الإسلام** لجواد علي ٢٤/١.

ولقد كان تأثير المصادر المختلطة بما فيها من خيال على بعض قدامى المؤرخين: ضئيلاً، فلقد اعترف المستشرقون وهم أكثر المحققين شكوكًا بفضل ستيزياس وهيرودتس وديودورس وإسترابون وغيرهم من المؤرخين الذين سبقت عصورهم ميلاد المسيح، في بقاء شهرة أرض الجزيرة من حيث العمارة والإنشاء حية مدى كل هذه السنين؛ بناء على ما رووه عنها. فمما قاله غوستاف لوبون: [وما كان أحد في (أوربا) من خمسين سنة يصدق أنه سيأتي يوم تؤيد فيه عيوننا بطريق المشاهدة تلك الروايات التي كنا نقرؤها ولا نصدقها، وأن مدن الشرق القديم هذه ستنفض عن عظمتها ومجدها رمال الصحراء التي ظلت مدفونة بها أكثر من ألفي سنة][1].

بيد أن الخيال بدأ يستفحل بعد الميلاد بفعل تقادم الزمن وتتابع الكوارث التي مر بها هذا الشرق وكثرة القصص الشعبي الذي اختلفت عناصره، واختلفت المصادر التي ألف منها رواة الأخبار قصصهم، فأصبح من النادر وجود مؤرخ قليل الخضوع للخيال مثل (أريستون - أرسطو) الذي نبغ في عهد البطالسة في مصر.

٩- ولم يقتصر مؤلفو التاريخ في العصور القديمة على الكلام عن العراق وسوريا، بل تكلموا عن غيرهما من أقطار الجزيرة العربية. ولم تكن مصادر ما كتبوه عن الأقطار العربية، مدونات الكلدانيين والآشوريين وحدها، بل كان من أولئك المؤلفين رحالون جابوا البلاد العربية وطافوا بحارها، ودونوا مشاهداتهم وما عرفوه عنها. البلاد العربية - في مؤلفات وصلت إلى المؤرخين العرب في الماضي، ونوه بها في الحاضر جرجي زيدان وجواد علي وغيرهما من الباحثين في ماضي العرب الجاهلي وقالوا : إن من أولئك الرحالين (إسترابون) وإنه أفرد للعرب فصلاً خاصًا في الكتاب السادس عشر من مؤلفه الجغرافي، ذكر فيه مدنًا عربية، وتحدث عن حياة العرب الاقتصادية والاجتماعية وعن غزو (إليوس غالوس) جزيرة العرب، وإخفاق ذلك الغزو

---

(١) بابل وآشور، ص ١٠٤.

أمام الصمود العربي. ومنهم: صاحب كتاب (الطواف في بحر أريتريا)، ومنهم: (يوسيفوس - يوسف اليهودي) الذي تكلم عن عمالقة مصر. ويقول جرجي زيدان: إن (بطليموس) جمع في جغرافيته كل معارف اليونانيين الذين سبقوه[١]. ويقول (جواد علي): [إن من أقدم من ذكر العرب (أخيلس) من سنة ٥٥٦ إلى سنة ٥٢٥ق.م][٢].

١٠- إننا كلما تتبعنا مصادر التراث التاريخي القديم الذي رجع إليه العرب فيما كتبوه عن: تاريخ المسيحية اليهودية وملة إبراهيم وقوم نوح، نجد: تلك المصادر تستند إلى نصوص غارقة في القدم، فعلى ذلك: أن الحكم على التراث القديم بأنه مجموعة أساطير خيالية وخرافات ساذجة، يستدعي حيثيات لم تتوافر لإصدار مثل هذا الحكم، كما قلت من قبل، وأننا بعد الذي تقدم لا بد لنا من الرجوع إلى تراث القرون الأخيرة التي سبقت الميلاد.

فنحن إذا ما رجعنا إلى ما جاء في تحقيق المؤرخين عن المصادر اليونانية القديمة مثلاً - نجد: المحققين في تاريخ الإسكندر المقدوني وتاريخ فتوحاته يقولون: إن الإسكندر كان تلميذاً لأرسطو قبل أن يكون ملكًا على مقدونية، وإن (أرسطو) لم يأل جهدًا في تعليم الإسكندر طيلة ثلاث سنوات لقنه فيها: الأدب اليوناني، والفلسفة والتاريخ، وإن الإسكندر قبل أن يغزو الفرس درس تاريخهم وعرف الكثير عنهم، وإنه عندما تقدم للغزو استصحب معه جمهرة من الفلاسفة والعلماء وصفوة من ربابين مقدونية[٣]. وتقول دائرة المعارف الإسلامية عن (ابن فاتك) و(الشهر زوري): [إن الدافع للإسكندر على الغزو لم يكن حب الشهرة في الغزو وحده، وإنما الدافع هو الظمأ إلى المعرفة. لذلك صحب معه الفلاسفة إلى كل بقعة حلّ فيها][٤]؛ لذلك لم

---

(١) العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان، ص٢٦ وما بعدها.

(٢) تاريخ العرب لجواد ١/٢٦.

(٣) كتاب الإسكندر الأكبر للخانجي، ص٢ وما بعدها، وص ١١ وما بعدها.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ٢/١٢٨.

يكن تحفز الإسكندر وهو يتأهب لغزو الشرق أنشط من تحفزه بعد أن تم له النصر الكبير، فلم تلهه نشوة الظفر عن العمل للمزيد من الفتوحات وللمزيد من معرفة أرض الشرق الأوسط وبحاره. فاستمرت جيوشه في فتح البلدان واستمرت فلاسفته في دراسة معارف الشرق، واستمرت ربابينه في اكتشاف بحاره وشواطئه، واستمر الإسكندر يزود هؤلاء وهؤلاء بكل إمكانات ذلك العصر.. ولو امتدت أيام الإسكندر؛ لتم اكتشاف الشيء الكثير، مما يفيد التاريخ والمعارف.

١١- فمن أي نوع تلك الدروس التي تلقاها الإسكندر من أستاذه (أرسطو) الذي قال عنه المؤرخون: إنه غزا العالم القديم بمعارفه مثلما غزاه تلميذه الإسكندر بجيوشه؟! هل هي من مجموعة الأساطير والخرافات؟! إن الذي يغلب على الظن: أن الإسكندر تلقى في مدرسة أرسطو علومًا بعيدة عن الخرافة والخيال، فلقد كان معلموه يدركون ما يترتب على معارف الملك المنتظر الطموح.. ولقد ظهرت قيمة المعارف التي تلقاها الإسكندر واضحة في انتصاراته العظيمة، وإن الذي يغلب على الظن: أن الإسكندر لم يستصحب معه علماء ساذجين - تتسلط على عقولهم الخرافة والأساطير، ولا يقدرون خطورة المهمة التي انتدبوا لها وما عليهم أن يقدموه؛ ليكون أساسًا تقوم عليه مخططات عاهل مقدونية المحظوظ.

إننا إذا ما استمعنا إلى المحققين الذين تناولت بحوثهم تاريخ الإسكندر، نجدهم: إذا ما تحدثوا عن الإسكندر قالوا: إن بعض أخباره وشيئًا من فتوحاته، وطواف قائده في الخليج. جمع في كتاب ألفه (أوريان) المتوفى سنة ١٧٥ بعد الميلاد. وإن ما في هذا الكتاب على جانب عظيم من الأهمية[١]. وإذا ما تحدثوا عن الكتب الكلاسيكية قالوا: [ولهذه الكتب على ما فيها من أخطاء: أهمية كبيرة؛ إذ وردت فيها أخبار تاريخية وجغرافية كبيرة الخطورة، ووردت فيها أسماء قبائل عربية كثيرة لولاها لم نعرف عنها

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد ٢/٣٧١.

شيئًا، وقد استقى هؤلاء الكتاب معارفهم من الرجال الذين اشتركوا في الحملات التي أرسلها اليونان والرومان على بلاد العرب، ومن السياح الذين اختلطوا بقبائل بلاد العرب، وأقاموا مدة بين ظهرانيهم لا سيما في بلاد الأنباط، ومن التجار وأصحاب الفن الذين كانوا يتوغلون في البحار وفي بلاد العرب للمتاجرة. وتعد الإسكندرية من أهم المراكز التي كانت تعنى عناية خاصة بجمع الأخبار - عن بلاد العرب. وقد استقى كثير من الكتاب الكلاسيكيين معارفهم عن بلاد العرب من هذه البورصة التجارية العالمية][1]. ويرى (جرجي زيدان) : [أن لهؤلاء المؤلفين - على تشتت ما كتبوه - فضلاً كبيرًا على تاريخ العرب، وأنهم أوضحوا كثيرًا من غوامضه، فذكروا : دولاً وقبائل وأماكن، لم يعرفها مؤرخو العرب على الإطلاق كدولة (الأنباط) و(المعينيين) و(السبئيين) وغيرهم][2] .

١٢- وإنني أستوقف القارئ عند هذا الرأي الذي أخذ يعتنقه الباحثون، والذي يقول: إن اليونانيين ذكروا دولاً وقبائل وأماكن لم يعرفها مؤرخو العرب؛ لألفت نظره إلى ما سبق أن قلته في مبحث (فكرة التاريخ ومصادره) في هذا الجزء: إن كثيرًا من دول العرب وشعوبها، تحدث عنها المؤرخون اليونانيون والرومانيون والفرس والإسرائيليون بسبب احتكاكها باليونانيين والروم والفرس واليهود، فلا يبعد أن يتحدث المؤرخون البيزنطيون واليهود والفرس عن دولة (اللخميين) ودولة (الغساسنة) و(الأنباط) و(التدمريين) والدول التي سبقت في وادي (الفرات) أو جبال (لبنان) بأكثر مما تحدث عنها العرب؛ فلقد كانت معلومات (ديودورس الصقلي) المتوفى سنة ٨٠ق.م أكثرها عن (الأنباط) وإن كان (ديودورس) ذكر مكة وبيتها الحرام[3] - وكان (يوسف. يوسفوس

(١) تاريخ العرب لجواد ١/٢٥ .

(٢) العرب قبل الإسلام، ص٢٧ .

(٣) التاريخ الجغرافي للقرآن، ص١٢. .

فلافيوس) المتوفى سنة ٩٣ ب.م - يرى : أن بلاد العرب. هي : مملكة الأنباط[١]. ونحن إذا ما رجعنا إلى ما قيل عن تاريخ (هيرودتس) المتوفى سنة ٤٠٦ق.م الذي كتب عن بلاد العرب. نجد معلوماته عنها : محدودة في نطاق ضيق. ولعل (إيراتوستنيس) المتوفى سنة ١٩٤ ق.م أوسع علمًا ببلاد العرب بفضل الدراسات التي قام بها اليونانيون والبطالسة بعد الإسكندر. والتي حفظ بعضها في مكتبة (الإسكندرية) التي كان (إيراتوستنيس مديرًا لها[٢] .. ولو لم تتتابع الأحداث قبل الإسلام على مكتبة الإسكندرية لعرف العالم شيئًا عن تلك العهود[٣] . ولا غرابة فيما إذا رجع المؤرخون العرب إلى مؤلفات اليونانيين وغيرهم ممن سبقهم إلى تدوين التاريخ وتأليفه، ونقلوا عما جاء فيها من أسماء الدول وأنساب القبائل وأماكنها.

وأستوقف القارئ لألفت نظره إلى أن الجزم بأن العرب لم يعرفوا على الإطلاق دول (الأنباط) و(معين) وسبأ، يحتاج إلى أدلة تثبت: أن الأسماء التي ذكرها المؤرخون الذين سبقوا العرب في تدوين المؤلفات التاريخية والجغرافية. لم يذكرها العرب في جاهليتهم، ويدونوها بعد إسلامهم بحروف غير التي ذكرها بها من سبقهم من مؤرخين ورحالين - يونانيين وكلدانيين وغيرهم .. فما بين (إسترابون) وبين الذين دونوا التاريخ وألفوا في الجغرافية من العرب، مئات السنين. ومن الواضح : أن في أعماق الزمن دولاً وشعوبًا لمع اسمها فترة وجيزة في الدهر القديم، ثم اضمحل كيانها السياسي والاجتماعي؛ فأصبحت لها حياة جديدة وأسماء جديدة .. ومن الواضح : أن كثيرًا من الدول والشعوب أطلق عليها الكلدانيون واليونانيون والعبرانيون: أسماء من الصعوبة تطبيق بعضها على الأسماء التي عرفها بها العرب. أطلقوا أسماء تجاوز

---

(١) تاريخ العرب لجواد علي ٢٤/١.

(٢) التاريخ الجغرافي للقرآن، ص١٢ و١٣ .

(٣) راجع بحث : المسلمون لم يشعلوا النار في تراث القدامى، في هذا الجزء.

بعضها الحقيقة مثل : اسم (إثيوبيا) الذي أطلقوه على الشعوب الممتدة بلادها من (الحبشة) وشرق (اليمن) إلى غرب (عُمان) . واسم (اليمن السعيدة) الذي أطلقوه على أرض الجزيرة العربية الممتدة جنوب الهلال الخصيب[1] .

وما يقال عن الأسماء التي جاءت في مدونات القدامى يقال في الأسماء التي جاءت على النصوص الأثرية .. ولقد سبق أن قلت في الجزء الأول : إن أدلة كثيرة ترجح : أن معين - هي عاد. ولا إخال مؤرخًا عربيًا لا يعرف (سبأ) التي ورد ذكرها في القرآن، ولا إخال محققًا في التاريخ العربي اليوم يجهل اختلاف الرأي في مكان سبأ أهو : في اليمن؟ أم في شمال الحجاز؟ أم في الحبشة . ولا يعرف: أن تراكم السنين على دولة سبأ . هو : السبب في هذا الاختلاف.

فنحن إذا ما رجعنا إلى تراث أول إغريقي بحث في الجغرافية (هومر) الذي تألق نجمه في عام ١٠٠٠ أو ٨٠٠ ق. م - نجده يذكر (السوريين) باسم (أريمي) ويذكر : العرب باسم (أرمبي) ونجد اليونانيين من بعده يذكرون : مدينة (ينبع) باسم (جامبيا) و (قرية) باسم (جراهي) . ونجد من يقول : إن (بطليموس) لم يزر بلاد العرب، ولكنه كثيرًا ما تقابل مع التجار في مدينة الإسكندرية واستقى منهم كثيرًا من معلوماته عن البلاد العربية كما فعل (يوسف فلافيوس) الذي عاش في الإسكندرية واستفاد من مكتبتها التي كانت باقية إلى أيامه، واستفاد من التجار الذين كانوا يقدون إلى ميناء الإسكندرية. ومثلما ذكرت بعض الأماكن العربية في المدونات اليونانية - بأسماء يونانية ذكرت بعض المدن العربية في الأسفار بأسماء عبرية - مثل (الرقيم) فقد كانت تسمى بالعبرية (شيلوه) و(بطراء) باليونانية . وقد تكرر اسم (حورب) في العهد القديم على أنه

---

(١) في الجزء الثالث جغرافية الجزيرة العربية القديمة وضحت الأسماء المغلوطة والأسماء غير العربية.

اسم بقعة في بلاد العرب تمتد بين الحجاز وسوريا وطور سيناء، وقد أطلق اسم (شرق) في الإنجيل على العرب. في حين أطلق الإنجيل في بعض الأحيان اسم (الجنوب) عليها[1].

١٣- وأستوقف القارئ أيضًا لألفت نظره إلى أن من الذين كتبوا عن العرب رحالين ساروا مع القوافل التجارية في فيافي الجزيرة واختلطوا بقبائلها مثلما اختلط بهم التجار؛ فدونوا ما رأوه وما سمعوه من أفواه عامة العرب، ومنهم من أقام في المدن التجارية مثل: (الإسكندرية) و(تدمر) و(بطرا) و(الحيرة) و(البلقاء) وغيرها؛ يستقي أخبار البلاد العربية من القادمين منها كما كان يفعل رواة الشعر الجاهلي، فقد جلس أكثرهم في البصرة يسأل العرب القادمين إلى مربدها: عن أيام العرب وأشعارها .. وإلى أن مثل هذه الأخبار التي تأتي عن هذا الطريق يجب أن توضع على مشرحة التحقيق كما كان يفعل رواة الشعر الذين وضعوا الشعر تحت مجهر النقد؛ ليميزوا المنحول من الأصيل. فليس كل تاجر ثقة، وليس كل عربي دقيقًا فيما يرويه، وقد يكون من الرحالين: من لا يملك الوسائل التي أتيحت للذين كانت لهم إمكانات دولية كالذين أوفدهم البطالسة إلى جزيرة العرب. ومنهم من لم تتح له ظروفه فرص التقصي، فاعتمد على المظاهر العامة التي تواجه الزائر المستعجل.

١٤- فنحن سكان الحرمين اليوم، نرى فيما كتبه زوار مكة والمدينة من مشاهدات، صفات لا تنطبق على مجتمعنا، ومعلومات خاطئة لا تتفق مع واقعنا، وأسماء لبعض الأماكن محرفة، كما ينطقها العامة. وأكثر من ذلك ما وقع فيه مندوبو (المساحة المصرية) الذين رسموا للمدينة خارطة دقيقة في المساحة. ولكنها غير دقيقة في أسماء الأماكن، وذلك لأن أولئك المندوبين اتصلوا بالمهندسين المحليين الذين لا يعرفون شيئًا عن تاريخ أماكن المدينة .. فمن الأخطاء التي وقعوا فيها: وضع اسم (سوق الفلكية) بدلاً من (سوق الفلتية)[2]، ومن المنتظر: أن يسبب هذا الخطأ متاعب

---

(١) كتاب التاريخ الجغرافي للقرآن، ص٦٠ و٦٩ و٧٣ و٧٤.

(٢) سوق الفلتية: من أسواق المدينة المستجدة قد تكون العامة أطلقت عليه هذا الاسم بناء على أن الذين يتاجرون فيه يتاجرون بالبضاعة التي ترد من الفلاة.

للباحثين الذين سيحققون في المستقبل تاريخ المدينة ويضيعون وقتًا ثمينًا في البحث عن علماء الفلك في المدينة الذين تسمى هذا السوق بهم. مثلما أتعب الباحثين اليوم : التحقيق في (دار القراء) وهل كانت دار علم تدرس العلوم الإسلامية من قبل غزوة بدر[1] ؟؟!

١٥- ومما هو جدير بالانتباه والملاحظة : ما قاله (ياقوت الحموي) عندما أشار في مقدمة كتابه (معجم البلدان) إلى مؤلفات اليونانيين : (أفلاطون) و(فيثاغورس) و(بطليموس) وغيرهم : [قد وقعت لهم على تصانيف جهلت أكثر الأماكن التي ذكرت فيها ، وأبهم علينا أمرها ، وعدمت لتطاول الزمان فلا تعرف][2] .

حقًا ! إن للزمان تقلبات، وإن لتقلبات الزمان فعلها في الأجيال ومعالم الأماكن، فكما تتلاشى الشعوب والدول في طيات الزمن، كذلك تندرس معالم الأماكن وآثارها في بطن الأرض؛ فمثلما ابتلع الزمان : الدول والشعوب، فلا يذكر منها غير التي كان لها دور في التاريخ، كذلك ابتلعت الأرض معالم الأماكن، فلا يعرف منها غير التي سجلت آثارها ما ينم عن حقيقتها .. أضف إلى ذلك تصحيف الأسماء التي تنقل من لغة إلى لغة ومن جيل إلى جيل، فبأية لهجة من لهجات القبائل العربية وصل إلى مسامع اليونانيين وغيرهم، اسم المكان أو القبيلة أو الملك؟ وبأي خط كتب اليونانيون وغيرهم : اسم المكان أو القبيلة أو الملك؟ وبأي لفظ رجع الاسم على أصله العربي. بعد أن عربت مدونات اليونانيين وغيرهم: الأسماء التي عادت اليوم عن طريق اللغة الفرنسية أو الإنكليزية أو الألمانية أو غيرها من لغات المستشرقين الذين نقلوا عن المصادر القديمة. فزيادة حرف في الاسم أو نقصه، وإبدال حرف بحرف آخر يبلبل الفكر ويبعث الخلاف.

---

(١) راجع بحث. من المدينة بدأ التاريخ وتدوينه، الآتي في هذا الجزء .

(٢) معجم البلدان ٧/١ .

ومما هو جدير بالانتباه والملاحظة : ما قاله (الأمير شكيب أرسلان) في تعليقه على تاريخ ابن خلدون . [وليس تحت أيدينا الآن كتاب (هيرودتس) . (هيروشيوش) كما سماه (ابن خلدون)، ولذلك نحن لا نسأل عما في هاته الأعلام التي ينقلها المؤلف من تصحيف](1) .

أجل ! إن كثيرًا مما وصل إلى المؤرخين في عصور ما بعد الإسلام . وصل إليهم نصوصًا منقولة عن مؤلفات ضاعت أصولها ، وإن كثيرًا من تلك النصوص التي وصلت إلى أيدي المؤرخين العرب السابقين مثل (ابن خلدون) وذلك الرعيل ليست في متناول أيدي الباحثين اليوم ، فالحكم على ذلك التراث ، أو الحكم له لا يشمل غير القليل الذي قنع الباحثون ببعضه وما زال بعضه تحت رحمة الشكوك.

ونحن مع اعترافنا بنشاط المؤرخين القدامى الذين سبقوا ميلاد المسيح ، والذين تأخروا عنه .. ومع علمنا بأن هذا النشاط ورثه البطالسة في مصر عن الإسكندر الذي حرص على اكتشاف سواحل الجزيرة العربية ، تمهيدًا لغزوها من البحر ، فأعد لرواده ما يلزم لاكتشاف سواحل مجهولة لديهم .. في حين أعد له القدر موتًا مفاجئًا قضى عليه وعلى مشروعاته . فقد اقتدى به (بطليموس . ساطر) عندما عزم على بسط نفوذه على البحر الأحمر . فأوفد (أريستون . أرسطو) ؛ ليكتشف له سواحل بلاد العرب من (طور سيناء) إلى باب المندب . فأتم أرسطو مهمته ، فكان هو أول إغريقي . أشار إلى (ثمود)(2) .. ومع علمنا بأن أكثر الرواد الذين نقلنا بيان أسمائهم من كتاب العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان كانوا رحالين دونوا عن العرب ما يدونه كل مؤرخ رحالة همه الكتابة في التاريخ ، مثل : (هيرودتس) و(إسترابون) وغيرهما ، إنني مع ذلك كله لا بد لي أن ألفت النظر إلى المبالغات النابعة مما كان يعتقده المؤرخون في الشعوب القديمة التي

---

(1) تاريخ ابن خلدون . العبر . طبع الرحمانية سنة ١٣٥٥ - ١/ ٢٨١.

(2) تاريخ العرب لجواد ٢/ ٣٧٥ .

خلفت آثارًا أطلقت خيال أولئك الذين عاشوا في عصور متأخرة لم يستطع الإنسان أن يبني فيها مثل ما بنى الفراعنة في مصر، أو ينحت مثل ما نحت الثموديون في الحجاز، فكما عبث الخيال بكثير من ظنون مؤلفي التاريخ ورواة الأخبار التي نجدها فيما نتداوله من مؤلفات، كذلك لعب الخيال دوره فيما دونه (هيرودتس) وغيره عن (سميراميس) و(أوانس) وعالم ما قبل الطوفان. ونحن إذا كنا نعترف بأن المؤرخين العرب ليسوا جميعهم في مستوى (ابن خلدون)، فعلينا كذلك أن نعرف أن ليس كل مؤلف يوناني في مستوى (هيرودتس) و(بطليموس)، وأن ليس كل ما كتبه المؤرخون اليونانيون في مستوى ما كتبه (إسترابون) و(أوريان)؛ فإذا كان من المؤرخين اليونانيين من اتخذ مما ألفته أخيلة العامة قصصًا جعلت من الإسكندر ملاكًا يصنع المعجزات، ويبحث عن نهر الحياة مع طاهيه (أندرياس) الذي اكتسب صفة الخلود بعد أن شرب من ذلك النهر قبل أن يعلم: أن من شرب منه يحظى بالخلود[1]. ولقد وصل ذلك القصص إلى المؤرخين العرب عن طريق المدونات السريانية واليونانية فتصوروا: أن الإسكندر الملقب بذي القرنين هو: ذو القرنين المذكور في القرآن[2]، وقال بعضهم عن الإسكندر: هو ذو القرنين الثاني[3]. إذا كان الخيال أخضع ظنون المؤرخين الذين لا يبعد عنهم عصر الإسكندر مثلما بعدت عصور الأمم التي تحدث عنها (هيرودتس) و(بروسوس) وذلك الرعيل؛ فخليق بظنون هؤلاء ألا تسلم من الخيال الذي صرف الكثيرين عما في تراثهم من حقائق قنعت بها المعارف الأثرية في القرن العشرين بعد أن رفضها منطق القرن التاسع عشر واستبعدتها دراسته.

١٦- ومما هو جدير بالانتباه والملاحظة: ما يقوله بعض المستشرقين عن المؤرخين القدامى، وإن بعضهم يميل مع عنصريته، وفي مقدمة هؤلاء الإسرائيليون الذين

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٣٤٨/٨.

(٢) الأخبار الطوال، ص٣٧ وما قبلها.

(٣) تفسير النيسابوري المهمش على تفسير ابن جرير ١٨/١٦ وما بعدها. ودائرة المعارف الإسلامية ١٢٨/٢.

يتجاهلون حقائق تاريخية في سبيل ما يظنونه مفيدًا لتاريخ اليهود. لقد قال (جون ويلسن) في مؤلفه (الحضارة المصرية): [وهذه قصة مغرضة؛ لأن يوسفوس كان يريد أن يثبت أن الهكسوس هم بنو إسرائيل][1].

إن الميل مع العنصرية أمر ملموس في كل أمة من الأمم، وإنما هناك تفاوت بين المؤرخين، فبعضهم معتدل في ميوله، وبعضهم مغال فيها .. وما أكثر ما مني التاريخ العربي: الجاهلي منه والإسلامي بالتحزب العنصري.

وبعد: فمثل التراث القديم والنصوص التي اعتمد عليها، مثل غيره من التراث التاريخي؛ فيه الحقيقة، وفيه الخيال، وفيه المحرف عن أصله، وفيه الذي طمس الزمان معالمه. ومثل المؤرخ القديم، مثل المؤرخ الحديث، فكل منهما يتحدث بمنطقه ويقيس بمقاييس عصره، فإذا كان الزمن القصير أضاع معالم الكثير مما في جغرافية بطليموس، فما بالك بالزمن الذي سبق ميلاد المسيح بآلاف السنين؟!

وإنه لخليق بنا أن نعترف بأن ذلك التراث هو: حصيلة مجهود كبير بذله القدامى في تدوين ما جمعوه من المعلومات التاريخية، وأن ما دونه القدامى له ثمنه بالنسبة لقدمه، وبالنسبة للفوائد التي يجنيها المحقق الذي يبحث في مراحل التاريخ ومصادره، وبالنسبة للنصوص التي اعتمد عليها الأقدمون، والتي وضحت مصادرها فيما تقدم.

وأخيرًا يجدر بي أن ألفت نظر القارئ إلى اعتراف الدراسات المتأخرة بأهمية تراث القدامى وإلى نصوص ذلك الاعتراف التي نقلتها حرفيًا، وإلى اعتراف المؤرخين المتأخرين بأن كثيرًا مما كان يرفضه منطق العصور الوسطى أصبح حقائق ثابتة مثل: رأي (بروسوس) في عمر الإنسان على الأرض الذي وضح في تقديره سني الدول والشعوب قبل الطوفان وبعده، فقد أثبت التحقيق العلمي: أن عمر الإنسان يقارب

(١) **الحضارة المصرية**، ص٢٢٦، وراجع بحث الأسفار في هذا الجزء.

نصف مليون عام، وقد سبق البحث في سني دول ما قبل الطوفان، وفيما يفهم من سني الملوك الذين حدد بروسوس عددهم - في الجزء الأول من هذا المؤلف[1] وسبق أن نقل نص اعتراف غوستاف لوبون وغيره بصحة ما رواه الأقدمون الذين تحدثوا عن (سميراميس) .

وخليق بنا : ألا نشك في شيء مما في التراث القديم أو نصدقه، ما لم تتوافر أدلة الشك، وشواهد التصديق، وألا نستبعد أن تصل المعارف في المستقبل إلى أدلة تصدق ما نعتبره اليوم خيالاً وخرافة .. مثلما وصلت معارف اليوم إلى أدلة أثبتت : أن ما عُدّ في الماضي خيالاً أصبح في الحاضر حقائق مثل : عمر الإنسان في هذه الأرض وحضارة بابل وآشور ودول ما قبل الطوفان.

وخليق بنا : ألا نخطّئ المؤرخين العرب الذين رجعوا إلى ما وصل إليهم من التراث القديم. ونقول : وكان ذلك في غير مصلحة التاريخ العربي .

(١) الجزء الأول : التاريخ العربي وبدايته، بحث دول ما قبل التاريخ ٦٣/١ .



الفصل الرابع

الأساطير والشعر في العصر الجاهلي

- أساطير الأولين في العصر الجاهلي ومصادرها.
- الشعر الجاهلي وصلته بالتاريخ .



البحث الأول :

أساطير الأولين في العصر الجاهلي ومصادرها

من موضوعات البحث :

١- المجتمع الجاهلي .

٢- القراءة والكتابة عند العرب قبل الإسلام.

٣- ماذا تعني كلمة (الأمِّيَّة)؟

٤- تدوين الأحداث في العصر الجاهلي.

٥- مصادر القصص الجاهلي.

٦- اهتمام العرب الجاهليين بالأحداث التاريخية.

٧- كيف تجمع القصص الجاهلي؟

٨- القصص الشفهي.

٩- الخيال في الأساطير لم يحجب الأصل التاريخي.

١٠- المدونات الجاهلية.

١١- الفرص التي أتاحت للجاهليين جمع القصص التاريخي.

١٢- التبادل المادي والروحي وأثره في المعارف التاريخية.

١٣- مصير المدوّنات الجاهلية.

١٤- مدوّنات الجاهليين التي اطلع عليها المؤرخون.

١٥- النتائج التي وصل إليها البحث.

١- إننا لا نعطي البحث حقه : إن نحن سلمنا بما قاله (كرد علي) عندما وصف العرب عامة بالوحشية والشظف؛ استناداً إلى ما قاله الطبري : "كان العرب يأكلون الخنافس والجعلان، والعقارب، والحيَّات وكل ما دب ودرج، وإن التمر والشعير كانا طعام أهل المدن، وإن رئيس الأسرة الغنية هو وحده الذي كان يأكل الدقيق[١]" فاعتقدنا : أن العرب جميعاً كانوا يعيشون في داخل جزيرتهم، كما تعيش الوحوش في داخل غاباتها. ولا نعطي البحث حقه : إن نحن أخذنا بما يقوله بعض المستشرقين عن حياة العرب في الجاهلية، وإنها كانت في عزلة تامة عن العالم المتحضر آنذاك، فاعتقدنا : أن العرب الجاهليين كانوا في عزلة عن حاضرهم وماضيهم لا يعرفون شيئاً من أخبار الأمم التي كانت تجاورهم، ولا يعرفون قليلاً ولا كثيراً مما كانت عليه (عاد) و(ثمود) و(جرهم) وغيرهم من الأمم التي أطلق عليها العرب اسم : العرب البائدة.

وإذا كان من حق البحث التقصي؛ فإن التقصي هنا لا يلزمنا بالعودة إلى ماسبق في الجزء الأول من هذا الكتاب عن الحياة العربية في عصور الجاهلية القديمة، بل يكفينا : أن نقلب صفحات كتاب كرد علي (الإسلام والحضارة العربية)، فنحن إذا ما قلبنا صفحات الكتاب نجد فيه صوراً لمدن الجزيرة مثل: مكة، والمدينة، والطائف، وحجر اليمامة؛ تختلف عن الصورة الأولى التي يرسمها ما نقله كرد علي عن الطبري!!

٢- وإننا لا نعطي البحث حقه: إن نحن سرنا وراء ما فهمه (رشيد رضا)، مما جاء في بحث (درمنغام) المستشرق الفرنسي عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أن أبا طالب

---

(١) الإسلام والحضارة ١/١٣٣ وما بعدها.

الذي كفل النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن غنيّاً، فلم يتح له تعليم الصبي الذي بقي أميّاً طول حياته"؛ ففهمنا مع السيد رشيد: أن (درمنغام) يوهم القارئ: [أن أولاد الموسرين بمكة كانوا يتعلمون وكأن هناك مدارس يعلم فيها النشء بالأجور كمدارس بلاد الحضارة، وهذا باطل لا أصل له][1]. فإن الذي يتتبع تاريخ العرب الجاهليين يعلم: أن العرب لم يكونوا جميعهم أميين لا يعرفون الكتابة والقراءة. ويعلم: أن سكان (الحيرة) في العصر الجاهلي كانو يرسلون أبناءهم إلى (الكتَّاب)؛ ليتعلموا الكتابة والقراءة، فإذا ما حذقوها بعثوا إلى (كتاتيب) فارسية[2].. ويجد من روايات المؤرخين المتواترة: روايات تؤكد: أن قريشاً أخذت الكتابة من أهل الحيرة[3]، وأن النضر بن الحارث القرشي أخذ عن الحيريين أخبار فارس وسير أبطالها[4]، وأن أبناء الأوس والخزرج كانوا يتعلمون الكتابة على بعض اليهود، وأن من بين الثَّقفيين في الطائف كتاباً.. والذي يعلم كل هذا لا يستبعد: أن يبعث بعض القرشيين أبناءهم إلى كتاب الحيرة، ولا يستبعد على القرشيين: تعلم خط الثَّقفيين من أهل الطائف. وإن الذي يتتبع السيرة النبوية يعلم: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم تتهيأ له الأسباب ليكون واحداً من الذين عرفوا الحيرة وواحداً من الذين عرفوا الكتابة والقراءة؛ للأمر العظيم الذي أعده الله له، فبعث أمياً ينزل عليه كتاب عربي مبين.

وإنا لا نعطي البحث حقه: إن صدقنا بما قاله (توماس كارليل): إن العرب كانوا منعزلين عن العالم لم تصل إليهم غير أنباء غامضة عن حياة المسيح ووفاته[5]، فالقوافل التجارية كانت تجوب فيافي الجزيرة ومدنها وقراها: وإن من العرب تجاراً

(١) الوحي المحمدي، ص ٧٥.

(٢) الأغاني ٢/٨٣ طبع بيروت.

(٣) المزهر ٢/٣٤٢.

(٤) المزهر ٢/٣٩٢.

(٥) كتاب الأبطال ١/١٠٤ و١١٢.

يتعاملون مع الروم في سوريا ومع الأحباش في أفريقيا واليمن، وإن جاليات كثيرة من يهود ومسيحيين هاجرت إلى الجزيرة العربية، فسكن بعضها في الحجاز وسكن بعضها في اليمن.

٣- فمن حق البحث: ألاّ يتجاهل الأدلة التي قدمها مغربلو التاريخ العربي الجاهلي والتي تثبت: أن عدداً غير قليل من الجاهليين: رجالاً ونساء. كانوا يقرأون ويكتبون؛ فأوضح دليل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً﴾ (١). فالأمة التي لا تعرف الكتابة ولا القراءة لا تطلب أن ينزل عليها كتاب تقرؤه. ونحن إذا كنا نجد: عدداً من المتقدمين. يرى: أن الكتابة في العرب الجاهليين توشك أن تكون عديمة مثل: (ابن سعد) الذي يردّد في طبقاته قوله: وكانت الكتابة في العرب قليلة، فكذلك نجد: عدداً من المتأخرين غربل التاريخ الجاهلي بحثاً عن الحقيقة، فلما وجدها ردّ على من يقول بقلة الكتابة عند العرب؛ فهذا (ناصر الدين الأسد) يرد على ((ابن سعد)) في كتابه (مصادر الشعر الجاهلي): [ومما يلفت النظر فيما يقوله ابن سعد: أن ابن سعد كان يردّد هذه العبارة .. وكانت الكتابة في العرب قليلة. كلما ذكر في طبقاته الذين يكتبون في العصر الجاهلي بالرغم من أن عدد الذين ذكرهم ابن سعد في العصر الجاهلي من الكثرة بحيث لا يصح لابن سعد أن يكرر عبارته تلك كلّما ذكر قارئاً جاهليّاً] (٢).

وهذا الذي لاحظه (ناصر الدين الأسد) على (ابن سعد)، يلاحظه كل باحث في العصر الجاهلي؛ فالطبري، والبلاذري، وابن حبيب على ما يقولونه: عن جهل العرب بالقراءة والكتابة، قد ذكر كل واحد منهم كثيراً من الكتاب في العصر الجاهلي. وأكّدُوا

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٣.

(٢) مصادر الشعر الجاهلي.

جميعهم : أن كثيراً من سكان الطائف الثقفيين كانوا يعرفون الكتابة والقراءة ، وأن الطائف أخرج في العصر الجاهلي عدداً ليس بقليل من الكتبة.

وأكثر من هذا - أن الأصفهاني ذكر في كتابة الأغاني : رجالا في الجاهلية كانوا يجيدون مع الكتابة والقراءة باللغة العربية . قراءة وكتابة لغات مثل : العبرية والسريانية والفارسية منهم : (عدي بن زيد العبادي) ، و(لقيط بن يعمر الإيادي) ، و (ورقة بن نوفل) [(١)] . ولقد عقد (محمود شكري الألوسي) فصلا في مكاتبات العرب ومراسلاتهم تحدث فيه عن (لقيط الإيادي) ورسالته الشعرية التي أخبر فيها قومه بإزماع (سابور) غزوهم . وعقد فصلا آخر في أدوات الكتابة وأسمائها في اللغة العربية [(٢)] . ونقل (جواد علي) ما ذكره (يوسف غنيمة) في كتابه (الحيرة) "أن أناساً كانوا يحسنون القراءة والكتابة واللغات الأعجمية مثل : الفارسية والسرياينة واليونانية ، وقد ظهر منهم . من ألَّف مباحث في الكتاب المقدس، وفي الموضوعات اللاهوتية والطبية ، واللغوية والتاريخية ، وكان منهم من له وقوف على كتب التاريخ وأخبار الملوك وعن هؤلاء أخذ النضر بن الحارث [(٣)]

ونحن بعد أن بحثنا في الجزء الأول من هذا الكتاب في خطوط اللغة العربية وكيف نشأت الخطوط : المسند ، والإرمي، والقرشي إلخ ، وكيف تطورت ، وكيف كان الحجاز ونجد نقطة تلاقي لغات وخطوط جاءت من الجنوب وجاءت من الشمال ، لا نرى ضرورة لأن نقول هنا ما قلنا هناك، ونكرر ذكر الأدلة التي اعتمد عليها ترجيحنا قدم الكتابة والقراءة في الجزيرة العربية مهد الساميين؛ إنما الضروري للبحث هنا . هو: الإشارة إلى الفارق بين الحياة العربية في عصور ما قبل الميلاد ، والحياة العربية في عصور ما قبل الإسلام، ذلك

(١) راجع تراجم هؤلاء في الأغاني.

(٢) بلوغ الأرب ٣/ ٣٧٠ و٣٧٢.

(٣) راجع المصادر في الجزء الأول من تاريخ العرب لجواد علي ١/ ٤٠.

الفارق الذي وضحنا مداه في البحث التاسع عشر. (معالم المجتمع والدولة في قلب الجزيرة العربية) من الجزء الأول، فلقد كان نصيب الفكر العربي من ذلك الفارق لا يقل عن نصيب عمران العرب واقتصادهم، فلم يثبت الكتبة العرب وجودهم في ظلام التدهور الذي خيم على الجزيرة قبل شروق الإسلام، فجهل الكثيرون وجودهم.

أجل! إننا إذا توغلنا في التاريخ العربي القديم. نجد: الكتابة والقراءة في جاهلية قبل المسيح، أفضل بكثير منها في جاهلية قبل الإسلام، بدليل آثار الدول العربية في بلاد ثمود وغيرها والخطوط التي ظهرت في جنوب الجزيرة وشمالها. ولكن مع ذلك لا يمكننا أن نتجاهل ما نقله (البلاذري) عن (الواقدي): [أنه كان الكتاب في (الأوس والخزرج)، وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية وكان يعلمه بعض الصبيان بالمدينة، وأن التعليم عم حتى شمل النساء الجاهليات حيث كان بعض النساء الجاهليات يقرأن ويكتبن] [1]. وما جاء في تاريخ الطبري عن انتشار الكتابة والقراءة في (الأنبار)، حيث وجد (خالد بن الوليد): أهلها يكتبون العربية ويتعلمونها [2].

واستدراكنا بما نقله البلاذري عن الواقدي ليس معناه: أننا نسير في ركاب (درمنغام) فنفترض وجود تعليم واسع ومنظم في العصر الجاهلي، فكل ما يمكن أن نقوله عن الكتابة والقراءة في جاهلية ما قبل الإسلام، أنها كانت شائعة في إمارة المناذرة في العراق، وفي إمارة الغساسنة في الشام، وفي مملكة التبابعة في اليمن، وأن عدد الذين يعرفونها في الطائف ومكة والمدينة لا بأس به، وأنها كانت في بعض أنحاء الجزيرة العربية جد نادرة.

٤- وليس من السبق العلمي: البحث عن معنى (الأمية) التي نعت بها العرب الجاهليون، ولكن من الضروري البحث في معنى الأمية، لما يترتب على فهم هذه

---

(١) فتوح البلدان، ص ٦٦١ و ٦٦٣ طبع بيروت سنة ١٣٢٧.

(٢) تاريخ الطبري ٢/٥٧٥ مطبعة الاستقامة سنة ١٣٥٧.

الأمية، فإما أن يكون العرب أميين لا يعرفون الكتابة والقراءة، ويكون من الجهد الضائع: البحث عن مصادر للتاريخ مدونة عند أمة لا تعرف الكتابة ولا القراءة، وإما أن تكون الأمية التي نعت بها العرب تعني شيئاً آخر غير الجهل بالكتابة والقراءة، فيكون من حق البحث: أن يفترض وجود مدونات كان يحتفظ بها الذين يقرأون ويكتبون من الجاهليين، وأن يفترض احتواء بعضها على كثير أو قليل من أخبار الأمم التي سبقت عصر ما قبل الإسلام.

فالبحث في هذه الأمية طرق في الماضي، وطرق في الحاضر. والنتيجة التي ينتهي إليها بحث المتأخرين لا تختلف عن النتيجة التي انتهى إليها بحث المتقدمين، على ما يلاحظ على بعض البحوث المتقدمة من ظنون تبالغ في تصويرها العرب مغمورين في صحارى البلاد العربية لا يتمتعون بشيء مما يتمتع به أهل (الحيرة) وسكان (البلقاء) في الشمال. وأهل اليمن في الجنوب. وعلى ما يلاحظ على بعض البحوث المتأخرة من مبالغة في حسن الظن بالحياة العربية قبل الإسلام. فعلى اختلاف الوجهات، فإن النتيجة التي انتهت إليها أكثرية المتقدمين وأكثرية المتأخرين تؤكد - : أن العرب في جاهليتهم لم يكونوا جميعاً. يجهلون الكتابة والقراءة.

فهذه النتيجة. هي التي جعلتنا لا نغالي مع المغالين في اعتقادهم: أن العرب كانوا معدمين من الحضارة محرومين من القراءة والكتابة. ولا نغالي مع المغالين في اعتقادهم: أن العرب كان لهم في الجاهلية حظ وفير من ثقافة قامت على دراسة منظمة.

إذن! ما معنى الأمية التي وصف بهام العرب؟ لقد أجاب عن هذا السؤال (ابن عباس) عندما فسر قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ﴾ [1] فقال: سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسوله [2]. وأجاب عنه (ابن زيد) و (قتادة) عندما فسر قوله تعالى: ﴿هُوَ

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٨.

(٢) تفسير ابن جرير ٢٩٦/١.

الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً﴾ [1] : قال : ابن زيد : إنما سميت أمة محمد صلى الله عليه وسلم : الأميين؛ لأنه لم ينزل عليهم كتاب. وقال قتادة: كان لهذا الحي من العرب أمة أمية ليس فيها كتاب يقرءونه [2] .

ولكن ما أجاب به ابن عباس وابن زيد وقتادة . لا يصرفنا عما قاله غيرهم . في تفسير ما نزل عن اليهود . (ومنهم أميون) ، فقد قال بعض المفسرين: إنهم أناس من اليهود . وعلق (ابن جرير) على الأقوال التي جمعها في تفسيره بقوله: وروي عن (ابن عباس) الأميون . قوم لم يصدقوا رسولا أرسله الله ولا كتاباً أنزله . فكتبوا كتاباً بأيديهم . سماهم أميين لجحودهم . وما روي عن ابن عباس . هو في رأي ابن جرير . تأويل على خلال ما يعرف من كلام العرب: أن الأمي عند العرب هو الذي لا يكتب ، ورأي ابن جرير يعتمد على ما تفسر به الأمية لغة . وابن جرير في رأيه . يستأنس بالحديث النبوي: إنا أمة أمِّيَّة لا نكتب ولا نحسب [3] .

ونحن إذا ما رجعنا إلى معاجم اللغة . نجد : إلى جانب تفسير (الأمي) بالذي لا يكتب . تفسيراً آخر: [الأمي : العيي الجلف القليل الكلام] ولكن لا نجد من يفسر قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ [4] من يفسر الأمي : بالعيي الجلف القليل الكلام [5] . فلأكثر الكلمات معان متعددة ومختلفة ، وأكثر الكلمات العربية يحصرها سياق الكلام: في معنى واحد ، وكثيرة هي الكلمات التي تنقل من معنى إلى آخر . وهذا الذي جعل ابن عباس وابن زيد يقولان: من اليهود: أميون لم يصدقوا رسولا أرسله الله

---

(١) سورة الجمعة ، الآية : ٢ .

(٢) تفسير الطبري ٦١/٢٨.

(٣) المصدر نفسه ٢٩٦/١.

(٤) سورة الأعراف ، الآية : ١٥٧ .

(٥) لسان العرب ، مادة أمم ٣٤/١٢.

ولا كتاباً أنزله الله ولا يعرفون الكتاب - أي التوراة - إلا أماني، فالأماني : جمع أمنية والأمنية من التمني . والتمني : حديث النفس بما يكون وبما لا يكون . ومن معاني التمني: الكذب. يتمنى الحديث أي يضع حديثاً لا أصل له؛ ومن معانيه القراءة - تمنى الكتاب قرأه ، وكتبه - ولقد قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾[1] أي قرأ وتلا ، ألقى في تلاوته ما ليس فيه[2] وعلى ذلك اختلف المفسرون في تفسير الأماني . فقال بعضهم : إنها حديث النفس بما ليس لها ، وقال بعضهم الأماني: ظنون يضعونها لا أصل لها في الكتاب . فهؤلاء الأميون - هم: الذين تحدث عنهم المفسرون: لا يعلمون الكتاب إلا أماني مشحونة بوسوسة النفس - وهؤلاء الأميون هم: الذين قال عنهم القرآن : ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [3] فليس الذين يضعون حديثًا لا أصل له ، والذين يكتبون بأيديهم ثم يقولون : هذا من عند الله[4] هم : أميون على ما جبلتهم أمهاتهم عليه ، وليس تحميل كلمة (الأميين) : معنى (الذين لا كتاب لهم يقرأونه) خروجاً عن معنى الأمية!!

أما الحديث الذي استدل به ابن جرير - على أن الأميين - هم: الذين لا يكتبون فقد فسره (ناصر الدين الأسد) على ضوء مراجعه بقوله: هذا الحديث - أولا : لا يعني إلا ضرباً خاصاً من الكتابة ، والحساب - هو : حساب النجوم وتقييد ذلك بالكتابة لمعرفة مطلع الشهر - مما لم يكن للعرب عهد به - ثانياً : لا يعني نفي الكتابة والحساب نفياً عاماً شاملا - وإنما هو نفي لأن تكون الكتابة وأن يكون الحساب نظاماً متبعاً في كل الشئون ، كما كان ذلك عند بعض الأمم ذات التقاويم[5] .

---

(١) سورة الحج ، الآية : ٥٢ .

(٢) لسان العرب ٢٩٤/١٥ و٢٩٥.

(٣) سورة البقرة، الآية : ٧٩ .

(٤) تفسير ابن جرير ٣٠٠/١.

(٥) **مصادر الشعر الجاهلي** ، ص ٤٦.

ومما يستأنس به هنا ـ ما روي عن (أبي هريرة) : نحن قوم لا نكتب ولا نحسب[1] ، فأبوهريرة ـ لا يقصد : أن العرب في العصر الإسلامي لا يكتبون، وإنما قصد كتابة الحديث. وأبو هريرة لا يعارض في الكتابة وإنما هو من الجماعة التي كرهت تدوين الحديث على غرار ما دون به القرآن[2] .

وبناء على ذلك ـ ليس ثمة ما يسوّغ تغليط (ابن عباس) و (ابن زيد) و (قتادة) في تفسيرهم (الأميين) أولا : في قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾، وثانياً في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنهُمْ﴾[3] ، بأنهم اليهود الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، والعرب الذين لم ينزل عليهم كتاب يقرأونه[4] ـ فالأمية بمعنى الجهل بالقراءة والكتابة لا تشمل العرب جميعهم، فلقد كان في قريش ، وفي ثقيف، وفي الأوس والخزرج في الحجاز. وفي اللخميين في العراق، وفي الغساسنة في الشام. وفي الحميريين في اليمن ـ رجال ونساء يكتبون ويقرأون. ولقد كانت للعرب خبرة بالتجارة وبالأعمال التجارية، وكان منهم تجار يهبطون الأسواق العالمية في الإسكندرية وفي الشام وفي العراق وفي الحبشة. فالشؤون التجارية تستلزم القدرة على الكتابة والقراءة والحساب لمعرفة نوع البضاعة وثمنها ومقدار رأس المال ومبلغ الربح والخسارة، ولايمكننا أن نفترض : أن كل تاجر جاهلي يمتاز بذاكرة تغنيه عن تقييد أعماله وحساباته إلى كل ما يحتاج إليه العمل التجاري، ولا سيما أن أكثر الذين يتنقلون بين الأسواق التجارية كانوا يتاجرون برأس مال مشترك أو لحساب غيرهم. وإخال ناصر الدين الأسد بنى فهمه الحديث "إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب" على ضوء هذا. ولقد كانت للعرب صلات سياسية بالفرس والروم تستدعي معرفة اللسان الرومي والفارسي. ولقد وجد (غنيمة)

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٦٧.

(٢) راجع الفصل الآتي في هذا الجزء بعنوان: من المدينة بدأ التاريخ وتدوينه في العصر الإسلامي.

(٣) سورة الجمعة ، الآية : ٢.

(٤) تفسير ابن جرير ١/ ٢٩٦ وما بعدها و٢٨/ ٦١ وما بعدها.

في بحثه: أناساً في الحيرة يحسنون الكتابة والقراءة واللغات الأعجمية. ولقد انتشر في الجزيرة العربية الكتابيون - يهوداً ومسيحيين، وأخذوا يبشرون باليهودية، وأخذ بعض العرب يستجيب للمبشرين، وأخذ أفراد منهم يبحثون عن الطريق المستقيم الذي يوصلهم إلى رب السموات والأرض، ولذلك وجد الباحثون: أناساً من العرب كانوا على علم بالكتب المسيحية - واليهودية - مثل: (قس بن ساعدة) و(أمية بن أبي الصلت) و(ورقة ابن نوفل) ووجدوا بعضاً من اليهود يعلم أبناء الأوس والخزرج الكتابة والقراءة.

ومن أدلة قدم الكتابة والقراءة في الجزيرة العربية، ووجود كتّاب وقراء في عصور الجاهلية: الخطوط التي ظهرت على صخور الجزيرة وجبالها - وما أكثر الخطوط التي نقشت على صخور الأرض العربية!! ومن المدونات التي عرفها المحققون في التاريخ العربي ومصادره، والتي رجع إليها رواد الثقافة والتاريخ: مكتبات حمير في الجنوب، وذخائر الحيرة في الشمال، وأسفار اليهود في منازل اليهود التي هاجروا إليها، فلقد ثبت: أن (عبيد بن شرية) عرف الحيرة وعرف كنائسها[1] - وثبت: أن رواية (وهب بن منبه) عن نصارى نجران وقصة الراهب (فيمون) مطابقة للروايات النصرانية، ولما جاء في كتاب (شمعون الإرشامي)، وأن وهباً اطلع على كثير من المدونات القديمة[2]. وثبت فيما نقل عن (الهمداني)، أن كثيراً من عرب الجنوب كانوا يعرفون الخط المسند إلى ما بعد الإسلام، وفيما نقله (جواد علي) عن مصادره: ثبت علميًّا أن الخط المسند كان معروفاً قبل الإسلام في كل شبه الجزيرة العربية[3] - وثبت: أن الرواية العربية عن (ثمود) و (عاد) تكاد تكون هي مصدر المؤرخين الوحيد.

ثم إننا إذا ما رجعنا إلى الماضي القريب - وبالتحديد إلى أواخر العهد العثماني - نجد القراءة - والكتابة في بادية الأقطار العربية تكاد تكون معدومة - وتكاد تكون نادرة في

(١) راجع ترجمة عبيد بن شرية في هذا الجزء.

(٢) راجع ترجمة وهب بن منبه في هذا الجزء.

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ١/ ١٩٤.

حواضرها، فهل لنا ـ أن نقول: إن عرب القرن العشرين من الميلاد ـ أمة أمية لضآلة نسبة القراءة والكتابة؟!

فمن الأدلة التي قدمها الباحثون عن الخطوط القديمة، ومن الحجج التي أكد بها القائلون: إن عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة من العرب في العصر الجاهلي ـ كان غير قليل ـ من هذه الأدلة ـ والحجج ـ نستشف وجوداً للكتابة والقراءة في عصور الجاهلية القديمة ـ أخذ يتضاءل إلى درجة الاضمحلال في بعض أصقاع الجزيرة. ونستشف عناية سكان الجزيرة العربية في العصور الجاهلية بتسجيل الأحداث، وتسجيل الأحداث يرجع تاريخه إلى الزمن البعيد، وقد تقدم الكلام عن النصوص الحجرية في البحث المتقدم ـ (فكرة التاريخ ومصادره).

ومن الأحداث التي سجلها الثموديون والأمم التي عاصرتهم في الجزيرة العربية، والأمم التي سبقتهم إليها والتي جاءت من بعدهم ـ أحداث ليست بذات قيمة إلا عند الذين سجلوها ـ وأحداث لا تتجاوز أهميتها الأزمنة التي سجلت فيها، ولكنها تعدّ في العصر الحاضر نصوصاً تفيد في معرفة التدوين عند العرب؛ فقليل من هذه المدونات التي وجدت في آثار (مدائن صالح) و (العلا) و(حجر اليمامة) وغيرها من الأماكن التي كانت عامرة بأمم الماضي القديم، يكفي للدلالة على اهتمام العرب في العصور القديمة بالتدوين التاريخي.

ويقول بعض المفسرين: إن الذين ذكرهم القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[1] ـ هم من عرب الجاهلية الثانية الذين نصبوا أنفسهم لتعليم الأخبار ورواية القصص التاريخي، فيقصدهم من يقصدهم يستمليها ويكتبها ـ وقيل عن (النضر بن الحارث) : إنه كان يخلف رسول الله صلى الله وسلم في مجلسه، فيتحدث عن (رستم) و(اسفندار) وملوك فارس، ثم يقول : بماذا محمد

---

(١) سورة الفرقان، الآية : ٥.

أحسن مني حديثاً[1]؟ وقيل : إن مشركي قريش كانوا يقولون: إن هذا الذي جاءنا به محمد . أساطير الأولين، يعنون أحاديث الأولين التي كانوا يسطرونها في كتبهم، اكتتبها محمد صلى الله عليه وسلم من اليهود[2].

٥- ولم يفعل النضر ما فعله، ولم يقل القرشيون ما قالوه؛ إلا لأن تدوين الأخبار في كتب يتداولها المهتمون بالأساطير من العرب . شيء مألوف عند العرب. ولقد جمع (جواد علي) . الروايات التي تقول: إن أهل الحيرة كانوا يعنون بتدوين أخبارهم وأنسابهم وأنساب ملوكهم وأعمار من ملك منهم، وإنهم كانوا يحفظون ما يدونونه في بيع الحيرة[3]. ولقد أكد جواد علي مستنداً إلى تحقيق بعض المستشرقين : أن أخبار القبائل والإمارات العربية الشمالية مثل : المناذرة والغساسنة وعرب (تدمر) أقرب إلى التاريخ والواقع من أخبار عرب شبه الجزيرة بما في ذلك أخبار اليمن. ويعود ذلك في نظر جواد علي إلى عنايتهم بتدوين أخبارهم وإلى عناية المؤرخين الأعاجم بتدوين أخبارهم كذلك . كالسريان واليونان والرومان والفرس، ووقوف الرواة عليها، ثم قرب عهدهم من الإسلام، ويؤكد أيضاً مستنداً إلى ما جاء في مؤلف (يوسف غنيمة) الذي سبقت الإشارة إليه، والذي جاء فيه : [أن أناساً يحسنون القراءة والكتابة واللغات الأعجمية، وأن أهل الحيرة قد وقفوا على مؤلفات فارسية وضعت في التاريخ ، وأن بعض هذه المؤلفات ترجم قبل الإسلام ونقل منها إلى العربية بعد الإسلام، وقد نقل النضر بن الحارث وغيره ممن اتصلوا بالحيرة مثل هذه الأخبار إلى سائر أنحاء شبه الجزيرة . وهذا ما ساعد على حفظ تواريخ عرب الشمال][4].

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٠٠ .

(٢) تفسير ابن جرير ٨/١٣٩ .

(٣) راجع الطبري، ولسان العرب، وتاج العروس في أخبار الحيرة، ومادة حير.

(٤) تاريخ جواد علي ١/٣٩ و٤٠.

٦- فمن (الحيرة) في العرق، ومن (مآب) في سوريا، ومن (صنعاء) في اليمن نقل العرب ما نقلوه من قصص تاريخي. وما نقله العرب من الجنوب والشمال: يمثل المعارف التاريخية في تلك الأقطار المزدحمة بمختلف الأجناس. قبل الإسلام وبعده. وأكثر المعارف في الشمال تسلطت عليها العقلية الفارسية واليونانية، مثلما تأثر اليمنيون بالأمم التي جاورتهم.

أما الجانب الآخر؛ فإننا نجد صوراً منه في شعر الجاهليين وقصصهم. ولذلك نرى: جواد علي وغيره يرجعون إلى الكلاسيكيين العرب فيما لم يجدوه في مؤلفات اليونانيين والفرس. وأما ما حفظه اللخميون في بيع الحيرة، فقد سبق إليه الرواة العرب قبل أن يصل إلى أيدي المستشرقين.

ومما لا مرية فيه: أن وجود مصادر غير عربية إلى جانب المصادر العربية. جعل تاريخ الهلال الخصيب أكثر وضوحاً من تاريخ اليمن قبل الاستعمارين الحبشي والفارسي. فتاريخ اليمن القديم انحصرت مصادره فيما دونه الحميريون وفيما وجده (وهب ابن منبه) من مؤلفات الكتابيين التي قال عنها: "لقد قرأت اثنين وتسعين كتاباً أنزلت من السماء. منها اثنان وسبعون في أيدي الناس وعشرون لا يعلمها إلا القليل"، ولقد ترجم الهمداني. بعض علماء اليمن فقال عنه: "وارث ما ادخرته ملوك حمير في خزائنها من مكتوب علمها، وقارئ (زبر) حمير القديمة ومساندها الدهرية". ولقد علق (عبدالعزيز الدوري) بقوله: إن تسجيل الأحداث بكتابات تتراوح تواريخها بين القرن الثامن قبل الميلاد والقرن التاسع بعد الميلاد. كان أسلوبه في البداية مشوشاً؛ إلا أن تقويمًا ثابتاً يبدأ بسنة ١١٥ ق.م، أدى إلى نظام ثابت للتاريخ؛ يوحي بوجود شيء من الفكرة التاريخية، وبالإضافة إلى ذلك فإن الهمداني يشير إلى وثائق ملكية ومجلات حميرية حفظت واستفيد منها فيما بعد، وإلى (زبر) أو وثائق وسجلات للأنساب حفظتها بعض العوائل والبطون[1].

---

(١) بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، ص ١٤.

وهذا ما يقال عن الأساطير التي كان العرب الجاهليون يتحدثون بها في الشمال والجنوب ومصادرها. أما أساطيرهم عن (عاد) و (ثمود)، فإننا نجد عند (الطبري) : حديثاً عنهم جاء فيه: فأما أهل التوراة فإنهم يزعمون: أنه لا ذكر لعاد ولا لثمود ولانبيهم (هود) و(صالح) في التوراة وأمرهم عند العرب في الشهرة في الجاهلية والإسلام كشهرة إبراهيم وقومه، ولولا كراهة إطالة الكتاب بما ليس من جنسه لذكرت من شعر شعراء الجاهلية الذي قيل في عاد وثمود وأمورهم. ما يعلم به من ظن خلاف ما قلناه في شهرة أمرهم في العرب : صحة ذلك. ومن أهل العلم من يزعم : أن صالحاً عليه السلام توفي بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة، وأنه أقام في قومه عشرين سنة[(١)]. وينقل الطبري عن بعض النسابين. أنه قال: "قد حفظت طائفة من علماء العرب لمعد: أربعين أباً بالعربية إلى إسماعيل واحتججت لقولهم ذلك بأشعار العرب، وأنه قابل ذلك بما يقوله أهل الكتاب فوجد العدد متفقاً واللفظ مختلفًا". ويقول الطبري: وأملي ذلك عليّ فكتبته[(٢)].

فما جاء في الروايات التي جمعها (ابن جرير الطبري) في تاريخه وفي تفسيره، وما نقرؤه في أشعار الجاهلية عن العرب البائدة؛ ويرجحان وجود مخطوطات عدّها أصحابها كنوزاً جديرة بالصيانة والاحتجاب عن العابثين الذين لا يدركون قيمتها؛ عنها انتشر قصص التاريخ بين العرب الجاهليين، وأخذت الألسنة تتداوله تزيد فيه من الخيال ما يحلو لها زيادته وتنقص منه ما ضاع من ذاكرة الرواة على ممر الأجيال. ومما يؤكد هذا الترجيح. ما ثبت عن (ورقة بن نوفل) في قصته مع (خديجة) زوج النبي صلى الله عليه وسلم التي أتته تسأله عما رآه النبي صلى الله عليه وسلم، فقد جاء في الخبر عن ورقة، "وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل ما شاء أن يكتب"[(٣)].

---

(١) تاريخ الطبري ١٦٢/١.

(٢) المصدر نفسه ٣٠/٢.

(٣) سيرة ابن هشام ٢٢٣/١ و٢٣٨. والأغاني ١١٤/٣.

وما جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم مع سويد بن الصامت الذي قال للنبي صلى الله عليه وسلم: لعل الذي معك مثل الذي معي؟! فقال النبي ﷺ: ما الذي معك"؟ قال سويد: "الذي معي مجلة لقمان"، والمجلة - هي: الكتاب. فكل كتاب عند العرب مجلة[1]. ثم إننا إذا ما رجعنا إلى (أخبار عبيد بن شرية) وإلى (التيجان) لوهب بن منبه يغلب على ظننا أنهما جمعا من مدوّنات اطلع عليها (ابن شرية) و (ابن منبه).

٧- وإنا لنجد في ندوات الجاهليين وأسواقهم الأدبية التي تبوأ الحديث عنها مكاناً في تاريخ الأدب الجاهلي، وفي تاريخ المجتمع العربي: دليلا يؤكد لنا: اهتمام العرب بالأخبار والتاريخ، ففي تلك الندوات، وهاتيك الأسواق كان يدور الحديث حول مغازي العرب ونوادر الملوك وشعر الشعراء، وشئون التجارة، فتدون غرر القصائد، وتحفظ أخبار المغازي، وسير الملوك.

٨- وإذا نحن أخذنا بهذه الأدلة. فعلينا: أن نعرف الطريق الذي وصلت منه أخبار الأمم البائدة، وعالم ما قبل الطوفان وآدم وزوجه. وإذا نحن أردنا أن نعرف الطريق الذي سلكته تلك الأنباء، فعلينا: أن نرجع إلى بحث الأديان؛ فتاريخ الخليقة وعوالم ما قبل الطوفان وأمم ما قبل التاريخ - هو جزء من العقائد والأديان؛ فالعقائد قامت على التبشير والتحذير: التبشير بثمرة العمل الصالح، والتحذير من مغبة العمل الظالم، وضرب الأمثال بما كان عليه الأولون من مال وبنين وجنات وعيون، وما أصابهم من كوارث بما قدمت أيديهم. فها نحن أولاء نجد: قصة (آدم) و (إدريس) و (الطوفان) منتشرة بين أمم ما قبل التاريخ في آسيا وفي أوربا، فما عرفناه عن عقائد أقدم الأمم. وهم (السوموريون) وما تحدثت به نصوصهم عن أصل الخليقة وعالم ما قبل الطوفان. نجده يتردد في بلاد (مدين) فيقول (شعيب) لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾[2]

---

(١) سيرة ابن هشام ٤٢٧/١ . لسان العرب، مادة جهل ١٣٠/١١ .

(٢) سورة هود، الآية: ٨٩.

فلو لم يكن قوم شعيب يعرفون شيئاً عن تلك الأمم لما كان لشعيب أن يوجه انتباههم إلى ما أصاب أمماً لا يعرفون عنها شيئاً.

فلا يبعد أن يكون (إبراهيم) الذي بعث في (أور) وأتم رسالته في فلسطين والحجاز . قد تحدث بما في صحفه عن آدم وحواء ونوح وعالم الماضي الغامض، كما تحدث بها (هود) في عاد و (صالح) في ثمود . وكما تحدث اليهود والمسيحيون فيما بعد بما في أسفار بني إسرائيل وأناجيل المسيحيين.

٩- ولا يبعد أن يكون أبناء الذين نجوا مع نوح ممن حملهم معه في سفينته ﴿وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلاَّ قَلِيلٌ﴾[١] والذين نجوا مع هود ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾[٢] ، والذين نجوا من قوم صالح ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾[٣] . أولئك الذين قال عنهم المؤرخون : إن ذرية نوح . هي التي استعمرت الأرض بعد الطوفان . وإن عاداً الثانية نسبت إلى هود ، وإن البقية من قوم صالح عاشت ذريتها تحمل اسم ثمود إلى ما بعد الميلاد . لا يبعد أن يكون أبناء هؤلاء احتفظوا بما تحدثت به آباؤهم عن عهودهم البائدة فتناقلتها الأجيال من بعدهم. مثلما تناقلت الأجيال . العربية : أخبار: طسم ، وجديس، وعبيل، وجرهم، والعماليق، وسبأ ، وحضرموت ، وغيرهم من الأمم البائدة[٤] .

ولقد سبق في الجزء الأول: البحث في الأمم البائدة ، والبحث في الإبادة التي اعتقد بعض المؤرخين . خطأ : أنها فناء لم يبق من تلك الأمم ديراً ولا دياراً[٥] . فالأمم

(١) سورة هود ، الآية : ٤٠.

(٢) سورة هود ، الآية : ٥٨.

(٣) سورة هود ، الآية : ٦٦.

(٤) الجزء الأول من هذه الكتاب . العرب في أحقاب التاريخ . الذي صدر بعنوان: التاريخ العربي وبدايته ٢٣٥/١ وما بعدها .

(٥) الدير: الدارات في الرمل، والدير خان النصارى. والديار صاحب الدير. لسان العرب، ٣٠٠/٤ .

البائدة لم تبتلعهم الأرض دفعة واحدة بين عشية وضحاها . وإنما دولهم هي التي دالت وسلطانهم هو الذي زال . فانصهرت البقية المغلوبة على أمرها في الدول التي برزت بعدها فتبدل اسمها ، واختفت ألقابها فاسحة المجال لغيرها من الأمم ذات الدولة والسلطان، وهكذا سنة الحياة وتلك الأيام نداولها بين الناس.

فلا بد أن يكون حديث الآباء للأبناء عن ماضيهم مستفيضاً ، ولا بد أن يكون حرص الأبناء على آثار ماضيهم شديداً ، ولا بد أن تكون بقايا الأمم حملت معها ذكريات ماضيها إلى كل مكان هاجرت إليه ، وبلد توطنت فيه ، ولا بد أن يكون منهم رواة أخبار وشعراء تغنوا بماضيهم العزيز عليهم ، وندبوا مجدهم الآفل كما ندب (عمر بن الحارث) جرهماً[1] :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها فأزالنا ... صروف الليالي والجدود العواثر

ونحن ولينا البيت من بعد نابت ... بعز فما يحظى لدينا المكاثر

وكما تحدث (أبو المطهر إسماعيل بن رافع الأنصاري) عن خزاعة[2] :

فلما هبطنا بطن مكة أحمدت ... (خزاعة) دار الآكل المتحايل

فحلت أكاريساً وشتت قنابلا[3] ... على كل حيّ بين نجد وساحل

نفوا جرهماً عن بطن مكة واحتبوا ... بعز خزاعي شديد الكواهل

ولقد قلت فيما سبق في الجزء الأول، وفيما سيأتي في هذا الجزء: إن الشعر المنحول منه والأصيل . هو: مرآة تنعكس عليها ظلال الفكر الجاهلي وعقلية الماضين،

(١) سيرة ابن هشام ١/ ١١٥ .

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٩٢

(٣) الكرس : الجماعة من الناس ، والقنبلة : القطعة من الخيل .

وإنه لا بد من تدخل الخيال فيما ينظمه الشعراء ويرويه رواة الأخبار، وإن تخيلات الراوي وتصورات الشاعر يتأثران بتطور الزمن، فينفسح مجالهما كلما اتسعت آفاق المجتمع، ويضيق كلما ضاقت ، فبقدر ما ترتفع المعارف بعقلية المجتمع يرتفع الخيال عن السذاجة والخرافة.. ومن بديهيات الظنون التي تلاحق الباحث في أخبار التاريخ القديم: افتراض الخيال في قصص توارثتها أجيال تأثرت بمختلف العقليات والمدارك، لا سيما العقلية الجاهلية في قلب الجزيرة العربية ، حيث انتشرت اليهودية والمسيحية وأخذ الأحبار والرهبان يبشرون بما يزعمون: أنه من التوراة والأناجيل - كما تأثرت عقلية سكان الواديين: الفرات والنيل، وسكان اليمن وشواطئ الخليج الإسلامي. بأخيلة الأمم التي ازدحمت في تلك البقاع، حيث تصادمت العناصر وتصارعت العقائد.

فأساطير الجاهلية ومعارفها عن أصل الخليقة وعالم ما قبل التاريخ. هي : بقايا أنباء غامضة تداولتها أجيال عاصرت. إبراهيم، وهوداً ، وصالحاً، وأنباء وصلت مع العقائد، فاستقبلتها عقول خضعت لوثنية كلها خرافة وتدجيل . أما قصصهم وما يعرفونه عن الأمم البائدة، فقد تجمع مما احتفظت به بقايا تلك الأمم. من آثار، وأخبار، وأشعار تتجدد وتتلون مع الزمن، وتتسع مع الفهوم والمعارف . وأما تاريخ الشمال والجنوب فقد عرفوا شيئاً عنه روايات سمعوها من سكان الجنوب والشمال، ومخطوطات اطلعوا عليها في (الحيرة) و (صنعاء).

١٠- والذي يستلفت الانتباه في القصص الجاهلي: أن أصل القصة التاريخية لم يحجبه الخيال على كثافته، فعلى كثافة الخيال في القصص الجاهلي. لا يزال أصل القصة متفقًا عليه. فالقصص الجاهلي عن (عاد) و(ثمود) و (جرهم) و(عبيل) وغير هذه الأمم من العرب البائدة يلتقي. جميعه في نقطة واحدة. فالقصص الجاهلي. مجمع على أن قوم عاد: أمة من أقدم الأمم ذات قدرة فنية بارعة وقوة حربية لا تطاق. وإنما الذي اختلف في هذا القصص. هي : الصور التي رسمها الخيال والمبالغات التي

لونت بها صور الخيال، وليس هذا بغريب على طبيعة الرواة. فما آفة الأخبار إلا رواتها - فنحن اليوم مازلنا نتحدث عن أمجاد (دمشق) وثقافة (بغداد) وحضارة (قرطبة) ، ولا يخلو حديثنا من الخيال والمبالغة. وما زال المحققون منّا يسيرون في تيه الروايات التي تحدثت عن أيام (علي بن أبي طالب): يوم (الجمل) و (صفين) ، وعن عصر (هارون الرشيد) ونهاية (البرامكة) ، وعن (الأندلس) ولياليه. وما زالت التحقيقات تبحث عن الحقائق في ذلك التيه، وما زال سراب الخيال يغرر ببعض الباحثين، وما زالت أعاصير المبالغات تثير الغبار أمامهم. على الرغم من كثرة المصادر المدونة التي تتيح للباحث مقابلة مصدر بمصدر ورواية برواية للوصول إلى الأصل الحقيقي، فكيف بذلك القصص الذي لم يصل إلى العربي الجاهلي نصوصاً واضحة ، وإنما وصل إليه عن أسفار لم يطلع على بعضها غير قلة لا تذكر. ووصل إليه روايات لم يملك ناقلوها مقاييس النقد العلمي، توارثتها الأجيال، واستورد بعضها التجار العرب من الأقطار التي كانت على صلة تجارية بهم.

١١- ونحن إن كنا لا نعلم عن المدونات التي كان الجاهليون يحتفظون بها كنوزاً ، ثمينة؛ إلا القليل الذي ذكره المؤرخون بعد الإسلام بالمناسبة. مثل : مدونات (النضر بن الحارث) و (عقبة بن أبي معيط) وكتاب (لقمان) الذي احتفظ به (سويد بن الصامت)، فإن فيما نقله المؤرخون. ما يدل على أن العرب كانوا ينقلون من الشام ومن العراق: المدونات التي تروق لهم؛ فمن ذلك ما قيل عن (ابن قرة) : إنه جاء بكتاب إلى (ابن مسعود) وقال له: وجدته بالشام فأعجبني فجئتك به. فبعد أن اطلع عليه ابن مسعود قال: إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم الكتب وتركهم كتابهم[1]. وإن فيما نقله المؤرخون ما يدل على أن قلب الجزيرة العربية لم يخل من مدونات دينية وغير دينية.

---

(١) تقييد العلم ، ص ٣٥.

ولقد رأيت إبّان جولتي التفتيشية على منطقة (جازان)[1] سنة ١٣٦١هـ - في قرية من قرى جازان وصل الجهل بأهلها إلى حيث إنهم لا يعرفون من العالم الواسع غير حوادث القرية التافهة، ولوازم الحقل البدائية، وبلغ الانزواء بهم إلى حيث إنهم لم يسمعوا شيئا عن الحرب العالمية الثانية القائمة آنذاك. رأيت في هذه القرية: خزانة كتب يملكها قاضيها. فيها مختلف الكتب: دينية وأدبية وتاريخية. ولمست في صاحب هذه الخزانة معرفة وسعة اطلاع بالتاريخ الإسلامي والأدب العربي، ولقد أكد لي الجازانيون: أن هذا القاضي. هو: ابن هذه القرية النائمة في سهول تهامة، وأنه لم يتخط منطقة جازان إلا لأداء فريضة الحج.

فالذي يسمع من المؤرخين العرب عن المدونات الجاهلية، ويرى مثل تلك المكتبة في سهول تهامة قبل أن تنهض وزارة المعارف بنشر التعليم في البادية. لا يستبعد وجود مدونات صدر عنها بعض القصص الجاهلي مصبوغاً بخيال السذج. من الرواة. ونقلة الأساطير.

١٢- ولقد جاء في طبقات (صاعد) عن (أبي محمد الهمداني). أنه قال: "ليس يوصل إلى خبر من أخبار العجم والعرب إلا بالعرب ومنهم. وذلك لأن من سكن بمكة من (العماليق)، و (جرهم)، و(آل السميذع بن هونة)، و(خزاعة) أحاطوا بعلم العرب العاربة والفراعنة العاتية وأخبار أهل الكتاب. وكانوا يدخلون البلاد للتجارة فيعرفون أخبار الناس، وكذلك من سكن الحيرة وجاور الأعاجم من عهد (أسعد كرب) و(بختنصر) حووا علم الأعاجم وأخبارهم وأيام حمير وسيرها في البلاد .. وعنهم صار أكثر ما رواه (عبيد بن شرية) و(محمد بن السائب الكلبي) و(الهيثم بن عدي)، وكذلك من وقع بالشام من مشايخ غسان خبير بأخبار الروم وبني إسرائيل واليونان، ومن وقع بالبحرين من (تنوخ) و(إياد) فعنه أتت أخبار (طسم) و(جديس)، ومن وقع من ولد

(١) لقد انتدبت على رأس هيئة للتفتيش على جازان سنة ١٣٦١هـ من قبل وزارة المالية.

(نصر من الأزد) بِعُمَان - فعنه أتى كثير من أخبار (السند) و (الهند) وشيء من أخبار (فارس) ، ومن وقع بجبل (طيئ) فعنه أتت أخبار (آل أذينة) و (الجرامقة)، ومن سكن باليمن فإنه علم أخبار الأمم جميعاً؛ لأنه كان في دار مملكة (حمير). والعرب أصحاب حفظ ورواية"[1] .

وما جاء في كلام الهمداني. يجمل ما تقدم مفصلاً عن المصادر التي تجمع منها قصص الجاهليين وأساطيرهم، والطرق التي وصلت منها إلى العرب قبل الإسلام أساطير الأولين:

فأولا: التاريخ الديني. وأقصد بالتاريخ الديني: الأنباء التي تتحدث عن أصل الخليقة وآدم والعالم ما قبل التاريخ؛ فهذه تحدثت عنها الكتب المقدسة، ووصلت أنباؤها إلى الجزيرة مع الرسل والمبشرين. كما قلت من قبل - .

ثانياً: تاريخ الأمم المجاورة للبلاد العربية وأساطيرها. فهذه استوردها العرب من الأمم التي احتكت بهم واحتكوا بها .

ثالثاً: تاريخ الأمم العربية البائدة. وأخبار هذه الأمم وصلت رواية متواترة عبر الأجيال التي توارثت أرض الجزيرة العربية.

ولقد تحدث بعض المستشرقين عن التبادل المادي والروحي بين سكان البلاد العربية التي شاركت وما زالت تشارك في الحياة البشرية. وبين (إيران) و (تركيا) و (حوض البحر المتوسط). والهند وإفريقية. وقالوا : إن عمق هذا الاتصال من أقدم الأزمان، وإن استمراره إلى العصر الحاضر أوهم بعض المؤرخين الكلاسيكيين ، فاقتنعوا بالنظريات التي عاشت بين اليونانيين في بعض العصور، والتي تقول بوجود أصل دموي بين بعض القبائل العربية وبين اليونانيين.

---

(١) طبقات صاعد ، ص ٥٨ و٥٩.

لا شك في أن التبادل المادي والثقافي. هو: الخطوة الأولى في توشيج الصلات التاريخية. وهو : العامل الأهم في المشاركة لبناء المنافع والمصالح ، فالجوار يفرض التعاون، والتعاون لا يتم إلا بعد تجاوب ينشأ عن العنصرين اللذين تتولد منهما العلاقات بين الشعوب: العنصر المادي والعنصر الروحي. وفيما سبق في الجزء الأول عن أديان الشرق قبل الإسلام وتشابهها: غنى عن التوسع في معرفة منشأ القصص في جاهلية العرب، وتأثير القصص: البابلي ، والفارسي، والإغريقي، والعبري، والحبشي ، والهندي. على خيال الجاهليين عندما يتحدثون عن العالم القديم.

فمن هذه المسالك، وبفعل تلك العوامل، تجمع القصص التاريخي وصيغت أساطيره من متنوع العقائد ، والثقافات والعقليات. ولقد وجدت خرافات وثنية البلاد العربية: الطريق إلى القصص التاريخي واسعاً في كل قطر من أقطار البلاد العربية؛ فعبثت به كما شاء لها تدجيل الكهنة وجهل العامة أن تعبث.

١٣- وفيما تقدم توافرت أدلة لا بأس بها. ترجح : وجود مدونات عند العرب الجاهليين، ولم تستبعد عن المدونات الجاهلية: الأخبار التاريخية. وبدافع اقتناع بعض المحققين بتلك الأدلة أخذوا يتساءلون عن مصيرها. ومن بين البحوث التي أخذت تحقق في المدوّنات الجاهلية وتتساءل عن مصيرها بعد الإسلام: بحث نشرته مجلة (الأبحاث) في جزئها الثاني أعاد فيه (نبيه أمين فارس) ما قاله في مقدمة الجزء الأول من (الإكليل) . عن اتجاه رغبة الإسلام الرسمية في استئصال كل ما يمت إلى الجاهلية بصلة ، وإن حديث (الإسلام يجبّ ما قبله) .دفع المسلمين إلى طمس آثار كل شيء يتفرع عن النظام القديم غير مميزين بين ما يتعلق بالوثنية والأنصاب والأصنام وما يتعلق بالحالة العامة كالثقافة والأدب والتاريخ ، فكان من نتاج ذلك ذهاب أخبار الجاهلية.

ولقد اتخذ (جواد علي) هذا البحث: أساساً لكلامه عن المدونات الجاهلية ، فرد على الذين يقولون: إن المسلمين فهموا من الحديث. الإسلام يجبّ ما قبله. أنه أمر

يقضي بإعدام كل أثر جاهلي. وقال: "إن هذه الدعوى صدى لما نادى به جماعة من المستشرقين، وإن ما نادت به هذه الجماعة. هو: تهمة وجهت إلى (ابن الكلبي) أو لغيره. وإن الكلمة التي استشهد بها (نبيه فارس) قد استلهمها من حديث أطول ورد في معنى آخر يخالف ما ذهب إليه لا علاقة له بهدم الجاهلية، ورد في صحيح (مسلم) في باب (الإسلام يهدم ما قبله). ورد هذا الحديث مع غيره جواباً عن أسئلة الصحابة عن أعمال منافية للإسلام ارتكبوها في الجاهلية. فقالوا يا رسول الله: أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ - وإن الإسلام لم يحرم فيما حرمه من أعمال الجاهلية. أقلام الجاهلية ولا الشعر الجاهلي ولا النثر الجاهلي. أو إنه أمر بإحراق كتابات الجاهليين. وإن في القرآن آيات تعرضت للجاهلية، وأخباراً عن أقوام عاشت قبل الإسلام. ولو كان الإسلام قد تعمد طمس الجاهلية والقضاء على معالمها لتحرج القرآن وتحرج. المسلمون من الإشارة إليها"[1].

وما جاء في كلام (نبيه أمين فارس) عن رغبة الإسلام، وأنها اتجهت إلى محو كل التراث العلمي للأمم غير الإسلامية. جاء مثله في كلام (جرجي زيدان) عن مكتبة الإسكندرية والتهمة التي وجهت إلى المسلمين بشأن حرقها: وحيث إن لمصير التراث العلمي في العصر الإسلامي بحثاً خاصاً سيأتي في بحث: من المدينة بدأ التاريخ وتدوينه في العصر الإسلامي. من هذا الجزء بينّا فيه: موقف الإسلام المعتدل من التراث العلمي، وأن ما قام به المسئولون عن العقلية الإسلامية تفعله اليوم مراقبة المطبوعات في كل دولة من دول العصر الحاضر. حرصاً على أخلاق المجتمع وعقائده ومبادئه. وبينّا فيه حقيقة الرعيل الأول من التدوين، نكتفي هنا بهذه الإشارة.

فمن الحقائق الثابتة: أن المسلمين لم يعدموا من المدوّنات الجاهلية؛ إلا ما يمس العقيدة ويضلل العقول الحديث عهدها بالإسلام، وأنهم لم يكرهوا غير تدوين

(١) تاريخ جواد علي ٦٢/١ إلى ٦٦.

الحديث على غرار ما دون به القرآن .. ومن الحقائق الثابتة: أن مدونات احتفظت بها الحيرة، ومدونات لبثت في مكانها في مدن اليمن وقراها، ومدونات احتفظ بها أفراد كانوا يرجعون إليها فيما يروونه عن العصر الجاهلي: إلى غير ذلك من مدونات (السريانيين) و (اليهود) و (المسيحيين) التي لم يتعرض لها المسلمون.

١٤- فأكثر البحوث التي وضعت في التاريخ العربي الجاهلي، وفي الشعر الجاهلي. ومصادرها: تشير إلى وجود كتب ظهرت في مطلع القرن الثاني الهجري تحتوي على أنساب وأشعار وأخبار جاهلية، ولقد سبق في هذا البحث، ولسوف يأتي في التراجم في هذا الجزء: أن كتاب (أخبار ابن شرية) وكتاب (التيجان) يصوران القصص الجاهلي، والمادة التاريخية في تلك العصور، وأن مؤلفيهما كانا يستشهدان بأقوال لا تبعد عن أن تكون محفوظة في مدوّنات يحتفظ بها ابن شرية ووهب ابن منبه.

١٥- وكل البحوث التي ناقشت قصص الجاهلية وأساطيرها. تؤكد : أن للعرب في جاهليتهم قصصاً تاريخياً وصل إليهم من مسالك متعددة، وأن العرب في جاهليتهم كانوا على علم بما يحدث في عالم ما قبل الإسلام ، فلقد كشف لنا رهان (أبي بكر الصديق) مع مشركي قريش. على أن الروم من بعد غلبهم سيغلبون. عن مدى اهتمام العرب بالشئون الدولية ومبلغ فهمهم للأحداث وما يترتب عليها. وأن الأمية التي وصف بها العرب لا تعني جهلهم جميعاً الكتابة والقراءة. ولقد استنتج الكثيرون مما وجدوه في معاجم اللغة العربية من كلمات تدل على التدوين وأدوات الكتابة، وأسمائها وصفات القلم. كيف يبرى ، وكيف يقط ، وأنه يسمى قبل أن تبريه: أنبوبة ، فإذا بريته فهو قلم. والمداد والدواة والقرطاس والكتاب والمجلة والصحيفة ؛ أن هذه الأسماء لم يضعها العرب عبثاً. وأن من العرب من كان يدون ما هو مهم في نظره ، وأن الخطوط العربية القديمة ظهرت على آثار الثموديين وغيرهم من الأمم العربية البائدة، وأن في جاهلية ما قبل الإسلام عدداً كان يقرأ العبرية والفارسية، ويدون شيئاً مما يطلع عليه

بالعربية. ولقد وصل إلى أيدي الروّاد في أوائل العصور الإسلامية ما دوّن في الحيرة وما دوّن في اليمن ، وأن ما عرف من مدوّنات الجاهلية . هو : ما ذكره المؤرخون بالمناسبة ، وأن ما ذكره المؤرخون بالمناسبة ضاع مع ما ضاع من التراث القديم، فلم يصل إلينا منه غير تلك الصور الباهتة التي نراها في (أخبار ابن شرية) و (تيجان ابن منبه) وفي بعض ما جاء في مؤلفات (ابن الكلبي) وروايات (الهيثم بن عدي) .

وكل ما وصل إلى أيدي الباحثين وسمعهم من أساطير الجاهلية وصورها ونصوصها لم يبلغ في رأي المحققين المستوى العلمي للتاريخ.

فلئن كان العرب في ماضيهم الجاهلي مهتمين بالأخبار وحفظها يتناقلونها جيلا عن جيل، قصصاً تاريخياً تتوارثه الأبناء عن الآباء والأجداد . كما أشار إلى ذلك (صاعد) فيما رواه عن (أبي محمد الهمداني) . وليس يوصل إلى خبر من أخبار العرب والعجم إلا بالعرب ومنهم . والعرب أهل حفظ[1] ...

ولئن كانت أسفار الإسرائيليين والمسيحيين قد انتشرت مع الجاليات اليهودية والمسيحية، وعرف شيئاً منها الذين اعتنقوا اليهودية والمسيحية من العرب، والذين اشتاقوا لمعرفة ما في مدونات البيع والصوامع والذين كان منهم بعض شخصيات (سفر أيوب)[2]، ولئن كان من شعراء العرب من يجيد الفارسية إجادة أهّلته لأن يكون كاتباً في بلاط الفرس ومترجماً . مثل: (لقيط بن يعمر الإيادي)...

ولئن كان سكان البادية العربية في عصورهم الخوالي من الذكاء والحفظ بمكان، ولئن كان شيء مما كان العرب الجاهليون يتناقلونه عن أخبار الماضي البعيدة: وصل إلينا فيما وصل من أخبار (النضر بن الحارث) ومن شعر (لبيد العامري) و (عدي ابن

---

(١) طبقات الأمم لصاعد ٥٨ .

(٢) مصادر الشعر الجاهلي .

زيد العبادي)، وغيرهما من شعراء الجاهلية، ولئن كان هذا الشيء الذي وصل على الرغم من الخيال الذي يغشاه . له أصل تاريخي إما من حيث الشخصية . مثل (لقمان) الذي يتناقل العرب قصة نسره (لبد) ، وإما عن الدول التي قامت في الجزيرة العربية مثل: (العاديين) الذين كانوا يبنون في كل ريع آية، و(الثموديين) الذين جابوا الصخر بالوادي ، ومثل (التبابعة) وملوكها ، و(جرهم) في مكة و (العماليق) في المدينة ...

لئن كان لكل ذلك ، أصل تاريخي تؤكده أدلة لا مناص للباحث من الالتفات إليها ، والوقوف عندها . إن التاريخ العربي بكل صوره لم يكن علماً يجمع ويدوّن إلا بعد الإسلام.

فعلى المؤرخ الذي يحاول الوصول إلى مصادر القصص الجاهلي وأساطيره: أن يوطن نفسه على الصبر والأناة، ويفتش عن الوثائق التاريخية في الأخبار القصيرة والكلمات العابرة التي تأتي في الكلام عن التاريخ الإسلامي ، وفي الحديث عن الأدب الجاهلي وأخبار شعراء الجاهلية وأيام العرب، وعليه أن يجرد الأخبار التي يطلع عليها من الخيال ويستخلص الحقائق من المبالغات التي امتزجت بها . وإنه لعمر الحق أمر جد عسير.

البحث الثاني

الشعر الجاهلي وصِلته بالتاريخ

من موضوعات البحث:

١- أسباب اهتمام رجال التفسير والحديث بالتاريخ الجاهلي وشعره.

٢- القصيدة العربية شاركت في أحداث الجزيرة.

٣- الشعر العربي ارتفعت مكانته في المجتمع الإسلامي.

٤- مكانة رواة الشعر ونقاده.

٥- الرعاية والاحترام سبب من أسباب نحل الشعر.

٦- قيمة ما جمعه الرواد من الشعر الجاهلي ولغته وأخباره.

٧- أهمية تراجم رواة الشعر الجاهلي.

الشعر الجاهلي وصِلته بالتاريخ

١ - لئن بدأ تدوين التاريخ في العصر الإسلامي مع تدوين التفسير والحديث، ليس ذلك لأن التاريخ كان في نظر المسلمين على مستوى التفسير والحديث، وإنما كان الباعث للعناية بتدوين التاريخ وتحقيق نصوصه: القصص القرآني وسيرة النبي عليه السلام ومغازيه، فما جاء في القرآن الكريم من أنباء الغيب، وما جاء في الحديث عن حياة الرسول عليه السلام ورسالته وهجرته ومغازيه، هو الذي دفع المسلمين في صدر الإسلام للبحث التاريخي ، فالبحث التاريخي لم يبدأ على أساس أنه علم قائم بذاته، بل لأنه من متممات التفسير وجزء من الأحاديث النبوية التي عني المسلمون بتحقيقها. أمّا التفرغ لأخبار الماضي وقصصه، فقد كان الكثير في صدر الإسلام - يرونه: ملهاة عن التفقه في التشريع الإسلامي.

ولئن شارك الشعر الجاهلي : التاريخ في اهتمام الباحثين عن أنباء الماضي - إن المشاركة لم تنشأ؛ لأن العرب المسلمين كانوا يفخرون بجاهليتهم ويحنون إليها، وإنما كان الباعث على الاهتمام به - ما في القرآن من ألفاظ غريبة وما فيه من أنباء أصحاب الفيل وإيلاف قريش ورحلة الشتاء الصيف وغير ذلك مما وجد المسلمون في ديوانهم - الشعر - قاموساً يفسر غريب الألفاظ، ومصدراً غنياً بنصوص تتحدث عن الفيل وأصحابه وعن قريش وتجارتها، وبمشاهد تصور مواقف العرب في الجاهلية من النفوذ الفارسي والرومي، وكيف حمى الله بيته من (أبرهة) وفيله!! وكيف انتصر العرب بثباتهم وتضحيتهم على قوى الاستعمار الساساني في (ذي قار) - وتبين نوع المعلومات التي وصلت للجاهليين عن (عاد) و (ثمود) و (جرهم) و (الإرميين)

و(العماليق) و(طسم) و(جديس) و(خزاعة) و (قصيّ) و(آذينة) في تدمر و(الغساسنة) في الشام و(المناذرة) في (العرق) و(كندة) في نجد و(التبابعة) في اليمن. إلى غير ذلك مما جاء عن أمم الماضي وأبطاله.

٢- والشعر العربي إن لم ينظم ملاحم مثل: (الإلياذة) و (الأوديسة)، فإن القصيدة العربية شاركت في أحداث الجزيرة قبل الإسلام وبعده، فهي مفخرة القبيلة، وصحيفة مجدها، وموعظة المصلح، وبوق دعوته، ونشيد الحرب وطبولها. ولقد أحس الشاعر العربي بشخصيته منذ البداية ، فكان في فخره وحماسه، وفي مدحه وهجائه، وفي فرحه ورثائه، وفي غزله وتشبيبه ، وفي وصفه الصحراء المسبعة في اليوم الصائف، والقفار المظلمة في الليلة الممطرة. حراً لا يخضع لغير شعوره وأحاسيسه؛ تحيط به العيون والآذان كلما جادت عليه قريحته فأنشد شعراً يشعل النار أو ينسق الأزهار.

٣- والشاعر العربي احتل مركزه في العصر الإسلامي فأسهم (حسان) وذلك الرعيل في الدفاع عن الإسلام ونشر مبادئه، ولقد ارتفعت مكانة الشعر العربي بعد الإسلام عما كانت عليه في الجاهلية؛ لحاجة اللغة العربية له، فعليه ادنت قواعد اللغة العربية ومعاجمها، ولحاجة المؤرخين له فيما يعود لحياة العرب قبل الإسلام وأيامهم، وأدل من استلفت الأنظار إليه (عمر بن الخطاب)، فلقد تناقلت مؤلفات الباحثين في الشعر العربي. هذا الأثر المنسوب إليه : عليكم بديوانكم لا تضلوا. قالوا : وما ديواننا؟ قال الشعر[١] .

وكثير الذين تحدثوا عن الشعراء الجاهليين والمخضرمين وقالوا عن بعضهم: إنهم كانوا يقرأون ويكتبون لا باللغة العربية فحسب، بل كانوا يعرفون غيرها، وإنهم كانوا على مستوى ثقافي لا بأس به بالنسبة لعصورهم. وكثير الذين نوّهوا باهتمام العرب بديوانهم وحرصهم على صحة ما وصل إليهم من شعر لم يكن أكثره مدوّناً في غير

(١) راجع بحث (التأليف في التاريخ وكراهية التدوين) الآتي في هذا الجزء.

الصدور؛ فما حفظه الآباء من الأجداد حفظه الأبناء من الآباء جيلا بعد جيل .. إلى أن جاء الإسلام فوجد الرواد في الشعر العربي ما يساعد على معرفة اللغة وغريبها، ووجدوا فيه من أنباء الجاهلية ما أضاء لهم جوانب كثيرة من حياة العرب في جاهلية ما قبل الإسلام.

٤- لذلك كان اهتمام رواد الثقافة العربية بجمع الشعر وتصحيحه والاستفادة منه في الكتابة عن حياة الجاهليين، وفي معرفة اللغة العربية ولهجاتها.. ولقيمة هذه الفوائد تفرغ كثير من الرواد للشعر رواية وتحقيقاً؛ تشجعهم الجماهير بتقديرها، والخلفاء والوزراء والأمراء برعايتهم والاستماع لهم والإغداق عليهم، فبقدر ما كان لأبي عمرو بن العلاء، وحماد الراوية، والأصمعي، والمفضل الضبي وغيرهم من المختصين برواية الشعر ونقده من مكانة في بلاط الخلفاء ومجالس الوزراء والأمراء، كان لهم مكانتهم عند العامة التي احترمتهم والتفّت حولهم في الأندية والمساجد تسمع منهم وتسألهم وتحفظ عنهم.

٥- وقد تكون رعاية الدولة واحترام العامة هما: سببًا من الأسباب التي جعلت بعض الرواة الشعراء ينظمون غرر القصائد ويروونها باسم شعراء مبرزين في سبيل رواية شعر لم يروه غيرهم؛ تزيد في مكانتهم. والشعر المنحول: من الموضوعات التي شغل بها نقاد الشعر الجاهلي، وسيأتي الكلام عن الشعر المنحول في مواضعه من هذا الجزء.

فعن طريق ما جمعه أولئك الرواد من أطراف البصرة و (مربدها) من الشعر واللغة والنوادر وصل إلينا الكثير من تاريخ عرب ما قبل الإسلام، فمن شعر (المهلهل) عرفنا: البسوس وحربها. ومن شعر (عدي بن زيد) عرفنا: شيئا عن مدى الارتباط السياسي بين المناذرة واللخميين وبين الأكاسرة الساسانيين، ومن شعر (زهير) و(عنترة) وغيرهما عرفنا: أشياء عن الحياة الجاهلية وتقاليدها، فهذه أيام العرب

أكثر مصادرها الشعر، فشعر الشعراء هو الذي سلط الأضواء عليها، والشاعر العربي - هو الذي كان عليه واجب الدعاية ووصف الأخلاق والحديث عن الحياة حلوها ومرها، ينافح عن القبيلة إن هزمت ويشدو بشجاعتها إن انتصرت.

فنحن إذا ما رجعنا إلى موسوعات تاريخ الأدب العربي نجد: الشعر الجاهلي ولغته من أهم المصادر التي اعتمد عليها المؤرخون الذين اهتموا بجاهلية ما قبل الإسلام، سواء الذين عنوا بتاريخ العرب بين كثبان الصحارى في قلب الجزيرة، والذين عنوا بتاريخهم على ضفاف الأنهار، وفي بادية الشام، وعلى سواحل البحار العربية - فكما عرفنا من شعراء نجد والحجاز: أخبار الجاهلية ومشكلات العرب في الحجاز ونجد - عرفنا من شعراء سواد العراق وبادية الشام الكثير من أخبار ومشكلات أطراف الجزيرة العربية.

٦- فما وصل إلى أيدي الباحثين من الشعر واللغة - يعدّ إذا ما اطمأنوا إلى صحته: نصوصاً لها قيمتها في الدراسات التاريخية، ولا سيما في العصور الجاهلية المتأخرة، ونصوصاً لها قيمتها في الدراسات اللغوية والأدبية .. وهذه النصوص التي كانت سنداً للذين تحدثوا في مجالس الخلفاء وفي المساجد وأندية العامة عن لغة العرب وأيامهم وتقاليدهم ومعتقداتهم وأنسابهم - لا تزال إلى اليوم سند الباحثين في تاريخ العرب، والمجتمع القبلي .. والخليق بالتنويه به هنا: الثقافة العامة في عصور الرواد الأولين، فهي التي كانت تشد عضد بناة الثقافة العربية . فلقد كان لتكريم الدولة وإقبال العامة أثرهما في تفرغ أولئك البناة للمهمة العلمية التي هيأتهم لها مواهبهم، وفي تحمل أعبائها وتكبد صعابها .

٧- ولقد حرصنا على تقديم تراجم الطليعة من كتاب السيرة والمغازي النبوية، والتاريخ العربي؛ لنعرف شيئاً عن مسئولية جمع النصوص التي تحملتها تلك الطليعة، ففي تراجم رواد التاريخ تتمثل: مشاقّ جمع النصوص وتصنيفها في المرحلة الأولى التي

بدأ علم التاريخ طريقه منها ، وتظهر قيمة الثروة التي جمعها السلف الأول من الرواد ، فجاء على أثرهم المؤلفون، فنسقوها في مؤلفات هي اليوم مصادرنا التي نرجع إليها في تحقيق التاريخ الجاهلي .. على ضوء الشعر والمناسبات التي قيل فيها .. فأخبار الجاهليين التي نراها مجموعة في مؤلفات (ابن قتيبة) و (الجمحي) و (أبي عبيدة) و(ابن منظور) من الذين ألفوا في الشعر والشعراء وفي أيام العرب وأخبارهم، وفي اللغة العربية ونصوصها؛ أكثرها مستمد من الشعر الجاهلي.

وما سيأتي في تراجم الرواد ، وما سيأتي في بعض بحوث هذا الجزء التي فرضت علينا الكلام عن الشعر والشعراء ، وما تقدم في الجزء الأول من هذا الكتاب عن قدم الشعر العربي[1] - هو الذي يجعلنا نكتفي هنا بالحديث عن قيمة الشعر في التاريخ واللغة، ومكانة الشعر ورواته في عصر تفجير الطاقة العربية لبناء الثقافة والتاريخ .

(١) راجع الجزء الأول من هذا المؤلف بحث: الشعر العربي عريق مثل لغته .

الفصل الخامس

من المدينة بدأ التاريخ وتدوينه في العصر الإسلامي

- المدينة المدرسة الأولى في الإسلام .



المدينة المنورة المدرسة الأولى في الإسلام

من موضوعات البحث :

١- صدى الأنباء في عصور المدينة الجاهلية.

٢- بواعث الدراسة العلمية في المدينة بعد الإسلام.

٣- التفسير والسيرة هما اللذان بعثا الاهتمام بالتاريخ.

٤- علم الحديث لم يسبق التفسير كما يظن المتأخرون.

٥- حقيقة حديث عائشة عما كان يفسره النبيّ عليه السلام من القرآن.

٦- مجلس النبي عليه السلام في مسجده لتعليم الناس اتخذه العلماء مثلاً.

٧- ما دار القراء التي كانت على عهد النبي عليه السلام مدرسة كما يظن البعض؟

٨- كان زيد بن ثابت أستاذ مدرسة المدينة الأول وكان خريجو مدرسة المدينة أساتذة الحواضر الإسلامية.

٩- المدارس المسجدية.

١٠- تدريس الأطفال في العصر الإسلامي.

١١- تطور المدارس الإسلامية.

١٢- فتور النشاط العلمي في المدينة وأسبابه.

١٣- الدقة في أخبار المدينة.

١٤- حرص الأمويين على جمع المدونات يعدّ بداية للمكتبة العربية.

١٥- أوائل الذين دونوا في التاريخ.

١٦- آراء حول القصص التاريخي في العصور الإسلامية.

١٧- دور المرأة في بناء الثقافة العربية الإسلامية.

١٨- الكلمة الأخيرة.

في العَصْر الإسلامي

١- قبل أن ينير الإسلام ظلام الجاهلية المخيم على حرار المدينة وسباخها، كانت تتردد بين جبالها وأوديتها أصداء تحمل أنباء قصيرة عن عوالم الماضي القديم، ودوله، وعقائده، أصداء كانت تنبعث تارة مع ضوضاء القوافل التجارية التي كانت تمر بالمدينة ذاهبة من شمال الجزيرة العربية إلى جنوبها، أو متجهة من الجنوب إلى الشمال، فيسمعها المدنيون من القادمين من أرض الغساسنة أبناء عمومة الأوس والخزرج الذين حالفوا الروم أنصار المسيحية التي بشرت بنبي آخر الزمن ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[١]، ويسمعونها من القادمين من اليمن التي كانت تتحدث عن (تبان أسعد أبي كرب) والصورة التي حملها عن المدينة وما تنتظره من مستقبل مشرق[٢].

ويسمعونها في مكة، حيث انتشر نبأ نبي يظهر بين العرب يحطم الأصنام، فأقضّ مضاجع الوثنيين، فأخذ (أبوسفيان) ينكر على (أمية بن أبي الصلت) كثرة تكريره لما يذكره الرهبان عن بعثة نبي آخر الزمن[٣]، وتارة أخرى تنبعث تلك الأصداء من الآطام التي سكنتها اليهود تنتظر النبي العادل المنصور الوديع الذي يركب على (حمار بن أتان)[٤].. أصداء كانت لها انطباعاتها في عقلية المدنيين وأثرها في تهيئة نفوسهم للتصديق بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وإعداد قلوبهم للالتفاف حوله. فعندما بلغتهم

---

(١) سورة الصف، الآية: ٦.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٢٠ وما بعدها.

(٣) حياة محمد، ص ١٠٣.

(٤) عبقرية المسيح، ص ١٢.

دعوة الإسلام التي انطلقت من مكة قال بعضهم لبعض: [يا قوم! تعلمون : والله إنه للنبي الذي توعدكم به اليهود ، فلا تسبقنكم إليه][1] .

٢- فما إن تنفس الإسلام وهاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حتى أصبحت المدينة أم العواصم ومشرق ذلك النور الذي اجتذب الأنظار فغاظ الذين يكتمون الحق فأثاروه جدلاً عنيفاً كله تضليل وعناد ، قابله الإسلام بالحلم ورحابه الصدر ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾[2] ، جدلا فجرَّ حب المعرفة في قلوب المدنيين، وبعث فيهم الرغبة في معرفة حقيقة الأنباء التي دار حولها الجدل. أولاً : جدل الوثنيين في مكة الذين قالوا : ﴿إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾[3] . وثانياً : اليهود في المدينة. الذين ملأت افتراءاتهم أجواء المدينة. فمن هذه الرغبة نشأ الحرص على تحقيق الأحداث التاريخية وإسنادها إلى مصادرها.

٣- فلا غرو! إن بدأ المسلمون تاريخهم بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وإن كانت المدينة المدرسة الأولى للثقافة الإسلامية، والمهد الأول لعلم التاريخ الذي بدأ بعد الإسلام بالسيرة والمغازي.

أجل! لقد كانت السيرة النبوية بما فيها من تشريع بناء، وتخطيط هادف، وجهاد في سبيل نصرة الحق على الباطل والخير على الشر، وحرية الجماهير على استعباد الفرد واستبداده هي : نقطة البداية في تصنيف التاريخ الإسلامي، فلقد اهتم أوائل الرواد في المدينة بجمع وتبويب الأحاديث النبوية والأخبار المأثورة الواردة في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وبعدها ، والواردة في مغازيه وسراياه، وفي أنصاره من قريش والأوس والخزرج أبطال (بدر) و(أحد) و(الخندق)، وأخذوا يسألون الذين

---

(١) سيرة ابن هشام ٤٢٩/١ .

(٢) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٦.

(٣) سورة المؤمنون ، الآية : ٨٣.

هاجروا إلى الحبشة، والذين عذبوا في مكة، والذين بايعوا تحت الشجرة، والذين شهدوا فتح مكة، والذين سمعوا وفود العرب تؤمن على يد محمد صلى الله عليه وسلم يسألونهم عن حقائق تلك المواقف والمشاهد، مثلما يسألونهم عن نصوص التشريع وأحكامه، وفيما كانت الجاهلية تنسبه إلى ملة إبراهيم الحنيف. ومن هنا بدأ التاريخ الإسلامي.

ولم يكن اهتمام ذلك الرعيل بتفسير القرآن. وفهم أحكامه ومعرفة قصصه وأنبائه، متأخراً عن اهتمامهم بالحديث، فلقد جد أوائل الرواد في حفظ القرآن وفي فهم ما فيه من أحكام وإرشاد وموعظة، فقد أخذوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن: (ناقة صالح) و(أهل الكهف) و(أصحاب الأخدود)، مثلما كانوا يسألونه عن الصلاة والصوم والحج، وأخذوا يبحثون في لغات العرب وأشعارهم عن الغريب من ألفاظ القرآن، ويسألون أهل الكتاب عما في أسفارهم عن بني إسرائيل، وجبابرة الشام، مما جاء مجملا في القرآن. ومن هنا بدأ تأليف التاريخ العام وأخذ يسير مع التفسير من بداية الطريق.

٤- وتذهب بعض الظنون إلى أن اهتمام الرعيل الأول من الرواد - بالحديث وجمعه سبق اهتمامهم بالتفسير، وإلى أن الحديث يشمل التشريع ويشمل التاريخ[١] - وإخال: أن البادئين بهذه الظنون - هم: المستشرقون، فلقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية - أن (كارا دي فو) يرى: [أن التفسير فرع مهم من علم الحديث يعلم في المدارس والجامعات][٢].

وهذه الظنون تعتمد - كما يبدو - على ما جاء في تراجم أعلام رواة الحديث وجامعيه الذين شمل جهدهم: التفسير والتشريع والتاريخ. والذي يستلفت النظر في

(١) ضحى الإسلام ١٣٧/٢ و ١٣٨.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٣٤٩/٥ وما بعدها.

هذه الظنون : ما جاء فيها عن انصراف جهد الأولين إلى الحديث أولا . ثم إلى التفسير ثانياً . في حين توجد نصوص تؤكد : أن جهد الرعيل الأول من الرواد شمل التفسير والحديث . في وقت واحد ، فلقد قال (أبو عبدالرحمن) : [حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن . أنهم كانوا يستقرئون من النبي . عليه السلام . فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعلموا ما فيها]. وقال (عبدالله ابن مسعود) : [كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن][1]. وقال (أبومليكة) : [رأيت (مجاهداً) يسأل (ابن عباس) عن التفسير ومعه الواحد[2] فيقول له ابن عباس اكتب، قال : حتى سأله عن التفسير كله[3] ، ويقول (ابن النديم) : إن كتاب ابن عباس في التفسير رواه (مجاهد) ؛ وإن (عكرمة) روى كتاب ابن عباس في نزول القرآن ، وإن (ابن الكلبي) روى كتاب ابن عباس في أحكام القرآن][4].

فهذه النصوص : تثبت : أن الرعيل الأول بدأ في فهم القرآن وتأليف التفسير من عهد النبي عليه السلام، فابن مسعود صحابي توفي سنة ٣٢هـ، وابن مسعود كان من الحريصين على فهم معاني القرآن؛ وابن عباس صحابي توفي سنة ٦٨هـ وعن ابن عباس دوّن تفسير القرآن وأحكامه ونزوله.

٥- ومما يستلفت النظر في تلك الظنون : ما جاء فيها ؛ بناء على ما روي عن (عائشة) رضي الله عنها : [لم يكن النبي عليه السلام يفسر شيئاً من القرآن إلا آيات علمهن إياه (جبريل)] وبناء على أن ما روي عن رسول الله عليه السلام . قليل . قال بعضهم : [إنه لما جاء الصحابة يفسرون آيات من القرآن وخاصة (على بن أبي طالب)

(١) تفسير ابن جرير ٢٧/١ و٢٨ .

(٢) كذلك في الأصل (الواحد) ولعله قال: ألواحه لما جاء في بقية الحديث .

(٣) تفسير ابن جرير ٢٨/١ و ٣١ .

(٤) الفهرست ، ص ٥٠ و ص ٥٧ .

و(عبدالله بن عباس) و(عبدالله بن مسعود) و(أبي بن كعب) كان تفسيرهم إما اجتهاداً منهم أو سماعاً من رسول الله][1] . فالذي يلاحظ على ما جاء في هذه الظنون : أن النبي عليه السلام لم يرو عنه في التفسير إلا القليل مما علمهن إياه جبريل ، فما روي عن عائشة في تحقيق (ابن جرير) لا يجوز الاحتجاج به [هذا مع ما في الخبر الذي روي عن عائشة من العلة في إسناده التي لا يجوز معها الاحتجاج به] فابن جرير يؤكد بأدلته: [محال أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له ولا يعقل تأويله: اعتبر بما لا فهم له به ولا معرفة][2] .

إن ما يؤكده ابن جرير : وإن كان لا يثبت : أن النبي عليه السلام قد فسر القرآن جميعه ولا ينفى : أن هناك آيات فسرها للنبي عليه السلام (جبريل) . هو حقيقة لا ريب فيها. فالسابقون الأولون لم يحفظوا القرآن على غير فهم ، بل كانوا يسألون عن كل حكم من أحكامه ، ونبأ من أنبائه . فيجابون بقدر ما يفيدهم وتهضمه عقولهم ، ومما لاشك فيه : أن في القرآن آيات لم يكن يفسرها النبي عليه السلام إلا بوحي من الله . مثل : الروح ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً﴾[3] ، ومثل : الأهلة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾[4] . وإن في القرآن آيات متشابهات - مثل : فواتح السور ﴿الم﴾ و﴿كهيعص﴾ و﴿حم عسق﴾ فقد جاء في كلام ابن عباس عنها : [أن (أبا ياسر بن أخطب) مر برسول الله عليه السلام وهو يتلو سورة البقرة ﴿الم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ فوقف عنده واجتمع إليه أخوه (حيي بن أخطب) في رجال من يهود ، وأخذوا يسألون النبي عليه السلام عن فواتح السور. وجاء في تفسير

(١) ضحى الإسلام ١٣٨/٢ .

(٢) تفسير ابن جرير ٢٨/١ و٣٠ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية : ٨٥.

(٤) سورة البقرة ، الآية : ١٨٩.

ابن جرير عندما ذكر خبر ابن عباس : أن لفواتح السور معاني لم تحصر إجابة النبي عليه السلام تفسيرها في معنى واحد. ولو أراد جل ثناؤه بذلك أو بشيء منه: الدلالة على معنى واحد لأبان ذلك لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم - وإن اجتماع (أبي ياسر ابن أخطب) وجماعته مع النبي عليه السلام - انتهى بقول اليهود - اشتبه علينا أمرك][1] . فأنزل الله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [2] ، ففي تفسير الآيات المتشابهات اجتهد المفسرون وما زالوا يجتهدون في تفسيرها وتفسير ما حددت تفسيره معارف تلك الأجيال. ولقد سبق الكلام عن القصص القرآني وقصته وأمثاله. أما في غير هذه المتشابهات ، فالقرآن لم ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم إلا هدى وموعظة ونوراً.

٦- فهذه كلها أدلة تثبت : أن التفسير لم يتأخر عن الحديث ، وأن مدرسة المدينة لم تقدم الحديث على التفسير، لقد كان النبي عليه السلام يجلس للناس عامة يجيبهم عما كانوا يسألون عنه، مما جاء في القرآن، ومما هم في حاجة إلى معرفته، فيلتف الناس حوله حلقات بعد حلقات . فيتجه إلى جانب بعد آخر يحدثه ويعلمه [3] . وفي البخاري عن (أبي واقد الليثي) أنه قال: [بينما رسول الله عليه السلام جالس في المسجد ، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله عليه السلام فوقفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد أحدهما : فرجة في الحلقة فجلس وجلس الآخر خلفه]. ولقد كانت حلقات النبي عليه السلام ومجلسه في المسجد النبوي: مثلا اتخذه كبار الصحابة ومن بعدهم التابعون ،وما زالت الحلقات تتجمع في المسجد النبوي إلى يومنا هذا.

---

(١) تفسير ابن جرير ٧٣/١ .

(٢) تفسير النيسابوري المهمش على تفسير ابن جرير ١٢٢/١ ، وتفسير ابن جرير ٧٢/١ وما بعدها. سورة آل عمران، الآية : ٧.

(٣) الأغاني ٤٢/١٧ .

ومما قيل عن (جعفر الصادق) : إنه اتخذ من الحرم النبوي: مدرسة بلغ عدد تلامذتها أربعة آلاف تلميذ، جاءوا إليها من مختلف البلاد الإسلامية، ثم عادوا أئمة ومؤسسين لمذاهب إسلامية. منهم : شعراء ورياضيون، ولقد بلغ عدد الذين ألفوا كتباً من تلامذة الصادق أربعمائة مؤلف منهم: (أبان بن تغلب) مؤلف كتاب (معاني القرآن) و (المفضل بن عمر) مؤلف كتاب (التوحيد) و (جابر بن حيان) مؤلف كتاب (الكيمياء) [1].

وإني إخال: أن الذين يظنون: أن عدد تلامذة (جعفر الصادق) بلغ هذا الرقم. يقصدون كل رجل مر بحلقة الصادق في المسجد النبوي، وروى عنه، فالتاريخ كما قلت: لم يسلم في عصر من العصور من المبالغة، والمبالغات بما فيها المبالغات التي تتجاوز حدود المنطق قل أن تخلو من أصل، فجعفر الصادق كغيره من الأعلام كانت له حلقة في المسجد النبوي مثل ربيعة الرأي وكثيرين. وجعفر الصادق جمع إلى العلوم الدينية، علم الكيمياء. كان يشتغل بالزجر والفأل [2]. وجعفر الصادق من الأعلام الذين أحيطوا بهالة من المبالغات.

على أن الذي لا مبالغة فيه : النشاط الثقافي الذي عم المدينة في صدر الإسلام، فقد كانت جميعها مدرسة عامة لحفظ القرآن وتفسيره، وجمع الحديث وتبويبه، وتعلم اللغات غير العربية؛ قراءة وكتابة إلى جانب اللغة العربية حتى أسواقها وميادينها. كان الغلمان يلتقون فيها ويختلفون في قراءة القرآن. وإن مدرسة المدينة لفتت الأنظار في الماضي والحاضر، فحلقت في سمائها الآراء والتخمينات.

٧- وعندما بحث (أحمد أمين) في العلوم الدينية وكيف كانت تدرس في المساجد: قال : [ولم أر ما يدل على أن المسلمين أنشأوا في هذا العصر مدارس خاصة للعلم إلا ما نقل (المقريزي) أن (عبدالله بن أم مكتوم) قدم مهاجراً إلى المدينة مع (مصعب بن

(١) مجلة العربي الكويتية العدد ١٢٤ يناير سنة ١٩٧٠م.

(٢) فجر الإسلام، ص ١٦٤.

عمير) ، وقيل : قدم بعد بدر بقليل فنزل (دار القراء) . ولم نعلم كثيراً عن دار القراء هذه . وهل هي خصصت للدراسة أو لا؟][1] ، وخبر الواقدي هذا ذكره (ابن عبدالبر) في (الاستيعاب) والخبر الذي جاء في الاستيعاب [أن (عبدالله بن أم مكتوم) عندما قدم مهاجراً إلى المدينة مع (مصعب بن عمير) بعد يوم بدر بقليل نزل دار القراء][2] .

و(دار القراء) ذكرها (السمهودي) في كتابه (وفاء الوفاء) ثلاث مرات: ذكرها عندما تحدث عن زيادة (الوليد بن عبدالملك) في المسجد النبوي، وذكرها عندما تحدث عن زيادة (المهدي) ، وذكرها عندما تحدث عن الدور المطيفة بالمسجد ، وقال : إنها تدعى - دار القراء، وقال: إنه يستبعد : أن تبقى منها بقية في الدور المطيفة بالمسجد .. بيد أن (السمهودي) لم يتعرض لسبب تسمية هذه الدار: (دار القراء) وعن حقيقة هذا الاسم : فكل ما قاله عنها: إنها دار (عبدالله بن مسعود) [3] .

فهذا النص الذي ذكره الواقدي وابن عبدالبر. لم يعن ناقلوه بتحقيقه لمعرفة ما تلزم الباحث معرفته إذا ما اعتقد: أن هذه الدار أنشئت مدرسة للتدريس والمدارسة، فنص كهذا - يتخذ - دليلا على نشأة المدارس في الإسلام - جدير بالتحقيق ، والتحقيق في هذا النص - يثبت : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - خط الدور . فخط لبني زهرة في ناحية مؤخرة بالمسجد وجعل لـ (عبدالله بن مسعود وأخيه عتبة بن مسعود) هذه الخطة عند المسجد[4] - ويثبت : أن (عبدالله بن مسعود) أول من أفشى القرآن بمكة - وأنه كان يخطب في المدينة كل يوم خميس فيتكلم طويلا ثم يسكت فيتمنى السامعون : ألا يسكت. وإن (عمر بن الخطاب) كتب لأهل (الكوفة) عن عبدالله بن مسعود [والله

(١) فجر الإسلام ، ص ١٦٥ .

(٢) الاستيعاب ٢/٢٥٠ .

(٣) وفاء الوفاء ٥١٧/٢ و ٥٣٩ و٧٢٨.

(٤) الطبقات لابن سعد ١٥٢/٢ .

الذي لا إله إلا هو. لقد آثرتكم به على نفسي فخذوا منه][1]، فأخذوا منه، وانتشرت قراءته في العراق. وعن (عبدالله بن مسعود) قال النبي عليه السلام: من أحب أن يقرأ القرآن غضًّا كما نزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد][2]، وقال (عبدالله بن مسعود) عن نفسه: [والذي لا إله غيره ما نزلت آية في كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت وأين نزلت][3]. ويقول (ابن سعد) عن (عبدالله): [كان يعرض عليه القرآن في كل رمضان مرة إلى سنة وفاته، ففي تلك السنة عرض عليه القرآن مرتين. وقد كانت وفاته بالمدينة سنة ٣٢هـ][4]. وينقل (الزركلي)[5] عن مصادره: [أن لعبدالله بن مسعود في الصحيحين ثمانمائة وأربعين حديثاً، وأنه ولي بيت مال الكوفة ثم قدم المدينة في خلافة عثمان وتوفي فيها عن نحو ستين عاماً][6].

فلا عجب إن فهم الذين نقلوا نص الواقدي وابن عبدالبر: أن دار القراء هي مدرسة أنشئت في صدر الإسلام لحفظ القرآن وتفسيره والتفقه في أحكامه. يؤمها القراء وطلبة التفسير والحديث، فعبدالله بن مسعود. هو: وحده مدرسة كما تؤكد الصفات التي وصف بها ابن مسعود، فليس غريباً: أن تكون داره مدرسة للمدارسة والتدريس.

بيد أن كل هذه الشواهد لا تثبت لنا: أن (دار القراء). هي: مدرسة لتدريس القرآن وحفظه وتفسيره لا في عهد النبي عليه السلام وصحابته ولا في عهد التابعين، وأن كل شاهد من هذه الشواهد يقوم بجانبه دليل يشير إلى غير ما ذهب إليه ذلك

(١) الطبقات ١٥٧/٣ و ٥١٠.

(٢) تذكرة الحفاظ طبع بيروت ١٤/١ والطبقات ٣٤٢/٢.

(٣) تفسير ابن جرير ٢٧/١ والطبقات ٣٤٢/٢.

(٤) الطبقات ٣٤٢/٢.

(٥) المعارف، ص ٢٤٩.

(٦) الأعلام ٢٨٠/٤.

الظن، فكل دار من دور المدينة كانت في ذلك العصر داراً للقرآن وقرائه، فلقد حفلت المدينة بأعلام الصحابة الحفظة العلماء، وقد كان في المدينة كثيرون من المعلمين، فلقد قال (أبو قلابة): [لما كان في خلافة (عثمان بن عفان) جعل المعلم يعلم قراءة الرجل، والمعلم يعلم قراءة الرجل، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين، قال حتى كفر بعضهم بقراءة بعض. فبلغ ذلك عثمان. فقام خطيباً. فقال أنتم عندي تختلفون فيه وتلحنون. فمن نأى عني من أهل الأمصار أشد فيه اختلافاً وأشد لحناً. اجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إماماً][1].

وعندما وافق (أبوبكر الصديق) على رأي (عمر بن الخطاب) على جمع القرآن انتدب (زيد بن ثابت) لجمعه[2]، فكان أول من أمر بجمع القرآن (أبو بكر)، وأول من جمعه (زيد بن ثابت) غير أنه لم يجمع الناس على قراءته فكان الناس يقرءونه بقراءات مختلفة إلى وقت عثمان. فكان عثمان: أول من جمع الناس على مصحف واحد، وقد كلف عثمان بدوره: (زيد بن ثابت) بهذه المهمة؛ إلا أنه أشرك معه (أبان بن سعيد بن العاص)[3]. ويروى عن عبدالله بن مسعود. أنه كره. أن ولي (زيد بن ثابت) نسخ المصاحف. فقال: [يا معشر المسلمين: أعزل عن نسخ كتاب الله ويولاها رجل والله لقد أسلمت وإنه في صلب رجل كافر] يعني زيداً[4].

فكل من تحدث عن قراءة القرآن وتعليمه وجمعه ونسخه وحياة عبدالله بن مسعود لم يذكر: أن داره كانت مدرسة للقرآن دون سواها. أو كانت تسمى: (دار القراء). جمع قارئ. أو (دار القرآن).. وعندما ذكر (ابن سعد) في (طبقاته) وصية (عبدالله بن

---

(١) تفسير ابن جرير ١/٢١.

(٢) المصدر نفسه ١/٢٠.

(٣) تفسير ابن جرير ١/٢١.

(٤) تفسير النيسابوري المهمش على ابن جرير ١/٢٤ والطبقات ٢/٣٤٤.

مسعود) لم يذكر داراً لعبدالله بن مسعود كانت تسمى دار القراء أو دار القرآن[1] . وابن سعد هو تلميذ الواقدي فلو أن الواقدي قصد : أن الدار التي نزلها (عبدالله بن أم مكتوم) هي مدرسة كما فهم ذلك (أحمد أمين) لأشار إليها ، ولو كانت هناك دار لدراسة القرآن من قبل يوم (بدر) لذكرت فيما ذكر عن أسباب جمع القرآن ونسخه . وعبدالله بن مسعود . رحل إلى (حمص) وبعثه (عمر بن الخطاب) إلى أهل القادسية بالكوفة[2] فلو كانت له دار اتخذت مدرسة للقرآن . لما أهمل ذكرها ، فهذه المناسبات جميعها جديرة بذكر هذه الدار التي وردت في النص المتقدم باسم (دار القراء) . لو كانت هذه الدار مدرسة القرآن . سواء كانت دار ابن مسعود أو دار غيره. ولقد ذكر المؤرخون: وصية عبدالله بن مسعود . فلم يأت فيها شيء عن دار القراء هذه كما تقدم .

إذن من أين جاءت هذه التسمية؟ إن هناك أدلة ترجح إلى حد بعيد : أن الواقدي وابن عبدالبر . يقصدان معنى آخر غير ما فهمته العامة من هذا الاسم ، فلعلهما كانا يقصدان : (دار القَرَّاء) بفتح القاف . صيغة مبالغة لقارئ . أو أن تصحيفاً وقع في كتاب (دار القراء) فلقد جاء في (سيرة ابن هشام) . قال (ابن إسحاق) : وعبدالله بن مسعود ابن الحارث . من (القارة) قال ابن هشام : القارة لقب لهم[3] . وقال (الفيروزأبادي) : (القارة) قبيلة وهم حلفاء بني زهرة ، وقال : منهم رجال من رواة الحديث كان يقال لهم (القاري) . مثل : (عبدالرحمن بن عبدٍالقاري) و (إبراهيم بن عبدٍالقاري) و (يعقوب)[4] . وجاء في كلام (النويري) عن القارة : (وفلان بن عبدٍالقارى منسوب إلى القارة وعبدٌ منون لا يضاف)[5] . وقال النويري أيضاً : وقارة . قبيلة . وهم : عضل و(الدبش) أبناء

---

(١) الطبقات ٢/١٥٩ .

(٢) الطبقات ٢/٣٤٤ .

(٣) سيرة ابن هشام ١/٦٨١ ، ومعجم البلدان ٧/١١ .

(٤) تاج العروس ٣/٥١٠ .

(٥) لسان العرب ٥/١٢٤ .

(الهون) بن (خزيمة) من (كنانة). والنسبة إليهم قاري[1]. وفي الحديث النبوي: [لو كنت مؤمراً أحداً دون شورى لأمرت: ابن أم عبدٍ. يعني: عبدالله بن مسعود][2]. و(أم) عبدالله بن مسعود هي: (أم عبد) بنت (عبد ود) من أحفاد (صاهلة بن كاهل)[3].

وجاء في الطبقات: [لما قدم رسول الله عليه السلام: المدينة. أقطع الدور. فقال حيٌّ من بني زهرة. يقال لهم: (بنو عبد بن زهرة) نكّبْ عنا (ابن أم عبد) يقصدون: ابن مسعود. فقال رسول الله عليه السلام: (أيبعثني الله إذاً، إن الله لا يقدس قوماً لا يعطى الضعيف منهم حقه) فخط لبني زهرة في ناحية مؤخر المسجد. فجعل لعبد الله وعتبة ابني مسعود هذه الخطة عند المسجد[4].

ففي هذه النصوص. ما يؤكد: أن ابني مسعود. عبدالله وعتبة من حلفاء (بني زهرة)[5] وأنهما من القاريين. الذين يقال لهم: ابن عبد - وأن بني زهرة هم: من بني عبد. وبنو عبد يقال لهم: (القارة)، والنسبة إلى القارة: قاري. كما في لسان العرب وتاج العروس، وأن النبي صلى الله عليه وسلم خط لا بني مسعود: عبدالله وعتبة مع بني زهرة.

وعندما تكلم (ابن سعد) عن دار (عبدالرحمن بن عوف الزهري) قال: [كان رسول الله في خط الدور بالمدينة، فخط لبني زهرة في ناحية مؤخر المسجد. فكان لعبدالرحمن بن عوف (الحش) والحش نخل صغار لا يسقى][6] - وعندما تكلم (السمهودي) عن (دار عبدالرحمن بن عوف) التي تسمى: دار الضيفان - قال: [وفي

---

(١) المصدر نفسه ١٢٣/٥.

(٢) الطبقات ١٥٤/٣.

(٣) الطبقات ١٥٠/٣.

(٤) المصدر السابق ١٥٣/٣.

(٥) المعارف ص ٢٤٩.

(٦) الطبقات ١٢٦/٣.

شامي المسجد اليوم ما يلي المشرق دار تعرف بدار (المضيف)] . وشك السمهودي في أن تكون هذه الدار ـ هي: دار عبدالرحمن بن عوف ـ التي تسمى دار الضيفان فقال: [فلعل تسميتها بدار المضيف لكونها في موضع (دار الضيفان) ولكن ذكر الدار الآتية بعدها قبلى جهة المشرق ـ يبعد ذلك. فكان الجانب الغربي من دار المضيف وما حوله في المغرب عن الساباط وبعض رباط الظاهرية في موضع الدار المذكورة] ـ وعندما تكلم (السمهودي) عن (دار القراء) قال: [وموضع ما وصفوه اليوم (لدار القراء) ـ هو ما يلي المشرق من الدار المعروفة بدار المضيف ـ واستبعد السمهودي أن تبقى من (دار القراء) بقية بعد زيادة الوليد ، وزيادة المهدي التي بلغت مئة ذراع وعرض الرحبة التي في شامي المسجد ـ فقال : [وأي دار يكون طولها هذا المقدار فضلا عن أن يبقى منها بقية][(١)] .

فما جاء في كلام (ابن سعد) و (السمهودي) عن دار (عبدالرحمن بن عوف) والدار التي يقال لها (دار القراء) يظهر : أن الدارين تقعان في دور بني زهرة الذين يقال لهم : القارة ، وفيما جاء في ملحوظة السمهودي عن دار (عبدالله بن مسعود) : [أن من غير المعقول أن تبقى منها بقية بين الدور المطيفة بالمسجد] يظهر : أن المكان الذي وصفوه على أنه (دار عبدالله بن مسعود) . التي تسمى (دار القراء) وعلى أنه من الدور المطيفة بالمسجد ـ خارج عن (دار عبدالله بن مسعود).

فالذي يبدو مما جاء في هذه الأقوال والملحوظات التي حرصنا على أن نحيط القارئ بها علما ؛ ليستنتج معنا : أن (دار القراء) ليست ـ هي: مدرسة لتدريس القرآن ـ وليست : هي دار عبدالله بن مسعود وحده ـ وأن اسم (دار القراء) جمع قارئ ـ صحّف ـ وأن التصحيف : إما أن يكون وقع في اسم (القارة) الذي كان يطلق على (ابن عبد) ومنهم الزهريون ، فقد يكون اسم (دار القراء) في الأصل (دار القارة) . فالدار في اللغة -

(١) وفاء الوفاء ٧٣٨/٢ ومابعدها ، الطبعة الثانية .

(المحل) الذي يجمع البناء و (العرصة) والدار : المحلة[1]] و(القارة) في الخطوط القديمة . تكتب بدون الألف (القرة) ، ثم أخذ الكتاب يشيرون إلى الألف بألف صغيرة . مثل (البينات - البينت) و (خلقناه - خلقنه)، وكتابة (القارة) بدون ألف تجعلها قريبة من (القرة) والقرة بضم القاف عند العامة تعني : جمع (قارئ) ، وعلى ذلك تكون (دور بني زهرة) ودار (عبدالله وعتبة) ابني مسعود . سميت جميعها بدار القارة ثم صحفت فاصبحت تعرف بدار القراء ونسبت جميعها إلى (عبدالله بن مسعود) . ما عدا الدور التي اشتهرت بأسماء خاصة بها كدار (عبدالرحمن بن عوف الزهري) - فعلى ذلك بقيت من دار القارة بقية بعد زيادة الوليد والمهدي والرحبة - بين الدور المطيفة بالمسجد. وإما أن يكون التصحيف وقع في قراءة كلمة . (القَرَّاء) بفتح القاف صيغة مبالغة لقارئ[2] ، فقد تكون دار عبدالله بن مسعود سميت: (دار القَرَّاء)، فعبد الله بن مسعود قرَّاء من أشهر القَرَّائين . ولا فرق في كتابة الكلمتين (القَرَّاء) بفتح القاف صيغة المبالغة - يقال: رجل قرَّاء حسن القراءة - وبين (القُراء) بضم القاف وفتحها . جمع قارئ. يقال : رجل قارئ من قوم قراء وقرائين - وقد تكون دور القاريين - نسبت جميعها إلى (عبدالله بن مسعود) بدافع شهرة (عبدالله بن مسعود) في العالم الإسلامي وبالذات في المجتمع المدني، فلقد ظل اسم (ابن أم عبدٍ) ترردده الأجيال الإسلامية.

فعلى هذين الاستنتاجين، لا يستبعد : أن يكون اسم (دار القارة) أو (دار القراء) صيغة المبالغة ، أطلق على (دار - محلة) بني عبد بن زهرة - وحليفيها : عبدالله وعتبة ابني مسعود. ولا يستبعد أن تبقى من هذه الدار: المحلة: بقية بعد زيادتي : الوليد الأموي والمهدي العباسي - وبعد عرض الرحبة ، ولا يستبعد أن يكون (عبدالله بن أم مكتوم الزهري)[3] قد نزل في دار القارة من بني زهرة أبناء عمومته - فكان من ضيوف

---

(١) لسان العرب ٢٩٨/٤ .

(٢) لسان العرب ١٢٩/١ .

(٣) تفسير النيسابوري المهمش على ابن جرير ٢٥/٣٠.

(عبدالرحمن بن عوف الزهري) أو يكون (ابن أم مكتوم) الأعمى الذي عبس في وجهه النبي عليه السلام عندما جاء يسأله في الآونة التي كانت صناديد قريش تستمع إليه. قد حل ضيفاً على عبدالله ابن مسعود سادس السابقين إلى الإسلام وأول الذين أفشوا القرآن في مكة؛ فهناك بواعث كثيرة توحي بوجود صلات بين (ابن أم عبدٍ) وبين (ابن أم مكتوم)؛ على أنه سواء كان نزول (ابن أم مكتوم) في دار ابن مسعود أو في دار ابن عوف. فالداران لم تخرجا عن محلة الزهريين الذين كان يقال لهم: القارة. وبناء على كل هذا: إن من المستبعد أن تكون الدار التي نزلها ابن أم مكتوم - مدرسة لتدريس القرآن، ولا تذكر إلا بمناسبة هجرة (عبدالله بن أم مكتوم)، ولا يذكرها مؤرخو المدينة إلا على أنها دار عبدالله بن مسعود.

فالنص الذي ذكره (الواقدي) و (ابن عبدالبر) لا يكفي وحده لأن يكون دليلا على أن (دار القراء) كانت في عهد النبي عليه السلام وخلفائه الراشدين مدرسة للتدريس والمدارسة كما فهم ذلك بعض المتأخرين. ما لم نجد نصّاً يؤكد لنا هذا الفهم - لا غموض فيه. وهذا ما لم أجده في كل المراجع التي اطلعت عليها.

٨- وعلى كل حال، فإن هذا النص - على ما يغشاه من غموض لا يمكن أن يزول جميعه بالاستنتاج. نبهنا إلى النشاط الثقافي الذي بدأ مبكراً في المدينة، فلقد كان الحرم المدني وكل دار في المدينة مدرسة للقرآن وتفسيره، وإذا كان هذا النص يغشاه غموض لا نجد دليلا يزيل ما علق به من لبس واشتباه، فإن نصوصاً كثيرة لا غموض فيها وردت تؤكد: حماس المدنيين - مهاجرين وأنصاراً، شيباً وشباناً لتعلم القراءة والكتابة والتفقه في التشريع الإسلامي، وتؤكد: ازدهار المدينة بندوات كان يعقدها الأعلام من الرجال والشهيرات من السيدات؛ تتدفق فيها المعارف والآراء في الأدب وفنونه والتاريخ ومسالكه، وتؤكد: أن نفراً من المدنيين تحمس لتعلم اللغات غير العربية - مثل: السريانية، والرومية، والعبرية؛ فمن الحقائق الثابتة: أن النبي عليه

السلام أمر بعض الصحابة بتعلم اللغات الأجنبية ليدوّن بها رسائله، وأن النبي عليه السلام وافق على أن تكون فدية بعض الأسرى تعليم عدد من أبناء المسلمين القراءة والكتابة[(١)] .

ومما لا غموض فيه أن أستاذ المدينة الأكبر - هو: (زيد بن ثابت الأنصاري) وأن زيد ابن ثابت تعلم إلى جانب العربية: السريانية، والعبرانية، والفارسية، والرومية، والقبطية، والحبشية - كما نقل ذلك (ناصر الدين الأسد) عن مصادره[(٢)] . وأن تلامذة زيد بن ثابت هم بناة النهضة الثقافية وباذروا نواة التاريخ؛ فمن تلامذة زيد بن ثابت : (عبدالله بن عباس) و (عروة بن الزبير) وعن هذين العلمين أخذ (ابن شهاب الزهري) وغيره من أساتذة الثقافة الإسلامية وطليعة كتاب السيرة والمغازي.

ومما يؤكده الباحثون في نشأة الثقافة الإسلامية في البلاد العربية: أن مؤسسي مدارس الحواضر الإسلامية - تخرجوا في مدرسة المدينة - فأستاذ مدرسة (مكة المكرمة) (عبدالله بن عباس) ، وأستاذ مدرسة (الكوفة) - (عبدالله ابن مسعود) ، وأستاذ مدرسة (البصرة) - (أبو موسى الأشعري)[(٣)] وأساتذة مدارس (سوريا) - (معاذ ابن جبل)[(٤)] و(عويمر بن مالك - أبو الدرداء) و (عبادة بن الصامت)، وأستاذ مدرسة

---

(١) **الطبقات** ٢/٢٢ .

(٢) مصادر الشعر الجاهلي ص ٥٥ (نقلا عن **فتوح البلدان** ، **وكتاب المصاحف**، **والتنبيه والإشراف**، **وتقييد العلوم**) .

(٣) جاء في الطبقات ٤/١٠٩: أن عمر بن الخطاب بعث أبا موسى إلى البصرة .

(٤) جاء في **فجر الإسلام** ، ص ١٨٨ : [أن يزيد بن أبي سفيان - كتب إلى عمر : قد احتاج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن - فأرسل إليه معاذاً - وعبادة، وأبا الدرداء] - وما جاء في فجر الإسلام نقل عن البخاري ونحن إذا قابلنا ما جاء في رواية البخاري بما جاء في الطبقات عن (معاذ ابن جبل) وخروجه إلى الشام - نجد: تناقضًا كبيراً - ففي الطبقات - نجد عمر بن الخطاب يمانع في خروج معاذ إلى الشام ، وأن (أبا بكر)أصر على خروجه مجاهداً - فما جاء في الطبقات عن عمر بن==

(مصر) . (عبدالله بن عمرو بن العاص) الذي قال عنه (ابن حجر) في الإصابة: إنه كان كثير العناية بكتب أهل الكتاب[1] - وقال عنه (ابن سعد) في الطبقات : إنه يعرف السريانية[2] . وقال عنه (الذهبي) في تذكرة الحافظ : وكان أصاب جملة من كتب أهل الكتاب وأدمن النظر فيها ورأى عجائب[3] . وقالوا عنه : إنه من أوائل الذين دونوا عن النبي مباشرة ، وإنه صاحب الصحيفة المسماة (الصادقة).

ولئلا يظن أحد : أن هناك خلطاً في الأسماء عندما يذكر اسم مع المدنيين تارة . ومع المكيين تارة أخرى ومرة ثالثة مع الكوفيين . مثل: (سعيد بن جبير) ، فقد ذكره الباحثون مع تلامذة (عبدالله بن عباس) في مكة ، وذكروه مع تلامذة (عبدالله بن مسعود) في الكوفة . فإن على البحث هنا أن يشير إلى حقيقة قد نحتاج إليها في تراجم بعض الرواد الآتية في هذا الجزء . ألا وهي: أن الرعيل الأول من أساتذة المدارس الإسلامية لم ينحصر نشاطهم في بلد دون آخر ، فهذا (ابن عباس) كان أستاذاً في مدرسة (المدينة) وكان أستاذاً في مدرسة (مكة) وكان أستاذاً في مدرسة (البصرة)، وذلك (معاذ بن جبل) من أعلام مدرسة المدينة ومكة واليمن وسوريا . وكذلك كان

==الخطاب : [لقد كلمت أبا بكر يحبسه لحاجة الناس إليه فأبى علي . وقال : رجل أراد وجهاً . يريد الشهادة . فلا أحبسه] . وقد استخلف (أبوعبيدة) معاذاً عندما مرض بالطاعون . ثم أصيب معاذ بنفس المرض في أول طاعون في الإسلام . ومات شاباً في سوريا بناحية الأردن (الطبقات ٢/ ٢٤٨ و ٣/ ٥٨٣) . ومهما يكن من أمر خروج معاذ . فمعاذ خرج إلى سوريا . ومعاذ الذي كان يفتي في حياة النبي عليه السلام والذي خلفه الرسول عليه السلام في (مكة) يعلم الناس ويفتيهم . هو الذي كان يلتف الناس حوله في مسجد (دمشق) وفي مسجد (حمص) يسألونه ويصدرون عن رأيه . (الطبقات ٣/ ٥٨٧) وما جاء في (فجر الإسلام) جاء في (الإسلام والحضارة) لمؤلفه (كرد علي) دون أن يسند الخبر للبخاري . (**الإسلام والحضارة** ١/ ١٧٠).

(١) **فتح الباري** ١/ ١٨٤ .

(٢) **الطبقات** ٤/ ٢٦٦ .

(٣) **تذكرة الحفاظ** .

تلامذة هذا الرعيل لم تثنهم مشاق الانتقال من بلد إلى آخر في سبيل الحصول على حديث نبوي أو حكم فقهي أو نص تاريخي، فإلى (ابن مسعود) و (ابن عباس) وغيرهما كان (سعيد بن جبير) وكثيرون مثله يشدوّن الرحال.

٩- ولا يذهبن الظن بالقارئ إلى الاعتقاد بأن المدارس المسجدية أول ما بدأت كانت على مثل الطراز الذي عرفته العصور الأخيرة ، فالدراسة المسجدية في أول أمرها . إن كانت كما هي عليه اليوم حلقات تحيط بالمدرس ، فإن حلقات التدريس اليوم تمتاز بالتخصص.. فهذا أستاذ يدرس الحديث، وآخر يدرس القواعد، وثالث يدرس الفقه. أما في عهدها الأول، فإن موضوع الدراسة يتنوع حسب السؤال الذي يطرح على المدرس .. ومن حلقات التدريس في بادئ ظهورها : حلقات كانت تضم المثقفين ، فهي أشبه ما تكون بالندوات العلمية، فلقد ذكر (ابن خلكان) : أن (ربيعة الرأي) كان يجلس في مسجد الرسول عليه السلام في المدينة ، ويجلس في حلقته (مالك ابن أنس) و(الحسن) وأشراف المدينة يحدقونه به [1] . وأول من خصص للتدريس حصصاً (عبدالله بن عباس) فعيّن يوماً للفقه، ويوماً للتفسير، ويوماً للمغازي ، ويوماً للشعر، ويوماً لأيام العرب [2] .

ومع الزمن تطورت هذه الحلقات في (الكوفة) وفي (البصرة) . وبانتشار المؤلفات . أصبح موضوع الحلقة مقيداً بعلم يحمل كل طالب نسخة من المؤلف الذي يدرس في تلك الحلقة ، ويلتف حولهم المستمعون.

١٠- ولقد بدأ تدريس الأطفال في العصر الأموي، ومن أقدم الذين أسسوا (الكتاب) : (علقمة بن أبي علقمة) مولى عائشة، وقد روى عنه مالك، وكان يعلم في

---

(١) ابن خلكان ١/٢٥٧ .

(٢) طبقات ابن سعد ٢/٣٦٥ .

كتابة: العربية، والنحو، والعروض. ومن معلمي الأطفال: (الحجاج بن يوسف) فقد كان يعلم بالطائف ـ واسمه : (كليب). ومنهم : (الكميت بن زيد) الشاعر. ومن معلمي الأطفال من كان لا يتقاضى أجراً مثل : (الضحاك بن مزاحم) و (عبدالله بن الحارث) [1].

١١- ومن بداية القرن الثالث الهجري، أخذت الدراسة تدخل مرحلة جديدة واسعة. فقد أخذ بعض المبرزين من الأغنياء الأفاضل ينشئون دوراً للعلم ، فقد أنشأ (أبو القاسم جعفر بن محمد الموصلي) المتوفى سنة ٣٢٣هـ داراً للعلم في الموصل. و (أبو علي بن سوار الكاتب) من حاشية المعتضد المتوفى سنة ٣٧٢هـ أنشأ دارين. إحداهما في مدينة (رام هرمز) والأخرى في (الموصل)، كما أنشأ العزيز بالله (الخليفة الفاطمي) سنة ٣٧٨هـ في مصر: داراً للعلم إلى جانب (الأزهر)، ولعل (المدرسة البيهقية ـ مدرسة أهل نيسابور) هي : أول مدرسة وصلت إلى هذه المرحلة الواسعة. فلقد كانت نيسابور) مهد هذه المعاهد التي طورت الدراسة في أواخر القرن الرابع الهجري [2]. والظاهر: أن هذه المناطق ألفت مثل هذه المعاهد التي شجع عليها الفتح الإسلامي، فلقد نقل (كرد علي) عن كتاب (بيزنطية) لمؤلفه (لدبيل) : أن (أنطاكية) و (الرها) و (نصيبين) و(حران) . كانت حافلة إبان الفتح الإسلامي بمدارس عامرة تشبَّع أساتذتها بالثقافة اليونانية [3].

ففي القرن الرابع ومن بعده أخذت فكرة نشر الثقافة تثير حماس الأغنياء، فتسابقوا يوقفون الدور على الطلبة يسكنونها ، ويتعلمون على أساتذة حجزوا لهم عقاراً ينفق دخله عليهم .. بيد أن المدارس والأربطة التي حجزت لهذا الغرض لم تلبث أن أمست دوراً للعجزة لا أقل من ذلك ولا أكثر.

---

(١) المعارف ص ٥٤٧ وما بعدها .

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع لآدم متز ١/ ٢٥٤ .

(٣) الإسلام والحضارة العربية ١١/ ١٧٣ .

١٢- والبحث في تاريخ النشاط العلمي في المدينة، يظهر لنا: أن ذلك النشاط العلمي الذي بدأ في المدينة مبكراً، أضر به ما أصاب المدينة والمدنيين (يوم الحرة)، واستشهاد الأعلام في ميادين الجهاد، وانتقال مقر الخلافة من الحجاز إلى سوريا أولاً، ثم إلى العراق ثانياً، وحرص (دمشق) و (بغداد) على جعل الحجاز في عزلة عن كل ما يبعث في أبنائه التطلع إلى السيادة والسياسة، فكان لكل ذلك أثر كبير فيما أصاب النشاط العلمي في المدينة من فتور آخر الأمر، وأن كل ذلك من العوامل التي أتاحت لبغداد والبصرة والكوفة الظهور في المجال الثقافي.

فمع ظهور الإسلام في المدينة أشرقت شمس الثقافة الإسلامية العربية من وراء (أحد) فأضاءت أقطار البلاد العربية، وعلى ضوء الثقافة الإسلامية العربية أخذت الدراسات التاريخية تسير في طريق التطور. وكانت المدينة المنورة هي: بداية الطريق؛ فالبحث في نشأة التاريخ يثبت: أن مؤسسي التاريخ العربي الإسلامي ـ الأولين ـ هم: مدنيون، فرجال الطليعة في علم التاريخ وواضعو نواته: مدنيو المنشأ والثقافة ـ فأبان ابن عثمان، وعروة بن الزبير، وشرحبيل بن سعد، ومحمد بن شهاب الزهري، وعبدالله بن أبي بكر بن حزم، وعاصم بن قتادة، وموسى بن عقبة، ومحمد بن إسحاق والواقدي - وغيرهم ممن ستأتي تراجمهم ـ مدنيو المنشأ والدراسة ـ يفخرون بمدنيتهم وبتلقي علومهم في مدرسة أم العواصم.

١٣- ولقد أجمع المحققون على أن جمع أحاديث السيرة والمغازي وتبويبها، هو: بداية التأليف التاريخي في العصر الإسلامي، وأن السيرة والمغازي ـ هي: بداية التاريخ الإسلامي. وأجمعوا على أن تأليف السيرة والمغازي اختصت به المدينة، وتخصص فيه المدنيون، وعلى أن المدينة كانت موطن هذه الدراسة ومهدها، دون سواها، وأجمعوا على أن (ابن إسحاق) ـ هو: أول من مهد الكلام عن السيرة بأخبار ما قبل الإسلام. فيعدّ كتابه أول تاريخ عربي عام. وقالوا: إن (سيرة ابن هشام) تعد مختصراً لمؤلف ابن إسحاق.

وترى دائرة المعارف الإسلامية: أن الدقة التي تتسم بها أخبار التاريخ الواردة في الحديث: دليل على وجود وثائق مخطوطة في المدينة، وأرى: أن التدوين المبكر ليس هو وحده دليل الدقة، فلم يكن كل من يدوّن دقيقاً فيما يدونه، وكذلك الدقة ليست هي الدليل الوحيد على نشأة التدوين المبكر في المدينة، فلم يكن كل من يدقق يدوّن ما يدققه، وأرى: أن التدوين والدقة تسابقا إلى النصوص المدنية؛ فلقد سبق التدوين إلى بعض النصوص فضبطها مثل: كتاب رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار واليهود، ومثل: معاهدة (الحديبية)[1] إلى غير ذلك من العهود والرسائل التي بعثها رسول الله عليه السلام إلى ملوك ذلك العصر، وأمراء الجزيرة وزعمائها وقبائلها، مما تجده مفصلا في كتب السيرة، ومثل: مدوّنات خلفائه الراشدين وما سجلوه من أحكام الإسلام، وما أصدروه من أوامر سياسية وإدارية. ومثل: ما دوّنه (عبدالله بن عمرو بن العاص) و (أبو هريرة) وغيرهما عن رسول الله عليه السلام.. ولسوف يأتي في هذا الجزء بحث خاص بالتدوين في صدر الإسلام. ولقد قام بعض المحققين بتدقيق النصوص والتثبت من صحة سندها قبل تدوينها - مثل: (عروة بن الزبير) الذي دوّن بجانب الوثائق التي وصلت إليه، ما حققه من أحاديث المغازي وهجرة الحبشة وغيرها، ومثل: (ابن شهاب الزهري) الذي دوّن الكثير مما تحققت عنده صحته، وأرى: أن الدقة والتدوين كثيراً ما يتعاونان لضبط النصوص من التحريف وحفظها من النسيان، وأن الدقة والتدوين صاحبا النصوص المدنية من البداية، فكما أثبت التحقيق: أن (عروة بن الزبير) عني بالوثائق المكتوبة - أثبت: أنه عني بتحقيق الرواية الشفهية .. ولسوف نرى في ترجمة ابن عباس في هذا الجزء: الصعاب التي تكبدها في جمع الحديث والتثبت من روايته، ولسوف نرى في ترجمة الشعبي: مقدار اعتزازه بحافظته [ما كتبت سواداً في بياض وما سمعت من رجل حديثاً فأردت أن يعيده عليَّ].

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٥٠١ و ٢/٣١٧.

١٤- ومن المؤكد: أن خلفاء بني أمية كانوا معنيين بالوثائق التاريخية وأخبار المغازي وقادة الجهاد ، وأن خلفاء بني أمية قربوا رجال الحديث، لا سيما المهتمين بالتاريخ ، فجمع لهم عروة بن الزبير وابن شهاب الزهري، وغيرهما الكثير من أخبار السيرة والمغازي، فكان ما جمعه الأمويون: نواة للمكتبة العربية الإسلامية، وكانت أقوال المدنيين من أصح الأخبار التي جمعها الأمويون. ومما يأسف له الباحثون ضياع الكثير مما جمعه الأمويون؛ فلقد امتلأت خزانة الكتب الأموية بأحمال من مدوّنات الزهري وعروة وغيرهما.

ومن المؤكد : أن ما جمعه عروة والزهري وغيرهما من واضعي أسس التاريخ العربي في العصر الإسلامي لم يصل إلى مرتبة التأليف بمعناه الكامل؛ إلا في آخر العصر العباسي، حيث جمع (مالك) موطأه، وألف (ابن إسحاق) سيرته.

١٥- ومن أوائل الذين دُوِّن عنهم، أو دَوَّنوا هم بأنفسهم من المدنيين : (عبدالله بن عباس)، فقد نسب إليه بعض الرواة : مدوَّنات. رجح بعض المحققين: أن أكثرها دوّنه عنه تلامذته الذين كانوا يحضرون مجالسه العلمية، فلقد نُقل عن (موسى بن عقبة) قوله: وضع عندي (كريب) حمل بعير من كتب ابن عباس[١] ، ومنهم (أبان بن عثمان) فقد قال (ابن سعد) عن (المغيرة بن عبدالرحمن): [وكان المغيرة ثقة قليل الحديث إلا مغازي رسول الله عليه السلام أخذها من أبان بن عثمان. فكان كثيراً ما تقرأ عليه ويأمرنا بتعليمها][٢] ومنهم : (عروة بن الزبير) الذي تحدث المؤرخون عن رسائله لعبدالملك بن مروان ، وما ورد فيها عن هجرة الحبشة وغزوة بدر وفتح مكة[٣]. ومنهم

---

(١) راجع ترجمة ابن عباس في هذا الجزء.

(٢) راجع الطبقات ٥/ ٢١٠ وترجمة أبان بن عثمان في هذا الجزء.

(٣) راجع ترجمة عروة بن الزبير في هذا الجزء.

الزهري (محمد بن شهاب)؛ فمن أبرز ما اشتهر به الزهري : تدوين الأحاديث والعناية بتصحيحها ، لا سيما ما ورد في المغازي[1] .. إلى غير هؤلاء ممن سنبحث في تراجمهم.

١٦- وأول ما بدأ القصص التاريخي، بدأ في المدينة ، وأول من قصّ فيها (تميم الداري)، فقد أذن له (عمر بن الخطاب): أن يقص في المسجد فيذكر الناس في يوم الجمعة. ثم استأذن تميم (عثمان بن عفان) فأذن له أن يذكر الناس يومين في الجمعة[2] . وتميم الداري. من نصارى اليمن أسلم وحسن إسلامه. قص على النبي عليه السلام قصة الجساسة والدجال[3] - ويقول (ناصر الدين الأسد) : [إن أول من قص (الأسود بن سريع التميمي) وكان من الصحابة ، وإن المفسرين كانوا يستطردون في تفسيرهم إلى ذكر أخبار العرب في الجاهلية ، وأخبار سائر الأمم في قصص وأحاديث. فقد كان (أبو علي الأسواري) يقص في البصرة في مسجد (موسى بن سيار الأسواري) ستاً وثلاثين سنة فابتدأ لهم بتفسير سورة البقرة فما ختم القرآن حتى مات][4] . ويقول (أحمد أمين) : [إن أول من عين قصاصاً (سليمان بن عيتر التجيبي) عين في مصر سنة ٣٨هـ قاضياً وقصاصاً ثم عزل عن القضاء وأفرد بالقصص][5] - ويقول(كرد علي): [إن عمر بن عبدالعزيز أمر (عاصم بن عمر الأنصاري) أن يجلس في مسجد دمشق فيحدث الناس بالمغازي ومناقب الصحابة ، وقال له: إن بني مروان كانوا يكرهون هذا وينهون عنه ، فاجلس وحدث الناس][6] .

---

(١) راجع ترجمة الزهري في هذا الجزء .

(٢) **فجر الإسلام** ، ص ١٥٨ و ١٥٩ .

(٣) **الإصابة** ١٨٦/١ .

(٤) **مصادر الشعر الجاهلي** ، ص ٢٤٦.

(٥) **فجر الإسلام** ، ص ١٦٠ والتجيبي. هو عبدالرحمن بن معاوية الكندي توفي سنة ٩٥هـ - الأعلام ١١٣/٤٣.

(٦) **الإسلام والحضارة** لكرد علي ١٧٢/١ ، راجع ترجمة عاصم بن عمر في هذا الجزء .

ولو قال (ابن منظور) : إن القاص ينتظر النقد؛ لكان أفضل في رأيي من قوله عندما فسر معنى (القاص): [والقاص ينتظر المقت؛ لما يعرض في قصصه من الزيادة والنقصان][1] فالمقت أشد الكره، ولعل ابن منظور قصد : أن (القاص) يعظ ويرشد والوعظ غير حبيب للنفوس المائعة المستهترة.

على أن مقالة ابن منظور تلفت النظر إلى أن القصاصين لم يكونوا جميعهم موثوقاً بهم ، كما لم يكونوا جميعهم مجردين من أمانة القصص وصحة الرواية ، فالقصص لم يكن جميعه نوادر وأخباراً ، بل كان منه: إرشادًا ، وكانت منه: مواعظ، فالغرض الأول الذي سمح الخلفاء من أجله للقصاصين أن يذكروا الناس في المساجد هو : إيقاظ الوعي ونشر الثقافة والاستفادة من العظات التاريخية ، فالقصة أو الخبر التاريخي يأتيان في الوعظ : أمثلة لما حدث للأمم الماضية ، ولكن هذا الغرض لم يلبث أن انحرف به القصاصون، فصار القصص نوادر خيالية يجمعها القصصيون مما سمعوه من عامة الشعوب التي امتزج قصصها بالقصص الجاهلي عن عوالم الماضي القديم، ويؤلفون مثلها قصصاً عن (المهلهل) و (عنترة) و (سيف اليزن) وغيرهم من الذين تحدث عنهم التاريخ ، إلى جانب ما كانوا يتحدثون به عن أساطير الأمم البعيدة العهد ـ مثل عاد ، وثمود ، وبني إسرائيل ، وفراعنة مصر. ويُقسِّم (الليث بن سعد) : القصص إلى نوعين- الأول : قصص العامة ـ وهو : الذي تجتمع فيه العامة حول القصاص يعظهم ويذكرهم .. وفي رأي الليث بن سعد : أن هذا النوع من القصص مكروه ـ والثاني: قصص الخاصة ـ وهو: الذي جعله (معاوية) فقد ولى رجلا على القصص[2] .

بيد أن القصص التاريخي انتقل من المساجد إلى قصور الخلفاء من عهد (عثمان ابن عفان)، فمن أوائل القصاصين في مجالس الخلفاء (حرملة بن منذر الطائي)

---

(١) لسان العرب ٧/٧٤ و٧٥ .

(٢) خطط المقريزي ٢/٢٥٣ ، نقلا عن فجر الإسلام ، ص ١٥٩ .

الشاعر النصراني العليم بسير ملوك فارس. فقد كان مقرباً من عثمان يدنيه ويسمع منه[1]. ويقال: إن معاوية بن أبي سفيان رغب في الاطلاع على سير الماضين. فاستقدم لذلك من حضرموت: رجلاً معمراً يسمى. (أمد بن أبد الحضرمي)، كما وفد إليه (عبيد بن شرية) و (كعب الأحبار) و (سعيد بن عريض بن عادياء ابن أخي السموءل) من يهود الحجاز الشعراء[2]. ولقد استمرت مجالس الخلفاء ترحب بالقصاصين إلى العهد العباسي، فقد كان (أبو بكر الهذلي) يحدث (السفاح) عن (أنو شروان) وحروب فارس.

والقصص بنوعيه: العلمي القيم، والخيالي التافه؛ مستمد من الكتب المقدسة وما جاء فيها من أمثال واعظة، ومستمد من تراث القدامى وما فيه عن الأمم الماضية، ومستمد من أخبار الجاهلية وأيامها وأشعارها، ومن أخبار المغازي والفتوحات الإسلامية. ومن القصاصين: رجال علم واسعو الاطلاع يأتون في قصصهم بالمفيد المهم. ومنهم: سطحيون عبثت أخيلتهم بحقائق التاريخ.

ويعدّ بعض المتأخرين: أكثر رواة التاريخ قصصيين، وينعتهم. بالإخباريين، والإخباريون في نظر هؤلاء المتأخرين موضع الشك والتهم. ومن شكوك المتأخرين وتهمهم: ما لا يمكن رفضه. ومنها: ما هو محل نظر. فليس كل القصص التاريخي محض خيال؛ ففي قصص القدامى - يونانيين وإسرائيليين وعرباً: أنباء أثبتت صحتها النصوص الأثرية[3]. وليس كل مؤرخ قاصًّا، وليس كل قاص غير ثقة، فقد كان (عطاء ابن يسار) قاصّاً[4]، وكان عطاء بن يسار محدثاً، ثقة غير مطعون فيه[1]، وقد كان

(١) الإسلام والحضارة ١٧١/١ عن تاريخ دمشق لابن عساكر.

(٢) المصدر نفسه ١٧٢/١.

(٣) التاريخ العربي القديم، ص ٤٧ وتاريخ بابل وآشور.

(٤) المعارف، ص ٤٤١.

(الحسن البصري) قاصّاً ـ والحسن البصري لا يطعن فيه أحد[2]. وليس كل ما يقوله الإخباريون افتراء على التاريخ ، فالتهم التي وجهت إلى (ابن الكلبي) لم تحجب فضله على الدراسات التاريخية ، فمما جاء في تحقيقات (بروكلمان) عن (ابن الكلبي) أنه : [وصمه آخرون بأسوأ التهم، من مجافاة النقد الصحيح والخبر الوثيق، بل وصموه بالكذب ولكن البحث الحديث قد أكد كثيرًا من أقواله التي وجه إليها معاصروه التشكك المريب، والنقد اللاذع][3]. وليس كل ما تحدث به (كعب الأحبار) و (ابن منبه) لا ظل له من الحقيقة ، فمما روي عنهما: نصوص أقرها التحقيق[4]. وإنما المشكلة تكمن فيما ينسب إلى الأسفار ، فليس كل ما قاله أهل الكتاب، نقل بأمانة من الأسفار دون تأويل وتحريف، ومن غير زيادة فرضها الذين يروون عن التوراة، ومن غير نقص حتمه اعتقادهم بأن الحذف خير من الإثبات، ثم ثقة بعض المشتغلين بالتاريخ من العرب بأهل الكتاب التي لا حدود لها ، فمن القصص التي توضح لنا تلك الثقة ، قصة (أبان بن تغلب) الذي قال: [إن رجلا آواه المبيت إلى وادي (برهوت) باليمن فسمع طول الليل أصواتاً تنادي: يا دومة يا دومة ـ قال فذكرت ذلك لرجل من أهل الكتاب ـ فقال: إن الملك الذي على أرواح الكفار يقال له دومة][5] ، فما أكثر الذين يسألون أهل الكتاب!! وما أكثر أهل الكتاب الذين يرتجلون الجواب!! وما أكثر الرواة الذين لا يضمنون لأساطيرهم الانتشار ما لم تسند إلى (كعب الأحبار) و (ابن الكلبي) وغيرهما من علماء الأسفار والتاريخ القديم.

---

(١) الطبقات ١٧٤/٥ .

(٢) فجر الإسلام ، ص ١٦١ .

(٣) تاريخ الأدب العربي ٣١/٣ ، وراجع ترجمة محمد بن السائب الكلبي وابنه هشام في هذا الجزء .

(٤) التاريخ العربي القديم ، ص ٣٠ .

(٥) معجم ياقوت ١٥٨/٢ .

١٧- وللمرأة المسلمة دورها في مدرسة المدينة وفي غير مدرسة المدينة، فعن المرأة المسلمة روى الكثيرون أحاديث وآراء منها : ما هو من صلب التشريع، ومنها ما هو من صلب السيرة والمغازي والأدب والأشعار، فلقد كانت المرأة تشارك الرجل في رواية الحديث والآثار وحفظ الأنساب ورواية الشعر ونظمه، وفي طليعة النساء المسلمات اللاتي شاركن في بناء الثقافة العربية الإسلامية: أم المؤمنين (عائشة بنت أبي بكر الصديق) وغيرها من أمهات المؤمنين اللائي كن أسوة حسنة لكثيرات من السيدات المسلمات العفيفات الصالحات اللائي كن يروين الحديث ويعقدن مجالس عامة يسمعن فيها من الرجال ويسمع الرجال منهن .. فهذا (عبدالله بن أبي بكر بن حزم) يروي عن خالته (عمرة بنت عبدالرحمن) وعن زوجه (فاطمة) وعن (أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين) .. وهذا (البخاري) يروي عن (زينب بنت أبي سلمة)[١] ولقد جاء في طبقات الشافعية : [أن من شيوخ الحافظ بن عساكر - المتوفى سنة ٥٧١هـ) بضعاً وثمانين من النساء] .

ولقد كانت المرأة في صدر الإسلام في مستوى من الثقافة الأدبية بحيث كان يحتكم عندها فحول الشعراء. ولقد تحدث الكثيرون عن (جرير) والفرزدق) و (كثير) و (جميل) و (نصيب) - وأنهم كانوا يفدون إلى مجلس (سكينة بنت الحسين) ويعرضون عليها أشعارهم ويصدرون بحكمها عليهم؛ فمجلسها كان ندوة لأعلام الأدب والفن ، وفي هذه الندوة كان الشعراء والرواة والمغنون يتبارون - كما كان لـ (عمرة الجمحية) مجلس يجتمع فيه الشعراء والرواة وغيرهم[٢] .

١٨- فالكلمة الأخيرة التي يمكن أن نقولها اعتماداً على الأدلة التي تقدمت: أن التاريخ العربي منذ ارتبط بالتاريخ الإسلامي. أخذ يسير في طريق البحث العلمي، وأن

---

(١) إرشاد الساري ، ص ١٨٧ و ١٨٨ .

(٢) الأغاني ١٤/ ١٥٠ .

البحث العلمي بدأ في المدينة المنورة ثم انتشر منها في الأقطار الإسلامية ، فما جمع من أخبار فجر التاريخ الإسلامي العربي ، وما فسر من أخبار قبل الإسلام تمثله النصوص التي حققتها مدرسة المدينة ، والنصوص التي حققتها مدرسة المدينة لم تسلم من التشويش الذي نجم من أفهام المؤرخين الذين اختلفت بيئاتهم وسبلهم، وتفاوتت عقولهم ومعارفهم، والذين خضعت آراء أكثريتهم لأخيلة الكتابيين وقصصهم . ومبالغات الفرس وأساطيرهم، وتصورات اليونانيين وفلسفتهم . وللمزاعم الحزبية التي شجع عليها المتصارعون على الخلافة : العلويون والأمويون والعباسيون.

فلقد لمعت لنا الأسباب التي أهلت المدنيين لنصرةالإسلام ، وهيأتهم لتركيز ثقافته وتدوين تاريخه، ولقد ألمحت لنا أدلة عن بداية التاريخ الإسلامي في المدينة بالسيرة والمغازي ، وكيف نبت التاريخ العربي العام في حقل التفسير ، فلم يلبث أن أورق وازدهر، فكان مؤلف (ابن إسحاق) : البداية لتصنيف التاريخ العام، مثلما محاولات (ابن شهاب الزهري) من قبله : البداية في تصنيف السيرة والمغازي.

ولقد سمعنا ما قاله المحققون عن تخصص المدنيين في تدوين السيرة والمغازي وعن صحة النصوص المدنية، وسمعنا ما قالوه عن نشاط مدرسة المدينة الثقافي المبكر، وعن خريجيها الذين نشروا الثقافة في ربوع البلاد الإسلامية، فكانوا أساتذة المدارس الإسلامية الأولين في مكة، والكوفة ، والبصرة ، ومصر ، وبغداد ، وسوريا ، واليمن .. وسمعنا ما قالوه عن القصص التاريخي : متى بدأ؟ وأين بدأ؟ والعوامل التي انحرفت به عن أهدافه.

أما يحق لنا بعد هذه الأدلة التي تقدم بعضها إجمالا وبعضها تفصيلا - أن نقول : من المدينة بدأ التاريخ وتدوينه في العصر الإسلامي؟!

ففي المدينة كتبت السطور الأولى في تاريخ الدولة الإسلامية، وفي المدينة ولدت الثقافة الإسلامية ، ونشأ علم التاريخ عند العرب وبدأ المسلمون يحقّقون القضايا ويدوِّنون الأحداث.

الفصل السادس

التدوين والمدونات في صدر الإسلام

- التأليف في التاريخ وكراهية التدوين .
- المسلمون لم يشعلوا النار في تراث القدامى.

المبحث الأول

التأليف في التاريخ وكراهية التدوين في صدر الإسلام

موضوعات البحث:

١- الأسباب التي نشأ عنها – في بعض الظنون – تأخر التدوين في التاريخ.

٢- لم يستعر المسلمون كراهية ما كرهوا تدوينه من اليهود.

٣- حقيقة موقف المسلمين في صدر الإسلام من التدوين.

٤- نصوص النهي عن التدوين ونصوص الحث عليه.

٥- ليس هناك تعارض في النصوص.

٦- لم يصل الخوف على القرآن بالمسلمين إلى تحريم التدوين.

٧- إطلاق العنان لنشر المدونات لا تقره أي سلطة في كل زمان ومكان.

٨- السبب الحقيقي لتأخر التأليف في العصر الإسلامي.

التأليف في التاريخ وكراهية التدوين في صدر الإسلام

١ - يظن بعض الباحثين في الثقافة الإسلامية : أن المسلمين في صدر الإسلام. كانوا يكرهون التدوين أيّاً كان . ويبنون هذا الظن على ما ورد من أحاديث نبوية وأقوال مأثورة صرحت بكراهة التدوين، وعلى ما فعله بعض الصحابة بالمدونات التي وصلت إليهم، أو التي سبق أن دونوها .. فعن هذه الأقوال انطلق هذا الظن يؤكد : أن هذه الكراهية كانت سبباً لتأخر التأليف في التاريخ عن غيره في بناء الثقافة العربية الإسلامية ، وما يؤكده هذا الظن لا يتفق مع الواقع، فلا التدوين بوجه عام كان مكروهاً في صدر الإسلام ، ولا التأليف في التاريخ تخلف في المجال الثقافي. فقد استأذن بعض الصحابة من النبي عليه السلام أن يدونوا عنه فأذن لهم، وقد بدأت محاولات التأليف في التاريخ من عهد (عروة بن الزبير). وقد نضج التأليف في التاريخ مع التأليف في الحديث ، فقد ألف (ابن إسحاق) تاريخه في الوقت الذي ألف (مالك بن أنس) موطأه.

٢ - وهذا الظن على مايبدو؛ بدأت به تحقيقات المستشرقين مثل : (مارغوليوث) الذي قال : إن العرب استعاروا كراهة التدوين من اليهود ، وإن إحجام اليهود عن التدوين كان السبب في عدم إنتاجهم أدباً مكتوباً قروناً طويلة غير العهد القديم[١] .. وتحقيقات المستشرقين هذه أخطأت الحقيقة ، فالمسلمون لم يحجموا عن التدوين وإنما كرهوا تدوين ما يخافون منه ، والمسلمون لم يستعيروا كراهية ما كرهوا تدوينه من اليهود ، بل إنهم خافوا أن يحدث للقرآن ما حدث للتوراة فتجنبوا تدوين الحديث بالصورة التي جمع بها القرآن ودُوّن. ولقد سبق في بحث الأسفار الفرق بين النصوص

(١) دراسات عن المؤرخين العرب ، ص ٥٦ .

الإسلامية وبين النصوص اليهودية والمسيحية، والسبب في عدم إنتاج أدب يهودي قروناً طويلة. وضَّحه (غوستاف لوبون) عندما تحدث عن الفكر اليهودي. فقال: [بقي بنو إسرائيل حتى عهد ملوكهم، بدويين أفاقين مغيرين سفاكين مولعين بقطعانهم، مندفعين في الخصام الوحشي، فإذا بلغ منهم الجهد ركنوا إلى خيال رخيص، تائهة أبصارهم في الفضاء كسالى خاملين من الفكر كأنعامهم التي يحرسونها .. وعندما خرج هؤلاء البدويون الذين لا أثر للثقافة فيهم من باديتهم ليستقروا في فلسطين وجدوا أنفسهم أمام أمم قوية متمدينة منذ زمن طويل][1]. فاللغة العبرية لم تصل إلى المستوى الأدبي إلا بعد أن اختلط اليهود بالعرب واليونانيين؛ فتاريخ اللغة العبرية حديث بالنسبة للغات السامية[2]. فعندما حاول (ولفنستون) أن يجعل اللغة العبرية صنواً للكنعانية لم يجد الدليل المقنع[3]، والفكر اليهودي لم يتخلص من خياله الرخيص إلا بعد أن احتك بالعقول العريقة في الحضارة والتمدين[4]، وأكثر الذين نبغوا من اليهود القدامى نبغوا في لغة غير العبرية، وفي مجتمع غير المجتمع اليهودي، فمن اليهود الذين نبغوا في الأدب: أولئك الذين تعربوا وبرزوا في الأدب الجاهلي، وأؤلئك الذين أسلموا ونبغوا في المعارف الإسلامية.

٣- على أن هذه الأخطاء التي تعثرت بها هذه الظنون. لا تحول بيننا وبين حقائق التاريخ. فمن حقائق التاريخ: أن التاريخ الإسلامي سجل أحاديث نبوية وأقوالا مأثورة نهت عن التدوين، وسجل إعدام بعض المدونات في صدر الاسلام وفيما بعده، ولكن الذين بحثوا في هذه الأقوال والأفعال. بينوا وجه الكراهية وأسباب إعدام بعض

---

(١) اليهود في تاريخ الحضارات، ص ٢٠ و٣٠.

(٢) راجع بحث العبرية والجعزية في الجزء الأول من هذا الكتاب ١/١٩٥.

(٣) ١/١٩٩ في الجزء الأول من هذا المؤلف الذي صدر باسم: **التاريخ العربي وبدأيته**.

(٤) راجع كتاب: **اليهود في تاريخ الحضارات**.

المدونات؛ فالنهي عن التدوين خاص بجمع الحديث وتدوينه على مثل ما جمع القرآن ودُوّن خوفاً على عقلية العامة من المسلمين التي لم تنضج بعد - من أن تتورط فيما وقع فيه الإسرائيليون الذين لم يفرقوا بين نص التوراة وتفسير الأحبار وتأويلهم فاختلطت أسفار الرسل بتفسير الأحبار والرهبان .. ومن هنا دخل عليها التحريف والتأويل إلى غير ذلك مما سبق الكلام عنه في بحث الأسفار.

فمما لا شك فيه أن أحاديث نبوية وأقوالا مأثورة نهت عن التدوين، فلقد تحدث (خالد بن عرفطة) بما فعله (عمر بن الخطاب) بالقيسي الذي نسخ كتاب (دانيال) وكيف محا الكتاب بالحميم والصوف الأبيض [1]، وتحدث (مرة) بما فعله (عبدالله بن مسعود) بالكتاب الذي جاء به (ابن قرة) من الشام - وكيف أنه دعا بطست فيه ماء فماثه ثم محاه - قائلا: إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم الكتب وتركهم كتابهم [2]. ومما لا شك فيه أيضاً: أن كبار الصحابة دوّنوا الأحاديث النبوية من عهد النبي عليه السلام - منهم: (أبوهريرة) و (أنس بن مالك) و(عبدالله بن عباس) و(عبدالله بن عمرو ابن العاص) صاحب (الصحيفة الصادقة) التي أخذ عنها (أحمد بن حنبل) في مسنده. وأن جمع أحاديث السيرة، والمغازي، وتدوينها بدأ به كبار التابعين مثل: (عروة بن الزبير) و (أبان بن عثمان) و (محمد بن شهاب الزهري) وغيرهم. وأن كبار الصحابة أمروا بتدوين الشعر العربي. فلقد تواترت في مؤلفات تاريخ الأدب العربي الرواية التي تقول: إن (عمر بن الخطاب) قال: عليكم بديوانكم لا تضلوا - قالوا: وما ديواننا؟ - قال: شعر الجاهلية، وإن (عمر بن الخطاب) قال: كنت نهيتكم أن تذكروا ما كان بين المسلمين والمشركين فأما إذ أبوا فاكتبوه واحتفظوا به [3]، وإن (ابن عباس) قال: إذ سألتم عن شيء من غريب القرآن التمسوه في الشعر - (ديوان العرب) [4].

---

(١) تقييد العلم، ص ٥١ و٥٢.

(٢) تقييد العلم، ص ٥١ و٥٢.

(٣) الأغاني ١٤٠/٤.

(٤) المزهر ٣٠٢/٢.

فاختلاف النصوص التي وردت مرة تشجع على التدوين ومرة تنهى عنه. استرعى انتباه الباحثين في الثقافة الإسلامية في الماضي والحاضر، فكتبوا في ذلك بحوثا وألفوا كتباً .. ويعدّ كتاب (جامع بيان العلم وفضله) لمؤلفه (ابن عبدالبر القرطبي) المتوفى سنة ٤٦٣هـ، وكتاب (تقييد العلم) لمؤلفه (أحمد بن علي المعروف. بالخطيب البغدادي) المتوفى سنة ٤٦٣هـ من أوسع المؤلفات التي عنيت بموضوع التدوين؛ فلقد جمع كل من ابن عبدالبر، والخطيب البغدادي: النصوص التي وردت في كراهية التدوين، والنصوص التي وردت تشجع على التدوين. وبعد أن تقصّى (ابن عبدالبر) النصوص التي وردت في التدوين على اختلافها. وري عن (أبي عمر) قوله: من كره كتابة العلم: إنما كرهه لوجهين. أحدهما: ألا يتخذ مع القرآن كتابٌ يضاهى به. والثاني: لئلا يتكل الكاتب على ما كتب فلا يحفظ فيقل الحفظ[1].

ونحن إذا ما رجعنا إلى آراء القائلين بكراهية التدوين، نجدها: تعتمد على نصوص تضيق الخناق على التدوين والمدوِّنين في القرن الأول الهجري. ونحن إذا ما رجعنا إلى آراء الجازمين بأن المسلمين لم يكرهوا التدوين نجدها تعتمد على نصوص أطلقت العنان للتدوين والمدونين في صدر الإسلام على نحو ما انطلق عنانهم فيما بعد.

٤- ونحن إذا ما رجعنا إلى النصوص التي وردت في التدوين، وقابلنا بين نص النفي ونص الإثبات؛ يبدو لنا إذا ما أخذنا بحرفية تلك النصوص وظاهرها: أن هناك اختلافاً في الحكم على التدوين. فمن نصوص إثبات الكراهية: الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه: [لا تكتبوا عني غير القرآن، ومن كتب عني غير القرآن. فليمحه][2] وحديث (عمر بن الخطاب): [قال عمر بن الخطاب للنبي عليه السلام: إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا. أفترى أن نكتبها؟ فقال: أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود

---

(١) جامع بيان العلم ٦٨/١.

(٢) صحيح مسلم طبعة الحلبي ٢٢٩٨/٤، وقد أورد الحديث ابن عبدالبر في جامع بيان العلم ٦٣/١.

والنصارى؟] [١] . ونجد من نصوص نفي هذه الكراهية: الخبر الذي جاء في مسند (أحمد) ـ أن (عبدالله بن عمرو بن العاص) سأل النبي : هل يكتب كل ما سمع منه؟ فقال محمد عليه السلام له: [اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني غير الحق] [٢] . وحديث (أنس بن مالك) قال : [قال رسول الله عليه السلام : قيدوا العلم بالكتاب] ، وحديث (أبي هريرة) عن اليمني الذي استكتب خطبة النبي عليه السلام يوم فتح مكة فأمر النبي عليه السلام أن تكتب له [٣] .

ونسمع عن (أبي بكر الصديق): أنه قضى ليلا طويلا ـ وهو يفكر فيما يصنع بخمسمائة حديث كان يحتفظ بها مدونة . فعند الصباح ـ أمر السيدة عائشة بإحضارها فلما أحضرتها أحرقها بالنار [٤] ، ونسمع عنه : أنه كان يحتفظ بأحكام الزكاة التي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بكتابتها.

ويحدثنا (الزهرى) عن (عروة): أن (عمر بن الخطاب) قال: [إني كنت أريد أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوماً قبلكم كتبوا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً] [٥] . ويحدثنا (يحيى بن جعدة) أن عمر بن الخطاب بعد أن عدل عن كتابة السنن ـ كتب في الأمصار من كان عنده شيء فليمحه [٦] ، ويحدثنا (القاسم بن محمد) : أن عمر بن الخطاب ـ نادى في الناس بأن يأتوه بما ظهر في أيديهم

---

(١) الفائق ٢١٨/٣ عن مصادر الشعر الجاهلي ، ص ٦٣ .

(٢) وجاء في جامع بيان العلم ـ عن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي عليه السلام مثل هذا الحديث ٧١/١ و ٧٠/١ .

(٣) جامع بيان العلم ٧٢/١ .

(٤) تذكرة الحفاظ ٥/١ .

(٥) جامع بيان العلم ٦٤/١ .

(٦) المصدر نفسه ٦٥/١ .

من الكتب ليرى فيها ما يجب حتى إذا جاءوا بها أحرقها[1] في حين نسمع عن (عمر بن الخطاب) نفسه : أنه كان يدوّن ويحتفظ بما دونه، فقد أتلف وهو على فراش الموت - ما كتبه على كتف كان يحتفظ به. ويحدثنا (محمد بن عبدالرحمن الأنصاري): أن آل عمر ورثوا من عمر كتاب الصدقات[2]. ويحدثنا (النيسابوري) : أن عمر نادى في الناس [أيها الناس : عليكم بديوانكم ، قالوا: وما ديواننا؟ قال شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم][3] ويحدثنا (عبدالملك بن سفيان) عن عمه: أنه سمع عمر بن الخطاب. يقول: قيدوا العلم بالكتابة[4].

ونسمع عن (ابن عباس) أنه نهى عن كتابة العلم وقال: إنما ضل من كان قبلكم بالكتب، ونسمع عنه أيضاً : أنه قال: قيِّدوا العلم بالكتاب[5]. ونسمع عن (زيد بن ثابت) أنه قال لمعاوية بن أبي سفيان عندما أراد أن يكتب عنه : إن رسول الله عليه السلام أمرنا ألا نكتب شيئاً من حديثه، ونسمع عنه: أنه كان مع الذين كانوا يكتبون عن (مروان) وهو لا يدري[6]. ويحدثنا (ابن سعد) في طبقاته عن زيد بن ثابت أنه دخل على النبي عليه السلام وهو يمل عليَّ بعض حوائجه. فقال: ضع القلم على أذنك فإنه أذكر للمحل[7].

ونسمع عن (عبدالملك) الخليفة الأموي: أنه حرق مغازي النبي عليه السلام مدوَّنة على صورة كتاب وجده عند ابن له يقرؤه. وأمر الصبي بقراءة القرآن[8]. ونسمع عن

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادي ، ص ٥١ و٥٢ .

(٢) الأموال لأبي عبيد القاسم ، ص ٣٥٨ .

(٣) تفسير النيسابوري المهمش على ابن جرير طبع الأميرية ١٤/ ٧١ .

(٤) جامع بيان العلم ١/ ٧٢ .

(٥) جامع بيان العلم ١/ ٦٤ و٦٥ و٧٢ .

(٦) المصدر نفسه ١/ ٦٣ و٦٥ .

(٧) الطبقات ٢/ ٣٥٩ .

(٨) دراسات عن المؤرخين العرب ٢ ٥٥ .

عبدالملك نفسه: أنه كان يستكتب (عروة بن الزبير) ما لديه عن غزوة (بدر) و (هجرة الحبشة) وفتح مكة[1].

ويروى عن (أبي سعيد الخدري) أنه قال عندما سأله (أبو النضر) - ألا نكتب ما نسمع عنك؟: أتريدون أن تجعلوها مصاحف - إن نبيكم عليه السلام كان يحدثنا فنحفظ. فاحفظوا كما كنا نحفظ[2]، ويقال عن (أنس بن مالك) إنه كان إذا حدث فكثر عليه الناس جاء بمجال[3] من كتب فألقاها - ثم قال: هذه أحاديث سمعتها وكتبتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرضتها عليه[4].

٥- فهذه النصوص - كما تراها - يدل ظاهرها على تردد في الحكم على التدوين، وتدل حرفيتها على تقلب موقف الرعيل الأول من التدوين، تارة ينهون عنه وتارة ينصحون به .. الأمر الذي يحتم على البحث: استجلاء الحقيقة، فهل هناك تناقض في الرأي واختلاف في الحكم؟

إنني لا أرى تعارضاً في هذه النصوص! فلكل نص من نصوص الترغيب عن التدوين: سبب خاص لم يبلغ النهي عن مرتبة التعميم، ولكل نصّ من نصوص الترغيب في التدوين: سبب خاص لم يبلغ بالحث عليه مرتبة التعميم؛ فأكثر هذه النصوص تدور حول تدوين الأحاديث النبوية، وإطلاق عنان التدوين للجميع - في الوقت الذي لم يجمع فيه القرآن. وفي الزمن الذي كان الناس يدونون في الصحيفة الواحدة إلى جانب الآيات القرآنية قصصاً[5]؛ فإطلاقه يترتب عليه مخاوف لا يأمنها

(١) مصادر الشعر الجاهلي عن تاريخ الطبري.

(٢) جامع بيان العلم ٦٤/١.

(٣) المجال جمع مجلة والمجلة هي: الرسالة أو الكتاب.

(٤) تقييد العلم، ص ٩٥.

(٥) تقييد العلم، ص ٥٥.

المسلمون على القرآن، وبعد أن جمع ووحدت قراءته في مصحف واحد. كره الصحابة أن يجمع الحديث في كتاب على نحو ما جمع به القرآن. فيضاهى به، وأكثر الأعلام كانوا يخافون على عقلية العامة ممن مثله كمثل حاطب ليل، فحاطب ليل كما يقول (أبو عمر): ربما ضم أفعى إلى حطبه فنهشته[1].

ونحن إذا ما رجعنا إلى النصوص التي تقدمت، نجد لكل نص هدفاً لا ينقض غيره ولا يختلف معه؛ فالحديث الذي أثبته (مسلم) في صحيحه. نهى: العامة عن تدوين الأحاديث خشية أن تخلط (العامة) الحديث بالقرآن، والحديث الذي أورده (أحمد) في مسنده. حديث أذن فيه النبي عليه السلام لعبدالله بن عمرو بن العاص أن يدون الحديث؛ لأنه ليس ممن يخشى منه أن يخلط الحديث بالقرآن، ولو لم يرض النبي عليه السلام عن تدوين مادوّنه أبو هريرة وأنس ابن مالك وغيرهما من أعلام الصحابة الذين لا خوف عليهم ولا خوف منهم على القرآن لما أقدم أولئك الأعلام على التدوين والنبي عليه السلام لم يخف على عمر بن الخطاب من التدوين وإنما خاف عليه أن يتهوك كما تهوك اليهود والنصارى. ولقد قال (ابن الأثير)[2]: [وجه الجمع بين الحديث (لا تكتبوا عني غير القرآن) وبين إذنه في كتابة الحديث عنه: أن الإذن في الكتابة ناسخ للمنع منها بالحديث الثابت. وقيل إنما نهى أن يكتب الحديث مع القرآن في صحيفة واحدة. والأول أوجه].

و(أبوبكر الصديق) عندما حرق الأحاديث التي دوّنها بين السبب في حرقها: [خشيت أن أموت وهي عندي فيكون فيها أحاديث عن رجل ائتمنته ووثقت فيه، ولم يكن كما حدثني فأكون قد نقلت ذلك][3]. وأبوبكر محق فيما فعله، فالذي يثبت: أن

---

(١) جامع بيان العلم ٧٥/١.

(٢) لسان العرب، مادة كتب ٦٩٩/١.

(٣) تذكرة الحفاظ ٥/١.

أبا بكر احتفظ به هو فوق الشبهات. فالحديث لم يكن له كتاب يدوّنونه أولا فأولا وحرفاً حرفاً. كما كان للوحي كتاب يدوِّنونه كما نزل. ولذلك قال (واثلة بن الأسقع) عن الحديث: [عسى ألا يكون سمعناه غير مرة واحدة، حسبكم: أن أحدثكم بالحديث على المعنى][1]. ولذلك نحن نجد أكثر الأحاديث التي وردت في موضوع واحد. يزيد بعضها على بعض ويختلف لفظ بعضها عن لفظ غيره. وإخال: أن هذا هو السبب الذي من أجله رفض (أبو سعيد الخدري) أن يكتب عنه ما يحدث به قال: أردتم أن تجعلوها قرآناً؟ لا لا، ولكن خذوا كما أخذنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

وعمر بن الخطاب عندما رجع عن تدوين السنن، لم يرجع كرهاً في التدوين؛ فلقد دوّن عمر، ولقد ترك عمر لآله من بعده كتاب الصدقات، وإنما خشي عمر: أن يدوّن السنن على غرار ما دوّن به القرآن، فيلتبس الأمر على عامة المسلمين الذين لم تنضج عقولهم. وعمر بن الخطاب لم يحرق ما أحرقه من المدونات التي جمعها من أيدي الناس ليرى رأيه فيها؛ إلا خوفاً على عقلية الجماهير، فليس كل من عرف الكتابة حريصاً وأميناً. وعمر بن الخطاب لم يحرق فيما أحرقه، مدونات أعلام الصحابة مثل: أنس بن مالك، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وأبي هريرة، وجابر بن عبدالله[3] وغيرهم ممن دونوا الحديث وغيره. فلقد كان جابر ـ يروي الحديث في المسجد النبوي وكان أعلام التابعين يكتبون عنه.

وكذلك بقية النصوص التي وردت تنهى عن التدوين وتأمر بإعدام مدونات؛ تجدها إذا ما بحثت عن حقيقتها: لا تقصد التدوين بذاته ولا تقصد: إعدام كل ما هو غير إسلامي من التراث العلمي القديم؛ فلكل نص كما رأيت أسباب بعيدة عن الظنون التي تعلقت بظاهر النص وحرفيته.

---

(١) جامع بيان العلم ١/٧٩.

(٢) المصدر نفسه ١/٦٤.

(٣) جامع بيان العلم ١/٧٢.

٦- وإذا كان الخوف على القرآن هو الباعث على عدم إطلاق العنان لكل من أراد أن يدوّن الحديث ، وهو سبب التردّد في جمع الحديث في صدر الإسلام على مثل ما جمعت المسانيد الصحاح، فإن الخوف أشد على مبادئ القعيدة من تدوين ما له صله بالعقيدة، مثل : كتاب (دانيال)، فدانيال عرف بنبوءاته، والإسلام يحارب التنبؤات، وليس كل ما ترويه اليهود يؤتمن على عقلية حديثة عهد بالإسلام؛ فالنبي عليه السلام حينما غضب من عمر بن الخطاب عندما قال له: [يا رسول الله هذا كتاب نسخته لنزداد به علماً إلى علمنا][1] لم يغضب لأن عمر دوّن ، وإنما غضب؛ لأن عمر يريد أن يزداد علماً إلى علمه بغير ما انبنت عليه العقيدة الإسلامية، فلو كان غضب رسول الله عليه السلام من تدوين ما ليس له صلة بالعقيدة مثل الأخبار التاريخية التي أخذها كبار المفسرين من الكتابيين. لما جسر صحابي مثل (عبدالله بن عباس) وغيره : أن يدوّن أو يدوّن عنه - الأخبار التي رواها لهم الكتابيون.

فما رواه (سفيان بن عيينة) عن (ابن عباس): أنه أتي بكتاب فيه قضاء عليّ فمحاه إلا قدر ذراع من الدرج المستطيل، وأن ابن عباس محا الكذب وأبقى على الصحيح[2] - يتضح : أن الأعلام المسئولين عن العقلية الإسلامية في صدر الإسلام، لم يشنوا حرباً على التراث الإسلامي، وإنما كانوا حرباً على كل ما يبلبل الأفكار ويضللها.

٧- فإطلاق العنان لحرية التدوين، ونشر المدونات بدون رقابة معتدلة تميز السليم النافع من المشبوه الضار، خطر على المبادئ والأخلاق في كل زمان ومكان. فالمدوّنات لاتزال لدى العامة إلى اليوم فوق الاعتراض عليها. فأنا ومعي الكثيرون على ما أظن. نسمع اليوم بعض العامة يقول بحماس واقتناع : إن هذا الأمر موجود في الكتب. أي لا محل للنقاش فيه والاعتراض عليه!! فمن الخطر المتوقع من بعض المدونات فعل بها ما فعله الرواد الأوائل.

---

(١) تقييد العلم ٥١ و٥٢ .

(٢) صحيح مسلم ١/١٥ .

ولقد سمعت من أستاذي (محمد الطيب الأنصاري التبكتي) : أن رجلاً من زوار المدينة كان يقرأ القرآن في مسجدها. ويكثر اللحن، وكان يجلس قريباً منه حافظ أخذ يصحح له أخطاءه، فلما كثر التصحيح على القارئ: ضاق ذرعاً فالتفت إلى الحافظ. قائلا: كفى! هل أنا غلطت في البخاري. يقصد صحيح البخاري؟!! . فمن أجل ذلك كره من كره من أعلام الصحابة، تدوين الحديث على مثل مادون به القرآن وقالوا: أتريدون أن تجعلوها قرآناً؟.. فإذا كان في القرن الرابع عشر توجد عقليات فَجَّة تضع صحيح البخاري في الموضع الذي وضعه فيه ذلك القارئ. فكيف بعقلية العامة ولما يمض على إسلامها غير وقت قصير؟ ولما يجمع القرآن ويحفظ على ما جمع عليه وحفظ!!

فما ورد عن النبي عليه السلام، وما ورد عن الصحابة والتابعين عن التدوين، وما فعله عمر بن الخطاب، وما فعله غير عمر بن الخطاب ببعض المدونات؛ لم يكن حكماً على التدوين والمدونات عامّاً، وإنما كان في مسائل معينة ولأسباب معروفة. ولذلك لم يمتنع أعلام الصحابة والتابعين عن تدوين الحديث ولم يمتنعوا عن نقل ما يرويه الكتابيون عن الأسفار من أخبار الماضي القديم.

٨- فعلى ذلك أقول أخيراً : إنني لست أرى تناقضاً في النصوص التي اتخذها بعض الباحثين في الثقافة الإسلامية، وفي نشأة علم التاريخ دليلاً على أن المسلمين في بادئ أمرهم كرهوا التدوين، وأن المسلمين كانوا حرباً على التراث غير الإسلامي. وبين النصوص التي تمسك بها القائلون : إن المسلمين لم يكرهوا التدوين ولم يكونوا حرباً على التراث الثقافي في وقت من الأوقات.

وأقول : إن الذين لم يفرطوا في تدوين ما حققوه من أحاديث. بذلوا جهداً كبيراً في جمع وتبويب الأحاديث والأقوال المأثورة، وإن التصحيح والجمع والتبويب استغرق وقتاً طويلاً إلى أن وصل إلى مرتبة الصحاح من حيث التأليف والتنسيق والاستيعاب، فلم يصل (مالك بن أنس) إلى تأليف كتابه الموطأ؛ إلا بفضل الجهد الذي بذله (زيد بن

ثابت) و (أبو سعيد الخدري) و(أنس بن مالك) من محققي الحديث ورواته، ولم يصل (ابن إسحاق) إلى تأليف تاريخه إلا بفضل المحاولات التي قام بها (عروة بن الزبير) و(أبان بن عثمان) و (محمد بن شهاب) وغيرهم ممن عني بجمع أحاديث السيرة والمغازي وتبويبها.

فالتأليف في التاريخ لم يتأخر بسبب كراهية التدوين، والتدوين لم يكن مكروهاً في وقت من الأوقات كما قلت من قبل، فلقد بدأ من عهد النبي عليه السلام، ولقد شجع عليه النبي صلى الله عليه وسلم بجعل فدية من لم يكن له فداء من أسرى بدر، تعليم عشرة غلمان من غلمان المدينة[1]، وإنما التأليف لم ينضج إلا بعد وقت طويل قضاه الرواد في محاولات الضبط والجمع والتبويب.

---

(١) طبقات ابن سعد ٢/٢٢.



البحث الثاني

المُسلمون لم يشعلوا النار في تراث القدامَى

موضوعات البحث :

١- الأسباب التي دعت إلى البحث.

٢- الأدلة التي أقنعت (جرجي زيدان) بالعدول عن تكذيب الخبر القائل بأن العرب المسلمين أحرقوا كتب مكتبة الإسكندرية.

٣- أساس الخبر الذي بنيت عليه أسطورة إحراق العرب كتب الإسكندرية.

٤- الأدلة التي تكذب الخبر.

٥- تفنيد الحيثيات التي بني عليها التصديق بهذه الأسطورة.

٦- التحقيقات لا تكون علمية إذا اعتمدت على منطق المحقق فحسب.

المسلمون لم يشعلوا النَّار في تراث القدامى

١- لم يكن هذا الجزء في حاجة إلى نقاش بعض الآراء التي تعلقت بظاهر تلك النصوص التي مرت بنا في البحث المتقدم (التأليف في التاريخ وكراهية التدوين)، ثم أخذت تبنى عليها نتائج خاطئة، كما فعل (نبيه أمين فارس) ، وكما فعل (جرجي زيدان)، لو لم يزعم أصحاب هذه الآراء : الاستقصاء والتعمق، ولم لم يكن لهم سمعة علمية لها أثرها على كثير من القراء، نشأت عنها ثقة في كل ما يكتبون، وجعلت من أقوالهم وآرائهم مصادر لبعض الباحثين في الثقافة العربية الإسلامية ومصادرها دون ما تأكد من أصالتها وتثبّت من حقيقتها.

ولم يكن لي من حاجة إلى الوقوف طويلا عندما جاء في كلام (جرجي زيدان) عن أسطورة حريق مكتبة الإسكندرية في عصر الفتح الإسلامي. لو لم يعد (جرجي زيدان) إلى هذه الأسطورة بأدلة لا بد للبحث في التاريخ العربي ومصادره. من الوقوف عندها.

٢- فلقد عاد جرجي زيدان إلى أسطورة حريق مكتبة الإسكندرية بعد أن كان مقتنعاً بأنها خرافة تمخض عنها خيال ساذج [كنا ممن جارى الذين طعنوا في الرواية التي تقول: إن مكتبة الإسكندرية أحرقها (عمرو بن العاص) بأمر (عمر بن الخطاب) في كتاب (تاريخ مصر الحديث)، ثم عرض لنا بمطالعتنا المتواصلة في تاريخ الإسلام والتمدن الإسلامي، ترجيح الرأي الأول. لأسباب نحن باسطوها] والأسباب التي بسطها جرجي زيدان وقال عنها : إنها أقنعته بترجيح الرأي الأول. هي:

١- رغبة العرب في صدر الإسلام في محو كل كتاب غير القرآن؛ استناداً إلى بعض الأحاديث النبوية وتصريحات مقدمي الصحابة.

٢- أن (أبا الفرج الملطي) نقل خبر حريق مكتبة الإسكندرية من (ابن القفطي)، وابن القفطي المعروف بالقاضي : عالم اللغة والحديث وعلوم القرآن، فإذا كان هناك من يشك في أبي الفرج الملطي. فإن القفطي بعيد عن الشك!!

٣- أن المؤرخين الإسلاميين، في ظن جرجي زيدان. ذكروا هذه الرواية ثم حذفوها بعد نضج التمدن الإسلامي. واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفتهم قدر الكتب. فاستبعدوا حدوث ذلك فحذفوه!!

٤- من رأي. جرجي زيدان. أن مما يؤكد أن العرب أحرقوا مكتبة الإسكندرية ما جاء في (كشف الظنون) عن علوم الأقدمين، فنقل عن كشف الظنون - : [أن المسلمين لما فتحوا (بلاد فارس) وأصابوا من كتبهم. كتب (سعد بن أبي وقاص) إلى (عمر بن الخطاب) يستأذنه في شأنها وتنقيلها للمسلمين فكتب له (عمر) :أن اطرحوها في الماء فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه. وإن يكن ضلالا فقد كفانا الله تعالى، فطرحوها في الماء والنار. فذهبت علوم فارس]!! ويقول جرجي زيدان: لا بد من أصل نقل عنه صاحب كشف الظنون. ويستشهد بقول أسنده إلى (ابن خلدون) وهو : [أين علوم فارس التي أمر (عمر) بمحوها عند الفتح]؟.

٥- من الأسباب التي اعتمد عليها جرجي زيدان في تحقيقه الأخير: أن حرق الكتب كان في تلك العصور تشفياً من عدو أو نكاية فيه، فكان أهل كل شيعة أو ملة يحرقون كتب غيرهم كما فعل (عبدالله بن طاهر) بكتب فارسية كانت لا تزال باقية إلى أيامه سنة ٢١٣هـ من مؤلفات المجوس.

٦- ومنها : أن أصحاب الأديان في تلك العصور كانوا يعدّون هدم المعابد القديمة وإحراق كتب أصحابها من قبيل السعي تأييداً للأديان الجديدة!!

٧- استشهد جرجي زيدان بما جاء في تاريخ جماعة من الأئمة المسلمين عن إعدامهم مؤلفاتهم من تلقاء أنفسهم، مثل : (أحمد بن أبي الحواري) الذي محا مؤلفاته - وهو يبكي ويقول: نعم الدليل كنت لي على ربي، فلما ظفرت بالمدلول فالاشتغال بالدليل محال[1].

٣- ونحن قبل أن نحقق في هذا التحقيق ونصحح هذا التصحيح - علينا : أولا أن نعرف حقيقة خبر حرق مكتبة الإسكندرية - من قاله؟ ومتى قيل؟ ومن هو المصدر؟ ونتعرف على ناقلي هذا الخبر.

إن الخبر كما جاء في رواية الذين تناقلوه - ومنهم : جرجي زيدان، ورد على هذا النحو: تكلم (يحيى النحوي) عند (عمرو بن العاص) في شأن المكتبة التي أنشأها (بطولاماوس فلادلفوس) وطلب منه الإفراج عن كتب الحكمة في الخزائن الملوكية للحاجة إليها فاستأذن (عمرو بن العاص) الخليفة في شأنها فجاء الأمر بإعدامها، فشرع (عمرو بن العاص) في تفريقها على حمامات الإسكندرية فاستغرق حرقها ستة شهور[2].

فهذا الخبر كما يبدو أبعد ما يكون عن الحقيقة وأقرب ما يكون إلى الأساطير التي كانت سائدة في أطراف البلاد الإسلامية في القرن السابع الهجري.

فأولاً - تدعي هذه الرواية أن: (يحيى النحوي) عاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مصر والإسكندرية، معتمداً على ما جاء في كلام (ابن النديم) في فهرسته عن يحيى النحوي وعصره وما جاء في كلام (بن العبري) عن هذه الأسطورة : وعاش (يحيى القراماطيقي) إلى الفتح الإسلامي في حين أن تحقيقات المستشرق الإيطالي أثبتت: أن

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي ٣/٤٤ إلى ٥١.

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي ٣/٤٨.

(يحيى النحوي) لم تكتحل عيناه بالفتح الإسلامي، فقد أغمضهما الموت قبل وصول (عمرو بن العاص) إلى مصر بأكثر من ربع قرن[1].

ثانياً - إن الإجراءات التي اتخذت في حرق مكتبة الإسكندرية كما جاء في هذه الأسطورة، لا يمكن أن يتخذها رجل عاقل حازم مثل عمرو بن العاص، فهي إجراءات لا تؤمن الغرض الذي من أجله صدر أمر الخليفة بحرقها كما يزعم هذا الخبر؛ وهي إجراءات لا تصدر إلا من أحمق ساذج، فأي منطق يصدق: أن عمر بن العاص الذي أمر بإعدام هذه الكتب خوفاً مما يترتب على انتشارها - وزع هذه الكتب على حمامات مصر التي بلغت كما يقول المؤرخون أربعة آلاف حمام، وأن حمامات مصر استمرت تحرق الكتب ستة شهور!! فمن الذي يضمن عدم تسلل الأيدي إلى حمامات مصر لتأخذ منها ما تريده؟! فأين هذا الإجراء من ذكاء عمرو بن العاص وحزمه ودهائه؟.

أما متى روي هذا الخبر؟ فهذا الخبر قد سمع في القرن السابع الهجري - وأما مصدر هذا الخبر فمجهول. ولقد حاول جماعة من المؤرخين المتأخرين أن يرجعوه إلى (إسحاق الراهب) .. بيد أن (ابن النديم) تكلم عن إسحاق الراهب ونقل عنه خبر إنشاء مكتبة الإسكندرية في عهد (بطولاماوس) ولم ينقل عنه خبر حرقها[2]. ومن بين الذين لم يُجْدِهم البحث عن المصدر جرجي زيدان نفسه، فلقد قال بكل صراحة [بقي علينا البحث عن المصدر الذي نقل عنه (ابن القفطي). والغالب أنه عين المصدر الذي نقل عنه (عبداللطيف البغدادي)، ولكن لسوء الحظ قد ضاعت تلك المصادر في جملة ما ضاع من مؤلفات العرب][3].

---

(١) تاريخ عمرو بن العاص لحسن إبراهيم، ص ١٤٧.

(٢) فهرست ابن النديم ص ٣٣٤ و٣٥٦ - وفيما جاء في الفهرست اضطراب يظهر في قول ابن النديم في تفسير يحيى النحوي لكتاب السماع الطبيعي وتاريخه بالنسبة لعصر يحيى النحوي.

(٣) التمدن الإسلامي ٣/٤٤ وما بعدها.

إذن (ابن القفطي) الذي عاش بين سنة ٥٦٨ وسنة ٦٤٦[١] هـ، و(عبداللطيف البغدادي) الذي عاش فيما بين سنة ٥٥٧ وسنة ٦٢٩[٢] هـ. هما أول من ذكر هذا الخبر. ويصر جرجي زيدان على أن (ابن القفطي) هو مصدر (ابن العبري) المتوفى سنة ٦٨٤؛ ليزيل الشبهة عن هذا الخبر، حيث قال: [وإن حكاية إحراق مكتبة الإسكندرية لم يختلقها (أبو الفرج ـ ابن العبري) لتعصب ديني، بل هو نقلها عن ابن القفطي، وهو قاض من قضاة المسلمين]، ويصر جرجي زيدان: على أن هذا الخبر الذي لم يرد في كتاب (مختصر الدول) في النسخة السريانية لم يدسه أحد في نسخة الكتاب العربية. حيث قال: [فإغفال هذا الخبر في النسخة السريانية. لا يدل على أنه دخيل في النسخة العربية أو دسه فيها بعض المتأخرين كما توهم بعضهم][٣].

فجرجي زيدان، كما تراه في تحقيقه هذا: يعتمد على سمعته العلمية، فكلما ضاق ذرعاً بخلو يده من نص يؤكد رأيه، فرض ظنونه فرضاً. فهو يفرض: أن المؤرخين جميعهم اتفقوا على محو هذا الخبر، ويفرض: وجود مصدر لهذا الخبر ضاع مع ما ضاع من مؤلفات العرب، ويفرض: وجود نص غير مؤلف (كشف الظنون) عن إعدام كتب فارس، يفرض: أن (ابن القفطي) هو مصدر (ابن العبري) ويفرض أن: (ابن العبري) أغفل هذا الخبر في نسخة كتابه (مختصر الدول) السريانية عمداً وأنه ذكره في النسخة العربية عمداً!!

على أنه سواء كان (ابن القفطي) هو: مصدر (ابن العبري)[٤] أم كان (عبداللطيف البغدادي) هو: المصدر، فإن الرجلين متعاصران. وإن كلا الرجلين لم يذكر لنا مصدراً

(١) راجع ترجمة ابن القفطي في هذا الجزء.

(٢) راجع ترجمة عبداللطيف البغدادي في هذا الجزء.

(٣) التمدن الإسلامي ٣/٤٩.

(٤) راجع ترجمة ابن العبري في هذا الجزء.

غير تلك الشائعات التي كانت تذاع ضد العرب في القرن السابع .. وفي القرن السابع تضعضع الموقف العربي واهتز إزاء حملات العناصر التي تألبت على العرب وسيطرت على مقدرات البلاد العربية.

هذا هو أساس تلك الأسطورة ومصدرها. أما مكتبة الإسكندرية وتاريخها والأحداث التي حاقت بها قبل الفتح الإسلامي، وهل كانت مصر البيزنطية مورداً من موارد رواد الثقافة العربية والمؤلفين في التاريخ؟ فلهذا الموضوع بحث خاص يأتي في هذا الجزء.

٥- وأما الحيثيات التي بني عليها الاعتقاد بأن العرب المسلمين أحرقوا مكتبة الإسكندرية فنقاشها ضروري للبحث لما في تلك الحيثيات من قضايا تاريخية تترتب على حقيقتها نتائج ذات شأن في بحث: التاريخ العربي ومصادره كما قلت من قبل.

أولاً: لقد حرص جرجي زيدان وغيره من مروجي هذه الأسطورة على أن يقدموا لها حيثيات ذات سمات علمية تبعث على الثقة فيها؛ ولذلك نراه: يستغل الصفات التي كان يتمتع بها القاضي الأكرم جمال الدين القفطي، ويحرص على إبرازها في سياق كلامه عن حرق مكتبة الإسكندرية، ونرى أيضاً : أن هذه الصفات لا تكفي لأن تكون دليلا لا ريب فيه يؤكد: صحة كل ما وصل إلى مسامع (ابن القفطي) فسجله فيما سجله: فلا بد للمؤرخ الذي يكتب عن قضية من قضايا الماضي من نص يعتمد عليه، لا سيما أن هذا الخبر لم يتحدث عنه مؤرخ من قبل مطلع القرن السابع من الهجرة. والقرن السابع مليء بالفواجع. ففيه انتهت الخلافة العباسية على أيدي التتاريين، وفيه برزت العواقب الوخيمة للانقسام العنصري والانفصال السياسي اللذين منيت بهما الإمبراطورية العربية، واستسلم آخر معقل للخلافة العباسية، فلا يستبعد عن أحداث هذا القرن: أن تذاع في غمرتها الشائعات عن الدولة العربية ، وتؤلف ضدها الأساطير، وتنسب إليها مثالب هي منها براء، ولا يستبعد عن ابن القفطي: أنه سجل

هذا الخبر ببراءة المؤرخين الذين كانوا حريصين على تسجيل كل ما يسمعونه على علاته ـ وما أكثر علات هذا الخبر!!

ولقد صدّر جرجي زيدان حيثيات اعتقاده في هذه الأسطورة، بالإشارة إلى ما سبق عن التدوين وتعلق الظنون بظاهر النصوص، وما سبق عن التدوين وضع الحقيقة تحت الشمس فليس فيما ورد عن التدوين ما يؤكد هذه الأسطورة، فالمسلمون لم يحرقوا أسفار اليهود، بل إنهم أخذوا عنها فيما يعود إلى التاريخ القديم.

ثانياً: ولم يقدم جرجي زيدان نصاً يعتمد عليه في قوله: إن مؤرخي الفتح الإسلامي ذكروا خبر الحريق ثم حذفوه، وإنما قدم ظناً بدون دليل [وبعد معرفة المسلمين قدر الكتب استبعدوا حدوث ذلك في عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه] وهذا الظن لم يقنع جرجي زيدان نفسه حيث قال متحمساً متعصباً لظنه: [وعلى كل حال فقد ترجح عندنا صدق رواية أبي الفرج الملطي][1]!!

فمن هم المؤرخون الذين حذفوا هذا الخبر؟ هل هم أولئك الذين ذكروا ما فعله (أبو بكر الصديق) بالأحاديث الخمسمائة، وذكروا عدول (عمر بن الخطاب) عن تدوين السنن إلى غير ذلك مما تحدث به مؤرخو الثقافة الإسلامية؟! إن هؤلاء المؤرخين الذين قدموا لنا النصوص الواردة في التدوين والمدونات لا يمكن أن توجه إليهم تهمة إخفاء حقيقة تاريخية كهذه، فالذين لم يخفوا غضب رسول الله عليه السلام من عمر بن الخطاب ـ عندما قال له: يارسول الله؛ هذا كتاب انتسخته لنزداد به علماً إلى علمنا ـ حريّ بهم ألا يخفوا أمراً أصدره عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص.

وأيّ منطق يقنع بأن المؤرخين جميعهم تضامنوا طيلة هذه القرون الستة على حذف خبر بعيد عن السرية مثل حرق كتب في حمامات الإسكندرية دام ستة أشهر؟!

---

(١) التمدن الإسلامي ٤٩/٣.

والمؤرخون كما عرفناهم من تراجمهم. منهم: المسلم، واليهودي والمسيحي، ومنهم العربي والعجمي والسني، والشيعي والأموي والعباسي، والعدناني والقحطاني، ومنهم: من عاش في أقصى الشرق الإسلامي ومنهم من عاش في أقصى الغرب الإسلامي.

ثم ما هو السبب في (صهينة) المؤرخين المسيحيين. مثل البطريق (أوتيخوس) مؤرخ الإسكندرية. و (يوحنا أسقف نقيوس) المؤرخ الذي كتب عن فتح مصر في القرن السابع من الميلاد؟ فهل كانا من المؤرخين المسيحيين الذين يفرض جرجي زيدان تضامنهم مع المؤرخين المسلمين في حذف هذا الخبر تستراً على التاريخ الإسلامي؟

ثالثاً: ولما لم يجد جرجي زيدان: نصّاً يؤكد ما قاله (حاجي خليفة) المتوفى سنة ١١٤٠هـ[١] عن كتب فارس: قال: [لا بد لهذا الخبر من أصل نقل عنه صاحب (كشف الظنون)] ثم استشهد بقول نسبه إلى (ابن خلدون): [فأين علوم الفرس التي أمر عمر ابن الخطاب بمحوها]. وعزاه إلى صحيفة (اثنتين وثلاثين) من الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون. ولقد رجعت إلى النسخة التي في مكتبتي والتي علق عليها الأمير (شكيب أرسلان) طبع مطبعة النهضة. فلم أجد في الصحيفة التي تحمل هذا الرقم في الجزء الأول وفي الجزء الثاني ولا في الصفحات التي قبلها ولا التي بعدها في الجزأين أثراً لهذا القول!! .. بيد أني وجدت في تاريخ (عمرو بن العاص) نقلا عن مقال في مجلة (الهلال) كتبه (شبلي أفندي النعمان). جاء في كلامه عن حرق مكتبة الإسكندرية: حتى قال بعضهم: [إن ابن خلدون ذكر هذا أيضاً. يعني حريق مكتبة الإسكندرية. أما ابن خلدون فتاريخه متداول بيننا وكل من اطلع عليه يعلم: ألاّ ذكر لهذه الحادثة على الإطلاق][٢]. ولسوف يأتي بحث خاص بكتب فارس.

---

(١) راجع ترجمة حاجي خليفة في هذا الجزء.

(٢) تاريخ عمرو بن العاص لمؤلفه حسن إبراهيم حسن ص ١٤٣.

فما أكثر ما تنسب التحقيقات السطحية إلى مصادرنا ما ليس فيها؛ اعتماداً على نظرة خاطفة لم تصل إلى حقيقة الموضوع. وما أكثر حاجة الباحث إلى التثبت. أما القارئ العادي ففي ذمة المؤلفين[1] !!

رابعاً: ولقد اتخذ جرجي زيدان مما يقال عن أن (عبدالله بن طاهر) أعدم مؤلفات مجوسية كانت لا تزال باقية إلى أيامه سنة ٢١٣هـ، ثم أصدر أمراً إلى الأطراف يقضي بإعدام كل ما وجد من كتب المجوس: دليلاً على أن حرق الكتب كان شائعاً في تلك العصور تشفياً من عدو أو نكاية فيه.

وهذا الدليل. كما تراه. لا يؤكد خبر حرق مكتبة الإسكندرية، بل هو ينفيه؛ فلو أن (عمر ابن الخطاب) أمر (عَمْرَبن العاص) أولا، و (سعد بن أبي وقاص) ثانياً: بإعدام كتب البطالسة في مصر وكتب الفرس في العراق. لاتخذ المسلمون هذا الأمر قاعدة عامة، ولما بقيت كتب المجوس إلى سنة ٢١٣هـ، فأفعال (عمر بن الخطاب) وأوامره ما زالت حتى اليوم تشريعاً تسير عليه أحكام القضاة وتتقيد به الإدارة الإسلامية.

ثم إننا إذا ما سايرنا منطق هذا التحقيق الذي يفترض أن المسلمين حذفوا خبر حريق مكتبة الإسكندرية عندما نضجت العقلية الإسلامية، ثم أخذنا بهذا الدليل؛ فمعنى ذلك: أن العقلية الإسلامية لم تنضج إلى سنة ٢١٣هـ، حيث إن المسلمين ما زالوا يعدمون التراث القديم. وإن حذف خبر مكتبة الإسكندرية حدث بعد هذا التاريخ الذي أتلف فيه عبدالله بن طاهر كتب المجوس، فأين هذا من حقائق التاريخ؟!

خامساً: ويقول جرجي زيدان: إن سياسة تلك العصور الدينية كانت تعدّ هدم المعابد، وإحراق كتب أصحابها تأييداً للدين الجديد، فبدافع هذه السياسة أعدم

---

(١) الإسلام والحضارة الإسلامية ١/ ٢٠ وما بعدها، فقد جمع كرد علي أقوال كثير من المستشرقين الذين أثبتوا كذب هذا الخبر.

المسلمون كتب المسيحية والمجوسية في فارس ومصر.. وإن هذه السياسة سار عليها خلفاء المسلمين الذين كانوا إذا أرادوا اضطهاد المعتزلة وأهل الفلسفة أحرقوا كتبهم، وإن من أشهر الحوادث من هذا القبيل؛ ما فعله السلطان (محمود الغزنوي) سنة ٤٢٠هـ، فإنه قتل الباطنية ونفى المعتزلة وأحرق كتب الفلسفة والنجامة. وما يقوله جرجي زيدان لا تقره الحقائق التاريخية، فليس من سياسة الإسلام هدم المعابد، فهذه وصية (أبي بكر الصديق) لقائد أول جيش يجهزه أول خليفة : جيش (أسامة بن زيد). [لاتخونوا ولا تغدروا، ولا تغلّوا ولا تحتلوا، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً، وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له] .. وهذا عهد (عمر بن الخطاب) ثاني الخلفاء الراشدين، الذي تدور حوله أسطورة حرق مكتبة الإسكندرية، لأهل (إيلياء) : [أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملتها: أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا يتنقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم] هذا هو عهد (عمر بن الخطاب) الذي لم يرض: أن يؤدي الصلاة في كنيسة القدس خوفاً من أن يتخذ المسلمون مصلاه مسجداً ويتخذون من صلاته في الكنيسة قاعدة، فلا يجد الذميون في البلاد الإسلامية كنيسة يتعبدون فيها.

وهذه عهود قادة جيوش الفتوحات الإسلامية: (حذيفة اليماني) و (سويد بن مقرن) و (عتيبة بن فرقد) و (بكير بن عبدالله) وغيرهم في فارس وفي غير فارس ضمنت جميعها المحافظة على الأنفس والأموال والعقائد والمعابد.

وهذا عهد (عمرو بن العاص) لأهل (مصر): [هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وأموالهم وملتهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم. لا يدخل عليهم بشيء من ذلك ولا ينقص]. ولقد كان من شروط تسليم الإسكندرية منح البيزنطيين. عشرة شهور ليبحروا بكل ما يملكون في غضون هذا الأجل، ففي هذا

الشرط فرصة لم يهمل - البيزنطيون - اغتنامها أو يهملوا تراثهم العلمي كما رجح ذلك بعض المستشرقين الذين تأتي أقوالهم في البحث القادم.

وليس من سياسة الإسلام: تأييد مبادئه بحرق التراث العلمي، وليس ما فعله أمراء المقاطعات وسلاطين الدول الإسلامية مع الباطنية والمعتزلة والشيعة - هو: انتقام دين من دين. فكتب هذه الفرق ليست كتب دين آخر تدين به جالية تعيش في حماية الدولة الإسلامية، فإعدام المضلل من هذه الكتب، وردع المنحرف من أبناء هذه الفرق لا يعدّ انتصاراً للإسلام على غيره - وإنما كان إعدام هذه الكتب؛ لأنها تنشر آراء هدّامة حررتها أقلام مسلمة. وإنما كان ردع المنحرفين من المسلمين لخروجهم على المجتمع وعقائده، ومبادئه - وهذا هو مصير الآراء الهدامة ودعاتها في الدول الإسلامية، وفي غير الدول الإسلامية في الماضي وفي الحاضر، فحرية الرأي والقول والعمل: شرطها في كل زمان وفي كل مكان؛ ألا تكون منحرفة ضارة تنحرف بالمجتمع وتضلله، وألا تتعارض مع مبادئ الدول وشعارها. وألا تسبب الانشقاق على الدولة والانقسام في المجتمع، فالدستور الإسلامي الذي يحكم بإعدام المرتد يحافظ على حياة الذمي وحريته.

فما فعله السلطان (محمود الغزنوي) وما فعله (عبدالله بن طاهر) - تفعله دول العصر الحاضر مع كل من يحاول بلبلة العقائد وتضليل الجماهير والخروج على الدستور، بمبادئ تدعو للانفصال العقائدي، وتفعله أجهزة الإعلام والإرشاد القومي. أما الجاليات غير المسلمة فقد اشترط لها المسلمون على أنفسهم كامل الحرية في أداء طقوسها التعبدية ودراسة علومها الدينية، ولم يثبت على المسلمين أنهم نكثوا عهداً ألزموا به أنفسهم.

سادساً: ومن الأسباب التي أقنعت (جرجي زيدان) بصحة الخبر: [أن في تاريخ الإسلام جماعة من الأئمة المسلمين أحرقوا كتبهم من تلقاء أنفسهم. ومنهم (أحمد بن

أبي الحواري) الذي محا مدونّاته. وهو يبكي ويقول : نعم الدليل كنت لي على ربي فلما ظفرت بالمدلول فالاشتغال بالدليل محال].

إن (ابن الحواري) ليس هو أول من أحرق مدونّات خوفاً من مسئولية ما يترتب على بقائها، فلقد سبق إلى ذلك (أبوبكر الصديق) حيث أحرق الأحاديث التي دونها خوفاً من مسئوليتها[1]. وإن النص الذي أورده جرجي زيدان نفسه. يشهد على أن ما فعله (ابن الحواري) شيء وإحراق الثقافات شيء آخر؛ فهو يدل صراحة على أن مدونّات ابن الحواري كانت بحوثاً شائكة في حقيقة الله. والبحث في حقيقة الله خطر على عقيدة من لا يملك من المعرفة ما يملكه ابن الحواري. فلذلك لما ظفر ابن الحواري بالمدلول بادر بمحو الدليل الذي لا لزوم له ولا يؤمن خطره على غيره.

٦- هذه هي الأسباب التي أقنعت جرجي زيدان بالرجوع عن عدم التصديق بأسطورة إحراق مكتبة الإسكندرية. إلى التصديق بها. وما كنت أؤثر: أن أشغل هذا الحيز من هذا الجزء بتفنيد هذه الأسباب لو لم يكن فيها تشويه لحقائق التاريخ وإثارة الظنون حول مصادره، ولو لم يكن جرجي زيدان. الأستاذ في التاريخ العربي. هو صاحب هذا التحقيق. فلجرجي زيدان مكانته العلمية، وله آثار قيمة في التاريخ العربي قبل الإسلام، ما زالت مرجعاً يرجع إليها الباحثون في التاريخ.

فإذا كنا نجد جرجي زيدان المؤرخ الواسع الاطلاع، يحقق موضوعاً بمثل هذه السطحية لسبب من الأسباب. فما حال تحقيقات الذين دون مستوى جرجي زيدان العلمي؟! وما هي حقيقة التحقيقات التي هي أقل قيمة من هذا الموضوع الذي تترتب على نتيجة التحقيق فيه مسائل لها قيمتها في التاريخ العربي الإسلامي؟

لذلك تراني أكرر القول : بأن التحقيق لا يكون علمياً، ما لم يكن بعيداً عن الخيال وأعمق من الظنون، وما لم يكن متواضعاً لا يعتمد على الشهرة الأدبية ولا يغالي في

---

(١) راجع البحث المتقدم: التأليف في التاريخ وكراهية التدوين، **تاريخ التمدن الإسلامي** ٣/ ٥٠ و ٥١.

الثقة بالنفس والاعتماد على منطقه فيفرضه فرضاً كما فرض جرجي زيدان آراءه وظنونه في هذا التحقيق فرضاً؛ فلا بد للنفي أو الإثبات : أن يعتمد على نص يؤكد : الشك أو اليقين.

وما كان بعيداً على جرجي زيدان؛ لو أنه تعمق في البحث : الوصول إلى حقائق تاريخ مكتبة الإسكندرية ، ومن اعتدى عليها قبل الإسلام بالحرق والنهب؟ وماذا وجد العرب المسلمون فيها بعد أن نزح عن الإسكندرية الروم حاملين كل ما هو ثمين يعتزون به - في غضون عشرة أشهر بحسب شروط التسليم؟ .. إلى غير ذلك مما سنتكلم عنه في البحث الآتي - هل كانت مصر البيزنطية ـ مورداً لرواد الثقافة العربية؟

الفصل السابع

مناهل رواد الثقافة

١- لم تكن مصر في فجر الإسلام موردًا لرواد الثقافة العربية.

٢- ماذا وجد رواد الثقافة في العراق وبلاد فارس.

٣- القسطنطينية لم تبخل بذخائرها.

٤- السريانية والسريانيون.

البحث الأول

لم تكن مصر بعد الفتح الإسلامي مورداً لرواد الثقافة العَربية

من موضوعات البحث :

١- السؤال الذي فرضه البحث المتقدم يأتي جوابه خاتمة لهذا البحث.

٢- تاريخ مكتبة الإسكندرية.

٣- نوع الثقافة التي جمعتها المكتبة الملكية ومكتبة السيرابيوم.

٤- الاعتداء على مكتبة الإسكندرية كان قبل الفتح الإسلامي.

٥- تحقيقات المستشرقين فيما أصاب مكتبة الإسكندرية بعد الفتح الإسلامي.

٦- البيزنطيون لم يغفلوا عن مكتبة الإسكندرية إبان الفتح الإسلامي وقبله.

٧- الجواب عن السؤال.

لم تكن مصر بعد الفتح الإسلامي مورداً لرواد الثقافة العَربية

١- إن حقيقة ما قيل عن مكتبة الإسكندرية وإن (عَمْرَ بن العاص) أحرق كتبها بأمر (عمر بن الخطاب) قد ظهرت في البحث المتقدم واضحة لا غبار عليها، وإن تلك الحقيقة التي ظهرت في البحث المتقدم تفرض علينا في هذا البحث: أن نجيب عن هذا السؤال: هل كانت مصر بعد الفتح الإسلامي مورداً نهل منه رواد الثقافة العربية الإسلامية؟

والجواب عن هذا السؤال؛ يلزمنا بالرجوع إلى تاريخ مكتبة الإسكندرية: متى أسست؟ وما نوع الثقافة التي جمعت فيها؟ . وما نوع النكبات التي منيت بها؟

٢- إن تاريخ مكتبة الإسكندرية مرتبط بتاريخ الإسكندرية، ومدينة الإسكندرية ليست من المدن الغارقة في القدم. وإن كان الإسكندر قد شيدها على أطلال عمران قديم نسبه (المسعودي) و (الطبري) إلى العماليق[1]. فمدينة الإسكندرية المعروفة هي: من آثار الإسكندر المقدوني، والإسكندر المقدوني اعتلى عرش أبيه سنة ٣٣٦ق.م.

٣- وإن مما تستبعده الظنون: أن تكون مدينة الإسكندرية قد حوت مع ما حوته. الثقافة الفرعونية، فأكثر ما عرفه الباحثون عن الثقافة الفرعونية عرفوه من الآثار التي اكتشفت في العصور الأخيرة، ولقد جاء عن ثقافة الفراعنة في كتاب قصة الحضارة: [ويرجح: أن لغتهم جاءت من آسية وشاهد ذلك. أن أقدم نماذج منها بينها وبين اللغات السامية شبه كبير][2]. ولقد كان قدامى المصريين يستعملون الخط

---

(١) الجزء الأول من هذا المؤلف ١/٣٠٤.

(٢) قصة الحضارة ٢/١٠٧.

(الهيروغليفي) وكان الكهنة هم : أول من مسخ الكتابة الهيروغليفية، بما أسماه اليونانيون بالكتابة (الهيراطية) المقدسة[١]، فمعظم ما بقي من آداب مصر القديمة مدونة بالكتابة الهيراطية[٢]. فبفضل الكشوف الأثرية عرف الباحثون في الحضارات : أن قدامى المصريين كانت لهم دور كتب وخزنة عليها. فقد كتب على قبر موظف كبير في الأسرة الرابعة: أنه كاتب (دار الكتب) كما عرفوا مكتبات يرجع تاريخها إلى الألف الثاني قبل الميلاد ـ وجدت مدونة على (برديات) ومحفوظة في (جرار) معنونة ومصفوفة على رفوف[٣].

فهذا الذي عرفه الباحثون اليوم بفضل الآثار التي اكتشفت أخيراً ـ لم يعرف عنه الروّاد اليونانيون ـ غير قليل فيه كثير من الغموض. وما عرفه القدامى اليونانيون وغيرهم لم يصمد أمام الزحف الثقافي اليوناني، ومن بعده البيزنطي في ميدان الصراع الذي فرضه ناموس التطور الحضاري منذ الأزل، ذلك الصراع الذي كانت (مصر) من فجر تاريخها مجالاً له، فالصراع العسكري على وادي النيل الذي استمر من قبل حكم العماليق إلى ما بعد عصر الإسكندر، أفسح المجال للصراع الحضاري .. ومن الحقائق المسلم بها : أن الحضارات تتأثر بنتائج الصراع السياسي، فلا مفر للمغلوبين على أمرهم من إفساح المجال للجديد الوافد عليهم مع المنتصرين، ولا عاصم للغالبين من انطباعات تغير شيئاً من طباعهم وتفكيرهم، وطرق معالجتهم للقضايا والمشكلات. وإنما يتفاوت الأخذ والإعطاء بين الغالب والمغلوب بتفاوت التقدم الحضاري. ومن هذا الاختلاط يحدث التطور في كل جانب من جوانب الحياة.

فالحضارة الفرعونية التي تبلورت من مجموعة عناصر : سامية ـ عربية وفدت عليها من الجزيرة العربية، وأوربية وفدت عليها من البحر المتوسط، وبربرية أتت من

---

(١) قصة الحضارة ٢/١٠٩ .

(٢) المصدر نفسه ٢/١١٠ .

(٣) المصدر نفسه ٢/١١٠.

غرب وادي النيل، ونوبية جاءت من الجنوب، لم يعصمها قدمها من الزحف الثقافي في عصر البطالسة. ولو لم تحتفظ مقابر الفراعنة بتلك النماذج التي تمثل الأدب الفرعوني؛ لما وضحت نوعية ثقافة العصور القديمة في مصر.

فمن هذا يتضح : أن مكتبة الإسكندرية لم تحتو على ثقافة فرعونية مادة ولغة وأسلوباً، وأن ما وجد منها تلون بلون الأدب الإغريقي والبيزنطي، فأكثر ما حوته هو: من إنتاج الفكرين اليوناني والبيزنطي. وإذا صح ما رواه (ابن النديم) في الفهرست: أن الإسكندر المقدوني نقل علوم فارس إلى اللسان الرومي والقبطي وبعث بها إلى مصر[1]، فإن النواة الأولى في مكتبة الإسكندرية ـ هي : المدونات التي جمعها الإسكندر من الأقطار التي غزاها ، وأودعها مصر.

٤- وفي تاريخ مكتبة الإسكندرية مآسٍ ـ تحدث عنها المؤرخون آسفين، لما أصاب ذخائرها من تدمير. فلقد تحدّث المؤرخون عن الحريق الذي اشتعل في هذه المكتبة ـ أولا : في عهد (يوليوس قيصر) سنة ٣٧ ق.م وثانياً في حكم (طيودوس) بأمر الأسقف ـ (تيوفيل) سنة ٣٩١ ميلادية[2]. ولقد تحدث مؤلف (تاريخ الروم وصلاتهم بالعرب) عن أزمة المعلمين في مطلع القرن الثالث من الميلاد فقال: [ولا يخفى أن أساتذة المتحف الإسكندري العظيم قد حرموا المخصصات اللازمة منذ أوائل عهد (كركلا) سنة ٢١١م، وأن هذا الإمبراطور الغاشم كان قد طرد من الإسكندرية : العلماء الغرباء عنها]. وتحدث عن جنود (زينب ـ الزباء) وما فعلوه بالمتحف الإسكندري العظيم: [ولا يخفى أن جنود زينب عندما دخلوا الإسكندرية ظافرين سنة ٢٧٠م نهبوا وحرقوا المباني العمومية التي كانت تحيط بقبر الإسكندر واتسع التخريب حتى لم ينج منه المتحف العظيم][3].

(١) راجع الفصل الآتي في هذا الجزء تحت عنوان : ماذا وجد رواد الثقافة في بلاد فارس؟.

(٢) تاريخ عمرو بن العاص لحسن إبراهيم ، ص ١٣٧ و ١٤٩.

(٣) تاريخ الروم وصلاتهم بالعرب ١٤٢/١.

وجاء في (دائرة المعارف الفرنسية) : [أن مجموعة المؤلفات التي كانت في (السيرابيوم) [1] قد أحرقها النصارى في القرن الرابع الميلادي].

٥- هذا ما أصاب مكتبة الإسكندرية قبل الفتح الإسلامي. أما ما أصابها بعد الفتح فهناك تحقيقات المستشرقين التي أشرنا إليها في البحث المتقدم. لم يشعل العرب المسلمون النار في التراث القديم .. ومما جاء في تحقيقات المستشرقين ما نقله (غوستاف لوبون) عن (لودفيك) عندما ناقش رواية (عبداللطيف البغدادي). عن أسطورة إحراق كتب مكتبة الإسكندرية بأمر (عمر بن الخطاب) [فلا نرى حاجة إلى العودة إليها لتكذيبها . ولا أسهل من الاستشهاد على ذلك بإيراد أقوال كثيرة جلية تثبت :أن المسيحيين كانوا أعدموا الكتب الوثنية التي بالإسكندرية قبل العرب بزمن طويل وكسروا كل التماثيل] [2]. وعندما تحدثت (دائرة المعارف الفرنسية) عن هذه الأسطورة قالت: [أما الكتب التي بقيت في مكتبة (السيرابيوم) بعد الذي أعدمه النصارى في القرن الرابع الميلادي. فقد أهملت وعبثت بها أيدي الترك حينما جاءوا الإسكندرية سنة ٨٣٨، فخربوا كل الآثار، وتطاولت أيديهم إلى ما كان بالمتحف من الكتب المهجورة المهملة] . ولقد علق على ما جاء في دائرة المعارف الفرنسية (حسن إبراهيم) بقوله: [وهو كلام لم يقم عليه دليل، ولا يؤيده نقل. ولعل المقصودين في هذا الخبر هم القائمون بأمر (الدولة الطولونية)] [3] ومن الواضح، أن الترك أو الطولونيين ليسوا من جنود عمرو بن العاص وليسوا من دول صدر الإسلام.

وعلق (لكلرك) في المجلة العلمية الفرنسية على رأي (سيديو) في موضوع مكتبة الإسكندرية بقوله : [نأسف إذا خالفنا مسيو (سيديو) إذ من المحقق: أن هذه المكتبة لم

---

(١) تاريخ عمرو بن العاص ، ص ١٤١.

(٢) تاريخ عمرو بن العاص ١٣٩ و ١٤٠.

(٣) المصدر نفسه ص ١٤١ .

تكن موجودة وقت الفتح الإسلامي][1] وجاء في كلام (بطلر) : [إذا كانت هناك مؤلفات ذات قيمة علمية يقدرها مثل : (يوحنا) فمن المرجح: أن تكون قد حملت إلى (القسطنطينية) . وقد أيد (بطلر) رأيه بما ذكره (أورازيوس): أنه وجد رفوف المكتبة خالية من الكتب في سنة ٤١٤م، وذلك؛ لأن المسيحيين كانوا أتلفوها في نهاية القرن الرابع من الميلاد][2] .

ويقول (جيبون) بعد تكذيبه هذا الخبر : [إذا كانت هناك مؤلفات قد ضاعت أو أحرقت، فإنها مؤلفات وضعت في جدل تافه شغلت به مدرسة الإسكندرية بين (الآريوسيين) وبين أصحاب الطبيعة الواحدة (الخلقدونية) فإحراق هذه المؤلفات خدمة بشرية تسر كل عاقل][3] .

وجاء في (دائرة المعارف الإسلامية) : [لما سلمت الإسكندرية للعرب سنة ٢١هـ (سنة ٦٤٢م) استفاد عدد كبير من اليونانيين من شروط التسليم وغادروا ديارهم فيها ، ولم يضايق العرب سكان هذه المدينة عند استيلائهم عليها ـ كما أننا لا نستطيع : أن نسلم بصحة القصة المشهورة التي تزعم أن مكتبتها العظمى قد أحرقت بأمر الخليفة (عمر بن الخطاب) في ذلك العهد][4] .

وقال (أرفانيتاكي) : [وحريق مكتبة الإسكندرية ـ مختلف فيه الآن ، فقد قرر الكثيرون : أن المكتبة الملكية ومكتبة السيرابيوم كلتيهما ـ ما كانتا تنتظران غزو العرب لقصد إفنائهما. وفرض هؤلاء: أن عدداً كبيراً من الكتب المنسوخة بخط اليد كان قد

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣٩.

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٧ و١٣٨.

(٣) تاريخ عمرو بن العاص .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ١٣٧/٢ مادة الإسكندرية .

نقل إلى بيزنطة حين حاصر عمرو الإسكندرية][1] . ولقد ذكر (كرد علي)[2] إجماع : (أرنست رنان) و (آلبرسيم) و (فوت) و (أهلويلر) و (مسبرك) و(إستيفونس) و(غريغيني) و (بونه موري) ـ على أن العرب ليسوا هم الذين أحرقوا مكتبة الإسكندرية.

فهذه التحقيقات التي قام بها المستشرقون؛ تجمع على أن الاعتداء على المكتبة الملكية، ومكتبة السيرابيوم تكرر قبل الفتح الإسلامي، وتجمع على أن أسطورة إحراق مكتبة الإسكندرية في ولاية عمرو بن العاص ـ لم يقل بها المؤرخون الإسلاميون وغير الإسلاميين في داخل الدولة الإسلامية وفي خارجها قبل القرن السابع من الهجرة، وأن الذين رووا هذه الأسطورة، وهم : البغدادي والقفطي وابن العبري ومن جاء بعدهم لم تعتمد روايتهم على نص يؤكدها. وقد أوضحنا في البحث المتقدم حقيقة هذه الأسطورة .. وها نحن أولاء نجد بحوث المستشرقين تكاد تجمع على أن (عَمْرَ بن العاص) لم يمس مكتبة الإسكندرية ومبانيها ـ بسوء؛ فعندما قال (سيديو) : ولم يكن في الإسكندرية من هذه الدار إلا حوائط لم يأمر عمرو بهدمها إلا على أثر هياج السكان ـ لم يستسغ قوله (لكلرك) فعلق عليه : [نأسف إذا خالفنا مسيو (سيديو) إذ من المحقق أن هذه المكتبة لم تكن موجودة في وقت الفتح][3] .

وتذهب دائرة المعارف الفرنسية .. إلى أن ما بقي من الكتب التي نجت من اعتداء ما قبل الفتح الإسلامي، بقيت مهملة إلى أن عبثت بها أيدي الترك سنة ٨٣٨م[4] . وما ذهبت إليه دائرة المعارف الفرنسية على ما فيه من أخطاء أشار إليها (حسن إبراهيم حسن) ـ يؤكد : أن عَمْرَ بن العاص لم يحرق كتب مكتبة الإسكندرية وأن ما أبقاه البيزنطيون من كتب تافهة بقي مهملاً إلى سنة ٨٣٨م/ سنة ٢٢٤هـ.

---

(١) تاريخ عمرو بن العاص ، ص ١٤١.

(٢) الإسلام والحضارة ١٩/١.

(٣) تاريخ عمرو بن العاص ١٢٩.

(٤) المصدر نفسه ص ١٤١.

٦- فما جاء في هذه التحقيقات عن استفادة البيزنطيين من شروط التسليم في نقل ذخائرهم من الإسكندرية ـ تعززه أدلة كثيرة؛ فالروم المعتزون بالقسطنطينية لم يغفلوا التراث العلمي الموجود في مكتبة الإسكندرية بعد تلك النبكات التي منيت بها مكتبة الإسكندرية قبل الفتح الإسلامي، فهم ولا شك قد أدركوا ما سوف يؤول إليه سلطانهم في مصر بعد زوال سلطانهم من سوريا، فلم يتأخروا عن نقل نفائس متحف الإسكندرية ومكتبتها إلى عاصمتهم ـ قبل الفتح الإسلامي وفي أثنائه؛ فلم يتركوا فيها غير الحثالة من بحوث مذهبية تافهة لم يأسف (جيبون) لضياعها.

على أنه سواء صدقنا بتلك الأسطورة التي كذبتها الحقائق التاريخية، أم لم نصدق، فإن ما أجمعت عليه الأقوال ـ هو: أن مكتبة الإسكندرية في عهد الفتح الإسلامي خلت رفوفها من التراث الثقافي القديم لتملأها الثقافة الإسلامية العربية.

٧- فعلى ذلك: أن الجواب عن السؤال الذي طرحناه في بداية هذا البحث: هل كانت مصر بعد الفتح الإسلامي مورداً نهل منه رواد الثقافة العربية الإسلامية؟ لا يمكن أن يأتي بغير النفي: لم تكن مصر مورداً من الموارد التي نهل منها مؤسسو الثقافة الإسلامية وواضعو نواة التاريخ!

البحث الثاني

ماذا وجد روّاد الثقافة في العراق وبلاد فارس ؟

من موضوعات البحث :

١- لأسطورة مكتبة الإسكندرية أخت – موضوعها : كتب فارس.

٢- البحث عن الحقيقة فيما جاء في المصادر عن كتب فارس.

٣- من المستبعد أن يكون الإسكندر المقدوني أحرق مدوَّنات فارس.

٤- دولة فارس الأولى.

٥- الفهلوية الساسانية أرغمت على الخضوع للغة السريانية وخطها.

٦- حصون التراث الفارسي.

٧- التراث العلمي الذي وصل إلى أيدي الرواد أقل مما كانوا يأملون.

٨- المؤرخون العرب لا يُعَرّفون القارئ بمن ينقلون عنه.

٩- أين ظهر التراث الفارسي في إيران؟

١٠- الخوف على المدونات العلمية استمر إلى ما بعد الإسلام.

١١- لقد تدارك الساسانيون ما يمكن تداركه من معارف الفرس القديمة.

١٢- حران، والحيرة، والرها، وأنطاكية، وجندسابور – هي المظان التي بحث فيها الرواد العرب عن التراث العلمي.

١٣- من أثمن ما نقل إلى العربية (خداي نامه).

١٤- الجواب عن السؤال الذي عنون به هذا البحث.

ماذا وجَد روّاد الثقَافة في العراق وبلاد فارس ؟

١ - جدير بنا قبل أن نجيب عن هذا السؤال : ماذا وجد رواد الثقافة في العراق وبلاد فارس؟! : أن نتحدث عن حقيقة الرواية التي اعتمد عليها أنصار الرأي القائل بأن العرب المسلمين كانوا حرباً على الثقافات غير الإسلامية ، فإن لأسطورة إحراق العرب المسلمين مكتبة الإسكندرية أختاً : موضوعها مكتبات فارس، وقد أخرنا الكلام عن مكتبات فارس إلى هذا البحث.

ففي هذه الأسطورة رواية تقول: إن (سعد بن أبي وقاص) كتب إلى (عمر بن الخطاب) في شأن كتب فارس - بمثل ما كتب له (عمرو بن العاص) في شأن كتب مصر . وأن (عمر بن الخطاب) أمر (سعداً) ـ بمثل ما أمر به (عَمْراً) ـ اطرحوها في الماء، فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله تعالى بأهدى منه وإن يكن ضلالا فقد كفانا الله تعالى؛ فطرحها المسلمون في الماء والنار فذهبت علوم فارس!![1].

وهذه الرواية انتهى سندها إلى (حاجي خليفة) فحاجي خليفة ـ هو : ناقل هذه الرواية ومصدرها. ولقد سبق في بحث (المسلمون لم يشعلوا النار في تراث القدامى) أن بينًا حقيقة هذه الرواية وقيمتها - كما وضحنا حقيقة أسطورة مكتبة الإسكندرية.

٢ - بيد أن البحث في مصير كتب فارس يختلف عن البحث فيما آلت إليه مكتبة الإسكندرية - فالجواب عن السؤال عن كتب فارس، يختلف عن الجواب عن السؤال عن كتب الإسكندرية ، وإن كان هذا السؤال يحتم علينا أيضاً الرجوع إلى التاريخ الثقافي في العراق وفارس، والمصادر التي ذكرت المدونات الفارسية ، كما حتم علينا السؤال عن مكتبة الإسكندرية: الرجوع إلى تاريخها.

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي ٣/٤٩.

أولاً: المصادر العربية ـ من المصادر التي تعرضت لتاريخ الثقافة الفارسية وتراثها : (فهرست ابن النديم)، فلقد نقل ابن النديم خبراً جاء فيه : فقد ذكروا : [أن (الإسكندر الأكبر) لما فتح (إصطخر) عاصمة الفرس، خرب أبنيتها وأتلف ما كان في صنوف البناء من أنواع العلم الذي كان منقوشاً مكتوباً في صخور ذلك وخشبه، ونسخ ما كان مجموعاً من ذلك في الدواوين ـ والخزائن بمدينة (إصطخر) وقلبه إلى اللسان الرومي والقبطي ـ ثم أحرق بعد فراغه من نسخ حاجته منها، ما كان مكتوباً بالفارسية، وكتاباً يقال له: (الكشتج)، وأخذ ما كان يحتاج إليه من علم النجم، والطب، والطبائع، فبعث بتلك الكتب وسائر ما أصاب من العلوم والأموال والخزائن والعلماء إلى بلاد مصر[1].

٢- وفيما جاء في الفهرست ـ ثغرات، فمنه ما لا يتفق مع ما عرف عن (الإسكندر) تلميذ (أرسطو) وعن تقديره المعارف وحبه لها؛ تقديراً وحباً جعلاه يصطحب معه رجال العلم والفكر، فرجل على مثل ذلك المستوى العلمى، لا يقدم على مثل هذا الانتقام الأهوج، ولو صح: أنه هم بذلك، فمسئولية السكوت على إحراق أصول تراث علمي لا يجهلها العلماء الذين كانوا في معية الإسكندر ـ ولو فرض: أن العلماء سكتوا، أو أرغموا على السكوت، لم يفلحوا في إنقاذ تراث فارس العلمي، وقبلنا خبر نقل تلك العلوم إلى اللغتين: اليونانية والقبطية، فعلينا: أن نقدر الزمن الذي يحتاج إليه نقل علوم لها مصطلحاتها من لغة إلى لغة ـ إذا كان الغرض من نقلها إلى اللسانين القبطي واليوناني ـ هو : الاحتفاظ بجوهرها والاستفادة منها؟! ونحن مهما اختصرنا في الزمن الذي يحتاج إليه النقل، فإنه على كل حال أطول مما جاء في ذلك الخبر عن إحراق مدينة ـ (إصطخر)[2].

---

(١) الفهرست ، ص ٣٣٣.

(٢) **تاريخ الإسكندر للخانجي** ، ص ٤٠ و١١٣.

ثانياً: إن خبر الكارثة التي أنزلها الإسكندر بمدينة (برسيوس) التي أطلق عليها العرب: اسم (إصطخر) متواتر، وخبر متواتر لا يمكن للبحث تجاهله، فقد جاء في كثير من المصادر ـ غير العربية: أن الإسكندر أحرق المدينة ـ ويقول بعضها : إنه أحرقها ـ انتقاماً لمدينة (أثينا) التي أحرقها الملك الفارسي (أكزركسيس)، وإن الإسكندر أحرق مدينة (إصطخر) بعد سلب الأموال التي جمعها ملوك فارس والتي تعادل قيمتها: ثمانية وعشرين مليون جنيه إنكليزي ذهباً، كما يقدر المؤرخون!!

وتقول مصادر أخرى : إن الحريق لم يكن انتقاماً من الإسكندر، وإنما اشتعل عن غير عمد من شعلة وضعتها راقصة يونانية حسناء تدعى : (تاييس) في ليلة من ليالي سمر الإسكندر ـ كانت السبب في حريق القصر ثم المدينة[1].

فجميع هذه الروايات تؤكد: أن مدينة (إصطخر) دمرها حريق اشتبه في أمره، فاتهم بعضهم به الإسكندر؛ لأنه أباح عدداً من المدن التي استعصت عليه.. وسواء على البحث أكان الإسكندر نقل علوم فارس إلى اليونانية والقبطية ثم أحرق أصولها؟ أم نقلها مع أصولها إلى الإسكندرية أو إلى مقدونيا؛ فإن النتيجة التي تقف أمام البحث تقرر حقيقة واحدة ـ هي : أن اليونانيين استوعبوا علوم الفرس التي ألفت باللغة (الفهلوية الإشكانية) ونقلوها إلى لغتهم ـ ولقد كانت المدارس التي أسسها الإسكندر الأكبر وخلفاؤه في (إيران) معقلا للمدنية الإغريقية في الأطراف النائية عدة قرون[2].

٤- ومن المؤكد في تحقيقات المؤرخين : أن الإشكانيين هم : الورثة لمؤسسي حضارة فارس المجاورة لبابل، فلقد كانت الدولة (الأكمينية)[3] استمراراً للدولة (الآشورية) و(البابلية) و (العيلامية). ولقد كانت أساليب ملوك (الأكمينية) ومظاهرهم شبيهة

(١) تاريخ الإسكندر للخانجي حاشية ، ص ١١٢.

(٢) كتاب إيران في عهد الساسانيين ، ص ١٦.

(٣) اسم قبيلة أطلق على أقدم دولة فارسية.

بأساليب الملوك (البابليين) و (الميديين) وبمظاهرهم مع فارق الإصلاح الذي أدخلته على الدولة (الأكمينية) عبقرية (كورش) و (دارا) الأول.

٥- وعندما اعتلى (الساسانيون) مسرح السياسة. ظهرت (الفهلوية الساسانية) لغة الحاكمين؛ ولكن هذه لم تلبث حتى اعترفت باللغة (السريانية) التي أصبحت لغة العلم والأدب وأصبح خطها الخط الممتاز الذي تدون به المعارف[١].

فبناء على ذلك ذهبت الظنون إلى أن جزءاً كبيراً من تراث قدامى الفرس العلمي والتاريخي وصل إلى العرب عن طريق اليونانيين والسريانيين الذين نقلوا الكثير إلى لغاتهم من مدوّنات الفرس وطبعوه بطابعهم، فالتراث الذي وصل إلى رواد المعارف العرب. هو: الذي لم تصل إليه يد الفناء من علوم فارس، مما دون باليونانية، والسريانية، والفهلوية الساسانية. ومن الطبيعي: أن ذلك التراث وإن كان جميعه فارسي البيئة وبعضه فارسي اللغة. قد تأثر بالفكرين: اليوناني والسرياني إلى حد بعيد.

٦- وفي رأي البعض: أن كثيراً مما بقي من علوم فارس، لم يجد أكثره في ذلك الزمن: حصناً يضمن له البقاء أفضل من (القسطنطينية) عندما كانت العاصمة الكبرى لآسيا الصغرى: سياسياً وعلمياً .. وقد تكون (أثينا) الملجأ الأقصى لتلك المؤلفات. فالمدينتان كانتا عاصمتين علميتين كما كانتا عاصمتين سياسيتين. تحرص دولهما على التراث العلمي حرصهما على التفوق السياسي، فكل ما لم يختزنه الملوك والأفراد في خزاناتهم من تلك العلوم ويحفظ في الكنائس والمعابد، وجد الطريق سهلاً إلى مكتبات اليونانيين والبيزنطيين. وفي فهرست ابن النديم حكايات عن كنوز اليونانيين العلمية في بلاد الروم[٢].

---

(١) راجع بحث الخطوط: التدمري والنبطي والريان في الجزء الأول من هذا الكتاب ٢٠٢/١.

(٢) الفهرست، ص ٣٤٠.

٧- أما في فارس الوثيقة الصلة بتاريخ العالم العربي من أقدم العصور، فالذي وجده الرواد العرب من المصادر الفارسية: أقل مما كانوا يتوقعون، وما وصل إلى أيدي الرواد العرب أكثره: مؤلفات أدبية فهلوية متأخرة. قال عنها مؤلفو كتاب (قصة الأدب في العالم): [والآداب الفهلوية الباقية أوسع موضوعاً وأكثر أنواعاً وأقرب إلى التاريخ من الآداب القديمة، وقد ألفت بهذه اللغة كتب كثيرة أدبية وتاريخية، كانت في متناول المسلمين في القرن الأول للهجرة؛ نقلوا منها كثيراً، كما فعل (الطبري) في تاريخه للفرس في كتابه الكبير (تاريخ الأمم)، وكما فعل (المسعودي) في كتابه (مروج الذهب)، وكذلك نقلوا كثيراً من حكمها وآدابها في كتب الأدب العربي: مثل (عيون الأخبار) لابن قتيبة، وكتاب (التاج) المنسوب للجاحظ، وكتب الثعالبي. وقد ضاعت بعض الكتب الفهلوية التي نقل عنها العرب، وبقي إلى وقتنا بعض الكتب[1].

٨- ومع الأسف: أن المؤرخين العرب عندما ينقلون عن غيرهم لا يعنون بتعريف الكثيرين ممن نقلوا عنهم ـ التعريف الكافي. فنحن نقرأ في تاريخ (ابن خلدون) أخباراً عن الفرس ذات علاقة بتاريخ العرب يسندها (ابن خلدون) إلى المؤرخ (داهر) دون أن يعرفنا بداهر الذي نقل عنه، فكما وقف محتاراً المهمش على تاريخ (ابن خلدون) في الطبعة التي علق عليها (الأمير شكيب أرسلان) وقال بصراحة: [إنه وقف مكتوف اليدين أمام ما رواه (ابن خلدون) عن (هيروشيوشي ـ هيرودتس)؛ لأن كتاب (هيرودتس) ليس في متناوله اليوم][2] يقف الباحث أمام كثير من رجال الثقافة والتاريخ الذين يذكرهم الرواد محتاراً لا يجسر أن يقول شيئاً عنهم.

٩- ومثلما كان من العسير معرفة الكثير من الكتب التي نقل عنها المؤرخ العربي ومعرفة مؤلفيها، كذلك من المتعب معرفة الأمكنة التي وجدت فيها بعض المؤلفات

---

(١) قصة الأدب ١/٧٧ و ٧٨.

(٢) تاريخ ابن خلدون ١/٢٢٨ وما بعدها ١/٢٨١.

الفارسية، فمما جاء عن تلك الأمكنة ـ ما نقله (ابن النديم) عن (أبي معشر) : [أن ملوك فارس اختاروا موضع مدينة (جي) حصناً لمؤلفاتهم ـ فجاءوا إلى (قهندز) [1] في داخل مدينة (جي) فأودعوه علومهم، وقد بقي إلى زماننا هذا وهو يسمى (ساروية) ومن جهة هذه البنية درى الناس من كان بانيها، وذلك أنه لما كان قبل زماننا هذا بسنين كثيرة تهدمت من هذه المصنعة ناحية ـ فظهروا فيها على (أزج) [2] معقود من طين الشقيق فوجدوا فيه كتباً كثيرة من كتب الأوائل مكتوبة كلها في لحاء (التوز) [3] مودعة أصناف علوم الأوائل بالكتابة الفارسية القديمة، فوقع بعض تلك الكتب إلى من عني به فقرأه، فوجد فيه كتاباً لبعض ملوك الفرس المتقدمين يذكر فيه : أن (طهمورث) الملك المحب ـ للعلوم وأهلها إلخ]. ويقول ابن النديم إنه في سنة ٣٥٠هـ انهار (أزج) آخر لم يعرف مكانه؛ لأن قدر في سطحه أنه مصمت إلى أن انهار وانكشف عن هذه الكتب الكثيرة التي لا يهتدي أحد إلى قراءتها ـ وإن (أبا الفضل بن العميد) أنقذ في سنة نيف وأربعين [4] : كتباً أصيبت في سور مدينة (أصفهان) مدونة باليونانية، فاستخرجها أهل الشام مثل: (يوحنا) وغيره. منها في هذا الوقت شيء عند شيخنا أبي سليمان [5].

ويقول (طيفور) : [فكانت كتب فارس سقطت مع (يزدجرد) في (مرو)، فهي قائمة إلى الساعة يرجع إليها وينقل عنها] [6]. وعن طيفور نقل (آدم متز) ـ ويقال: [إن خزانة الكتب بمرو ـ كانت تحوي كتب (يزدجرد)؛ لأنه حملها إليها وتركها] [7].

---

(١) لعله صفة مكان بالفارسية ولعله قوز أي كتيب.

(٢) الأزج : بيت يبنى طولا ـ **لسان العرب** ، مادة أزج.

(٣) شجر يسمى : (التوز) .

(٤) لعله يقصد نيفاً وأربعين بعد الثلاثمائة ـ حيث إن أبا الفضل من رجال القرن الرابع من معاصري ابن النديم.

(٥) **الفهرست** ، ص ٣٢٥ و ٣٢٦.

(٦) **تاريخ بغداد** ، ص ١٥٧.

(٧) **الحضارة الإسلامية** ١/١٣٤.

فكل من طيفور وابن النديم يؤكد : روايته بما رآه بعينه، فقد قال طيفور عن كتب (يزدجرد) : إنها قائمة إلى الساعة يرجع إليها وينقل عنها. وقال ابن النديم: ومنها في هذا الوقت شيء عند شيخنا أبي سليمان.

ومثلما قال الباحثون عن مدونات الفرس، قالوا عن مدونات اللخميين في (الحيرة)؛ فلقد جاء في (لسان العرب) وفي (تاج العروس) عن (حماد الراوية) أنه قال: [أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب في (الطنوج). يعني : (كراريس) ، فكتبت له ثم دفنها في قصره الأبيض فلما كان (المختار) قيل له : إن تحت القصر كنزاً فاحتفره فأخرج تلك الأشعار، فمن ثم كان أهل الكوفة أعلم بالأشعار من أهل البصرة][1].

والذين ترجموا (ابن الكلبي) قالوا عن مصادره : إنها الوثائق المحفوظة في كنائس (الحيرة) ، والأسانيد الفارسية[2].

والذي يستشف من هذه الروايات : أن الإيرانيين والعراقيين كانوا شديدي الحرص على تراثهم العلمي؛ فمنهم : من كان يبني عليه الجدر ومنهم : من كان يدفنه في باطن الأرض!! وأن بعضاً من ذلك التراث عثر عليه ووصل إلى أيدي الذين نقلوا عنه، وأن كثيراً منه فرَّ به أصحابه من العدم إلى العدم.

١٠- والخوف على الآثار العلمية استمر إلى ما بعد الإسلام، فلقد قال ابن النديم: كان بمدينة (الحديثة) رجل يقال له : (محمد بن الحسن) يعرف بابن أبي بعرة جمَّاعة للكتب. له خزانة لم أر لأحد مثلها كثرة؛ لقيته فآنس بي. وكان نفوراً ضنيناً بما عنده خائفاً من (بني حمدان). فأخرج لي (قمطراً)[3] كبيراً؛ كان رجل من أهل الكوفة خصه به، فرأيت عجباً من الآثار أخذ الزمان يتطاول عليها، فكان على كل جزء أو ورقة

(١) لسان العرب ٣١٧/٢ طبع بيروت ، وتاج العروس ٧٠/٢ الطبعة الأول.

(٢) راجع ترجمة (ابن الكلبي) في هذا الجزء.

(٣) القمطر. هو : ما يصان فيه الكتب ، المنجد.

توقيع بخطوط العلماء واحداً إثر واحد شهد على صحتها بعض العلماء. (فرأيت منها): أمانات وعهوداً بخط أمير المؤمنين (على بن أبي طالب) وغيره من كتاب الوحي إلخ. ثم لما مات فقدنا القمطر وما كان فيه[1].

١١- وإذا صح بعض مما جاء في رواية (ابن النديم) عن التراث الفارسي القديم: [وقد بقيت أشياء بناحية الهند والصين كان ملوك فارس نسختها وأحرزتها هناك خوفاً مما سيحل بهم من غزو الإسكندر الذي تنبأ به نبيهم (زرادشت) وعالمهم (جاما ساب). إلى أن استرجعها (أردشير بن بابك) الساساني][2] يمكن القول بأن الساسانيين تداركوا شيئاً من معارف فارس القديمة، وأضافوا إليه ما جدّ على الثقافة الفارسية.

وقد وهم بعض الباحثين. فظنوا: أن (سابور بن أردشير) الذي أنشأ في (الكرخ) مكتبة حافلة بأنفس المؤلفات[3] هو: أحد ملوك الساسانيين، وأن الكتب التي حوتها مكتبته. هي: عين الكتب التي جمعها الساسانيون. والحقيقة: أن سابور بن أردشير مؤسس تلك المكتبة هو: (وزير بني بويه) أسس مكتبة الكرخ سنة ٣٨٣هـ[4].

١٢- وليست مكتبة (سابور بن أردشير) هي الوحيدة التي وجد العرب فيها بعد الإسلام ذخائر من التراث القديم، ونصوصاً عنه، فمما يؤكده المحققون: القدامى منهم والمعاصرون: أن مدارس (حران) و (الرها) و (أنطاكية) و(جندسابور) وكنائس (الحيرة) كانت مناهل لرواد الثقافة والباحثين عن التاريخ القديم، وأن مما نقل من (السريانية) إلى (العربية) منه ما هو: امتداد للثقافة الفارسية وتاريخ بلاد ما بين النهرين وإيران. ومنه ما هو: امتداد للثقافة اليونانية وتاريخ سوريا وبلاد آسيا الصغرى.

---

(١) الفهرست، ص ٦١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٣٣ و٣٣٤.

(٣) تاريخ بغداد للأعظمي، ص ٧٥ وقوافل العروبة ومواكبها لبيهم ١٣٢/١.

(٤) الحضارة الإسلامية لآدم متز ٢٤٩/١.

١٣- ويرى (نولدكه) : أن كتاب (سير الملوك) لابن المقفع. هو : صورة عربية لمؤلف فارسي. رجح : أنه ألف في عهد (يزدجرد الثالث). أن هذا الكتاب كان مصدراً أصيلا لأقدم الكتب العربية والفارسية التي تناولت تاريخ (إيران) قبل الإسلام[١] .

ويرى (محمد التونجي) : أن أقدم أثر ثقافي فارسي يتمثل في الأجزاء التي بقيت من كتاب (زرادشت) المسمى (أفستا) [٢] . ويؤكد الكثيرون: أن أشهر كتاب أفاد المؤرخين هو: كتاب (خداي نامه) ، وأن (خداي نامه الذي قام بنقله إلى العربية (ابن المقفع) قد اندثر أصله الفارسي مع الأصل العربي الذي وضعه ابن المقفع، فلم يبق منه غير ما نراه منثوراً في مؤلفات ما بعد الإسلام[٣]

١٤- وبعد! لا إخالنا في حاجة بعد الذي تقدم إلى جواب عن السؤال الذي عنونت به هذا البحث : ماذا وجد رواد الثقافة في العراق وبلاد فارس؟ وإذا كان (ابن خلدون) حقاً يتساءل كما قال (جرجي زيدان) : فأين علوم الفرس؟ فإننا نجيب عن هذا السؤال: قد وجد العرب ما كان منها باللغة الفارسية في مدينة (مرو) وفي أسوار مدينة (أصفهان) وفي (قهندز) مدينة (جي)، وما كان بغير اللغة الفارسية وجده العرب في معاقل اليونانيين والسريانيين العلمية.

أما ما ضاع منها، فقد ضيعته الأحداث التي ضيعت الكثير من ثقافة العصور الإسلامية الأولى. ولا يعلم غير الله ما هو مصير المكتبات التي تفخر بها بعض البلدان اليوم، فما أكثر الكتب التي كانت تزهو بها المكتبات العامة والخاصة، فشتتها الأحداث ومزقتها أيدي الغوغاء من الغزاة في بغداد وفي غير بغداد.

---

(١) إيران في عهد الساسانيين ، ص ٤٦ و٤٩٥.

(٢) كتاب قطوف من الأدب الفارسي ، ص ١٣ وما بعدها ، وكتاب إيران في عهد الساسانيين ، ص ٢٣ و٤٩٥.

(٣) إيران في عهد الساسانيين ، ص ٤٦.

البحث الثالث :

القسطنطينية لم تبخل بذخائرها

من موضوعات البحث :

١- ولدت المعارف اللاتينية بعد أن شابت المعارف اليونانية.

٢- الصراع بين اليونانية واللاتينية.

٣- في القسطنطينية تلاقت الثقافات الشرقية والغربية.

٤- الفتوحات الإسلامية زادت في النشاط البيزنطي العلمي.

٥- نوبات الفتور التي أصابت القسطنطينية.

٦- النهضة العلمية العربية استفادت من كنوز القسطنطينية.

القسطنطينية لم تبخل بذخائرها

١ - من الحقائق التاريخية الواضحة : أن المعارف نبتت وأثمرت على ضفاف النهرين: الفرات والنيل، وعلى شواطئ الخليج الإسلامي، وموانئ البحر المتوسط، وفي رومة وبلاد اليونان قبل أن تشرق الشمس على القصور التي شادها (قسطنطين الأول) على أطلال (بيزنطية) [1] واتخذ منها عاصمة ثانية، نظراً لبعد (رومة) عما كان يهدد الإمبراطورية الرومانية من تطلع الفرس إلى ولايات رومة الشرقية.

ولم تلبث (القسطنطينية) : أن أصبحت عاصمة الإمبراطورية الشرقية بعد أن قسم الإمبراطور (تيودثيوس) في سنة ٣٩٥م إمبراطورية الروم العظمى بين ولديه. فكانت (رومة) عاصم القسم (الأوربي)، وكانت القسطنطينية عاصمة القسم (الآسيوي) وكان أول من استقل بها (رقاديوس) وكان إمبراطورها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم (هرقل).

ومن الواضح : أن تاريخ الثقافة (اللاتينية) البيزنطية متأخر بالنسبة لتاريخ الثقافات القديمة، وأن حصيلة المعارف اللاتينية في القسطنطينية تجمعت من تراث الذين سبقوا عهد (البطالسة)، وأن عهد البطالسة بدأ بعد قسطنطين الأول الذي ولد في (نيش) من أعمال (يوغسلافيا) سنة ٢٨٠م [2].

ولقد سبق : أن أشرنا إلى الصراع الثقافي الذي عقب الصراع العسكري بين الفرس واليونايين، وأشرنا إلى الثقافة اليونانية التي انتشرت في فارس وبلاد ما بين

---

(١) بيزنطية : اسم المدينة التي قامت على أطلالها مدينة القسطنطينية. وكانت بيزنطية مستعمرة يونانية قديمة أسسها أبناء (ميفارة) سنة ٦٥٢ ق. م.

(٢) الروم وصلاتهم بالعرب ٥١/١.

النهرين بعد أن صهرت علوم فارس في بوتقتها، وأشرنا إلى انحناء (الفهلوية الساسانية) أمام (السريانية الإرمية) واعتراف اليونانية المقدونية بمثالية الخط السرياني ولغته[1]، وكذلك تقدم الكلام عن مصير الثقافة الفرعونية ومعارف البطالسة في مصر، وتقدمت الظنون التي ترجح: أن كثيراً من التراث الفارسي والسرياني تجمع في (القسطنطينية) بفعل الأحداث السياسية.

٢- فبناء على هذه النتائج ـ نحن لا نستغرب : إن رأينا التنافس ينشب بين اللاتينية الرومانية وبين اليونانية الأتيكية[2]، فلقد بدأ التنافس من قبل الأحداث السياسية، وما تبعها من ظهور (القسطنطينية) في عالم الحضارات، فلقد استطاع (ليڤي) أن يقدم للرومانيين ملحمة نثرية ممثلة في مؤلفه التاريخي ـ كما استطاع (فرجيل) أن يؤلف لهم ملحمة شعرية[3]. وبقيام دولة البطالسة واستقرار نفوذهم في مصر، تجددت العناية بمدرسة (الإسكندرية) ولكن الخطوب التي أحاطت بمصر والكوارث التي حلت بها والتي لم تسلم منها الثروة العلمية في الإسكندرية؛ جعلت البطالسة يفكرون في دعم مدرسة (القسطنطينية) التي قامت في منتصف الطريق بين أرض الحضارات في الشرق والغرب، بعيدة عن خطر الهزات الحربية.

٣- ففي سنة ٣٣٠م احتفل (قسطنطين الأول) بمدينته الفخمة، ولم يأل جهداً في إغراء رجال المال والفن والعلم على الهجرة إليها والإقامة فيها، ولم يدخر مجهوداً في جعل مدينته عاصمة منيعة جديرة بحفظ التراث الحضاري والثقافي. ومن سنة ٣٣٠م أخذت القسطنطينية تستقبل الثقافات وترحب بالكفايات التي وفدت عليها من شبه جزيرة البلقان في أوربا، ومن شبه الجزيرة العربية في آسيا. فبذلك كان ارتباط

---

(١) راجع ما جاء عن الخط السرياني في الجزء الأول من هذا المؤلف ١/ ٢٠٣.

(٢) الأتيكية: لغة مقاطعة (أثينا) ـ قصة الأدب ١/ ٢١٩.

(٣) قصة الأدب ١/ ٢٦٤.

القسطنطينية الثقافي بالشرق مثل : ارتباطها الثقافي بالغرب ، ثم بتوشج الصلات السياسية والاجتماعية بينها وبين الأقطار الشرقية؛ أخذت الثقافة البيزنطية تبدو عليها الانطباعات الشرقية ، وأخذت عقلية البيزنطيين ومفاهيمهم تتمشرق . فكريّاً وعقائدياً معها ، وأخذت المسائل الكنسيَّة تتأثر بالمنطق الشرقي وعقلية الشرقيين .. وهذا هو التطور الذي قلنا عنه من قبل : إنه النتيجة الحتمية للتوسع السياسي والاختلاط العنصري والحضاري.

فنحن إذا ما بحثنا في تاريخ الثقافة الرومانية عامة والبيزنطية خاصة ، نجد الكثيرين من أعلام الثقافة اللاتينية : شرقيين من أبناء (حمص) و(حماة) و(فلسطين) أحفاد العمالقة ، وبيروتيين من سلالة الكنعانيين .. فمن رجال الثقافة اللاتينيين النوابغ: (نومانيوس) فيلسوف (آبامية) الواقعة بين (المعرة) (وحماة) الذي ظهر في النصف الثاني من القرن الثاني من الميلاد و(يورفيريوس) الحوراني الذي نبغ فيما بين سنة ٢٣٣ وسنة ٣٠٥م و(يوسليبوس) أسقف قيصرية ، الفلسطيني الأصل الذي أرخ للكلدانيين ، والآشوريين ، والعبرانيين ، والمصريين ، والذي اشتهر بمؤلفه : (تاريخ الكنيسة من ظهور المسيح إلى عهد قسطنطين). ولقد كانت (بيروت) . كما يقولون . مستودعاً مهمًّا للقوانين الرومانية ، ومركزاً خطيراً لدرسها وتدريسها . ولقد نبغ فيها أساتذة كبار . منهم : (بابنيانوس) الحمصي الأصل ، وأكثر من هذا قد اعتلى عرش القياصرة أباطرة من العرب منهم الإمبراطور (سويروس . ألكسندروس) و (فيليب) [(١)] .

فلا غرو! إن تمشرقت العقائد والمعارف ، ولا غرو! إن تأثرت الثقافة البيزنطية بالفكر الشرقي وتأثر الفن البيزنطي وتلوّن باللون الشرقي.

ونحن لا نستغرب : إن رأينا النشاط ينتقل من أطراف الشام إلى مدنها متفادياً ميادين السفك والتدمير ، كما فعل اليونانيون عندما أسسو مدارسهم في الأطراف

---

(١) الروم وصلاتهم بالعرب ١/١٤.

النائية من إيران والعراق. وكما فعل (أفرام السرياني) الذي نزح من (نصيبين) سنة ٣٦٣م بعد أن احتلها الفرس إلى (الرها) هو وأساتذة مدرسته واستقر فيها[١]. وإن رأيناه أخيراً يتمركز في (القسطنطينية) بعد الفتوحات الإسلامية. فلقد فرضت هزائم البيزنطيين في سوريا أمام الجيوش العربية الإسلامية التي أخذت على عاتقها إعادة الهلال الخصيب المغتصب إلى قلب الجزيرة العربية الأم، وإعادة مصر العمليقية إلى الدولة العربية. لقد فرضت هذه الهزائم على البيزنطيين أن ينقلوا مدارسهم وتراثهم من (حمص) و (حماة) و (دمشق) و (القدس) و (الإسكندرية) و (بيروت) مع قواعدهم العسكرية إلى آسيا البيزنطية وإلى عاصمتها (القسطنطينية)، وينتقل مع ذلك التراث أساتذته الذين لم تتجل لهم أهداف الفتح الإسلامي، ولم يعرفوا شيئاً عن بحبوحة الحياة الإسلامية وحريتها وعدالتها.

٤- فمن الحقائق التاريخية: أن القسطنطينية بعد الفتح الإسلامي الذي امتد إلى حدودها وشمل بلاد فارس وتجاوز وادي النيل إلى (ليبيا) و (تونس) و (الجزائر) و(المغرب)، أصبحت زعيمة الثقافات الإغريقية والرومانية، وأصبح بطريركها زعيم الكنيسة الأوحد في الشرق.

ويؤكد مؤرخو القسطنطينية: أن البطالسة الذين اهتموا بمدرسة الإسكندرية ضاعفوا جهودهم في بعث النشاط الثقافي في عاصمتهم التي تكتلت فيها الكفايات بفعل مركز القسطنطينية بعد الفتوحات الإسلامية.

٥- ويؤكدون: أن القسطنطينية لم تسلم من نوبات الفتور العلمي، فعندما يتحدث المهتمون بالتطورات العلمية، يشيرون إلى فترات ركود انتابت الحركة الثقافية في المملكة البيزنطية، ولكن فترات الركود العام الذي أصيب به النشاط العلمي، لم يسد أبواب النبوغ جميعها؛ فلقد برز في مختلف الأحوال العلمية حتى في حالات الفتور. في

---

(١) الروم وصلاتهم بالعرب ١٦٢/١.

القسطنطينية، وفي غير القسطنطينية. مؤرخون وشعراء أخذت أسماؤهم مكانها في سجل الخالدين.

ويؤكدون كذلك: أن الخصومات السياسية وما ينشأ عنها من معارك حربية قلّ أن تؤثر على الصلات الثقافية .. فعندما وقفت (دمشق) و(بغداد) معتزتين بحضارتهما الإسلامية أمام (القسطنطينية) المعتزة بحضارتها المسيحية، لم تقطع الخصومة السياسية التي ما فتئت مستعرة بين الدولتين: العربية والبيزنطية: الصلات الثقافية، فلقد كانت هذه الصلات الثقافية تبرز على أثر كل هدنة تعقد بين الفريقين. فلقد استقدم (الوليد): الفنيين من الروم لزخرفة (الجامع الأموي) في دمشق، ولقد طلب (أبو جعفر المنصور) من ملك الروم: كتباً يونانية فأجابه إلى طلبه. ولقد رحب (لاوون) بالبعثة العلمية التي أوفدها (المأمون) لتنقل له بعض المصنفات اليونانية. ولم يعترض (ميخائيل) الثالث على إرسال البعثة العلمية التي انتدبها (الواثق بالله) لاستقصاء قصة (أهل الكهف).. هذا إلى جانب المؤلفات اليونانية التي عثر عليها (هارون الرشيد) في (أنقرة) و(عمورية) والتي نقلت في عهده إلى اللغة العربية[1].

٦- وهنا لا بد لنا من الإشارة إلى أن ما وجده العرب في القسطنطينية لم يكن هو كل ما جمعه البيزنطيون في عاصمتهم من تراث علمي، فلقد أصيبت حصيلتهم العلمية بما أصيب به غيرها فتعرضت لعبث العابثين عندما قامت الانقسامات الدينية بسبب (الأيقونات. الصور والتماثيل) التي يقدسها بعض المسيحيين ويكره بعضهم الآخر بقاءها في الكنائس .. مع أن هذه الانقسامات المذهبية لم تكن على غرار الانقسامات السياسية التي منيت بها دول الفراعنة في مصر، والبابليين في العراق فاكتسحت الأوضاع وأباحت مختلف الثروات.

---

(١) محاضرات الخضرى ٢١٩/٣ الطبعة التاسعة.

وكذلك لا بد لنا من أن نشير إلى أن القسطنطينية، وإن كانت مورداً معيناً من الموارد التي أروت ظمأ الثقافة العربية لم تكن المورد الأول أو الوحيد للرواد.

فالنهضة الثقافية العربية التي اتسعت آفاقها وتعددت مجالاتها قد فرضت على الرواد: البحث عن مصادر تنير لهم طرق المعرفة، ونصوصٍ تساعدهم على امتداد بحوثهم التاريخية إلى أعماق الماضي، فهم لم يغفلوا عن أسفار بني إسرائيل وتراث الإغريق ومدونات السريانيين والفرس ولم يعقهم، كما تقدم، النزاع السياسي عن الحصول على ما هم في حاجة إليه، مما كانت القسطنطينية تحتفظ به.

فلقد تحدث (لكرك) العالم المستشرق؛ مكبراً نهضة العرب العلمية، فقال: [كان كل ما في أيدي العرب من العلوم في آخر القرن الثامن للميلاد: ترجمة مؤلف للطب وبضعة كتب في علوم الكيمياء. وما كاد القرن التاسع ينصرم حتى كان العرب قد امتلكوا ناصية جميع علوم اليونان وثقافة الأقدمين]. وتحدث غيره من المستشرقين عن الكثير من رجال التاريخ الإسلامي وبناة الثقافة العربية، عن (الوليد بن يزيد) حفيد معاوية بن أبي سفيان، وعن (عمر بن عبدالعزيز) الخليفة الأموي العادل، وعن (المنصور) و (الرشيد) و (المأمون) و (الواثق) الخلفاء العباسيين الذين كان لهم أثر في نقل بعض العلوم إلى اللغة العربية، وتحدثوا عن (أولاد موسى بن شاكر) الذين بذلوا على تعريب المعارف ما لا تكاد دولة من الدول الصغيرة تبذله اليوم في هذا السبيل[1].

وأخيراً: إن النهضة الثقافية العربية الإسلامية؛ إن كانت لم تعتمد على مورد واحد، وإن كانت ذخائر البيزنطيين لم تبلغ ما بلغته ذخائر أسلافهم المقدونيين؛ فالقسطنطينية كانت ولا شك مورداً زاخراً لرواد الثقافة العربية؛ أمدهم من معارف القدامى بما أفاد دراساتهم العلمية وبحوثهم التاريخية.

---

(١) راجع التعريب والمعربون في هذا الجزء وتاريخ العرب العام ٣٩١.



البحث الرابع :

السّريانية والسريانيون

من موضوعات البحث :

١- أرومة السريانيين .

٢- إلى متى استمرت اللغة السريانية في مجال الأدب والتأليف؟

٣- أسئلة عن السريانية في الحجاز تنتظر الجواب عنها.

٤- أين كان مركز الثقافة السريانية؟

٥- أطوار الثقافة السريانية.

٦- قيمة المواد التي دُوِّنت باللغة السريانية.

٧- لم يصل التراث السرياني جيمعه إلى أيدي الرواد.

٨- التراث السرياني الذي بقي أفاد التاريخ والمؤرخين.

السريانية والسريانيون

١- الذي يظهر من بحث ابن خلدون في تاريخ (بابل) : أن المصادر التي كانت بين أيدي المؤرخين الإسلاميين مثل : (ابن سعيد)[1] و (الطبري) وغيرهما ، تؤكد : أن السريانيين هم أول من أنشأ الدولة بعد الطوفان، وهم أوّل من أنشأ الخط واللغة، واخترع كل قديم من الأشياء. ولقد علق (ابن خلدون) على ما قاله (ابن سعيد) في هذا الشأن: [إنها مزاعم بعيدة عن الصحة . وإنما وجهه: أن السريانيين لما كانوا أقدم في الخليقة نسب إليهم كل قديم من الأشياء.] ويرجع ابن خلدون نسب السريانيين إلى (سريان بن نبيط بن ماش بن إرم)[2].

٢- وتؤكد روايات عدة: أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بعض أصحابه: أن يتعلم اللغة السريانية، حيث كانت السريانية عند ظهور الإسلام من اللغات الحية[3]. وما فتئت السريانية محتفظة بوجودها في عالم الأدب والعلم إلى ما بعد القرن السابع من الهجرة، حيث نجد (ابن العبري) المتوفى سنة ٦٨٤هـ يؤلف كتابه : (مختصر الدول) أوّلا بالسريانية ثم يعيد تأليفه باللغة العربية.. وما زالت اللغة السريانية حية إلى القرن الرابع عشر للميلاد . التاسع الهجري؛ ففي هذا القرن لاقت السريانية مصرعها في غبار المعارك التترية[4].

٣- ومما تثيره الروايات التي تؤكد: أن بعض الصحابة مثل : (زيد بن ثابت) و(عبدالله بن عمرو بن العاص) قد تعلموا السريانية في وقت مبكر من صبح الإسلام : أسئلة لا يجد الباحث نصوصاً يستند إليها في الإجابة عنها .

---

(١) راجع ترجمته في هذا الجزء.
(٢) تاريخ ابن خلدون ١/١٠٧ - ١٠٨.
(٣) فجر الإسلام ١/١٦٦.
(٤) تاريخ اللغات السامية ، ص ١٤٧.

فمن هذه الأسئلة: من الذي علم (زيد بن ثابت) وغيره اللغة السريانية؟ فهل كان الأساتذة الذين تعلم منهم زيد بن ثابت وغيره حجازيين، يجيدون اللغة السريانية قراءة وكتابة؟ أو هم سريانيون هاجروا إلى الحجاز؟ وهل كان أساتذة زيد بن ثابت يدونون شيئاً باللغة السريانية عن مكة وحرمها، وعن المدينة وإسلامها؛ تستفيد منه المدارس السريانية؟ وهل كانوا يحتفظون بمدونات، كما كان اليهود يحتفظون بمدوّناتهم، اطلع عليها الذين تعلموا السريانية، كما اطلع على الأسفار الذين تعلموا لغتها؟

كل هذه أسئلة، قد يجد من يتخصص في بحث تاريخ السريانية والسريانيين، ويتفرغ له: الجواب عنها. أما بحث ـ التاريخ العربي ومصادره ـ فليس فيه متسع لجولة طويلة تخرج به عن موضوعه؛ فعليه تكفينا الإشارة إلى هذه الأسئلة ولفت النظر إليها.

٤- ولم يذهب (جرجي زيدان) بعيداً عن رأي (ابن خلدون) عندما قال عن السريانيين: [السريان بقايا الكلدان أو البابليين القدماء الذين أنشأوا تمدناً ووضعوا علوماً مهمة، ورصدوا الكواكب، ووضعوا أسس الطب قبل الميلاد بقرون ثم دالت دولتهم، واستولى الفرس على بلادهم، فذهبت معارفهم، وفتر نشاطهم الثقافي إلى ظهور النصرانية التي بعثت في السريان: النشاط من جديد، فكان لهم تأثير وشأن في تاريخ النصرانية. فلقد أنشأ السريانيون فيما بين النهرين نحواً من خمسين مدرسة تعلم فيها العلوم بالسريانية واليونانية، وأشهرها مدرسة (الرها). وفي أوائل القرن السابع للميلاد اشتهرت مدرسة (قنسرين) على الفرات بتعليم فلسفة اليونانيين باللغة اليونانية][(١)] .. فجرجي زيدان يجعل تاريخ السريان ومعارفهم امتداداً لتاريخ البابليين أو الكلدان. والبابليون والكلدانيون ـ هم: إرميون نسبة إلى (إرم) بن (سام) في رأي النسابين. وهم من الآرميين نسبة للآرام أي الجبال والصحارى كما في تحقيق المستشرقين[(٢)] .

(١) التمدن الإسلامي ٣/١٤٩ و١٥٠.

(٢) راجع بحث الشعوب العربية في جزئها الخاص الذي يأتي في كتاب العرب في أحقاب التاريخ. الجزء الرابع.

وفي بحث (ولفنستون) عن اللهجات الآرامية الشرقية قال عن السريانية: كان مركزها مدينة (الرها) واسم الرها يرجع إلى أصل سرياني - هو : (أورهى)، وقد أطلق اليونانيون عليها اسم (أدسا)، ثم أرجع العرب اسمها إلى أصله بهذا التعديل - الرها - وحرف الاسم أخيراً إلى (أورفا). ولا تزال المدينة تعرف بهذا الاسم (أورفا) إلى هذا العصر. ويفسر (ولفنستون) كلمة (سرياني) بأنها كلمة اصطلح عليها؛ عوضاً عن لفظة (آرامي) وذلك؛ لأن المتنصرين من الآراميين لم يرضوا لأنفسهم اسم (آرامي)؛ إذ كان هذا اللفظ في (التوراة) يمثل جماهير الآراميين الوثنيين[1] ادعوا: أنهم سريان أي آراميون تنصروا، على أن التسمية جاءت إلى الآراميين من اليونانيين[2] بعد اتصالهم بهم في (سوريا)[3].

٥- والذي يظهر من بحث ولفنستون للآراميين - السريان - ثلاثة أطوار: الطور الأول: ويرجع تاريخه إلى ما قبل انتشار المسيحية، ويبدأ نشاطه في ناحية (الرها) ويمثل السريانيون في هذا الطور كبار الباحثين من الوثنيين الآراميين الذين عنوا بالفلسفة اليونانية والأسفار الإسرائيلية، وقد عدَّ المستشرقون هذا الطور قنطرة تصل الأدب السرياني بالأدب الآرامي القديم. الطور الثاني: يشمل معارف السريان من عهد انتشار المسيحية في (الرها) إلى أن فتح المسلمون العراق. الطور الثالث: يبدأ من نهاية الطور الثاني إلى الغزو المغولي في القرن الرابع عشر للميلاد[4].

٦- ومن المؤلفات السريانية ما هو قيم، نظراً للمستوى الذي بلغته السريانية؛ على أن علماء السريان لم ينحصر تدوينهم في اللغة السريانية، بل دونوا كذلك

---

(١) لعل السبب في عدم الرضا بهذا الاسم: أن آرامي عند سكان ما بين النهرين - تعني: البدو سكان الجبال.

(٢) لعله يقصد: أن اسم سرياني من أصل يوناني أطلقه المسيحيون الآراميون على أنفسهم.

(٣) تاريخ اللغات السامية، ص ١٤٥.

(٤) تاريخ اللغات السامية، ص ١٤٧.

بالعبرية والآرامية[1] ، ومن مؤلفات السريانيين : تراجم وتفاسير في كتب التوراة والإنجيل. ومنها : بحوث في الخلاف بين (النسطورية) و (اليعقوبية) الذي بعثته الأغراض السياسية ، فكان البحث فيه له قيمته في ذلك الزمن ، ومنها : مؤلفات في تاريخ الكنيسة السريانية ، ومنها مؤلفات في الجغرافية. ولقد علمنا مما تقدم : أن بعض رجال التاريخ مثل : (ابن العبري) ألف باللغة السريانية في القرون الوسطى من العصر الإسلامي.

ومن هذه المعلومات يظهر لنا : أن السريانيين أسهموا في مختلف المعارف؛ فهم شاركوا في الفلسفة اليونانية ، وشاركوا في تفسير التوراة والإنجيل .. وهم حلقوا في آفاق الثقافة العربية الإسلامية مع المحلقين؛ ولذلك كان التراث السرياني غنياً بالكثير مما يهم المؤرخين الذين بحثوا في حياة الماضين العلمية الاجتماعية والسياسية ، فظنون قدامى المؤرخين وظنون المتأخرين تجمع على قدم السريانيين . وإن كانت تختلف في حقيقة اسم (سرياني) مثلما اختلفت في مدلول اسم (إرمي) . وتجمع على أن المعارف السريانية . هي : امتداد للمعارف الإرمية ، وأن السريانيين لم ينزووا عن ميادين الأدب والتأليف ، فلقد كانت لهم عشرات المدارس التي انتشرت في وادي الفرات.

فاللغة (الآرامية)[2] تمركزت في منطقة (حران) ونمت هناك من أقدم حقب التاريخ ، ومن اللغة (الآرامية) انبعثت (السريانية) ولم تلبث أن فاقت أمها في خدمة المعارف علمياً وأدبياً وتاريخياً ، فالصلات الوشيجة التي ربطت بين البحوث السريانية واليونانية والعبرية والفارسية ، بالإضافة إلى انتشار الخط الإرمي السرياني خارج العراق وفارس إلى بلاد الصين في آسيا .. كل ذلك زاد في شأن السريانية وزاد في قيمة مدارسها وتراثها.

---

(١) تاريخ اللغات السامية ، ص ١٤٧.

(٢) الإرمية والآرامية كلمتان تؤديان معنى واحداً.

ولم يجهل الرواد في العصور الإسلامية قيمة التراث السرياني، ولم يقصروا في الاستفادة منه؛ فلقد نقلوا منه إلى اللغة العربية التي عمت الإمبراطورية العربية، فلم تقو على الوقوف أمامها اللغة السريانية وغير السريانية من اللغات السامية في الشرق العربي.

٧- والتراث السرياني كغيره عبث به القدم وصروفه، والتطور وتجديده، فباد أكثره وضاع واختفى، فما أكثر ما يطغى الحديث على القديم!! وما أكثر ما يطوي الجديد القديم بفهومه ومقاييسه؛ فيطغى المنطق الفتي وأحكامه على منطق الذين أكل الدهر عليهم وشرب!! فهذه سنة التطور، فأقل من القليل الذي يفلت من التفريط به والإهمال!

والتراث السرياني كغيره، قد فرَّ بأكثره الحريصون عليه من العدم إلى العدم، فانطبق عليه المثل: فرَّ من القتل وفي الموت وقع!! فالحرص على المدونات دفع أصحابها إلى حفظها في أماكن كانت مقابر لها كما رأينا في البحث عن علوم الفرس .. فمن مؤلفات السريانيين: مؤلفات في تاريخ الكنيسة السريانية وفي غير ذلك لا تزال مدفونة في أرض الأديرة والصوامع لم تقع عليها عين الباحثين[1].

٨- وأخيراً يمكننا أن نقول: إن مدارس (الرها) وما حولها أمدت المعارف العربية في علوم: الفلسفة والطب والطبيعة، والفلك والحساب والكيمياء والجغرافية، وقدمت لنا صوراً تاريخية لعقلية أجيال الماضي ومعارفهم، بالإضافة إلى ما وجده الرواد في العصور الإسلامية من المؤلفات التي نقلت من اللغة السريانية إلى العربية، وما وجده المؤرخ في تلك المؤلفات، وفي المؤلفات السريانية التأليف واللغة، والمؤلفات اليونانية التأليف السريانية اللغة - من مواد تاريخية ونصوص كان لها نفعها في معرفة ما تفيد معرفته عن دنيا السريانيين ومراحل حياة تلك الأجيال.

---

(١) **تاريخ اللغات السامية**، ص ١٤٩.

الفصل الثامن

المؤرخون العرب ورواياتهم

١- الرواية العربية وموقف المحققين منها .

٢- من الرواد موالٍ وشعوبيون :

أولاً : الولاء والموالي .

ثانيًا : الشعوبية والشعوبيون .



المبحث الأول

الرواية العربية وموقف المحققين منها

موضوعات البحث :

١- صعوبة التحقيق في تراث الرواد العرب .

٢- من التحقيقات المعاصرة ما يحتاج إلى تحقيق !

٣- الرواية العربية بين المحققين مثل كرة القدم بين اللاعبين .

٤- المختبرات الحديثة للرواية العربية .

٥- فضل الرواد على محققي التاريخ .

٦- كما حازت المدونات غير العربية : ثقة المؤرخين في الماضي حازت النصوص الأثرية وآراء المستشرقين : ثقة المؤرخين المعاصرين .

٧- الرواية العربية غير مبرأة مما يثير الشكوك.

٨- ما عذر الذين تجاهلوا المصادر العربية ؟

٩- نقد الرواية العربية ليس بالجديد على الدراسات التاريخية .

١٠- المصادر العربية لم يخل أكثرها من الحقائق التاريخية .

الرواية العربية وموقف المحققين منها

١- ليس من السهل: دراسة التراث الذي خلفه المتقدمون من المؤرخين العرب، ومعرفة المصادر التي نقلوا عنها والنصوص التي رجعوا إليها في الكتابة عن التاريخ العربي، وعن تطوره مع الأحداث التي مرت بالبلاد العربية، وتبعًا لما ينجم من التلاحم العنصري والثقافي والحضاري، وتعانق المصالح، وارتباط المصير، مما كان له الأثر الكبير في قضايا الشرق الأوسط وفي تلوين حياة شعوبه قبل الإسلام وبعده.

وليس من السهل: تمييز الخطأ من الصواب والأصيل من الدخيل، فيما وصل إلينا من نصوص كانت ومازالت الشغل الشاغل لكثير من الباحثين، فكثرة تحقيقات الذين عنوا بالنصوص التاريخية ووقفوا الثمين من وقتهم أملاً في إزالة رواسب الزمن عن الماضي، وتخليص الحقائق من خيوط الخيال، ومزاعم التعصب، وأخطاء الظنون، وكثرة الذين تعثروا عندما هبوا لنجدة الحقائق من هنات القدامى، وكثرة التأليف التجاري الذي تطفو به الرغبة في موالاة الإنتاج.. إلى غير ذلك، مما يجعل الدراسات التاريخية اليوم من الصعوبة بحيث يجد الباحث نفسه في دوامة تدور به مع عديد من الآراء؛ كثير منها متناقض ومتعارض الاتجاه.

وليس من السهل: تطبيق النص القديم على النقش الأثري الذي كشف عنه التنقيب حديثًا، فاكتشفنا فيه صورًا عن الماضي أكدت شكوكًا في بعض روايات قدامى المؤرخين، ونفت عن بعضها شكوكًا أخرى، وقدمت معلومات كان يجهلها المؤرخون في القرون الوسطى.

٢- أجل! ليس من السهل على من يتصدى اليوم لدراسة التاريخ: الوصول إلى حقيقة لا غبار عليها، فليست البحوث جميعها التي وضعت عن المؤرخين ومصادرهم: صحيحة موفقة غير عاطفية، وليست جميعها: متعمقة مستفيضة في حكمها ضد

المسئولين عن القضايا التاريخية ، أو في حكمها لمصلحتهم ، فأنت إذا ما اطلعت على بعض البحوث التي تغريك عناوينها بقراءتها وجدت منها : السطحي المتسرع، ومنها العاطفي المتحيز، ومنها الكشكول الذي يجمع الغث والسمين .. ووجدت من الباحثين من لم يستطع مع مقتضيات التحقيق صبرًا ، وتجد المتعجرفين الذين يعتمدون على منطقهم فيما أثبتوه ، وفيما نفوه أكثر عددًا من المتواضعين الذين لا يفرضون منطقهم على أحداث التاريخ وقضاياه فرضًا .

٣- والدريئة التي انهالت عليها الشكوك هي : الرواية العربية التي أصبحت اليوم بين المحققين ككرة القدم بين اللاعبين ، فكما يتقاذف الكرة القوي والضعيف ، والماهر الذي يخطط للهدف ، والأهوج الذي يخبطها خبط عشواء؛ كذلك الرواية العربية، فقد تناولها المتزن القوي والمترنح الضعيف، ولا أراني مجحفًا إن قلت: كثيرة التحقيقات التي تحتاج إلى تحقيق والتصحيحات التي تحتاج إلى تصحيح؛ فلقد مر بنا تحقيق (جرجي زيدان) في حريق مكتبة الإسكندرية وكيف عاد به من الصواب إلى الخطأ .

٤- والمحك الذي تعتمد عليه كثرة الباحثين اليوم هو : النص الأثري ، والمنظار الذي ترى به ـ هو : رأي المستشرقين، ولا إخالني مبالغًا إن قلت : إن النصوص الأثرية التي اكتشفت في العصور الأخيرة ليست جميعها نزيهة من الدعاية سالمة من الغموض . وإن النقوش التي ظهرت على الأنصاب وجدر المعابد وصخور الجبال ليست جميعها فوق الشبهات ، وليست جميعها لا تذكر إلا حقائق واضحة وضوحًا لا يجعل للظنون مجالاً ، وليست جميعها خالية من المؤثرات القومية والعقائدية والسياسية؛ فمن الذين ينقشون على الصخور : عنصريون متحزبون وعابثون ومشعوذون[1] . ولا أراني مبالغًا إن قلت إن آراء المستشرقين ليست جميعها من الأصالة بمكان يعصمها من الخطأ والتطرف والغرض . ولسوف يأتي بحث خاص بالآثار والمستشرقين في هذا الجزء .

---

(١) راجع بحث : **المستشرقون والآثار وعلم الجيولوجيا** ، في هذا الجزء .

ولقد سبق أن تكلمت في الجزء الأول عن حلقات التاريخ المفقودة التي كانت ومازالت مجالاً للظنون . ولقد قلت عن الخطوط القديمة : [إن الذين قرأوا هذه الخطوط ليسوا من أولئك الذين عاشوا على أرض هذه الآثار قبل أربعة آلاف سنة؛ فإذا كان بعض الأسماء والكلمات العربية القريبة العهد منا ، قد حرفها المستشرقون، فكيف بالأسماء والكلمات المتداولة في العصور القديمة..] ، وأشرت إلى العناصر التي ناصبت العرب العداء قبل الإسلام مثلما ناصبتهم العداء بعد الإسلام .

فإذا كنا نحن اليوم بعد أن قدم لنا المؤرخون القدامى ما جمعوه من روايات ونقلوه من نصوص ، وعلى ما تقدمه اليوم الصحف والمجلات، وما تنشره المطابع من مصنفات مازلنا نقف من بعض أحداث الماضي لا البعيد منها فحسب، بل القريب منها والمعاصر أيضًا تتأرجح بنا الظنون ، ومازالت أمامنا غوامض لم نطمئن إلى ما قيل عنها ، فكيف بموقف الذين لم يملكوا ما نملكه من وسائل النشر ، وآلات التدوين. ووسائط السفر وآلات التنقيب ، أمام نصوص مختلفة اللغة والمنطق؟ وروايات نقلها جيل عن جيل تحدثت عن عصور أسدل الزمن عليها ستاره وأفنى القدم معالم أحداثها ؟ ..

٥- وإذا كنا نحن اليوم .. مع فخرنا بالدراسة المنظمة ، والتخصص المركز والتحقيق العلمي؛ نشعر بعجزنا عن الوصول إلى بعض الحقائق ، فإن ما قدمه إلينا المؤرخون القدامى بدراستهم الفردية وطريقتهم البدائية بالنسبة للتأليف في التاريخ الذي جد على العرب في عصور ما بعد الإسلام ، وبالنسبة لاختلاف رواية الخبر الذي يقرأون عنه في المصادر ، والخبر الذي يسمعون عنه من العامة والخاصة؛ جدير بالإكبار والتقدير ، فلأولئك الذين أنشأوا المدارس العربية الإسلامية ، ووضعوا نواة مكتبتها ، وألفوا في مختلف الفنون، يرجع الفضل في جمع شتات النصوص وحفظ الكثير من الروايات .. وفي تصنيف ما جمعوه من روايات تحملوا المشاق في تحقيق أسانيدها ، ومن مدونات تكبدوا الأمرين في سبيل الوصول إليها ، في بلاد فارس، وفي

أرض الروم، وفي كنائس (الحيرة)، ومعابد (عين تمر)، وفي مدارس (السريانيين)، وآطام الإسرائيليين، ومخاليف الحميريين ، ومن ألسنة معاصري الأحداث والمعنيين بالأخبار .

٦- وإذا كنا نرى من المؤرخين القدامى جماعة منحت المدونات الإسرائيلية والفارسية واليونانية والسريانية ثقة مطلقة ، ونقلت الأخبار التي عاصرتها بعجرها وبجرها ؛ فمن الباحثين اليوم : جماعة منحت آراء المستشرقين ثقتها المطلقة ، ونقلت عن الصحف الأخبار والتعليقات بصوابها وأخطائها ، وإذا نحن بحثنا عن بواعث الثقة نجدها واحدة؛ فمثلما أكبر بعض المؤرخين العرب في الماضي سبق غيرهم إلى التدوين وخلبوا بالتأليف المنظم ، وأحسنوا الظن بـرواة الأخبار، قدر العرب في الحاضر سبق المستشرقين في ميدان التحقيق وخلبوا بالمقاييس التي اعتمد عليها نقدهم ، وأحسنوا الظن بالصحف والإذاعات .. ومن هنا انبعثت الثقة في الماضي بالتراث القديم، وفي الحاضر ببحوث المستشرقين ونظرياتهم وآرائهم .. ومن هنا انبعث الشك في الأخبار التاريخية التي لا ترتكز إلى غير الرواية .

٧- أنا لا أبرئ الروايات والنصوص التي جمعها (ابن جرير) و (الدينوري) و(اليعقوبي) و(المسعودي) وغيرهم من كل ما يريب؛ فهي مستمدة من مصادر غير مبرأة من الخيال والمبالغة، ولكنني مع اعترافي بما في المصادر القديمة من خيال ومبالغة، أعتقد: أن كثيرًا مما نظنه مبالغات أدخلها الكلدانيون والإسرائيليون واليونان على التاريخ : حقائق ضيع الزمن الطويل أدلتها، كما ضيع الزمن القصير أدلة مواقف إسلامية بطولية ، فأصبحت في نظر المحققين موضع شك وريبة؛ فالرواد العرب نقلوا لنا أخبارًا من مصادر لا يمكن أن نشك في كل ما جاء فيها . فنحن إذا ما قابلنا ما نقل إلينا من المصادر القديمة بالنصوص الأثرية التي اكتشفت حديثًا . نجد : مما ظهر على الآثار المكتشفة حديثًا ما يؤكد النص المدون قديمًا .. وهذا الذي جعل بعض المستشرقين يدرك كنه ما جاء في المصادر الكلاسيكية كما قال (ديتلف نيلسون)

و(غوستاف لوبون)[1] وغيرهما ، وهذا الذي جعل الباحثين اليوم لا ينظرون إلى الماضي الجاهلي بالمنظار الذي كان ينظر منه الباحثون الذين عاشوا في العصور الإسلامية المتوسطة ، حيث كان الرأي السائد في تلك العصور يجزم بأن ماضي العرب جميعه ماض مظلم لم يضئه أي قبس من المعرفة ، فهم لذلك يستكثرون ما يتحدث به القدامى عن عاد وثمود والعمالقة وغيرهم من سكان وادي القرى والخليج الإسلامي - العربي ، ويعدون ما قيل عن دول الجزيرة العربية وعما كان لها من سلطان في الشرق الأوسط : ضربًا من الخيال ونوعًا من الأساطير ، وحيث كان المطلعون على حقائق الأحداث أقل من القليل ، كما ستأتي الإشارة إلى ذلك في بحث (أعلام المؤلفين) في التاريخ) من هذا الجزء .

ولقد أشرت في الجزء الأول إلى الذين ظنوا : أن كل تمجيد للحياة العربية في ماضيها الجاهلي يُعد تصغيرًا لشأن الإسلام وفضله على العرب ، وإلى أن هذا الاعتقاد صرفهم عن تحقيق حقب من التاريخ العربي كان من واجب المؤرخ ألا "يصهين" عنها . كما أشرت إلى الشعوبيين الذين استغلوا هذا الاعتقاد واتخذوه وسيلة للحط من تاريخ العرب وإسدال الستار على أمجادهم .

٨- وإنني بعد الذي سبق في الجزء الأول عن حضارة الماضي العربي وثرواته ، لا أرى مندوحة للبحث في إعادة الكلام عن حضارة العرب قبل الميلاد .. وإنما السؤال الذي يرد هنا - هو : إذا كان لأولئك الذين سبقوا الكشوف الأثرية العذر في شكوكهم ، فما عذر هؤلاء الذين يكتبون اليوم ؟ .. فنحن إن وجدنا عذرًا لسلبية بعض القدامى وشكوكهم في رواية واضعي نواة التاريخ العربي في العصر الإسلامي ، فأي عذر نفترضه لمقاطعة المتأخرين للرواية العربية وعدها غثاء لا يستحق الذكر في الدراسات التاريخية ، كما فعل (فيليب حتي) في مؤلفاته (تاريخ العرب العام) و(تاريخ سورية)

---

(١) التاريخ العربي القديم ، ص ٣٠ ، وحضارة بابل وآشور .

و(لبنان في التاريخ) وفعل غيره من الذين لا يعتمدون على غير المستشرقين وظنونهم واستنتاجاتهم ومصادرهم ؟!

إن المستشرقين أنفسهم الذين تعرضوا لدراسة التاريخ العربي لم يستغنوا عن المصادر العربية ولم تثن الكثيرين منهم متاعب التعمق في تحقيق الرواية العربية ، ولم تصرفهم مرارة الصبر عن استيعاب النصوص حسبما تفرضه متطلبات التحقيق ، ولم يفقدوا شجاعتهم عندما اعترفوا بقيمة الرواية العربية .

٩- حقًا ! إن نقد الروايات التي جمعها الرعيل الأول من المؤرخين، ليس بجديد من مستحدثات الدراسات التاريخية في العصور الأخيرة؛ فلقد نقدها (ابن كثير) في تاريخه (البداية والنهاية) بمنطقه وأسلوبه ، ونقدها (ابن خلدون) في تاريخه وفي مقدمته بموازينه وشكوكه ، كما كان أولئك الأعلام أنفسهم ينقد بعضهم رواية بعض، فيظهرون الغلط ويبينون الصواب .. وإنما الجديد في بحوث العصر الحاضر: التمسك بآراء المستشرقين والتعلق بالنصوص الأثرية ، فالرواية العربية في أكثر التحقيقات المعاصرة لا قيمة لها ما دامت عقول المستشرقين لا تهضمها أو كان هناك نقش أثري لا يتفق معها. ولقد فات هاته التحقيقات : أن عقول المستشرقين وظنونهم تخطىء وتصيب ، وفاتها : أن ليس كل نقش قديم صدر عن بحاثة صادق عليم؛ فما أدرانا : أن الذين نقشوا النصوص : هم جميعهم من الذين لا ينقشون إلا بعد تحقيق وتدقيق ، ولا يأخذون الخبر إلا من ثقة فهيم ونقاد عليم .

١٠- لقد فات الذين تجاهلوا المصادر العربية : أن لهذه المصادر الصدارة في تاريخ (اليمن) و(تهامة) و(الحجاز) و(نجد) و(العروض) من شمال (الكويت) إلى (عُمان)، وأن ما جاء في المصادر العربية ـ وإن كان منه الغارق في الخيال والمبالغة؛ لم يخل جميعه من الحقائق التاريخية. فلقد جاءت آثار اليمن ووادي القرى وبلاد ثمود وشواطىء الخليج (الإسلامي ـ العربي)؛ مؤكدة حقائق كانت في اعتقاد المؤرخين إلى وقت قريب ضربًا من الأساطير التي لا تستحق الدرس والتحقيق .

البحث الثاني

من الرواد : موالٍ وشعوبيون

من موضوعات البحث :

١- المشوشون هم الذين يرون : أن الثقافة العربية الإسلامية عالة على الموالي .

٢- نوابغ الموالي تلقوا العلم على أساتذة عرب .

٣- الثقافة العربية فوق القطرية والعنصرية .

٤- الثقافة العربية لم تخرج عن لغتها ومنطقها الإسلامي

(أ) أولاً : الولاء والموالي :

١- الموالي كلمة عربية مخضرمة.

٢- من العرب موال .

٣- المسلمون سواسية .

(ب) ثانيًا : الشعوبية والشعوبيون :

١- ما الشعوبية ؟

٢- يرتبط تاريخ الشعوبية بتاريخ العناصر غير العربية في الهلال الخصيب .

٣- الشعوبية صنو القبلية .

٤- لم يمح الإسلام العنصرية إلا فترة قصيرة ثم عادت .

٥- كان التاريخ والأدب يغذيان التنافس العنصري .

٦- التنافس القبلي الشعوبي جزء من التاريخ العربي .

من الرواد : موال وشعُوبيّون

١- يقول المشوشون على اَلمُثُلِ الإسلامية : إن الإسلام هو نتيجة حتمية ليقظة الوعي العربي قبيل الإسلام ، كأنهم لا يعلمون شيئًا عما لاقاه المسلمون من عنت الجاهلية وخصومتها ، ويقول المشوشون على النهضة الثقافية الإسلامية العربية : إن أكثر عباقرة المدونين والمؤلفين موال وشعوبيون، سواء أكان التدوين والتأليف في الفقه الإسلامي، أم في اللغة العربية ، أم في تاريخ الشرق الأوسط؛ كأنهم لا يعلمون : أن أساتذة الموالي والشعوبيين هم عرب، وأن العناصر غير العربية لم تخرج الثقافة العربية من عروبتها ، وإنما الثقافة العربية هي التي أخرجت العناصر غير العربية من أعجميتها .

٢- لقد كبر على هؤلاء أن يعترفوا : بأن الإسلام منذ بزغت شمسه لم يكن دينًا عنصريًا طبقيًا يقيم الفواصل بين العرب وغيرهم ، وأن الإسلام أتاح الفرص لكل من أظلته الراية الإسلامية ، سواءً كان عربيًا أم أعجميًا ، سيدًا أم مولى ، مسلمًا أم ذميًا ، وكبر على هؤلاء أن يعترفوا : بأن الذين نبغوا من الفرس والروم والعبرانيين في الثقافة العربية هم : تلاميذ تلقوا معارفهم من الأساتذة الذين أخرجتهم مدرسة المدينة العربية؛ فالرائد الأول في مدرسة الكوفة التي أنجبت (أبا حنيفة) هو : (عبدالله بن مسعود القاري) وأستاذ (سيبويه) هو (الخليل بن أحمد الأزدي) .

٣- كبر على هؤلاء أن يعترفوا : بأن الثقافة العربية الإسلامية لم تحصرها الحدود القطرية ، ولم تخضع للنعرة العنصرية ، بل كانت ومازالت ثقافة عامة أسهمت فيها الكفايات على اختلاف عناصرها وعقائدها ، وعلى تفاوت أروماتها وأحسابها ، فكانت ومازالت مثلاً لكل ثقافة عامة اجتذبت وتجتذب الكفايات، مهما اختلفت المذاهب العقائدية والمبادئ السياسية والدماء التي تجري في العروق؛ فالمعرفة حق عام قائم على السواسية لا يفرق بين الشرقي والغربي ، ولا بين المسلم والمسيحي ، ولا بين

العربي والأعجمي ، ولا بين الفقير والغني. ولقد حرص الإسلام على هذه السواسية ، فمنح الذميين الذين عاشوا بين جماهير الدولة الإسلامية حقوقهم الاجتماعية كاملة ؛ فلهم ما للمسلمين من حماية وحرية وفرص للتعليم. وحرص دستور الإسلام على المساواة بين المسلمين، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح .

كبر على هؤلاء : أن يعترفوا بأن الدولة العربية الإسلامية سبقت دول القرن الرابع عشر من الهجرة إلى تحرير الثقافة من قيود العنصرية ؛ فإذا كنا اليوم نجد بعض الدول تميز أبناءها بشيء من العناية في مدارسها ، فيحق لنا أن نفخر بأن المدارس الإسلامية لم تيمز العربي المسلم عن غيره ولم تمنحه حقًا تمنعه سواه ، وإذا كنا نشاهد اليوم في بعض المجتمعات المتحضرة التمييز العنصري بأبشع صوره ، فيحق لنا أن نفخر بالمجتمع الإسلامي الذي لا يميز العربي عن الأعجمي ولا الأبيض من الأسود ولا الفقير من الغني فكلهم في الحقوق في مرتبة واحدة .

٤- فلا عجب ! إن نبغت في المجتمع الإسلامي الكفايات العلمية على اختلاف عناصرها ومذاهبها ، ولا غرو ! إن وجدنا بين فطاحل المبرزين في جميع ميادين الثقافة ومسالكها : العربي والأعجمي والمولى والسيد في صعيد واحد ، فكما يؤخذ عن (ابن عباس) يؤخذ عن (بلال) ، ولقد كان (عكرمة) مولى العباس مع الطليعة التي رجع إلى أقوالها المفسرون والمشرعون والمؤرخون .

فإذا كان رجال من غير العرب بذلوا جهدًا في إنماء المعارف العربية ، فليس في هذا ما يقلل المجهود العربي أو ينقص من قيمته ، وإذا كانت المعارف غير العربية امتزجت بالثقافة الإسلامية العربية ، فليس في هذا ما يقلل من فضل الثقافة العربية - أو ينقص من سؤددها ؛ فالثقافة الإسلامية العربية لم تخرج عن قاعدتها ولم تتلون بغير لونها ، فالمسلمون وغير المسلمين من العناصر غير العربية ، إن أسهموا في بناء الثقافة العربية الإسلامية ، فما أسهموا به لم يخرج عن لغتها العربية ومنطقها الإسلامي .

وإنه لخليق بنا : أن نقف قليلاً عند الموالي والشعوبيين، فالبحث في الولاء والموالي، والشعوبية والشعوبيين ضروري لمصادر التاريخ ، فلقد جلس رجال من الموالي ورجال من الشعوبيين في مصاف أوائل الرواد الذين أصبحت أقوالهم نصوصًا تاريخية اعتمد عليها المؤلفون في التفسير والتاريخ مثل: (ابن جرير الطبري) و(ابن كثير) و(ابن الأثير) و(ابن خلدون) وغيرهم ممن حفلت المكتبة العربية بمؤلفاتهم .

أولاً - الولاء والموالي :

١- ما أكثر الباحثين في الولاء والموالي، وما أكثر الآراء التي حامت حول هذا الموضوع ذات اليمين وذات الشمال، فشرق بعضها وغرب البعض؛ فمنها : آراء تسامت عن الغرض والانحراف، ومنها : آراء انحدرت عن مستوى التحقيق العلمي النزيه .

فعلينا قبل كل شيء أن نعرف مدلول كلمة (مولى)، وهل هي كما فهمها بعض المتأخرين من المصطلحات الإسلامية تدل على كل مسلم غير عربي؛ فهي بناء على ذلك تعني : الأعجمي المسلم : أو أنها كلمة جاهلية تخضرمت بمعانيها ثم اقتصر مدلولها فيما بعد على غير العرب ممن ينتسب إلى قبيلة من القبائل العربية لسبب من الأسباب: بعد أن كان قبل الإسلام يشمل العربي والأعجمي على السواء ؟

لا شك في أن كلمة (مولى) قد سبقت الإسلام ، فالعرب كانوا يسمون ولي أمر الفرد أو الجماعة :واليًا، ويسمون الفرد الذي عادت ولايته إلى أسرة أو إلى قبيلة مولى : سواء كان عربيًا أم أعجميًا .. ففي لسان العرب يقول (أبوالهيثم) : المولى على ستة أوجه (١) المولى : ابن العم والأخ والابن والعصبات (٢) المولى: الذي يلي عليك أمرك (٣) المولى: مولى الموالاة: وهو الذي يسلم على يدك (٤) المولى: المُعتِق الذي أنعم على عبده بنعمة (٥) المولى: المُعتَق لأنه نزل منزلة ابن العم، (٦) المولي: الناصر. وجاء في لسان العرب: وكذلك الجار عامة ، والشريك والحليف مولى، والمولى: هو : الولي؛ ففي الحديث : (أيَّما امرأة نكحت بغير إذن مولاها فنكاحها باطل) فكل من ولي أمرًا فهو مولاه. وقد يختلف مدلول هذه الأسماء؛ فالوَلاية بالفتح : في النسب والنصرة والعتق. والوِلاية بالكسر : في الولاية[1] .

(١) لسان العرب ، مادة ولي ١٥/١٠٨ وما بعدها.

إذن : ليس المولى في لغة العرب هو : الأعجمي الذي يسلم على يدك فحسب.. ونحن إذا ما بحثنا في تراجم أعلام الرواد نجد أعلامًا من العرب قال عنهم الكاتبون : إنهم موال، ونجد الذين كتبوا عن الرواد لم يقصدوا بالموالي : العناصر غير العربية فالذين ألفوا في التراجم لم يقصروا صفة الموالي على الأعجمين، بل هم أطلقوها على كل من انطبقت عليه صفة المولى .

٢- قد ترى : أن البحث في الولاء والموالي قد أقحم هنا دون كبير حاجة إليه ، وهذا صحيح لولا ذلك الالتباس الذي خالط تاريخ بعض رجالات الدولة الإسلامية وبناة ثقافتها . فلقد جاء في كتاب : (حياة محمد) لمؤلفه (محمد حسين هيكل) عندما بحث المؤلف في قضية (زيد بن حارثة) وزواجه من (زينب بنت جحش) [فأبى أخوها (عبدالله ابن جحش) أن تكون أخته وهي قرشية هاشمية . وهي فوق ذلك ابنة عمة رسول الله تحت عبد رق اشترته (خديجة) ثم أعتقه محمد][1] . هكذا أورد (هيكل) الخبر بدون زيادة توضح أصل زيد بن حارثة الذي جاء نسبه في سيرة (ابن هشام) عندما تحدث عن زيد مولى رسول الله عليه السلام. (زيد بن حارثة) بن شراحبيل بن كعب بن (عبدالعزى) بن (امرئ القيس) بن (عامر) ابن (النعمان) بن (عامر) بن (عبد ود) بن (عوف) بن (كنانة) بن (بكر) بن (عوف) بن (عذرة) بن (زيد اللات) بن (رفيد) بن (ثور) ابن (كليب) بن (وبرة) ، وجاء في سيرة (ابن هشام) عن قصة زيد : [أن زيد بن حارثة كان مع أمه (سعدة) (بنت ثعلبة) من بني (معن بن طيئ) عندما أصابتها خيل وهي في طريقها لزيارة أهلها][2] .

فزيد بن حارثة المولى هو : عربي أبًا وأمًّا كما رأيت ، وكذلك (محمد بن إسحاق) مولى آل مخرمة الذي سوف تأتي ترجمته في هذا الجزء مع الطليعة من رواد التاريخ هو: مثل (زيد بن حارثة) عربي، فهو (ابن إسحاق) حفيد (يسار) و(يسار) هو : أحد

---

(١) **حياة محمد** ، ص ٣١٥ .

(٢) **سيرة ابن هشام** ١/٣٤٧ .

الرهن الذين وجدوا في كنيسة (عين تمر)[1] يدرس الإنجيل. والرهائن هي : خمسمائة رجل من قبائل العرب يقيمون على باب ملك الحيرة من اللخميين سنة ثم تجيء بدلهم خمسمائة أخرى رهائن[2] - و(عين تمر) بلدة قريبة من (الأنبار) افتتحها المسلمون في أيام (أبي بكر) على يد (خالد بن الوليد) سنة ١٢هـ[3] - ومن (عين تمر) نقل يسار إلى المدينة وأصبح مولى (عبدالله بن قيس)[4] .

فصفة المولى كما ترى لا تقتصر على كل أعجمي أسلم على يد عربي ، والمجال العلمي في المجتمع الإسلامي لا يختص به العربي دون الأعجمي أو السيد دون المولى والمسلم دون الذمي ، فلكل فرد تحميه الدولة الإسلامية ، حق في العلم والتعليم؛ فلقد كان للشعراء الثلاثة : (الفرزدق) و(جرير) و(الأخطل) مكانتهم في عالم الشعر ، فلم تبخس النصرانية شعر الأخطل ، ومكانته الأدبية .

٣- أما المسلمون ، فالناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي. إنما الفضل بالتقوى ، فليس هناك ما يمنع (أبا بكر الصديق) أن يقدم (صهيبًا الرومي) يصلي بالمهاجرين والأنصار ، وليس هناك ما يمنع (عمر بن الخطاب) أن يضع (بلالاً) الحبشي في مرتبة السيادة التي وضع فيها أبا بكر الصديق: [أبوبكر سيدنا وأعتق سيدنا] وليس هناك ما يخشاه (سلمان الفارسي) عندما قال : [أنا ابن الإسلام][5] .

لقد رحبت الدولة الإسلامية بالكفايات ، مهما كان عنصرها . ولقد فتحت الثقافة الإسلامية أبوابها لكل المؤهلات على اختلاف مذاهبها ، فلا ضير على المعارف العربية

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١/٨٨ .

(٢) بلوغ الأرب ٢/١٧٦.

(٣) معجم البلدان ٦/ ٢٥٣ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ١/٨٨ .

(٥) راجع المحاضرة التي ألقيتها في رابطة العالم الإسلامي بعنوان: (**الإسلام والعنصرية**) ، فلقد طبعتها رابطة العالم الإسلامي مع محاضرات عام ١٣٨٥هـ.

الإسلامية إن برز في مجالاتها غير العربي ، ولا ضير على التاريخ العربي إن ألف فيه غير المسلمين؛ فالمعارف العربية لم تكن في يوم من الأيام عنصرية أو طبقية .. والتراث العلمي العربي الإسلامي الذي أسهم فيه جميع الذين عاشوا تحت الراية الإسلامية ، لم يستعجم في يوم من الأيام ، وإنما الأعاجم من أبناء الدول الإسلامية هم الذين استعربوا .. وكل من يفخر بعروبة التراث العلمي يضع اليوم يده على قلبه خشية أن تتأمرك أو تتبلشف معارف الأجيال القادمة ، ويتمنون على الدولة العربية أن تتدارك المعارف العربية ولغتها بما يضمن عروبتها.

ثانيًا – الشعوبية والشعوبيون :

١- أنا عندما تكلمت عن الموالي؛ تكلمت عنهم بناء على ما لهم من نشاط علمي وفكري كانت له قيمته في الثقافة العربية الإسلامية .. وأنا عندما أتكلم ثانيًا : عن الشعوبيين؛ أتكلم عنهم، نظرًا لما لهم من نشاط مفيد في التاريخ العربي، ولما للشعوبية من رد فعل عند العرب وضحت آثاره على المجهود الذي واجه به العرب حملات الشعوبيين في الجاهلية والإسلام .

وأنا عندما أتكلم عن الشعوبية ، لابد لي من البحث عن معنى هذا الاسم : (الشعوبية) . وأنا عندما أبحث عن مدلول اسم الشعوبية ، أجد الشعوبية كما يقال عنها : فرقة من الناس ذهبوا إلى تصغير شأن العرب ، فلقد قال بعض المفسرين : إن المعنيين بالقبائل هم : العرب، وإن المعنيين بالشعوب هم : الأعاجم، وفي قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ﴾[1] . فالشعوبية اصطلاح مشتق من الشعوب؛ أخذ المؤلفون في العصر الإسلامي يصفون به خصوم العرب من الأعاجم، فيقولون عنهم : شعوبية . فلقد جاء في الأغاني [ثم نشأ (غيلان)

---

(١) بلوغ الأرب ١/ ١٦٠، سورة الحجرات، الآية : ١٣.

الشعوبي، وكان يروى عنه في عوراته بالتشعب والعصبية][1] - ويقول (أحمد أمين)[2] في ضحى الإسلام : [وأقدم ما وصل إلينا من الكتب التي استعملت لفظ (شعوبية). كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ المتوفى حوالي سنة ٢٥٥هـ].

٢ - والذي يرجع إلى التاريخ العربي القديم، يجد الشعوبية في البلاد العربية قديمة قدم العناصر غير العربية في الهلال الخصيب. فالشعوبية التي ظهرت في المجتمع الإسلامي كان لها شبه من عهد (آشور)، فدولة (نينوى) الآشورية تغلبت عليها العناصر التي ساعدت على قيامها مثلما تغلب على دولة (بغداد) العباسية العناصر التي ساعدت على قيامها، فكما مني العرب في العهد الآشوري بحقد بالغت فيه العناصر التي لم يرضها النفوذ السامي (العربي) كذلك مني العرب في العصر العباسي بحقد العناصر التي لم يرضها النفوذ العباسي العربي.

فالشعوبية في التاريخ العربي لم تكن نتيجة للسياسة العربية، إنما هي سليلة الخصومات التي قامت بين العرب وبين العناصر التي تحاول الاستيلاء على مقدراتهم .. والشعوبية لم تهدأ ثائرتها في جيل من الأجيال، فقد كانت ومازالت قوة العرب تخفيها، وضعفهم يظهرها، فما قصة (النعمان بن المندر) مع كسرى عندما افتخر النعمان بالعرب؛ إلا لون من ألوان الشعوبية .. والشعوبية في الحاضر العربي، أنكى وأخبث منها في أي وقت مضى؛ فلقد أخذت تسندها وتخطط لها قوى هدامة استغلت مآزق العرب ومشكلاتهم في قلب أوضاعهم وتحطيم مبادئهم وإقصائهم عن عروبتهم ومقدساتهم.

والشعوبية في تحقيق المتأخرين لم تكن عقيدة محدودة التعاليم يمكن تحديد وجوه الخلاف بينها وبين العروبة؛ فشعوبية فارس شعوبية صبغت صبغة وطنية تدعو إلى

---

(١) الأغاني ٢٢/٢٠.

(٢) كتاب ضحى الإسلام ٥٩/١.

الاستقلال ، وشعوبية القبط ظهرت في شكل عصبية للأرض وزراعتها وكثيرًا ما دفعت الشعوبية إلى الزندقة[1] .

٣- ونحن لا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا : إن الشعوبية عندما ظهرت في العصر الإسلامي، ظهرت بسمات القبلية وصفاتها ، فمثلما نجد في كل صفحة من صفحات التاريخ الأموي والعباسي، أخبار التنافس القبلي بين المضريين واليمنيين نجد أيضًا : أخبار التنافس الشعوبي بين الأعاجم والعرب لاسيما في المجال العلمي والأدبي، فلم يسلم مجتمع من المجتمعات من هذا التنافس الذي رأت المدينة المنورة أخيرًا لونًا من ألوانه عندما ظهر التنافس بين المجاورين وأهالي المدينة القدامى إبان الحكم التركي العثماني ، فلقد أخذ المجاورون ينقبون عن مثالب المدنيين ويلمزونهم في أنسابهم .

ولا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا : إن التنافس القبلي بين الشعوب العربية أضر بالقضايا العربية ، وشغل العرب في جاهليتهم وبعد إسلامهم بخصومات هم في غنى عنها ، كان لها فعلها في فوضى العصر الجاهلي ، وكان لها فعلها في تصدع التضامن العربي في عصور ما بعد الإسلام، وإن التنافس العنصري بين العرب والفرس أضرَّ بهما معًا في المجال السياسي ، ففي ما آلت إليه حال الفرس والعرب على السواء في العصر العباسي : مثل واضح لنتائج ذلك التنافس .

٤- ففي طليعة نعرات الجاهلية التي لم يمحها الإسلام؛ إلا فترة قصيرة ثم انتكست على أشدها : خيلاء العنصرية والتحزب لها . وفي مقدمة أبواق الحزبية العنصرية وطبولها : الشعر العربي الذي يتصدره الحماس للقبيلة والفخر بالأنساب والأمجاد، فلا غرو ! إن اتخذت العناصر غير العربية : الأدب العربي وسيلة لذكر ماضيها، ولا غرو ! إن نشأت خصومات عنصرية بين القبائل والشعوب .

---

(١) ضحى الإسلام ١/ ٦٠ .

٥- فلقد نشبت في العصر الإسلامي، معارك بين الشعوبيين المنهزمين سياسيًا وعسكريًا، وبين العرب المنتصرين في ميادين السياسة والحرب .. ولقد كان السلاح في هذه المعارك: الهجاء والمديح والافتخار بالآباء وأنسابها ، والدول وأمجادها ؛ فللشعوبيين تاريخ حافل بكل ما حفلت به أرض الأنهار من خصب وثروة ورفاهية .. وللعرب تاريخ حافل بكل ما حفلت به الصحراء من انطلاق وعزة وصلابة ؛ فأخذ الشعوبيون يفتخرون بما كان لهم من سلطان غنى مترف ونفوذ واسع عظيم، ويندّدون بما كانت عليه غالبية العرب من فقر وضعف، وحياة مجدبة ومريرة ، وأخذ العرب يفتخرون بانتصار الفقر على الغنى ، والجدب على الخصب ، والضعف على القوة ، والحياة القاسية المنطلقة على الحياة الناعمة المقيدة .

ولقد ضمن الدستور الإسلامي للفريقين حرية الفكر والقول، ما لم يكن في القول قذف ، ولقد أفسحت البحوث التاريخية والأدبية المجال للمتنافسين، فتاريخ الشرق العربي حافل بما يثير حماس العنصرية ، ويشعل نارها ، فذكريات الماضي التي تسلطت على الشعوبيين، بعثت ردود فعل عند العرب وفتحت آفاقًا جديدة في الأدب العربي وفي البحوث الاجتماعية والتاريخية ، وإن امتداد البحوث التاريخية والأدبية إلى تلك الآفاق كان كسبًا للمعارف العربية إلى جانب ما كسبته الثقافة العربية من احتكاكها بالثقافات اليونانية واللاتينية والفارسية . فمن المعارك التي قامت بين العرب والشعوبيين تجمعت مادة تاريخية أفادت جامعي التاريخ والمحققين في أطواره ومسالكه، فالتنافس العنصري قبليًا وشعوبيًا على مساوئه السياسية أظهر ألوانًا من حياة الأمم في أرض الجزيرة ، وأفاد في معرفة الكثير من أخبار الأعاجم في ماضيهم الذهبي ومن أخبار العرب في جاهليتهم الصلبة ، وفي إسلامهم المضيء، وألقى أضواءً على جوانب كثيرة من حياة شعوب البلاد العربية وصلات العرب بأمم هذا الشرق .

٦- وأخيرًا لست أخطّئ من يقول : إن التنافس القبلي والشعوبي هو جزء من التاريخ العربي !!

الفصل التاسع

مسالك رواد التاريخ ومناهجهم

١- المواد التاريخية..

٢- الأنساب مادة تاريخية .

٣- الجغرافيون العرب ورحّالتهم.

٤- التراجم .

٥- التعريب أو الترجمة .

البحث الأول

المواد التاريخية

من موضوعات البحث :

١- أرومة مصادر التاريخ الديني .

٢- معرفة المسالك ضروري للباحث في نشأة التاريخ عند العرب .

٣- من أين جمع الرواد نصوص التاريخ ؟

٤- الطريق الذي سلكته مسيرة الرواد .

٥- عثرات الرواد لم تفت محققي التاريخ .

٦- مصادر التاريخ العربي مازالت قيد التحقيق العلمي .

المواد التاريخية

١- مثلما ألزمني البحث فيما تقدم من هذا الجزء ، أن أعرف من أين وصل إلى الإسرائيليين أخبار الإنسان الأول الذي استعمر الأرض وأقام عليها حضارته قبل الطوفان ، وأعرف من أين جاءوا بتفسيرهم ما نوهت به أسفار أنبيائهم عن (آدم) و(إدريس) و(نوح) و(إبراهيم) إلى غير ذلك من القصص الذي أسميته : (التاريخ الديني) هل هو مجرد خيال ؟؛ فالخيال لابد له من قبس ينسج على ضوئه قصصه ، فالإنسان لم يصل خياله إلى عالم الأفلاك فيؤلف قصصه من عالم (المريخ) و(الزهرة)؛ إلا بعد أن وصلت معارفه إلى شيء من حقيقة عوالم الفضاء .

ولقد وصل البحث في التاريخ الديني إلى أنه مستمد من المواعظ التي بشرت بها الأنبياء والرسل من بعد (آدم) فتناقلتها الأمم ، وآخر ما وصلت إليه معارف المحققين هو : القصص السوموري الذي وصل إلى الآشوريين والكلدانيين، ومن هؤلاء وصل إلى الإسرائيليين والفرس واليونانيين والسريانيين، ومن هؤلاء أخذ الرواد من المفسرين والمؤرخين الإسلاميين ما فسروا به قصص القرآن الكريم وما جاء فيه عن أصل الخليقة وعالم (إدريس) وطوفان (نوح)، كما أخذوا من القصص الجاهلي أخبار (عاد) و(ثمود) و(جرهم) و(العماليق) .

وكذلك مثلما ألزمني البحث كل ذلك، أراني ملزمًا بأن أسير في مسالك التاريخ العربي على وعورتها ، وأن أقدم للقارئ أوائل الرواد وأعلام المصنفين في التاريخ؛ ليتبين معي - هاتيك المسالك ويعرف من هم أولئك الرواد الذين وثق بأقوالهم كتاب التاريخ الذين قدموا لنا الموسوعات التي أصبحت مرجعًا لكل من يبحث في التاريخ العربي .

٢- فمعرفة المسالك التي سار فيها الرواد ، والمراحل التي قطعها المؤلفون في التاريخ حتى وصل علم التاريخ إلى هذه المرحلة من التخصص المركز القائم على الدراسة الفنية؛ تلزم الباحث بأكثر من الإشارة العابرة عندما يتحدث عن نشأة علم التاريخ عند العرب وكيف بدئ بتدوينه بعد الإسلام ، ومناهج المؤرخين وموضوعات مؤلفاتهم ومبلغ نقاشهم وتحقيقهم؛ فالنصوص التاريخية التي بين أيدينا على ما لوحظ على بعضها فيما سبق - هي : ثمرة جهد جبار ، ونهاية مرحلة في طريق مازال طويلاً أمام الباحثين ، قطع الرواد بدايته الوعرة مستسهلين الصعب، مقتحمين العقبات في سبيل خبر يحققون سنده ، أو بلد يصفون مجتمعه ويتقصون أخباره .

فمما لا شك فيه : أن التاريخ العربي بكل صوره الجاهلية، وبكل ما كتب عنه اليونانيون والروم والفرس، لم يكن تاريخًا قائمًا بذاته، وعلمًا يجمع ويدون؛ إلا بعد الإسلام؛ ففي العصر الإسلامي بدأ العرب يسيرون بتدوين التاريخ في الطريق الذي وصل إلينا منه .

فلقد بدأ تدوين التاريخ العربي العام مع تفسير القرآن، مثلما بدأ تدوين التاريخ الإسلامي مع رواية الحديث وتحقيق سنده؛ فجمع الأحاديث الواردة في سيرة النبي عليه السلام ومغازيه ، وأقوال الصحابة الذين عاصروا الإسلام من بدايته هو : المهمة الأولى التي اضطلع بها الرعيل الأول من رواد التاريخ وهو : أولى الخطوات في تأليف التاريخ الإسلامي ، كما كانت أولى الخطوات في تدوين التاريخ العربي العام، وهي : البحث في تراث القدامى عما جاء في القرآن الكريم من أنباء الماضين، فكان على ذلك الرعيل من الرواد . أن يسأل عن كل آية ذكرت في القرآن ، ويبحث في أسفار أهل الكتاب وذخائر اليونانيين ومدوّنات اليمنيين وأشعار الجاهليين ، ومن هنا بدأ التاريخ العربي العام ، ومن هنا بدأ القصص التاريخي ودخل خيال القدامى إلى التاريخ العربي.

٣- فمن الرواة : من أخذ يبحث في الكنائس والصوامع ومدارس اليونانيين والسريانيين وقصور التبابعة اليمنيين؛ يجمع أخبار دول الهلال الخصيب واليمن السعيد. ومنهم : من أخذ يرتاد الأسواق العربية في المدن الإسلامية ويتنقل بين أحياء العرب؛ يجمع أخبار الجاهلية وأشعارها ولغاتها وأنسابها .

ولقد كان بناة التاريخ يجمعون من تراث الذين سبقوهم إلى التدوين في التاريخ: أخبار الماضي القديم، كما كانوا يجمعون أخبار الجاهلية من عرب الجزيرة الذين يتوافدون على (مربد) البصرة (وعكاظ). ولقد زاد في حرص عرب الجزيرة على الحضور إلى سوق البصرة مزوّدين بما يحفظونه من شعر وقصص وأنساب : إقبال علماء التاريخ والأدب والأنساب واللغة عليهم بتهافت لفت نظر أذكيائهم فأخذوا يزاحمونهم في مجال الرواية والتأليف .

ومن بداية الدراسات التاريخية، اهتم روادها بأنساب العرب وأنساب الأمم التي اختلط تاريخها بالتاريخ العربي؛ فالأنساب مادة مهمة للمؤرخ الذي يكتب عن الشرق العربي .

ومن بداية التدوين في التاريخ العربي، ساعدت الأسماء التي عرفت بها مدن الجزيرة وقراها وأوديتها وجبالها وحرارها وسباخها ـ في إيضاح ما يحتاج المؤرخ إلى إيضاحه، فيما كتبه عن القبائل العربية ومنازلها وطرق القوافل التجارية ومحطاتها، والمغازي وميادينها؛ فحاجة المؤرخ إلى معرفة جغرافية الأرض التي يكتب عن تاريخها هي : الباعث الأول لنشوء الصلة بين التاريخ والجغرافية . فمن منتصف القرن الثالث من الهجرة ألزم كثير من المؤرخين أنفسهم بالمادة الجغرافية، فعلى نحو ما كتب مؤرخو السيرة والمغازي عن منازل الوحي في مكة، أو طريق الهجرة إلى المدينة، وميادين المغازي والسرايا؛ كتب مؤرخو الفتوحات عن الأقطار التي أظلتها الراية الإسلامية.. ومن أوائل الذين توسعوا في الجانب الجغرافي من التاريخ : (اليعقوبي) و(المسعودي) .

ولم يغفل الروّاد عما في حياة أعلام الدولة الإسلامية ونوابغها من تاريخ هم في حاجة إلى الاستضاءة به فيما يكتبونه عن السياسة والإدارة في الفتوحات الإسلامية ، وعن نشأة العلوم وتطورها ، وعن الأدب وفنونه ، فتفرغ الكثيرون للتأليف في تراجم الأعلام .

ولم يقتصر الجهد العربي على نقل النصوص العلمية والأدبية إلى اللغة العربية ، بل تجاوز ذلك إلى نقل الملفات بكاملها من لغات اليونانيين والفرس والسريانيين والإسرائيليين إلى اللغة العربية ، فامتلأت مكتبات العصر الذهبي للدولة العباسية بكل ما هو ثمين ومفيد من التراث العلمي الذي مازال العالم يأسف لضياع أكثره في غمار الكوارث التي مرت بهذا الشرق الدامي .

هكذا تفرقت برواد التاريخ مسالك البحث ، وعلى هذا النحو أخذ الرواد يجمعون مواد التاريخ من هنا وهناك؛ يسيرون خطوة خطوة مع الزحف الإسلامي ، محاولين تعويض ما فات الأمة العربية في فترة الجمود والانزواء التي سبقت الإسلام والتي فقدت فيها الحلقات التي تربط بين العصور المظلمة التي سبقت الإسلام وبين أمجاد العصور القديمة .

٤- أجل ! لقد قلب الزمن للعرب ظهر الهجن؛ فإذا بالظلام يخيم على أرض الجزيرة التي أقفر أكثرها بعد عمران ، وأجدب بعد خصب ، وسكن بعد حركة وضجيج وعجيج ، وإذا بالعراق يصبح فارسيًا وبسورية ومصر تصبحان بيزنطيتين ، وإذا باليمن يصبح فريسة لمطامع الإمبراطوريتين الحبشية والفارسية ، وإذا بظلام الوثنية يلف ملة إبراهيم ، وإذا ببوادي الشعوب العربية تنوء بالجهل والفقر لا تعرف شيئًا عن الماضي الذي لفظها والمستقبل الذي ينتظرها .

وهذا ما جعل مهمة الرواد الأوائل من الصعوبة بمكان ، فلو لم يكن جهدهم على ما كان عليه صلابة وثباتًا وإخلاصًا لما استطاع المؤرخون فيما بعد : أن يقوموا بما قاموا به من دراسات تاريخية لا تزال تتبوأ مكانتها في الثقافة العربية .

فالدراسات التاريخية في العصر الإسلامي بدأت سيرها في طريق مجهول بالنسبة للرواد الذين تقدموا المسيرة؛ فمجاهل الطريق فرضت عليهم الاهتمام بجمع المعلومات من أي نوع كانت ومن أي مصدر جاءت ، ثم العمل على التحقيق في سندها ، لاسيما فيما يعود للسيرة والمغازي . والدراسات التاريخية في بداية مسيرتها وجهتها مناهج مدرسة المدينة المنورة التي عرفت بالدقة والتعمق، ثم لم تلبث أن اتسعت أمام الباحثين الآفاق وتعدّدت المناهج وتعدّدت الأهداف .

فدراسات الذين انطلقوا من نقطة البداية مثل (عروة بن الزبير) و(أبان ابن عثمان) و(محمد بن شهاب الزهري)، وإن كانت المسيرة والمغازي قد استحوذت عليها ، هي بدون شك قد مهدت الطريق للذين قادوا القافلة بعدهم من مضايق الجمع والتبويب إلى صعيد التأليف في مختلف الموضوعات التاريخية .

٥- ولرواد الدراسات التاريخية على ما بذلوه من حرص : عثرات لم تفت المحققين فسلطوا الأضواء عليها . وعلى الذين اندسوا بين الرواد من الذين لا يميزون الغث من السمين ، وعلى الذين أغرموا بالوضع والمبالغة والخيال، فكل من أشاد بالرواد القدامى اعترافًا بجهدهم وإعجابًا بتراثهم، يعترف في الوقت نفسه بقيمة التحقيق الذي قام به المتأخرون ، وبفوائد النتائج التي وصلوا إليها ، فكثرة روايات الماضين ، والتناقض الذي يبدو على بعضها ، وتدخل الحزبية في نقل الأخبار، وجرأة المتحزبين على الوضع والانتحال : ورّط الكثيرين من رواد الماضي في أخطاء مازال الباحثون مشغولين بإظهارها .

٦- فمصادر التاريخ جميعها مازالت قيد النقد الفني والتحقيق العلمي في مكاتب المختصين في علم التاريخ الذين أخذ كل واحد منهم ينقد ويحقق ما هو في حيز اختصاصه ، فالعوامل التي نشأ عنها تنوع التأليف في التاريخ. هي : من نوع العوامل التي فرضت الاختصاص في الدراسات التاريخية في وقتنا الحاضر .

وتفرق المسالك برواد التاريخ الذي نشأ عنه تفرغ بعضهم للتاريخ. السياسي وبعضهم للتاريخ الأدبي، وبعضهم للأنساب ، وبعضهم للتراجم ، وبعضهم للنقل إلى العربية ، هو الذي فرض استقصاء الكلام عن مناهج الرواد ، وموضوعات مؤلفاتهم ، كما ألزمنا المجهود الكبير الذي بذله نوابغ المؤلفين في تصنيف موسوعات عامة شملت جوانب التاريخ : أن نلقي نظرة عامة على مصادر التاريخ العام .



البحث الثاني

الأنساب مادة تاريخية

من موضوعات البحث :

١- حفظ العرب أنسابهم كما حفظوا أشعارهم .

٢- كل عربي ينتمي إلى قبيلة .

٣- آباء القبائل .

٤- الأرومات وتفرعاتها .

٥- ديوان الجند في العصر الإسلامي ساعد على التأليف في الأنساب

٦- أول كتاب ألف في المثالب .

٧- الشكوك حول الأنساب .

٨- تلاشي الشعوب ليس دليلاً على عدم وجودها كليًا .

٩- الأنساب في حاجة إلى مزيد من التحقيق؛ لأنها من صلب التاريخ .

١٠- مصادر الأنساب .

الأنساب مادة تاريخية

١- من الموضوعات التي تكرر الكلام عنها في كتب التاريخ والأدب: حرص العرب على أنسابهم؛ فلقد ضرب الكثيرون الأمثال على اعتزاز العرب بأنسابهم وحفظهم إياها ، فاعتزاز القبيلة بوجود شاعر بينها ينافح عنها ويتحدث بمفاخرها ، لا يزيد على اعتزازها بوجود نسابة فيها يحفظ نسبها ويدافع عنه.

٢- فالأنساب في المجتمع الجاهلي، مسألة ذات شأن، فلابد لكل عربي من الانتماء إلى قبيلة .. والانتماء إما أن يعتمد على الاشتراك في الأرومة ، وإما أن يأتي عن طريق الولاء الذي تقدم الكلام عنه في بحثه الخاص . ومن المألوف عند العرب، أن ينضم الرجل إلى غير قبيلته التي يشاركها في نسبها ، ففي هذه الحالة ينسب إلى القبيلتين : إلى القبيلة التي انحدر من أرومتها وإلى القبيلة التي انضم إليها . أو ينسب إلى إحداهما .

٣- ولابد لكل قبيلة من جد تنسب إليه ، وقد تطلق على بعض القبائل أسماء أمكنة لمناسبات قام عليها تاريخ القبيلة، مثل : (الغسانيين)، فقد نسبوا إلى الماء الذي نزلوا عليه عندما هاجروا من اليمن، أو اسم حادث ارتبط به تاريخها . مثل : خزاعة فقد سموا : خزاعة؛ لأنهم تخزعوا على قومهم في مكة وتابع الآخرون سيرهم من (مأرب) في اليمن إلى (يثرب) فاستوطنها منهم : (الأوس والخزرج) وسار الباقون إلى (غسان) في الشمال . وهذا الذي يشوش على الباحثين في أنساب الدول والشعوب ، فبعضهم يصر على أن كل شعب سمي باسم جده الأول، فجعل (سبأ) و(حضرموت) و(آشور) و(خيبر): آباء للسبئيين والحضرميين والآشوريين والخيبريين !!!

٤- فتقصِّي الأنساب في بحوث القدامى ينحصر أكثره في إرجاعها إلى جد منه تفرعت الشعوب ، ومن (الشعب) تفرعت القبائل ومن (القبيلة) تفرعت العمائر ومن (العمارة) تفرعت البطون ، ومن (البطن) تفرعت الفخوذ ، ومن (الفخذ) تفرعت (الفصيلة) .

فالشعب يشير إلى النسب الأبعد ، مثل : (عدنان) و(قحطان) .. والقبيلة هي : فروع الشعب . مثل : (ربيعة) و(مضر) . والعمارة هي : فرع القبيلة . مثل : (قريش) و(كنانة) . والبطن هي : فروع العمارة . مثل : (بني عبد مناف) و(بني مخزوم) . والفخذ هو : فروع البطن مثل : (بني هاشم) و(بني أمية) . والفصيلة هي : فروع الفخذ . مثل : (العلويين) و(العباسيين) إلى غير ذلك مما يقع في اعتبارهم أشياء مرادفة لما تقدم مثل : (حي) و(بيت) و(عقيلة) و(أرومة) و(جرثومة) و(رهط) . وفي تحقيق (محمد بن أسعد الحراني) جاءت على النحو التالي : (جذام) ثم (جمهور) ثم (شعب) ثم (قبيلة) ثم (عمارة) ثم (بطن) ثم (فخذ) ثم (عشيرة) ثم (فصيلة) ثم (رهط) ثم (أسرة) ثم (عترة) ثم (ذرية) . وزاد غيره في أثنائها ثلاثة وهي (بيت) و(وحي) و(جماع) .

على أن أكثر ما تتداوله العرب هو : الطبقات الست المتقدمة التي تبتدئ من الشعب وتنتهي بالفصيلة ، وقل أن تذكر العمارة والفخذ والفصيلة ، وربما عبر عن كل واحد من الطبقات الست بالحي[1] - ولقد تقدم في بحث (الشعوبية والشعوبيون) أن المراد بالشعوب : الأعاجم وبالقبائل : العرب .

وإذا تباعدت الأنساب ، صارت القبائل شعوبًا ، والعمائر قبائل إلى غير ذلك ، مما جاء مفصلاً في مؤلفات الأنساب وفي البحوث التي وضعت فيها مما ساق الباحثين إلى

---

(١) بلوغ الأرب ٣/ ١٨٨ وما بعدها : لقد حرصت على ذكر هذه المصطلحات؛ نظرًا لكثرة ورودها في مؤلفات التاريخ مثل: بنو فلان وحي فلان وعشيرة فلان وعترته .. إلخ.

معرفة الكثير من تاريخ الشعوب وحياة القبائل ومنازلها وهجراتها وأسباب انقسامها ودواعي تسميتها بالأسماء التي عرفت بها .

٥- ولقد كان العرب في جاهليتهم يتوارثون أنسابهم؛ فيحفظها الابن عن أبيه والأب عن جده ، ويحفظون معها مفاخر القبيلة والأحداث التي مرت بها ، فلما جاء الإسلام وتفرقت قبائل العرب في طول البلاد الإسلامية وعرضها : جنودًا يحافظون على الأمن والعدالة ويحمون الثغور من اعتداءات الموتورين ومطامع الطامحين، أنشئت (دواوين الجند). ويرى البعض : أن دواوين الجند التي أنشئت في الحواضر الإسلامية ، كانت نواة التأليف في الأنساب .

وأوّل من أسس ديوان الجند عمر بن الخطاب، فَصُنِّفَ المسلمون ذلك الديوان بحسب أنسابهم ، وأوّل عالم في الأنساب في العصر الإسلامي : (أبوبكر الصديق) وممن اشتهر بمعرفة الأنساب (لسان الحمرة) و(سعيد بن المسيب) و(النسابة البكري) و(محمد بن السائب الكلبي) وابنه (هشام) و(دغفل النسابة) و(زيد بن الكيس النمري) و(النخار بن أوس القطاعي) و(صعصعة بن صوحان) و(عبدالله بن عبدالحجر بن عبد مدان) .

وأوّل من كتب في الأنساب (أبويقظان) المتوفى سنة ١٩٠هـ ، ولم يصل من آثاره إلا مقتطفات تناقلها المؤلفون من بعده[١] ، ولا يستبعد أن يكون (معاوية بن أبي سفيان) دونت له مع ما دون من أخبار ابن شرية وغيره : الأنساب التي كان (دغفل النسابة) يتحدث عنها في مجلسه. فلقد كان معاوية ولوعًا بأخبار العرب وأشعارها وأنسابها ، فكثيرًا ما كان يسأل النسابين مثل : (صعصعة) وغيره من نسابي العرب .

٦- ومن القضايا التي شغلت بها المجتمعات العربية : قضية (زياد بن أبيه) الذي أنكره (أبوسفيان) ابنًا له ، ثم اعترف به (معاوية) أخًا له. فلقد تفاقمت زوبعة الأقاويل

---

(١) علم التاريخ عند العرب ، ص ٤٠.

في الأوساط العربية على إثر ذلك الاعتراف .. تلك الأقاويل التي أقضت زيادًا في بدء حياته، فراح ينقب عن مثالب الأسر المعتزة بأنسابها في دواوين الجند في الكوفة، فقد كان زياد كاتبًا لعمالها، وأقضّته في أواخر أيامه وبعد أن اعترف به معاوية، فسلم أبناءه ما دونه من المثالب؛ ليدفعوا عن أنفسهم: التشهير بهم؛ فأول من ألف في المثالب (زياد بن أبيه) ثم جاء من بعده (الشعبي) وبعض الشعوبيين فزادوا على ما دوّنه زياد وغالوا في التشنيع وبالغوا في التهم[1].

٧- ولقد وجدت الشكوك الطريق واسعًا إلى ما جاء في رواية النسابين، وأكثر الأنساب عرضة للشكوك هي : سلسلة الأنساب التي ترتفع إلى ما قبل الميلاد ، فما جاء في كلام (ابن خلدون) عن الأنساب : أن النبي عليه السلام قال عندما بلغ نسبه إلى (عدنان) : [من هنا كذب النسابون][2]. فعلى ما جاء في بحث ابن خلدون يمكن أن يقال : إن الأنساب قبل (عدنان) مشكوك في صحتها لا يمكن الاعتماد عليها، ولكن يمكن الاستئناس بها، وإن الأنساب بعد عدنان على الرغم من سُحب الشكوك التي تغطيها، يمكن الاستضاءة بها لرؤية بعض الزوايا المظلمة في التاريخ العربي .

ولا شك أن ضبط الأنساب إلى ما بعد (عدنان) أمر يستحيل تصديقه. مهما كانت حافظة العرب قوية ، ومهما كان حرصهم على حفظ الأنساب شديدًا ، زد على ذلك : أن شعوب ما قبل الميلاد بادت دولها وتحطم كيانها وانصهرت بقاياها في الشعوب التي ورثت الأرض من بعدها . كما ذاب كيان القبائل العربية التي سجل لها تاريخ الإسلام مواقفها بجانب الإسلام أو ضده. فأين هم الأوس والخزرج ؟ وأين هم الغسانيون ؟ .. لقد ضاع اسمهم كما تلاشى وجودهم في خضم الزمن فلا أثر لكيانهم ولا عين .

---

(١) نشرت لي مجلة المنهل الغراء مقالاً بعنوان : زياد ابن أبيه أو ابن أبي سفيان ؟ - وأوضحت فيه مصادر زياد وبواعث تأليفه ومصير كتابه والأدلة التي تثبت : أن زيادًا أول من ألف في المثالب .

(٢) تاريخ ابن خلدون ٣/١.

٨- على أن تلاشي الشعوب والدول، وإن يكن مع مرور الزمن شاملاً، لا ينبني عليه الشك في وجود الشعوب والقبائل كليًا، فلقد ظهرت على الآثار التي اكتشفت حديثًا أسماء قبائل ذكرها النسابون قديمًا، كما ظهرت أسماء قبائل وملوك وأمراء وشيوخ لم يذكرها النسابون، أو لعلهم ذكروها بأسماء غير التي جاءت على النصوص، أو أن الذين قرأوها على النصوص حرفوها .. وجميع الأسماء التي وصلت إلى الباحثين في الآثار والتي ذكرها المؤرخون والتي لم يذكروها، والتي حرفها المترجمون والتي لم يحرفوها، لا ظل لكيانها على الأرض العربية.

٩- وعلى ما بذله علماء الأنساب في الماضي، وما يقوم به البحَّاثون في تاريخ الشعوب العربية وأنسابها اليوم؛ ما زال التحقيق في الأنساب في حاجة إلى المزيد من التقصي والتحقيق .. وما قدمه علماء الأنساب في الماضي ويقدمه البحاثون في الحاضر هو: من صلب التاريخ، فمما لا شك فيه: أن الأنساب والبحث فيها أنارا جوانب مهمة من جوانب التاريخ، وأن النتائج التي وصل إليها التحقيق في الأنساب، استفاد منها كبار المؤرخين مثل: (ابن جرير الطبري) و(ابن خلدون الكندي)، ومازالت قيمتها لدى المؤرخين اليوم على ما هي عليه بالأمس.

١٠- ومصادر روَّاد الأنساب لا تختلف عن مصادر روَّاد الشعر الجاهلي وأيام العرب؛ فقد حفظ العرب أنسابهم مثلما حفظوا أشعارهم. ولقد دوَّن اللخميون شيئًا منها، كما دون الحميريون .. ووجد بعضها في أسفار بني إسرائيل وفي مدونات اليونانيين والروم والسريانيين والفرس. ولقد أصبحت الآثار مصدرًا جديدًا في العصر الراهن.

وللمؤرخين في العصر الإسلامي مصادر عدة أخذوا عنها أنساب الفرس واليهود وغيرهما من الشعوب التي تداخل تاريخها مع التاريخ العربي.

المبحث الثالث :

جغرافيو العرب ورحّالتهم

من موضوعات البحث :

١- من مدارس العالم القديم أخذ اليونانيون علم الجغرافية ، ومنهم أخذه العرب.

٢- تقويم البلدان في العصر الجاهلي .

٣- لم يأخذ العرب كل ما وصلهم من اليونانيين على عاهاته .

٤- للعرب فضل في تطوير علم الجغرافية والرياضيات .

٥- حسَّن العرب المعارف التي تلقّوها وزادوا عليها .

٦- لم يتلقّ العرب كل معارفهم الجغرافية من اليونانيين .

٧- أوائل عربية في علم الجغرافية .

٨- الجغرافيون العرب : جغرافيون ومؤرخون ورحّالون .

٩- البحث في تقويم البلدان مكمِّل للبحث في التاريخ .

جغرافيو العرب ورحّالتهم .

١- يبدو على النتائج التي تؤكدها أدلة لا يستهان بها : أن البابليين الذين عنوا بالظواهر الفلكية واستفادوا منها في توقيت الزمن : أعوامًا ، وأشهرًا ، وأسابيع ، وأيَّامًا ، وساعات[1]؛ لم يسيروا جيوشهم عبر بادية الشام إلى شواطئ البحر المتوسط رجمًا بالغيب ، وأن الإمبراطورية الآشورية لم تصل إلى فلسطين ومصر على غير علم بما وراء أرض الرافدين من شعوب ودول ، وأن السفن الفينيقية التي جابت موانئ البحر المتوسط؛ لم تمخر عبابه وتتوغل في ظلماته إلى أوربا وإفريقية بدون خطط تعتمد عليها .

لذلك لم يستغرب الباحثون مما يقال عن اليونانيين الذين بذلوا جهدًا خدم المعارف الجغرافية : إنهم أخذوا مدنيتهم من مدارس العالم القديم في العراق وسوريا ومصر. ولم يكن غريبًا على الباحثين : أن رأوا معلومات اليونانيين عن الهلال الخصيب وعن مصر وسيناء وما وراء الصحراء الغربية المصرية ، أكثر صحة ودقة من معلوماتهم عن الخليج الإسلامي - العربي ، ونجد ، والحجاز ، واليمن؛ فضآلة معلوماتهم عن قلب الجزيرة العربية ، هي التي جعلتهم يطلقون : اسم (اليمن السعيدة) على الأراضي الممتدة جنوب الهلال الخصيب ، ويطلقون : اسم (إثيوبيا) على الحبشة واليمن إلى شواطىء (عمان)[2].

---

(١) بابل وآشور ، ص ٥٢.

(٢) راجع الجزء الخاص بجغرافية الجزيرة الذي يأتي ترتيبه الثالث من هذا المؤلف.

٢- والمعلومات الجغرافية التي افترضها الباحثون في تاريخ بابل وآشور، افترض مثلها الباحثون في تاريخ دول قلب الجزيرة العربية وجنوبها التي كانت تشيد في كل ريع آية وتنحت من الجبال بيوتًا ، والتي امتد نفوذها إلى العراق وسوريا ومصر، فكانت لها دول في تلك البلاد عرفت باسم (الإرميين) في العراق، و(الجبابرة) في الشام، و(العماليق) أو (الشاسو) أو (الهكسوس) في مصر، و(التبابعة) في اليمن .. وكانت لهم طرق تجارية ممتدة من شمال شبه الجزيرة العربية إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها ، وكانت لهم صلات تجارية بالهند عن طريق الخليج الإسلامي، وصلات بإفريقية عن طريق (باب المندب) وصلات بسكان شواطىء البحر المتوسط عن طريق الإسكندرية .

وَمِنَ الذي يجزم به الباحثون في التاريخ العربي : أن العرب الجاهليين كانوا على علم واسع بجبالهم وأوديتهم ورمالهم ، وأن تقسيمهم قلب الجزيرة العربية إلى خمسة أقسام : نجد ، والعروض، والحجاز، وتهامة، واليمن؛ وتعيينهم حدودًا جغرافية لكل قبيلة من القبائل العربية مثل : أرض (غطفان) وبلاد (عبس)يدل كل ذلك على معارف جغرافية دقيقة. وإن ما جاء في كتاب (صفة جزيرة العرب) للهمداني وغيره يوضح لنا : أن العرب كانوا يعرفون بلادهم حق المعرفة .

وأسماء أقسام الجزيرة الخمسة التي ذكرها ياقوت في معجمه[1] : نجد، والحجاز، والعروض، وتهامة، واليمن، تدل في معاجم اللغة العربية على الصفات الطبيعية لهذه الأقسام. فنجد: الأرض المرتفعة، وتهامة : الأرض المنخفضة، والحجاز: ما حجز بين تهامة ونجد، والعروض : الطريق في عرض الجبل[2]؛ فالعرب كانوا يسمون منازل طسم وجديس : العروض؛ لأنها معترضة في بلاد اليمن ما بين تخوم فارس إلى أقصى اليمن[3].

---

(١) معجم البلدان ، مادة الجزيرة ٣/ ١٠٠

(٢) لسان العرب ، مادة عرض ١٧٥/٧.

(٣) معجم ياقوت ،مادة الجزيرة. وفي الجزء الثالث الخاص بجغرافية الجزيرة إيضاح كامل لحدود هذه الأقسام وأقوال العرب والمستشرقين التي وردت فيها.

٣- بيد أن علم العرب بصفة جزيرتهم لم يشمل كل ما يشمله علم (الجغرافية) ، وبناء على ذلك، يرى المستشرقون : أن اليونانيين هم أساتذة المدرسة العربية الإسلامية في علم الجغرافية والرياضيات . ولكنهم يقولون : إن العرب لم يأخذوا كل ما وصل إليهم من اليونانيين على عاهاته؛ فعندما تحدث (سيديو) عن علم الجغرافيا عن العرب قال : [ويعنى العرب في عهد الخلفاء العباسيين الأولين بدراسة العلوم الصحيحة، ويعوّلون على كتب اليونانيين في معارفهم الرياضية والجغرافية .. ويبدو (بطليموس) دليلاً لهم ، ولا يرتضون مبادئه من غير تمحيص. ويأمر (المأمون) بالقيام بأرصاد جديدة في (بغداد) ، وتؤدي (الأزياج) المصححة إلى إصلاح (المحبسطي) .. ومما يجب الاعتراف به : أن فلكيي المأمون الذين قاسوا درجة من دائرة نصف النهار في صحارى (سنجار) أعانوا على تصحيح (أزياج) بطليموس تصحيحًا . جزئيًا]. وقال عندما تكلم عن علم المثلثات : [وعلم المثلثات من العلوم الرياضية التي عني العرب بها كثيرًا؛ لما كان من تطبيقها على علم الفلك ، وعلم المثلثات مدين للعرب بما أدخلوه إليه من التحسينات الكثيرة ، فاكتسب بذلك شكلاً جديدًا ، فجعلوه صالحًا لبعض التطبيقات صلاحًا لم يقدر اليونان عليه إلا بشق الأنفس][1].

ويقول (جوتيه) : [إن (الشريف الإدريسي- الجغرافي) كان أستاذ الجغرافية الذي علم أوربة هذا العلم . لا بطليموس][2] - والشريف الإدريسي الذي يعنيه جوتيه . هو : (محمد بن محمد الحسني الطالبي المتوفى سنة ٥٦٠هـ)[3].

٤- فالعرب في رأي هذا البعض من المستشرقين لم يتقيدوا بمعارف اليونانيين ولم يقفوا عند حدودها ، ورأي هذا البعض من المستشرقين لم يتجاوز الواقع، فمما

(١) تاريخ العرب العام ، ص ٤١٨ و٤٢٨ و٤٢٩.

(٢) الإسلام والحضارة لكرد علي ٢٢٢/١ .

(٣) الأعلام للزركلي ٢٥٠/٧.

لا مراء فيه : أن اليونانيين سبقوا العرب في هذا المضمار، فالمدارس اليونانية قامت من قبل (الإسكندر الأكبر) ، وأن معارف المدارس اليونانية زادها اتساعًا العلماء الذين رافقوا حملة الإسكندر على الشرق الأوسط، فلقد قاموا بمحاولات اكتشافية نجح بعضها ، وبعضها أخفق. ولقد كانت تلك المحاولات بنجاحها وإخفاقها تجارب مفيدة للدراسات الجغرافية.

ومما لا مراء فيه : أن للعرب - وإن سبقهم اليونانيون إلى العلوم الرياضية والجغرافية - الفضل في تطوير المعارف اليونانية وتقدمها؛ فهذا علم (الجبر) يقول عنه (سيديو) : [وكانت لعلم الجبر عند العرب تطبيقات مفيدة ، والعرب هم الذين أطلقوا عليه هذا الاسم (الجبر) فقالوا : علم الجبر والمقابلة؛ ولم يثبت حتى الآن : أن أصل هذا العلم هندي][1].

٥- وليس المجهود العربي الذي بذل لتقدم العلوم الرياضية بأقل من مجهودهم في سبيل التقدم بعلم الفلك والهندسة ، ولكن تقدمهم بعلم الجغرافية لم يكن واسع الخطى إلا في زمن متأخر. أما خطط الجزيرة، فقد كانت عناية العرب بها من عصور الجاهلية ، ولقد زادت عنايتهم من بداية توسعهم العلمي ، وامتدت مع امتداد دولتهم، فامتداد الدولة العربية ، واتساع مدار الفكر العربي كانا في طليعة البواعث على المبادرة بالتخطيط الجغرافي وإرسائه على قواعد علمية ، فالذكاء العربي زادته نبوغًا : علوم تعبت في الوصول إليها مدارس اليونانيين واللاتينيين والفرس .. والدولة العربية امتدت غربًا إلى المحيط الأطلسي ، وامتدت شرقًا إلى الصين ، وامتدت شمالاً إلى أبواب القسطنطينية، وامتدت جنوبًا إلى بحر العرب ، وامتدت بامتدادها الطرق التجارية برًا وبحرًا وتناثرت المدن في أنحائها، فكان لزامًا على العرب أن يعرفوا البلاد التي أظلتها الراية الإسلامية ، وكان لزامًا عليهم أن يدرسوا ما وصل إلى أيديهم من تراث ثقافي.

---

(١) تاريخ العرب العام ، ص ٤١٧ وما بعدها .

فالجهد العربي الذي بذل في عمل مصور جغرافي عام للمأمون: جهد لا يمكن نكرانه؛ فلقد اجتمعت على صنع هذا المصور صفوة من علماء ذلك العصر، فكان على قول (المسعودي) صورة عامة للعالم: أفلاكه ونجومه، وبره وبحره، وعامره، وغامره، ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك.. وهي أحسن مما تقدمها من جغرافية (بطليموس) وجغرافية (مارينيوس) وغيرهما. ويقول المسعودي: [إن حسَّاب بغداد مثل: (محمد بن موسى الخوارزمي) و(يحيى بن أبي منصور) و(سند بن علي) و(أبي مقسر) وغيرهم، وجدوا طول بغداد من المشرق (مائة درجة وعشر درجات)، ووجد (بطليموس) على ما عبر عنه (تاون الإسكندراني) طول الإسكندرية من المشرق (مائة وتسع عشرة درجة ونصفًا)][1].

ونقل (كرد علي) عن (بيكوردين) قوله: [نشأ توسع علم الفلك عند العرب من توسع الرياضيين منهم في الحساب؛ لأنهم اخترعوا أساس حساب المثلثات وحققوا طول محيط الأرض، وحققوا طول (البحر الأبيض) الذي قدره (بطليموس) بـ(١٢ درجة) فأرجعوه إلى (٥٤) درجة أولاً. ثم إلى (٤٢) أي إلى الصحيح من مقداره تقريبًا][2].

٦- ويرى (جرجي زيدان): [أن المسلمين بدأوا بوضع الجغرافية قبل اطلاعهم على كتاب بطليموس؛ لثلاثة أسباب غير السببين اللذين دَعَوَا اليونانيين أو غيرهم إلى وضعها؛ لأن العرب من أكثر الأمم فتحًا وغزوًا، وقد تفرقوا بعد الإسلام في أربعة أقطار المسكونة، وهم. وخصوصًا في الحجاز. كانوا تجارًا من زمن الجاهلية، ثم اتسعت تجارتهم في الإسلام باتساع مملكتهم. أما الأسباب الثلاثة التي يمتاز بها العرب على سواهم. فأولها: (الحج)، والقدوم إلى مكة من مختلف البلاد الإسلامية يستلزم: معرفة الطرق والمنازل، وثانيها: الرحلة في طلب العلم إلى سائر الأمصار الإسلامية. والرحلة

(١) **التنبيه والإشراف**، ص ٣٠ و٤١.

(٢) **الإسلام والحضارة** ١/ ٢٢٤.

تستلزم: معرفة الأماكن والمناطق، والثالث: أن العرب فتحوا العالم، واختلفوا في طرق الفتح باختلاف البلاد، فبعضها فتح عنوة وبعضها فتح صلحًا، ولكل من ذلك حكمه في قسمة الفيء وأخذ الجزية وتناول الخراج ولا يتوصل إلى ذلك إلا بالتاريخ والجغرافية][1].

ومن رأيي: ألا نبالغ في كلامنا عن المعارف العربية تحزبًا لعروبتنا، فمصادرنا الجغرافية ـ منها: ما هو عربي، وهو ما يخص صفة الجزيرة العربية، وأهم مصادر هذا القسم: الشعر الجاهلي، وأخبار العرب ـ ومنها: ما هو غير عربي ـ وهو ما يخص القواعد التي انبنت عليها النظريات الجغرافية وحسابات الفلكيين، وأهم مصادر العرب في هذه الناحية ـ هي: تراث اليونانيين ورثة معارف بابل وفينيقية.

٧- وأوَّل من كتب عن الأقاليم (الكندي) حوالي سنة ٢٠٠هـ، ويقول (آدم متز): [وكان (الكندي) من رؤساء حملة العلم اليوناني][2] - ويقول (ابن النديم) في كلامه عن كتاب (المجسطي) لبطليموس: و[نقله الكندي نقلاً رديئًا][3].

وأوَّل من عني بتفسير وإخراج كتاب (المجسطي) إلى العربية (يحيى بن خالد ابن برمك)، فقد ندب لهذه المهمة (أبا حسن) و(سلمًا) صاحب (بيت الحكمة)[4] فأتقناه واجتهدا في تصحيحه. وتوجد نسخة سريانية[5] منه.

وأوَّل من دون الجغرافية من العرب على نحو ما عند اليونان (أبوزيد البلخي- أحمد بن سهل)، فقد ألف في أول القرن الرابع كتابًا في الجغرافية سماه (صور

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي ١١٢/٣ وما بعدها.

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١/٢.

(٣) الفهرست، ص ٣٧٥.

(٤) دار الكتب التي أسسها هارون الرشيد.

(٥) الفهرست، ص ٣٧٤.

الأقاليم) وقد سبق علماء الجغرافية في العصر الإسلامي إلى رسم الأرض[1]، ثم جاء بعد البلخي (ابن إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري، المعروف بالكرخي، المتوفى سنة ٣٤٦هـ والذي قال عنه (الزركلي)[2]: إن الإصطخري استعان بكتاب البلخي (صور الأقاليم) وإنه ألف كتابين الأول: (صور الأقاليم) وقد سماه على كتاب البلخي، والثاني كتاب: (المسالك والممالك) وكل من الكتابين مطبوع[3]. - والمسالك والممالك:

(١) **التمدن الإسلامي ١١٢/٣ والأعلام ٣٤٣/٤ والحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١/٩.**

(٢) **الأعلام ٥٨/١.**

(٣) جاء في مقدمة كتاب (المسالك والممالك) للإصطخري طبع مصر سنة ١٣٨١هـ التي حررها (محمد جابر الحسيني): [أن الإصطخري يختلف في بعض المسائل مع البلخي، وأن النساخ هم الذين وضعوا اسم (صور الأقاليم) إلى جانب عنوان الكتاب الأصلي .. الأمر الذي أشكل على دائرة المعارف الإسلامية فنسبت. كتاب الإصطخري للبلخي، وجعلته معولاً عليه، والواضح من قول (ابن حوقل): أن للإصطخري كتابًا وأن ابن حوقل أصلحه كما يزعم ابن حوقل].

ومما جاء في هذه المقدمة يظهر: أن الإصطخري ألف كتابًا واحدًا وأن النساخ أطلقوا عليه اسمين: صور الأقاليم، والمسالك والممالك. وهذا يتعارض مع ما جاء في كتاب الزركلي.

ولقد اطلعت على كتاب أخذت صورته الخطية نسب للإصطخري بهذا العنوان (الأقاليم) فقط. تبتدي أول صفحة منه بما هذا نصه: [جرى بعون الله ذكر حدود الممالك، وصفة الأقاليم ومدنها وبحارها وأنهارها مفصلاً]. ثم كتب هذا العنوان (حدود الممالك ومسافاتها) وبمقابلة هذا الكتاب (الأقاليم) بكتاب (المسالك والممالك) ظهر: أن الكتابين متفقان من حيث الفصول وموضوعاتها وترتيبها). فالاختلاف الذي بينهما يدل على أن (كتاب المسالك والممالك) هو الصورة الأخيرة لكتاب الأقاليم، فكتاب المسالك والممالك يبتدىء بمقدمة مطولة تفصل ما جاء مجملاً في بداية كتاب الأقاليم. أما في غير الزيادات التي في كتاب المسالك والممالك وفي غير التنسيق. فإن كتاب (الأقاليم) لا يزيد على كونه مسودة أوليه لكتاب المسالك والممالك، وكذلك المصورات الجغرافية. وأنا لا أعلم هل هذا هو كتاب (صور الأقاليم) الذي ذكره الزركلي، طبع على نسخة وضع عليها هذا الاسم (صور الأقاليم) أي بزيادة (صور)؟ أو أنه كتاب آخر؟ فيكون بذلك للإصطخري ثلاثة==

اسم مشاع اتخذه غير واحد من المؤلفين في الجغرافية عنوانًا لمؤلفه. مثل : (عبدالله بن أحمد بن خرداذبة المتوفى سنة ٢٨٠هـ) وقد قيل عن مؤلفه (المسالك والممالك): إنه يعتمد على المصادر اليونانية. ومثل : (أبي عبيد البكري الأندلسي). الرحالة الذي زار كثيرًا من مدن الشرق والغرب وغيرهما .

وأوَّل من استعمل هذا الاسم (الجغرافية) للدلالة على علم (تقويم البلدان). هو : (المسعودي) المتوفى سنة ٣٤٥هـ في كتابه (التنبيه والإشراف). فقد قال : [وأحسن ما رأيت من ذلك كتاب جغرافية لمارينيوس] ، وتفسير جغرافية : قطع الأرض[١] فمن منتصف القرن الرابع الهجري، أصبح يعرف علم (تقويم البلدان) بهذا الاسم (جغرافية). أما قبل ذلك فقد كان لفظ جغرافية مقصورًا على جغرافية (بطليموس)[٢].

ويقول (عبدالوهاب محمد وهيبة) : [وقد كان (فيدال دلابلاش). هو : أول من عرف (الجغرافية) بأنها : علم المكان الذي سكنه الإنسان][٣].

وبعد (الكندي) أخذت تظهر مؤلفات في عالم الجغرافية، ففي القرن الثالث الهجري ظهر كتاب (المسالك والممالك) لابن خرداذبة المتوفى سنة ٢٨٠هـ وكتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) لمؤلفه (محمد بن أبي بكر المقدسي. أو البشاري المتوفى

== كتب: الأقاليم، وصور الأقاليم، والمسالك والممالك. وأنا لا أعلم شيئًا عن الرسالة التي أشار إليها (محمد جابر الحسيني) في تقديمه كتاب الإصطخري: المسالك والممالك: [ففي حديث الإصطخري قال : وقد ذكر في الرسالة ما يعلم من قرأها موضع كل كورة برساتيقها وموضع المدن] فلعل تلك الرسالة سميت بصور الأقاليم، ولعلها هي هذه النسخة التي اطلعت عليها والتي تحدثت عنها والتي سميت (الأقاليم).

(١) **التنبيه والإشراف** ، ص ٣٠ طبع دار الصاوي سنة ١٣٥٧هـ.

(٢) **هامش التمدن الإسلامي** لحسين مؤنس ١١٤/٣.

(٣) **دراسات في جغرافية مصر التاريخية** ، ص٢.

سنة ٣٨٠هـ[١]- وكتاب (المسالك والممالك) لمؤلفه (محمد بن حوقل البغدادي المتوفى سنة ٣٦٧هـ)[٢] ، وعلى ابن حوقل والمقدسي اعتمد (آدم متز) في كلامه عن المؤلفات الجغرافية[٣] .

وقبل المقدسي ظهرت تذكرة (أبي الفرج قدامة بن جعفر البغدادي المتوفى سنة ٣٣٧هـ)[٤] أو سنة ٣١٠هـ ، كما يقول آدم متز .. وقد ذكر له (ابن النديم) اثني عشر مؤلفًا ، منها : [كتاب (الخراج) . ثماني منازل وأضاف إليه تاسعة][٥] وحوالي القرن الثالث الهجري[٦] ظهر كتاب (البلدان) لمؤلفه (أحمد بن محمد الهمداني) وقال (ابن النديم) عن الهمداني : له من الكتب كتاب (البلدان) نحو ألف ورقة أخذه من كتب الناس[٧] والهمداني هذا ليس المؤرخ الجغرافي (أبا محمد الحسن الهمداني المتوفى سنة ٣٣٤) مؤلف كتابي (صفة الجزيرة) و(الإكليل) ، وحوالي أواخر القرن الثالث الهجري - ظهر (ابن الفقيه) .

٨- والجغرافيون العرب لم يقتصروا على التأليف في تقويم البلدان ، بل هم جمعوا بين التاريخ والجغرافية - مثل : (اليعقوبي) و(المسعودي) . والجغرافيون العرب لم يقفوا عند الحدود التي وصل إليها اليونانيون ، ولم يكتفوا بالسماع من التجار المتجولين ، بل قاموا برحلات علمية استكشافية ؛ فلقد أخذ (اليعقوبي) منذ أواخر القرن الثالث الهجري يطوف

---

(١) الأعلام للزركلي ٢٦/٢٠٣.

(٢) المصدر نفسه ٦/٣٤٤.

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ٢/٣.

(٤) الأعلام ٦/٣١.

(٥) الفهرست ، ص ١٨٨.

(٦) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/٢.

(٧) الفهرست ٢١٩.

في الأرض يجمع المعلومات الجغرافية والتاريخية، وكذلك فعل (المسعودي) و(المقدسي) و(ابن خرداذبة) و(قدامة بن جعفر) و(البلخي) و(ابن حوقل)، ولقد كتبوا عما شاهدوه كتابة أفادت في الحقلين الجغرافي والتاريخي.

فنحن إذا ما رجعنا إلى كتاب (المسالك والممالك) للإصطخري. نجد هذا الرحالة عني بكل ما يهم الجغرافي والمؤرخ عناية المدقق الذي لا تفوته الفرص؛ فلقد نقل لنا عن رجل كان يخطب في مدينة (بلغار) : أن الليل يقصر في الصيف بحيث لا يتهيأ للإنسان أن يسير فيه أكثر من فرسخ، وأن النهار يقصر في الشتاء بقدر ما يقصر ليل الصيف[1] ونجده : لم يأل جهدًا في معرفة تاريخ البلدان التي زارها وفي معرفة مجتمعها.

وفي تحقيق (آدم متز) : أن (ابن فضلان) قام برحلة إلى بلاد البلقان، حوالي سنة ٣٠٩هـ، وأن (أبا دلف) رحل إلى بلاد آسيا حوالي سنة ٣٣٣هـ، وجاء في مقدمة (مهذب رحلة ابن بطوطة) المتضمنة ترجمة (ابن بطوطة) : أن أبادلف بن مهلهل الشاعر. هو : من أقدم جوالي العرب وسياحهم. رحل إلى بلاد الهند، وكشمير، وأفغانستان[2] ثم ألف كتابه : (عجائب البلدان).. وأبو دلف هذا ليس هو (أبادلف العجلي) مؤلف كتاب: (سياسة الملوك)[3] الذي ذكره (ابن النديم) و(الزركلي).

ولقد نوه (كرد علي) في كتابه (القديم والحديث) بابن جبير الكناني الأندلسي[4].. وابن جبير رحالة كثير الأسفار، جاب بلاد الشرق مرتين، ومؤلف يمثل أسلوب بيئته، فهو يهتم بالعبارة في كلامه، ويتكلف السجع في أسلوبه، ويتحرّى الصدق في وصفه،

---

(١) المسالك والممالك للإصطخري، ص ١٣٢ طبع مصر سنة ١٣٨١هـ.

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ٩/٢.

(٣) الفهرست، ص ١٦٩.

(٤) كتاب القديم والحديث ٩٦.

والدقة في الرواية؛ أكثر مما كان في مقدور (ابن بطوطة) أن يفعله في تأليفه رحلاته .. على أن (ابن بطوطة) أكبر شهرة منه ورحلاته أوسع مجالاً وأكثر انتشارًا في أيدي الناس[1] .

ونقل (آدم متز) عن كتاب (الفوائد في أصول البحر)، تأليف (شهاب أحمد بن ماجد السعدي) : أن (المعلم خواشير بن يوسف بن صلاح الأركى) سافر حوالي سنة ٤٠٠هـ في مركب هندي وطاف بسواحل إفريقية الجنوبية ، ووضع أصول المصورات البحرية . وكانت تسمَّى : (الرهمانيات)[2] .

واستلفت (كرد علي) النظر إلى (ابن بركات النجدي) المتوفى سنة ٨٩٥هـ - على أن الذي اشتهر في الأوساط الأوربية . (شهاب أحمد بن ماجد النجدي السعدي) المتوفى سنة ٩٠٦هـ ، فلقد كان أحمد ماجد النجدي ملاحًا جغرافيًا ، وجغرافيًا مكتشفًا ، ومكتشفًا مؤلفًا ، ومؤلفًا شاعرًا. ألف نحوًا من أربعين كتابًا لم يضمنها إلا ما جرب من النظريات ، ولقد كانت لمؤلفات أحمد بن ماجد الصدارة في بحوث الأوربيين. ولقد رسم في أحد مؤلفاته : مصورًا جغرافيًا بين الطرق البحرية في المحيط الهندي؛ تلك الطرق التي كانت تشغل بال ملاحي العالم في عصر ابن ماجد[3] .

وما أكثر الرحلات التي ألفها الرحالون والمؤرخون الذين زاروا الحجاز حاجين، فكتبوا عن المدن الحجازية ، ومجتمعاتها ، ومآثرها وساروا في طرق الحاج على ما كانت عليه من وعورة ، وما كان يكمن فيها من أخطار.. ومن أشهر مؤلفات هؤلاء (الرحلة الحجازية) لمؤلفها (محمد لبيب البتنوني المتوفى سنة ١٣٥٧هـ) و(مرآة

---

(١) مقدمة مهذب رحلة ابن بطوطة .

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ٢/ ١٠ .

(٣) مجلة العرب لصاحبها حمد الجاسر . الجزء الأول ، السنة الثالثة ، رجب سنة ١٣٨٨هـ . ويقول آدم متز. له كتاب (الفوائد) محفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس ، الحضارة الإسلامية ٣/ ١٠

الحرمين) لمؤلفه (إبراهيم رفعت) وما أكثر الفوائد التاريخية التي حصل عليها من هذه الرحلات المؤرخ الذي يكتب عن ماضي الحجاز وحاضره. على ما فيها من روايات خاطئة سمعها أولئك الرحالة من أفواه الذين اتصلوا بهم ولم يجدوا وقتًا لتحقيقها. مثل الرواية التي سمعها مؤلف كتاب مرآة الحرمين. من الذين رافقوه في تجواله بأنحاء المدينة المنورة عن الفندق الذي بناه والدي (عبدالله مدني) في المدينة بباب المجيدي في العصر العثماني. والذي ابتاعته منا الحكومة السعودية لجعله دارًا للعجزة. ثم هدمته لتبني على أرضه مدرسة عامة للبنات، فلقد رووا لمؤلف مرآة الحرمين (إبراهيم رفعت) : أن عدد غرف هذا الفندق تبلغ ثلاث مئة وخمسًا وخمسين غرفة على عدد أيام السنة الهجرية. والواقع : أن عدد غرف هذا الفندق لا تزيد على المئة والثمانين غرفة[1].

فمما لا شك فيه : أن كل رحلة من الرحلات التي وصلت إلى عصرنا لم تخل من المادة التاريخية والجغرافية. منها : نصوص علمية نادرة الوجود ، ومنها : قصص شعبية كثيرة الانتشار ، وأكثر هذه المواد التاريخية التي نجدها في الرحلات: العلمية منها والشعبية مفيدة للبحث التاريخي تزيد قيمتها كلما تقادم عهدها وإن في كل معجم من معاجم البلدان التي بين أيدينا : وصفًا يصور المدن ومجتمعاتها .. ومن هذه المعاجم: الدقيق الواضح. ومنها : السطحي المشوش، وأكثر هذه الصور التي نراها في المعاجم : دقيقة أو سطحية هي : مرآة لحضارات الماضي ونشاطات مجتمعاته في تنظيم الحياة المدنية ، وإقامة الأسواق التجارية، وبناء المتاحف، وإنشاء المكتبات التي لم يهمل مؤلفو المعاجم والرحلات ذكرها والحديث عما حفلت به من نفائس التراث العلمي.

وأعمّ وأهمّ المعاجم التي وصلت إلينا : (معجم البلدان) لياقوت الحموي، فقد كان هذا المعجم وما زال من أهم المصادر التي يرجع إليها المؤرخون ، ومن أكثرها شمولاً للمدن وتاريخها، فلقد جمع بين الوصف الذي يصور مشاهد الماضي وبين النص الذي يتحدث عن

(١) مرآة الحرمين لإبراهيم رفعت باشا ، مطبعة دار الكتب المصرية ٤٠٨/١ .

تاريخه؛ وأكثر الرحلات انتشارًا بين الناس : رحلة ابن بطوطة ، فرحلة ابن بطوطة على ما في أسلوبها من عامية ، وما في وصفها من سطحية ، كانت وما زالت ذات قيمة تاريخية بالنسبة للأوضاع والنظم الاجتماعية في عصر ابن بطوطة .

٩- فالبحث في تقويم البلدان وصفتها ، وحدود الممالك ومسالكها ، وحياة الأمم أخلاقيًا وحضاريًا وفكريًا هو : جزء مكمل للتاريخ. ولقد نشأت الصلة بين التاريخ والجغرافية منذ بدأ عِلْمَا التاريخ والجغرافية عند العرب ، فقد جمع أوائل المؤلفين في السيرة والمغازي بين النص التاريخي والوصف الجغرافي .. عندما تحدثوا عن الوحي ونزوله في غار حراء، وعندما تحدثوا عن هجرة النبي عليه السلام إلى المدينة والطريق التي سلكها إليها والطريق التي سلكها من المدينة إلى (بدر) إلى غير ذلك، مما جاء في السير والمغازي. فلم يكن رواد التاريخ مؤرخين فحسب، بل كانوا جغرافيين أيضًا ، ولم يكن رواد الجغرافية جغرافيين فحسب، بل كانوا مؤرخين أيضًا . وهذه الصلة التي نشأت بين التاريخ والجغرافية حافظ عليها المؤلفون في التاريخ إلى العصر العثماني - أو بالأصح إلى أن نشأ التخصص في الدراسات العلمية على اختلافها .

البحث الرابع

التراجم

من موضوعات البحث :

١- نشاط مثمر — المؤلفات في التراجم .

٢- قيمة التراجم .

٣- مزج التاريخ بالتراجم والتراجم بالتاريخ .

٤- مدى تحقيق المؤلفين في التراجم ؟

٥- التراجم عمل أفاد الدراسات التاريخية .

٦- مصادر المؤلفين في التراجم .

التراجم

١- لم يكن جهد الذين عنوا بالتراجم بأقل من جهد الذين عنوا بالأنساب، ولا أقل من جهد الذين عنوا بالجغرافية، فالصعوبات التي واجهت هؤلاء في طريقهم ليست بأقل من الصعوبات التي واجهت أولئك. ولم تكن قيمة المادة التاريخية في التراجم بأقل من قيمة المادة التاريخية في الأنساب والجغرافية؛ فالأخبار التاريخية التي جاء بها البحث في أنساب الشعوب والقبائل ومنازلها وهجراتها، وفي مواقع المدن وطرقها ومجتمعاتها، ليست بأكثر من الأخبار التي جاء بها البحث في حياة رجال الحديث وقادة الفتوح، وأعلام الأدب والتاريخ.

فلقد بذل مؤلفو التراجم جهدًا كبيرًا في معرفة ما استطاعوا معرفته من حياة الصحابة والتابعين من رجال التفسير والحديث وأبطال الفتوحات الإسلامية وقادة الجيوش، ومن حياة الولاة والقضاة ورجال الإدارة الإسلامية، ومن تاريخ رجال الفقه وأعلام الحفاظ ونوابغ الشعراء وعباقرة النثر العربي.

٢- فالمؤرخ الذي لا يهمه التحقيق، والباحث الذي يتعبه الاستقصاء، هما: اللذان لا يقدران قيمة المؤلفات التي وضعت في التراجم مثل: (الاستيعاب) و(الإصابة) و(أسد الغابة) و(مرآة الجنان) و(الدرر الكامنة) و(تذكرة الحفاظ) و(الشعر والشعراء) و(الطبقات) و(معجم الأدباء) وغير هذه من المؤلفات التي تحدث مؤلفوها عن حياة بناة تاريخنا السياسي والعلمي والأدبي، فكثير من التراجم مملوء بالأحداث التاريخية، وكثير من المؤلفات في التراجم جاء على طراز المؤلفات في التاريخ كما جاءت بعض المؤلفات في التاريخ بأسلوب التراجم؛ فأكثر الكتب التي وضعت في التراجم تؤرخ الحوادث، وتورد أهم ما يكتنف حياة المترجم له، مما يراه المؤلف مهمًا لموضوع مؤلفه. ولقد

جاء في دائرة المعارف الإسلامية : [امتزج التاريخ بالتراجم في عهد متقدم ، وشاهد ذلك : تلك التواريخ التي تقوم على السير ، وكان هذا الأسلوب في التأليف ملائمًا كل الملاءمة لأولئك الذين كتبوا تواريخ الوزراء مثل : (محمد بن عبدوس الجهشياري المتوفى سنة ٢٣١)][1] .

٣- إن مزج التراجم بالتاريخ، والتاريخ بالتراجم؛ أمر لا مفر منه لا للذين يكتبون في التاريخ ولا للذين يكتبون في التراجم ، فكل إنسان في هذه الحياة له دوره في صنع التاريخ، ومن الطبيعي أن تتفاوت أهمية الأدوار، فالجندي في ساحة الوغى، والعامل بين جدران المصنع ، والفلاح في حقله، والتاجر في حانوته، والفقيه بين كتبه، والكاتب بين طروسه، والمخترع بين تجاربه، والفنان بين آلات فنه، إلى غير هؤلاء ممن يقومون بأدوارهم في مختلف مجالات الحياة؛ لكل واحد منهم : نصيب في صنع تاريخ جيله، فكيف بالأعلام الذين كانت حياتهم جزءًا من التاريخ حافلاً بالأحداث !! فما أكثر الذين سجلوا على صفحات التاريخ سطورًا خالدة لم يمحها القدم .

وليست المادة التاريخية في التراجم من نوع واحد ، بل هي تتلون بلون الناحية التي تفرغ لها المترجم له، والمسئولية التي قام بأعبائها ، وليست المادة التاريخية في التراجم في مستوى واحد ، بل هي ترتفع وتنخفض، وتتبسط وتتعقد ، وتتزن وتتطرف، حسب معارف المؤلف ومعلوماته، وأمانته واعتداله، وأسلوبه، وقدرته على استجلاء الحقائق، والتخلص من المبالغة والحزبية .

٤- وقليل ما هم أولئك الذين ينكرون جهد الأمناء في التراجم، مثل : (ابن سعد) و(ابن عبدالبر) و(ابن الأثير) وغيرهم ممن بذل مجهودًا موفقًا في تحقيق حياة الأعلام؛ تحقيقًا مستفيضًا واسعًا ، اشتملت عليه موضوعات وضعت في معرفة الصحابة

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٤٤٧/٤ .

والقادة والقضاة والحفاظ والمؤرخين والأعيان والشعراء وغيرهم من رجال الثقافة والسياسة والفنون .. فنحن إذا ما علمنا : أن (ابن عبدالبر) حقق في كتابه (الاستيعاب) تراجم ثلاثة آلاف وخمسمائة صحابي ، وأن عدد الذين ترجم لهم (ابن الأثير) بلغ : سبعة آلاف وخمسمائة وخمسين صحابيًا ـ نعرف مدى سعة المؤلفات في التراجم ، والحدود التي بلغها جهد الباحثين ، ومدى النشاط الذي يحتاج إليه جمع المعلومات عن هذه الآلاف ، وتدوينها في مؤلفات أضاءت للباحثين مجاهل وكشفت أسرارًا !!

ونحن إذا ما سمعنا : أن (ابن حجر) يقول عن (عزالدين بن الأثير) وعن كتابه (أسد الغابة) : [إلا أنه تبع من قبله فخلط من ليس صحابيًا بهم، وأغفل كثيرًا من التنبيه على كثير من الأوهام الواقعة في كتب من سبقوه] .. ونحن إذا ما سمعنا : أن على كتاب (الاستيعاب) استدراكات وضحها الذين درسوا (الاستيعاب) وناقشوا ما ورد فيه ونقدوه، وأن (أبا موسى المديني) استدرك على (ابن منده) فأضاف إلى مؤلفه ملحقًا[1] - تتجلى لنا : دقة النقد وسعة التحقيق ومدى ما تعرضت له المؤلفات العربية من تمحيص وغربلة وتصفية .

٥- ونحن إذا ما رجعنا إلى التراجم سواء العام منها والخاص، نجدها : عملاً أفاد الدراسات التاريخية ، ونجدها رافقت التاريخ من بداية الطريق؛ تحمل المشاعل للباحثين في التاريخ ، فتراجم الذين عذبوا في مكة ، والذين هاجروا إلى الحبشة ، والذين حضروا بيعة العقبة ، والذين شهدوا بدرًا وأحدًا ، والذين بايعوا تحت الشجرة : هي فصول من التاريخ الإسلامي مثلما كانت حياة أبطال الفتوحات الإسلامية ومؤسسي الثقافة هي أيضًا : جزءًا منه؛ فلأكثرية الذين تحدث عنهم الواقدي وابن سعد في طبقاتهما ، وابن قتيبة في معارفه ، وابن عبدالبر في استيعابه .

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ٣/١ وما بعدها .

مواقف لها أثرها في بناء التاريخ، مثلما كان للمؤلفات التي عنيت بتراجم الخلفاء والأمراء والقادة والشعراء والموسيقيين وغيرهم، ممن أسهموا في مختلف العلوم والفنون. نفع كبير للذين يصورون حياة الماضي صورة واعظة لبناة المستقبل .. ففي كل من الإخفاق والنجاح موعظة، وفي كل جانب من جوانب الماضي مثل يستفيد منه الذين لا يسخرون من التجارب.

٦- ومصادر المؤلفين في تراجم أعلام الإسلام سداها ولحمتها الروايات التي يحرص جامعوها على حفظ أسانيدها. أما غيرهم فمصادرهم تراث القدامى الذي وصل إلى أيدي المؤلفين في الماضي والحاضر.

البحث الخامس

التعريب أو الترجمة

من موضوعات البحث :

١- التعريب أو الترجمة .

٢- كيف استقبل العرب قافلة التطور الثقافي ؟

٣- من أعلام المعربين .

٤- عوامل الاهتمام بتعريب التراث الفارسي وانتشاره .

٥- التعريب في العصرين الأموي والعباسي .

٦- أخطاء المعربين .

٧- ترجمة ابن المقفع .

٨- أثر ما نقل إلى العربية على العقلية التاريخية .

التعريب أو الترجمة

١ - أكثر الناس لا يقول : هذا الكتاب معرب . أو يقول : فلان عرّب ذلك الكتاب ، فلقد اصطلح الكثير على أن يقول : هذا الكتاب مترجم ، وترجم فلان ذلك الكتاب بناء على ما جاء في معاجم اللغة : (الترجمان) بفتح التاء وضمها . هو الذي ينقل الكلام من لغة إلى لغة ، سواء كان النقل من العربية إلى الفارسية أو من الفارسية إلى العربية. أما التعريب فمن معانيه: تعريب الاسم الأعجمي : أن تتفوه به العرب على مناهجها . تقول : عربته العرب أو: (أعربته)(١) - مثل : (دمشق) و(إستبرق) ومثل : (تلفون) و(دركسون).

فالذي يبدو أن الكلمتين : التعريب والترجمة ، لم توضعا في اللغة العربية لمعنى يخص : النقل من لغة أعجمية إلى اللغة العربية ، فالترجمة : معناها عام لا يتقيد بالنقل إلى العربية ، والتعريب خاص بتعريب حروف الكلمة لا معناها الأعجمي لفظًا ورسمًا ، وترجمة كتاب من لغة ما إلى اللغة العربية هو : نقل المعنى إلى العربية مع تعريب الكلمة التي لا توجد في اللغة العربية كلمة تقابلها أو التي لا يمكن نقل معناها مثل الأسماء .

غير أنني أرى : أننا لو عممنا كلمة (التعريب) فأطلقناها على كل ما ينقل إلى العربية لفظًا ومعنى . فإننا لا نخرجها عن معناها ، وإنما نحملها تعريب المعنى مع اللفظ ، فتعريب المعنى مع اللفظ يزيد الكلمة تعريبًا . وأرى : أن تترك كلمة (ترجمان) على عموميتها ؛ ولذلك تراني : أفضل كلمة (معرب) على كلمة (مترجم) لكل ما ينقل من لغة إلى اللغة العربية . على أنني لا أغلّط من يتمسك بكلمة (مترجم) .

---

(١) لسان العرب .

٢- والشرق العربي هو : أكثر بلاد الله ازدحامًا بالعناصر والنحل . وباللغات والحضارات ، فقبل الإسلام تلاقت في شمال الجزيرة وجنوبها عناصر أتت من مختلف الجهات بمتنوع الأفكار ، واللغات ، والمعارف ، والعقائد ، والتقاليد ، والأساليب في معالجة مشكلات الحياة ؛ فتمخض التلاقي عن متناقضات شملت كل صغيرة وكبيرة في الأخلاق الاجتماعية ، والاتجاهات السياسية ، والتقاليد العقائدية ، والمظاهر الحضارية .. وتمخضت هذه المتناقضات عن متاعب واجهت الذين تحملوا مسئولية السير بالثقافة مع قافلة التطور .

ولقد وصلت القافلة إلى العرب في العصر الإسلامي ، حاملة ما حصلت عليه من أفكار وتجارب الأجيال في آلاف السنين بكل ما فيه من أساطير وخيال القرون السحيقة ، فأقبل رجال العلم ينقلون إلى العربية كل ثمين مفيد ، وأقبل معهم أدعياء المعرفة ينقلون ما يتلاءم مع مداركهم من أساطير يلونونها بما تهواه أخيلتهم ، وأقبل العلماء على ما نقل إليهم يوالون الدراسة والتجارب ، وأقبل معهم النقاد يفندون الغث من السمين والخيال من الحقيقة ، واندس بين هؤلاء وهؤلاء الذين يحلو لهم الخيال والمبالغة في تفسير ما جاءهم من أنباء الماضي وقضاياه . ومازال الموقف يتكرر جيلاً بعد جيل إلى عصرنا الحاضر ، فقوافل العلم مازالت تسير ومازال الازدحام حول ما تحمله على أشده ومازال العلماء وأنصاف العلماء ومن لا يدري أنه لا يدري ، ومن تستهويه المبالغة وتعجبه القشور ، . يملأون الأسواق الثقافية كل بما فتح الله عليه ، ولو شاء الله لجعلهم في مستوى واحد .

وفي مواكب الثقافة التي تتابعت على حواضر العالم الإسلامي ، احتفل الرواد بالتراث التاريخي احتفالهم بالعلوم الرياضية ، والجغرافية ، والطب ، والهندسة ، والكيمياء وغيرها .. وفي طليعة المبرزين في مجال التعريب الذين قدموا للمكتبة العربية ذخائر حوت نصوصًا لها قيمتها : الباحثون عن مصادر التاريخ.

٣- فمن الذين قاموا بالتعريب، فأسدَوْا للمعارف العربية خدمة مازال الباحثون في التاريخ والأدب والفنون يقدرونها حق قدرها : (عبدالله بن المقفع) ، و(آل نوبخت). ويعد (نوبخت) كبير هذه الأسرة. ثم ابنه (الفضل) ومن آل نوبخت: يوسف وموسى ابنا (خالد) ، ومن المعربين (أبوالحسن علي بن زياد التميمي) و(الحسن بن سهل) و(البلاذري أحمد بن يحيى) و(جبلة بن سالم). معرب كتاب رستم وإسفندار و(إسحاق ابن يزيد) و(محمد بن الجهم البرمكي) معرب كتاب (تاريخ فارس). و(هشام بن القاسم) معرب كتاب (تاريخ ملوك بني ساسان) و(موسى بن عيسى الكسروي) و(زادويه بن هاشويه الأصفهاني) معرب كتاب (سير ملوك فارس) و(محمد بن بهرام الأصفهاني) معرب كتاب (سير ملوك الفرس) و(بهرام بن مروان شاه) معرب ومهذب كتاب (تاريخ ملوك ساسان) و(عمر بن الفرخان) و(صطفن الإسكندراني) و(يوحنا ـ يحيى بن البطريق). و(عبدالمحسن بن ناعمة الحمصي) و(حنين بن إسحاق العبادي) و(إسحاق بن حنين) و(ثابت بن قرة) و(سنان بن ثابت بن قرة) و(الحجاج بن يوسف بن مطر الوراق الكوفي) و(قسطا بن لوقا البعلبكي) و(مَتَّى بن يونس) و(يحيى بن عدي) و(جورجيس بن جبرائيل) و(ابن زرعة) إلى غير هؤلاء من النساطرة واليعاقبة وغيرهم من الذين نقلوا كثيرًا من الكتب اليونانية إلى السريانية ثم إلى العربية.

٤- ولقد لاحظ البعض على أسماء المعربين التي تتردد ، وعلى المؤلفات التي تذكر كلما أثير موضوع التعريب والمعربين : أن أكبر المعربين شهرة هم : الفرس ، وأن أكثر التواريخ انتشارًا هي : التواريخ الفارسية؛ فلذلك أسباب منها : أن صلة التاريخ الفارسي بالتاريخ العربي عميقة ومستمرة منذ أقدم عصور التاريخ العربي إلى ما بعد الإسلام ، وأن صلة التاريخ الفارسي بالتاريخ العربي ازداد عمقها بعد الإسلام .. مع الفارق في الوضع السياسي. فعمق الصلات واستمرارها فرض على المؤرخين : العناية بتاريخ الفرس قديمه وحديثه. أما غيرهم من الأمم مثل اليونانيين والرومانيين والإسرائيليين والحبشيين؛ فهؤلاء لم يرتبط تاريخهم بالتاريخ العربي إلا في فترات من الزمن ثم

انفصلت تواريخهم في العصر الإسلامي، فلم تبق لليهود قومية ، ولم يبق للروم واليونان والأحباش ظل في البلاد العربية . فلقد زال الاحتكاك بالروم بعد فتح سوريا ، فلم تبق غير تلك الصلات العلمية التي تلزم الباحث العربي أن يذكرهم إذا ما تحدث عن التاريخ العربي. ومع ذلك فإن تلك الفترات التي تلاحمت فيها تواريخ اليونانيين والرومانيين والإسرائيليين والحبشيين مع التاريخ العربي، جعلت المؤرخين ينقلون في موسوعاتهم العربية كل ما له صلة بتاريخ هاتيك الأمم ، فلم يغفلوا عن ذكر أنسابهم ودولهم ومجتمعاتهم ومعارفهم، مثلما لم يغفل المؤرخون فيما بعد عن ذكر (الإسبانيين) الذين اختلط تاريخهم مع تاريخ العرب فترة من الزمن ، ومثلما يضطر المؤرخ اليوم إلى ذكر (الإنكليز) و(الفرنسيين) و(الإيطاليين) عندما يتحدث عن التاريخ العربي في القرن الرابع عشر من الهجرة.

أمَّا السريانيون والكلدانيون وغيرهم ممن يرجعون إلى أصل عربي، فكما تجمعت عوامل كثيرة لقيام كيان سرياني وكلداني ذي طابع خاص ، كذلك تجمعت عوامل كثيرة لإزالة الأصباغ والحواجز من الأقطار العربية التي اغتصبتها إمبراطوريات العهود القديمة . بعد عودتها إلى عروبتها الكاملة في العصر الإسلامي .

ومن الأسباب التي جعلت للتراث الفارسي عناية خاصة : نفوذ الفرس في الدولة العباسية .. على أن الجدير بالذكر : أن الشخصيات الفارسية في العصر العباسي لم يقتصر اهتمامها على التراث الفارسي . بل هي أولت المعارف غير الفارسية عناية كبيرة؛ فلقد مر بنا : أن (يحيى بن خالد بن برمك) قد أبدى اهتمامًا بكتاب (المجسطي) لبطليموس اليوناني ، فكلف أقدر المعربين بنقله إلى العربية .

٥- ومما ثبت في بحوث المحققين : إقبال البيتين : الأموي والعباسي، على نقل العلوم إلى اللغة العربية .. ومما لم ينكره الباحثون : أثر ذلك الإقبال في نشاط حركة التعريب ، فأول المهتمين بالتعريب من الأمويين (خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان

المتوفى سنة ٨٥هـ) وهو أول من جمعت له الكتب وجعلها في خزانة[١]- ومن العباسيين (المنصور) و(الرشيد) ثم جاء (المأمون) الذي بلغت في عصره النهضة العلمية مكانة مازالت الأجيال تكبرها وتقدرها .

ولم يكن الاهتمام بالتعريب والإنفاق عليه مقصورًا على الخلفاء وأبنائهم، بل كان بعض الأثرياء مثل : أولاد (موسى بن شاكر) و(محمد بن عبدالملك الزيات) وغيرهم ينفقون أموالاً طائلة على نقل الكتب إلى العربية .. لا تكاد دولة من دول الغرب الصغرى تنفقه . كما يقول (كرد علي)[٢].

فلقد كانت نهضة الثقافة العربية نهضة شاملة أتاحت الفرص لكل من بذل مجهودًا ونشاطًا كبيرًا في تعريب العلوم؛ وصفه (لكرك) بقوله : [كان كل ما في أيدي العرب من العلوم في آخر القرن الثامن من الميلاد، مؤلفًا في الطب وبضعة كتب في (الكيمياء) ، وما كاد القرن التاسع ينصرم حتى كان العرب قد امتلكوا ناصية جميع علوم اليونان وثقافة الأقدمين][٣] . ولقد أسهم في ذلك النشاط أساتذة مدرسة (الرها) و(نصيبين) و(حران) .. مع الذين بذلوا مجهودًا كبيرًا في نقل المؤلفات اليونانية والبيزنطية إلى السريانية ثم إلى العربية ، ولقد كان ما نقلوه محل اهتمام بناة الثقافة العربية ، فإليه يرجع الباحثون في الثقافة العربية ومصادرها ؛ على أن هناك من يرى: أن النساطرة واليعاقبة لم يكونوا أمناء فيما ينقلونه ، وأن كثيرًا من أخطاء الباحثين القدامى يرجع سببها إلى عدم أمانة المعرب أو ضعفه .

٦- وأنا لا أستبعد وجود الخطأ فيما ينقل من لغة إلى لغة في الماضي والحاضر، ولكن الأخطاء مهما بلغت لا تشمل جميع ما ينقل، ولا أعتقد : أن الأخطاء التي ينسبها

---

(١) الإسلام والحضارة ١٧٣/١.

(٢) المصدر نفسه ١٧٥/١.

(٣) الإسلام والحضارة ١٧٤/١.

البعض إلى عدم الأمانة وقعت جميعها عمدًا لغرض ما ، فقد يكون هناك خطأ في الترجمة من اليونانية إلى السريانية وفي النقل من السريانية إلى العربية . وقد يكون هناك اجتهاد في الفهم وفي التأويل والتفسير إلى غير ذلك مما لم تسلم منه أسفار بني إسرائيل في العهدين : القديم والجديد . فمن النادر : أن نجد نسختين مخطوطتين من مؤلف واحد سليمتين من تحريف الناسخ، فكيف بالمؤلفات التي ترجمت من لغة إلى لغة وفي عصر بعد عصر. ولقد مر بنا كيف اختلف الرأي فيما ألفه (الإصطخري)، فقال بعضهم : إنه لم يؤلف غير (المسالك والممالك) وقال آخرون: إنه ألف (صور الأقاليم) .

على أنني لا أبرئ النساطرة واليعاقبة من الأخطاء المتعمدة التي قد تدفع إليها عقائدهم أو عنصريتهم ، ولكن وجود هذه الأخطاء فيما عرب في الرها ونصيبين وحران لم يبلغ درجة عدم صلاحيتها للرجوع إليها ، فما أصابها أصاب أسفار بني إسرائيل ، وأسفار بني إسرائيل - على ما أصابها - لا تزال مصدرًا من مصادر التاريخ القديم .

وترى دائرة المعارف الإسلامية : أن الحماس لنقل المؤلفات اليونانية من اللغة السريانية إلى اللغة العربية شمل التراث اليهودي والمسيحي وانصرف إلى التراث الفارسي والسرياني أيضًا - : [قد انتعشت الدراسات اليونانية بفضل نقل المؤلفات اليونانية التي كتبت بهذه اللغة - السريانية وأثار هذا الانتعاش في الوقت نفسه اهتمامًا بالتراث اليهودي والمسيحي واليوناني، ولم يجد هذا الاهتمام منصرفًا؛ إلا بالرجوع إلى مصادر لم تكن أعلى شأنًا من (خداي نامه) مثل المصنف السرياني المرسوم بمغارة الكنز] وترى دائرة المعارف الإسلامية : أن (هذا الميل قد أذكاه طابع المصادر التي استمد منها المصنفون العرب موادهم؛ لتدوين التاريخ القديم لفارس وغيرها من البلدان، بل إن (خداي نامه) ذاتها كانت تشتمل في أقدم أجزائها على قصص تتناول أشخاصًا خيالية : "ميتولوجية" وعلى تأملات كهنوتية وخرافات أبستاقية ، وذكريات

عن قصة الإسكندر ، وكثيرًا ما كانت النزعة القصصية والبلاغية تطغى على الرواية الصحيحة في الحديث عن ملوك (آل ساسان][1].

ولما تراه دائرة المعارف الإسلامية مسوّغاته؛ فلقد أخذت جماعة من الذين ينقلون التراث الفارسي إلى العربية. مثل : (موسى بن عيسى الكسروي) ـ تدخل فيما نقلته قصصًا ، بعضها : من الخيال البهلوي الخرافي الذي غلف التاريخ الفارسي المتداول ، وبعضها : اخترعتها ظنون تلك الجماعة. عندما وقفت أمام المصادر المتناقضة والأحداث الغامضة ، وليس هذا بالشيء الغريب ، فخيال القصة الذي طغى على المصادر الفارسية لم تسلم منه مؤلفات القدامى. ويرى المستشرقون : أن التأملات (الكهنوتية) وجدت طريقها إلى أفكار اليونانيين كما مر بنا في بحث (التراث القديم ومصادره) وليس من الغرابة في شيء : إن وجدنا خيال القصة يطغى على كثير من مؤلفات المؤرخين العرب ، فالبحث التاريخي لم يتحرر أسلوبه من التمسك بكل ما في النص من خيال وحقيقة؛ إلا في العصور المتأخرة وعند بعض المحققين الذين يملكون القدرة على النقد العلمي والدراسات التي تعتمد على اطلاع واسع وعلم غزير.

٧- ولقد وضع (ابن النديم) بحثًا خاصًا بأسماء النقلة من اللغات غير العربية إلى اللسان العربي[2] ، وكذلك قام : (جرجي زيدان) ببحث ضاف عن النقل والنقلة إلى العربية في العصر العباسي في كتابه (تاريخ التمدن الإسلامي)[3] ، وكذلك بحث (أحمد أمين) في كتبه (فجر الإسلام، وضحى الإسلام) و(كرد علي) في كتبه (القديم والحديث) و(الإسلام والحضارة) عن نشأة التدوين والتعريب وروادهما في العصر الإسلامي. ويقول (جواد علي) : [وقد وقف أهل (الحيرة) على مؤلفات فارسية وضعت

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٤/٤٩١ و٤٩٢.

(٢) الفهرست ، ص ٣٤٠ .

(٣) التمدن الإسالمي ٧/١٦١ وما بعدها .

في التاريخ ، وقد ترجم بعضها إلى العربية قبل الإسلام ونقل قسم منها إلى العربية بعد الإسلام][1] ، ولعل جواد علي يقصد بما ترجم قبل الإسلام، ما نقله (النضر بن الحارث) من الحيرة وتحدث به في (مكة) .

وكل من بحث في التعريب ورواده، لابد أن يذكر (ابن المقفع) وما قدمه للمكتبة العربية ، ولقد عرف بهذا الاسم : شخصان أحدهما : (أبو البشر بن المقفع) كما كان يلقبه العرب وهو : قبطي نصب أسقفًا لمدينة الأشمونين. اسمه : (ساويرس). وضع تاريخًا عن أعلام الكنيسة الذين جلسوا على كرسي البطريركية بالإسكندرية إلى ما قبل وفاته سنة ٩٧٩م ، وإلى تاريخ ابن المقفع هذا رجع المستشرقون الذين كتبوا عن بطاركة الإسكندرية[2].

والثاني : (عبدالله بن المقفع) الذي نحن بصدد الكلام عنه .. وابن المقفع الذي نتكلم عنه : فارسي الأصل اسمه : (روزبه بن داذويه) مزدكي العقيدة قبل إسلامه، كان يكنى : أبا عمرو. ولما أسلم على يد (عيسى بن علي بن عبدالله العباسي) بعد أن التحق بخدمته اكتنى بأبي محمد .

ويقول (ابن النديم) : (وإن أباه (المبارك) كان من جباة الخراج وإنه احتجن شيئًا منه، فجلده (الحجاج بن يوسف) جلدًا مبرحًا فتقفّعت يده، فلقب بالمقفع ولقب ابنه. بابن المقفع) ، ويقول : إن (ابن المقفع) عمل شرط (عبدالله بن علي) عم (المنصور والسفاح) على المنصور وتصعب في احتياطه؛ فأحفظ ذلك أبا جعفر المنصور، فارتاح (المنصور) لقلته ويقال : إنه أوعز بقتله إلى (سفيان بن معاوية) . ويصفه ابن النديم. (بأنه كان في نهاية الفصاحة والبلاغة. كاتبًا شاعرًا فصيحًا مضطلعًا باللغتين العربية والفارسية)[3].

---

(١) تاريخ العرب لجواد ١/٤٠.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ١/٢٨١ .

(٣) الفهرست ، ص ١٧٢ .

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية : أن المنصور هو الذي أمر (سفيان بن معاوية المهلبي) بقتل (ابن المقفع) انتقامًا منه ، وأن إسلام ابن المقفع مشكوك فيه حيث اتهم بأنه كان يبطن المزدكية[١] .

ولقد كان لابن المقفع مكانة في المجتمع الذي عاش فيه؛ لقربه من (عبدالله بن علي ابن عيسى العباسي)، ولما ألفه ونقله إلى العربية من كتب فارسية غير (خداي نامه) قيمة أدبية وتاريخية عند الأدباء والمؤرخين الذين يقدرون ما في الكتب التي نقلها ابن المقفع إلى العربية والتي ألفها مثل : (كليلة ودمنة) و(آيين نامه : الشرائع الفارسية)[٢] ، و(مزدك) و(التاج) و(الأدب الكبير) و(الأدب الصغير)[٣] و(الدرة اليتيمة في طاعة الملوك)[٤] . وتعدّ (خداي نامه) سيرة ملوك العجم : ذروة آثاره وأثمن ما نقله إلى العربية في عالم المؤرخين .

على أن (ابن المقفع) لم يكن الوحيد الذي نقل (خداي نامه) إلى العربية ، بل هي : قد نقلت إلى العربية قبل (ابن المقفع)[٥] وبعده ، فقد نقلها (محمد بن الجهم البرمكي) و(زادويه الأصفهاني)[٦] واتخذها آخرون مادة لمؤلفاتهم مثل (محمد بن مطيار الأصفهاني) و(هشام بن قاسم الأصفهاني) . ويقول (حمزة الأصفهاني) : إن الموبذ بهرام راجع نيفًا وعشرين نسخة من (خداي نامه)[٧] .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٢٨٢ .

(٢) إيران في العهد الساساني ، ص٤٧ .

(٣) الفهرست ، ص١٧٢.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٢٨٣.

(٥) المصدر نفسه ٤/ ٤٩١.

(٦) إيران في عهد الساسانيين ، ص٤٧ .

(٧) المصدر نفسه، ٤٧.

٨- ونحن إذا كنا نجد القليلين من المعربين ـ هم : الذين يجيدون اللغة العربية مع إجادتهم اللغة التي ينقلون منها ، ونجد القليلين منهم ـ هم : الذين يحرصون على أمانة النقل وصحته ـ مثل : ابن المقفع ، فإن الكثيرين منهم لم يبلغوا هذا المستوى .. وإذا كنا نجد القليلين من المؤرخين ـ هم : الذين ينقدون المراجع التي يأخذون عنها ، ونجد القليلين منهم ـ هم : الذين يضنون بمصنفاتهم أن تكون معرضًا للأساطير ـ مثل : ابن خلدون، فإن استعانة عامة المؤرخين بما في المؤلفات التي نقلت إلى العربية ، لم تقف عند الاستفادة بما فيها من مواد تاريخية أو ذات صلة بالتاريخ؛ فلقد تأثرت غالبية المؤرخين بمنطق مدوّني التاريخ وأخيلتهم ، فطفقت تملأ مصنفاتها بكل ما فيها من أساطير ومبالغات .

ولا أراني آتيًا بشيء غريب عن الواقع إن قلت : إن المدونات القديمة ليست هي وحدها التي ملأت المكتبات العلمية ، بل كذلك الأفكار بخيالها القديم : هي أيضًا ملأت العقلية العربية ، فلم يعتصم منها إلا كل من كانت له مناعة علمية تزيدها أصالة الرأي ودقة التفكير : قوة على قوة .



الفصل العاشر

الأوائل من رواد التفسير والمغازي والأنساب

في القرنين الأول والثاني من الهجرة

١- من هم الأعلام الذين عُدَّت أقوالهم نصوصًا؟
٢- كعب الأحبار.
٣- دغفل النسّابة.
٤- عبدالله بن عباس.
٥- عبيد بن شرية.
٦- عروة بن الزبير.
٧- أبان بن عثمان.
٨- الشعبي بن شراحيل.
٩- وهب بن منبه.
١٠- عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان.
١١- شرحبيل بن سعد مولى الأنصار.
١٢- الزهريون – محمد بن مسلم بن شهاب الزهري.
١٣- عبدالله بن أبي بكر ابن حزم.
١٤- موسى بن عقبة الأسدي.
١٥- سليمان بن طرخان.
١٦- آل السائب محمد الكلبي.



البحث الأول :

مَنْ هم الأعلام الذين عدّت أقوالهم نصوصاً ؟

من موضوعات البحث :

١- أسباب البحث في تراجم الأعلام .

٢- مخطط البحث في التراجم .

٣- الرواد الذين جمعوا من أعماق الماضي شتات التاريخ .

٤- صمود الثقافة العربية الإسلامية .

٥- من أي باب دخل التاريخ إلى سوق الثقافة العربية ؟

٦- هدف البحث في التراجم .

٧- لم يشمل البحث جميع الرواد ولم يتعرض لغير حياتهم العلمية.



أعلام عدّت أقوالهم نصوصاً

١- إنني لم أعن بالبحث في تراجم هؤلاء الأعلام الذين أمست أقوالهم في أمهات المؤلفات التاريخية : نصوصًا يعتمد عليها في رواية الخبر؛ إلا بعد أن رأيت ثقة المؤلفين المطلقة في كل نبأ ينتهي سنده إليهم؛ ففطاحل المؤرخين مثل: ابن جرير، وابن كثير، وابن خلدون ، واليعقوبي ، والبلاذري و غيرهم يحرصون كل الحرص على ذكر سند الرواية إلى أن يصل إلى (ابن عباس) أو (كعب الأحبار) أو (ابن الكلبي) أو إلى أي واحد ممن سنعرض شيئًا من حياته العلمية؛ فعلى قولهم يقوم اقتناع المؤرخ بصحة القصة دون أن يهتم واحد منهم بمعرفة المصدر الذي أخذ عنه ابن عباس أو غيره إلا فيما ندر !!

وإنني لم أبحث في تراجم بعض هؤلاء الأعلام؛ إلا أملاً في الوصول إلى معرفة مصادر هؤلاء الأعلام : فمن الطبيعي أن (ابن الكلبي) وغيره لم يرو ما رواه من جعبة خياله ، فالخبر الذي يرويه هؤلاء : إما أن يكون عن حديث أو أثر فيما يعود إلى السيرة والمغازي ، وإما أن يكون عن أصحاب أهل الكتاب ومدونات القدامى من الأمم التي عاشت في البلاد العربية ، فسجلت معارفها في مدونات احتفظت بها البيع والكنائس وقصور الملوك ومدارس العلم في عصور الماضي .

٢- والوصول إلى معرفة مصادر هؤلاء الأعلام يستدعي تقديم أدلة يطول الكلام عنها ، لو لم تسبق في هذا الجزء البحوث التي أوضحت لنا الحقائق التاريخية التي أشار إليها القرآن الكريم و الموضوعات التي بينت ما في الأحاديث النبوية وأقوال الصحابة و التابعين من أنباء تاريخية رجع إليها مؤلفو السيرة و المغازي، وما في الأنساب من مادة تاريخية لم يستغن عنها المؤرخ في العصر الإسلامي . فما سبق من تلك البحوث وفّر علينا الكثير مما كان يجب علينا الإلمام به في هذا البحث ، وفي كل ترجمة من تراجم أوائل رواد التفسير والسيرة والمغازي وأيام العرب وأشعارهم ولغتهم.

فالذي علينا أن نبينه بادئ ذي بدء هو : مخطط البحث في هذه التراجم التي سنذكرها؛ فأولا : قد اعتمد البحث في ترتيب هذه التراجم على تاريخ الوفاة؛ فقدم من تقدمت و فاته على غيره. ثانيًا : لقد اخترت تاريخ الوفاة؛ لأن كثيرًا من الأعلام لم يضبط تاريخ مولدهم بقدر ما ضبط تاريخ وفاتهم، على أن تاريخ وفيات بعضهم مختلف فيه .. ولعل السبب في عناية المتقدمين بالوفاة أكثر من عنايتهم بالميلاد ، يرجع إلى أن من هؤلاء الأعلام من لم يسترع الأنظار إليه؛ إلا بعد أن برز في المجال العلمي؛ فمنهم : المخضرم الذي ولد في العصر الجاهلي المضطرب و توفي في العصر الإسلامي، ومنهم : المولى الذي كان مملوكاً لبعض الأسر، أو منسوباً لبعض القبائل، ومنهم من نشأ في أسرة مجهولة لا يُعرف عنها كثير و لا قليل؛ إلا بعد أن نبغ فيها الرائد .

٣- ومن العسير على هذا البحث : أن يجمع كل من أسهم في جمع شتات التاريخ من أعماق الماضي، وقدم لنا فصولاً رائعة من اللغة و الشعر و أخبار العرب وانتصارات الإسلام ، وأنباء قيمة عن العقائد والنحل والتجارة والملاحة والتعدين والنحت وفن البناء، ولقد تقدمت في الجزء الأول الشواهد الواضحة في دلالتها على قدم التاريخ العربي وعلى عراقة الحضارة العربية في مكة وقراها ، وفي المدينة وحرارها ، وفي منعرجات وادي القرى التي قامت عليها عواصم : ثمود وعاد الأولى، وفي شواطئ الخليج الإسلامي - العربي ، حيث مناجم النحاس والموانئ التي عرفت الملاحة من أقدم العصور، وفي اليمامة حيث نزلت طسم وجديس، وقبائل تلك العصور ، وفي اليمن وحضرموت، حيث قامت دول: معين و سبأ والحميريين، وفي العراق مرابع الحمورابيين والإرميين، وفي سوريا مهجر الكنعانيين، وفي دلتا النيل وضفته الشرقية منازل العماليق .

وتقدمت الشواهد الواضحة في دلالتها على أن منابع لغة الساميين وحضارتهم وعقائدهم، كانت في مهد الساميين (شبه الجزيرة العربية). فلقد انتقل الساميون من

مهدهم بلغاتهم و عقائدهم و حضارتهم و ملاحتهم من مكان إلى آخر .. وما تلك الفوارق التي تلاحظ في اللغة والحضارة والعقائد؛ إلا أثر من آثار احتكاك العرب بالعناصر التي عاشت معها في العراق، وفي سوريا، وفي مصر، وفي سواحل اليمن وحضرموت و عمان .

٤- فمما لاشك فيه : أن كل ثقافة من الثقافات التي سبقت الثقافة الإسلامية لم تنظم و لم تنتشر ولم تأخذ مكانها في مواكب الحضارات ولم يقدر لها البقاء والاستمرار مع الاحتفاظ بصبغتها - مثل ما نظمت الثقافة العربية الإسلامية . وانتشرت و احتلت المكانة العليا بين الثقافات العالمية ، وقدر لها البقاء ما بقي الإسلام و قرآنه محتفظة بكل مقوماتها .

ومما لاشك فيه : أن التاريخ - بعد أن اتسع مدار الثقافة العربية و انتظم سيرها - أمسى علماً جديراً بالدراسة المنظمة كأي فن من الفنون القمينة بالانفراد والتخصص في دراسته ، ولا شك في أن الفضل في تكوين علم التاريخ في العصر الإسلامي يرجع إلى الرواد الأوائل الذين تجرعوا الأمرين في سبيل ما خلفوه لنا من تراث هو : عمادنا في دراسات التاريخ .. ولاشك في أن حياة أولئك الرواد : خليقة ببحث منصف معتدل غير متحيز ولا متحامل ، ولاشك في أن مهمة البحث المنصف مهمة شاقة؛ فالتجرد من الغرض و التحزب ، والتخلص من وسوسة الظنون والشكوك، والتحرر من مؤثرات البحوث التي تشبثت بكل قديم ، ومن مؤثرات البحوث التي فرضت مقاييس الحاضر على قضايا الماضي - من الصعوبة بمكان .

٥- وكما سبق في هذا الجزء : أن التاريخ دخل إلى مجال الثقافة العربية الإسلامية في ظلال التفسير والحديث ، فالذين تحملوا مسئولية التفسير وجمع الحديث وتبويبه هم : الذين رسموا معالم التاريخ بما جمعوه من نصوص مازالت تحت مجهر التحقيق من بداية تدوينها إلي اليوم .

٦- وإنني أصارح القارئ قبل أن أبدأ بتراجم الرعيل الأول : إنني عندما أزمعت على تعريفه برواد التاريخ، لم أستهدف بداية تدوين التاريخ وتطور التأليف فيه فحسب، وإنما قصدت التعرف إلى الرواد الذين بذلوا نشاطاً في جمع التراث الثقافي وحفظه؛ فالتراث الثقافي مهما كان موضوعه، هو جزء من التاريخ ، والرائد مهما كان أسلوبه : مجدداً أو محافظاً ، هو من بناة ثقافتنا وتاريخنا . ففي كل جيل من الأجيال، وفي كل جانب من جوانب الثقافة نجد رواداً ساروا في طريق من سبقهم فتقيدوا في بحوثهم بالمنطق القديم و أسلوبه، ونجد رواداً مجددين يناقشون و يبدون رأيهم فيما يناقشونه؛ فهذه سنة التطور .. فالتطور ليس قفزة رجل واحد من حافة، إلى حافة وإنما مثله كمثل القافلة التي خرجت طليعتها عن حدود مرحلة في حين لا تزال بقية القافلة نائمة في المرحلة التي أمست فيها .

٧- وأصارحه أيضاً : إنني عندما أردت أن أكتب عن الرواد، وجدت نفسي أمام جمع غفير لكل واحد منه فضل على ثقافتنا العلمية و التاريخية ، فمن منهم أذكره؟ ومن منهم لا أذكره؟ فهناك عدا الذين سوف أتحدث عنهم كثيرون من رجال التفسير والحديث والمغازي والأنساب و الشعر، ممن ترددت أسماؤهم في مؤلفات التفسير والمغازي والأنساب والشعر واللغة؛ ممن قد يأتي اسمه عرضاً، وممن قد لا تأتي مناسبة لذكر اسمه .

وأصارحه أيضاً : بأنني لم أحاول استقراء حياة كل الذين سأتحدث عنهم، فحياة البعض منهم صفحة طويلة من تاريخنا العربي، فلو أنني حاولت استيعاب حياة كل واحد من هؤلاء الرواد ، واستقصاء ما جاء عنهم، لألزمني ذلك بالخروج بهذا الجزء عن موضوعه .

أما من أقدم ومن أؤخر ؟؛ فلقد تخلصت من هذه المشكلة كما قلت من قبل باعتبار تاريخ الوفاة، وبناء على ذلك فإنني قد قدمت : (كعب الأحبار) الذي تقدمت وفاته على غيره ممن سأذكرهم من الرواد .

البحث الثاني :

كعب الأحبار

توفي سنة ٣٢هـ

من موضوعات البحث :

١- أقوال القدامى و المتأخرين عن كعب .

٢- كثرة ما يروى عن كعب الأحبار .

٣- الذين أنصفوا كعب الأحبار .

٤- لا غرابة في وجود الخيال فيما يرويه كعب الأحبار .

٥- كعب الأحبار ممن حضر مجالس معاوية بن أبي سفيان .

كعب الأحبار

١- قال (ابن قتيبة) عنه : [كعب بن ماتع، ويكنى : أبا إسحاق. وهو : من (حمير) من آل (ذي رعين) كان على دين اليهود ونزل اليمن و أسلم هناك ثم قدم (المدينة) في خلافة (عمر بن الخطاب) ثم خرج إلى الشام، فسكن (حمص) حتى توفي بها سنة ٣٢هـ][١] .

وفي مرآة الجنان يقول اليافعي : إنه توفي سنة ٣٤هـ [وفي سنة أربع وثلاثين توفي أعلم أهل الكتاب به و بالآثار المشهورة (كعب الأحبار). أسلم زمان (أبي بكر) و روى عن (عمر بن الخطاب)][٢] .

وجاء في الأعلام للزركلي : [كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري. أبو إسحاق). تابعي كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن و أسلم في زمن (أبي بكر). وقدم المدينة في دولة (عمر) فأخذ عنه الصحابة كثيراً من أخبار الأمم الغابرة ، وأخذ هو من الكتاب و السنة عن الصحابة ، وخرج إلى (الشام) فسكن (حمص) وتوفي بها سنة ٣٢هـ عن مئة و أربعين سنة][٣] .

ولم يذكر (فريد وجدي) في دائرة معارفه : المصدر الذي اعتمد عليه عندما قال: كعب الأحبار من [كبار أحبار[٤] اليهود في عصر النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أخذ يتردد عليه، فمال إلى الإسلام ولكنه أرجأ إسلامه رسمياً حتى يتحقق من سائر

---

(١) **المعارف** ، ص٤٣٠ طبع دار الكتب .

(٢) **مرآة الجنان** ١/٨٩ طبع حيدر أباد دكن .

(٣) **الأعلام** ٦/٨٥ .

(٤) الحبر : العالم .

العلامات التي كان يجدها في كتب قومه عن النبي العربي وأصحابه، فلما انتهى أمر الخلافة إلى عثمان رأى: أن تلك البشارات قد تحققت فأعلن إسلامه][1] .. لعل (فريد وجدي) قصد بكلامه هذا: غير كعب الأحبار الذي نحن بصدد ترجمته، أو لعله وجد رواية عن كعب بهذا المعنى ولم يتحقق من صحتها، فما أكثر ما قيل عن كعب الأحبار !!

٢- وما أكثر الروايات التي تنسب إلى كعب الأحبار، وما أكثر الخلاف فيها.. ولقد سبق أن نقلنا عن قصص الأنبياء للثعالبي النيسابوري دور كعب في قصة (إرم ذات العماد) التي ترددت في مؤلفات الأقدمين، مثلما يتردد ذكر مدن (الجرهائيين) وقصور ملوك سبأ و معابد المعينيين في مؤلفات المتأخرين[2]؛ فلقد جاء في رواية النيسابوري: أن كعب الأحبار قال لمعاوية بن أبي سفيان: يا أمير المؤمنين! في حين أن كعباً توفي سنة ٣٢ أو سنة ٣٤هـ وإلى سنة ٣٥هـ كان معاوية والياً على الشام من قبل (عثمان بن عفان)، حيث قتل عثمان بن عفان في سنة ٣٥هـ كما هو معروف.

فأنا مع اعتقادي في وجود أصل لهذا الخبر، فليس ببعيد أن تزيل الرياح رمال الأحقاف عن آثار (المعينيين) و(السبئيين) و تظهر مدينة من مدن دول الماضي المترفة. ولقد سبق البحث في (مدينة إرم ذات العماد) في الجزء الأول من هذا المؤلف .. إنني مع اعتقادي هذا لا أشك في أن رواة الخبر صبغوه بألوان من الخيال مستترين خلف شخصية كعب الأحبار؛ فكعب الأحبار اشتهر بأنه عالم بما في الأسفار من أنباء عوالم الماضي، و كعب الأحبار كان من رواد مجالس معاوية.

فكثرة ما روي عن كعب و كثرة الرتوش التي يبالغ البعض فيها، وكثرة ما نقل عنه بدون تحقيق؛ هو الذي جعل الكثيرين من الذين كتبوا عن التاريخ العربي يشكون فيما نسب إلى كعب ويصفون كعباً بأنه قصصي لا أكثر و لا أقل. ويقولون: إنه دس في

---

(١) دائرة معارف وجدي، مادة كعب ١٥٩/٨.

(٢) العرب في أحقاب التاريخ ١-٢٩٩.

التفاسير التي تحدثت عما جاء في القرآن من أنباء الماضي : الخيال الإسرائيلي ، فلقد حمل عليه (جرجي زيدان) وقال عنه (أحمد أمين) في فجر الإسلام : [وعلى الجملة فقد دخل على المسلمين . من هؤلاء : (وهب بن منبه) و (كعب الأحبار) وأمثالهم في عقيدتهم و علمهم ما كان له أثر غير صالح][1] وقال عنه في ضحى الإسلام : [ملأ (كعب الأحبار) الشام و غيرها من البلدان برواياته][2].

٣- وفي تاريخ العرب قبل الإسلام : أنصف (جواد علي) كعب الأحبار عندما تكلم عنه : [ولم ينسب أحد إلى كعب الأحبار مؤلفاً ، فكل ما نسب إليه ورد بالمشافهة ، وما ورد بالسماع يمكن أن يكون صدر عنه ، ويمكن أن يكون وضع عليه .. فيه ما هو إسرائيلي وارد في الأسفار ، وفيه ما هو قصص إسرائيلي مسيحي ، وما هو محض تقول و خلط . وبالجملة : أن الذي نسب إلى كعب يصلح أن يكون موضوعاً لدراسة تظهر أصله و موارده و المنابع التي أخذت منه . وعندئذٍ يمكن الحكم عليه ، و هل هو صدر من كعب أو من غيره ؟ و مقدار علم كعب ووقوفه على الإسرائيليات][3] .

حقًّا .. إن الحكم على رجل مثل كعب الأحبار أخذ عنه (ابن عباس) و (أبو هريرة) وغيرهما من الصحابة والتابعين يستدعي : حيثيات تقوم على تحقيق متعمق و أدلة أكثر من مجرد رواية نسبت إلى كعب؛ فكعب كما يقول جواد علي : لم يؤلف كتاباً يمكن الرجوع إليه للحكم له أو عليه ، وإنما الذي نقل عنه روايات شفهية قد تكون صحيحة نسبتها إليه ، أو تكون موضوعة ، فابن عباس نفسه لم يسلم من الروايات الموضوعة باسمه ، بل أكثر من هذا : أن الذين سولت لهم نفوسهم فوضعوا أحاديث نسبوها إلى النبي صلى الله عليه وسلم كثيرون .

---

(١) فجر الإسلام ، ص١٦١ .

(٢) ضحى الإسلام ٩٧/٢ .

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام ١٧٠/٦ و ما بعدها .

٤- بيد أن هذا لا يبرئ روايات كعب الأحبار من الخيال؛ فأكثر مصادر كعب إن لم تكن جميعها : الأسفار، و الأسفار كما تقدم الكلام عنها في البحث الخاص بها في هذا الجزء. غارقة في خيال المفسرين و المؤولين، وكذلك لا ينفي ما يقال عن الخيال الإسرائيلي الذي حملته روايات الإخباريين التي اعتمد عليها بعض المفسرين و كثير من المؤرخين .. على أنه مهما يكن في الأخبار التي تنسب إلى كعب من خيال كان بعضه بعيداً عن الحقائق و البعض الآخر يدور حولها، فإنها أخبار لم تخل من المادة التاريخية، وإن الخيال الذي لابسها وجد فيه المحققون في التاريخ مرآة تنطبع عليها عقلية الإسرائيليين و عالم ذلك الماضي و مدى تصوراتهم.

٥- ولقد أجمعت أكثرية المؤرخين، على أن (كعب الأحبار) حضر مجالس (معاوية ابن أبي سفيان) ولكن بُعْدَ كعب الأحبار عن (الأردن) التي كان معاوية والياً عليها عندما كان أخوه (يزيد بن أبي سفيان) والياً على الشام، وبعده عن (دمشق) التي انتقل إليها معاوية بعد وفاة أخيه يزيد؛ يجعل حضور كعب في مجالس معاوية نادراً. فلقد اتخذ كعب مدينة حمص سكناً له، على أن (كرد علي) يقول: إن كعباً جاء إلى (الشام) مع (عمر بن الخطاب) في فتح (القدس) فجعله (معاوية) من مستشاريه لكثرة علمه، و لكن (كرد علي) لم يذكر المصدر الذي نقل عنه: أن معاوية اتخذ كعباً مستشاراً له !!

ولقد انتشرت روايات كعب في طول البلاد الإسلامية و عرضها، وانتشرت معها روايات كثيرة باسم كعب؛ لأن كعب الأحبار في رأي أبناء جيله علاّمة، فلقد قال عنه (أبو الدرداء) حكيم هذه الأمة: إن عند ابن الحميرية لعلماً كثيراً.



البحث الثالث :

دغفل النَّسَّابة

توفي سنة ٦٢هـ

من موضوعات البحث :

١- ليس دغفل النسابة هو : النسابة البكري .

٢- لم يؤلف دغفل كتاباً .

٣- الإعجاب بدغفل لا ينقص من مكانة غيره من علماء الأنساب .

٤- مثل الرعيل الأول من النسابين كمثل شعراء الرعيل الأول .

دغفل النسابة المتوفى سنة ٦٢هـ

١- من هو (دغفل النسابة) ؟ هذا سؤال لم يكن البحث في حاجة إليه لو لم يعرّف (حسين نصار) دغفلاً بما يوهم : أن دغفلا هو : (النسابة البكري) ! وربما نقل ذلك عن (التحفة البهية والطرف الشهية)، و لم يكن البحث في حاجة إلى الجواب عن سؤال آخر وهو : هل ألف دغفل النسابة كتاباً؟ لو لم تشر التحفة البهية إلى وجود كتاب قد يكون دغفل ألفه كما جاء في نشأة التدوين[(١)].

ولقد ذكر (ابن قتيبة) في (المعارف) دغفلا، فقال عنه : [هو دغفل بن حنظلة. أدرك النبي عليه السلام، ولم يسمع منه شيئاً]، ثم ذكر بعد دغفل (عبيد بن شرية) ثم ذكر بعد عبيد بن شرية : (النسابة البكري)[(٢)] .

وذكر (ابن منظور) في (لسان العرب) : دغفلا ولم يقل عنه : إنه النسابة البكري[(٣)].

وترجم (ابن النديم) في الفهرست : دغفلا فقال عنه : [هو الحجر بن الحارث الكناني، ودغفل لقب، وقيل : دغفل الذهلي . هو : دغفل بن حنظلة السدوسي. أدرك النبي عليه السلا ولم يسمع منه . وفد على معاوية]، ثم ذكر ابن النديم : (النسابة البكري) وقال عنه : [وكان نصرانياً وروى عنه رؤبة بن العجاج) . أن للعلم آفة وهجنة ونكداً][(٤)].

---

(١) نشأة التدوين ، ص١٣ .

(٢) المعارف ٥٣٤ .

(٣) لسان العرب مادة دغفل .

(٤) الفهرست ، ص١٣١ و ١٣٢ .

وجاء في الأعلام : ودغفل النسابة الذهلي يضرب به المثل في معرفة الأنساب. توفي سنة ٦٥هـ[١].

هذا ما جاء في المصادر التي اطلعت عليها ، فلم يأت في واحد من هذه المصادر : أن دغفلا هو : النسابة البكري ، ولم يقل واحد من الذين تحدثوا عن دغفل : دغفل النسابة البكري، فمن أراد أن يساير صاحب التحفة فيسبغ على دغفل لقب البكري؛ لأن في أنساب العرب : أن (سدوساً)، هو ابن (شيبان) بن (ذهل) وبنو ذهل يرجعون إلى (بكر بن وائل)، ولأن (ابن قتيبة) عندما أخذ يسلسل نسب بكر بن وائل قال : ومن عمر ابن شيبان (دغفل النسابة)[٢]؛ فعليه أن يقول دغفل النسابة الذهلي البكري؛ لئلا يلتبس على من يقرأ ترجمة دغفل في نشأة التدوين التاريخي، فيظن أن دغفلاً هو النسابة البكري.

٢- ولا أدري من أين نقل صاحب التحفة : أن دغفلا ألف كتاباً اسمه (التضافر، والتناصر) وأن هذا الكتاب هو مجالس دغفل[٣]؛ فابن النديم صرح بأن دغفلاً لم يؤلف كتاباً ، فقد قال عنه : [وقتلت دغفلا الشراة و لا مصنف له]، وكذلك النسابة البكري. لم يذكر ابن النديم ولا ابن قتيبة : أن له كتاباً في الأنساب.

على أن حسين نصار شك في وجود هذا الكتاب الذي نسبته التحفة البهية إلى دغفل، بعد أن نقل فقرة منه فقال : [ولكن هذا المجلس على كل حال يبين لنا : أن كتاب (التضافر والتناصر) إن كان وجد على الإطلاق كان يعالج التاريخ الأدبي].

٣- قد يكون دغفل والنسابة البكري أكثر بروزاً من معاصريهما ، ولكن اشتهارهما بمعرفة أنساب العرب لا ينقص من قدرة غيرهما مثل : (ابن الأشعر، المعروف بلسان

---

(١) **الأعلام** ، مادة دغفل.

(٢) **المعارف** ، ص٩٩.

(٣) **نشأة التدوين** ، ص١٣ و ما بعدها.

الحمرة) و (عبد الله بن ثعلبة) أستاذ ابن شهاب الزهري و (زيد بن الكيس) و (صحارى العدوي) و (المختار العدوى) و (صبح الطائي) و (ميمون بن غيلان الضبي) . وغيرهم من الذين قدموا للمؤرخين بحوثاً في الأنساب أفادتهم في جانب مهم من جوانب التاريخ .

٤- وإن مثل الرعيل الأول من قدامى النسابين الذين لم يدونوا معلوماتهم ويؤلفوا منها كتباً تحفظها من الضياع كمثل الشعراء القدامى وحفظة أيام العرب الذين تناقل الرواة أشعارهم و قصصهم وتوارثوها إلى أن وصلت إلى الذين دونوها مثل : (أبو عمرو ابن العلاء) و(حماد الراوية) و غيرهما ممن أخذ عنهم مؤرخو الشعر الجاهلي وأيام العرب؛ فلقد تناقل الرواة الأنساب وتوارثوها إلى أن وصلت إلى الذين دونوها مثل (ابن شهاب الزهري) و (ابن السائب الكلبي) وغيرهما ممن أخذ عنهم المؤرخون ما يحتاجون إليه؛ لمعرفة قبائل العرب وأرومات الدول .. و من أهم الذين دونت عنهم الأنساب : دغفل، والنسابة البكري، وذلك الرعيل .

البحث الرابع :

عبد الله بن عباس

توفي سنة ٦٨هـ

من موضوعات البحث :

١- كلمة موجزة عن ابن عباس .

٢- رأي ابن عباس في الفيء .

٣- ما استلفت نظر الباحثين في تراث ابن عباس .

٤- كثرة ما يروى عن ابن عباس .

٥- أشهر الذين رووا عن ابن عباس .

٦- التحزب السياسي سبب من أسباب إسناد أقوال إلى ابن عباس لم يقلها

٧- أسباب التناقض فيما يروى عن ابن عباس .

٨- مصادر ابن عباس لما روي عنه في السيرة والمغازي .

٩- مصادر ابن عباس في تفسير القرآن .

١٠- حقق ابن عباس قضايا التاريخ على ضوء معارفه كما يحققها اليوم الباحثون على ضوء معارفهم .

١١- تراث ابن عباس .

١٢- ابن عباس لم يؤلف ولكنه دوّن .

١٣- مجلس ابن عباس : مدرسة علمية منظمة البرامج .

عبد الله بن عباس

١- عبد الله بن عباس هو : أخو خمسة غير (أم حبيب) جميعهم من صلب (العباس بن عبد المطلب). وهم : ١- الفضل. ٢- عبيد الله ٣- قثم ٤- معبد ٥-عبد الرحمن. وعبد الله ابن عباس هو الذي يكنى (أبا العباس) من بين إخوته[١]. وعبد الله بن عباس : صحابي دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤتيه الله الحكمة ويعلمه التأويل[٢]. وعبد الله هو الذي استعمله (علي بن أبي طالب) على البصرة؛ فتأول في الفيء، وهو من الذين أشاروا على (علي بن أبي طالب) أن يترك ولاة الأمصار في مناصبهم إلى أن يستتب له الأمر ، فلم يأخذ علي بنصيحته وهو جد (محمد بن علي) أبي الخلفاء العباسيين[٣].

وعبد الله بن عباس هو أحد القلائل الذين وضع (عمر بن الخطاب) ثقته فيهم، فلقد كان يدعوه مع كبار الصحابة من البدريين إلى مجلس شورته، ويقبل عليه و يسمع منه . وكان يرجع إليه في المعضلات، ويقول له : عندك، قد جاءتك معضلة[٤].

وعبد الله بن عباس كان محط أنظار المفسرين و المحدثين و المتفقهين. قال عنه (النضر) : نعم ترجمان القرآن ابن عباس، ويقول عنه (عطاء بن أبي رباح): قال البحر و فعل البحر ، يعني ابن عباس .. وإلى ابن عباس كان الناس يأتون للشعر، ويأتون للأنساب و يأتون لأيام العرب ووقائعها و للفقه و التفسير والحديث[٥].

---

(١) المعارف لابن قتيبة ، ص١٢١ و ما بعدها .

(٢) الطبقات لابن سعد ٣٦٥/٢ .

(٣) المعارف ، ص١٢٣ .

(٤) الطبقات ٣٦٦/٢ .

(٥) الطبقات ٣٦٧/٢ .

ولقد عاش ابن عباس اثنين وسبعين عاماً؛ حفل أكثرها بأعظم ما حفلت به حياة عالم، ولقد أمضى قسماً من هذه السنين في المدينة و قسماً في مكة ، وقسماً في البصرة، والسنون الأخيرة من حياته قضاها في الطائف، حيث مات هناك كفيفاً سنة ٦٨هـ[١].

٢- وأنا مع اعترافي بأن شخصية ابن عباس : حبر هذه الأمة، شخصية لامعة مازال يتردد ذكرها على ألسنة المسلمين طوال سني التاريخ الإسلامي، وما زال يرجع إلى ما ثبت عنه، الفقهاء فيما يحكمون به، والمؤرخون فيما يحققون فيه عن تاريخ الأنبياء وأيام العرب و أشعار الجاهلية، ومع اقتناعي بأن الكلام عن ابن عباس كلام معاد؛ فتاريخ ابن عباس، وعبقرية ابن عباس، ومعارف ابن عباس : أشهر من نار على علم؛ إنني مع كل هذا أرى أن من الضروري البحث في موضوع (الفيء) عندما أنوه بتاريخ هذا الصحابي العبقري وأمجاده، فلقد تضاربت ظنون الباحثين المتأخرين حول موقف ابن عباس من تفسير قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[٢]، فأخذ بعضهم ينتقد ابن عباس في تصرفه بأموال الدولة في البصرة عندما كان والياً عليها من قبل (علي بن أبي طالب) ويشير بهذه المناسبة إلى ما يروى عن (عمر بن الخطاب) أنه قال لابن عباس : كدت أستعملك ولكن أخشى أن تستحل الفيء على تأويل قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم ... إلخ﴾؛ ويشير الباحثون إلى الخلاف الذي قام بين علي بن أبي طالب و بين عبد الله بن عباس، على أثر تصرف الأخير في أموال البصرة[٣].

---

(١) الأعلام ٤/٢٢٨ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية : ٤١.

(٣) التمدن الإسلامي ٤٣/٤٧ .

فمن الضروري في ترجمة ابن عباس، إيضاح موقفه من قضية الفيء التي اختلف فيها المتأخرون من نقاد التاريخ؛ فابن عباس ثقة أمين، رجع و يرجع إليه الباحثون في قضايا التاريخ الإسلامي؛ فجدير بالبحث الرجوع إلى هذه القضية واستجلاء موقف ابن عباس منها.

واختلاف المتأخرين سبقه اختلاف المفسرين في تفسير هذه الآية؛ فابن عباس كان مقتنعاً بأن ذوي القربى هم: آل بيت الرسول عليه السلام، فقد كتب له (نجدة) يسأله: عن ذوي القربى، فأجابه ابن عباس: قد كنا نقول: إنا هم. فأبى علينا قومنا[1]. وليس ابن عباس هو وحده الذي يقول هذا، فلقد قال (المنهال بن عمر): [سألت: (عبد الله ابن محمد بن علي) و (علي بن الحسين) عن الخمس. فقالا: لنا][2] وجاء تفسير النيسابوري أنه روي عن علي عليه السلام. أنه قال عندما سئل عن اليتامى والمساكين: أيتامنا و مساكيننا[3].

ولكن (علي بن أبي طالب) لم ينكر على (أبي بكر الصديق): رده نصيب القرابة في المسلمين؛ لأن من رأيه: أن يعطي كل إنسان نصيبه من الخمس، و يلي الإمام سهم الله ورسوله[4].. وإلى هذا ذهب (مالك بن أنس) فعنده: نصيب ذوي القربى: يفوض إلى اجتهاد الإمام، وكذلك قال الشافعي.

فعلى ذلك: أن ابن عباس: في تأويله (الفيء) لم يكن هو أول من تأول الآية وفسرها على النحو الذي اعتمد عليه في تصرفه بالفيء، وليس هو آخر من قال به.. وإنما ابن عباس منح ولاية البصرة حق الاجتهاد و التصرف والاستقلال الإداري؛

---

(١) تفسير ابن جرير ١٠/٥.

(٢) المصدر نفسه ١٠/٧.

(٣) تفسير النيسابوري المهمش على ابن جرير ١٠/٥ طبع الأميرية.

(٤) تفسير ابن جرير ١٠/٥ و ما بعدها.

ولذلك لم يقبل من (علي بن أبي طالب) أن يلومه على تصرفه بأموال البصرة، فترك ولاية البصرة و ذهب إلى مكة[1] وهو يرى : أن ما أخذه من بيت مال البصرة أقل مما يستحقه[2] . ومن ا لطبيعي : أن تبالغ دعاية خصوم بني هاشم في مسألة الفيء وموقف ابن عباس، وتنسج حولها القصص .

٣- وكذلك أرى من الضروري للبحث أن يستعرض ما يشغل بال المحققين في تراث ابن عباس ، و أكثر ما يشغل بال المحققين أولا : كثرة ما يروى عن ابن عباس . ثانياً : تعارض الأقوال التي تروى عن ابن عباس . ثالثاً : مصادر ابن عباس التي اعتمد عليها في تفسير القصص القرآني ، وأخبار السيرة والمغازي وأيام العرب و أشعارهم .

٤- أولًا : إن مما يستلفت النظر : كثرة ما يروى عن ابن عباس؛ فلابن عباس في الصحيحين ألف و ست مئة وستون حديثاً[3] . ولابن عباس آثار كثيرة في غير الصحيحين. فلقد استرعت هذه الكثرة نظر الباحثين، وأثارت شكوكهم ، ولقد تشعب التحقيق بهم ؛ فهناك من يضعف غالبية الذين رووا عنه بما فيهم مولاه (عكرمة). فلقد جاء في المعارف لابن قتيبة : أن (سعيد بن المسيب) قال لمولاه (برد) : [إياك أن تكذب عليَّ كما يكذب عكرمة على ابن عباس] . و جاء في المعارف أيضاً : أن (عبد الله بن الحارث) زار (علي بن عبد الله بن عباس) فوجد (عكرمة) موثقاً على باب كنيف فقال له : [أتفعلون هذا بمولاكم ؟ قال يكذب على أبي][4] .. فهؤلاء يشكّون في نزاهة أكثر الذين يروون عن ابن عباس، لاسيما الخبر الذي يأتي عن طريق (معاوية بن صالح) عن

---

(١) محاضرات الخضري ٧/٩٢ .

(٢) الفتنة الكبرة لطه حسين ١٤١/٢ ، فلقد ذكر خطاب ابن عباس لعلي بن أبي طالب الذي جاء فيه : أنه أخذ من المال ما هو أقل مما يستحقه .

(٣) الأعلام ٢٢٨/٤ .

(٤) المعارف لابن قتيبة ، ص ٤٣٨ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ .

(علي بن أبي طلحة)، ويقولون: إن أضعف الأسانيد إلى ابن عباس طريق (جويبر) عن (الضحاك). وينقل صاحب (الإتقان) عن (الشافعي) : أنه لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمئة حديث[1].

٥- ومن أكثر الذين استهدفهم نقد علماء الحديث من رواة الحديث عن ابن عباس: (عكرمة مولى العباس) أكثر الرواة اتصالا بابن عباس[2]: وعكرمة مولى ابن عباس هو (أبو عبد الله عكرمة البربري الدم، الهاشمي الولاء، المدني الدراسة) وهو غير (عكرمة بن خالد بن سعد بن العاص المخزومي) التابعي المشهور وغير (عكرمة بن عمار اليمامي) أحد صغار التابعين اللذين اتهمهما البعض بالتدليس، كما اتهم مولى العباس بضعف الرواية .. بيد أن الذين تجاهلوا ما جاء في المعارف لابن قتيبة عن عكرمة كثيرون؛ منهم رجال يعرفون الضعيف من القوي؛ فعكرمة مولى ابن عباس لم تقتصر روايته على ما سمعه من ابن عباس، فقد روى عن (عائشة) وعن (أبي هريرة) وعن (عقبة بن عامر) وعن (أبي سعيد) وعن (علي بن أبي طالب) ؛ ولعله روى عن ابن عباس قبل أن يملكه ، فابن عباس لم يملك عكرمة إلا بعد أن ولي البصرة[3]، وعن عكرمة أخذ الكثيرون من رجال التفسير والسيرة والمغازي.

ولكن تجاهل الكثيرين ماحام حول عكرمة لايجعل البحث يهمل ما قيل عن ضعف رواية عكرمة، فقد يكون الرجل عندما تقدمت به السن تأثرت ذاكرته فاهتزت روايته فأصبح ضعيفاً عند (مالك بن أنس)[4] وغيره . ولقد ثبت أن الضعف أصاب بعض

---

(١) فجر الإسلام، ص٢٠٣ .

(٢) ومن موالي ابن عباس الذين أخذوا عنه : كريب بن مسلم أبو معبد و شعبة و دفيف و أبو عبيد الله؛ ترجمهم ابن سعد في طبقاته في الجزء الخامس .

(٣) تذكرة الحفاظ ١/ ٩٥ .

(٤) نقل (الدارقطني) قول (الحافظ بن حجر) : يلزم من جعل التسوية تدليساً أن يعد مالك بن أنس مدلساً ؛ لأنه يسقط عكرمة . وقال بعضهم : إن مالك بن أنس أسقط عكرمة؛ لأنه غير حجة عنده .

الرواة بعد أن تقدمت بهم السن . وقد يكون خصوم عكرمة بالغوا في نقدهم، فلكل عالم أخطاء لا سيما إذا ما كثر الأخذ عنه ، وتقدمت به السن ، ولكل عالِم خصوم لا يرون عليهم من حرج في قول ما يقتنعون به .

ومن أكثر من روى عن ابن عباس (مجاهد) و(عطاء بن أبي رباح) و(سعيد بن جبير) و(علي بن أبي طلحة)؛ فعن هؤلاء امتلأت كتب التفسير والسيرة والفقه، وفي أقوال هؤلاء وجد الباحثون أقوالاً متناقضة .

٦- والذي يخص البحث من تراث ابن عباس هو : الذي له صلة بالتاريخ .. والذي له صلة بالتاريخ منه ما هو مرتجل وضعه بعض الرواة و نحلوه أعلام الرواد لأسباب لم تخف على القدامى من النقاد المحققين ، وفي مقدمة الأسباب التي واجهت المحققين : التنافس التقليدي بين الهاشميين و الأمويين؛ ذلك التنافس الذي لم يلبث أن تطور بعد الإسلام إلى خصومة دامية حمراء بين علي بن أبي طالب و معاوية بن أبي سفيان، توارثها العلويون والعباسيون من بني هاشم ، والسفيانيون والمروانيون من بني أمية. ولقد وقف في صف الهاشميين شيعتهم التي أحبتهم عن عقيدة ، ووقف بجانب الأمويين أنصار أخلصوا لهم عن أمل وإكبار . ولقد آزرت الدعاية السيف في جميع عصور النزاع بين الهاشميين والأمويين، ولقد كانت أحاديث الرسول عليه السلام وأقوال صحابته ذات أثر كبير في نفوس ارتوت بالإيمان، فلم يحجم دعاة الحزبين : الأموي و الهاشمي عن وضع الأحاديث والآثار في مصلحة الحزبين، ولم تتأخر شيعة بني هاشم الذين تفوقوا في مجال الدعاية بقدر ما تفوق خصومهم في المجال السياسي، طيلة العصر الأموي ، و لم تتأخر الشيعة عن استغلال مكانة علي بن أبي طالب وعبدالله بن عباس في أوساط المتحزبين للعلويين والعباسيين فأسرفوا في الارتجال والوضع، لاسيما في الموضوعات ذات العلاقة بحرمة بيت آل النبي عليه السلام، وذات العلاقة بمتاعب آل علي وبحقهم في الخلافة، وكذلك لم يقصر أنصار

الأمويين في وضع أحاديث تنوه بمكانة أبي سفيان الذي كرمه النّبيّ عليه السلام في فتح مكة فجعل داره مأمناً لكل من دخلها ، وبصحبة معاوية أحد كتاب الوحي وأحد كبار قواد الفتوحات الإسلامية .

٧- ثانياً : التناقض فيما يروى عن ابن عباس في موضوع واحد ، وأكثر المتناقضات فيما أسند إلى ابن عباس، يرجع سببها إلى عوامل تزيد في قيمة التراث العلمي الذي ورثته الأجيال الإسلامية عن ابن عباس؛ فمن تلك الأسباب: فهم الخبر على نحو ، ثم معرفة صحته .. ومنها : تحري الصحة بالبحث عن حقيقة ما وصل إلى الرواد من أخبار العالم القديم. ومن أدلة عدم مكابرة ابن عباس فيما أخطأ في فهمه: ماجاء في القصة التي ذكرها (ابن جرير) في تفسيره [وقف سائل على ابن عباس. وهو جالس في الحجر ، وسأله عن العاديات ضبحاً ؟ فقال ابن عباس : الخيل حين تغير في سبيل الله ، فانتقل السائل وذهب إلى علي بن أبي طالب؛ وهو تحت سقاية زمزم فسأله عن العاديات ضبحاً - فقال له علي بن أبي طالب : هل سألت أحداً قبلي ؟ قال السائل : سألت عنها ابن عباس فقال : الخيل حين تغير في سبيل الله. فقال علي : اذهب فادعه. فلما حضر ابن عباس : قال له علي أتفتي الناس بما لا علم لك به ؟ والله لكانت أوّل غزوة للإسلام (بدر). و ما كان معنا إلا فرسان : فرس للزبير وفرس للمقداد ؛ فكيف تكون العاديات ضبحاً؟ إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى مزدلفة إلى منى قال : ابن عباس : فنزعت عن قولي ورجعت إلى الذي قاله علي بن أبي طالب[١] .

ففي هذه القصة على هوانها ما يوضح لنا سبباً من أسباب التناقض فيما يروى عن ابن عباس؛ فابن عباس فسر الآية : ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾[٢] بأنها الخيل حين تغير في سبيل الله، وعلي بن أبي طالب فسرها بأنها الخيل حين تنفر من عرفات و تبكر إلى

---

(١) تفسير ابن جرير ١٧٦/٣٠.

(٢) سورة العاديات ، الآية : ١

منى . فقنع ابن عباس بالأدلة التي اعتمد عليها علي فنزع عن قوله إلى ما قاله علي؛ فلا يبعد أن يكون ابن عباس قد فسر هذه الآية لغير هذا السائل بأنها الخيل حين تغير في سبيل الله ، ثم بعد أن قنع بأدلة علي بن أبي طالب فسرها بأنها الخيل حين تنفر من عرفة إلى المزدلفة ومنها إلى منى فجمع المفسرون أمثال ابن جرير على طريقتهم كل ما ورد عن ابن عباس وغيره في تفسير هذه الآية .

وفي قصة الذبيح ما يدل على أن ابن عباس كان حريصاً على تقصي الحقائق، فقد قال أولاً : إن الذبيح هو : إسحاق بن إبراهيم ، ثم قال . ثانياً : إنه إسماعيل وزعمت اليهود : أنه إسحاق وكذبت اليهود . ففيما رواه كعب الأحبار لأبي هريرة : أن الذبيح هو: إسحاق، فابن عباس أخذ بهذه الرواية إلى أن ثبت عنده : أن الذبيح هو : إسماعيل وأن اليهود فسروا ما جاء عنه بأنه أبوهم إسحاق .

فلتناقض الأقوال التي لا مطعن في سندها وإن عزاها إلى ابن عباس رواة ثقات : أسباب كالتي مرت. أما المشكوك في رواتها ، فلا غرابة إن جاءت متناقضة.

٨- ثالثاً : مصادر (ابن عباس)، ومصادر ابن عباس فيما يعود إلى المغازي والسيرة وأفعال الرسول عليه السلام وأعلام الصحابة هي : الأحاديث التي سمعها من النبي عليه السلام مباشرة ، أو أخذها عن صحابته الأولين. ويحدثنا ابن عباس عن المشاق التي تحملها في سبيل سماع الحديث من رواته الثقات قال ابن عباس : [لما قبض رسول الله عليه السلام قلت لرجل من الأنصار : هلم فلنسأل أصحاب رسول الله عليه السلام، فإنهم اليوم كثيرون قال : فقال لي : واعجبًا يابن عباس ! أترى الناس يفتقرون إليك وفي الناس من أصحاب رسول الله من فيهم ؟! قال : فتركت ذلك الرجل ، وأقبلت أسأل أصحاب رسول الله عليه السلام عن الحديث ، فإنه كان ليبلغني الحديث عن رجل فآتي بابه ـ وهو قائل[1] ؛ فأتوسد ردائي على بابه تسفي الريح علي التراب،

---

(١) من القيلولة .

فيخرج فيقول لي : يا بن عم رسول الله عليه السلام. ما جاء بك ؟ ألا أرسلت إلي فآتيك؟ فأقول : لا ، أنا أحق أن آتيك . فأسأل عن الحديث . فعاش ذلك الرجل الأنصاري حتى رآني وقد اجتمع الناس حولي يسألونني فيقول : هذا الفتى أعقل مني] (١) .

وجاء في الطبقات عن (عبيد الله بن علي) عن جدته (سلمى) قالت : رأيت ابن عباس معه ألواح يكتب عليها عن (أبي رافع) شيئاً من فعل الرسول صلى الله عليه وسلم (٢).

فمما جاء في حديث ابن عباس عن متاعب جمع الحديث ، والطريق التي سلكها لأخذ الحديث من حفظته، تبدو لنا أسباب تكرر الرواية عن ابن عباس مع الزيادة أو النقص؛ فرواية تزيد في الحديث شيئاً لم يرد في ذلك الحديث في رواية أخرى يختلف سندها وقد يتفق ، أو تنقص شيئاً ورد في رواية أخرى حسبما سمعه ابن عباس، وحسبما سمع عن ابن عباس ، ولقد قال (واثلة بن الأسقع) عن رواية الحديث : [عسى ألا يكون سمعناها منه عليه السلام إلا مرة واحدة. حسبكم إذا حدثتكم بالحديث على المعنى] (٣) . وروى الحاكم في علومه - : أن (هشام بن عروة بن الزبير) قال في حديث رواه عن عائشة : (ما خُيِّر رسول الله صلى الله عليه و سلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما وما ضرب بيده شيئاً] : أنه سمع بعض الأحاديث من أبيه والباقي عن الزهري (٤) - فابن عباس لم يأخذ الأحاديث التي رواها عن رجل واحد ، وابن عباس لم يرو الأحاديث التي حفظها لرجل واحد .

ومما روته (سلمى) نتبين : حرص ابن عباس على التحري، فهو قد أخذ يكتب عن (أبي رافع) على ألواح ، فالرجل كان يحفظ وكان يدون وكان يعيد الفكر والنظر فيما

---

(١) طبقات ابن سعد ٢/٣٦٨ .

(٢) المصدر نفسة ٢/٣٧١ .

(٣) جامع بيان العلم وفضله ١-٧٩ .

(٤) مجلة الجامعة الإسلامية ، العدد الثالث ، السنة الثانية ، المحرم ١٣٩٠ ص١٠٠ .

سمعه و فيما دونه. ومن هذا وذاك تظهر لنا مصادر ابن عباس فيما رواه عن السيرة والمغازي و أفعال الرسول عليه السلام، وتظهر لنا المشاق التي تكبدها والعناية التي أبداها في جمع النصوص و في فهمها و في روايتها .

ولم ير ابن عباس كغيره من رواد التفسير بأساً في الرجوع إلى تراث القدامى في تفسير الأنباء التاريخية التي وردت في القرآن عظة وعبرة، فأولئك الرواد قد رجعوا إلى ما يعرفه العرب عن (عاد) و(ثمود) و(جرهم) و غيرهم من الأمم البائدة التي اشتهرت في العالم العربي، مثلما رجعوا إلى لغات القبائل العربية وأشعارها في تفسير الغريب من ألفاظ القرآن مثل : (فاطر) ـ و(التخوُّف)، وهم قد رجعوا إلى الأسفار والمدونات، فيما يعود إلى أخبار العالم القديم و أممه الغابرة .

فعلى هذا النحو وصلت إلينا نصوص نقلها المؤرخون بثقة مفعمة بالتقدير، وإذا كان هناك من يقول : إن رجوع الرواد إلى الأسفار الإسرائيلية و المدونات السريانية والفارسية واليونانية لم يكن في مصلحة التاريخ العربي؛ لأنه أدخل فيه الأساطير والمبالغات، فإن النتائج التي ظهرت في البحوث المتقدمة الواضحة، أثبتت : أن الأخبار التي كان يرويها الكتابيون و الفرس و اليونانيون لا تخلو من حقائق تاريخية؛ يضاف إلى ذلك : أن كل نص قديم يصور لنا العقلية التاريخية في تلك العصور، فمهما اختلط الخيال بخبر (يوسف) وإخوته؛ فإن القصة لا تخلو من الحقيقة التاريخية؛ فيوسف هبط مصر وبيع في أسواقها ونال لدى عزيز مصر مكانة ذات نفوذ أتاحت له السيادة على مصر، مثلما هبط إلى مصر في العصور الإسلامية مماليك بيعوا في أسواقها ثم هيأت لهم كفاياتهم السيطرة على مصر. ولقد سام الفراعنة اليهود سوء العذاب، مثلما سامهم النازيون في عهد (هتلر)، فالدس و الطعن من الخلف والإجرام السياسي، كل ذلك سبب لهم سواء العذاب في كل عصر من عصورهم، وها هم أولاء اليوم يدفعون الولايات المتحدة الأمريكية إلى مواقف تثير عليها نقمة الشعوب

وسخطها ، ولسوف يأتي المستقبل بأسوأ النتائج التي تترتب على انقيادها لمطامع اليهود .. ولا يبعد : أن تكون أمريكا نفسها فريسة لمطامع الصهيونيين و مخططاتهم . ففي موقف اليهود من (موسى) بعد أن أنقذهم من ظلم الفراعنة : عظة و عبرة .

١٠- وإنه لمن الخطأ ظن الذين يقولون : إن ذلك الرعيل من الرواد العرب أخذوا كل ما وصل إليهم على عاهاته ، فلقد ظهر لنا في بحث الأسفار ورأى ذلك الرعيل في التبديل والتأويل، ولقد ظهر لنا الآن في موقف ابن عباس في الرواية الإسرائيلية عن الذبيح : أن موقف الرواد من الأسفار موقف سليم لا ينقصه التحري الحذر ، فعلى ضوء معارفهم نقدوا وحققوا . كما ينقد اليوم الباحثون في التاريخ القديم ويحققون على ضوء معارفهم . ونحن إذا ما بحثنا في حقيقة الخرافة في التاريخ نجد الذين ملأوا بها المؤلفات في التاريخ هم المتطفلون على البحوث التاريخية الذين لا يتورعون عن دعم خيالهم بإسناده إلى واحد من الرواد .

١١- وأخيراً تراث ابن عباس : وتراث ابن عباس تحدث عنه الباحثون كثيراً ، فقد قال عنه (موسى بن عقبة)[1] : [وضع عندنا (كريب) حمل بعير من كتب ابن عباس] ولكن موسى بن عقبة لم يقل لنا شيئاً عن كتب ابن عباس التي بلغت حمل بعير ! هل هي مدونات دونها ابن عباس نفسه ؟ أو هي مدونات كتبها (كريب) عن ابن عباس كما كتب عنه (مجاهد) التفسير، لذلك علينا أن نرجع إلى ما جاء في الفهرست عن ابن عباس ، و ما جاء في الفهرست لا يستشف منه أن ابن عباس ألف كتاباً ؛ على ما علمنا عن ابن عباس ، وأنه شوهد وهو يدون أفعال الرسول عليه السلام عن (أبي رافع) ؛ فالذي جاء في الفهرست عن كتب ابن عباس جاء مقتصراً على خمسة كتب نسبت إلى ابن عباس[2] .

---

(١) راجع ترجمة موسى بن عقبة في هذا الجزء .

(٢) **الفهرست** ، ص ٥٠ و ٥١ و ٥٧ .

الكتاب الأول : كتاب ابن عباس في تفسير القرآن. رواه (مجاهد) ، وتفسير القرآن الذي كتبه مجاهد قال (ابن جرير) في تفسيره : إن مجاهد لزم ابن عباس حتى كتب تفسير القرآن[1] ، فهذا الكتاب لم يدونه ابن عباس ، بل دونه مجاهد عن ابن عباس في ألواحه .

الكتابان : الثاني والثالث تفسير (عكرمة) ، وكتاب (نزول القرآن) لعكرمة عن ابن عباس ، وعكرمة ـ هو : مولى ابن عباس وراوية من رواته ؛ فهذان الكتابات كما يظهر دونهما عكرمة مما سمعه من مولاه عبد الله بن عباس وعنه .

الكتاب الرابع : كتاب (أحكام القرآن) وقد قال عنه ابن النديم : إنه للكلبي ، رواه عن ابن عباس ، فابن الكلبي من المؤلفين الذين يفخرون بسعة اطلاعهم ، وقد توفي بعد وفاة ابن عباس بنحو ثمانية و سبعين عاماً[2] .

الكتاب الخامس : كتاب (عدد لامات القرآن) قال عنه ابن النديم : إنه لابن عباس ، وموضوعات هذا الكتاب الذي لم أطلع عليه - كما يظهر من عنوانه - من الموضوعات التي استجدت بعد عصر ابن عباس ، ولقد ورد في الفهرست : من الكتب المؤلفة في القرآن ـ كتاب (أجزاء القرآن) عن (أبي بكر بن عباس)[3] - فابن عباس هذا ليس هو بطبيعة الحال (عبد الله بن عباس) ، فقد يكون هناك تحريف نشأ عنه انتساب هذا الكتاب لابن عباس ـ كما إخال : أن هناك تحريفاً في اسم (أبي بكر بن عباس) ـ فالمعروف ـ هو : (أبو بكر بن العياش) مولى (واصل بن حيان الأحدب). روى عن (عاصم بن أبي النَّجود) القراءة ؛ فأبو بكر هذا يعرف بابن العياش .

---

(١) تفسير ابن جرير ١/٢٨ و ٣١ .

(٢) المعارف ، ص٥٣٥ ، راجع ترجمة ابن الكلبي في هذا الجزء .

(٣) الفهرست ، ص٥٥ .

١٢- وعلى كل - حال مهما يكن من أمر هذه الكتب - فإن تراث ابن عباس لم يخل منه مؤلف من المؤلفات في التفسير، وفي السيرة، وفي المغازي، وفي أيام العرب وأشعارهم، وفي تاريخ ما قبل الإسلام. وإن مصادر ابن عباس كثيرة؛ فابن عباس لم يكتف بما سمعه من الرسول عليه السلام، بل هو حرص على أن يجمع من صحابته، ولم يكتف بالأخذ من الراسخين في الأسفار مثل : عبد الله بن سلام، و كعب الأحبار، بل هو اهتم بكتب التوراة والإنجيل وعرف شيئاً منها، كما يؤكد ذلك صاحب الإتقان[١]. هذا و لا يستبعد على ابن عباس الذي دون أفعال الرسول عليه السلام أن يدون الأحاديث التي سمعها من النبي عليه السلام والتي سأل عنها صحابته ، والأخبار التي وصلت إليه عن العالم القديم؛ مبوَّبة حسب موضوعاتها .

١٣- ولم تقتصر مدرسة ابن عباس على رواية الحديث، فلقد نظم مجالسه، فكان يجلس يوماً لايتحدث فيه إلا عن الفقه ، ويوماً لا يتحدث فيه إلا عن التفسير ، ويوماً لا يتحدث فيه إلا عن المغازي ، ويوماً لا يتحدث فيه إلا عن الشعر ، ويوماً لا يتحدث فيه إلا عن أيام العرب[٢].

وكثيرون أولئك الذين كانوا يؤمون مجالس ابن عباس؛ فرحم الله ابن عباس، فكم أغدق على ثقافتنا علماً ! و غفر الله لابن عباس، فكم وضع عليه المتقولون !

---

(١) راجع الجزء الثالث من الإتقان .

(٢) الطبقات ٣٦٨/٢ .

البحث الخامس :

عبيد بن شرية ، أو ابن سرية ، أو ابن سارية – الجرهمي

توفي سنة ٦٧هـ

من موضوعات البحث :

١- عبيد بن شرية واحد من قليلين حافظوا على جرهميتهم .

٢- المستشرق (كرنكو) يتهم (ابن النديم) بأنه اخترع عبيد بن شرية .

٣- ابن شرية نفسه من رواة القصص الجاهلية .

٤- ليس من السهل شجب النصوص العربية .

٥- النزول على رأي كرنكو – معناه : نزولنا عن مصادر تاريخنا .

٦- الحكم على ابن النديم يشمل غيره .

٧- كرنكو يعترف بوجود ابن شرية في حيدر أباد دكن .

٨- الذين تحدثوا عن ابن شرية و ضمنوا شيئاً من حياته .

٩- ليس المستشرقون جميعهم ينكرون وجود ابن شرية و ليس المتأخرون جميعهم يسخرون من أخباره .

١٠- أخبار ابن شرية .

١١- أخبار ابن شرية و تيجان ابن منبه مرآة للعقلية التاريخية في العصر الجاهلي .

عبيد بن شرية، أو ابن سرية، أو ابن سارية

١- عبيد بن شرية من القلائل الذين احتفظوا بنسبهم الجرهمي إلى ما بعد الإسلام، وعبيد بن شرية من المعمرين. أدرك الإسلام بعد عمر قضاه في الجاهلية: تارة خطيباً يعتلي المنابر، وأخرى واعظاً يجلس في منصة الحكمة. أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يأخذ عنه شيئاً[١]، وعاش إلى خلافة معاوية، فتحدث في مجالسه بما يحفظه من تاريخ وأنساب وشعر. توفي سنة ٧٠هـ وفي الأعلام للزركلي سنة ٦٧هـ[٢].

٢- وعبيد بن شرية من القلائل الذين تتردد أسماؤهم في كل جيل، وفي جيلنا الحاضر يتردد اسم بن شرية على أنه شخصية خيالية من اختراعات (محمد بن إسحاق بن النديم)، كما جاء في رسالة (كرنكو) المستشرق الألماني إلى (خير الدين الزركلي)، الذي علق عليها بقوله: [قلت: ومن قرأ كتابه في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها ترجح عنده: أن الكتاب من وضع أصحاب القصص، وليس من السهل اتهام ابن النديم باختراع اسمه، فلعله أخذه عمن تلقفه من أفواه غير المتثبتين من الرواة][٣].

٣- للزركلي الحق في لفت النظر إلى ما في (أخبار ابن شرية)[٤] من خيال قصصي يبعث على الظن، بأن من تلك الأخبار ما هو من وضع أصحاب القصص، وإنما الذي تجدر ملاحظته: أن الأخبار التاريخية المتداولة في العصر الجاهلي، مترعة

---

(١) **المعارف**، ص٥٣٤.

(٢) **الأعلام** ٣٤١/٤م.

(٣) المصدر نفسه ٣٤١/٤ الهامش.

(٤) **أخبار ابن شرية**: اسم الكتاب الذي ينسب لعبيد بن شرية.

بالأساطير؛ فالأساطير في أخبار ابن شرية لا تدل على أنها من وضع أصحاب القصص في العصور الإسلامية ، فابن شرية نفسه لم يخرج بأخباره عما في قصص الجاهلية .

٤- ومن رأيي : أنه ليس من السهل الحكم على عبيد بن شرية ، بأنه شخصية خيالية ، وأنه لم يكن في أي وقت رجل بهذا الاسم !! وليس من السهل أيضاً أن نتهم ابن النديم بأنه يأخذ من أفواه غير المتثبتين !!.

أجل ! ليس من السهل : قبول مثل هذه الأحكام بمثل هذه السهولة التي صدرت بها !!. إن أحكاماً كهذه تفرض علينا : أن نضرب بما تواتر في مصادرنا العربية عرض الحائط مجاراة لرأي مستشرق جاء مجرداً من كل دليل ، فتضعيف النصوص العربية ليس من السهولة التي يتصورها البعض ، فلابد لمن يشطب على النصوص بالمداد الأحمر من تقديم أدلة مقنعة .

٥- إن نزولنا على رأي (كرنكو) معناه نزولنا عن مصادرنا والطعن فيها ، فإذا كان ابن النديم يأخذ عمن يتلقف من الأفواه دون تثبت ، فما قيمة كتابه (الفهرست) ؟ وإذا كان ابن النديم يأخذ من غير المتثبتين؛ لأنه ذكر ابن شرية ، فلم لا يكون (ابن قتيبة) كذلك من الذين يأخذون من غير المتثبتين؛ فهو أيضاً ذكر ابن شرية وقال عنه : [وفد على معاوية فسأله عن الأخبار المتقدمة]؟! وما قيمة كتبه : (المعارف) و(عيون الأخبار) و(الشعر و الشعراء) و غيرها ؟. ولم لا يكون (الدينوري) مثل ابن النديم يأخذ من غير المتثبتين ، فهو أيضاً ذكر عبيد ابن شرية في كتابه الأخبار الطوال ، فقال عنه : [وذكر عن ابن شرية - أنه قال ...إلخ] وما قيمة مؤلفاته ؟! ولم لا يكون (اليافعي) وغير اليافعي ممن سبق ابن النديم وممن تأخر عن ابن النديم ، من الذين ذكروا ابن شرية جميعهم من الذين يأخذون من غير المتثبتين ؟! وكيف يمكننا الاعتماد على ما في أيدينا من المؤلفات ما دام أصحابها يأخذون من غير المتثبتين ؟!!

٦- فالحكم على عبيد بن شرية بأنه شخصية خيالية ، وعلى أخباره بأنها من اختراعات أصحاب القصص : حكم يسري على (ابن منبه) و (كعب الأحبار) وغيرهما ممن تحدث في العصر الإسلامي عن التاريخ بعقلية النصوص التي اطلع عليها . فأي خبر من أخبار العصور الماضية سلم من الخيال ؟ وأي مؤلف من المؤلفين كان في استطاعته تدوين الأحداث بأسلوب القرن العشرين وعقليته؟!! . وهل يضمن مؤلفو العصر الحاضر أن ما يدونونه من الأحداث سوف ينطبق على فهم ومقاييس الباحثين في التاريخ بعد ألف عام ؟!!

٧- ثم إننا إذا ما رجعنا إلى كتاب (أخبار ابن شرية) نجد مستشرقاً بنفس هذا الاسم (كرنكو) الألماني أبدى رأياً على كتاب ابن شرية نفسه المطبوع في مطبعة دائرة المعارف الحيدرأبادية . جاء تعليقاً على الكتاب [استنتج المستر (كرنكو) من الجملة التي صدر بها كتاب أخبار ابن شرية: حدثنا عبيد بن شرية عن البرقي إلخ- : أن الجامع له ابن هشام، وكان القائل عن البرقي أحد تلامذته][1]، فإذا كان الرجلان : الذي كتب لخير الدين الزركلي والذي نقل رأيه في التعليق على كتاب أخبار ابن شرية . رجلاً واحداً، فليس ثمة ما يدعو إلى اتهام ابن النديم بأنه اخترع شخصية عبيد بن شرية . فمستر كرنكو . نفسه قد ذكر ابن شرية !!

٨- والذين تحدثوا عن ابن شرية لم يتحدثوا عن أخباره فحسب، بل تحدثوا أيضاً عن حياته ، فقالوا عنه : إنه من سكان (الرقة) . وقال (ابن عساكر) : قيل : إن ابن شرية لم يفد إلى معاوية و إنما لقيه بالحيرة لما توجه معاوية إلى العراق[2] . و ما جاء في كلام ابن عساكر عن اجتماع معاوية بابن شرية في العراق لا ينفي حضور ابن شرية إلى مجالس معاوية في الشام، فقد يكون معاوية عرفه في الحيرة فأعجب به، فدعاه إلى

---

(١) التيجان وأخبار ابن شرية ، ص٣١٢ . طبع حيدر أباد .

(٢) الأعلام للزركلي ٣٤١/٤ .

دمشق ، و ما جاء في كلام ابن عساكر عن اجتماع معاوية بابن شرية يرجح لنا : اطلاع ابن شرية على ما في كنائس الحيرة من تراث القدامى؛ فقد يكون ابن شرية غادر اليمن بما معه من معلومات حصل عليها من بلاد الحميريين؛ ليحصل على المزيد من بلاد اللخميين، على رأي من قال : إن ابن شرية من سكان (اليمن)، أو إنه غادر (الرقة) إلى اليمن وإلى الحيرة وغيرهما بحثاً عن الأخبار التاريخية ، على رأي من قال : إنه من سكان (الرقة)؛ فمما يؤكد هذا الظن : الأسماء التي ذكرها وأرجعها إلى أصلها السرياني، والأخبار التي تحدث بها والتي يرجع أصلها إلى المصادر الفارسية ، كما جاءت في كتابه أخبار وردت في مصادر قحطانية .

٩- وليس المستشرقون جميعهم يشكّون في وجود عبيد بن شرية ، فلقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية عن عبيد بن شرية [وما وضعه الاثنان : (وهب بن منبه) و(عبيد بن شرية) دليل وافٍ على أن العرب الأقدمين كان ينقصهم في تدوين التاريخ قوة الإبداع والنفوذ إلى الحقائق حتى في أخص ما يتصل منها بحوادث عصرهم][1].

وليس كل الذين كتبوا في العصر الحاضر عن ابن شرية يرون : أن أخباره من وضع أصحاب القصص ، فلقد جاء في مقال (جميل العظم) الذي نشرته مجلة (الكشاف) تحت عنوان : التاريخ و مصنفات العرب فيه : [أن ابن شرية الرائد الأول في التصنيف]، وجاء في كلام (جواد علي) اعتماداً على مصادر عربية وغير عربية : [فأما عبيد بن شرية ، فقد كان من أهل (صنعاء) في رواية أو من سكنة الرقة في رواية أخرى، وكان معروفاً عند الناس بالقصص والأخبار ، فطلبه معاوية فصار يحدثه بأخبار الماضين . ومن الكتب المنسوبة إليه : كتاب (الأمثال) و(الملوك وأخبار الماضين) ، وقد طبع في ذيل كتاب (التيجان) في حيدر أباد دكن في الهند ـ بعنوان أخبار عبيد بن شرية ، وقد وضع الكتاب على الطريقة التي تروى بها أيام العرب ، وفيه أشعار كثيرة وضعت على لسان

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة تاريخ ٤/٤٨٤ .

(عاد) و(ثمود) و(لقمان) و(طسم) و (جديس) و(التبابعة)، وفيه قصص إسرائيلي شعبي يمثل في جملته السذاجة و ضعف ملكة النقد و مبلغ علم الناس في ذلك الوقت بأخبار الأوائل. وأما الشعر الذي رواه، فلاندري هل هو من نظمه، أو من نظم أشخاص آخرين أضيف فيما بعد إلى الكتاب ؟! وعلى كل فهي تستحق توجيه عناية الباحثين][1].

١٠- وفي الواقع أن كتاب (أخبار بن شرية)[2] - لا يخرج عن الدائرة التي وضعه فيها جواد علي، فكل من يطلع على الكتاب يجده : أسئلة يجيب عنها ابن شرية، ويجد أكثر أجوبة ابن شرية : تستند إلى مصادر اطلع عليها عبيد بن شرية، كما يظهر من قوله : [ويقال : جميع أجناس الفرس من ولده إلخ] و[بلغني : أن أولاد (بربر) إلخ] و[قال (أسد بني ناعض) يذكر السحابات والتخيير] و[في ذلك يقول (أسد بن ربيعة الكلابي) وهم الاوائل].

وكل من يطالع الكتاب، يجد فيه: العنصرية التي كانت تفرق بين العدنانيين والقحطانيين: واضحة كل الوضوح : [إنما كانت (مضر) بالأمس وكانت (اليمن) ملكت وملكت، ولم يكن (مضر) ولا (معد) ولا (عدنان) إنما اليمن من ولد (هود) واسمه بالسريانية (عابر)].

وكل من يطالع (أخبار ابن شرية) و(تيجان ابن منبه) يرى فيهما صورة واضحة للقصص الجاهلي ، ونموذجاً للأخبار التاريخية التي كان العرب يتداولونها في جاهليتهم، كما قال جواد علي، وقالت دائرة المعارف الإسلامية .

وكل من يطالع أخبار ابن شرية : يلاحظ تعليق (زين العابدين الموسوي) مصحح مطبوعات دائرة المعارف الحيدرأبادية على ما قاله (كرنكو) : إن الجامع لهذا الكتاب هو (ابن هشام) بانياً استنتاجه على ما جاء في النسخة الأصلية : [حدثنا عبد الله بن

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ٤٣/١ و ٤٤ .

(٢) أهدتني دائرة المعارف الإسلامية هذا الكتاب مع بعض مطبوعاتها إبان زيارتي لحيدر أباد قبل استقلال الهند .

شـرية عن البرقـي] ، فالبرقي تلميذ ابن هشام مؤلف التيجان؛ فقد علق (الموسوي) على هذا الاستنتاج مصححاً لرواية حديث ابن شرية عن البرقي[1].

وكـل مـن يطالـع أخـبار ابـن شـرية يجـد القصـص العـربي الشـعبي متأثـراً بالإسـرائيليات ، و يجد فيه ادعـاء ابـن شـرية بأنـه أدرك عامـة ملـوك (حمير) و(لخـم) و(كندة) و(غسان) ، وادعاء كهذا لا يتحتم تصديقه ، وإنما يرجح لنا : أن ابن شرية كان يحتفظ بمدوّنات جاهلية ، وأن ابن شرية لم يظهـر تلك المدونات لئلا يفقد إعجـاب معاوية و من كان يحضر مجالس معاوية بحافظة عبيد بن شرية المعمر المخضرم .

١١- وأخيراً : إنني لا أنفـي عن كتاب (أخبار ابن شـرية) : إضـافات "ورتوشـاً" مـن صنع الذين رووا أخباره والذين دونوها عبر السنين . فكتاب ابن شرية في رأي الكثيرين ، قد جمعه كتَّاب مجهولون ، قد يكون ما وصل إليهم من مجالس معاوية مدوناً بأقلام مجهولة أو رواية عن البرقي أو غيره أو خليطاً من هذا وذاك؛ فعلى الشهرة الواسعة التي حصل عليها كتاب ابن شرية و انتشار نسخ منه . يقول جواد علي : [ومع هذه الكثرة اختلفت نسخه حتى صعب العثور على نسختين متشابهتين][2] .

ولا غرابة في ذلك ، فكل الأخبار التاريخية التي يتناقلها الرواة و المدوِّنون لا تسلم من زيادات يضيفها الذين يروونها والذين ينسخونها ، على أنه كلما تقادم الخبر التاريخي بليت عليه ثياب الخيال و برزت بعض الحقائق من بين خيوطه؛ فالخيال الذي كان ينطلي على الأجيال الماضية لا يخدع أبناء هذا الجيل ، وكذلك سوف يبلى خيال الحاضر الذي تنسجه أفكار الكتاب في الوقت الحاضر وتبرز الحقائق أمام نقاد الأجيال القادمة .

ولسوف تكون مؤلفات المؤرخين في العصر الحاضر مرآة لعقلية هذا الجيل مثلما أصبحت مؤلفات (عبيد بن شرية) و(وهب بن منبه) وغيرهما ، مرآة انعكست عليها العقلية التاريخية الجاهلية في جزيرة العرب .

---

(١) **أخبار ابن شرية** ، ص٣١٢ ، وخاتمة الطبع التي كتبها الموسوي ، ص٤٩٠ . و ابن هشام : عبدالملك مؤلف السيرة . وله (القاصائد الحميرية) و(التيجان) ; رواه عن أسد بن موسى عن ابن سنان عن وهب بن منبه .

(٢) **تاريخ العرب قبل الإسلام** ١/ ٤٤ .

البحث السادس :

عروة بن الزبير

توفي سنة ٩٣ أو سنة ٩٤هـ

من موضوعات البحث :

١- عروة في تراجم القدامى .

٢- عروة بن الزبير فجع في صحته كما فجع في إخوته .

٣- عروة بن الزبير في تحقيقات المتأخرين .

٤- هل ألف عروة بن الزبير في التاريخ ؟

عروة بن الزبير

١ - إذا ما ترجم القدماء عروة بن الزبير لا يترجمونه على أنه سياسي مثلما يترجمون أخاه (عبد الله بن الزبير). فهو لم يشترك في المشكلات السياسية، كما اشترك فيها أخوه، ولا يضعونه مع النسابة والمفسرين، مثلما وضعوا (عبد الله بن الزبير)؛ فنشاط عروة في تحقيقهم انحصر في الحديث والفقه .. فالذين تحدثوا عنه من القدامى تحدثوا عنه: عالماً أميناً فقيهاً متحرياً في فقهه. انتقل إلى البصرة ثم إلى مصر حيث تزوج بها، وعاد إلى المدينة وتوفي في (مجاح) في (الفرع)[1] سنة ٩٤هـ. ولا يزال قسم من (عقيق المدينة) الواقع في طريق المدينة إلى مكة عند مدخل المدينة يعرف باسم (بئر عروة).

ولقد جاء في ترجمته لابن قتيبة: [فولد (الزبير): عبد الله، وعاصماً وعروة والمنذر، وأم الحسن. أمهم (أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين)، ومصعباً وحمزة ورملة وخالداً وعمراً، وعبيدة، وجعفر، وخديجة، وعائشة وغيرهما تتمة تسع بنات.

٢ - أما عروة بن الزبير، فكان فقيهاً فاضلاً، و يكنى: أبا عبد الله، وأصابته الأكلة في رجله بالشام. وهو عند (الوليد بن عبد الملك) فقطعت رجله والوليد حاضر، فلم يتحرك ولم يشعر الوليد: أنها قطعت حتى كويت، فوجد رائحة الكي !! وبقي عروة بعد ذلك ثمانية أعوام، واحتفر بالمدينة بئراً، يقال لها: بئر عروة، ليس بالمدينة بئر أعذب منها، وهلك في ضيعة له قرب المدينة سنة ثلاث و تسعين، ويقال: إنه مات سنة أربع وتسعين وكانت تلك السنة تدعى سنة الفقهاء لكثرة من مات منهم فيها.

---

(١) مجاح: قرية بناحية الفرع. والفرع على مسافة أربع ليال من المدينة: وهي ذات نخل و مياه. الطبقات ١٨٢/٥.

ومن ولد عروة بن الزبير (هشام) الذي عرفته (الكوفة) أيام (أبي جعفر المنصور) الخليفة العباسي الثاني؛ ففيها درس عليه الكوفيون[1] - وإلى هشام ابن عروة تنسب أكثر الروايات المسندة إلى عروة بن الزبير.

٣- أمَّا المتأخرون، فيضعون عروة بن الزبير مع الطليعة التي بدأت تدوين التاريخ. فهذا (حسين مؤنس) يقول في تهميشه على (تاريخ التمدن الإسلامي) : [وأما عروة بن الزبير بن العوام الأسدي، فقد حفظ لنا معظم الروايات المتعلقة بأصول الإسلام بحسب رواية المدينة ، وقد ولد بين سنتي (٢٣ و ٢٩) وتوفي بين سنتي (٩١ و ٩٩) أي أنه شهد معظم أحداث القرن الهجري الأول، وقد اعتزل الناس بعد مقتل أخويه مصعب وعبد الله وفرغ للكتابة و التأليف؛ ونظراً لصلته القوية بعدد كبير من الصحابة ، فإن أخباره التي يرويها على أعظم جانب من الأهمية، والكثير من تأليفه مكتوب في صورة خطابات بعث بها إلى (الوليد بن عبد الملك)، و قد روى عنه أخباره (محمد بن مسلم الزهري) و أبناؤه، لاسيما ابنه (هشام) ثم (سليمان بن يسار) و(ابن أبي مليكة) .. ومعظم أخباره وارد عند (ابن إسحاق) و (ابن سعد) و(الطبري)][2] .

وهذا (عبد العزيز الدوري) يقول في كتابه: (بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب) عن عروة بن الزبير بعد أن تكلم عن مولده و نشأته و ثقافته و رحلاته إلى (مصر) و(دمشق) : [إن البلاط الأموي سأله عن حوادث (بدر) وغيرها ، فأجابه عن ذلك برسائل وصلنا بعضها في الطبري، وهي أقدم القطع التاريخية التي وصلتنا ومن أوثقها] . وقد جمع الدوري من (سيرة ابن هشام) و (تاريخ الطبري) و(فتوح البلدان) للبلاذري ، و (المغازي) للواقدي : روايات عروة، ونظمها حسب تاريخ أحداثها والمناسبة التي روى فيها عروة الخبر أو كتب عنه، من بعثة الرسول عليه السلام وبدء

---

(١) **المعارف** ، ص٢٢١ وما بعدها .

(٢) **التمدن الإسلامي** ٣/ ١٠٠ طبع دار الهلال .

الوحي إلى الهجرات إلى المغازي إلى بعض مراسلات الرسول عليه السلام وقال عنها : [ويبدو : أن رواياته مجرد خطوط أولية تتباين في التفصيل ، ففي حين أن بعضها لا يعدو إشارات عابرة. نرى البعض الآخر متصلا في حديثه عن (بدر) و(الحديبية) و(فتح مكة). ونلاحظ : أن معركة (أحد) لا يرد عنها ما يذكر ، كما أننا لا نجد في هذه الروايات ذكراً لتاريخ الوقائع عدا (مؤتة)](1) .

وهذا (حسين نصار) في كتابه : (نشأة التدوين التاريخي عند العرب) يقول : [عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤هـ من معاصري (أبان بن عثمان) ومن الذين ألفوا في التاريخ ، ولم يقتصر عروة على الرواية الشفوية ، بل دون بعض الأحداث التي طلبها (عبد الملك بن مروان) و(ابن أبي هنيدة) الذي كان في بلاط (الوليد) في رسائل بعثها إليهما ، وقد وصل إلينا بعض هذه الرسائل في مؤلفات : ابن إسحاق ، والواقدي ، والطبري . وتتناول رسائل عروة إلى عبد الملك : هجرة الحبشة ، وموقعة بدر ، وفتح مكة ، وتناول عروة أيضاً وفاة (خديجة) وهجرة النبي عليه السلام إلى المدينة ، وزواج النبي عليه السلام من أخت (الأشعث). وتتناول الرسالة التي بعثها لابن أبي هنيدة ورواها (الزهري) المناسبة التاريخية للآية العاشرة من السورة الستين](2) ؛ فعن الآية العاشرة من سورة (الممتحنة) كتب (ابن أبي هنيدة) صاحب (الوليد بن عبدالملك) يسأل (عروة) عن قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ... إلخ﴾ (3)- فأجابه عروة في رسالة ووجهها إليه عن الآية وأنها نزلت بعد صلح (الحديبية) الذي قضت شروطه بأن يُرْجِعَ المسلمون من جاءهم مسلماً من قريش(4) .

٤- فالذي يظهر مما لخصناه من هذه التحقيقات التي قام بها الباحثون في نشأة التاريخ عند العرب ، ومما استعرضه المحققون من آثار عروة بن الزبير : أن عروة لم

---

(١) كتاب بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب من ، ص٦١ إلى ٧٧ .

(٢) نشأة التدوين التاريخي ، ص٣١ .

(٣) سورة الممتحنة ، الآية : ١٠ .

(٤) تفسير بن جرير ٤٥/٢٨ .

يكن مؤلفاً على طراز (الواقدي)، وإنما هو جمّاعة للأحاديث؛ فلو أنه تفرغ لكتابة التاريخ كما يقول (حسين مؤنس)؛ لرتب المغازي و لما أسقط منها غزوة (أحد) ، ولكتب عن بقية الوقائع كما كتب عن (مؤتة) ، فالتأليف يقتضي الترتيب والاستيعاب ، فالخصوصية التي بدت لنا فيما بقي من آثار عروة لا تظهر في شكل مؤلف تاريخي تفرغ له عروة بن الزبير ، وإنما هي تظهر في صورة أجوبة استوعبت كل ما يعرفه عروة عما سئل عنه .. ومن الطبيعي : أن الجواب المحرر غير التأليف المنظم، وإن كانت رسائل عروة تعد في عصره نوعاً من التأليف . فالرجل كان في طليعة المدونين ، وإن ما دونه في غير التاريخ عد في نظر القدامى من المؤرخين كتباً؛ فلقد جاء في الطبقات عن هشام بن عروة : أن أباه أحرق (يوم الحرة) كتب فقه كانت له، فكان يقول بعد ذلك : [لأن تكون عندي أحب إلي من أن يكون لي مثل أهلي و مالي][1] .. والكتب في اللغة كل ما كتب، فلقد جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾[2]: الكتب: المكتوبات، والقيمة: المستقيمة[3]. وجاء في لسان العرب : [كتب الشيء يكتبه كتباً و كتاباً و الكتاب : اسم لما كتب مجموعاً][4] .

---

(١) الطبقات لابن سعد ١٧٩/٥ .

(٢) سورة البينة، الآيتان : ٢ ، ٣.

(٣) تفسير النيسابوري ١٤٣/٣٠ .

(٤) اللسان ٦٩٨/١ .

البحث السابع :

أبان بن عثمان

توفي سنة ١٠٥هـ

من موضوعات البحث :

١- أبان بن عثمان صاحب العاهات .

٢- أبان بن عثمان لم يستسلم للعاهات .

٣- شهرة أبان علمية أكثر منها سياسية .

٤- أبان بن عثمان لم يؤلف في التاريخ و لكنه دون ما جمع من الحديث .

٥- في بعض التحقيقات تشويش يستدعي الوقوف عنده .

٦- ما وصل إلى الباحثين من أقوال أبان بن عثمان أعطى فكرة عن منهجه .

أبان بن عثمان بن عفان

١ - أبان بن عثمان هو : الابن الرابع[1] لعثمان بن عفان ، ثالث الخلفاء الراشدين. توفي سنة ١٠٥هـ. ذكره (ابن قتيبة) مع أهل العاهات فقال عنه : [كان أصم شديد الصمم ، وكان أبرص يخضب مواضع البرص من يده و لا يخضبه في وجهه ، وكان مفلوجاً ، ويضرب المثل بفالج أبان بن عثمان في المدينة]. وقال عنه : [فأما أبان بن عثمان. فشهد (الجمل) مع (عائشة) فكان الثاني من المنهزمين، وكانت أمه : بنت (جندب الدوسي) وكانت حمقاء تجعل الخنفساء في فمها وتقول: حاجيتك : ما في فمي ؟! وكان أبان أبرص أحول يلقب بقيعا][2] .

وما جاء في معارف ابن قتيبة عن (أبان بن عثمان) يصور لنا الرجل من جانب واحد ، فحياة أبان بن عثمان لم تكن جميعها حياة إنسان مهزوم مريض، انزوى عن المجتمع؛ فلقد جاء في الطبقات : [أبان بن عثمان تولى إمارة المدينة سبع سنوات في عهد (عبد الملك) وأنه حج بالناس فيها "السنين السبع". مرتين] ، وأن الفالج الذي أصابه لم يفقده ذاكرته. فقد روي عنه : [من قال حين يصبح: لا إله إلا الله العظيم، سبحان الله العظيم وبحمده ، لا حول و لا قوة إلا بالله عوفي من كل بلاء يومئذ] رواه وهو مصاب بالفالج ، فلما رأى استغراب السامع. قال : [إن الحديث كما حدثتك؛ إلا أنه يوم أصابني هذا لم أكن قلته][3].

---

(١) ولد عثمان ثلاثة عشر مولوداً بين ذكر و أنثى .

(٢) المعارف لابن قتيبة ، ص٥٧٨ و ٢٠١ .

(٣) الطبقات لابن سعد ١٥٣/٥ و ما بعدها .

٢- بيد أن حياة (أبان بن عثمان) السياسية لم تكن ذات خطر ، فلقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية : [ولا ترجع شهرة أبان إلى مكانته كعامل من عمال الأمويين بقدر ما ترجع إلى معرفته الواسعة بالحديث.. الأمر الذي أكسبه التقدير والاعتبار][١] ، فلقد أخذ عن أبان بن عثمان رجال ثقات، فلقد جاء في كلام (ابن سعد) في ترجمة (المغيرة ابن عبد الرحمن): [وكان ثقة قليل الحديث إلا في مغازي رسول الله عليه السلام. أخذها من أبان بن عثمان ، فكان كثيراً ما تقرأ عليه و يأمر بتعليمها][٢].

٣- فأبان بن عثمان لم يكن له دور بطولي في الأحداث السياسية مثلما كان له دوره بين المهتمين بالحديث و المغازي ، فهو لم ينل ولاية المدينة عن نبوغ إداري برز في تجربة لفتت إليه الأنظار. وإنما أتته الولاية عفواً في مناسبة هيأتها الظروف؛ فلقد غادر المدينة المنورة إلى دمشق (يحيى بن الحكم بن أبي العاص) عامل المدينة لعبد الملك بن مروان بعد أن استخلف عليها : أباناً دون أن يستأذن الخليفة في القدوم إليه، فعاقبه عبد الملك بن مروان بعزله عن ولاية المدينة، ولم ير الخليفة الأموي إبعاد أبان عن ولاية المدينة فهو ابن الخليفة المظلوم الذي حملت قميصه الدعاية الأموية، فمكث أبان والياً إلى أن عزله عبد الملك بعد سبع سنين وولى هشام بن إسماعيل[٣].

٤- أما نشاط أبان بن عثمان العلمي في مجال التأليف، فلم يكن أكثر من محاولات كما فعل غيره؛ فرواد الثقافة في عصر أبان بن عثمان لم يصلوا إلى مرحلة التأليف في التاريخ، ولذلك قالت دائرة المعارف الإسلامية عن مدونات أبان بن عثمان، وعروة بن الزبير : [وقد أدى الجيل الثاني من المسلمين إلى هذا التقدم ما هو أعلق بالمصادر والمراجع منه بمجموعات تكوينها، ومع هذا فإن اثنين منهم. وهما أبان بن

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١٧/١ .

(٢) الطبقات ٢١٠/٥ .

(٣) الطبقات ١٥٢/٥ .

عثمان ، وعروة بن الزبير ورد ذكرهما على اعتبار أنهما مصنفان في المغازي ، ولكن مصنفاتهما لم تذكر قط على لسان المصنفين الذين جاءوا بعدهما][1] .

ولقد لفت النظر إلى ذلك (عبد العزيز الدوري) عندما قال : [نبدأ بأبان ابن عثمان الذي توفي بين سنة ٩٥ و سنة ١٠٥هـ؛ فهو محدث له ميل إلى دراسة المغازي، ومع أن أحد تلامذته كتب مغازيه؛ إلا أنها توصف بأنها من الحديث ، وإذا استثنينا إشارة إليه في اليعقوبي، فإننا لا نجد من المؤرخين من نقل أو روى عنه، في حين أنه يروى عنه في كتب الحديث .. ويبدو : أن أبان بن عثمان يمثل مرحلة انتقال بين دراسة الحديث و دراسة المغازي][2].

على أن (حسين نصار) عَدَّ ما جاء في طبقات (ابن سعد) عن (المغيرة بن عبدالرحمن) الذي سبق الكلام عنه : نوعاً من التأليف، فقد قال : [أوّل من أشتهر بالتأليف في المغازي أبان بن عثمان .. ويبدو : أن هذه المغازي التي رواها (المغيرة) عن أبان ليست كتاباً بالمعنى الدقيق ، وإنما هي مجموعة من المواد المتعلقة بحياة النبي عليه السلام ، ويظهر : أن هذه الأخبار ضاعت و لم يأخذ عنها أحد من كتاب السيرة المتأخرين ، فلم يأخذ عنه (ابن إسحاق) ولا (الواقدي) ولا (ابن سعد) في الجزء المخصص للسيرة من طبقاته. أما خبر أَسْرِ (العباس)، وبعض بني هشام الذي يرويه البعض عن (أبان) عن (معاوية بن عمار) عن (جعفر بن محمد المتوفى عام ١٤٨هـ) فإنه يتضح من الإسناد : أنه لا يقصد : (أباننا) هذا وإنما (أبان البجلي الشيعي)، ولكن (ابن سعد) يذكر (أبان ابن الخليفة عثمان) خارج السيرة حين يروي الكلمات الأخيرة التي تفوه بها (عمر بن الخطاب) عند وفاته ، وقد سمعها أبان من والده ، ويذكره (ابن قتيبة) أيضاً في الشعر والشعراء على أنه راوي الخبر القائل بأن (معاوية) اشترى البردة

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٤٨٦/٤ .

(٢) علم التاريخ عند العرب .

التي أعطاها النبي عليه السلام كعب بن زهير؛ مكافأة له عن قصيدته (بانت سعاد).. وفيما عدا ذلك لا يوجد لأبان ذكر في كتب التاريخ ، وإن كانت كتب الحديث تكثر من ذكره](١).

وجاء في تعليق (حسين مؤنس) على (تاريخ التمدن الإسلامي) : [فأما (أبان) فهو حفيد الخليفة (عثمان بن عفان)، وقد شهد الحروب بين علي ومعاوية، وحضر معركة (الجمل) وتوفي سنة ١٠٥هـ، وقد كتب مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ عنه (ابن سعد) في طبقاته](٢).

٥- ونحن إذا ما استعرضنا ما جاء في هذه التحقيقات؛ نجد في بعضها تشويشاً يقتضي الوقوف عنده .. من ذلك ما جاء في تعليق (حسين مؤنس) عن (أبان) و أنه حفيد الخليفة عثمان بن عفان !! فأبان هو ابن عثمان لا حفيده؛ ولعل حسين مؤنس اختلط عليه الأمر فيما ذكره بعض القدامى عن أبناء عثمان. مثل : (ابن قتيبة) الذي ذكر مع من ذكرهم من أبناء عثمان بن عفان : (أم أبان) فظن : أن أباناً الذي تحدث عنه هو ابنها ، و الواقع أن أباناً الذي يدور حوله الكلام هو : ابن عثمان بن عفان لا حفيده ، وأن (أم أبان) هي أخت أبان ابن عثمان لا أمه .

ومن التشويش الذي يستدعي الوقوف عنده، ماجاء في كلام حسين نصار وحسين مؤنس عن أبان بن عثمان : أنه اشتهر بالتأليف في المغازي ، وكتب فيها ؛ فأبان بن عثمان لم يؤلف في المغازي أو في السيرة فكل ما جاء عن نشاط (أبان) التاريخي هو : ميل إلى دراسة الحديث و جمعه ، فلعله بوب الأحاديث التي جمعها حسب موضوعاتها، ولعل سبب هذا اللبس هو ما جاء في طبقات : (ابن سعد) في ترجمة (المغيرة بن عبد الرحمن) . هل هو : أبان ، أو المغيرة ؟ وقد يكون من أسباب عدم ذكر

---

(١) نشأة التدوين التاريخي ، ص٢٩ ، ٣٠ .

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي ٣/ ١٠٠ .

(أبان) في سيرة (الواقدي) و (ابن سعد) و (ابن إسحاق)؛ أنهم لم يجدوا فيما دونه (أبان) جديداً فاكتفوا بما يملكون من روايات كبار الصحابة. وعندما رأوا لزوماً للنقل عنه لم يتأخروا ، فقد رووا عنه آخر كلمات نطق بها (عمر بن الخطاب) و نقلوا عنه خبر (البردة) و تاريخها .

ومن التشويش الذي يستدعي الوقوف عنده أيضاً ، ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية عن (أبان) وأنه ألف كتاباً في المغازي : [حتى إن كتابه "المغازي" وهو سيرة محمد . يعد أقدم الآثار الأدبية] ، فلقد صحح هذا الخطأ (أحمد محمد شاكر) في هامش دائرة المعارف، فقال معلقاً على ذلك : [هذا الكتاب ألفه (أبان بن عثمان بن يحيى بن زكريا اللؤلئي البجلي المعروف بأبان الأحمر من علماء الشيعة الإمامية. توفي سنة ٢٠٠هـ][(١)] . ومما يؤكد ذلك ما جاء في دائرة المعارف في مكان آخر : أن المصنفين لم يذكروا كتاباً لأبان بن عثمان ولا لعروة بن الزبير كما تقدم؛ فالذي يظهر أنها : (دائرة المعارف الإسلامية) تعنى بالمغازي التي كان يتحدث بها (المغيرة بن عبد الرحمن) التي تقدم ذكرها عن (ابن سعد) .

٦- فأبان بن عثمان لم يتجاوز النهاية التي وصل إليها (عروة بن الزبير)؛ فالاثنان دوَّنا الحديث و لكن ما دوناه لم يصل إلى مرتبة التأليف ، وإن كان كل واحد منهما سار في بداية الدراسة التاريخية والتدوين في التاريخ .. ومن المؤسف: أن الباحثين لم يجدوا ما جمعه أبان بن عثمان من أحاديث المغازي؛ على أنهم بما وصل إليهم استطاعوا تقديم فكرة عن منهجه بما نقلوه عنه و سلطوا الأضواء عليه .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١/١٧ .

البحث الثامن :

الشعبي، عامر بن شراحيل الحميري الهمداني

توفي سنة ١٠٤ أو سنة ١٠٥هـ

من موضوعات البحث :

١- اهتمام القدامى بالشعبي .

٢- ذكاء الشعبي و دقة ملاحظته .

٣- أمانة الشعبي .

٤- صلة الشعبي بالبيت الأموي .

٥- حياة الشعبي حفلت بالعلوم والسياسة .

٦- الشعبي بين التقريظ والنقد .

٧- هل يقصد حسين مؤنس : الشعبي عامر بن شراحيل ؟ أو يقصد شعبياً آخر ؟!

عامر بن شراحيل الحميري الهمداني – الشعبي

١- لقد اهتم (ابن سعد) بالشعبي اهتماماً بالغاً، فهو قد تحدث عن حياته مفصلاً مثلما تحدث عن (ابن عباس) ومن هو في مستوى ابن عباس، فمما جاء في الطبقات عن الشعبي :

١- نسبه، وصفته، و ملابسه، ومولده، ووفاته سنة ١٠٤هـ.

٢- من رآهم الشعبي من الصحابة ؟ ومن أخذ عنه أحاديثه ؟ وممن تعلم الحساب ؟

٣- مذهبه، فقد قال عنه : إنه كان شيعياً ثم ترك الشيعة و عابها.

٤- نشاطه السياسي. لقد شارك في الأحداث السياسية، فكان على غير رأي المختار، فتركه وأقام في المدينة زمناً، وكان ممن خرج على (الحجاج) مع القراء، وشهد (دير الجماجم) وكان ممن نجا في تلك المعركة، فاختفى فترة من الزمن ثم عاد إلى الحجاج يطلب عفوه؛ فعفا عنه[1].

٥- وقال عنه : إن الشعبي كان يجيئ بالأوابد. ولعل (المغيرة) الذي أسند إليه (ابن سعد) هذا الخبر، أراد بالأوابد : الخبر الغريب، والكلمة الوحشية، وشوارد القوافي؛ فالشعبي كان مزاحاً وإخبارياً و شاعراً.

٦- وتحدث عن المناصب التي وصل إليها الشعبي بمساعدة (الحجاج)، فقد عينه الحجاج إماماً لقومه و عريفاً لهم، وأوفده على الخليفة، وولاه (عبدالحميد ابن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب) والي (عمر بن عبدالعزيز) على العراق : قضاء (الكوفة)، وقد رآه (الأسود بن شيبان): عليه دراعة حمراء، وليس عليه

---

(١) جاء في **تذكرة الحفاظ** طبع بيروت ٨٦/١ . : أن الشعبي لم يخرج على الحجاج إلا محرجاً، فهو لم ينس إكرام الحجاج له و تقديمه على عشيرته.

رداء، وعمامة حمراء قد تعجر بها، وكلتا الدراعة والعمامة من صنع اليمن؛ رآه على هذه الهيئة يقضي في مسجد الكوفة[1].

٧- ونقل عنه أنه قال : ما كتبت سوداء في بيضاء قط ، و ماحدثني أحد فأحببت أن يعيد حديثه عليَّ.

٨- أنه كان لا يجيب بما لا يعلم اعتماداً على اجتهاده؛ فقد سئل عن شيء لم يكن على علم به ، فلم يجب ، فقيل له: قل برأيك قال : وما تصنع برأيي ؟ بُلّ عليه !

٩- وقال عن الشعبيين : ينسبون إلى جبل باليمن نزله (حسان بن عمرو الحميري)، فمن كان منهم بالكوفة قيل لهم : (شعبيون). منهم : عامر الشعبي، ومن كان منهم بالشام قيل لهم : (شعبانيون)، ومن كان منهم باليمن قيل لهم : (آل ذي شعبين) ومن كان منهم بمصر والمغرب قيل لهم (الأشعوب) وهم جميعهم : بنو (حسان بن عمرو ذي شعبين)[2] .

وكذلك (ابن قتيبة) لم يختصر في كلامه عن الشعبي مثلما أوجز في تراجم غيره، ممن ذكرهم في معارفه؛ فلقد ذكر شيئاً مما جاء في طبقات ابن سعد. وقال عنه : يكنى الشعبي. أبا عمرو ، وكان نحيفاً ضئيلاً، فقد ولد هو وأخ له في بطن واحد ، وقال عنه: إنه كان مزاحاً، فمن فكاهاته :أنه قال لخياط مر به : عندنا حب مكسور تخيطه ؟ فقال له الخياط : نعم ! إذا كان عندك خيوط من ريح !

وقال عنه : كان كاتب (عبد الله بن مطيع) و عبد الله بن مطيع هو من رهط عمر ابن الخطاب كان على رأس قريش (يوم الحرة) ، وكان كاتب (عبد الله ابن زيد الخطمي) وعبد الله الخطمي من رجالات (عبد القيس) البارزين ، وكان عاملا على الكوفة من قبل (ابن الزبير). وقال (ابن قتيبة) : إن الشعبي توفي سنة ١٠٥هـ عن سن تناهز السبعة والسبعين عاماً، وقيل في سنة ١٠٤هـ[3].

(١) هذا الخبر يدلنا على عدم تقيد القضاء في تلك العصور بلباس معين ، و أنهم كانوا يقضون في المساجد .

(٢) ترجمة الشعبي في الطبقات ٢٤٦/٦ .

(٣) المعارف ، ص٣٩٥ ، ٤٢٢ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠، ٤٥١ ، ٤٧٣ .

٢- وتظهر لنا القصة التي جاءت في (الأخبار الطوال) دقة ملاحظة الشعبي وذكاءه، وموضوع القصة : كتاب زعم (المختار بن عبيد الثقفي) : أنه من (محمد بن علي بن أبي طالب) إلى (إبراهيم بن الأشتر). فلقد جاء في هذه القصة : [قال الشعبي: وكنت فيمن دخل عليه، يعني (المختار) ، فرأيت في يده صحيفة مختومة بالرصاص ، ورأيت الرصاص أبيض يلوح ، فظننت : أنه ختم من الليل، فقال لنا المختار: انطلقوا بنا حتى نأتي إبراهيم بن الأشتر، فلما استقر بهم الجلوس عند إبراهيم قدم له المختار الكتاب على أنه مرسل إليه من محمد بن علي ، واستشهد بصحة قوله من حضر معه، فشهدوا جميعاً : أن هذا الكتاب كتبه محمد بن علي إلى إبراهيم وفي الكتاب يطلب محمد بن علي من إبراهيم بن الأشتر مناصرته ومن ثم انضم إلى صف المختار. قال الشعبي : ودخلتني وحشة من شهادة الذين كانوا معي على أنهم رأوا (محمد بن علي) حين كتب ذلك الكتاب ، فأخذت أسألهم واحداً واحداً، فكلهم زعم : أنه رآه يكتبه غير (أبي عمرة) فقد قال : ما شهدته حين كتبه، غير أن المختار عندنا ثقة. قال الشعبي : فعرفت عن ذلك : كذب المختار فخرجت من (الكوفة) حتى لحقت بالحجاز][1] .

٣- وجاء في (المزهر) : [سئل الشعبي عن مسألة فقال : لا أدري ! فقيل له : فبأي شيء تأخذون رزق السلطان ؟ فقال: لأقول فيما لا أدري : لا أدري!!]. وجاء فيه عن (عمرو بن سلام) : [أن (عبد الملك بن مروان) دفع ولده إلى الشعبي يؤدبهم، فقال : علمهم الشعر يمجدوا - ينالوا المجد - وينجدوا - النجدة : القتال وهي الشجاعة، وأطعمهم اللحم تشتد قلوبهم ، وجزّ شعورهم تشتد رقابهم ، وجالسهم علية القوم يناقضوهم الكلام. ومناقضة الكلام مراجعته][2] .

٤- وقال (الزركلي) استناداً إلى مصادره : [اتصل الشعبي بعبد الملك بن مروان؛ فكان نديمه، وسميره ، ورسوله إلى ملك الروم][3] .

---

(١) **كتاب الأخبار الطوال** ، ص ٢٨٨ وما بعدها .

(٢) **المزهر** ٢/٣١٠ ، ٣١٤ .

(٣) **الأعلام** ٤/١٨ **وتذكرة الحفاظ** ١/٨٥ .

٥- هكذا نجد الشعبي سجلا حافلاً بنزاهة علمية ،ونشاط سياسي ، و ذكاء لفت نظر أمير العراق. (الحجاج بن يوسف) إليه ، ونال به إعجاب الخليفة الأموي و ثقته، فكان سفيره إلى ملك الروم ، وكان أستاذ أولاده .. بيد أننا إذا ما قلبنا صفحة المعجبين بالشعبي ، وبدأنا نطالع صفحة الناقدين. نجد : تهماً وجهت للشعبي لا تتفق مع الحنبلية التي ظهرت في قصة المختار وكتابه المزور على لسان (ابن الحنفية)؛ فلقد جاء في كتاب (الصاحبي) لمؤلفه (أبي الحسن أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥هـ) : أن : (ابن قتيبة) روى في كتابه (مشكل القرآن)[١] عن الشعبي : أنه قال : [أن أبا بكر وعمر وعلياً توفوا ولم يجمعوا القرآن] - وروى عن (شريك عن إسماعيل بن أبي خالد) أنه قال: [سمعت الشعبي يحلف بالله العظيم لقد دخل (عليٌّ) حفرته و ما حفظ القرآن][٢] .

٦- إنّ لكل رائد خصوماً و أنصاراً كما هو واضح في تراجمهم ، فلا غرابة إن وجدنا الأقوال عن الشعبي ليست جميعها من نوع واحد ، ولا غرابة أيضاً فيما إذا تبخر تشيع الشعبي للعلويين، فالتاريخ مملوء بالذين انقلبوا على العلويين ، فليس الشعبي هو الوحيد الذي قلب لهم ظهر المجن، فلقد نجح الأمويون في استمالة أنصار العلويين، ودفعهم إلى التشنيع عليهم .

فالذي يبدو على ما جاء عن الشعبي في مؤلفات المتقدمين : أن الشعبي كان شيعياً بلسانه و سيفه، ثم رأى في المختار ما رابه ، فاعتزل في المدينة بعيداً عما كان يدور في العراق، ولكن اعتزاله لم يدم طويلاً، حيث اضطر إلى اللجوء إلى الحجاج آخر الأمر .. والحجاج نقادة يقدر المواهب التي يمكن الاستفادة منها ؛ لذلك لم يتأخر عن تقديم الشعبي لعبد الملك بن مروان الذي رحب به و اصطفاه معلماً لأبنائه و نديماً و سفيراً يحمل رسالته لملك الروم . ففي بعض هذا ما يغري على الإخلاص لعبد الملك و الاندفاع في الأموية ضد الشيعة .

---

(١) مشكل القرآن ، ص١٨١ .

(٢) الصاحبي ، ص١٧٠ . حفرته أي قبره .

٧- والذي يظهر فيما جاء في الكلام عن الشعبي : أنه من الذين لأخبارهم قيمتها، فهو قد عاصر الأحداث واندمج فيها واتصل بالمسئولين مثل : المختار، والحجاج، وعبدالملك؛ وهو من الذين أفادوا مؤلفي التاريخ. مثل : ابن قتيبة ، والدينوري، والطبري و غيرهم كما استفاد هو ممن سبقه مثل : علي بن أبي طالب ، وأبي هريرة، وابن عباس و غيرهم من أعلام الثقافة الإسلامية .فأخذ منهم و نقل عنهم .

ولكن الشعبي لم يحظ باهتمام المتأخرين مثلما حظي باهتمام المتقدمين، فلم يذكره الكثيرون من الذين كتبوا عن نشأة التاريخ العربي ورجاله، بغير الإشارة العابرة مثل : (حسين مؤنس) الذي قال عنه فيما همش به كتاب التمدن الإسلامي. [ورواية هؤلاء جميعاً قصصية تستطرد في ذكر ما قامت به القبائل من أدوار في الفتوح، وخير من يمثل هذا الاتجاه القبلي : الشعبي أبو عامر بن شراحيل بن عمرو ، وهو محدث يقال : إنه سمع من خمسمائة صحابي و شيخ، ولكن أحاديثه حافلة بالمادة التاريخية، وقد رواها الطبري وابن قتيبة][١] .

والذي يبدو : أن هناك خطأ مطبعياً وقع في كلام حسين مؤنس عن الشعبي؛ عندما قال : أبو عامر بن شراحيل بن عمرو، كما أظنه وقع في كلامه عن : أبان بن عثمان: (أبان حفيد عثمان) الذي سبقت الإشارة إليه؛ فالشعبي هو : عامر بن شراحيل أبو عمرو. أما ما جاء في هامش التمدن الإسلامي : (أبو عامر بن شراحيل بن عمرو)؛ فهذا خطأ؛ إذا كان المقصود هو : الشعبي عامر بن شراحيل أبو عمرو) . علاّمة التابعين.

(١) التمدن الإسلامي ١٠٢/٣ .

البحث التاسع :

وهب بن منبه

توفي سنة ١١٠ أو سنة ١٢٤هـ

من موضوعات البحث :

١- من هو وهب بن منبه ؟

٢- وهب وإخوته .

٣- مؤلفات وهب .

٤- وهب تحت الأضواء .

٥- وهب في نظر البحث .

٦- وهب كغيره من الرواد لم يسلم من الأخطاء .

٧- الناقدون يختلفون تبعاً للمعارف والبيئة .

٨- الخلاصة .

وهب بن منبه

١- قال (ابن سعد) في ترجمة وهب : يكنى أبا عبد الله، وهو الذي أشار إليه الحديث الذي رواه (عبادة بن الصامت) : سمعت رسول الله عليه السلام يقول : [يكون في أمتي رجلان أحدهما وهب يهبه الله الحكمة ، والآخر : غيلان فتنته على هذه الأمة أشر من فتنة الشيطان](١) - و روي عن (داود بن قيس الصنعاني) أنه قال : سمعت وهب بن منبه يقول : [لقد قرأت اثنين و تسعين كتاباً كلها أنزلت من السماء اثنان وسبعون منها في الكنائس ، وفي أيدي الناس. وعشرون لا يعلمها إلا القليل. وجدت في كلها : أن من أضاف إلى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر] ، وروي عن (المثنى بن صباح) أنه قال : [لبث وهب بن منبه أربعين سنة لم يسب شيئاً فيه روح، ولبث عشرين عامًا لم يجعل بين العشاء والصبح وضوءاً] وروي عن (عبد المنعم بن إدريس) أنه قال : [مات وهب بن منبه بصنعاء سنة عشر ومئة في أول خلافة هشام بن عبد الملك](٢) - وفي رواية (ابن هشام) عن وهب أنه قال : [قرأت ثلاثة وسبعين كتاباً مما أنزل الله على الأنبياء فوجدت منها : أن الكتب التي أنزل الله على جميع النبيين مئة و ثلاثة وستون كتاباً](٣) .

٢- وقال (ابن قتيبة) عندما تحدث عنه : هو من أبناء الفرس الذين بعث بهم (كسرى) إلى اليمن ، وذكره مع (القدرية) وقال عن إخوته : إن له إخوة، منهم (همام بن

---

(١) هذا رأي ابن سعد؛ والذي يبدو أن الحديث عام يشمل كل من وهبه الله الحكمة و كل من كان شراً على الأمة .

(٢) الطبقات ٥٤٣/٥ .

(٣) التيجان ، ص٢ طبع حيدر أباد دكن .

منبه) و كان أكبر من وهب ، وروى همام عن (أبي هريرة) ومنهم (معقل بن منبه) و(عمر ابن منبه) و قد روى عنهما[1]. ويقول (محمد حميد الله) : إنه عثر على صحيفة (همام ابن منبه). وهي : مجموعة من أحاديث رواها عن (أبي هريرة)[2].

٣- وجاء في تذكرة الحفاظ عن (وهب بن منبه) : [وعنده من علم أهل الكتاب شيء كثير وأنه صرف عنايته إلى ذلك و بالغ][3]. ونقل (خير الدين الزركلي) عن مصادره : [أن وهب بن منبه، ولد ومات بصنعاء، وأن (عمر بن عبد العزيز) ولاه قضاءه و أنه اتهم بالقدر ثم رجع عنه ، وأنه حبس في كبره و امتحن]، و نقل ما روى (صالح بن طريف) : أنه قال : [لما قدم (يوسف بن عمر) العراق. بكيت وقلت: هذا الذي ضرب (وهب بن منبه) حتى قتله]. ونقل عن (طبقات الخواص): [أن وهب بن منبه صحب (ابن عباس) ولازمه ثلاث عشرة سنة. وأن له من الكتب : كتاب (الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم) رآه (ابن خلكان) في مجلد واحد، (قصص الأنبياء) و(قصص الأخبار) ذكرهما صاحب (كشف الظنون)][4].

أما كتابه: (التيجان في ملوك حمير)، فقد جاء في مقدمته : (عن وهب ابن منبه) رواية (أبي محمد عبد الملك بن هشام) عن (أسد بن موسى) عن (أبي إدريس بن سنان) عن جده لأمه (وهب بن منبه)[5] ، فالكتاب لم يدونه وهب وإنما رواه (ابن هشام) بهذا السند عن وهب.

٤- ويقول (حسين نصار) : إن (حاجي خليفة) نسب إلى وهب بن منبه : مغازي جمعها. وإن (بيكر) اكتشف في (هيدلبرج) مجلداً يحتوي على قطعة من هذه المغازي.

---

(١) المعارف ، ص٤٥٩ و ٦٢٥.

(٢) السنة قبل التدوين ، ص٣٥٦.

(٣) تذكرة الحفاظ ١٠١/١.

(٤) الأعلام ١٥٠/٩.

(٥) التيجان ، ص٢ طبع حيدر أباد دكن.

منها : تاريخ العقبة الكبرى ، ومنها : اجتماع قريش في (دار الندوة)، و(الهجرة) و(غزوة بني خيثم)[1] إلى غير ذلك . وينقل عن المستشرق (كرنكو) ظنه الذي نقل إلى العربية بهذا النص : (فلو صدقت هذه الملاحظة لكان وهب بن منبه يعرف الإرمية)[2] .

ونقل (عبد العزيز الدوري) نموذجاً من أسلوب (وهب بن منبه) : [حدثني (عمر بن بحر أبو طلحة) قال : حدثنا : (عبدالمنعم بن إدريس) عن أبيه عن (أبي إياس) عن (وهب ابن منبه) قال : [فلما كان في الموسم المقبل حج من الأنصار اثنان وسبعون رجلاً أصغرهم (عقبة بن عمرو) إلخ] . وقال عنه قبل ذلك : [أما روايات (وهب) عن تاريخ اليمن، فهي أسطورية تأخذ من قصص الإسرائيليات والقصص الشعبي مع كثير من الشعر الموضوع ، وتتمشى مع أسلوب قصص الأيام ، وقد قدم (وهب) ملحمة نثرية يمانية شعبية لتجابه تفوق عرب الشمال ، ولم يكن (وهب) دقيقًا ، بل إنه لم يترفع عن الادعاء الكاذب ، ولذا فإنه يعتبر إخبارياً قاصاً ، و يعتبر (السخاوي) : أخباره غير جديرة بالمؤرخين الجديين . وقد جاء باتجاه منحرف ضعيف بالنسبة لوجهة المحدثين في المدينة، ولكنه جعل من الإسرائيليات : مادة لتاريخ ما قبل الإسلام، وقدم أول نموذج للتاريخ العالمي متمثلاً في تاريخ الرسالات، وهذا الاتجاه وجد صدى قوياً عند مؤرخ مشهور من مؤرخي المدينة ـ وهو (ابن إسحاق)][3] .

ووهب في نظر (جرجي زيدان) من جامعي السيرة. وعلق (حسين مؤنس) على رأي جرجي زيدان قائلاً : [إذا استثنينا ما ينسب إلى ابن منبه من الكتب في تاريخ اليمن، لا نكاد نجد بين أيدينا مؤلفًا خاصاً بتاريخ العرب قبل الإسلام، فكل ما لدينا روايات وأخبار ضمنها مؤرخو الإسلام فيما بعد : كتبهم؛ اعتمدوا فيها على روايات تنسب إلى وهب بن منبه تارة وتارة إلى ابن شرية][4] .

---

(١) لم أجد في سيرة ابن هشام غزوة باسم غزوة بني خيثم. فلعلها غزوة خيبر أو بني سليم .

(٢) **نشأة التدوين التاريخي** ، ص٣٧ و ما بعدها .

(٣) **علم التاريخ عند العرب** ٢٦ و ١١٥ .

(٤) **التمدن الإسلامي** ٣/٩٩ و ١٠٠ .

وقال عنه (جواد علي) : [وقد زعم ابن منبه أنه كان ينقل عن التوراة وكتب بني إسرائيل، وأنه كان يتقن : اليونانية، والسريانية، والحميرية، وأنه كان يحسن قراءة الكتابات القديمة. قال (المسعودي) : وجد في حائط مسجد دمشق لوح من حجارة فيه كتابات يونانية لم يستطع أحد قراءتها، إلا وهب بن منبه.. ولوهب : أخبار عن اليمن والأقوام العربية البائدة. أما عرب الشمال، فالظاهر أنه لم يكن على علم بأخبارهم. ونجد رواية وهب عن نصارى نجران ، و تعذيب (ذي نواس) لهم ، و قصة الراهب (فيمون) : مطابقة للروايات النصرانية ، ولما جاء في كتاب (شمعون الإرشامي) عن هذا الحادث .. وقد كان وهب يستمد أخباره من النصارى، كما كان يستعين بالكتب. وجاء في الأخبار : أن أخاه (هماماً) كان يشتري الكتب لأخيه وهب][1] .

٥- هذا بعض ما قيل عن وهب. وفيما قيل عن وهب؛ نرى المتأخرين متفقين مع القدامى على أن وهب بن منبه وجه أكثر اهتمامه إلى علم أهل الكتاب، ومتفقين على أن وهب كان نابغة ، فهو يعرف : اليونانية و السريانية والحميرية. ويظن : أنه يعرف الإرمية. وزاد المتأخرون ملحوظات منها ما لا يتعارض مع رأي القدامى في (وهب) مثل: اتخاذه الإسرائيليات مادة لتاريخ ما قبل الإسلام وأنه قدم أول نموذج للتاريخ العالمي؛ فالمتقدمون قالوا : إن الرجل اطلع على كتب كثيرة قال عنها : إنها أنزلت من السماء . ولعله يعني أسفار أنبياء بني أسرائيل، فقد انتشرت اليهودية والمسيحية في اليمن. والذي يطلع على المدونات القديمة يجد فيها قصصاً عن أصل الخليقة و عالم ما قبل التاريخ، وعن الأنبياء ومواقف أممهم من رسالاتهم. و من ملحوظات المتأخرين : أن وهب بن منبه، إذا ما تحدث عن اليمن وتاريخه تحدث بعقلية اليمنيين وبخيال قصصهم الشعبي، وإذا ما روى أخبار العالم القديم لم تخرج روايته عن نهج الإسرائيليات و أسلوبها وخيالها. وهذا أمر طبيعي، فماذا ينتظر الباحثون من رجل

---

(١) تاريخ العرب ١/٤٤ و ٤٥ .

عاش في اليمن ورجع إلى تراثه التاريخي الذي أسبغ على الأجيال الغابرة بسطة في الجسم و قوة على تحمل الصعاب، وعمراً مديداً لم تتمتع بمثله الأجيال التي أتت بعدها !؟ وماذا ينتظرون منه أن يقوله عن العالم القديم. ومصادره : اثنان وتسعون كتاباً يعتقد وهب : أنها جميعها أنزلت من السماء ؟ .. فوهب لم يخرج عن فلكه إلا ليأخذ عن (ابن عباس) و غيره من رجال الحديث : الفقه الإسلامي ولم يطالع غير الكتب التي كان يبعثها له أخوه (همام) ، والكثير من كتب تلك العصور لا يتجاوز الأفق الذي وصلت إليه معارف وهب بن منبه .

ولقد حمل بعض المتأخرين على (وهب) و اتهمه بأنه لم يكن دقيقاً !! فما هي الدقة التي ينشدها هؤلاء المرتابون في وهب ؟ إن الرجل تحدث بعقلية عصره ووزن القضايا بموازينه !! واتهمه المتحاملون بأنه لا يترفع عن الادعاء الكاذب !! مع أن الرجل شهد له معاصروه بالورع و الصلاح. أما موضوع (القدر) فهذا موضوع حير الكثيرين؛ على أن الرجل رجع عن المبالغة في القدر ومايترتب على فهم بعض القدريين ممن لا يحمل الفرد مسئولية الخروج على الشرائع و تجاوز الحقوق الاجتماعية وحرية الفرد . على أساس : أن الإنسان مسيَّر لا مخيَّر !! فالرجل الذي لم يشتم كل ذي روح ، ويصلي الفجر بوضوء العِشاء ، لاإخاله يتعمد الإدعاء الكاذب !! ولا إخال عمر بن عبدالعزيز لا يتحرى عن رجل يسند إليه القضاء . ولا إخاله يولي رجلاً لايترفع عن الادعاء الكاذب : القضاء. ولقد أثبتت رواية (المسعودي) : أن وهباً كان مبرزاً في اللغات التي كان يجيدها ؛ فهو قد قرأ كتابة يونانية عجز غيره عن قراءتها .. ومن هذه الرواية نعلم : أن وهباً قد زار دمشق كما نفهم من الرواية التي تقول : إنه أخذ عن ابن عباس أنه زار غير دمشق من حواضر الجزيرة العربية.. ولقد أثبت تحقيق (جواد علي) : أن وهباً كان محيطاً بما في أسفار العهد الجديد و العهد القديم، و دقيقًا فيما يرويه عن التاريخ العام؛ فروايته عن نصارى نجران وعن قصة الراهب (فيمون) مطابقة للرواية

النصرانية ولما جاء في كتاب (شمعون الإرشامي) ، وأن وهباً لا يصانع و لا يجامل، فلو أنه كان يصانع و يجامل لتفادى نقمة (يوسف بن عمر). ولقد وضعه (ابن قتيبة) في المعارف مع رجال السند ومع التابعين ومن بعدهم : مع (محمد بن كعب القرظي) و(عطاء بن يسار) و غيرهما .

٦- وهنا لا بدَّ لي من أن أذكِّر القارئ بما قلته مراراً : إنني لا أنزه القدامى من الخيال والمبالغة ، ولكنني لا أقر المبالغين في رفض تراثهم جميعه، ولا أرى من الإنصاف: توجيه التهم إليهم جزافاً؛ فتيجان (وهب بن منبه) و أخبار (عبيد بن شرية) لم يدونهما وهب وابن شرية .. وإنما هما رواية (ابن هشام) عن (أسد بن موسى) عن (أبي إدريس بن سنان) عن جده لأمه (وهب بن منبه). ولقد روى (البرقي) عن (ابن هشام) أخبار ابن شرية ، والنسخ التي وصلت إلى أيدي الناشرين وصل بعضها رديء الخط، وبعضها غير منقوط ومشوش . والنسخ التي وصلت إلى أيدي الناشرين مختلفة . فلا يبعد أن يكون الرواة والناسخون قد زادوا على ما رواه (وهب بن منبه) في كتاب التيجان محتذين بأبي محمد (ابن هشام) الذي أضاف إلى أقوال (وهب بن منبه) أخباراً نقلها عن (ابن الكلبي) وأخباراً نقلها عن (ابن إسحاق) و أخباراً نقلها عن غيرهما .

٧- والواقع الذي يجب ألا يبعد عن حساب الباحث في مصادر التاريخ العربي ورواده يؤكد : أن الرواد كانوا و مازالوا عرضة للنقد والتجريح، فلم يسلم واحد من الذين شغلوا بالأخبار التاريخية من التجريح. ولقد سبق الكلام عن الإخباري، وأنه يكون ثقة و غير ثقة ، وأن من الصحابة : من لم ير بأساً في القصص، ومنهم : من كان يكره القصص، وأن التاريخ بقصصه ومازال في ميزان النقد ، وليس النقاد على وتيرة واحدة، فنسبة الشك والثقة تختلف باختلاف دراسة الباحث و معارفه، ومؤثرات البيئة التي يعيش فيها . كما هي حال التاريخ المعاصر وقضاياه في نظر الباحثين؛

فالمنطق الأمريكي لا يتفق مع المنطق الصيني، فنظرة الأمريكي في الحياة و فلسفته تختلف مع نظرة الصيني و تجاربه .

٨- فمهما توغل البحث، فإن النتيجة لا تخرج بنا عن ذلك الواقع ، وإن النتيجة تحتم علينا أن نعترف بأن وهباً كان ألمعياً نابغة . أجاد كثيراً من اللغات، واطلع على الأخبار التي دونت بها ، و شارك هو وإخوته : همام، ومعقل، وعمر في رواية الحديث، وفي بناء الثقافة في العصر الإسلامي .. وأن وهباً ترك تراثاً يعد نادراً في تاريخ العرب القديم ، كان له صداه و أثره في أول من نبغ في تأليف تاريخ عربي عام: محمد بن إسحاق .

وإن (وهب بن منبه) في كتابه (التيجان) رفع الستار عن منطق اليمنيين القدامى والمفهوم التاريخي في عصور اليمن القديمة؛ مثلما صور لنا ابن شرية العقلية التاريخية في العصر الجاهلي .

البحث العاشر :

عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان

توفي سنة ١٢٠هـ

من موضوعات البحث :

١- الذين كتبوا عن عاصم بن عمر أثنوا عليه .

٢- أهم ما روي عن عاصم .

عاصم بن عمر بن قتادة المدني

١- كثير أولئك الذين كتبوا عن (عاصم بن عمر) في الماضي وفي الحاضر، وقالوا عنه: إنه صاحب السير والمغازي، وكثير أولئك الذين نقلوا عنه أخباراً في السير والمغازي، مثل: (الواقدي) و (ابن سعد) و (ابن إسحاق) و (الطبري).

فعاصم بن عمر المتوفى سنة ١٢٠هـ، هو من الرواة الذين عنوا بجمع الأحاديث والآثار التي تمت بصلة إلى تاريخ صدر الإسلام، وهو من الرواد الذين تحملوا مسئولية جمع المواد التاريخية في مرحلة تعد من أهم مراحل علم التاريخ وأدقها. وهو من القلائل الذين جمعوا الأخبار وحققوها، ومن الكثيرين الذين لم يصلوا إلى مرحلة التأليف ولكنهم قدموا لمؤلفي التاريخ نصوصاً ألقت الأضواء على أحداث الماضي، ومهدوا لهم الطريق للتأليف والتحقيق.

٢- وعاصم بن عمر هو: من الرواد الذين وثق بهم المؤلفون في التاريخ العربي؛ حفّاظة سريع الفهم، دقيق الملاحظة فيما يسمعه وفيما ينقله، كثير التحري فيما يرويه من الأخبار، كثير العناية في ربط الأحداث العربية بعضها ببعض. وعاصم بن عمر هو الذي أمره (عمر بن عبد العزيز الأموي) أن يجلس في مسجد دمشق و يحدث الناس بالمغازي[1].

وإن في حديث (عاصم بن عمر) عن بيعة العقبة و ما دار فيها من نقاش بين العباس ونقباء الأنصار، صورة واضحة لأحاديث عاصم و دقتها، ورأيه في بعض ما يرويه.

---

(١) نقل المستشرق (يوسف هورفتس) عن (سخاو) عن ابن سعد هذا الخبر و ذكر في الهامش: أنه يظن: أن ترجمة عاصم سقطت من نسخ الطبقات الخطية.

البحث الحادي عشر :

شرحبيل بن سعد الأنصاري

توفي سنة ١٢٣هـ

من موضوعات البحث :

١- رأي المحققين في شرحبيل .

٢- جمع الحديث و تنقية الصحيح منه، كان مشكلة المشكلات .

٣- الأسباب التي تسوِّغ التهم التي وجهت إلى شرحبيل .

٤- تضارب الأقوال حول شرحبيل ومبالغة بعضها .

٥- الرأي الوسط يقسم أخبار شرحبيل إلى قسمين .

شرحبيل بن سعد الأنصاري

١- وضعه (ابن سعد) في طبقاته مع الطبقة الثانية من الموالي. وقال عنه : [كان شيخاً قديماً. روى عن (زيد بن ثابت) وعن (أبي هريرة) و (أبي سعيد الخدري) و عامة الصحابة، وبقى إلى آخر الزمان حتى اختلط .واحتاج حاجة شديدة. له أحاديث : وليس يحتج به][١].

ووضعه المتأخرون على مشرحة النقد؛ فقال عنه (عبد العزيز الدوري) : [إنه من معاصري عروة بن الزبير. توفي سنة ١٢٣هـ وهو بدوره يعكس تطور النظرة الاجتماعية حين يقدم قوائم بأسماء الصحابة الذين شاركوا في الأحداث الكبرى، مثل : البدريين ، والذين اشتركوا في معركة أحد ، وجماعة المهاجرين إلى الحبشة ، والمهاجرين إلى المدينة؛ لما للمشاركة فيها من قيمة اجتماعية متزايدة][٢].

ونقد حسين نصار قوائم شرحبيل عندما تحدث عن (موسى بن عقبة)، فنقل عن (ابن حجر) : [أن (موسى بن عقبة) كتب قوائم بالمهاجرين عندما رأى شرحبيل بن سعد يدخل في البدريين من لم يشهد بدراً][٣] .

٢- فجدير بنا و نحن نتكلم عن شرحبيل، أن نقف قليلاً عند رواية الأحاديث التي كانت مشاعة لعامة المسلمين؛ لنعلم : أن جمع الأحاديث وتنقية الصحيح منها ، كان مشكلة المشكلات التي صادفت الرواد السابقين ، فنحن ما زلنا نقرأ تحقيقات متحمسة تلفت النظر إلى الضعيف من رواة الحديث ممن أخذ عنهم الذين ألفوا في تاريخ صدر الإسلام .

---

(١) الطبقات ٣١٠/٥ .

(٢) بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب .

(٣) نشأة التدوين ، ص٥٤ .

٣- والذي يبدو أن أحاديث شرحبيل التي وصفت بالضعف هي الأحاديث التي رواها في سنيه المتأخرة عندما قعدت به الشيخوخة و اشتدت به الحاجة.. وأن شرحبيل: الشيخ الضعيف المعوز الذي وهن عقله لم يستطع مقاومة البذل والإغراء؛ لإضافة من لم يكن له نصيب من فضل الإسهام في المواقف العظمى التي واجهها السابقون الأولون، لا سيما الذين شهدوا بدراً . فلقد كان الشرف الذي تقلده البدريون أمنية بعض الأسر العربية التي وجدت في قوائم شرحبيل سلماً تصل به إلى شيء مما يلفت الأنظار إليها . ولم ير شرحبيل الهرِم المحتاج بأساً إن هو أدخل في البدريين من لم يشهد بدراً على مسئولية الذين أكدوا له : أنهم ممن شهد بدراً .

٤- ولقد بالغ البعض في اتهام شرحبيل، فأخذ يقول : إن النقاد لم يكتفوا بكشف الحقيقة فانبرى (موسى بن عقبة) يكتب في مغازيه قوائم بالمهاجرين والبدريين، وانبرى نقاد الحديث يعلنون ضعف رواية شرحبيل .. وهكذا لم يفلت من تحقيق نقاد مؤلفات السيرة والمغازي، النص الزائف، والرواية المشكوك فيها.

وهكذا لم يستعص (شرحبيل) على النقد، فلم يترك النقاد زاوية من زوايا حياته دون أن يسلطوا الأضواء عليها؛ فلقد قال عن روايته (ابن حجر) : إنها من الروايات المشكوك فيها ، وإن الناس يخافون من شرحبيل بعد أن اختلط وافتقر؛ أن يقول لمن لم يرض عنه : إنه لم يشهد بدراً. ومن أبرز الذين شهَّروا بشرحبيل (ابن إسحاق) ولعل: (ابن حيان) عندما ذكره مع الثقات يقصد ما أخذ عنه قبل أن يهرم ويختلط عقله . أما المؤرخون القدامى، فلم يرو عنه (ابن إسحاق) ولا (الواقدي) غير (ابن سعد) الذي روى عنه خبراً عن انتقال النبي صلى الله عليه وسلم من (قباء)[1] إلى المدينة .

---

(١) ضاحية من ضواحي المدينة، نزلها النبي عليه السلام عندما قدم إلى المدينة و بنى فيها أول مسجد أسس على التقوى .

ولم تسلم ترجمة (شرحبيل) من تضارب، ولقد شوش تناقضها على المتأخرين؛ فحسين نصار اعتمد على (ابن حجر) عندما قال : إن (موسى بن عقبة) حرر قوائم البدريين عندما تأكد أن (شرحبيل) كان يضيف إلى البدريين من لم يشهد بدراً، في حين اعتمد المستشرق (يوسف هورفتس) على (الذهبي) عندما قال : إن (موسى بن عقبة) وقف بجانب (شرحبيل)، وإنه قال عندما سمع الناس يتهمونه بجعل سابقة لمن لا سابقة لهم : [إن الناس قد اجترأوا على هذا][1] .

٥- ومن هذا التضارب تتكاثف ظنون أمام البحث : لا يمكن التخلص منها؛ إلا بالرجوع إلى الرأي الوسط الذي يرجح : أن شرحبيل ـ كان بعيداً عن التهم، قبل أن يهرم و يحتاج ، ويختلط عقله . وأن التهم التي وجهت إلى (شرحبيل) لم ترق إلى روايته وهو في كامل صحته . ولعل (موسى بن عقبة) استفاد من قوائم (شرحبيل) التي حررها قبل أن تحطمه الشيخوخة. وأما روايته بعد أن قارب المئة وبعد أن تجاوزها، فهي التي لم يعتد بها لا في القوائم و لا في غيرها . ولعل رواياته المتأخرة هي السبب في إهمال بعض القدامى من المؤرخين أخبار شرحبيل .

---

(١) المغازي الأول و مؤلفوها ، ص٢٥ وما بعدها .

البحث الثاني عشر :

الزهريون – محمد بن مسلم بن شهاب الزهري

توفي سنة ١٢٤هـ

من موضوعات البحث :

١- ابن شهاب الزهري هو : موضوع البحث .

٢- آراء الباحثين في حياة الزهري .

٣- رأي القدامى من المحققين .

٤- الصورة التي رسمها المتأخرون لابن شهاب الزهري .

٥- هل ألف الزهري كتباً ؟

٦- ما يلاحظ على مصادر دائرة المعارف الإسلامية .

٧- المصدر الذي استند إليه المتأخرون، فيما قالوه عن تأليف الزهري في الأنساب .

٨- نشاط الزهري في التدوين .

٩- تشجيع الزهري للرواية عنه .

١٠- الصفات الممتازة التي تحلى بها الزهري .

١١- أساتذة الزهري .

١٢- الزهري من الرواد اللامعين .

محمد بن مسلم الزهري

١- عرف بهذا اللقب : (الزهري) رجال كثيرون من رواة الحديث ومن المؤلفين في التاريخ والأدب؛ فالزهري نسبة إلى (زهرة بن كلاب) .

فمن الزهريين : (عبد الله بن سعد الزهري). قال عنه صاحب (هدية العارفين) وصاحب (الفهرست) : [عبد الله بن سعد بن إبراهيم بن سعد الزهري البغدادي، من أصحاب السير. له (فتوح ابن الوليد). توفي سنة ٢٣٨هـ][١] . وقال (ابن حجر) في (تهذيب التهذيب) : [عبد الله بن سعد الزهري: أخو عبيد الله : ثقة. توفي بالمصيصة. ذكره (ابن عدي) في شروح البخاري و ذكر أخاه][٢] .

ومن الزهريين : (ابن أبي ثابت الزهري). قال عنه (ابن النديم) : [اسمه عبدالعزيز ابن عمران الزهري، وذكر له من الكتب : كتاب (الأحلاف)][٣] .

ومن الزهريين : (إبراهيم الزهري) و ابنه (يعقوب الزهري)، وهما من رواة أحاديث المغازي و غيرها. رويا عن (صالح بن كيسان) وعن (محمد بن مسلم بن شهاب الزهري)[٤] .

ومن الزهريين : (عبد الله بن جعفر الزهري) وهو : ممن اعتمد عليهم (الواقدي)، فلقد جاء في تاريخ (ابن جرير الطبري) : [قال الواقدي : هذا غلط

---

(١) الفهرست ، ص١٣٩ .

(٢) تهذيب التهذيب ، ص٤١٨ و ٤١٩ .

(٣) الفهرست ، ص١٥٧ .

(٤) طبقات ابن سعد ١٣٨/٢ .

فالمجمع عليه في نكاح (عبد الله بن عبد المطلب) ما حدثنا به (عبد الله بن جعفر الزهري) عن (أم بكر بنت المسور)][1] .

ومن الزهريين : (أبو مسلم الزهري)، فلقد جاء في تفسير النيسابوري : [ورواة أبي جعفر (يزيد بن القعقاع) القاري و (قارة موضع بالمدينة)[2] ، اثنان: أحدهما أبومسلم سليمان بن مسلم الجمار الزهري][3] .

من الزهريين : هؤلاء وغيرهم ممن ترددت رواياتهم في كتب التاريخ والأدب والتفسير والحديث ، وممن خلدت أسماءهم المؤلفات التي قدموها للمكتبات العربية ، مثل : (محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري): صاحب كتاب (الطبقات المتوفى عام ٢٢٠هـ)، والمشهور بابن سعد و مثل : (أبي الحسن، علي بن سليمان الزهري) الذي قال عنه (صاعد) في (طبقاته) : كان عالماً بالعدد والهندسة معنياً بعلم الطب. ألف كتاب (الأركان)[4] .

بيد أن الزهري الذي حظي باهتمام الباحثين في نشأة التاريخ، ليس واحداً من هؤلاء : إن الزهري هو : (محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبدالله بن الحارث بن زهرة بن كلاب، المتوفى سنة ١٢٤هـ) .

٢- فعن (ابن شهاب محمد بن مسلم) قال المحققون المتأخرون : هو أول من دون الحديث ، وأول من خرج عن قاعدة الصمت التي لاذ بها شيوخه : (عروة بن الزبير) و(سعيد بن المسيب) .. وهو من القلائل الذين وطدوا أركان السنة؛ بما رواه من

---

(١) تاريخ الطبري ٢/٧ .

(٢) قد تقدم في بحث (**من المدينة بدأ التاريخ العربي**) من هذا الجزء : أن القاري نسبة للقارة قبيلة ـ لا كما ظن النيسابوري .

(٣) تفسير النيسابوري المهمش على تفسير ابن جرير ١/١٢ .

(٤) طبقات صاعد .

الأحاديث النبوية، وما سجله من آثار الصحابة .. ومن القلائل الذين لم تحتجز السنة كل جهدهم. فلقد حظيت الأخبار التاريخية، والأشعار الجاهلية، وأيام العرب بنصيب واف من جهد ابن شهاب؛ فكان مجموعة من المعارف. عرف قدره خلفاء (بني أمية) فأحلوه في بلاطهم محلاً لائقاً بمعارفه، وقد ولاه (يزيد بن عبد الملك) القضاء.

٣- وما قاله المتأخرون هو: مستمد مما تحدث به المتقدمون عن ابن شهاب، وما تحدث به المتقدمون يصور لنا ابن شهاب: محدثاً، فقيهاً، مؤرخاً، نسَّابة؛ ولكن صفة الحديث والفقه يطغى لونها على ملامح التاريخ والنسب؛ فأكثر المتقدمين يضعونه مع التابعين و المحدثين لامع المؤرخين و النسابين؛ فلقد وضعه (ابن قتيبة) مع التابعين، ومع رجال السند. وقال عنه: توفي سنة ١٢٤هـ - ودفن في موضع يقع في نهاية عمل (الحجاز) وأول عمل (فلسطين) وبه ضيعته، وأخوه (عبد الله بن مسلم) كان أسنَّ منه وكان يكنى: أبا محمد، وقد لقي (ابن عمر) وروى عنه[١].

وقال عنه (ابن حزم) في (جمهرة أنساب العرب): [محمد بن مسلم، معدود مع الفقهاء والمحدثين][٢] - وقال عنه (الزبيري) في كتاب (نسب قريش): [ابن شهاب المحدث: اسمه محمد بن مسلم][٣] وقال عنه (محمد بن حبيب) في (المحبر): [محمد ابن شهاب الزهري من أشراف المعلمين وفقهائهم][٤].

وجاء في (الطبقات) لابن سعد عن (صالح بن كيسان): [أن ابن كيسان والزهري اشتركا في كتابة ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم: ثم أراد الزهري: أن يكتب ما جاء عن الصحابة فإنه سنة، فخالفه ابن كيسان ولم يرض أن يكتب ذلك، فقال بعد

---

(١) **المعارف**، ص ٤٧٢.

(٢) **الجمهرة**، ص١٢١.

(٣) **نسب قريش**، ص٢٧٤.

(٤) **المحبر**، ص ٤٧٦.

ذلك صالح بن كيسان : فكتب و لم أكتب ، فأنجح وضيعت][1]. وجاء في البيان والتبيين. قال (ابن أبي زناد) : [كنا لا نكتب إلا السنة وكان الزهري يكتب كل شيء ، فلما احتيج إليه عرفت : أنه أوعى الناس][2] .

وليس هؤلاء وحدهم . هم الذين نوّهوا بابن شهاب الزهري ، فابن شهاب لم يخل كتاب في التفسير أو في الحديث أو في التراجم أو في التاريخ من ذكره .. وابن شهاب كما نراه في كتب المتقدمين : فقيه ، محدث؛ أكثر مما هو مؤرخ نسابة ، ورائد حريص على تدوين كل ما يستحق التدوين .

٣- أمّا المتأخرون ، فإنهم يضعونه في طليعة واضعي نواة التاريخ ، ومع الأوائل الذين عنوا بتدوين الحديث و المواد التاريخية .. فمن المعاصرين الذين تحدثوا عن ابن شهاب الزهري : (عبد العزيز الدوري) ، فلقد قال عنه : [ولم تقتصر دراسات الزهري التاريخية على المغازي ، بل شملت الأنساب ، وتاريخ صدر الإسلام . ولقد سأله (خالد القسري) : أن يكتب أنساب العرب ، فبدأ بأنساب (مضر) ولكنه لم يتمه ، ويظهر : أن الزهري لم يعالج الفترة الأموية ، ولكن يروى : أن (الوليد بن عبد الملك) سأله عن أعمار الخلفاء الأمويين ، وأنه كتب أسنان هؤلاء الخلفاء و مدة حكم كل واحد منهم . ويظهر : أن دراسات الزهري أبقته طويلا في (المدينة) مع قيامه بزيارات متقطعة للبلاط الأموي ، ثم نقل سكناه إلى (أوامي) جنوب فلسطين قرب حدود (الحجاز). وقال عنه : إذا كان (عروة بن الزبير) رائد علم التاريخ ، فإن الزهري أسس المدرسة التاريخية في المدينة ، وإن كتابة الزهري لعلمه ساعدت على وضع الدراسات التاريخية على أساس ثابت ، وأدت إلى حفظ الروايات التاريخية][3] .

---

(١) الطبقات لابن سعد ٣٨٨/٢ .

(٢) البيان و التبيين ٢٤٠/٢ .

(٣) بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، ص٩٦ إلى ١٠٤ .

ولقد قال الدوري قبل ذلك : [أما الروايات التي تذكر : أنه أجبر على الكتابة ، فهي صدًى لمناقشات حصلت بعد الزهري][1] ؛ فالدوري يشير إلى ما قاله (فيشر) الذي نشر تراجم الذهبي وأشار إلى ماروي عن (معمر) عن (ابن شهاب الزهري) أنه قال : [كنا نكره كتاب العلم حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء ، فرأينا ألايمنعه أحد من المسلمين] ، فهذه الرواية تتعارض مع ما عرف عن ابن شهاب الزهري وحرصه على التدوين من بداية حياته العلمية؛ فلعله يقصد . إن صحت هذه الرواية : أن الأمراء أجبروا ابن شهاب أن يدوِّن لهم ويدون عنه كتبتهم ، فرأى: ألا يختص به فريق دون سائر المسلمين . ولقد سبق الكلام عن التدوين في صدر الإسلام وموقف الرعيل الأول منه .

وجاء في تعليق (حسين مؤنس) على كتاب (تاريخ التمدن الإسلامي) : [وأول من جمع الأخبار بموضوع واحد ، وأوردها على نسق هو : محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ، ويعتبر منهج الزهري : الأساس الذي بنى عليه الجيل التالي من مؤرخي السيرة والمغازي][2] .

وقال (حسين نصار) عن ابن شهاب : [ولم يصل إلينا من الزهري كتاب خاص مستقل في التاريخ ، على الرغم من كثرة ما دونه لنفسه و للأمويين ، حتى كثرت القصص عن هذا التدوين. وللزهري فضل كبير على الحركة التاريخية ، فقد نشر كتبه بين الجمهور وحث على ذلك] . وقال عنه : [قد أمره (خالد القسري) بكتابة السيرة كما أمره بكتابة كتاب عن القبائل ، ففعل ولم يتمه] ، ونقل عن (الذهبي): [ولم يكن للزهري كتاب إلا كتاب نسب قومه] ، ونقل عن (شمس الدين السخاوي) : [أنه نسب إليه كتاباً يسمى (مشاهد النبي) رواه (يونس بن يزيد)][3] .

---

(1) المصدر نفسه ، ص٢٤ و مابعدها ، و ٧٨ و مابعدها .

(2) التمدن الإسلامي ١٠١/٣ .

(3) نشأة التدوين ، ص ٥٠ و ٥١ .

والدوري ، ونصار ، ومؤنس؛ ليسوا هم وحدهم الذين نوهوا بابن شهاب الزهري، كما لم يكن الذين ذكرناهم من المتقدمين هم وحدهم الذين لم يتجاهلوا كفاية ابن شهاب العلمية ، فقلّ أن تجد كتاباً حديثاً وضع في التفسير، أو في الحديث ، أو في الأنساب ، أو في المغازي والسيرة لايتحدث عن ابن شهاب؛ فمثلما شهد المتقدمون بنبوغ ابن شهاب وأمانته العلمية ، شهد له المتأخرون. ونحن إذا قابلنا رأي القدامى في ابن شهاب برأي المتأخرين؛ نجد : ابن شهاب في نظر الأولين : محدثًا وفقيهاً، قام بواجبه في إرساء التشريع الإسلامي على قواعده الشرعية ، ونجده في نظر المتأخرين : مؤرخاً و نسابة ، له فضل كبير في تأسيس علم التاريخ ، ونحن إذا ما دققنا النظر في الصورتين اللتين رسمتا لابن شهاب : القديمة والحديثة ، تلوح لنا في الأولى ملامح الفقه و الحديث . كما تلوح لنا ملامح التاريخ والنسب في الصورة الثانية. ويظهر لنا : أن نظرة الأقدمين انصرفت إلى رواية ابن شهاب للحديث ، وأن نظرة المتأخرين انصرفت إلى ما جمعه ودونه في السيرة والمغازي؛ فابن شهاب كان مبرزاً في المجالين : الحديث والتشريع ، و التاريخ والأنساب. احترم روايته و قدر جهده الجميع .

٥- وإنما الذي يسترعي النظر هو : الاختلاف في الماضي وفي الحاضر على حقيقة التراث الذي خلفه ابن شهاب؛ هل هو : مدونات مجمعة مبوبة لم تصل إلى مرتبة التأليف ؟ أو هي مؤلفات كاملة التصنيف؟ .

إن (ابن النديم) في فهرسته لم يذكر لابن شهاب كتاباً واحداً ، لا في التاريخ ولا في غير التاريخ . فالزهري الذي ذكره مع المؤلفين هو : (عبد الله بن سعد الزهري) مؤلف كتاب (فتوح ابن الوليد) والزهري الذي ذكره (ابن النديم) على أنه مؤلف كتاب (الأحلاف) هو : (ابن أبي ثابت الزهري). وقد سبق الكلام عن هذين الزهريين في صدر هذا البحث ، وجاء في تذكرة الحفاظ للذهبي : لم يكن للزهري كتاب إلا كتاباً في (النسب)[1] .

---

(1) **تذكرة الحفاظ** ١١١/١ طبع بيروت .

ولعلّ (حاجي خليفة) المتوفى سنة ١٠٦٦هـ، أي بعد (ابن النديم) بسبعة قرون تقريباً هو : أول من نسب إلى ابن شهاب (كتاب المغازي) كما جاء في دائرة المعارف الإسلامية[١]. ومصدر (الذهبي) في كلامه عن كتاب النسب، رواية نقلها (ابن السمط) عن (قرة) أنه قال : لم يكن للزهري كتاب إلا كتاباً في النسب[٢]. فالذهبي توفي سنة ٧٤٨هـ .. والذهبي بهذه الرواية ينفي وجود مؤلف لابن شهاب في المغازي؛ فاتفاق الذهبي مع ابن النديم على أن ابن شهاب لم يؤلف كتاباً في المغازي، يفرض علينا أولا : الرجوع إلى ما جاء في كشف الظنون عن كتاب المغازي ، وثانيًا: البحث عن كتاب الأنساب، فتراث ابن شهاب الذي قيل عنه: إنه الأساس الذي بني عليه علم التاريخ عند العرب في العصر الإسلامي؛ جدير بالتحقيق والتقصي. فالذي جاء في (كشف الظنون) لحاجي خليفة لا يعد دليلاً قطعياً ، فكل ما جاء في كشف الظنون هو : [ومنها مغازي محمد بن مسلم الزهري][٣]، فلايبعد أن تكون مغازي الزهري مثل : مغازي (عروة بن الزبير) مجموعة أحاديث عن المغازي؛ جمعها أو جمعت عنه .. ومن الذين تحدثوا عن مغازي الزهري : (البخاري) و(السخاوي) الذي قال عنها : إن الزهري روى المغازي عن عروة، لم تزد عما جاء في كشف الظنون[٤]، وما جاء في كشف الظنون لا يدل على أكثر مما كانت تعنيه كلمة المغازي في جيل عروة وابن شهاب، كما تقدم .

أما كتاب الأنساب؛ فأولاً لابد لنا من أن نلفت النظر إلى أن القدامى كانوا يعبرون عن الكتابة بالكتاب . وإلى ما سبق أن قلناه عن معنى (الكتاب) في معاجم اللغة، فالكتاب : اسم لما كتب مجموعاً ـ ومصدر لكتب . ولقد سبق في هذا البحث: أن (خالداً

(١) الدائرة ٤٥٨/١٠ .
(٢) تذكرة الحفاظ ١١١/١ .
(٣) كشف الظنون ٤٧١/٢ .
(٤) البخاري ٤/٥ ، والإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص٨٨ .

القسري) طلب من ابن شهاب أن يكتب له نسب قريش : فبدأ به ولم يتمه . وقيل إن ابن شهاب كتب نسب قومه ، وقد سمعنا : أنه كتب للوليد بن عبد الملك . أسنان خلفاء بني أمية ومدة حكمهم . فعلى ذلك لا يبعد أن يكون ابن شهاب جمع ما وصل إلى علمه من مغازي النبي عليه السلام ومشاهده وما عرفه عن نسب قريش وما عرفه عن نسب قومه و دون ذلك مبوباً فذكر القدامى تلك المجاميع باسم كتب ، فالكتاب في اللغة : اسم لما كتب مجموعاً .

٦- ومن حق البحث هنا : أن يلفت النظر إلى ما جاء في (دائرة المعارف الإسلامية) : و[(الزهري) أيضاً من أئمة رواة السيرة ، وكان شيخ شيوخ (ابن إسحاق) ، ويدين له (الواقدي) و (ابن سعد) و (الطبري) بكثير من علمهم .. ويروي عنه الطبري كثيرًا مثل كلامه عن حوادث العقدين الأولين من السنوات التي تلت عصر النبوة ، وتذكر بعض المصادر القديمة : أنه ألف كتاباً واحداً هو : كتاب نسب قومه . وحاجي خليفة هو أول من نسب إليه (كتاب المغازي) .. على أنه من الواضح : أن الزهري - انصرف إلى جمع الحديث ، ولم يكتب كتاباً منتظماً ، وكان إذا استقى من عدة رواة : حديثاً و رأى أن كل هؤلاء الرواة يتفقون في جوهر الحديث لا يفصل كل رواية على حدة ، بل يدمجها جميعاً ويذكر أسانيده كلها ، وهذه الطريقة أول محاولة متواضعة بذلت في رواية الحديث بأسلوب مبتكر][1] .

فالذي يستلفت النظر فيما جاء في دائرة المعارف : المصادر التي بنت عليها تحقيقها ؛ فمن مصادر دائرة المعارف الإسلامية : طبقات ابن سعد ، وتاريخ ابن جرير . وفي طبقات ابن سعد وتاريخ ابن جرير - زهريون غير ابن شهاب ، ومن مصادرها : الفهرست ، في حين لم يذكر ابن النديم في الفهرست ، ابن شهاب مؤلفاً ، وإنما ذكر:

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١٠/٤٥٧ .

عبد الله بن سعد، وعبد العزيز بن عمران الزهريين، وذكر ما ألفاه[1]. ومن مصادرها: تاريخ البخاري. وتاريخ البخاري يذكر: (عبد الله بن سعد الزهري)؛ فقد ذكره (ابن عدي) في شروح البخاري، وذكره (ابن حجر) في تهذيب التهذيب، وذكره صاحب (هدية العارفين) و قالوا: إنه من أصحاب السير وإنه ألف فتوح خالد بن الوليد.

فهذه المصادر التي استندت إليها دائرة المعارف الإسلامية ذكرت: زهريين غير ابن شهاب، ولكن دائرة المعارف لم تتحدث عن زهري غير ابن شهاب في بحثها هذا، فلعل شهرة ابن شهاب الزهري عند المتاخرين هي التي جعلت مؤلفي دائرة المعارف لايذكرون غير ابن شهاب من الزهريين .. في حين يذكرون في ترجمته مصادر لم تذكر ابن شهاب بما يستأنس به في البحث. مثل: فهرست ابن النديم؛ فلقد ذكر ابن النديم الزهريين الذين تقدم ذكرهم ولم يذكر (الزهري) إلا في أثناء كلامه عن نزول القرآن وكلامه عن هشام الكلبي[2]، ولم يذكره إلا عرضاً. على أنني لا أتهم مؤلفي دائرة المعارف الإسلامية بعدم تمييز (الزهري) من بين الزهريين؛ فلعل نسخة الفهرست التي اعتمدوا عليها غير النسخة التي رجعت إليها، فاختلاف ترقيم النسخ وأخطاء بعضها. أمر يستحق الملاحظة عليه في بحث المصادر.

٧- ثم إن دائرة المعارف، ونشأة علم التاريخ عند العرب للدوري، ونشأة التدوين لنصار .. كل هذه المؤلفات اعتمدت على رواية الأغاني، فيما يقال عن تأليف ابن شهاب في الأنساب. ونص رواية الأغاني هو كما يأتي: [قال المدائني في خبره: وأخبرني ابن شهاب بن عبد الله قال: قال لي خالد بن عبد الله القسري: اكتب لي النسب، فبدأت بنسب مضر، فمكثت فيه أياماً ثم أتيته فقال لي: ما صنعت؟ فقلت بدأت بنسب

---

(١) **الفهرست**، ص٣٧ و ١٤٠.

(٢) المصدر السابق، ص٣٧، ١٤٠.

(مضر) وما أتممته . فقال لي : اقطعه : قطعه الله مع أصولهم ، واكتب في السيرة ، فقلت له : فإنه يمر بي الشيء من سيرة علي بن أبي طالب أفأذكره ؟ فقال : لا ؛ إلا أن تراه في قعر الجحيم][1] . فرواية الأغاني هذه. من أين نظرت إليها تجدها مهزوزة مغمورة بالخصومة الحزبية ؛ مهزوزة لأنها لا تتفق مع ما عرف به الزهري من نبل وشمم ظهرا واضحين في حديث الشافعي الذي جاء فيه : [دخل سليمان بن يسار) على (هشام)[2] فقال له : يا سليمان من الذي تولى كبره ؟ يعني : حديث الإفك ، فقال : ابن سلول . قال : كذبت بل هو علي ... فدخل ابن شهاب فقال : يابن شهاب : من تولى كبره ؟ قال : ابن أبي . فقال كذبت، بل هو علي ... قال ابن شهاب : أنا أكذب لا أبا لك ... فو الله لو نادى مناد من السماء : أن الله أحل الكذب ما كذبت][3] ؛ فالرجل الذي لم يجار رغبة الخليفة ، ويثور في وجهه عندما لمزت أمانته . لا يمكن أن يسمع من خالد القسري : يقول له قطع الله المضريين مع أصولهم و يسكت . ثم بعد ذلك يسأله : هل يذكر علياً في السيرة التي طلب كتابتها خالد ؟

ومهزوزة لما جاء فيها : قال المدائني في خبره : أخبرني ابن شهاب بن عبد الله .. فالمدائني صاحب المؤلفات التي منها مؤلفه (ولاية أسد بن عبد الله القسري)[4] ولد بعد وفاة ابن شهاب الزهري ، فكيف يقول : أخبرني ؟؟ إلا إذا كان المدائني هذا غير المدائني المعروف (أبي الحسن علي بن محمد المدائني المتوفى سنة ٢٢٥هـ) ، أو أن ابن شهاب بن عبدالله غير (محمد بن مسلم بن شهاب) وأن القسري في خبر المدائني . هو غير (خالد القسري) عامل (هشام) على العراق، فما أكثر القسريين في العراق .

---

(١) الأغاني ٢٢/٢٣ .

(٢) يقول البعض : إنه (هشام) ويقول آخرون إنه (الوليد الأول) الذهبي ١٢٦/٥.

(٣) الذهبي ١٢٦/٥.

(٤) هكذا في نسخة الفهرست ، ص١٥٠ مطبعة الرحمانية . (ولاية أسد بن عبد الله القسري).

ومغمورة في الحزبية؛ لأن (خالداً القسري) - لم يكن أقل قسوة على العلويين من (زياد بن أبيه) و ابنه (عبد الله) و (الحجاج) .. وعن هؤلاء كثرت الأقاويل و القصص التي تدور حول ما في حياة هؤلاء من هنات؛ فخالد القسري متهم بالزندقة، فمما جاء في المعارف أن إمام (المغيرية) المغيرة بن سعيد خرج على خالد القسري - فقتله وصلبه[1]. ومما جاء في الفهرست عنه : أن خالداً القسري يرمى بالزندقة وأنه عندما قتل (الجعد ابن درهم) أحد رؤساء الزنادقة - قال : قتلته بأمر (هشام)[2] تنصلاً من دمه؛ فلذلك كان هدفاً لأقاويل الحانقين عليه .

على أن الشكوك التي تحوم حول رواية الأغاني لا تجعلنا نستبعد أن يكون ابن شهاب دوَّن معلوماته في المغازي وفي الأنساب، لا سيما أنساب قومه. فمما لا غبار عليه أن ابن شهاب كان يدوّن الحديث و غيره ، وأن ما جمعه مدوناً - وإن لم يبلغ مستوى التأليف الذي بلغه (ابن إسحاق) - قد عد النواة الأولى للتأليف في التاريخ؛ فابن شهاب كما قال عنه المتأخرون : أول من جمع الأحاديث ذات الموضوع الواحد مع ذكر الأسانيد، وإن هذه الطريقة عدت الخطوة الأولى للتأليف. فابن شهاب بوَّب الأحاديث و الأخبار ذات الموضوع الواحد .. فمن هذه المرحلة بدأ التأليف؛ فمثل المشاعل التي رفعها الرواد و توهجها، كمثل النار التي كانت تشعل على رؤوس الجبال حول الأحياء، تهتدي بها الركبان التي تقطع رمال الصحراء، فلقد تطورت النار التي كانت تعبث بها الريح إلى كهرباء توضع على رؤوس الجبال والمرتفعات حول المطارات؛ تهتدي بها الطائرات التي تحلق في أجواء السماء .

---

(١) الفهرست ، ص ٦٢٣ .

(٢) الفهرست ، ص٤٧٣ .

٨- ومما لا غبار عليه : أن ابن شهاب كان جمّاعة حفّاظة ، فلقد جمع وحفظ نحواً من مئتين و ألفي حديث ، كما جاء في تذكرة الحفاظ[١] . وكان يعنى بأخبار الجاهلية ، كما يظهر في تاريخ الطبري. قال عنه (أبو زناد) : كنا نطوف مع الزهري على العلماء ومعه الألواح يكتب كلّ ما سمع. ونقل (الليث) عن ابن شهاب أنه قال : [ما صبر أحد على العلم صبري ولا نشره نشري][٢]. ولقد قال (معمر) عن كثرة مدونات ابن شهاب : [كنا نرى : أنا قد أكثرنا عن الزهري حتى قتل (الوليد) فإذا الدفاتر قد حملت على الدواب من علم الزهري][٣] .

٩- ولعلّ حرص الزهري على نشر العلم هو الذي جعله يتساهل في الرواية عنه، فلقد قال عن ابن شهاب الزهري (عبيد الله بن عمر) : [كنت أرى الزهري يعطى الكتاب فلا يقرأ عليه، فيقال له : نروي هذا عنك ؟ فيقول : نعم][٤]، ولقد أجاز (إبراهيم بن الوليد) برواية مجلد كتبه عنه[٥].

١٠- ومن صفات ابن شهاب الزهري : أنه كان مع سرعة حفظه لا ينسى ما حفظه، ومع ذلك كان لا يتوانى عن تدوين ما يحفظه . قال عنه (الليث) : (ما رأيت عالماً قط أجمع من الزهري؛ يحدث في الترغيب فتقول : لا يحسن إلا هذا ، وإن حدث عن العرب والأنساب قلت : لا يحسن إلا هذا ، وإن حدث عن القرآن و السنة فكذلك ..] وقال (ابن المذنبي) عنه : [مدار علم الثقات على (الزهري) و(عمرو بن دينار) بالحجاز. و(قتادة) و (يحيى بن أبي كثير) بالبصرة و (ابن إسحاق) و(الأعمش) بالكوفة] .

---

(١) تذكرة الحفاظ ١٠٩/١ .

(٢) تذكرة الحفاظ ١٠٩/١ .

(٣) الطبقات ٦٠/٢ و ١٣٨ و ٣٨٨ .

(٤) تذكرة الحفاظ ١١١/١ .

(٥) الذهبي ، ص٦٨ .

١١- ومن أساتذة ابن شهاب: (ابن عمر) و (سهل بن سعد) و (أنس بن مالك) و(محمود بن الربيع) و (سعيد بن المسيب) و (أبو إمامة بن سهل) و (عروة بن الزبير) و(أبو سلمة بن عبد الرحمن) و (عمرة بنت عبد الرحمن (ربيبة) عائشة أم المؤمنين) وعن الزهري أخذ الكثيرون .

١- وآخر ما يمكن أن يقال عن (محمد بن مسلم بن شهاب الزهري) : أنه من القلائل الذين كان لهم القدح المعلى في وضع أساس الثقافة العربية الإسلامية ، ومن الذين كثرت الرواية عنهم .. ولقد سبق أن لفتُّ النظر إلى استغلال نقلة الأخبار، ودعاة الأحزاب سمعة اللامعين من الرواد عندما تكلمت عن (ابن عباس) وعن (كعب الأحبار) وغيرهما وكثرة الرواية عنهم . فلا مفرَّ لمن أراد الوصول إلى حقائق التاريخ من استقصاء الرواية للتثبت من صحتها.

البحث الثالث عشر :

عبد الله بن أبي بكر ابن حزم

توفي سنة ١٣٠ أو سنة ١٣٥هـ

من موضوعات البحث :

١- عبد الله بن أبي بكر لم يرتفع ذكره في الجيل الذي عاش فيه .

٢- أسرة عبد الله بن أبي بكر .

٣- الأسباب التي هيأت لعبد الله بن أبي بكر الاشتغال بالمغازي .

٤- البحث في مصادر التاريخ العربي أزاح ستار النسيان عن عبد الله بن أبي بكر .

٥- (هورفتس) و (الدوري) يتفقان في كلامهما عن عبد الله بن أبي بكر .

٦- عبد الله بن أبي بكر أستاذ الواقدي وابن إسحاق .

عبد الله بن أبي بكر ابن حزم

١- قال عنه (ابن شهاب الزهري) : [ما في المدينة مثل عبد الله بن أبي بكر، ولكنه يمنعه من أن يرتفع ذكره، مكان أبيه][1] .

وأخبر عن وفاته (اليافعي) : [في سنة ١٣٥هـ توفي (عبد الله بن أبي بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم الأنصاري المدني(- شيخ مالك ، والسفيانيين. روى عن (أنس) وجماعة، وكان كثير العلم][2] .

٢- وأكد الباحثون في تاريخ المغازي والسيرة ، والمحققون في أقوال جامعي أحاديث السيرة والمغازي : أن أسرة عبد الله بن أبي بكر ابن حزم، من الأسر التي أبلت في نشر الثقافة الإسلامية و المحافظة عليها بلاء حسناً؛ فمنهم : جده الأعلى (عمرو بن حزم) مبعوث النبي عليه السلام إلى اليمن، لتعليم أهلها وتفقيههم، فبقي والياً على نجران إلى ما بعد وفاة النبي عليه السلام. ومنهم : جده : (محمد بن عمرو) الذي قتل في يوم الحرة فوقف عليه (مروان بن الحكم) قائلا : [رحمك الله، فرب سارية قد رأيتك تطيل القيام و الصلاة إلى جانبها] . ومنهم : أبوه (أبو بكر بن محمد) قاضي المدينة ثم واليها في عهد (سليمان)؛ فهو أول من تولى إمارة المدينة من المدنيين، ومنهم أخوه (محمد بن أبي بكر) الذي تقلد قضاء المدينة ومنهم (عبدالملك بن محمد بن أبي بكر بن عمرو بن حزم) الذي قال عنه (ابن النديم) : إنه ألف (كتاب المغازي)، وإنه كان قاضياً ببغداد[3].

---

(١) ابن حجر ١٦٥/٥ .

(٢) مرآة الجنان ٣٨١/١ .

(٣) الفهرست ، ص ٣١٥ ، ٣١٦ .

هذه هي أسرة (عبد الله بن أبي بكر ابن حزم) الذي وجهه أبوه إلى دراسة الحديث، ونصحه بمقارنة عجز كل حديث بصدره؛ خوفاً على دروس العلم وذهاب أهله؛ فانصرف يأخذ عن (عمرة بنت عبد الرحمن) وعن (أنس بن مالك) وغيرهما من الصحابة و التابعين.

٣- وقد يكون الأثر الذي خلفه جد عبد الله الأكبر (عمرو بن حزم) في اليمن، ودم جده (محمد بن عمرو) الذي سفك في يوم الحرة، وولاية أبيه (أبي بكر بن محمد) قضاء المدينة و إمارتها؛ قد يكون كل ذلك من الأسباب التي جعلت (عبد الله بن أبي بكر) : يعنى بما يختص بالمغازي في عصر الجهاد والفتوحات الإسلامية، وبما يختص بأحداث الفتن الدامية التي مني بها المسلمون في عهدي عثمان وعلي.

وقد يكون مكان أبيه منع (عبد الله بن أبي بكر) من أن يرتفع ذكره، وقد يكون تواضعه هو الذي منعه من الظهور؛ فمما يقال عنه : أنه لم يعلن عن نشاطه في مجال الدراسات التاريخية، مما جعل (يوسف هورفتس) يشك في مغازي (عبدالله) التي ذكرها (ابن النديم) في فهرسته. ويقول عنها : [ومن المحتمل : أن هذا الكتاب الذي يبدو : أنه لم يبق له أي أثر كان يتألف من المجموعة التي أخذها عن عمه - عبد الله بن أبي بكر - كما يروي أحد إخوة (عبدالملك) هذا واسمه (عبد الرحمن) الأخبار كثيراً عن (الواقدي)، ولم تقتصر أقوال (عبد الله) على المغازي بالمعنى الخاص للكلمة، فقد عني أيضاً بشباب النبي و أعوامه الأولى، ولكن اسمه يظهر في غالب الأحيان في أخبار الغزوات. ووجه عنايته أيضاً إلى (وفود القبائل العربية على النبي) وروى أخباراً عن ردة القبائل العربية بعد وفاة النبي، وعن حوادث خاصة في العقد التالي، وعن الأيام الأخيرة للخليفة عثمان مثلا، وكان بيت أسرة عبد الله بجوار البيت الذي استشهد فيه عثمان رضي الله عنه، وكان جده الأكبر يعرف الحوادث التي أدت إلي مقتل الخليفة، ويذكر (عبد الله) كثيراً من أخباره دون ذكر للرواة، وفي أحوال أخرى يذكر أسماءهم،

فلم يكن يرى الإسناد واجباً بعد ، وينتهي طرف من أخباره إلى (عمرة خالته الكبرى) أخذها عنها مشافهة ، وعن طريق زوجه فاطمة التي أخذتها مباشرة عن عمرة][1].

هذه خلاصة ما وصل إليه (يوسف هورفتس) من تتبعه ما جاء في تاريخ الطبري، وسيرة ابن هشام، و فهرست ابن النديم. ولقد سبقت الإشارة إلى بعض ما جاء في كلام (هورفتس)، نقلا عن المصادر عينها ، وما جاء في هذه الخلاصة يزيدنا معرفة بأسرة (عبد الله بن أبي بكر) ـ فالأسرة جميعها ـ رجالا ونساء ـ كانت تتابع الأحداث وتروي أخبارها ، ويزيدنا معرفة بثقة المؤرخين بعبد الله بن أبي بكر، أنهم يأخذون عنه بدون إسناد فيما يرويه وبدون إيضاح مصادره ، ويزيدنا معرفة بالطرق التي سار فيها المؤرخون لجمع الأخبار التاريخية وربط بعضها ببعض في مصنفات لا يقدر الجهد الذي بذل في تدوين الأحداث عن مصادر لم تجمع في مكاتب نظمت لها فهارس تساعد على الوصول إلى ما يريده الباحثون في العصر الحاضر؛ إلا من تعمق في البحث عن مصادر التاريخ العربي.

والأخبار التاريخية التي رواها (الواقدي) و (ابن إسحاق) و (الطبري) وغيرهم معتمدين على رواية (عبد الله بن أبي بكر) ـ أكثرها إن لم تكن جميعها لا تتجاوز التاريخ الإسلامي إلى التاريخ الجاهلي ، ولم يذكر واحد ممن تحدثوا عن (عبد الله بن أبي بكر) : أنه اتصل بأحد من أهل الكتاب أو روى عنهم، على أنه قد يكون هناك خبر لم أطلع عليه ، فليس ببعيد أن يكون أخذ شيئاً عن (كعب الأحبار) و (عبد الله بن سلام) أو عن غيرهما؛ فالنصوص التي وصلت إلينا لم تذكر فيما ذكرته عن مصادره ، وأساتذته غير رواة الحديث الذين أخذ عنهم، وغير الأحداث التي اشتركت فيها أسرته، فكان بطبيعة الحال على علم بها ومصدراً من مصادرها ، فلقد روى (الطبري) عن (الواقدي) عن (عبد الجبار بن عمارة) عن (عبد الله بن أبي بكر) - : [بعث

---

(١) المغازي الأول و مؤلفوها ، ص ٤١ ، ٤٢ .

(الحجاج) برأس (ابن الزبير) و رأس (عبد الله بن صفوان) ورأس (عمارة بن عمرو بن حزم) إلى المدينة فنصبت بها، ثم ذهب بها إلى (عبد الملك بن مروان) ، ثم دخل الحجاج (مكة) فبايع من بها من قريش لعبد الملك بن مروان][1] .

٤- والذي جعل المتأخرين يذكرون (عبد الله بن أبي بكر) . هو : ما جاء في المؤلفات التاريخية من أخبار ذات قيمة كان عبد الله بن أبي بكر المتواضع مصدرها ، وكم من رائد رفع بحث المحققين في نشأة التاريخ : ستار النسيان عنه . ويعد (يوسف هورفتس) من القلائل الذين أبرزوا جهد (عبد الله بن أبي بكر) ونوهوا بأثره في البحوث التاريخية المتأخرة . فلقد قال عنه: [بين العدد الكبير من علماء الحديث . ثلاثة رجال يستحقون أن نذكرهم وننوه بهم في هذا الموضع؛ لأنهم وجهوا عنايتهم الخاصة إلى المغازي . وهم : عبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة، ومحمد بن مسلم الزهري .. وهؤلاء الثلاثة جميعهم من أكبر شيوخ ابن إسحاق، وجميعهم من أتباع مدرسة المدينة][2] .

٥- ومثل ما قال (هورفتس) قال (الدوري) : [وفي الجيل التالي : قام ثلاثة من العلماء بتنمية و توسيع دراسة "المغازي" . وهم : عبد الله بن أبي بكر، و عاصم بن عمر ابن قتادة ، و محمد بن مسلم الزهري، وليس أمامنا إلا مقتطفات من مؤلفاتهم التي حددت إطار "المغازي" وهيأت جل المواد التي اعتمد عليها (ابن إسحاق) و(الواقدي) بعده][3] . ولا أدري ! هل السابق إلى هذه النتيجة هو هورفتس أو الدوري ؟ فكلاهما لم ينسب هذه النتيجة إلى مصدر من المصادر . وإنما الذي يظهر : أن الباحث في مصادر التاريخ العربي والإسلامي لابد له من التنويه بعبدالله بن أبي بكر. ولقد نقل الدوري في مؤلفه أخباراً رواها الواقدي عن (عبد الله بن أبي بكر) .

---

(١) الطبري ٥/ ٣٣ ، ٣٤ طبع الاستقامة سنة ١٣٥٨هـ .

(٢) المغازي الأول و مؤلفوها ، ص٢٧ .

(٣) علم التاريخ عند العرب ، ص ٢٣ .

٦- ومن الحقائق التي وصل إليها الباحثون في نشأة التدوين : أن (عبد الله بن أبي بكر) أستاذ من أساتذة (الواقدي) فعنه أخذ كثيراً من أخباره ، وأستاذ من أساتذة (ابن إسحاق) فمنه استعار ابن إسحاق جمع غزوات النبي عليه السلام في قائمة مرتبة ترتيباً سنوياً . كما يقول (هورفتس)، وأستاذ الجميع في العناية بالمدونات (عروة بن الزبير)، فلقد سار على هذا النهج من بعده (عبد الله بن أبي بكر) و من بعده (ابن إسحاق) . ولقد ساعد (عبد الله بن أبي بكر) في دعم الرواية الشفهية بالنصوص المدونة و الوثائق الرسمية التي احتفظت بها أسرته مثل: الوثيقة التي أعطاها النبي عليه السلام لجده . ولقد ساعده في رواية الأحداث الإسلامية بكثير من الدقة : الوظائف الرسمية التي تقلدها بعض أفراد أسرته، وجوارهم لدار الخليفة الثالث عثمان بن عفان التي استشهد فيها ، فكان (عبد الله بن أبي بكر) شاهد عيان يعصمه صلاحه من الادعاء و الكذب .

البحث الرابع عشر :

موسى بن عقبة الأسدي

توفي سنة ١٤١هـ

من موضوعات البحث :

١- موسى بن عقبة من مدوِّني التاريخ .

٢- عناية المتأخرين بموسى بن عقبة و تراثه .

٣- رأي (يوسف هورفتس) في موسى بن عقبة .

٤- (حسين نصار) لم يزد شيئاً على ما قاله (هورفتس) .

٥- بعض النماذج التي ذكرها (عبد العزيز الدوري) لا يمكن الجزم بأنها من أسلوب (موسى بن عقبة) .

٦- بين أيدينا تحقيقات تعرفنا بموسى بن عقبة .

٧- صلة موسى بن عقبة بالزهري .

٨- الشكوك التي أثيرت حول تراث موسى بن عقبة .

موسى بن عقبة الأسدي بالولاء

١- موسى بن عقبة بن أبي عياش : مولى الزبير بن العوام[١]. يكنى : أبا محمد. توفي سنة ١٤١هـ . قال عنه (شمس الدين الذهبي) : [إنه عالم بالسيرة النبوية صنف المغازي] ، وقال (أحمد بن حنبل) : [عليكم بمغازي ابن عقبة، فإنه ثقة ، قرأت مغازي موسى بالمزة على (أبي نصر الفارسي)][٢].

٢- والبحث عن مغازي موسى بن عقبة و ما فيها ، شغل الباحثين في نشأة التاريخ و مصادره كثيراً .. ولقد أسفر البحث عن مغازي موسى بن عقبة التي كان يدرسها (أبو نصر الفارسي) عن وجود قطعة من مغازي موسى بن عقبة طبعت سنة ١٩٠٤[٣]. ولقد قال عن هذه القطعة من مغازي موسى بن عقبة (هورفتس) : [ولم يصل إلينا من كتاب مغازي ابن عقبة ، أو بالدقة لا يعرف شيء عن وجوده ، وقد ذكر (لويس شبرنجر) : أن بعضهم قد أكد له وجود نسخة من مغازي موسى في دمشق ، ولكن لم يستطع . لويس شبرنجر أن يراها .. ويبدو أن (الديار بكري) مؤلف (تاريخ الخميس) . استفاد أكثر من هذا الكتاب .. ومع ذلك ما زلنا نمتلك قطعة واحدة منه تحتوي على حديث أو أكثر من كل جزء من أجزاء الكتاب العشرة . وهي في المكتبة البروسية الرسمية ، ونشرها (إدوارد - سخاو) بنصها العربي مع ترجمة ألمانية عام ١٩٠٤م][٤].

---

(١) التهذيب لابن حجر ١٠ .

(٢) تذكرة الحفاظ ١٤٨/١ .

(٣) فجر الإسلام ، ص ١٥٨ الهامش .

(٤) المغازي الأول و مؤلفوها ، ص ٧٠ ، ٧١ .

٣- أما البحث في مغازي موسى بن عقبة، فيقول (هورفتس) : [ويتضح من هذه القطعة، كما كان يتوقع : أن كتاب موسى لم يقتصر على المغازي بالمعنى الخاص، وإنما شمل الهجرة على الأقل، وأن (الزهري) كان أكثر من روى عنه موسى، كما يمكن استنتاجه من حكم (ابن معين) : كتاب موسى بن عقبة عن الزهري من أصح هذه الكتب، ويجب ألا نصدق الادعاء الذي لا نعرف راوياً له، ويقول : إن موسى لم يسمع أي حديث عن الزهري مباشرة وإنما عن طريق أحد تلاميذه أو عن مدوناته، وغالباً ما يقول موسى في قطعة (برلين) في المواضع التي يذكر فيها الزهري : قال ابن شهاب، أو زعم ابن شهاب، وكلاهما يمكن أن يدل على مدونات الزهري، ولكنه يقول مرة واحدة على الأقل في قطعة برلين هذه : حدثني الزهري .. وإلى جانب قطعة برلين، نجد عدة مقتبسات عند (ابن سعد) الذي استخدم الكتاب من رواية (إسماعيل) ابن أخي موسى أيضاً .. ونستنتج من المقتبسات الكثيرة في المجلدين الثالث و الرابع من (ابن سعد) : أن كتاب موسى كان يحتوي على قوائم المهاجرين إلى الحبشة، والمشتركين في بيعتي العقبة.. وأهم من كل ذلك، نظم للمحاربين في بدر قوائم مثل التي أعدها (شرحبيل بن سعد)، ويقال : إن (مالك بن أنس) قال عن هذه القوائم : من كان في كتاب موسى قد شهد بدراً فقد شهدها ومن لم يكن فيه فلم يشهدها، وأخذ (الطبري) أحاديث عن موسى تشير إلى عهد الخلفاء الراشدين، بل إلى عهد الأمويين أيضًا. ويروي كتاب (الأغاني) ملاحظة عن (زيد بن عمرو) تبين أن موسى بن عقبة وجه عنايته إلى تاريخ ما قبل الإسلام][1]، وقال عنه : [ونعرف من تلاميذ (الزهري) ثلاثة ألفوا في المغازي - وهم : (موسى بن عقبة) و (معمر بن راشد) و(محمد بن إسحاق)، والثلاثة جميعهم من الموالي][2] .

---

(١) **المغازي الأول و مؤلفوها**، ص ٧١، ٧٢ .

(٢) المصدر السابق، ص٩٦ .

٤- ولم يأت (حسين نصار) بجديد في كلامه عن (موسى بن عقبة) في نشأة التدوين، فما قاله حسين نصار هو : طبق ما جاء في كتاب (المغازي الأول ومؤلفوها)، ولا أقول : إن (حسين نصار) نقل النتائج التي وصل إليها (هورفتس) من بحثه في مؤلفات : ابن حجر، و الذهبي، و ابن سعد، وابن معين، والبلاذري، والطبري. وإنما تأثر بها؛ فهو الذي ترجم كتاب (هورفتس)، وهو الذي ألف كتاب (نشأة التدوين التاريخي).

٥- ولم يشر (عبد العزيز الدوري) إلى قطعة برلين، ولكنه تحدث عن (موسى بن عقبة) وعن مغازيه، فقال : [فقد اتبع بدقة أسلوب مدرسة المدينة، فنجده يعكس تزايد تأكيد المحدثين على الإسناد، ويبدي اهتمامًا خاصًّا بذكر تواريخ الحوادث، وقد استفاد من مواد مكتوبة، وخاصة من آثار الزهري ـ بالإضافة إلى الوثائق والروايات الشفوية، ولكن الاعتماد في الروايات المكتوبة بقي على الراوي لا الكتاب، وقد استند موسى بن عقبة بالدرجة الأولى إلى الزهري وأضاف إلى ذلك بحوثه الخاصة، وبذلك أضاف مادة تراث المدرسة، ولكننا نبين : أن تقدير إنتاجه يتطلب دراسة تفصيلية دقيقة لكل المقتبسات المأخوذة عنه والتي ترد في ابن إسحاق و الواقدي، والطبري، وابن سيد الناس، وابن كثير][1].

وأكثر النماذج التي أثبتها (الدوري) في كتابه لمعرفة أسلوب (موسى بن عقبة)؛ نقلها عن (البداية والنهاية) لابن كثير. ويلاحظ : أن الدوري قدم نماذج لايمكن الجزم بأنها من أسلوب موسى بن عقبة؛ وذلك لأن موسى واحد من بين رجال سند الرواية، وذلك مثل الرواية التي جاءت في الطبري: [ذكر محمد بن عمر : أن (أبا بكر بن عبد الله ابن أبي سبرة حدثه): عن (موسى بن عقبة): عن (أبي حبيبة مولى الزبير): عن (عبدالله ابن الزبير) قال : إلخ] فموسى بن عقبة ليس هو الذي تحدث إلى محمد بن عمر،

---

(١) علم التاريخ عند العرب، ص٢٧.

فيكون محمد بن عمر نقل نص حديث موسى بن عقبة، ولم يكن موسى هو أول من روى الخبر، فيكون رواة الخبر حافظوا على أسلوب الرواية، فموسى بن عقبة واحد من رواة الخبر[1].

٦- فهذه النتائج التي سبقنا إليها (يوسف هورفتس) و (عبد العزيز الدوري)، والتي يبدو عليها الاستقصاء والتعمق؛ تكفي لمعرفة هذا الرائد (موسى بن عقبة) وتقويم تراثه؛ فموسى بن عقبة من الرواد الذين أفادوا علم التاريخ ومهدوا لمؤلفي الموسوعات التاريخية طريق التصنيف في التاريخ .. فمن تراثه نهل ابن إسحاق، والواقدي، وابن سعد، والطبري، وابن كثير، وغيرهم من المؤرخين.؛ كما نهل موسى ابن عقبة من تراث الذين سبقوه مثل : (ابن عباس) و(عروة بن الزبير) و (ابن شهاب الزهري) وغيرهم. فلقد مر بنا في ترجمة ابن عباس : أن موسى بن عقبة قال : [وضع عندنا (كريب مولى العباس) حمل بعير من كتب ابن عباس]. ولقد قيل عن موسى بن عقبة : إنه كان يستشهد بالوثائق، فهو يذكر الرسالة التي وجهها النبي عليه السلام إلى (المنذر بن ساوى). نصًّا، فقد كانت في حوزة موسى بن عقبة غير كتب ابن عباس وثائق مخطوطة، وإنه كان يحفظ الشعر الذي قيل في المناسبات التاريخية، وموسى ابن عقبة من الرواة الثقات؛ شهد له بذلك إمامان من ألمع الذين اعترف التاريخ الإسلامي لهم بالنزاهة والأمانة والاتزان هما : مالك بن أنس، وأحمد بن حنبل .. وموسى بن عقبة من أبرز الرجال الذين عنوا بما جاء في الحديث و الأثر عن المغازي والهجرة ومن الذين عنوا بتاريخ ما قبل الإسلام وما بعد المغازي والسيرة، ومن الذين بذلوا جهداً كبيراً في دفع عجلة الدراسات التاريخية عن طريق التأليف؛ فهو من أوائل الذين رووا الأحداث مؤرخة تأريخاً سنوياً، ومن الذين لم يكتفوا بنقل الأخبار، بل أضافوا إليها دراساتهم وما جد منها في عصرهم.

---

(١) المصدر السابق، ص ١٦٤.

فلئن سبق موسى بن عقبة - عروة ، وأبان ، و الزهري ، و غيرهم إلى تدوين الأخبار التاريخية؛ إن تراث موسى بن عقبة لم يخل من المميزات التي تحدث عنها المتأخرون ، فهو قد أرخ الأحداث ، وقد بدأ تحقيق القضايا ، في القوائم التي نظمها ، وهو من أوائل الذين حاولوا ربط السيرة بما سبقها في العصر الجاهلي، وما جد بعدها إلى العصر الذي عاش فيه . أضف إلى ذلك ما استفاده من جده لأمه (أبي حبيبة مولى الزبير)، ومن (علقمة بن أبي وقاص) ومن آل الزبير، ومن (الزهري) و مدوناته .

٧- وصلة موسى بن عقبة بالزهري، وهل أخذ عنه مباشرة ، أو نقل عن مدوناته، وعن الذين رووا عنه هي : الموضوع الجدير بالبحث والتعليق . ولعل الذين قالوا : إن موسى بن عقبة لم يلق ابن شهاب الزهري، بنوا ظنهم على ما قاله (أحمد بن عبدالله الخزرجي الأنصاري) في كتاب (خلاصة تذهيب الكمال في أسماء الرجال) عن موسى ابن عقبة : [موسى بن عقبة الأسدي. مولاهم المدني- روى : عن أم خالد ، وعروة، وعلقمة بن أبي وقاص وعنه روى يحيى الأنصاري ، وابن جريج ، و محمد بن فليج وخلق][1]. فالحافظ : أحمد بن عبدالله الأنصاري، لم يذكر مع من ذكر من شيوخ موسى بن عقبة : الزهري، فهل موسى بن عقبة لم يأخذ شيئاً عن الزهري، في حين قد أخذ هو عن عروة ؟ إن الرجلين متعاصران ، فبين وفاة الزهري سنة ١٢٤هـ وبين وفاة ابن عقبة ١٤١هـ ستة عشر عاماً تقريباً ، وإن الرجلين تجمع بينهما مدرسة عروة ابن الزبير، وكل من الرجلين عني بالأخبار التاريخية ، فما هو السبب فيما يلاحظ على رواية موسى عن الزهري ، وأن أكثرها لا يدل على أن موسى بن عقبة أخذ من الزهري مباشرة ؟! إن السبب فيما أعتقد يرجع إلى أن الزهري انتقل إلى البلاط الأموي وقضى أكثر سنيه الأخيرة بعيداً عن المدينة و مدرستها ، فمنذ سنة ٨١هـ كانت سوريا مقر إقامته أكثر من غيرها؛ فلذلك نحن لا نستغرب إن وجدنا صلة موسى بن

(١) كتاب خلاصة تذهيب الكمال ، ص٣٣٦ .

عقبة بأم خالد، وبابن أبي قاص، وعروة؛ أكثر من صلته بالزهري، وسماعه منهم أكثر من الزهري، فلا يبعد أن يكون الرجلان قد تقابلا في فترة وجيزة سمع موسى فيها شيئاً من الزهري.

٨- ثم الموضوع الروتيني الذي لا بد من الإشارة إليه في كل ترجمة: هو التهم التي توجه إلى الرواد، والشكوك التي تثار حول تراثهم؛ فموسى بن عقبة كغيره ـ لم يسلم من التهم والشكوك .. والذي يغلب على الظن: أن أكثر الشكوك التي أثيرت حول موسى ابن عقبة لا تعدو الأخبار التي تخص الزبيريين مع خصومهم، وأن أكثر مثيري الشكوك هم من أنصار خصوم الزبيريين، فلا يبعد أن يكون موسى بن عقبة روى أخباراً سمعها من الزبيريين لم تكن في مصلحة خصومهم، فأثاروا حولها الغبار لا سيما الأمويون؛ فللنفوذ السياسي أثر فعال في توجيه المطاعن وإثارة الشبهات.

على أن الشكوك التي أثيرت حول موسى بن عقبة، لم تحجب فضل الرجل، واشتراكه مع الأوائل في غرس نواة التاريخ العربي.

البحث الخامس عشر :

أبو المعتمِر : سليمان بن طرخان التيمي

توفي سنة ١٤٣هـ

من موضوعات البحث :

١- الخلاف على ولاء سليمان بن طرخان .

٢- السليمانيون الذين لا يقلون عن ابن طرخان علماً وورعاً .

٣- أسباب عناية الدراسات المتأخرة بابن طرخان .

٤- تعليق و تحليل .

٥- الشكوك التي تحوم حول مغازي سليمان بن طرخان .

أبو المعتمر : سليمان بن طرخان التيمي، وحقيقة مغازيه

١- عندما تكلم (ابن قتيبة) عن سليمان التيمي، قال عن (أبي يقظان) : [هو سليمان بن طهمان من موالي (عمرو بن مرة بن عباد) من (ضبيعة) و يكنى : أبا المعتمر، ونسب إلى (بني تيم)، لأن منزله ومسجده فيهم، ويكنى ولده (المعتمر) أبا محمد]. وقال عنه (البجلي) : [إنه سيلمان بن طرخان ، وإن (طرخان) كان مكاتباً لـ (بني مرة) وكانت امرأة طرخان مكاتبة لـ(بني سليم) وكانت أعتقت قبل طرخان وولدت : سليمان وهي حرة فصار سليمان مولى لـ (بني سليم) وتوفي سنة ١٤٣هـ بالبصرة]. وذكر (ابن قتيبة) سليمان بن طرخان مع الشيعة ، وقال عنه : [عندما قدم (عكرمة) إلى (البصرة) أتاه (أيوب) و (سليمان التيمي) و (يونس) وعندما ترك عكرمة الحديث و أصغى للغناء زهد في مجلسه سليمان ، ويونس][1].

وعرفه (ابن سعد) بأنه : سليمان بن طرخان التيمي، وقال : [سمعت (يزيد ابن هارون). يقول : ليس بتيمي و لكنه (مري) ومنزله في التيم فنسب إليهم. كان ثقة كثير الحديث][2]. وقال عنه (اليافعي) نقلا عن (الشعبي) : [إن سليمان بن طرخان إذا حدث عن رسول الله تغير لونه، ما رأيت أصدق منه]، وقال نقلا عن ابنه (المعتمر) : [مكث سليمان بن طرخان أربعين سنة يصوم يوماً و يفطر يوماً ، ويصلي الفجر بوضوء العشاء. عاش سبعة وتسعين عاماً][3].

---

(١) المعارف ٤٥٦، ٤٧٥، ٤٧٦.

(٢) الطبقات ٢٥٢/٧.

(٣) مرآة الجنان ٢٩٤/١.

٢- فأبو المعتمر عندما يتحدث عنه القدامى يتحدثون عنه كما رأيت بتقدير وإعجاب، وأبو المعتمر في معاجم رجال الحديث له شركاء في اسمه وعلمه وزهده وزمنه.. كلهم موال وكلهم لايقلون تعبداً وتفقهاً، منهم : (سليمان بن يسار المدني) مولى (ميمونة أم المؤمنين) أحد فقهاء المدينة السبعة. توفي سنة ١٠٧هـ أو سنة ١٠٤هـ. قال عنه (الحسن بن محمد بن الحنفية) : هو أفهم عندنا من (سعيد بن المسيب)[١] - ومنهم : (سليمان بن مهران) مولى (بني أسد) المعروف بالأعمش المحدث الذي يروي نحو ألف وثلاثمائة حديث. قال عنه (الذهبي) : كان رأساً في العلم النافع والعمل الصالح ، وقال عنه (السخاوي) : لم يكن السلاطين و الأغنياء في مجلس أحقر منهم في مجلس الأعمش مع شدة حاجته و فقره. توفي سنة ١٤٨هـ[٢]. ومنهم (سليمان بن قتة) مولى (تيم قريش) كان محدثاً يروي الأحاديث النبوية ، وكان شاعراً؛ أورد له (ابن قتيبة) بيتاً من الشعر لا يقل روعة عن شعر نوابغ الشعراء :

وقد يحرم الله الفتى وهو عاقل ويعطي الفتى مالا وليس له عقل

وسليمان بن قتة عد في فهرست كتاب المعارف من التابعين ومن بعدهم ، ووضع مع أعلام رجال السند ، وسليمان بن قتة هو : أحق بأن يقال له : سليمان التيمي، فهو مولى تيم قريش[٣] .

٣- بيد أن هؤلاء السليمانيين الموالي لم تلتفت إليهم الدراسات التاريخية الحديثة، ولم تعن بهم كما عنيت بسليمان بن طرخان مولى (تيم) لا لشيء غير أن المحققين و جدوا لأبي المعتمر نشاطاً في رواية التاريخ لم يكن لغيره مثل ذلك النشاط من هؤلاء السليمانيين ... فأولئك السليمانيون لم يبوبوا ما رووه من أحاديث السيرة

---

(١) تذكرة الحفاظ ١٩٨/٣ .

(٢) الأعلام ١٩٨/٣ .

(٣) المعارف ، ص٤٨٧ .

والمغازي على ما يظهر، كما فعل سليمان بن طرخان، وكما جاء في خبر (فون كريمر) الآتي في هذا المبحث .

على أن أبا المعتمر (سليمان التيمي) لم يذكره أكثر الباحثين المتأخرين مع الذين غرسوا نواة التاريخ العربي؛ فعندما نظم (ثروت عكاشة) فهرست كتاب (المعارف) لابن قتيبة الذي أخرجته (دار المعارف) في طبعة أنيقة صحيحة واضحة، لم يضع اسم سليمان بن طرخان التيمي مع زمرة النسابين وأصحاب الأخبار مثل : الكلبي، وابنه، وأبي مخنف، والمدائني، والهيثم بن عدي، كما أنه أخرج الشعبي، والزهري، وشرحبيل ـ من هذه الزمرة في ذلك الفهرست . ولم يذكره الدوري في كتابه: (بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب) و لم يذكره كثيرون غير (عكاشة) و (الدوري)؛ فالقليلون هم الذين ذكروا : (سليمان بن طرخان التيمي)، ومن هؤلاء القليلين : (حسين نصار) في كتابه: (نشأة التدوين التاريخي عند العرب)، فلقد قال عنه : [تنتقل الكتابات التاريخية إلى (البصرة) ليظهر فيها سليمان بن طرخان المتوفى سنة ١٤٣هـ، ولم تذكر المراجع القديمة: أنه ألف كتاباً ، وإن كنا نرى اسمه يتردد في الطبري، ولكن الأستاذ (فون كريمر) وجد مخطوطاً يحتوي على مغازي (الواقدي) التي لا تصل إلا إلى إجلاء بني النضير من المدينة، ثم تكمل بجزء من مغازي (أبي المعتمر. سليمان بن طرخان التيمي) - المسماة (السيرة الصحيحة)، كما يقول الناسخ. وتبدأ سيرة سليمان بالكلمة الأولى في السطر السادس عشر من الصفحة (٣٦٠) وتنتهي في الصفحة (٤٣٧) فهي تتألف من سبع و سبعين صفحة من النسخة المطبوعة، ولا نستطيع من هذا الباقي من سيرته أن نحكم : هل تناول التاريخ الجاهلي ، وتاريخ النبي في مكة، أو اقتصر على المغازي وحدها ، وإن كان الاسم (السيرة) قد يجعلنا نميل إلى الظن بأنه تناول الفترة المكية من حياة الرسول عليه السلام أيضاً ، ولكن الطبري يذكر له خبرين عن خلق آدم، وعن حرق إبراهيم ،ثم لا يذكر له شيئاً عن حياة الرسول ، وإنما يرجع إليه ثانية

في عهد (عثمان) حيث يروي بعض ما حدث في الفتنة ، ولا ندري لهذا سبباً ! أكان الطبري غير واثق بمغازيه ؟ أم لم تصل إليه ؟ أم لم يؤلف سليمان مغازي ، وهذه المغازي التي بين أيدينا محمولة عليه ؟!] ويقول (حسين نصار) عن هذه المغازي وأسلوبها : [ويرى قارئ سيرته : أن الأخبار موجزة مضغوطة منسقة منتظمة ، لا تكثر خلالها الفواصل و الزوائد كما نرى عند غيره ، فهور لا يذكر الأسانيد و لا يعنى بالروايات المتعددة ، وإنما يسير على رواية واحدة لا يتعداها ، ويمتاز وصفه بالقوة والحياة؛ يشعر القارئ : أنه مشرف على المعركة ، يرى الأبطال و يشاركهم أحاسيسهم وأفعالهم ، كما يشعر بأن المؤلف لا يكتفي بمجرد الأعمال و إنما يدقق فيها و يبسطها بسطاً صادقاً ، ويجعلنا نستطيع أن نميز ما يدور في خلجات المؤمنين في كل موضع من المواضع وكثيراً ما تكون هذه الانفعالات في غير مصلحة المسلمين ، ويأتي بروايات غريبة في الغزوات الكبيرة ، تخالف ما أجمع عليه المؤرخون .. فهو يرى : (نعيم الأشجعي) من الجواسيس على النبي عليه السلام على حين يراه المؤرخون الآخرون من المؤمنين الذين خدموا النبي عليه السلام خدمة عظيمة إلى غير ذلك من الروايات التي جاء بها مخالفة لما يرويه المؤرخون عن غزوات (بني قريظة) و(الحديبية) و(خيبر) و(مؤتة) ووفاة الرسول عليه السلام. ويورد أخباراً عن العباس لا نجدها عند غيره من المؤرخين كلها في جانب العباس مما يغري المرء بالقول : إنها من وحي العباسيين . ولكننا بعد كل ذلك نحب أن نشير إلى أن سليمان بن طرخان من المشهود لهم بالعدالة و الفضل] ، ثم أورد (نصار) نماذج من مغازي سليمان بن طرخان[1] .

٤- فأبو المعتمِر ، كما قيل عنه أولا وأخيراً من رجال الحديث المعروفين بالزهد والأمانة ؛ إذا روى حديثاً عن النبي عليه السلام انفعل و تغير لونه ، فلا غرو! إن هو تحمس في أسلوبه ، فصور قلمه الانفعالات ، ولم يذكر (حسين نصار) ما لون

---

(١) نشأة التدوين التاريخي ، ص ٥٦ و مابعدها .

الانفعالات التي هي في غير مصلحة المسلمين، وإنما ذكر رواية من روايات سليمان بن طرخان التي تخالف ما أجمع عليه المؤرخون، وهي التي تتضمن اتهام (نعيم الأشجعي) بالجاسوسية ، فالذي يبدو : أن التهمة وجهت إليه قبل إسلامه، والشك في (نعيم) قبل إسلامه له مسوغاته؛ فنعيم الأشجعي الغطفاني لم يعلن إسلامه؛ إلا عندما تقدم للنبي عليه السلام في غزوة الخندق عارضاً استعداده لكل ما ينقذ موقف المسلمين ، و عندما قام بخدعته لم تشك اليهود فيه؛ لأنه نديم لهم، لا يبعد أن يكون حديثه معهم فيه أخبار عن المسلمين . ولم تشك فيه قريش؛ لأنها تعلم وده لهم، وفراقه المسلمين؛ فما هي بواعث الود ؟ قد يكون منها تقرب (نعيم) إلى قريش بما يثبت إخلاصه لها ، فلو لم تكن له سابقة في نقل المعلومات لما أسرعت الأحزاب في الأخذ بنصيحته ، فربما كانت حياة نعيم الجاهلية مشبعة بما يبعث الطمأنينة في نفوس اليهود والقرشيين، فقد يكون نعيم قبل إسلامه من الذين كانوا ينقلون أخبار الإسلام إلى اليهود ، ومن الذين يتقربون لقريش بمعلوماته عن ا لمسلمين .

ونحن لا نستغرب إذا سمعنا : أن أبا المعتمر المتشيع لآل هاشم جمع أخباراً عن العباس وفي مصلحته . ولا نستغرب إذا سمعنا : أن أبا المعتمر عني بأخبار الصراع الذي دار بين الوثنية والإسلام ، وبأخبار المؤامرات اليهودية ، وأخبار التضحية والصمود أمام القوى الفارسية التي تأهبت للقضاء على الإسلام انتصاراً لنارها ، و تحقيقاً لمخططات الاستعمار الساساني الذي تجاوز شواطئ الخليج الإسلامي ـ العربي، فوصل إلى اليمن، وأمام القوى المسيحية التي تواثبت لإخماد الشعلة جهلاً بما في إنجيل عيسى، وأملاً في مغانم جديدة تضمها إلى سوريا ، وبأخبار الأحداث الإسلامية التي تفاقمت في فتن صدر الإسلام ، وبمعرفة ما جاء في القرآن عن الخليقة وآدم، فلقد كانت السيرة بما فيها من جهاد و تشريع وحكم و توجيه، والمشكلات التي واجهت المسلمين بعد وفاة النبي عليه السلام بما فيها من تركيز وفتوحات وانقسام ومآس.

والقرآن بما فيه من أحكام وتعاليم ومثل وعبر هدفاً انطلق إليه جهد نفر غير قليل يجمع الأخبار مستجلياً الحقائق من مصادرها. لم يعلن البعض عن نفسه، فسار في طريق البحث عن الحقيقة صامتاً؛ فمنهم : من اكتشفه الباحثون ، ومنهم : من لقي حتفه، فدفن ودفنت معه أخباره ، ومنهم : من وصل شيء من تراثه إلى أيدي المؤرخين، فاتخذوه نصوصاً لمؤلفاتهم ، والقليل منهم من ورَّث الأجيال مؤلفات ما زالت مناهل لرواد المعرفة .

فلو لم يعن ذلك الناسخ بإكمال مغازي (الواقدي) بمغازي (أبي المعتمر) ، ولو لم تدفعه أمانة النسخ و يقظة الناسخ إلى إيضاح القسم الخاص بسليمان بن طرخان وإلى ذكر اسمه، ولو لم تسلم هذه النسخة من غوائل الزمن؛ لما عرف هذا الجيل عن مغازي أبي المعتمر شيئاً، ولما قال أحد بأنه من مؤلفي المغازي؛ ولذلك اعتمد البحث على ماجاء في تحقيق حسين نصار، فلم يهمل ما نقله عن (فون كريمر) الذي وجد المخطوط الذي يحتوي على مغازي الواقدي المذيلة بمغازي ابن طرخان .

٥- على أنه إذا كانت هناك شكوك تحوم حول نسبة هذه المغازي لسليمان التيمي، وإذا كانت الأدلة التي انبنت على تلك المغازي واستعين بها لمعرفة أسلوب سليمان ابن طرخان وأخباره لا تكفي لتقويم معارفه التاريخية ومنهجه؛ فإن ما جاء في تاريخ الطبري عن أبي المعتمر مما نقله نصار، ومما لم ينقله، كقوله عن (سلمان الفارسي) خمّر الله تعالى طينة آدم أربعين يوماً ثم جمعه بيديه فخرج طيبه بيمينه وخبيثه بشماله ثم مسح يديه إحداهما على الأخرى فخلط بعضه ببعضه فمن ثم يخرج الطيب من الخبيث والخبيث من الطيب[1] - يدل على أن سليمان كان ذا عناية بالأخبار ورواياتها وكان نقادة ينقل الأقوال ذات المعنى الكبير والفلسفة العميقة .

---

(١) تاريخ الطبري ٦٣/١ . مطبعة الاستقامة .

وإذا كان لابد لي من أن أبدي شيئاً من الشكوك التي تحوم حول ما نقله نصار عن (فون كريمر) الذي أسند إليه خبر مغازي سليمان التيمي؛ فإنني ألفت النظر إلى أن المستشرقين الذين اطلعت على بحوثهم والذين استقصوا في بحثهم مغازي (الواقدي) لم يشيروا إلى ما نقله نصّار عن (فون كريمر) مع أن (يوسف هورفتس) استعان بنتائج (ألفرد فون كريمر) في تحقيق مغازي الواقدي، ولكنه لم يذكر شيئاً عن سيرة (سليمان ابن طرخان). فهذا الخبر لم يذكره فيما اطلعت عليه من مصادر غير نصار.. والنص الوحيد الذي جاء في هذا الخبر هو قول الناسخ: السيرة الصحيحة من مغازي أبي المعتمر سليمان بن طرخان.

على أننا مع هذا الشك الذي يحوم حول هذه المغازي لا نستبعد أن يكون (سليمان ابن طرخان). قد جمع بعض الأحاديث والآثار التي وردت في المغازي ما دمنا قد رأينا في تاريخ الطبري ما يشهد بأن لأبي المعتمر جولة مع رواد الأخبار. ونحن نرى في هذه المغازي إن صح ما قيل عنها و نقل لنا منها: أنها من أقدم ما دون عن حياة النبي عليه السلام، ونرى: أخبارها من أدق الأخبار التي رويت عن أحداث فتنة عثمان وجدل الثائرين على سياسته، ونرى من خلال ما نقل منها: تفاعل الدراسات التاريخية وحركة تطورها، والحرص على ما يستلزمه الخبر التاريخي، من فهم الراوي حقيقة القصة التي يتحدث عنها، سواء كانت هذه المغازي من تدوين سليمان بن طرخان أو من تدوين غيره.

وبعض هذا يكفي البحث، ويسد حاجته، ويحقق الغرض الذي من أجله استعرض البحث جانباً من حياة سليمان بن طرخان وسلط الضوء على مغازيه.

البحث السادس عشر :

آل السائب ، محمد بن السائب الكلبي

توفي سنة ١٤٦هـ

من موضوعات البحث :

١- لا يقل علم محمد بن السائب بالأنساب عن علم الذين سبقوه .

٢- أسرة محمد بن السائب .

٣- عنجهية محمد بن السائب .

٤- أضواء على محمد بن السائب و معارفه .

آل السائب الكلبي : محمد بن السائب ، وابنه هشام

١- لئن سبق (دغفل) النسابة محمد بن السائب الكلبي ، ولئن قيل عن دغفل وعن (ورقاء بن الأشعر) المعروف بـ(لسان الحمرة) : إنهما من أقدر النسابين؛ فإن معارف (محمد بن السائب الكلبي) في الأنساب لا يقل قدرها عن معارف دغفل ولسان الحمرة؛ أضف إلى ذلك : أن محمد بن السائب لم تقتصر بحوثه على الأنساب، بل تناولت التفسير، والأحداث الإسلامية، وأيام العرب .

٢- قال عنه (ابن قتيبة) : [هو محمد بن السائب الكلبي؛ ويكنى : أبا النصر، وكان جده (بشر بن عمرو) ، وبنوه (السائب) ، و(عبيد) ، و(عبدالرحمن) شهدوا : (الجمل) و (صفين) مع (علي بن أبي طالب) وقتل (السائب) (مصعب بن الزبير) و شهد (محمد بن السائب الكلبي) : (الجماجم) مع (ابن الأشعث) وكان نسابة عالماً بالتفسير](1) .

وقد ذكر نسبه (ابن سعد) استناداً إلى رواية ابنه (هشام)، فصعد به إلى (ثور بن كلب) . وقال عنه : [إنه عالم بالأنساب والتفسير وأحاديث العرب] ، ثم علق (ابن سعد) بعد ذلك بقوله : [ليس بذاك : في روايته ضعف](2) .

٣- وقال عنه (ابن النديم) : [إنه من علماء الكوفة بالتفسير ، والأخبار ، وأيام العرب ، وأفهم الناس بعلم الأنساب. ويروى : أن سليمان بن علي استقدم محمد بن السائب من الكوفة إلى البصرة ، وأجلسه في داره ، فجعل يملي على الناس القرآن، حتى بلغ إلى آية في سورة (البقرة) ففسرها على خلاف ما يعرف، فقالوا : لا نكتب هذا التفسير . فقال محمد : والله لا أمليت حرفًا حتى يكتب تفسير هذه الآية على ما أنزل الله؛ فرفع ذلك لسليمان بن علي فقال : اكتبوا ما يقول ودعوا ما سوى ذلك] . وروي

---

(١) المعارف ، ص ٥٣٥ ، ٥٣٦ .

(٢) الطبقات ٣٥٨/٦ .

عن (هشام ابنه) : أنه قال : [قال لي أبي : أخذت نسب قريش عن (أبي صالح) ، وأخذه أبو صالح ، عن (عقيل بن أبي طالب) ، وأخذت نسب كندة عن (أبي الكناس الكندي) وكان أعلم الناس ، وأخذت نسب معد بن عدنان عن (النجار بن أوس العدواني) وكان أحفظ الناس ، وأخذت نسب إياد عن (عدي بن رثاث الإيادي) وكان عالمًا بإياد - ولمحمد ابن السائب الكلبي - كتاب (تقسيم القرآن)][1] .

٤- إن هذا القليل الذي نقلناه عن ابن قتيبة ، وعن ابن سعد ، وعن ابن النديم؛ يغني البحث عن الكثير مما ورد في التراجم عن محمد بن السائب. فلقد عرفنا من هذا القليل : أن آل السائب: أسرة سياسية محاربة ، وقفت بجانب (علي بن أبي طالب) ضد خصومه ، وأن أول من اشتغل بالدراسات العلمية في هذه الأسرة هو : محمد بن السائب الكلبي ، على أنه لا يبعد أن يجد الباحثون روايات عن جده بشر بن عمرو وعن عمومته . ولعل دراسات محمد بن السائب انتظمت بعد أن ترك ميادين القتال و اتجه إلى دراسة التفسير والتاريخ . وعرفنا من هذا القليل : أساتذة محمد بن السائب في علم النسب؛ ولعل محمد بن السائب احتاج إلى النصوص القديمة في تفسيره ما جاء في القرآن عن أهل الكتاب، وعن عاد ، وثمود ، و إبراهيم، وإسماعيل في جزيرة العرب ، فلا يبعد أن يكون محمد بن السائب قد رجع إلى ما في (الحيرة) و (عين تمر) و غيرهما من مدونات قديمة ، ونقل عن عرب الجزيرة أخبار العرب كما نقل عن أولئك الأساتذة أنساب الشعوب العربية. وعرفنا من هذا القليل : أن محمد بن السائب - كان معتزاً بمعارفه ، متعصباً لفهمه و منطقه ، فهو استنكر ملحوظات الكاتبين عنه على ما خالف به الجمهور، وأصر في عناد على أن يكتب الناس ما يمليه عليهم، ولعل ذلك من العوامل التي جرَّت الضعف إلى روايته؛ فمحمد بن السائب علامة في الأنساب باتفاق الكثيرين وضعيف في الحديث باتفاق الكثيرين . ولم يبلغ مستوى الذين تخصصوا في أخبار الجاهلية وأيام العرب، وعرفنا الأسرة التي نبغ فيها ابنه : هشام بن محمد بن السائب الكلبي .

---

(١) الفهرست ١٣٩ .



البحث السابع عشر :

عوانة بن الحكم الضرير

توفي سنة ١٤٧ أو سنة ١٥٨هـ

من موضوعات البحث :

١ - من هو عوانة بن الحكم ؟

٢- عوانة أموي غير متطرف .

٣- آراء حسين نصار في كلامه عن عوانة : مبنية على النظرة الخاطفة .

٤- دراسات عوانة التاريخية .

٥- لم يعن عوانة برواية الحديث كغيره من أوائل الرواد .

عوانة بن الحكم الضرير

١- ترجمه (ابن النديم) فقال عنه : هو: [عوانة بن الحكم بن عياض بن وزير بن عبد الحارث الكلبي، ويكنى أبا الحكم. من علماء الكوفيين. راوية للأخبار. كان عالماً بالشعر و النسب، وكان فصيحاً ضريراً. توفي سنة ١٤٧هـ. له من الكتب كتاب (التاريخ) و كتاب (سيرة معاوية وبني أمية) . ويقال : إن هذا الكتاب ألفه (منجاب بن الحارث) والصحيح : أنه لعوانة][١] .

٢- وقال عنه الزركلي : [اتهم عوانة بوضع الأخبار لبني أمية] ونقل عن مصادره [وعامة أخبار المدائني عن عوانة][٢] - ولكن (عبد العزيز الدوري) برأه من هذه التهمة بقوله : [ومع ذلك فإنه يورد أحياناً الروايات العراقية والمدنية التي تعكس آراء جماعة مضادة للأمويين، وبذلك يمكن القول : إن عوانة لم يكن متحيزاً لجهة خاصة][٣] .. ولكن هذا لايكفي لنفي تهمة تحيزه للأمويين، فقد يكون عوانة ممن كان لايعرى تحزبه للأمويين؛ لئلا يفقد الثقة فيما يتحدث به، فحرص على تغطية ميوله بما لا بد من ذكره مما هو في غير مصلحة الأمويين .

وكذلك برأه (حسين نصار) من التحزب للأمويين فقال عنه : [ولا تؤيد الأخبار الباقية لنا عند الطبري ، والبلاذري تلك التهمة . التحزب للأمويين . إذ لا يظهر فيها أي هوى للأمويين] ، فلم تكن بواعث هذه التهمة في رأي حسين نصار غير الخصومة التي قامت بينه و بين خصوم مجهولين ، ولعل سببها عثمانيته المزعومة.

---

(١) الفهرست ١٣٤ .

(٢) الأعلام ٢٧١/٥ مادة عون .

(٣) علم التاريخ عند العرب ، ص٣٦ ، ٣٧ .

٣- ولقد لفت حسين نصار في دفاعه عن عوانة، النظر إلى التهم التي وجهت إلى عوانة فقال : [ويجب أن نحترس في هذا الرأي؛ لأننا نجد كثيراً من التهم توجه إلى عوانة تريد الحط من قدره ، مثل تلك الأخبار التي تجعله لا يميز بين الشعر والقرآن] ، وتهمة كهذه توجه إلى مثل عوانة تستدعي الرجوع إلى مصدرها والمصدر الذي أشار إليه نصار هو : معجم الأدباء لياقوت.. على أن ما جاء في معجم ياقوت هو عين الرواية التي جاءت في فهرست ابن النديم، وما جاء في المعجم وفي الفهرست يؤكد: أن الذي لم يميز بين القرآن والشعر ليس (عوانة الضرير) إنما هو (عتبة البجلي)، فالخبر جاء في المصدرين على هذا النحو : [قال عوانة فيما يروي عنه هشام بن الكلبي. قال : خطبنا (عتبة بن النهاس البجلي فقال ما أحسن شيئاً قاله الله جل وعز في كتابه :

ليس حي على المنون بباق غير وجه المسبح الخلاق

قال عوانة : فقمت إليه فقلت : الله عز وجل لم يقل هذا وإنما قاله (عدي بن زيد) فقال : قاتله الله ! ما ظننته إلا من كتاب الله . ولا نعلم ما قال عدي بن زيد ، ثم نزل عن المنبر. وأتي بامرأة من الخوارج. فقال : يا عدوة الله ما خروجك على أمير المؤمنين ! ألم تسمعي قول الله عز وجل ؟

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الزيول

فقالت : يا عدو الله حملني على الخروج : جهلكم بكتاب الله وإضاعتكم لحق الله]. هذا نص الرواية التي أوردها (ابن النديم) في فهرسته. ونقلها (ياقوت) في معجم الأدباء[1] ؛ فهشام الكلبي الذي نقل عنه ابن النديم و ياقوت لم يتهم (عوانة الضرير) بأنه لم يميز بين الشعر والقرآن، كما هو واضح في هذا الخبر الذي رواه (ابن النديم)

---

(١) **الفهرست** ، ص١٤ طبع المطبعة الرحمانية ، **ومعجم الأدباء لياقوت** ١٣٧/١٦ طبع مطبعة المأمون.

بوضوح، ونقله ياقوت بإيجاز يشوش على القارئ المستعجل فيظن : أن المعنيَّ بعدم التمييز هو عوانة. في حين أن عوانة، هو الراوي لهذا الخبر ، وهو الذي نهض من بين السامعين وقال لعتبة : إن هذا ليس من القرآن، وإنه من شعر عدي بن زيد .

ولرأي حسين نصار في تبرئة عوانة من التحزب للأمويين على أساس أنها من مزاعم خصوم مجهولين دلالته، إذ لا يستبعد أن يكون لعوانة خصوم مجهولون، ولكن الذين اعتمد عليهم (الزركلي) عندما أشار إلى أموية عوانة، غير مجهولين . فمما هو واضح أن غالبية القدامى تجمع على عثمانية عوانة كما يكاد يجمع المتأخرون على اطلاع عوانة على أسرار أموية لا يمكن أن يحصل عليها غير القريب من الأمويين، فالذي يظهر من الادعاء على عوانة بأنه أموي ، ومن الدفاع عنه : أنه كان معتدلاً في أمويته غير متطرف، فعصر عوانة عصر تحزب سياسي وعقائدي ، فلو لم يكن عوانة أمويًّا لكان علويًّا.

٤- والذي يظهر من دراسات (عبد العزيز الدوري)، ومما جمعه من نصوص: أن عوانة تفرغ لتدوين التاريخ الأموي في كتابه: (سيرة معاوية وبني أمية) وعني بالخلفاء الراشدين والفتوحات بما في ذلك الصراع بين العلويين والأمويين في كتابه (التاريخ)، وأنه جمع أكثر معلوماته من قبيلة كلب الموالية للأمويين والتي كان عوانة يثق بأخبارها . ومن هنا بدت الظاهرة الأموية في مؤلفاته[١] ويظهر: أن عوانة استفاد من محاولات التأليف التي قام بها الذين سبقوه، فسار في تأليفه على أساس التسلسل التاريخي أو على سير الخلفاء ، وهذه خطوة لها دلالتها في تطور الكتابة التاريخية ضمن الاتجاه القبلي، كما يقول الدوري ، ولكنه لم يصل إلى مرحلة التأليف في التاريخ العام . أما الذين استفادوا من عوانة فكثيرون . ولقد كانت روايات عوانة و مؤلفاته من مصادر (هشام الكلبي) و(المدائني) و (الهيثم بن عدي) .

---

(١) بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، ص ٣٦ ، ٢٣٢ .

٥- ولقد ترجمه المستشرق (مارغوليوث) على ضوء المصادر التي وصل إليها، فقال : [وقد نذكر بين رواة المعرفة الذين ظهروا قبل شيوع الكتب المدونة، عوانة ابن الحكم، أخذ منه (المدائني) عامة أخباره، وسمع منه الأصمعي، وكان إذا سئل عن قبيلته قال : من قوم إذا نسي الناس علمهم حفظوه عليهم !!. ومهما يكن الأمر؛ فإنهم لم يميزوا أعمال الرواة من غيرهم قبل أن تتخذ الروايات، صورة صالحة للتدوين، فنجد هؤلاء الرجال يذكرون بين رواة الأحداث التاريخية والأحكام الفقهية، إذ أن اعتماد القانون على الحديث ، والحديث على التاريخ جعل في الإمكان الخلط بين مهمة العلوم الثلاثة حتى في العصور المتأخرة][1].

والواقع : أن رجال التاريخ كما نراهم في تراجمهم - هم : من رجال التفسير ومن رجال الحديث ومن رجال الفقه ، ولذلك استمرت الدراسات التاريخية تدور في فلك الرواية التي اعتمد عليها المحدثون والمفسرون والفقهاء والمؤرخون. زمناً طويلاً.

بيد أننا نسمع عن عوانة بن الحكم أنه قال : تركت رواية الحديث إلى رواية الشعر هروباً من حفظ السند[2] - وما نسمعه عن عوانة بن الحكم يدلنا على أنه تفرغ للتاريخ والشعر، ولذلك لم يدخله الكثيرون مع طبقات المحدثين والفقهاء.

---

(١) دراسات عن المؤرخين ، ص ٩٦ ، ٩٨ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ١٣٧/١٦ .



البحث الثامن عشر :

أبو عروة : معمر بن راشد الأزدي

توفي سنة ١٥٠ أو سنة ١٥٣هـ

من موضوعات البحث :

١- سر اهتمام القدامى بمعمر بن راشد .

٢- معمر بن راشد بصري لا كوفي .

٣- من أين عرف الباحثون في نشأة التاريخ : مغازي معمر ؟

معمر بن راشد الأزدي بالولاء

١- إن اسم (معمر بن راشد الأزدي) لمع في الماضي أكثر من معاصريه مثل : (سليمان بن طرخان) و (عوانة بن الحكم)، فقد ذكر الكثيرون من القدامى نشاطه في علم التاريخ و الحديث، وقالوا عنه : إنه ولد في (البصرة) حوالي سنة ٦٦هـ ، وإنه مولى (بني حدّان) من قبيلة (الأزد) ، وإن أساتذته: (قتادة بن دعامة المتوفى سنة ١١٤هـ) و(ابن شهاب الزهري) و(همام بن منبه) و (هشام بن عروة بن الزبير)، وإن من تلامذته: (الثوري) و(ابن عيينة) و (ابن المبارك) و(غندر) و(هشام بن يوسف قاضي صنعاء) و(عبد الرزاق فقيه اليمن)، وغيرهم ، وإنه انتقل من البصرة إلى اليمن في طلب الحديث وتوفي في صنعاء سنة ١٥٣ أو سنة ١٥٤هـ .

وترجمه (ابن قتيبة) ، وقال عنه : [هو معمر بن راشد مولى الأزد، وكان من أهل (البصرة) فانتقل عنها إلى (اليمن) وتوفي سنة ١٥٣هـ، ويكنى أبا عروة][١] ، وقد وضعه مع أصحاب الحديث . وذكره (اليافعي) في (مرآة الجنان) فقال عنه: [توفي سنة ١٥٣هـ معمر بن راشد الأزدي، مولاهم البصري الحافظ. قال (أحمد) : ليس يضم معمر إلى أحد إلا وجدته فوقه، وهو أول من ارتحل في طلب الحديث إلى اليمن ، فلقي بها (همام ابن منبه) وله الجامع المشهور المنسوب إليه في السنن،وهو أقدم من الموطأ][٢] ، وقال عنه (ابن سعد) في الطبقات : [إنه توفي سنة ١٥٣هـ على رواية (محمد بن عمر) وفي سنة ١٥٠ هـ على رواية (عبد المنعم بن إدريس)[٣] .

---

(١) المعارف ، ص ٥٠٦ .

(٢) مرآة الجنان. ٣٢٣/١ ، وابن حجر ، ص ٢٤٣ .

(٣) الطبقات ٥٤٦/٥ .

٢- وقال عنه (ابن النديم) : [معمر بن راشد ، من أهل (الكوفة)، يروي عنه (عبد الرازق) من أصحاب السيرة والأحداث، وله من الكتب : كتاب (المغازي)][١] .. ولعل تحريفاً مطبعياً وقع في الفهرست، فمعمر بن راشد الأزدي بصري المولد والنشأة؛ على أنه لا يستبعد أن يكون قد رحل إلى الكوفة وحضر حلقات العلم فيها قبل أن يرتحل إلى اليمن أو في أثناء تردده على العراق، ولكنه أولاً وأخيراً بصري وليس بكوفي ولا يمني .

٣- ومغازي معمر بن راشد لم تصل إلى أيدي الباحثين في نشأة التاريخ العربي؛ لذلك كان كلامهم عن مغازي معمر ، وحكمهم عليها مبنيين على ما وجدوه منها في مؤلفات : (الواقدي) و (ابن سعد) و (البلاذري) و (الطبري)؛ فمما جاء في مؤلفات هؤلاء عن معمر بن راشد عرف الباحثون : أن من مصادره، مدونات الذين سبقوه ، وذلك فيما كتبه عن الرسل ، وأنه تطرق إلى تاريخ ما قبل هجرة النبي عليه السلام إلى المدينة ، و حدث عن الخلفاء الراشدين ، وأورد أخباراً تذكر حوادث خاصة في عهد عثمان و معاوية[٢].

ونحن لا نستبعد أن يكون معمر قد وجد في اليمن وعند أبناء (منبه) ما يهمه الاطلاع عليه و الاستضاءة به في كتابه المغازي وفيما رواه عن الأنبياء والمرسلين ، و لا نستبعد أن يكون معمر بن راشد مع الطليعة التي بدأت المحاولات الأولى لتأليف تاريخ عام .

---

(١) الفهرس ١٣٨ .

(٢) المغازي الأول و مؤلفوها ، ص٧٥ .

البحث التاسع عشر :

محمد بن إسحاق : مولى آل مخرمة

توفي سنة ١٥٠ أو سنة ١٥١هـ

من موضوعات البحث :

١- ابن إسحاق بين أنصاره وخصومه .

٢- ما أسباب الخصومة بين ابن إسحاق ومالك بن أنس ؟

٣- لماذا لم يؤاخذ ابن شهاب الزهري ابن إسحاق على آرائه القدرية ؟

٤- لا يستبعد سماع ابن إسحاق من فاطمة بنت المنذر زوج هشام بن عروة بن الزبير .

٥- المتزمتون هم الذين أنكروا على ابن إسحاق أخذه من اليهود و النصارى .

٦- الذهبي ينصف ابن إسحاق .

٧- ما أجمعت عليه تحقيقات المتقدمين والمتأخرين .

٨- تراث ابن إسحاق في نظر المعاصرين .

٩- رأي المستشرقين في ابن إسحاق .

١٠- ابن إسحاق استفاد ممن سبقوه في تطوير علم التاريخ .

١١- وصم ابن إسحاق بالسذاجة لا يتفق مع الحقيقة .

١٢- هل ألف بن إسحاق كتابه إطاعة لأمر المنصور الخليفة العباسي ؟

١٣- ظنون حول ما وصل إلى العصر الحاضر من تراث ابن إسحاق .

١٤- خاتمة البحث .

محمد بن إسحاق :مولى آل مخرمة

١ - كثيرون أولئك الذين تكلموا عن (محمد بن إسحاق) مكبرين تخطيه المحاولات التي تقدمته بمؤلفه العام، فلقد انتقل ابن إسحاق بالتدوين في التاريخ من البحث المنحصر في الحديث عن المغازي، أو عن الهجرتين : هجرة الحبشة وهجرة المدينة، أو سرد قصة من قصص جرهم، ويوم من أيام الأوس والخزرج. إلى البحث المنطلق في آفاق الماضي، فسار بمؤلفه مع التاريخ من بداية الطريق وأقدم العصور التي عرفها المؤرخون في عصر ابن إسحاق إلى فجر التاريخ الإسلامي .

ولئن قرظ الكثيرون هذا الرائد العلامة و أكبروا بحوثه المنطلقة؛ إن كثيرين غيرهم نقدوا هذا المؤلف الخارج على ما ألفوه في جمع الأخبار وتأليفها، والمتحرر من منطق جيلهم وأساليبهم في تدوين التاريخ وربط حلقاته[١].

ففي مقدمة الذين قرظوا ابن إسحاق : (محمد بن مسلم بن شهاب الزهري)، وآخرون غيره لهم مكانتهم العلمية؛ فلقد قال الزهري عن ابن إسحاق: [لا يزال في الناس علم ما بقي مولى آل مخرمة][٢]، ومن الذين أخذوا عن ابن إسحاق : (شعبة) و(سفيان بن عيينة) و (يزيد بن ذريع) و (زياد البكائي) وآخرون لا يقلون عن هؤلاء شهرة ومكانة علمية .

وفي مقدمة الذين هاجموا ابن إسحاق : (مالك بن أنس) وغيره ممن كانوا في مستوى علمي مرموق ؛ فلقد روى (المعتمر) عن أبيه (سليمان بن طرخان): قال لي أبي:

---

(١) راجع **تذكرة الحفاظ** ١٧٣/١ طبع بيروت .

(٢) راجع الجزء الأول من هذا المؤلف ٣٢١/١ .

[لا تأخذ من ابن إسحاق شيئاً فإنه كذاب][1]، ولقد هاجمه (محمد بن سلام الجمحي) و قال عنه : [إنه ممن أفسد الشعر و هجنه وحمل كل غثاء. كتب في السير أشعاراً لرجال لم يقولوا شعراً قط، وأشعاراً لنساء فضلا عن الرجال، ثم جاوز ذلك إلى (عاد) و (ثمود)، فكتب لهم أشعاراً كثيرة / وليس بشعر، إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف، أفلا يرجع إلى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ آلاف السنين؟!][2].

وما جاء في (الفهرست) لم يخرج عن فلك هذا الفريق، فقد قال (ابن النديم) عنه: [صاحب السيرة. أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن يسار؛ مطعون عليه غير مرضي الطريقة ، و يحكى : أن أمير المؤمنين رقى إليه : أن محمداً يغازل النساء فأمر باحضاره ، وكانت له شعرة حسنة فوقف[3] رأسه وضربه أسواطاً و نهاه عن الجلوس في مؤخرة المسجد وكان حسن الوجه. يروى عن (فاطمة بنت المنذر) زوج (هشام بن عروة) فبلغ هشاماً ذلك فأنكره. وقال : متى دخل إليها ؟ ويقال كانت تعمل له الأشعار ويؤتى بها ويسأل : أن يدخلها في كتابه في السيرة فيفعل ، فضمن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر، وأخطأ في النسب الذي أورده في كتابه، وكان يحمل عن اليهود والنصارى، ويسميهم في كتبه أهل العلم الأول، وأصحاب الحديث يضعفونه ويتهمونه . توفي سنة ١٥٠هـ ، وله من الكتب : كتاب (الخلفاء) رواه عنه (الأموي) وكتاب (السيرة والمبتدأ و المغازي) رواه عنه (إبراهيم بن سعد و(محمد النفيلي) المتوفى سنة ٢٣٤هـ في (حران)][4].

---

(١) المعارف ، ص٤٩٢ .

(٢) طبقات الشعراء للجمحي ، ص٩ .

(٣) لعله يقصد قطع شعره ، فقد جاء في المعاجم الوقف مصدر قطع الكلمة عما بعدها .

(٤) الفهرست ، ص١٣٦ .

هكذا اختلفت آراء المتقدمين في ابن إسحاق؛ فالإمام (مالك بن أنس) و(هشام بن عروة بن الزبير) يحملان عليه بعنف، ويتهمانه بالكذب والدجل. ولا شك في أن لهذين الشخصيتين تأثيرهما على الكثير. والإمام (محمد بن مسلم بن شهاب الزهري) و(سفيان الثوري) يحسنان الظن به، ولهذين الشخصيتين أنصارهما الذين يأخذون برأيهما و يعتمدون على اقتناعهما .

فتعارض الآراء في ابن إسحاق، واختلاف الحكم له أو عليه. من مثل أولئك الذين لمزوا ابن إسحاق، وفي مقدمتهم : مالك بن أنس، وأولئك الذين أثنوا عليه وفي مقدمتهم : ابن شهاب الزهري، يستلفت النظر !! فكل من مالك و الزهري : إمام عرف بترفعه عن هوى النفس و عثرات اللسان، وكل واحد منهما، أنبل من أن يصدر عنه ثناء أو ذم عن غير قصد، وبدون اقتناع، لذلك يجب ألا نتسرع في الأخذ بما يقال عن ابن إسحاق حتى تتبين لنا الحقائق، ومن الحقائق : أن بين ابن إسحاق و مالك بن أنس خصومة قال عنها (مصطفى السقا) ورفاقه الذين أخرجوا معه سيرة (ابن هشام) في طبعة الحلبي سنة ١٣٧٥هـ في مقدمة السيرة : [وفي الحق أن حملة الحاملين على ابن إسحاق لم تكن مبرأة من الغاية ولم تكن من الحق في شيء؛ فإنا نعلم عن ابن إسحاق: أنه كان يطعن في نسب مالك، وفي علمه ، ويقول : ائتوني ببعض كتبه حتى أبين عيوبه . أنا بيطار كتبه؛ فانبرى له مالك و فتش هو الآخر عن عيوبه ، وسماه دجالاً وكانت بينهما هذه الحرب][1].

٢- فهذا الحكم كما تراه، حكم لم يُبْنَ على تحقيق متعمق ، فليس من خلق مالك ابن أنس : أن يتهم ابن إسحاق في علمه؛ لأن ابن إسحاق طعن في نسبه ، فلو كان ذلك هو السبب في الخصومة لوجد مالك المجال فسيحاً للطعن في نسب ابن إسحاق ، فابن إسحاق ـ هو : حفيد (يسار) الذي أخذ مع من أخذ من كنيسة (عين تمر) ـ وكذلك ليس هناك نص يؤكد : أن عدم اعتراف ابن إسحاق بعلم مالك هو من قبيل الأخذ بالثأر .

---

(١) سيرة ابن هشام طبع دار الحلبي ١٥/١ .

إن الباحث إذا ما تعمق في تحقيق أسباب هذه الخصومة ، يجد أسباباً كثيرة تصلح لإثارة الخلاف بين الرجلين؛ فابن إسحاق ولد سنة ٨٥هـ تقريباً ، ومالك بن أنس ولد في سنة ٩٣هـ ، فعلى ذلك سبق ابن إسحاق مالكاً إلى تلقي العلم بثمانية أعوام. فلا غرو ! إن قال : اعرضوا عليَّ علم مالك فمالك بالنسبة إليه في بداية الطريق ، ولا شك في أن مالك بن أنس. سمع ما يقال عن مغازلة ابن إسحاق النساء ومغازلتهن ابن إسحاق الفتى الجميل صاحب الشعر الرائع. فلا غرو ! إن هو ترفع عن ابن إسحاق .. بيد أن مثل هذه الأسباب وإن جعلت كلا من الرجلين يدير ظهره للآخر، ليست بقادرة على دفع واحد منهما للطعن في الآخر و إنكار كل حقيقة تأتي عن طريقه ، فلابد من سبب أكبر من استصغار محمد بن إسحاق مالك بن أنس ومن نفور مالك بن أنس من ابن إسحاق لما يقال عن سلوكه في شبابه .

إذن ! ما هي دوافع الطعن الذي وجهه كل واحد منهما للآخر ؟ إن الجواب عن هذا السؤال، نجده عند (دحيم) فهو يقول : إن سبب خصومة مالك بن أنس يرجع إلى آراء الأخير في (القدرية)[1] ، ولقد ذكر (ابن قتيبة) في المعارف : أن ابن إسحاق من (القدرية)[2] - فالخصومة عقائدية مبرأة من الغرض الشخصي .

٣- وهذا الجواب الذي وجدناه عند (دحيم)؛ يجعلنا نتساءل : هل كان (ابن شهاب الزهري) قدرياً ، فلذلك لم تحل قدرية ابن إسحاق دون ثناء الزهري عليه؟ إنني أرجح : أن ابن إسحاق لم تظهر آراؤه القدرية إلا بعد وفاة الزهري، فلقد كانت وفاة الزهري في سنة ١٢٤هـ ، وكانت وفاة ابن إسحاق سنة ١٥٠هـ .

٤- ويرجح الكثيرون : أن ما قيل عن ابن إسحاق و وسامته ومغازلته النساء هو الذي جعل هشاماً يستنكر أن يكون ابن إسحاق سمع من زوجه حديثاً ؛ لأن ما قيل عن

---

(١) ابن حجر. التهذيب ٤٢/٩ .

(٢) المعارف ، ص ٦٢٥ .

ابن إسحاق يجعل كل سيدة يتحدث إليها ابن إسحاق و تتحدث إلى ابن إسحاق عرضة للأقاويل . ولكن هل لنا أن نعد استنكار هشام بن عروة دليلاً قاطعاً على أن ابن إسحاق كان كاذباً فيما رواه عن (فاطمة زوج هشام) ؟ ما من شك في أن فاطمة بنت المنذر زوج هشام كانت تدرك ما قد يقال عنها إن هي حدثت ابن إسحاق بعد أن اشتهر بمغازلة النساء بالرغم من تفاوت السن، ففاطمة كانت تكبر محمد بن إسحاق بما يقرب من أربعين عاماً، فلا يبعد أن يكون ابن إسحاق استمع من فاطمة أحاديث لم تخصه بها، وإنما تحدثت بها لغيره في حضوره، أو إليه قبل أن يشتهر بما تنفر منه سيدات المجتمع، فليس بمستحيل أن يسمع ابن إسحاق من فاطمة بنت المنذر زوج هشام بن عروة ابن الزبير : حديثاً، أو ينقل إليه عنها خبر، فبيت عروة يعد مدرسة تخرج فيها أعلام في رواية الحديث والأخبار، وابن إسحاق هو أنبغ تلاميذ الزهري، ويظهر عمق صلته بالزهري في كثرة ما يرويه عن الزهري ، وفي الأسئلة التي كان يوجهها ابن إسحاق للزهري: [سألت ابن شهاب الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلن، فقال لي : ما أسمع من علمائنا : أنزلن في النجاشي و أصحابه][1].

ويلاحظ (هورفتس) : أن ذكر الزبيريين يجري كثيراً بين شيوخ ابن إسحاق إلى جانب الزهري [ولا يدين ابن إسحاق بكثير من الأخبار ليزيد بن رومان مولى عروة بن الزبير بل لموالي بني الزبير الآخرين ، ولأقارب تلك الأسرة كذلك - مثل: (هشام) و(يحيى) ابني عروة و(عمر بن عبد الله بن أخي عروة) و(جعفر بن أخي عروة) و(يحيى ابن عباد بن عبد الله ابن أخي عروة)][2] - فصلة ابن إسحاق بتلاميذ عروة و موالي عروة و أسرة عروة - صلة عميقة كما يظهر - ثم إن هشام بن عروة لم ينكر على زوجه رواية الحديث و إنما استبعد أن يكون ابن إسحاق جلس إليها وسمع منها ، فهشام

(١) سيرة ابن هشام ، ص٣٩٢ .

(٢) المغازي الأول و مؤلفوها ، ص ٨٨ ، ٨٩ .

استبعد ذلك من زوجه لثقته بعزوفها على كل ما يسيء إلى سمعتها و يتخذه غيرها من سيدات المجتمع مثلا يقتدين به .

٥- ومن الغريب أن ينكر خصوم ابن إسحاق عليه : أخذه من اليهود والنصارى؛ فهل كان هو وحده الذي رجع إلى ما لدى أهل الكتاب من نصوص تاريخية؟ ثم ماذا في تسمية اليهود والنصارى في كتبه : أهل العلم الأول؟ أليسوا هم أهل التوراة والإنجيل الكتابيين الذين سبق الكلام عنهم؟ أولم يرجع الكثيرون من المفسرين في تفسير قصص بني إسرائيل إلى الأسفار و أحبار اليهود ؟

لا ريب في أن القصص الإسرائيلي أدخل على التاريخ العربي ما جعل الكثيرين في صدر الإسلام يعزفون عن الدراسات التاريخية. ولقد صرح بعض العلماء بأنها غير حميدة؛ ولعل ابن إسحاق كان في بداية أمره واحداً منهم ، فلقد تناقل المستشرقون خبراً لم أعثر على مصدره جاء فيه : [أن ابن إسحاق سأل أحد التلاميذ الذين يدرسون التاريخ مستهزئاً : من الذي كان يحمل لواء الجالوت؟][1]. ولقد استمر موقف الفقهاء من الدراسات التاريخية سلبياً ، ولقد استمرت تتفاقم كلما تفاقم خيال القصصيين وتفاقمت مبالغاتهم؛ فمما يروى عن (النووي) أنه قال : عن (عبدالبر) : [لقد أفسد كتابه بما ضمنه من أخبار المؤرخين)][2].

٦- على أن عزوف المتزمتين عن التاريخ لم يثن عزيمة الآخرين، ولقد اعتدل البعض فأخذ يعنى بالتاريخ ، ومن هؤلاء : ابن إسحاق نفسه.. ولعل انصراف ابن إسحاق إلى البحوث التاريخية أضاف إلى ماضيه اليافع وما حام حوله : ما زاد في موقف المتزمتين من ابن إسحاق : خصومة وتحدياً ، فناله أكثر مما نال (وهب بن منبه) في الوقت الذي نالت فيه دراسته التاريخية تقدير المشتغلين بعلم التاريخ والعاملين على

---

(١) الحضارة الإسلامية (لآدم متز)، تعريب محمد عبد الهادي أبي ريدة ٢٧٢/١ .

(٢) نقل (آدم متز) الخبر عن التقريب للنووي .

وضعه في مصاف العلوم التي تفخر بها الثقافة العربية والإسلامية . ومن بين الذين اعتدلت آراؤهم في ابن إسحاق الحافظ الذهبي الذي قال عن ابن إسحاق : [الإمام الحافظ المطلبي المدني مصنف المغازي. مولى قيس بن مخرمة بن المطلب. رأى أنس بن مالك و حدث عن أبيه ، وعمه (موسى) و (فاطمة بنت المنذر) و(القاسم) و (عطاء) و(الأعرج) و(محمد بن إبراهيم التيمي) و(عمرو بن شعيب) و(يافع) و(أبي جعفر الباقر) و(الزهري) وخلق كثير، وروى عنه خلق كثير، وكان أحد أوعية العلم حبراً في معرفة المغازي والسير، وليس بذاك المتقن فانحط حديثه عن رتبة الصحة وهو صدوق في نفسه مرضي. قال (يحيى بن معين): هو ثقة وليس بحجة ، وقال (أحمد بن حنبل): حسن الحديث ، وقال (علي بن المديني): حديثه عندي صحيح ، وقال (النسائي) : ليس بالقوي، وقال (الدارقطني) : لا يحتج به، وقال (شعبة) : هو أمير المؤمنين في الحديث ، وقال (يزيد بن هارون) : لو كان لي سلطان لأمرت ابن إسحاق على المحدثين. أما مالك فإنه نال منه بانزعاج. وذلك لأنه بلغه : أنه يقول : اعرضوا عليّ علم مالك فأنا بيطاره ، فغضب مالك فقال : انظروا إلى دجال الدجاجلة. وقد قال (ابن عيينة) : ما رأيت أحداً يتهم ابن إسحاق .. والذي تقرر عليه العمل : أن ابن إسحاق إليه المرجع في المغازي والأيام النبوية مع أنه يشذ بأشياء، وأنه ليس بحجة في الحلال والحرام ، ولا بالواهي، بل يستشهد به[1]].

ولقد حرصت على نقل آراء القدامى لنعرف معاً مدى اختلافهم في الحكم على ابن إسحاق، ولقد قلت من قبل : إن الذين أجمع الناقدون على الثناء عليهم أقل من القليل، وإن لأكثر الرواد خصوماً مجدين في إظهار مواطن الضعف فيهم، ولقد أنصف الذهبي في حكمه على ابن إسحاق : إن ابن إسحاق إليه المرجع في المغازي والأيام النبوية مع أنه يشذ بأشياء ، وليس هو بحجة في الحلال والحرام ولا هو بالواهي، بل يستشهد به .

(١) تذكرة الحفاظ ١٧٢/١ و ١٧٣ .

٧- والذين اختلفت آراؤهم في ابن إسحاق، أجمعت أقوالهم على أنه من أحفاد (يسار) الذي وجده (خالد بن الوليد) في كنيسة (عين تمر) مع الغلمة الذين كانوا رهناً في يد (كسرى) والذين كان منهم (عبد الله بن أبي إسحاق النحوي) فجيء بيسار إلى المدينة، حيث نشأ ابنه و تتلمذ على أساتذتها. وأجمعوا على أنه كان يرجع إلى غير المسلمين من اليهود والنصارى والفرس، فكان أول مدني رجع إلى غير المسلمين في جمع المعارف اليهودية والمسيحية والفارسية، وكان أول مدني عيب عليه ذلك، فابن عباس والرعيل الأول أخذوا. كما يقال. من الذين أسلموا من أهل الكتاب. أما ابن إسحاق فقد أخذ عمن أسلم وعمن لم يسلم، ويقول (هورفتس) : [ويبدو أن ابن إسحاق فيما عدا (وهباً) أول مؤلف عربي يعطينا فقرات من العهدين : القديم والجديد مترجمة ترجمة حرفية ، فيقدم فقرات منها بقوله : وفي التوراة. مرة، ومرة بقوله : ويزعم أهل التوراة ، ومرة بقوله : مما أثبت (يحنَّس الحواري)، و إذا جاء ابن إسحاق في الوقت نفسه بـ(المنَّحمنَّا) بدلا : من (البرقليطس) الإغريقية ، فإن ذلك يدل على أن الفقرات التي اطلع عليها مطابقة للترجمة المسماة بالفلسطينية المسيحية، وتكشف بعض قوائم النسب عن اتفاق شديد مع نص الكتاب المقدس، فتوافق قائمة أبناء إسماعيل سفر التكوين "٢٥ : ١٢ ـ ١٦" كلمة بكلمة][(١)] .

٨- أمّا تراث ابن إسحاق في البحوث الحديثة ، فأكثر الباحثين انصرفت عنايتهم إلى الدراسات التاريخية ، وأثر ابن إسحاق في تطوير التأليف التاريخي، وإننا نستعرض آراء المعاصرين في تراث ابن إسحاق كما استعرضنا آراء القدامى؛ لنتبين نتائج التحقيقات في الرائد الذي شغل القدامى كثيراً .

فلقد جاء في تعليق حسين مؤنس على (تاريخ التمدن الإسلامي) : [ويعتبر منهج الزهري الأساس الذي بنى عليه الجيل التالي من مؤرخي السيرة والمغازي، وأعظمهم

---

(١) **المغازي الأول و مؤلفوها** ، ص ٨٩ ، ٩٠ ، وراجع بحث الأسفار في هذا الجزء .

جميعاً : محمد بن إسحاق، وكتابه يعتبر تطوراً حاسماً في تدوين التاريخ عند العرب، فهو كتاب تاريخ بمعنى الكلمة، بدأ سيرة الرسول عليه السلام بمقدمة طويلة عن تواريخ الرسل قبله ، ثم تاريخ نسب الرسول، فتحدث عن بني إسماعيل، ثم عن قريش، ثم أجداد الرسول واحداً واحداً ، ثم أرخ للرسول.. وكتابه ينقسم إلى ثلاثة أقسام كبيرة، المبتدأ ، والبعث ، والمغازي - وقد ضاع أصل كتاب ابن إسحاق ، فلم نجد منه إلا أوراقاً عثر عليها (جروهان) في أوراق البردي المصرية ، ولكن كثيرين صاغوا كتابه صياغة جديدة ،وأهم هؤلاء (عبد الملك بن هشام) صاحب السيرة المعروفة ، وهي سيرة محرفة مبتسرة ومعدلة كما يقول هو نفسه في فاتحتها ، غير أننا نجد الكثير مما حذفه ابن هشام عند (الطبري) وعند (ابن سعد) وقد جمع رواياته كلها بما فيها ما أورده ابن هشام (ألفريد جيوم) و ترجهما إلى الإنكليزية في مجلد ضخم سنة ١٤٥٧م][1].

وقال (جواد علي) : [وقد أخذ ابن إسحاق أخبار ما قبل الإسلام التي وردت في السيرة من جماعة من الرواة الذين كانوا يعنون بهذا الأمر ، وبينهم قلة كانوا من أصل يهودي : مثل (وهب بن منبه) و (أبي مالك بن ثعلبة القرظي) و(محمد بن كعب القرظي)، كما أخذ من جماعة من أهل (نجران) والغالب : أنهم كانوا من النصارى في الأصل، وقد أخذ عن هؤلاء ما يخص أمر اليهود ، والنصرانية في اليمن، وتعذيب (ذي نواس) نصارى نجران][2].

وقال (عبد العزيز الدوري) : [وحين نأتي إلى (ابن إسحاق) نحس بخطوط جديدة في التطور ، ومن مظاهرها الواضحة ، وجود عنصر القصص الشعبي والاتجاه نحو المبالغة ، ونحس بأننا انتقلنا إلى علماء هم مؤرخون أولا ثم محدثون من الدرجة الثانية وابن إسحاق ذهب إلى أبعد من حدود المدينة سواء أكان ذلك في نظرته التاريخية أم في

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي ٣/١٠١ .

(٢) تاريخ العرب لجواد ١/٤٨ .

أسلوبه ! فقد جمع بين أساليب المحدثين والقصاص في كتاباته، واستفاد من مختلف نواحي الاهتمام بالمغازي و تواريخ الأنبياء، فجمع بين الحديث والرواية التاريخية الإسرائيلية والقصص الشعبي مع كثير من الشعر الصحيح والموضوع، ولذا فإن مصادر معلوماته تكون خليطاً يجب الانتباه إليه، ويظهر أثر التيارات السياسية الفكرية في التهمة الموجهة إلى ابن إسحاق في أنه ذو ميول شيعية، وهي تهمة لا تخلو من أساس، ويوصف بأنه قدري لا يؤمن بحرية الإرادة، وقد انتقدت سيرة ابن إسحاق في المدينة، ولكنها لقيت عناية في المشرق، ونسب إلى ابن إسحاق كتاب (تاريخ الخلفاء) ولم يصل لنا منه إلا مقتطفات مبعثرة، ويبدو أنه تناول تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين](١).

وقال (حسين نصار) : [أخيراً يظهر محمد بن إسحاق، فيؤلف كتاباً يغطي به على جميع هؤلاء المؤرخين المتقدمين .. ويقال : إن سبب تأليفه المغازي: أن (المنصور) أمره أن يؤلف كتاباً منذ خلق الله آدم إلى يومه، فصنف له كتابه، ثم اختصره بناء على رغبة المنصور، وإن الأصل المطول حفظ في خزانة المنصور، ولكن الأستاذ (فيك) يرى : أن ابن إسحاق لم يؤلف كتابه بأمر الخليفة، ولا في بغداد، ولا في الحيرة، وإنما في المدينة قبل إقامته لدى العباسيين. ويستدل على ذلك بأن رواته الذين أخذ عنهم جميعاً مدنيون ومصريون، ولا يذكر أحداً من العراقيين، كما نجد أن أحد تلامذته يروي الكتاب، وذلك هو (إبراهيم بن سعد](٢).

٩- أمَّا المستشرقون، فإننا نتبين اهتمامهم بابن إسحاق، مما قيل عن (ألفريد جيوم) الذي نقل إلى الإنجليزية كل ما ورد عن ابن إسحاق في سيرة ابن هشام وفي غيرها، وإننا نراهم مثل : المؤرخين العرب تحوم آراؤهم حول ابن إسحاق. ولقد سبق أن نقلنا ما جاء في كتاب (المغازي الأول و مؤلفوها) لهورفتس في حديثه الطويل، عن

---

(١) علم التاريخ عند العرب، ص٢٧ وما بعدها.

(٢) نشأة التدوين، ص ٦٣ و ما بعدها.

مصادر ابن إسحاق اليهودية والمسيحية، فنضيف هنا إلى ما تقدم : ما قاله عن مصادره المدونة : [ويأخذ ابن إسحاق : القوائم والرسائل والوثائق الأخرى التي يوردها بغير إسناد في غالب الأحيان، عن مدونات كان قد حصل عليها، وكان أستاذه (عبدالله ابن أبي بكر)[1] الذي كان عند أسرته نسخة من رسالة النبي عليه السلام لجده الأكبر، كما قد رأينا، قد جمع مجموعة من تلك الوثائق، ولا يروي تلميذه ابن إسحاق هذه الوثائق إلا عنه، وكذلك يعطينا قطعة أخرى من الوثائق من رواية أستاذه المصري (يزيد بن حبيب)][2]. أما عن كتابه و أين ألفه ؟ فيتفق (مارغوليوث) مع (فيك) على أن مغازي ابن إسحاق لم تؤلف في العراق. فهو يقول : [كانت ظروف جعلت ابن إسحاق يرحل من المدينة إلى الحيرة، وكان بها (المنصور) فأهداه مغازيه][3]. وقال (هورفتس) : - [ووفد ابن إسحاق إلى الإسكندرية في سنة ١١٥هـ، حيث سمع من (يزيد بن حبيب المتوفى سنة ١٢٨هـ) ولم يرحل منها إلى العراق كما يظن عامة الناس، و لكنه زار بلدته المدينة كما رجح (فيك)، وربما كان في إحدى هذه الزيارات؛ أبرزه (الزهري) للحاضرين، وربما كان ذلك سنة ١٢٣هـ، فقد كان يسمع منه و يسأله و يبعث له بالروايات التي أخذها عن يزيد بن حبيب؛ ليتثبت من صحتها]. ويستنتج يوسف هورفتس من رسالة و صلته من (كرنكو) : [أن مستدرك (الحاكم النيسابوري) الذي يطبع بحيدر أباد، يحتوي على الفصل الخاص بالمغازي على عدة مقتطفات من كتاب ابن إسحاق، استعار معظمها من نسخة (يونس بن بكير المتوفى سنة ١٩٩هـ) ومثله في ذلك (ابن الأثير) في كتابه (أسد الغابة) و (ابن حجر) في (الإصابة) .. ويبدو : أن آخر مقتطفات محفوظة من ابن إسحاق هي تلك التي عند (ابن حجر) ولكن سعة انتشار

---

(١) راجع ترجمة عبد الله بن حزم في هذا الجزء.

(٢) **المغازي الأول و مؤلفوها**، ص ٩٠ و ٩١.

(٣) **دراسات عن المؤرخين العرب**، ص ٩٨.

ملخص (ابن هشام) قللت الحاجة إلى الكتاب الأصلي منذ عهد بعيد][1]. وجاء في دائرة المعارف الإسلامية : [أما الكتاب الثالث وهو السيرة المشهورة التي ألفها محمد ابن إسحاق بن يسار المتوفى سنة ١٥١هـ - فقد كان ثمرة تفكير أبعد أفقاً وأوسع نطاقا من تفكير سابقيه ومعاصريه؛ لأنه نزع فيه إلى تاريخ النبوة بذاتها، وكان هذا الأسلوب المبتكر يشمل : أقساماً ثلاثة : (المبتدأ) وهو تاريخ العصر الجاهلي منذ الخليقة، وقد استمد أكثره من (وهب ابن منبه) ومن المصادر العبرية، ثم (المبعث) وهو تاريخ حياة النبي عليه السلام حتى السنة الأولى للهجرة ، ثم (المغازي) وتناول هذا التاريخ إلى وفاة النبي عليه السلام. وقد غدا هذا الكتاب المرجع الرئيس لتاريخ العصر الجاهلي والصدر الأول من الإسلام وذلك على الرغم من أنه كان هدفاً للنقد الصارم][2].

١٠- ليس هذا كل ما وجه إلى ابن إسحاق من نقد جارح ، وليس هذا كل ما أسبغ على ابن إسحاق من ثناء عاطر، وليست كل هذه الآراء التي صدرت عن البحث في تراث ابن إسحاق، فما ابن إسحاق إلا واحد من الرواد الذين نالهم كثير من التجريح وكثير من التقدير؛ فالجدير بالتنويه به هو : تراث ابن إسحاق، وتراث ابن إسحاق يعد امتداداً واسعاً لمجهود أستاذه الزهري ولا غرو ! فلقد كان ابن إسحاق تلميذاً ممتازاً حظي برعاية أستاذه و إعجابه، فما بدأ به الأستاذ الكبير (ابن شهاب) أتمه التلميذ النابه (ابن إسحاق) بمجهود شمل كل ما في استطاعة مؤهلات ذلك العصر أن تساعد به؛ متخطياً المرحلة التي بلغتها كفايات جيله إلى مراحل لم يصل إليها واحد من أبناء ذلك الجيل .

حقاً ! لم يكن ابن إسحاق هو : أول من فكر في تدوين التاريخ ، وليس هو أول من كتب السيرة والمغازي، فلقد سبقته محاولات تقدم الحديث عنها وعن بعض الذين

(١) المغازي الأول و مؤلفوها ، ص ٨٧ و ٨٨ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٤/ ٤٨٧ .

قاموا بها. ولكن المدوَّنات التي أعدها (ابن قتيبة) و (ابن النديم) و(حاجي خليفة) : مؤلفات في السيرة والمغازي، وقالوا عن أصحابها : إنهم من أصحاب السيرة والمغازي والأخبار، لا تزيد على مجموعات من الأحاديث والآثار في موضوعات خاصة مثل : مواقف الوثنيين من الإسلام، وهجرة الحبشة، و بيعة العقبة، والهجرة النبوية، والمغازي: بدر، وأحد، والخندق، والحديبية، وفتح مكة، وحنين .. وعن تفسير آيات معينة نزلت في (عاد) و (ثمو) و(بني إسرائيل)، وعن (البيت الحرام) ورفع قواعده وعن رحلتي الشتاء والصيف، وما فعل الله بأصحاب الفيل. ولا أراني في حاجة إلى أن أعود للبحث إلى ما سبق عن مدونات (عروة بن الزبير) و(أبان بن عثمان) و(الزهري) و(سليمان بن طرخان) وغيرهم، ممن تقدم الكلام عنهم، وإنما أنا في حاجة إلى أن أشير إلى (وهب بن منبه) الذي سبق (ابن إسحاق) في الحديث عن العصور الجاهلية؛ لألفت النظر إلى ما قيل عن ابن إسحاق وإنه مدين لوهب فيما تحدث به عن أخبار ما قبل الإسلام بقدر ما هو مدين لابن شهاب الزهري فيما تحدث به عن أخبار ما بعد الإسلام. وإن ابن إسحاق استفاد من تجارب الذين سبقوه في قفزته بالتدوين التاريخي إلى مرتبة التأليف المنسق في التاريخ العربي العام لافتاً النظر إلى هذه الحقائق.

١١- وألفت النظر أيضاً إلى أن الاعتقاد بصحة ما يقال عن ابن إسحاق وإنه كان يعمل له الأشعار و يسأل أن يدخلها في كتابه؛ يفرض علينا اعتبار ابن إسحاق أحد اثنين. إما أن يكون جاهلاً وإما متسرعًا لا يميز الغث من السمين، ونحن إذا ما عددناه كذلك، فلا حرج علينا بعد ذلك، إن عددنا أكثر ما وصل إلينا عن تراث ابن إسحاق إن لم يكن جميعه. جيء له به فأدخله في كتابه دون أن يميز الصحيح من السقيم، وأن نضرب عرض الحائط بأقوال الذين يؤكدون : أن ابن إسحاق كان يبعث بما وصل إليه في (مصر) إلى أستاذه الزهري ليتثبت من صحته.

أجل ! ليس واحد من الذين عنوا بمصادر التاريخ ينكر : وجود شعر موضوع، ولكن مما لابد من الاعتراف به : أن كل مناسبة تاريخية لم تخل من الشعر العربي سواء

حدثت تلك المناسبة في الجاهلية أو بعد الإسلام. وليس واحد من الذين عنوا بالشعر العربي ينكر: وجود شعر ممتاز وشعر تافه في كل عصر من عصور الشعر العربي، بل أكثر من ذلك: أن الشاعر الواحد يسف تارة ويسمو أخرى. فهذه دواوين فحول الشعراء تحوي كما يراها الناقدون الجيد والركيك. ولكن مما لابد من الاعتراف به أيضاً، أن الذين تاجروا بالشعر الموضوع كثيرون، وأن الذين ينحلون الشعراء المعروفين؛ لم يكونوا جميعهم بأقل شاعرية من فحول الشعراء في الجاهلية والإسلام. ولم يكونوا جميعهم في مستوى النوابغ من الشعراء في العصرين؛ ولذلك حامت الشكوك حول قصائد من أحسن الشعر العربي. كما حامت الشكوك حول الشعر الركيك، فمن الشعر الجاهلي والإسلامي الركيك والجيد. ومن الشعر المنحول: الجيد والركيك. وهذا ما جعل نقد الشعر و تمييز الأصيل من المنحول مشكلة المشكلات التي تفرغ لها علماء تخصصوا في نقد و تفنيد الأصيل من الموضوع.

فليس ببعيد أن يكون رواة الأخبار، أضافوا إلى الأخبار التي يروونها لابن إسحاق و غير ابن إسحاق شعراً موضوعاً لم يعن ابن إسحاق و ذلك الرعيل بالتحقيق فيه. كما لم يعن بذلك (وهب بن منبه) و(ابن شرية) وذلك الرعيل. فلقد درج على مثل ذلك رواة الأخبار من قبل (وهب بن منبه) و (عبيد بن شرية) ومن بعدهما.

أما ما قيل عن ابن إسحاق، وإنه ألف لولي عهد (المنصور). (المهدي) كتاباً في تاريخ البشر منذ خلق الله آدم إلى العصر الذي يعيش فيه ابن إسحاق، وإنه بعد أن ألف تاريخه طلب منه الخليفة: أن يختصر مؤلفه التاريخي العام، وإن الكتاب المطول احتفظ به (المنصور) في خزانته التي كانت قبراً لهذا المؤلف، وإن الكتاب المختصر هو الذي عرفه الناس، وأخذ منه المؤلفون؛ فهذا القول قد رفضه المحققون كما رأيت فيما تقدم.

١٢- فالذي يظهر من ترجيح هذا الخبر ورفضه: أن ابن إسحاق ألف تاريخه المطول قبل أن يتصل بالمنصور وفي فترة طويلة من حياته الأولى استهلكها تأليف تاريخ

عام ، وأنه عندما اتصل بالمنصور قدم له مؤلفه ، فطلب منه المنصور : أن يختزله بصورة تمكن المهدي من دراسته و استيعابه ، ولعل المنصور قصد بالاختزال التخلص مما قد يكون مناقضاً للسياسة العباسية ، إذا لا يخلو التاريخ العام مما هو ليس في مصلحة السياسة العباسية .

١٣- وفي غالب الظن : إن الأوراق التي عثر عليها (جروهان) هي من الكتاب المختصر. أما الكتاب الأول ، فالذي ترجحه الظنون أن المنصور تخلص منه بطريقة ما أو أنه ضاع مع ما ضاع من ذخائر العصر العباسي في غمار الأحداث الحمراء التي اجتاحت بغداد و حطمت الخلافة العباسية . وإذا صح أن ابن إسحاق ألف كتاباً موضوعه (الخلفاء) ، فقد يكون ابن إسحاق اختزله من تاريخه العام . إذا لم يكن جزءاً منه ، فلقد كان القدامى يقسمون الكتاب إلى فصول ويضيفون إلى عناوين الفصول كلمة (كتاب) أو (باب) فيقولون : كتاب المغازي ، أو باب الجهاد إلخ ، وأن هذا الجزء من مؤلف ابن إسحاق لم يُطّلِع عليه ابن إسحاق غير من يثق بهم خوفاً مما قد يغضب العباسيين ، مما قد يكون يتعارض مع سياستهم ، ولذلك حامت الشكوك حول نسبة هذا المؤلف لابن إسحاق ، وإذا صحت نسبة الروايات التي اشتملت عليها مؤلفات المؤرخين مثل : (ابن سعد) و(الطبري) وغيرهما ، والتي أسندت لابن إسحاق؛ ففي غالب الظن : أن بعضها من مختصر مؤلفه وبعضها مما كان يحتفظ به ابن إسحاق من مؤلفه العام ، أو مما احتفظ به تلاميذه .

وفي غالب الظن : أن (ابن هشام) ليس هو الذي عالج قصة (العباس) في مغازي ابن إسحاق ولطّف من حدة الأقوال التي تتحدث عن خروجه مع قريش لمحاربة المسلمين في بدر ، ووقوعه أسيراً في أيدي المسلمين. وإنما الذي فعل ذلك هو ابن إسحاق نفسه في الكتاب الذي اختصره للمهدي؛ فظروف ابن إسحاق أدعى لملاحظة مثل ذلك الخبر من ظروف ابن هشام الذي حرص على الاكتفاء بما في المؤلف المختصر.

ويقول (هورفتس) : [وليس من المحتمل : أن ابن إسحاق أدخل هذه الأقوال الملطفة للمرة الأولى بتأثير العباسيين؛ لأن تلميذه المدني (إبراهيم بن سعد) روى القول بأن العباس اعترف بالنبوة بعد أسره][1].

وفي غالب الظن : أن كتاب (الخلفاء) هو : امتداد لكتاب السيرة، فلايبعد أن يكون ابن إسحاق الذي حرص على أن يبدأ السيرة بتاريخ الرسل، قد حرص على أن يكتب بعد السيرة عن الخلفاء؛ فكل ما وصل من هذا الكتاب (الخلفاء) في تاريخ الطبري يدل على هذه الغاية . وإن كان ما وصل إلى الطبري و أثبته في تاريخه لا يكفي لإصدار حكم عام على هذا الكتاب واتجاهه و قيمته التاريخية .

١٤- و أخيراً : إذا كان اسم ابن إسحاق نافس ابن هشام في كتاب السيرة، فإن مما لا شك فيه : أن السيرة حملت اسم ابن هشام، وأن ابن هشام أبرز شخصية ابن إسحاق العلمية بمؤلفه السيرة النبوية؛ أكثر مما أبرزها (الواقدي) و(ابن سعد) و(الطبري) وغيرهم .

وإذا كان هناك من ينتقد ابن إسحاق راوياً للحديث، ويضعف روايته، فإن هناك من يكبر ابن إسحاق مؤرخاً ويقدر له جهده في تطوير علم التاريخ العربي .

---

(١) **المغازي الأول و مؤلفوها** ، ص ٨١ .

البحث العشرون :

أبو مخنف الأزدي

توفي سنة ١٥٧هـ

من موضوعات البحث :

١- أبو مخنف و مؤلفاته .

٢- منهج أبي مخنف و أسلوبه .

٣- أبو مخنف من الأوائل الذين ساروا في طريق التخصص في كتابة التاريخ.

أبو مخنف الأزدي

١ - قال (ابن قتيبة) عن أبي مخنف : [إنه لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم. كان صاحب أخبار و أنساب، والأخبار عليه أغلب، وجده : مخنف بن سليم قد صحب النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه][1].

وقد ذكر له (ابن النديم) ثلاثة وثلاثين مؤلفاً، وقال عنه : [قرأت بخط (أحمد بن الحارث الخزاز) قالت العلماء (أبو مخنف) بأمر العراق و أخبارها وفتوحاتها يزيد على غيره ، و(المدائني) بأمر خراسان والهند وفارس، و(الواقدي) بالحجاز والسيرة، وقد اشتركوا في فتوح الشام][2].

ويظهر من الكتب التي ذكرها (ابن النديم) : أن أبا مخنف عني بالأحداث الإسلامية من فجر الإسلام إلى تاريخ وفاته سنة ١٥٧هـ، ويظهر من أسماء هذه الكتب وموضوعات ما وصل منها : أن أكثرها موضوعي، فلا يبعد أن يكون أكثرها في حجمه و في بحثه أشبه ما يكون بالرسائل .

ويقول بعض الباحثين في تراث أبي مخنف : إن عناية أبي مخنف بأحداث العراق يرجع سببها إلى أنه عراقي كوفي؛ برّ القطر الذي عاش فيه بجهده، وإن تشيعه للعلويين سببه : أنه حفيد (مخنف)، فمخنف : صاحب علي ومن شيعته. فهو شيعي بالوراثة .

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية : [أن الحكم الإلهي يستمر في سلسلة الأئمة، وقد برهن الراوية الشيعي (أبو مخنف) على أثر هذا الشاغل الديني بتفرغه لكتابة تاريخ الحركات الروحية في الكون][3].

---

(١) المعارف ، ص ٥٣٧ .

(٢) الفهرست ١٣٦ و ١٣٧ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ٤/ ٤٩٠ .

وقد طعن في أبي مخنف كثيرون منهم : (أبو حاتم : سهل بن محمد المتوفى سنة ٢٥٥هـ، أحد رجال السند ، وواحد من كبار العلماء باللغة والشعر البصريين [١]. وقال عنه : [إنه متروك] ، وعندما تحدث عن أبي مخنف (بن سعد) قال عنه: [هو بيت الأزد بالكوفة][٢].

٢- ونحن عندما نفتش عن مصادر أبي مخنف ، ونتعرف على أسلوبه، نجد : الأزدية غالبة عليه، أو بمعنى أدق نجده متحزباً لها في المصادر وفي الآراء، ونجده قد استعمل الإسناد بشيء من التسامح.. ولعل هذا هو السبب الذي جعل (أبا حاتم) وغيره يطعنون في روايته، ونجده يفضل الروايات العائلية و يعتمد عليها، فكان أكثر اعتماده على روايات قبيلته (الأزد)، وأكثر ما يرويه عن غير قبيلته. وعندما يتحدث عن قبائل : (تميم) و(همدان) و(طيئ) و(كندة) وغير هذه القبائل ـ يروي عن (الشعبي)، والشعبي كما مر بنا متعصب للعلويين سار أخيرًا في ركاب الأمويين .

وسواء كانت الأوضاع السياسية و الحركة الفكرية التي زاد نشاطها في العراق ـ هي: التي شغلت أبا مخنف فلم يهتم بالتاريخ الجاهلي ؛ اهتمامه بالتاريخ الإسلامي، ولم يعن بغير العراق من البلاد العربية عنايته بالعراق معقل الخلافة العباسية ، أم كانت الأزدية التي تمركزت في العراق، والتي أمدته بمعلومات عن الحركات السياسية التي اشترك فيها الأزديون هي السبب الذي جعل أبا مخنف يختص بتاريخ العراق وفتوحاته؛ فإن أبا مخنف بدأ السير في طريق التأليف في التاريخ القطري الذي سار فيه الذين قصروا نشاطهم على الكتابة في تاريخ أقطارهم و مدنهم التي ينتمون إليها أو عن حوادث خاصة. ولعل هذا سبب من الأسباب التي جعلت البعض ينسب إلى أبي مخنف مؤلفات أثبت التحقيق : أنها ليست له . فلقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية :

---

(١) **الفهرست** ، ص ٨٧ .

(٢) **دائرة المعارف الإسلامية** ٣٩٩/١ .

[أبو مخنف من أقدم مؤرخي العرب ومحدثيهم، صنف اثنين وثلاثين رسالة في التاريخ عن حوادث مختلفة وقعت إبان القرن الهجري الأول، وقد حفظ لنا (الطبري) في تاريخه معظمها. أما المصنفات التي وصلت إلينا منسوبة إليه، فهي من وضع المتأخرين][1].

على أن ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية عن المصنفات التي يظن مؤلفو دائرة المعارف: أنها من وضع المتأخرين فإن الأخذ بهذا الظن، أو رفضه يتوقف على الاطلاع على هذه المصنفات، ويحتاج إلى تحقيق يوضح أسلوبها ومناهجها. أما قبل ذلك فكل ما يمكن أن يقال في هذه الترجمة المختصرة، لا يتجاوز الحقيقة التي ظهرت أمام الباحثين والتي كشفت الستار عن بعض المؤلفين المتقدمين الذين وضعوا مؤلفات ونسبوها إلى آخرين لأسباب ومناسبات معينة، وأزالت الغموض عن العناوين العامة التي اتخذها عدد من المؤلفين أسماء لمؤلفاتهم مثل: (المسالك و الممالك)، وعن الأسماء والنعوت التي عرف بها أكثر من مؤلف واحد مثل: (أبان بن عثمان).

٣- فأبو مخنف. كما رأينا. ليست له مميزات كالتي رأيناها في ابن إسحاق .. وإنما بداية التخصص في كتابة التاريخ التي بدأها أبو مخنف والواقدي والمدائني هي التي جعلتنا نلفت النظر إليه، وهذه البداية كأكثر مناهج القدامى حدثت. كما يبدو. عفواً و ببواعث غير فكرة التخصص.

ولقد قال عن أبي مخنف (مارغوليوث): [ويعالج كل كتاب من كتب أبي مخنف جميعها حادثاً واحداً، فهي رسائل عن مواقع أو وفيات المشهورين، أو أحداث كان لها أهميتها في التاريخ القديم. وقد قال عنه أحد المتزمتين: هو كوفي وليس حديثه بشيء][2].

---

(١) دائرة المعارف ٣٩٩/١.

(٢) دراسات عن المؤرخين العرب، ص ٩٧.

البحث الحادي والعشرون :

أبوالمنذر : هشام بن محمد بن السائب الكلبي

توفي سنة ٢٠٦هـ

من موضوعات البحث :

١- هشام الكلبي ليس بثقة بين رجال الحديث .

٢- عدد المؤلفات التي ألفها هشام الكلبي .

٣- هشام الكلبي المؤرخ لا المحدث .

٤- دفاع المستشرقين عن هشام الكلبي .

٥- دوافع تحامل المحافظين على هشام الكلبي .

٦- مصير مؤلفاته .

أبو المنذر : هشام بن محمد بن السائب الكلبي

١- هشام الكلبي : عند الذهبي من المتروكين، ليس بثقة؛ فلذلك لم يدخله بين حفاظ الحديث وقال عنه : [هو : أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكوفي الرافضي النسابة. حدث عنه : (ابن الأشعث)، و(خليفة بن خياط)، و(محمد بن أبي السري)، و(محمد بن سعد). يروى عنه أن حفظ القرآن في ثلاثة أيام، وقلما يروي من المسند. كان إخبارياً علامة توفي سنة ٢٠٦هـ][١].

أجل ! إن هشاماً إخباري علامة. شغل بالتاريخ، فكان مرجع المؤرخين، وهدف المحققين، ونبغ في عالم التأليف، فكان من ألمع عباقرة المؤلفين، ومن أعمقهم معرفة، ومن أبعدهم تقصياً، ومن أكثرهم تأليفاً في النسب وفي التاريخ القديم وأيام العرب، وفي تاريخ الإسلام ورجالاته و فتوحاته، وفي تاريخ الشعر ونوابغه، وفي علم البلدان وعجائب البحار، وفي أصنام الجاهلية ومسوح بني إسرائيل. إلى غير ذلك مما جعله في نظر الباحثين : دائرة معارف، فمجموع ما ألفه هشام الكلبي على ما جاء في (الفهرست). يقارب مئة وأربعة وعشرين مؤلفاً[٢] : عالج فيها موضوعات شائكة، وطرق مسالك مجهولة .

٢- أما في غير (الفهرست)، فقد بلغت مؤلفات هشام الكلبي مئة وخمسين مؤلفاً. ومئة وخمسون مؤلفاً في موضوعات ذات قيمة : أمر ليس بالسهل وحقيقة فرضت على كل باحث الإعجاب بابن الكلبي. ولقد حاول البعض التقليل من شأن مؤلفاته؛ لأن من بعض ما وصل إلينا من مؤلفات هشام الكلبي لا يعدو أن يكون رسالة موجزة شبيهة

---

(١) تذكرة الحفاظ ٣٤٣/١ .

(٢) الفهرست ١٣٩ .

بفصل من كتاب، ولكن المؤلفات لا تقاس بحجمها وإنما تقدر بما فيها من علم؛ على أن مؤلفات ابن الكلبي ليست جميعها رسائل مثل كتاب (الأصنام)، فمنها : كتاب (النسب الكبير)، وكتاب (البلدان الكبير) .

٣- وحاول البعض الحط من مكانته العلمية؛ لأن نقاد رجال الحديث يضعفون روايته ، ورواية أبيه محمد الكلبي، ولكن هشاماً وأباه لم يكونا الوحيدين اللذين تعرضا لنقد النقاد ، فما أكثر الذين اتهمهم النقاد بضعف الرواية . على أننا نتحدث هنا عن هشام الكلبي المؤرخ، وهشام الكلبي المؤرخ شغل كل فراغه بالبحث والتأليف، فملأ فراغاً كبيراً في الثقافة التاريخية ، ورجع إلى مصادر لها قيمتها في الكتابة عن التاريخ القديم، وتلقى معارفه من الذين سبقوه إلى البحث عن حقائق الماضي وقضاياه .. فهو يقول عن مصادره : إني كنت أستخرج أخبار العرب و أنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى ، وتاريخ سنيهم من بيع (الحيرة) وفيها ملكهم و أمورهم كلها[1]. وهشام الكلبي الذي استخرج من (بيع الحيرة) النصوص التاريخية هو: ابن الكلبي الذي قال عنه (جواد علي): [إن أهل الحيرة وقفوا على مؤلفات فارسية وضعت في التاريخ، ترجم بعضها قبل الإسلام ، وترجم بعضها بعد الإسلام ، وإن كثيراً من المؤرخين رجعوا إلى تلك المؤلفات. منهم : ابن الكلبي ، ولذلك قال (كولدتزهير) : ولم يعدم هشام أساتذة سبقوه للبحث والتنقيب عن النصوص. مثل أبيه (محمد بن السائب)؛ (عوانة بن الحكم) و(أبو صالح) و(أبو مخنف) وغيرهم من الرعيل المتقدم؛ فهو في تاريخ الأنبياء يأخذ عن ابن صالح و عن أهل الكتاب، وفي تاريخ فارس يأخذ من المترجمات الفارسية، وفي الأنساب يأخذ عن أبيه وغير أبيه، وفي التاريخ الإسلامي يأخذ عن عوانة و أبي مخنف و غيرهما ، ولم يفته القصص الشعبي وما كانت العرب ترويه عن أيامها وأشعارها] .

(١) الطبري ١/٤٥١ .

وقال عنه اعتماداً على آراء المؤرخين والمستشرقين : [ولأبي منذر هشام بن محمد السائب الكلبي فضل كبير على الدراسات الأثرية عند المسلمين برجوعه إلى الأصول، واعتماده على المراجع التاريخية متبعاً طريقة تختلف عن سبيل أهل اللغة، وطريقة اللغويين في البحث ، وهو بطريقته هذه قريب من طريقة المؤرخين في تدوين التاريخ] .

٤- ورد على الذين قالوا عن هشام الكلبي : إن بعض أسانيده سلسلة من الكذب بما قاله (بروكلمان) : [إن التهم التي وجهت لابن الكلبي لم تكن جميعها صحيحة ، وإن البحوث التي قام بها المستشرقون دلتهم على أن الحق كان في جانبه في كثير من المواضع التي اتهم فيها][1].

وجاء في "دائرة المعارف الإسلامية" عن هشام ابن الكلبي : [ولقد كان عمل هشام ابن محمد الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤هـ ، شبيهاً بعمل (أبي عبيدة) في اتجاهه و مناحيه؛ إذ نظم المجموعات التي عني والده بحشدها و قام بتوسيع نطاقها كما نظم مجموعات (عوانة) و (أبي مخنف). وتتناول بحوثه في الأغلب الغرض الذي ترمي إليه بحوث (أبي عبيدة) غير أن مرجع الفضل إليه في عنايته بتدوين الأخبار التاريخية الخاصة بمدينة الحيرة وأسرتها المالكة؛ مستنداً إلى المصادر والوثائق المكتوبة، وقد خطا هذا العمل والقول باستناده إلى الوثائق المحفوظة في كنائس الحيرة، والأسانيد الفارسية التي ترجمت له، خطوات واسعة نحو التأليف التاريخي القائم على أساس العلم .. ومع أنه لم ينته إلينا من ذلك المصنف سوى مقتبسات محدودة العدد ، فقد أثبتت التحقيقات الحديثة صحة روايته في مجموعه. ويقال عن هشام : إنه نهج هذا في مصنفاته الأخرى باعتماده على الكتابات والمواد المكتوبة التي كانت تحت يده ، ولكنه لم يكن مع ذلك بمنجاة من المطاعن العنيفة التي كالها له العلماء المحافظون على التقاليد متهمين إياه بالتزوير وكذب الرواية][2] .

---

(١) تاريخ العرب لجواد علي ٤١/١ ، ٤٧ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٤٨٥/٤ ، ٤٨٦ .

٥- ولا عجب إن كال المحافظون التهم لهشام ، فلقد تجسدت في مؤلفاته مناهج (أبيه ـ محمد بن السائب) و(أبي مخنف) وأغراض (أبي عبيدة)، وتجسدت معها التهم والمطاعن التي وجهت لهؤلاء، وليس من حق المحققين المتأخرين : أن يطالبوا هشاماً وغير هشام بمناقشة الأخبار التي يروونها بمنطق العصر الحاضر وأسلوبه، فالأخبار التي أسرع القدامى إلى تصديقها لا تخرج عن نطاق المألوف في عصرهم؛ مثل الأخبار التي نسمعها اليوم ونصدق بما فيها بدون نقاش؛ لأنها لم تخرج عن المألوف في عصرنا.

ثم إننا اليوم نرى : أن الكثير من الأخبار التي كان للرواد الأوائل فضل جمعها والتي ما زالت موضع الشك والتهم، قد أخذت معاول الأثريين تزيل عنها ركام الشكوك والتهم، وأخذ المحققون يرجعون عن سخريتهم منها إلى العناية بها .

٦- ومن المؤسف : أن أكثر مصنفات هشام ضاعت مع ما ضاع من تراث الأوائل، فقد جاء في الأعلام : [لهشام ابن الكلبي نيف ومئة وخمسون كتاباً، منها : (جمهرة الأنساب) و (بيوتات قريش) و (الكنى) و(المثالب) و(افتراق العرب) و(الموءودات) و(ألقاب قريش) و(ألقاب اليمن) و(ملوك الطوائف) و(ملوك كندة) و(بيوتات اليمن) و(ما كانت الجاهلية تفعله و يوافق حكم الإسلام) و(الديباج) في أخبار الشعراء و(تاريخ أجناد الخلفاء) و(صفات الخلفاء) و(تسمية من بالحجاز من أحياء العرب) و(الأقاليم) و(أخبار بكر و تغلب) - و(الأصنام) و(نسب الخيل) مطبوعة[1]- وهذه المؤلفات المخطوطة التي تحدث عنها الزركلي ليست في متناول عامة الباحثين ، وليس من السهل الوصول إليها.

وهشام بن محمد بن السائب الكلبي، وإن توفي سنة ٢٠٦هـ كما جاء في التذكرة أو في ٢٠٤هـ كما جاء في دائرة المعارف الإسلامية، يعد من رجال القرن الثاني من الهجرة، وبه نختتم بحث أوائل رواد التفسير والسير والأنساب في القرنين الأول والثاني من الهجرة .

---

(١) الأعلام للزركلي ٨٧/٩ .

الفصل الحادي عشر

نقاد الشعر الجاهلي ورواة أيام العرب

١- رواة الشعر وموازين النقد .

٢- أبو عمرو بن العلاء .

٣- حماد الراوية.

٤- المفضل الضبي .

٥- خلف الأحمر .

٦- أبو عبيدة معمر بن المثنى .

البحث الأول :

رُواة الشّعْر ومَوازينُ النقد

من موضوعات البحث :

١- لم يهمل رواة الحديث الشعر ؛ مثلما لم يهمل رواة الشعر الحديث .

٢- ليس الذين تحدثنا عنهم من رواد التفسير والمغازي والسيرة هم وحدهم الذين ملأوا الميدان؛ مثلما لم يكن نقاد الشعر ورواة الأيام الذين ستأتي تراجمهم هم وحدهم الذين ملأوا الميدان .

٣- تراث القدامى وفضله على المؤرخين .

٤- متاعب جامعي الشعر والأيام واللغة ليست بأقل من متاعب جامعي الحديث .

٥- لم تسلم رواية الشعر من الشكوك .

٦- مصادر الشعر والأيام .

٧- الأعراب يشاركون الأعلام في رواية الشعر والحديث عن اللغة وأيام العرب.

٨- مناهج رواد الشعر واللغة وأيام العرب .

٩- التنافس بين مدرستي الكوفة والبصرة أفاد الدراسات الأدبية والتاريخية .

١٠- موازين النقد في الماضي والحاضر .

١١- الكلمات الإسلامية والكلمات الجاهلية .

١٢- قِدَمُ الشعر وتاريخ القصيدة .

١٣- نقد الشعر الجاهلي ليس من مستحدثات دراسات العصر الحاضر .

١٤- تبرئة البحث من التعصب لصحة نسب الشعر الجاهلي جيمعه .

١٥- النتيجة التي وصل إليها البحث .

رواة الشعر – وموازين النقد الحديث

١- من الخطأ : الاعتقاد بأن رواد التفسير والمغازي أهملوا الشعر وروايته؛ فأولئك الرواد لم يهملوا الشعر وروايته ، ولم تتحجر أحاسيسهم فلا يؤثر فيها سحر البيان وحكمة الشعر، ولكن حماسهم انصرف لتفسير ما جاء في القرآن من أنباء الأقدمين، وإلى تصحيح سند الأحاديث وجمعها وتبويبها حسب موضوعاتها : تشريعاً وإخباراً ومغازي، وإلى آثار الصحابة والتابعين وما فيها من أحكام اتخذت أصولا للعبادات والمعاملات، وأنباء اتخذت نصوصاً في تدوين السيرة والمغازي .

فقد نقل لنا (ابن قتيبة) في معارفه قول (شعبة بن الحجاج) : [والله لأنا في الشعر أسلم مني في الحديث][1] . وجاء في الأغاني : أن (سعيد بن المسيب) أخذ يستمع لشعر (عمر بن أبي ربيعة) وشعر (عبدالله بن قيس) ليحكم؛ أيهما أشعر من الآخر! ! وأن ذلك كان في مسجد الرسول عليه السلام . وأن (نوفلا) أجاب (مسلماً) : أن سعيد بن المسيب كثير الإنشاد والاستنشاد للشعر في المسجد النبوي[2] . وجاء في الطبقات : سمعت (مطرفاً) يقول : خرجت مع (عمران بن حصين) من الكوفة إلى البصرة : فما أتى علينا يوم إلا وينشدنا فيه شعراً - ويقول : إن لكم في المعاريض[3] لمندوحة عن الكذب[4].

وكيف يهمل هؤلاء : العشر العربي ، وعبدالله بن عباس يقول عنه[5] : إذا سألتم عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب! ! وكذلك

---

(١) المعارف ، ص ٥٠١ ، والطبقات ٧ / ٢٨٠.

(٢) الأغاني ١/١١٧ ، ١١٨.

(٣) المعاريض : جمع عروض الشعر ، لسان العرب.

(٤) الطبقات ٤ / ٢٨٧.

(٥) المزهر ٢/٣٠٢.

يخطئ من يظن : أن نقاد الشعر الجاهلي ورواة أيام العرب ، مثل : (ابن العلاء) و(حماد) و (المفضل) و (خلف) و (أبوعبيدة) وغيرهم، قد أهملوا تفسير القرآن والبحث في أنبائه، ولم يشتغلوا بالحديث والآثار ويوضحوا أحكامها والمناسبات التي وردت فيها. ولكن هؤلاء انصرف حماسهم إلى شعر الشعراء، وأخبار العرب في الجاهلية والإسلام، وفي تحقيق لغاتهم، ووصف حياتهم، وإيضاح ما غمض من أيامهم، وبواعث الصراع الذي احتدم بين القبائل العربية قبل الإسلام وبعده .

٢- ومثلما كان لتراث أولئك الرواد فضل كبير على دراسات التاريخ السياسي والإداري؛ كان لتراث هؤلاء النقاد فضل على دراسات التاريخ الأدبي والاجتماعي، وكما لم يكن أولئك الرواد الذين تحدثنا عنهم هم : وحدهم الذين ملأوا الميدان العلمي، بل كان معهم الكثيرون الذين جندوا كفاياتهم لتلك المهمة الصعبة، ممن نجد تراجمهم في طبقات ابن سعد ، ومعارف ابن قتيبة، وفي الإصابة، وأسد الغابة وغيرها من كتب تراجم رجال التفسير والسيرة والمغازي والأنساب. مثل : (أبي معشر : نجيح بن عبدالرحمن السندي المتوفى سنة ١٧٠هـ) مؤلف كتاب (المغازي) الذي نقل عنه (الواقدي) و (ابن سعد)، ومثل (سيف بن عمر الأسدي المتوفى سنة ١٨٠هـ) الذي يمثل الاتجاه المعاكس لمعاصره (أبي مخنف)، ومثل (زياد بن عبدالله البكائي المتوفى سنة ١٨٣هـ) الذي يتصل نسبه بالبكاء بن عمر بن صعصعة الذي روى السيرة عن (ابن إسحاق) وعنه رواها (ابن هشام) والذي أخذ عنه (سلمة بن الفضل) وعن سلمة روى الطبري. ومثل (إسحاق بن بشر المتوفى سنة ٢٠٨هـ) وغيرهم من رجال التفسير والحديث والسيرة والتاريخ .

وكذلك لم يكن هؤلاء الذين سوف نذكرهم. هم : وحدهم الذين ملأوا هذا الميدان، بل كان معهم كثيرون من الذين ملأت أسماؤهم ورواياتهم كتب الأدب وتاريخه، ومن الذين ألفوا في اللغة والشعر وتحدثوا عن فحول الشعراء مثل: (الكميت ابن زيد المتوفى سنة ١٢٠هـ)، و(ابن الأعرابي المتوفى سنة ١٣١هـ) و (عيسى بن عمر المتوفى

سنة ١٤٩هـ)، و(مسعر بن كدام المتوفى سنة ١٥٢هـ) و(شعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠هـ)، و(يونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٢هـ) و(النضر بن شميل المتوفى سنة ٢٠٣هـ)، و(أبي عمرو الشيباني المتوفى سنة ٢٠٦هـ) و(ابن كناسة الكوفي المتوفى سنة ٢٠٧هـ) و(محمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة ٢٤٢هـ)، وغيرهم، ممن أفادوا التاريخ، وأدوا له خدمات لها قيمتها .

٣- ومثلما كان تراث أولئك الرواد المصدر الذي اعتمد عليه (الدينوري) و(اليعقوبي) و(المسعودي) و (الطبري) و (ابن كثير) و (ابن الأثير) وغيرهم في التفسير والتاريخ، كذلك كان تراث هؤلاء النقاد المصدر الذي اعتمد عليه (ابن قتيبة) في كتابه الشعر والشعراء، و(الجاحظ) في مؤلفاته، و(الأصفهاني) في أغانيه، و(القلقشندي) في أدب الكاتب، و(النويري) في نهاية الأرب، و (ابن عبد ربه) في العقد الفريد، و(السيوطي) في المزهر، و(ابن منظور) في لسان العرب، و(ياقوت الحموي) في مؤلفه معجم الأدباء، إلى غيرهم من المصنفين الذين ألفوا موسوعات أصبحت مصادر تاريخنا الأدبي واللغوي والاجتماعي.

٤- ومثلما تكبَّد أولئك البناة المتاعب في جمع المغازي والسيرة وتفنيد الحديث الصحيح والأثر الثابت من الحديث الضعيف والأثر الموضوع. وفي تفسير ما جاء في القرآن الكريم من كلمات غريبة وأنباء غامضة، كذلك تجرع هؤلاء الرواد: الأمرَّين في جمع الشعر الجاهلي وأيام العرب وتمييز الشعر المنحول والخبر الزيف من الشعر الأصيل والخبر اليقين؛ فلقد قال (السيوطي) في كتابه (الأشباه والنظائر) : [هذا علم شريف حاكيت به علم الحديث والتفسير، وقصدت أن أسلك بالعربية سبيل الفقه فيما صنفه المتأخرون] .

٥- وكما أنَّ من رواة الحديث وجامعي السيرة : من هو مشكوك في روايته، ومن هو ثقة في روايته، كذلك في رواة الشعر الجاهلي وأيام العرب من هو مشكوك في روايته ،ومن هو ثقة في روايته .. وكما تعب المحدثون في جمع الحديث، فشدوا الرحال لسماع

الحديث من بقايا الصحابة وكبار التابعين، كذلك تعب نقاد الشعر واللغة، فساروا يجمعون الشعر ومفردات اللغة في صحارى الجزيرة وجبالها، ووقفوا على أبواب الحواضر يستقبلون أبناء البادية القادمين من أحيائهم ويسألونهم عما يحفظونه وراثة عن آبائهم وأجدادهم من أشعار الجاهليين ولغاتهم وأخبارهم. وعما لعلهم سمعوه من المخضرمين الذين امتد بهم العمر إلى ظهور الإسلام، أو سمعوا من شعراء صدر الإسلام أو شهدوا المناسبات التي نظم فيها الشعراء الإسلاميون المعروفون.

فعلى مثل ما جمعت المغازي والسيرة وأنباء قدامى الأمم، تجمعت هذه الثروة الأدبية في الوقت الذي كانت فيه الإمكانات والوسائل من أصعب الصعاب. فلقد كانت الصحيفة الواحدة عند قدامى الرواد شيئاً عظيماً، فكان الواحد منهم يجمع فيها : حديثاً نبوياً، ومسألة فقهية، وأخرى لغوية وأبياتاً من الشعر؛ تكبد في سبيل التثبت من صحة الحديث والاقتناع بالمسألة الفقهية أو اللغوية والتحقق من القطعة الشعرية : مشاق السفر الطويل، والوقوف على أبواب المهاجرين والأنصار، والتجوال بين أحياء العرب في قفار الجزيرة، والوقوف على أبواب البصرة، والكوفة؛ للتعرف إلى أبناء البادية الأمناء فيما يروونه من أشعار وأخبار.

فإلى هذه الثروة رجع الذين ألفوا في التاريخ : السياسي، والاجتماعي، والأدبي؛ معتمدين على أسانيد الأخبار التي يتصل بعضها بأعلام الرواد، وينقطع بعضها عند من يثق به المؤلف. وفي هذا الجزء بحث خاص بالموسوعات التاريخية ومؤلفيها مثل : موسوعات الطبري، وابن كثير، وابن خلدون، وغيرها من الموسوعات التي أصبحت مراجع للتاريخ العربي.

٦- أما هنا، فإننا ننقل شيئاً مما قيل عن مصادر رواد الشعر واللغة وأيام العرب، ومن أين لهم ما رووه؟ وعن اتجاهاتهم وفي أي طريق ساروا بمعارفهم؟ فيما سنعرضه من تراجم أوائل رواد الشعر الجاهلي وأيام العرب ولغتهم. ونذكر شيئاً مما قيل؛ لأن الاستيعاب لا يتحمله هذا البحث، ولا تتحمله التراجم المختصرة؛ فما أكثر المصادر في

عصر : (أبي عمرو بن العلاء)، و(حماد الراوية)، و(خلف الأحمر)، و(المفضل الضبي)، و(أبي عبيدة)، و(الأصمعي)؛ فهناك ذخائر الحيرة، إن فيها الكثير من آثار شعراء الدولة اللخمية وأخبار ملوكها المناذرة، وهناك الأسواق العربية، لا سيما سوق البصرة. (مربدها) الذي كان في عصر الأصمعي : عكاظ العرب في الإسلام. فلقد شعر سكان البادية بإقبال الباحثين عن أنساب العرب وأشعارهم ولغاتها وأيامها، فقصدوا البصرة من كل فج، وعلى كل ضامر حاملين معهم ما احتفظت به البادية من أشعارها، وما حفظه أبناؤها من أخبار وأنساب، وحافظوا عليه من مفردات لغتهم التي لم تشبها لكنة الأعاجم، أو تحرف معناها مصطلحات الحضارة.

٧- ولقد استلفت نظر بعض أذكياء الأعراب ذلك الإقبال، وشعروا بقيمة المعلومات التي يسألهم عنها أساتذة البصرة والكوفة، فطفقوا يزاحمونهم بتدوينها؛ فمن الأعراب الذين برزوا في هذا المجال : (رؤبة بن العجاج) و(أبو مسحل) مؤلف كتابي: (النوادر والغريب) و(أبو المطرحي) مؤلف كتاب (النوادر) و(أبو دعامة العبسي - على بن مرثد) مؤلف كتاب (الشعر والشعراء) و(أبو العميثل) مؤلف كتب : (التشابه، الأبيات السائرة، معاني الشعر)[1].

٨- ولقد اختلفت وجهة رواد الشعر والأيام واللغة في تلك المصادر، فبعضهم حصر جهده في المصادر العربية مثل : الأصمعي. وبعضهم أخذ من العرب ومن غير العرب. مثل : أبي عبيدة، ولقد اختلفت ميولهم فبعضهم كان عربياً مغالياً في عروبته، وبعضهم كان شعوبياً مغالياً في شعوبيته، وبعضهم كان معتدلاً في موقفه من النصوص، فيحترم النص الصحيح المفيد بغض النظر عن مصدره سواء أكان عربياً أم أعجمياً.

٩- وزاد في حماس الدراسات الأدبية والتاريخية، ما كان بين مدرسة الكوفة، وفي مقدمة فريقها حماد الراوية، وبين مدرسة البصرة، وعلى رأس فريقها أبو عمرو بن

---

(١) **الفهرست**، ص ٦٦ وما بعدها.

العلاء من تنافس بلغ أشده؛ على الرغم من الاحترام المتبادل بين حماد وأبي عمرو بن العلاء، فلقد كان الرجلان يحترم كل منهما الآخر ويقدر معارفه. فمما نقله لنا (أبو الفرج الأصفهاني) عن (أبي عمرو الشيباني) أنه قال : (لم أسأل أبا عمرو بن العلاء عن حماد إلا وقدمه على نفسه، وكذلك لم أسأل حماداً عن أبي عمرو إلا وقدمه على نفسه)[1].

ولقد كان ذلك التنافس - على ما فيه من خشونة انقلب في بعض المواقف إلى خصومة لا حدود لها - مفيداً، فقد كان أساتذة المدرستين ينقدون ويمحصون فيعترضون على ما هو خليق بالاعتراض ويعترفون بما هو جدير بالاعتراف. وقد كان الكوفيون معتزين بما حصلوا عليه من مدونات، فكثيراً ما نقدوا أقوال البصريين، وكثيراً ما شككوا في روايتهم. وكان البصريون معتزين بمريدهم فقابلوا الكوفيين بالنقد والتصحيح، وأخذوا عليهم التزيد، وشككوا في روايتهم، وإخال : (أبا الفتح - عثمان - المعروف بابن جني) أحد القلائل الذين درسوا تاريخ هؤلاء الرواد دراسة عميقة منصفة فنفى في كتابه (الخصائص) كثيراً من التهم التي وجهها كل فريق للآخر .

ومن الذي أثبتته التحقيقات : أن التنافس بين الكوفيين والبصريين الذي وصل في كثير من الحالات إلى درجة الخصومة العنيفة - كان في حقيقته تنافساً علمياً، فلذلك لم يقف سداً بين أعلام المدرستين وبين طلاب المعرفة من تلامذتهما، فقد أخذ كثير من البصريين عن حماد الراوية الكوفي - كما أخذ كثير من الكوفيين عن أبي عمرو بن العلاء البصري .

١٠- ولقد كان وما زال إنتاج ذلك الجهد الجبار : موضع البحث والتحقيق في الماضي والحاضر . ومن أبرز القدامى الذين نقدوا الشعر الجاهلي وأكثروا من الشكوك: (محمد بن سلام الجمحي)، ومن أبرز المعاصرين الذين نقدوه مبالغين في الشك : (طه حسين) .

---

(١) الأغاني ٦ / ٧١ طبع بيروت سنة ١٩٥٦م .

ولئن كان نقد (الجمحي) نموذجاً لمقاييس ومنطق القرن الثالث الهجري، ولئن كان نقد (طه حسين) نموذجاً لشكوك القرن الرابع عشر من الهجرة؛ فإن النقطة الرئيسة التي انبثقت منها الشكوك في الماضي والحاضر هي : التفاوت الملاحظ على الشعر الجاهلي : التفاوت في الجودة، فمنه المتألق، ومنه القاتم، والتفاوت في الأسلوب والمعاني والألفاظ، فمنه الغارق في الجاهلية لغة ومعنى وأسلوباً ومنه : شعر شعراء الحواضر العربية مثل : عدي بن زيد، وامرئ القيس.

وهذه النقطة في رأي بعض النقاد لا تكفي وحدها لفرض الشك على كل شعر جاهلي قاتم ضعيف، وعلى كل شعر جاهلي سلس اللغة مهذب الأسلوب، واضح المعنى، بعيد عن خرافات الجاهلية وسذاجة معتقداتها. فمن رأي هؤلاء : أن الذين يرون: أن الشعر الجاهلي لا بد أن يكون جميعه على نهج واحد وخيال متشابه ولغة ليس فيها كلمة من الكلمات المتداولة في العصر الإسلامي، أو من مصطلحاته . مجحفون ومغالون في رأيهم .

ولهؤلاء الحق في رفض هذه الشكوك، فليست حياة الشعراء في العصر الجاهلي على طراز واحد تحيط بها رمال الصحراء وجبالها، فحياة (امرئ القيس) و (عدي بن زيد) ليست مثل حياة (تأبط شرّاً) و (أبي كبير الهذلي)، فكثير من الشعراء من خرج من الصحراء إلى المدن الحافلة بحضارة ذلك الماضي، وكثير من الشعراء تطورت حياته. ثم إن الشعر لم يكن في جيل من الأجيال على مستوى واحد، وفي اتجاه واحد. ففي كل جيل : المحافظ والمتطرف والجامد والمتطور، وتائه الفكر، وأصيل الرأي، وكثيراً ما تطورت شاعرية الشاعر فيسفّ حيناً ويسمو حيناً آخر. يضل تارة ويصيب أخرى .. فهذا شاعر الأجيال (أبو الطيب المتنبي) . أليس في شعره الغث التافه؟ فهل وضع الواضعون الغث في شعره!! وذلك الشاعر الفيلسوف (أبو العلاء المعري) ألسنا نراه تارة ضالا تائهاً لا يعرف . هل المؤذن من على المئذنة أصدق في ندائه من رنين الأجراس من على الكنائس؟ ونراه مرة ثانية مطمئناً في عقيدته غير مرتاب في إسلامه؟ فهل أبو

العلاء شخصية خيالية وضع باسمها شعراء اختلفت نظرتهم الدينية : شعراً منحرفاً وشعراً غير منحرف؟!

وهل علينا ونحن نقرأ لكل جيل شعراً منحرفاً وشعراً حكيماً متزناً : أن نسير وراء القائلين : إن كل شعر فيه مسحة الإيمان بالله، أو فيه ذكر للصلاة والصوم والحج هو من وضع الإسلاميين؟! - على حين نحن نعلم : أن من العرب من كان يدين بشيء من ملة إبراهيم، ومن اعتنق اليهودية والنصرانية، فمنهم من كان يؤمن بوجود الله الأعلى، ومنهم الذي اتخذ الأصنام زلفى إليه، والكثيرون من القبائل العربية كانوا يحجون إلى مكة وكانوا يصومون في بعض أيام السنة، وكانوا يسمون الدعاء : صلاة، وكان بعضهم يؤمن بالبعث، ومنهم من كان يؤمن بإله موسى الذي آمنت به اليهود، ومنهم من كان يؤمن بثالوث النصارى. ومن يعلم كل ذلك لا يستبعد . ذكر : الصلاة، والصوم، والبعث، والله ـ عن الشعر الجاهلي.

١١- ولقد تكلم القدامى عن الألفاظ الإسلامية التي لم يكن العرب يقصدون بها : المعنى الإسلامي ـ مثل : المؤمن، والمسلم، والكافر، والمنافق . وعن الألفاظ الإسلامية التي أطلقها العرب الجاهليون على معنى يشبه المعنى الذي حصرها الإسلام فيه - مثل : السجود والركوع والصوم والحج، وقالوا : إن العرب استعملوا في جاهليتهم هذه الكلمات لغرض قريب من المعنى الإسلامي . ومن ذلك قولهم : (فقلن اسجد لليلى فاسجدا) . وكان الصيام أصله عن العرب : الإمساك. فزاد عليه الإسلام : النية والمباشرة وغير ذلك مما يشترط على الصائم. والحج كانت العرب تعني به : القصد ـ فزادت عليه الشريعة الإسلامية ما زادته من شرائط الحج، وكلمة (عيد) عربية جاهلية اختلف الباحثون في أصلها ـ هل العرب أخذوها من غيرهم أو غيرهم أخذها منهم، فالوجه في هذه الألفاظ كما يقول القدامى : أن لكل لفظ معنيين الأول جاهلي والثاني إسلامي لم ينعدم وجه الشبه بينهما[1].

(١) المزهر ١ / ٢٥٢ وما بعده.

و(الرحمن) و(الرب) و(الإله) وغيرها من أسماء الله تعالى معروفة عند قدامى الأمم .. ومن الأسماء التي استعملها العرب في الجاهلية لمعنى يقرب من معناها الإسلامي، ودار حولها نقاش المحققين : كلمة (المحاصل) فلقد ذكر (ابن منظور) معاني لكلمة المحاصل كانت العرب تقصدها، واستشهد ببيت (لبيد بن ربيعة) بغير رواية (ابن قتيبة) فقد جاء في مكان (المحاصل) : (الحصائل) وقال (أبو حنيفة) : (الحصل) و(الحصالة) - ما بقي من الشعير والبر في (البيدر)[1] ، ولايزال الناس إلى هذا العصر يستعملون اسم (الحصّالة) بتشديد الصاد للصندوق الذي تجمع فيه النقود.

وجاء في بحث (ناصر الدين الأسد) في سياق كلامه عن الشعر الذي وضع باسم الجاهليين : أن (ابن قتيبة) أورد سبعة أبيات من شعر لبيد. آخرها هذا البيت :

وكل امرئ يوماً سيعلم سعيه ... إذا كشفت عند الإله المحاصل

وأنه عقب على هذا البيت بقوله : (وهذا البيت الأخير يدل على أنه قيل في الإسلام)[2]. ولقد راجعت النسخة التي في خزانتي من كتاب ابن قتيبة (الشعر والشعراء) وهي طبع (محمد أمين الخانجي ١٣٢٢هـ، فلم أجد هذا التعقيب. وإنما وجدت ابن قتيبة قدم هذه الأبيات بقوله : (ومن جيد شعره ولم يذكر ابن قتيبة غير ستة أبيات - مطلعها :

إذا المرء أسرى ليلة ظن أنه ... قضى عملا والمرء ما عاش عامل

ووجدت : أن هذه النسخة قد ملكها قبلي علامة مطلع على أشعار العرب، قوي في اللغة العربية وقواعدها، دقيق الملاحظة، صحح الكثير من الشعر الذي جمعه ابن قتيبة وعلق عليه. ولكنه مع الأسف لم يذكر اسمه، ومما صححه : كلمة المحاصل.

---

(١) لسان العرب ، مادة حصل .

(٢) مصادر الشعر الجاهلي ، ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ . وفي كلمة المحاصيل أو المحاصل ما فيها من حيث الوزن إذا ما جاءت بالياء المحاصيل .

فقال والمحاصل، صوابه الحصائل. وهو أيضاً لم يعلق شيئاً على هذه الأبيات التي جاءت في كل بيت منها حكمة رائعة[1]. ووجدت (ابن قتيبة) يقول في هذه النسخة عن (لبيد بن ربيعة) : ولم يقل شعراً في الإسلام إلا بيتاً واحداً قال : (أبويقظان) : وهو قوله:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى كساني من الإسلام سربالا

وقال غيره. بل هو قوله :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح[2]

ولا إخال واحداً من الذين يضعون الشعر باسم الجاهليين من الغباء بحيث يذكر كلمات إسلامية لا يعرفها الجاهليون أو لا يستعملونها للغرض الذي استعملها الإسلام له . ولقد قلت من قبل وأقول هنا : ليس لنا أن نفرض منطقنا ومقاييسنا وأساليب تفكيرنا، ومناهج علمنا على عقلية أجيال تفصل بيننا وبينها مئات السنين، فنغالي في الشك بحيث نتهم القدامى بأكثر من وضع الشعر .. نتهمهم بذكر أبطال في الشعر وغير الشعر لا وجود لهم؛ لأن المقاييس تستكثر الأسلوب الشعري والعمل البطولي على تلك الأجيال؛ ولأن منطقنا يرفض المتناقضات في حياة رجال الماضي .

ولا إخالني في حاجة إلى الكلام في موقف النقاد المعاصرين من الشعر الجاهلي بعد الذي سبق أن قلته في الجزء الأول .

١٢- أما عن قدم الشعر وتاريخ القصيدة، فلقد جاء في المزهر تحت عنوان: (أولية الشعر) : ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا أبيات يقولها الرجل في حاجته، وإنما قُصِّدت القصائد وطُوِّل الشعر على عهد (عبدالمطلب) و (هاشم بن عبد مناف)، وذلك يدلنا على إسقاط (عاد) و (ثمود) و (حمير) و (تبع)؛ وكان أول من قصد القصائد وذكر

---

(١) **الشعر والشعراء** ، ص ٥٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥١ .

الوقائع (المهلهل) التغلبي الذي قال عنه (الفرزدق): إن المهلهل هو أول من هلهل الشعر[1].

وأمَّا ما جاء في المزهر عن إسقاط عاد وثمود وحمير وتبع، فقد سبق أيضاً الكلام في هذه الناحية في الجزء الأول من هذا الكتاب الذي صدر بعنوان: التاريخ العربي وبدايته. وما جاء في المزهر عن القصيدة وتاريخها، يلفت نظرنا إلى ما في شعر (عنترة): هل غادر الشعراء من متردم؟ فالذين عرفوا من هؤلاء الشعراء الذين أشار إليهم عنترة قليلون منهم (ابن جذام) الذي ورد اسمه في شعر (امرئ القيس): (نبكي الديار كما بكى ابن جذام)، فلقد قيل عن (ابن جذام): إنه شاعر من طيئ. فما جاء في شعر (عنترة) و(امرئ القيس) يؤكد قول (أبي عمرو بن العلاء). لم يصل إلينا من الشعر الجاهلي إلا قليل، فلو وصل وافراً لوصل إلينا شعر كثير.

١٣- وما وصل إلى (أبي عمرو بن العلاء) وغيره من أوائل رواة الشعر الجاهلي وأيام العرب، لم يسلم جميعه من النقد والشك في أصله. ولقد بين النقاد: الصحيح من المزيف، ولقد أثبتت بحوث النقاد: صحة كثير من الشعر الجاهلي المتداول اليوم، ولقد أثبت التحقيق العلمي دقة مقاييس نقاد الشعر الجاهلي الذين جمعوا لنا مفردات اللغة العربية وفصلوا قواعدها وقدموا لنا بحوثاً قيمة عن الشعر الجاهلي وتراجم شعرائه وأخبارهم ومناسبات أشعارهم. فهذا (خلف الأحمر) وهو واحد من الذين اتهموا بوضع الشعر يجيب (خلاد بن يزيد الباهلي) - وقد سأله: بأي شيء ترد هذه الأشعار التي تروى؟ قال: [هل تعلم أنت: أن منها ما هو موضوع لا خير فيه؟ قال: نعم. قال: أفتعلم في الناس من هو أعلم بالشعر منك؟ قال: نعم. قال: فلا ينكر أن يعلموا من ذلك ما لا تعلمه أنت؟][2]. ويقول قائل: يرى: أن الشعر بجودته، سواء أكان من وضع خلف أم هو من الشعر الجاهلي؟ فيرد النقاد عليه بقولهم: إذا أخذت درهماً

(١) المزهر ٢/٣٧٤.

(٢) المزهر ١/١٧٢.

فاستحسنته فقال لك الصراف : إنه رديء، فهل ينفعك استحسانك له؟[1]. وينقل (محمد بن سلام الجمحي) عن (يحيى بن سعيد القطان) : مقارنته بين رواة الحديث ورواة الشعر : [رواة الشعر أعقل من رواة الحديث؛ لأن رواة الحديث يروون مصنوعاً كثيراً. ورواة الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينقدونه - ويقولون : هذا مصنوع][2] - ويقول (أبوعبيدة) : [إن (ابن دؤاد بن متمم بن نويرة) قدم البصرة في بعض ما يقدم من أجله البدوي، فأتيته أنا و (ابن نوح) فسألناه عن شعر أبيه متمم وقمنا له بحاجته، ولما فقد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضعها لنا وإذا الكلام دون كلام متمم. وإذا هو يحتذي على كلامه فيذكر المواضع التي ذكرها متمم والوقائع التي شهدها، فلما توالى ذلك علمنا : أنه يفتعله][3].

أجل! لم يكن رواة الشعر الجاهلي رواة فحسب، بل كانوا نقاداً لا يأخذون كل ما يسمعونه على عواهنه حتى ولو كان الراوي لهم من أبناء البادية، ولو كان ما يرويه لأبيه وأخيه وذويه. ولم يجامل بعضهم بعضاً فيسكت البعض عما رواه الآخرون.

وهنا لا بد لي من الوقوف عند الرواية المنسوبة إلى (المفضل الضبي) والتي وردت في بعض كتب الأدب العربي وتاريخه؛ فلقد جاء في الأغاني وفي غير الأغاني عن المفضل الضبي. أنه قال : [سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً. فقيل له : وكيف ذلك؟ أيخطئ في روايته؟ أم يلحن؟ قال ليته كذلك : فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب. ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح إلا عند العالم؛ وأين ذلك؟][4].

---

(١) المزهر ١/١٧٣.

(٢) المصدر نفسه ١/١٧٤.

(٣) المصدر نفسه ١/١٧٥.

(٤) الأغاني ٦/٨٥ إلى ٩١.

فهذه الرواية تؤكد : أن حماداً الراوية عالم بلغات العرب وأشعار الجاهليين ومذاهبهم ومعانيهم .. وتؤكد : أن علم حماد سهل له وضع شعر لا يميزه عن الشعر الجاهلي غير العالم القدير. وأين ذلك؟ وهذه الرواية التي يقال : إنها من صنع خصوم حماد. تثبت لنا : وجود شعر جاهلي وصل إلى الرواة كان حماد عالماً به وعارفاً بمذاهب ناظميه من الجاهليين، وتثبت لنا : وجود نقدة قديرين على تفنيد المنحول من الصحيح. مثل : (أبي عمرو بن العلاء)، (المفضل الضبي) و (الأصمعي) وغيرهم .. ولسوف يأتي في ترجمة حماد تفصيل للتهم التي وجهت له، كما سيأتي في ترجمة (خلف الأحمر) التهمة التي ألصقت به في وضع القصيدة المعروفة بلامية العرب والقصيدة التي مطلعها :

إن بالشعب الذي دون سلع لقتيلا دمه ما يطل

على أساس أن في بعض هذا الشعر الذي رواه خلف. وصفاً دقيقاً لم يصل الشاعر الجاهلي إلى مستواه.

١٤- ولابد لي هنا أيضاً من أن أبرئ البحث من التعصب لسلامة الشعر الجاهلي جميعه من الوضع، فأقول : ليس حماد الراوية. هو : وحده الذي يملك المواهب التي ذكرها (المفضل الضبي)، بل شاركه في تلك المواهب غيره مثل (خلف الأحمر). وليست الأسباب التي تدعو لوضع الشعر ونحله شعراء جاهليين ذات إغراء محدود؛ فلقد كان ذلك الجيل الذي عاش فيه حماد وذلك الرعيل مشغوفاً بآثار الجاهليين الشعرية ولغاتهم وأيامهم . من رجل الشارع إلى خليفة المسلمين؛ لذلك ارتفع ثمن الشعر الجاهلي وراجت سوقه، فازدحم الرواة على أبواب الخلفاء والوزراء والأمراء لرواية الشعر وأيام العرب، وازدحمت العامة على حلقات الأعلام يسمعون منهم الشعر وأيام العرب؛ فأخذ المزيفون ينظمون الشعر وينحلونه الجاهليين، وأخذ النقاد يميزون الشعر المنحول من الشعر الصحيح .. ومن هنا نشأت الخصومات العلمية، وأخذ أنصار المتخاصمين بدورهم يؤلفون القصص حول الأعلام. مثل ما شغف جيلنا الحاضر بالآثار القديمة فارتفعت أثمانها، وأخذ المزيفون يصنعون ما يشبه الآثار، وأخذ النقاد يميزون المزيف من الأصيل .. ومن هنا تطرق الشك

فيما في أيدي الناس من آثار. وأخذ أدلة الآثار بدورهم يؤلفون القصص حول الآثار التي يرتادها المغرمون بالآثار.

فموقف البحث من الذين يصدقون كل ما جاء في المدونات الأدبية على أنه شعر جاهلي، مثل موقفه من الذين يشكون في كل شعر جاهلي. ولقد قال من قبل (محمد بن سلام الجمحي) : [وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب لم يأخذوه عن أهل البادية. ولم يعرضوه على العلماء . وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه : أن يقبل من صحيفة أو يروي عن صحفي][1]. ولقد جاء في المزهر ما يدل على أن النقاد قد فضحوا الذين يروون الشعر المنحول، وأسقطوا روايتهم. مثل : (ابن دأب). قال عنه (السيوطي) : سقط وذهب علمه، و(الشرقي القطامي)، فلقد نقل السيوطي عن (الأصمعي) أنه قال: [قلت للشرقي ما كانت العرب تقول في صلاتها على موتاها؟ قال : لا أدري. قلت: فأكذب له! فقلت له : كانوا يقولون: رويدك حتى يبعث الحق باعثه! فإذا أنَابِه يوم الجمعة يحدث به في (المقصورة)] . ومثل (علي الجمل المدني). قال عنه السيوطي : [قد وضع كتاباً في النحو لم يكن شيئاً][2].

ولو لم تكن المصادر هي الغرض من هذا الجزء، لا الشعر والشعراء، لتعرضت للشعر الإسلامي. ولو أني تعرضت للشعر الإسلامي لوجدت : أن منه شعراً موضوعاً، وأن منه شعراً متنازعاً عليه يدعيه أكثر من شاعر، وأن منه شعراً صحيحاً لا نزاع فيه ولا شك في نسبته . فشعر شعراء صدر الإسلام ناله ما نال شعر الشعراء الجاهليين من شكوك في حقيقته لا سيما شعر المخضرمين .

١٥- ولا بد لي أن أختم البحث بإيضاح النتيجة التي وصل إليها وهي : أن الشعر الجاهلي ليس كله جاهلياً، وليس كل الشعر الجاهلي من وضع الرواة، وأن من الشعر

---

(١) **طبقات فحول الشعراء** ، ص ٥٠ وما بعدها .

(٢) المزهر ٢/٤١٤.

الجاهلي شعراً تخضرم مع الشاعر، فكثير من الشعراء الجاهليين امتد بهم العمر إلى ما بعد الإسلام، فاختلط بعض ما قالوه قبل الإسلام بما نظموه بعد الإسلام. وإن الشعر الجاهلي إما أن يكون جاهلياً؛ لأنه من نظم جاهليين، وإما أن يكون جاهلياً من حيث موضوعه وأسلوبه؛ لأنه من وضع رواة الشعر - الشعراء. فالشعر المشكوك فيه لا يختلف في أسلوبه وفي أهدافه عن الشعر الجاهلي مثل: لامية العرب وغيرها. وإن الشعر الجاهلي أفاد المؤرخين فيما كتبوه عن العصر الجاهلي وأيام العرب، وعن العصور الإسلامية الأولى.

ولسوف تبدي لنا تراجم الرواد التي سنستعرضها فيما يأتي: حقائق يهم البحث معرفتها؛ لأنها مفيدة لموضوع: التاريخ العربي ومصادره. فالشعر الجاهلي مصدر من مصادر تاريخنا العربي، والله الموفق.

البحث الثاني :

أبوعمْرو بن العلاء التميمي المازني البصري

المتوفى سنة ١٥٤هـ

من موضوعات البحث :

١- أبو عمرو بن العلاء من أنجب تلامذة البصرة وألمع أساتذتها .

٢- الذين قرظوا أبا عمرو بن العلاء – أعلام لا يصدر ثناؤهم تقليداً أعمى.

٣- أبو عمرو بن العلاء المحافظ اللبق .

٤- لم يفلت ابن العلاء من حساب النقاد.

٥- حرص أبي عمرو بن العلاء على سلامة النصوص .

٦- لماذا أحرق أبو عمرو بن العلاء مدوناته؟

أبو عمرو بن العلاء

١- مما لامراء فيه : أن مدرسة البصرة أنجبت جهابذة أعلاماً اقتحموا أغوار الماضي الجاهلي باحثين عن شعر شعرائه، ومواقف أبطاله، وغريب لغاته. ومما لا مراء فيه : أن أبا عمرو بن العلاء كان من أنجب تلامذتها وأبرز أساتذتها في القرن الثاني من الهجرة، حيث توفي سنة ١٥٤هـ. فلقد كان أبو عمرو علماً لامعاً في التاريخ العربي، واشتهر بقراءته كما اشتهر بتفسيره، واشتهر بدقة روايته أشعار الجاهليين وأخبارهم كما اشتهر بتحقيق اللغة العربية ومعرفة غريبها وإقامة قواعدها. قال عن نفسه : نظرت في العلم قبل أن أختن !! وقال عنه (أبوعبيدة) : كان أبو عمرو أعلم الناس بالقرآن والعربية والشعر، وأيام العرب، وكانت دفاتره ملأت بيته إلى السقف فأحرقها .. وهو في النحو من الطبقة الرابعة من علي بن أبي طالب. وقال عنه (الأصمعي) : [سألت : أبا عمرو عن ألف مسألة فأجابني فيها بألف حجة، ولقد جلست إلى أبي عمرو عشر حجج فلم يحتج ببيت إسلامي](١).

٢- فبعض هذا الإكبار الذي أسبغه على أبي عمرو بن العلاء - رجال لا يبالغون في ثنائهم - ولا يصدر ثناؤهم تقليداً أو عن غير علم. يكفي لإيضاح مكانة أبي عمرو بين معاصريه من أعلام البصرة والكوفة، على الرغم مما كان بينهم من تنافس! ولقد كان من أسباب نبوغ أبي عمرو بن العلاء إلى جانب مواهبه: الأساتذة الذين تلقى عليهم علومه، فمن أساتذته : (عيسى بن عمر الثقفي) شيخ (الخليل بن أحمد) أستاذ (سيبويه)، ومن أساتذته (أبو نوفل بن أبي عقرب) وكان أبو عمرو بن العلاء يبعث مع

---

(١) مرآة الجنان ١ / ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨.

أخيه (معاذ بن العلاء) يسأل (الحارث بن العاص بن هشام بن المغيرة) والي مكة في عهد (عبدالملك بن مروان) عن بعض المسائل فيأتيه الجواب عنها[1].

٣- والذي يطالع ما كتب عن أبي عمرو بن العلاء يعرف : أن الرجل كان متحفظاً لبقاً قليل التورط في الخصومات، قليل العثرات والأخطاء؛ فمما رواه عنه (الأصفهاني) في أغانيه : [أن أبا عمرو بن العلاء دخل على بلال بن أبي بردة) وعنده (ذو الرمة) . وهما على خلاف في رواية أبيات لحاتم طيئ فسأله بلال : كيف تنشدها؟ وعرف أبو عمرو الذي به . فقال : كلا الوجهين جائز . فقال : أتأخذون عن ذي الرمة؟ فقال : إنه لفصيح. وإنا لنأخذ عنه بحرص، ثم خرجا : أبو عمرو وذو الرمة . فقال ذوالرمة : والله لو أني أعلم أنك حطبت في حبله وملت مع هواه؛ لهجوتك هجاءً لا يقصد إليك اثنان بعد !!][2] وجاء في المزهر كانت أخطاء أبي عمرو بن العلاء معدودة، فلم يؤخذ عليه إلا القليل . فلقد اتهمه (أبو الطيب) فيما يروي للأعشى بزيادة بيت من الشعر اعترف به أبو عمرو بن العلاء ولم يؤخذ عليه شيء من اللغة إلا حرف واحد قصر عن معرفته . فقد [سئل : ما الثغر؟ . قال : الاست . فقيل له : إنه القبل ! فقال : ما أقرب ما بينهما!! فذهب قوم من أهل اللغة إلى أن هذا غلط من أبي عمرو !]، ولقد عقب صاحب المزهر على ذلك بقوله : [وليس كما ظنوا فقد نص (أبوعمرو الشيباني) وغيره على أن الثغر من الرجل الدبر، ومن المرأة القبل][3].

٤- هكذا كان أولئك الأعلام يحاسبون في الشعر على البيت الواحد، وفي اللغة على الكلمة الواحدة !! وإنك لتجد في جزأى المزهر الكلمات التي نقلت عن أبي عمرو ابن العلاء وثار حولها القال والقيل. وتجد في غير المزهر قصصاً بالغ فيها القدامى،

(١) مرآة الجنان ١ / ٢٣٧ وما بعدها ، والأغاني ٣ /٣٠٨ وما بعدها ، والمزهر ٢/٣٠٤.

(٢) الأغاني ١٧/٢٣٣.

(٣) المزهر ٢/٢٩٩.

وأخذها المتأخرون بدون ترو مثل : القصة التي تروى عن الأصمعي والتي جاء فيها : [جاء (عيسى بن عمر الثقفي) ونحن عند أبي عمرو بن العلاء - فقال : يا أبا عمرو ! ما شيء بلغني عنك؟ قال : ما هو ؟ قال بلغني أنك تجيز الرفع في قولك . ليس الطيب إلا المسك؟!! فقال أبو عمرو : نمت فأدلج الناس !! ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب، ولا في الأرض تميمي إلا وهو يرفع ! ثم قال : لـ (خلف) و (اليزيدي) اذهبا إلى (أبي المهدي - أعرابي الحجاز) فلقناه الرفع، فإنه لا يرفع، واذهبا إلى (المنتجع - أعرابي تميم) فلقناه النصب، فإنه لا ينصب إلى آخر القصة][1]. ففي هذه القصة ما فيها - فعيسى بن عمر الثقفي - هو كما تقدم من أساتذة أبي عمرو بن العلاء - فبعيد عن التصديق : أن يقول التلميذ لأستاذه : نمت فأدلج الناس!، لا سيما إذا كان ذلك التلميذ حصيفاً مثل : أبي عمرو بن العلاء - وفي هذه القصة على عواهنها دليل على ثقة الناس بأبي عمرو وإكبارهم معارفه بصورة سوغت تأليف مثل هذه القصص وإسنادها إلى مثل (الأصمعي) .

٥- ونجد أبا عمرو بن العلاء من الذين يتمسكون بالنصوص لا يبدلون ولا يزيدون ولا ينقصون . فدراسات أبي عمرو تعتمد على النص أكثر مما تعمد على القياس، فهو على النقيض مما درج عليه الكثيرون، مثل (أبي إسحاق الحضرمي) و(عيسى بن عمر)، فلقد أنشد خلف الأحمر : الأصمعي بيتاً من نظم (جرير) فاختلفا في روايته. فقال خلف للأصمعي : إن أبا عمرو قد رواه كما سمعه، وإن جريراً قليل التصحيح، وجاء في المزهر : أن أبا عمرو قال عن نفسه : ما زدت في شعر العرب إلا بيتاً واحداً . يعني ما يروى عن الأعشى من قوله :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت ... من الحوادث إلا الشيب والصلعا[2]

---

(١) تاريخ الأدب للرافعي ٣٤٩/١.

(٢) المزهر ٤١٥/٢.

ونجد أبا عمرو بن العلاء من الذين لا يجحدون علم غيرهم، فهو لا يأنف أن يقول : زادني في هذه الأبيات أبياتاً (ابن سلام الجمحي)، ولعل ذلك من العوامل التي جعلت نظرة النقاد إلى شيخ البصرة على النقيض من نظرتهم إلى شيخ الكوفة (حماد الراوية)، فلقد هاجم حماداً الكثيرون هجوماً عنيفاً في حين أن الذين هاجموا أبا عمرو أقل من القليل. وكان هجومهم هادئاً ومعتدلاً . أما الذين اعترفوا بأستاذيته فكثيرون. منهم : (الأصمعي) و (يونس بن حبيب الضبي) و(أبو زيد) و(أبو سعيد) و(أبو الخطاب الأخفش)، وأبو الخطاب الأخفش هو : أول من فسر الشعر تحت كل بيت وكان الناس إذا فرغوا من القصيدة فسروها[1].

٦- وإذا كان أبو عمرو بن العلاء قال لنا : ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير !! فإننا نقول له : لو تركت ما أحرقته من مدوناتك لعرفنا شيئاً كثيراً نحن في حاجة إلى معرفته !! فلماذا أحرق أبو عمرو مدوناته التي ملأت بيته؟ لعل الرجل أحرقها؛ لأنه غير مطمئن لصحتها؟ فلقد كان أبوعمرو حريصاً على سمعته العلمية أميناً على العلم الذي وقف حياته له . على أن ما وصل إلينا في كتب الأدب واللغة العربية والتاريخ قيم وليس بقليل.

هذا هو أبو عمرو بن العلاء الذي قدم لنا الكثير من النصوص التاريخية، واللغوية، والأدبية؛ اعتمد عليها المؤلفون في التاريخ وفي الأدب وفي اللغة .

---

(١) المزهر ٢/٣٣٩، ٤٠٠.

البحث الثالث :

أبو القاسِم : حَمَّاد الراوية الدّيلمي

المتوفى سنة ١٥٥هـ

من موضوعات البحث :

١- ابن مَنْ حماد الراوية أستاذ مدرسة الكوفة؟

٢- ما دونه مؤلف الأغاني موضع شك وريبة .

٣- إن لكلمة (التخوّف) تاريخاً خاصاً بها .

٤- حماد ليس مبرأً من كل عيب .

٥- ما كتبه (ناصر الدين الأسد) ينقصه العمق والتقصي اللذين عرف بهما .

٦- ليس من السهل : أن ينفي باحث ما هو موجود في المؤلفات العربية .

٧- هل اجتمع حماد مع المفضل عند المهدي في محلة (عيسباذ) ببغداد؟!

٨- الكلام عن تعارض الأقوال واختلاف الرأي بحث معاد .

٩- حماد بين أنصاره وخصومه .

١٠- حماد على ضوء آراء القدامى .

حماد الراوية

١- حماد الراوية هو : أبو القاسم حماد بن هرمز. كما عرفه (السيوطي)[1]. وهو حماد بن (ميسرة) نقلا عن (الهيثم بن عدي) وابن (سابور) نقلا عن (المدائني) كما جاء في الأغاني والفهرست[2].

وحماد الراوية أستاذ مدرسة الكوفة، من رجال القرن الثاني من الهجرة. توفي سنة ١٥٥هـ. قال عنه السيوطي : وقد أخذ عنه أهل المصرين : الكوفة والبصرة، وفي طليعتهم خلف الأحمر، والأصمعي[3]. وإلى حماد يرجع الفضل في رواية المعلقات السبع، وقال عنه الأصمعي : كل شيء في أيدينا عن (أمرئ القيس) فهو عن حماد الراوية إلا شيئاً سمعناه من أبي عمرو بن العلاء[4].

٢- وحماد الراوية من الأعلام الذين استلفتت حياتهم نظر الباحثين في مصادر رواة التاريخ الجاهلي. وكثرة البحث في حياة حماد، واختلاف الأقوال عنها جعلا الوصول إلى حقيقتها من الصعوبة بمكان، نظراً للمتناقضات التي تراكمت عليها.. فنحن إذا ما رجعنا إلى (الأغاني) - والأغاني تُعدّ من أهم مراجع المحققين في العصر الحاضر. تواجهنا مجموعة من الروايات المتناقضة تضطر الباحث إلى الوقوف موقف الحذر والشك الذي وقفه مؤلف الأغاني (أبو الفرج علي بن الحسين القرشي المعروف بالأصفهاني) من (أغاني ابن إسحاق)؛ فلقد قال أبو الفرج الأصفهاني عن أغاني ابن إسحاق : [وأخبرني (محمد بن خلف. وكيع) قال : (سمعت حماد ابن ابن إسحاق) يقول : ما

---

(١) **المزهر** ٢/٤٠٦.

(٢) **الأغاني** ٦/٦٨ ، **والفهرست** ، ص ١٣٤.

(٣) **المزهر** ٢/٤٠٦.

(٤) **المصدر نفسه** ٢/٤٠٦.

ألف أبي هذا الكتاب، وأخبرني أحمد بن جعفر - جحظة) : أنه يعرف الوراق الذي وضع الكتاب المنسوب إلى ابن إسحاق، وأن اسمه (بسند الوراق)، وأن حانوته في الشرقية في خان الزبل][1]. فالحيثيات التي بنى عليها أبو الفرج الأصفهاني حكمه على الكتاب المنسوب لابن إسحاق من حيث أخطاء الرواية، وعدم صحة الأخبار ماثلة فيما يرويه الأصفهاني عن حماد الراوية.

فحماد الراوية في الأغاني بدأ حياته لِصاً مغامراً من قطاع الطرق. فقد جاء فيها : أن حماداً كان في مطلع حياته من قطاع الطرق، وأنه سطا على رجل فسلب منه مع ما سلب جزءاً من شعر الأنصار، فقرأه فأعجب به، وأن هذا السطو كان نهاية مغامرات حماد الصعلوك المتشطر، وبداية دراسات حماد الراوية الشاعر المؤرخ .. بيد أن حماداً لم يترفع عن الوحل، فيما كتبه عنه مؤلف الأغاني حتى بعد أن انتقل من حضيض اللصوصية إلى منصة العلم والأدب !! فلقد جاء في الأغاني : أن ليالي حماد وصديقيه : (حماد عجرد) و(حماد الزبرقان) اللذين رميا بالزندقة كما رمي حماد الراوية بها من أقبح الليالي الحمراء.

ومن أقبح القصص التي جمعها أبو الفرج في أغانيه، أو جمعت له : ما رواه عن رجل اسمه : (أبو يعقوب الخريمي) أنه قال : كنت قد عزمت الليلة حماد الراوية وكان يلاحق بنظره أمرد فقال لي : يا أبا يعقوب قد عزمت الليلة على أن أدب على هذا الغلام، ثم نمنا فلم أشعر بشيء إلا وحماد يفعل بي الفاحشة، وإذا أنا قد غلطت ونمت موضع الغلام، فكرهت أن أتكلم فيتنبه الناس، فأفتضح وأبطل [illegible]يه ما أراد، فأخذت بيده ووضعتها على عيني العوراء ليعرفني!! فقال : قد عرفت الآن فيكون ماذا؟ وفديناه بذبح عظيم !! قال : وما برح علم الله وأنا أعالجه جهدي فلا ينفعني

---

(1) توطئة الأغاني ١٦/١ طبع بيروت. ويلاحظ أن كل ما نقلناه عن الأغاني نقل من ترجمة حماد في الأغاني في الجزء السادس.

حتى فرغ. والغريب : أن أبا الفرج يروي عن هذا الرجل المأبون (الخريمي) نفسه : هذه القصة عينها فيما رواه عن (حماد عجرد) عندما تلكم عنه، فقد وصم (حماد عجرد) بما وصم به حماد الراوية وقال عنه : إنه فعل به ما فعله به حماد الراوية[1] ! ! فكتاب الأغاني كما يظهر تحت مجهر التحقيق يجمع الكذب والقبيح والجيد والصحيح[2].

وقد نال حماد الراوية من الكذب أكثر مما ناله من الصدق. فنحن نرى في الأغاني صوراً مختلفة لحماد الراوية شيخ الكوفة، تارة نراه سكيراً معربداً، وأخرى نراه يلازم المساجد حتى في أصعب أيامه ومرة يسرق الشعر ويمدح به (بلال بن أبي بردة)، وأخرى ينظم شعراً وينسبه إلى (الحطيئة) عند بلال بن أبي بردة، وحيناً يظهر نقادة خبيراً يعتذر له (الفرزدق) عن تركه شعراً سرقه : [هل أتركه وقد نسبه الناس لي؛ لأنك وحدك الذي تعرفه!!] وحيناً آخر يظهر ساذجاً مغفلاً يأخذ منه (خلف الأحمر) الجيد ويعطيه الغث الموضوع فيقبله ويدخله في أشعار العرب.

وإني لا أدري أعبث الوراقون بأغاني أبي الفرج الأصفهاني؟ أم أن أبا الفرج يدون كل ما يسمع دون أن يفكر ولو قليلاً في حقيقة ما يدونه؟! فلقد جاء في الأغاني : [أن (الهيثم بن عدي) قال لحماد الراوية : ألق عليّ ما شئت من الشعر أفسره لك ! فضحك حماد وقال له : ما معنى قول (ابن مزاحم الثمالي) - (تخوف السير منها : تامكاً قردا) قال الهيثم بن عدي : فلم أدرما أقوله. فقال حماد : تخوف - تنقص، قال الله عز وجل : ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾[3] أي على تنقص! فقال الهيثم : ما رأيت رجلا أعلم بكلام العرب من حماد!.

٣- إن لكلمة (التخوف) قصصاً ترددت في كثير من مؤلفات القدامي، فمن هذه القصص : أن (عمر بن الخطاب) سأل الناس من على المنبر : [ما تقولون فيها

---

(١) الأغاني ١٤/٣٢٤ والجزء (٦) من الأغاني حيث جاءت هذه القصة في ترجمة حماد الراوية وحماد عجرد حرفيًا.

(٢) ترجمة أبي الفرج في بحث (الموسوعات التاريخية ومؤلفوها) من هذا الجزء.

(٣) سورة النحل، الآية : ٤٧.

(التخوّف)؟ فسكت الجميع، إلا شيخاً من (هذيل) قام وقال لعمر : هذه لغتنا . التخوّف التنقص، واستشهد ببيت (مزاحم) . تخوف الرحل إلخ][1]!! ومن هذه القصص : أن أعرابياً جاء إلى (ابن عباس) يشكو أخاه . قائلاً : إن أخاه تخوّف ماله . فقال ابن عباس: تخوّفك . أي تنقصك؟ قال : نعم . قال ابن عباس : الله أكبر . أو يأخذهم على تخوف[2]. ومن هذه القصص : ما جاء في تفسير الطبري : [وقد ذكرنا عن (الهيثم بن عدي) : أنه كان يقول : هي لغة (أزد شنوءة) . ومنه : قول الآخر. (تخوّف عدوهم مالى وأهدى][3].. فهل عن مثل هذه الكلمة التي شاع تفسيرها وذاع وملأ الأسماع يعجز (الهيثم بن عدي) عن فهم معناها ، ويكون حماد الراوية في نظره أعلم الناس بكلام العرب؟! زد على ذلك أن للهيثم بن عدي نفسه رأياً فيها فهو يقول عنها : إنها من لغة (أزد شنوءة)!

٤- أنا لا أبرئ حماداً الراوية من الاستهتار الخلقي ، فلم يكن حماد محافظاً مثل (أبي عمرو بن العلاء) وأنا لا أبرئ حماداً من الوضع، فلم يكن حماد قليل الرواية حريصاً مثل (المفضل الضبي)، ولكنني أشك في قول الذين يزعمون : أن حماداً شيخ الكوفة عربيد لا يفارق الحانات، وأن حماداً كان من السذاجة والجهل بحيث يؤخذ منه الجيد ويعطى المزيف، فيصدق به ويدخله في أشعار العرب. فحماد عَلَمٌ من أعلام الكوفة ، ونابغة من نوابغ رواة الشعر العربي[4]، وحماد عالم علامة بالشعر الجاهلي وبمذاهب فحول الشعراء ومناهجهم .

فلو لم يكن حماد غير عزوف عن مجالس اللهو لما انفسخ المجال لمثل تلك التهم التي وجهها إليه خصومه، ولكن الرجل لم يصل به الاستهتار إلى ما وصل إليه (ابن هانئ . أبو نواس)، ولو لم يكن حماد مبالغاً فيما يدعيه متساهلا فيما يرويه؛ لما اتهمه

---

(١) تفسير النيسابوري المهمش على تفسير الطبري ٧١/١٤ طبع الأميرية سنة ١٣٢٨هـ.

(٢) الأمالي للقالي ١١٢/٢.

(٣) تفسير الطبري ٧٧/١٤ .

(٤) المزهر ٤٠٦/٢.

خصومه بكثرة الوضع، ولما أشاعوا عنه أقوالا كقول (المفضل الضبي) فيه : [سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً. إنه يقول الشعر يشبه به مذهب الرجل ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الآفاق][1]. فمن أخبار حماد التي جاءت في الأغاني : [أن الوليد فاجأ حماداً بسؤاله لم سميت الراوية؟! فقال حماد : إن كلام العرب يجري على ثمانية وعشرين حرفاً، وأنا أنشد على كل حرف مئة قصيدة!! ثم أخذ ينشد ، وأخذ الوليد يسمع إلى أن مل، فوكل به من جلس يستمع إلى تمام ألفين وثمانمائة قصيدة]. وفي أخبار الأغاني عن حماد مبالغات كما سبقت الإشارة إليها، فهذا الخبر على ما فيه من مبالغة، يلفت النظر إلى كثرة الشعر الذي يرويه حماد باسم الشعراء. كما يلفت النظر خبر آخر جاء في الأغاني عن حماد : [أرسل (الوليد بن يزيد) إليّ بمئتي دينار وأمر (يوسف بن عمر) بحملي إليه على البريد قال : فقلت : لا يسألني إلا عن طرفيه : قريش وثقيف. فنظرت في كتابي : (قريش وثقيف)]؛ إلاّ أن حماداً كغيره من الكوفيين كانوا يحرصون على التدوين ويعتمدون على المدونات.

وعن مدونات حماد نقل (ناصر الدين الأسد) في كتابه (مصادر الشعر الجاهلي) عن الفهرست : ومما يروى : [أن الوليد بن عبدالملك حين أراد أن يجمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها استعار من حماد ومن (جناد بن واصل الكوفي) ما عندهما من الكتب فدونها عنده ثم رد إليهما كتبهما[2]، وقد أسند ناصر الدين الأسد الخبر إلى الفهرست مشيراً إلى الصحيفة رقم (١٣٤). ولقد رجعت إلى النسخة التي في خزانتي من فهرست ابن النديم طبع الرحمانية بمصر سنة ١٣٤٨هـ فلم أجد هذا الخبر.. مع أن الرقم الذي أشار إليه ناصر الدين. رقمت به الصحيفة التي ذكر ابن النديم فيها حماداً وجناد بن واصل؛ على أنه سواء أكان الذي نقل عنه ناصر الدين

---

(١) راجع نص الخبر الذي أذاعه خصوم حماد عن المفضل الضبي في البحث المتقدم: رواة الشعر وموازين النقد.

(٢) مصادر الشعر الجاهلي ، ص ٥٠٨ .

الأسد - هو : كتاب الفهرست ، أم كان غيره؟ فإن هذا الخبر يتعارض مع ما يقال عن الكوفيين : إن دراستهم تعتمد على المدونات ، وإن حماداً أستاذ مدرسة الكوفة يحرص على التدوين حرصه على المدونات . ولقد رجع ناصر الدين إلى مصادر لها قيمتها عندما قال : [إن الأخبار التي جمعناها تدل دلالة صريحة على أن حماداً كانت عنده كتب فيها أخبار الجاهلية وأنسابها وأشعارها ، بعضها كتبه بنفسه ، وبعضها كتب من قبله فقرأها واستفاد منها في تدوينه كتبه ، وقد رأى (أبو حاتم السجستاني) بعض كتب حماد في الشعر الجاهلي ، وكان يرجع إليها ، ويثبت ما يجده زائداً على ما جمع من الشعر ، وإن كان نص على أن هذه الزيادات هي من الشعر المصنوع. ولذلك عجبنا من قول ابن النديم : لم أر لحماد كتاباً ، فلعل ابن النديم لم يصله شيء من كتبه فألقى هذا القول إلقاء][1].

٥- ويعلق (ناصر الدين الأسد) على ما قيل عن قدرة حماد على نظم الشعر ونحله فحول الشعراء الجاهليين : [أن حماداً لم يعرف الشعر ولم نجد بين أيدينا مصدراً واحداً من هذه الكتب العربية ذكر لنا : أن حماداً قال شعراً أو خلف ديواناً رواه عنه غيره . أيكون المرء شاعراً في مثل هذه المنزلة من الفحولة والشاعرية ، فيصرف كل شعره إلى غيره وينحله إياه ويضن على نفسه أن ينسب إليه بعضه؟][2].

قال هذا ناصر الدين الأسد بعد أن استأنس بالقصة التي سبقت الإشارة إليها والتي جاء فيها : أن حماداً مدح (بلال بن أبي بردة) بشعر أحد شعراء الجاهلية ، وأن (ذا الرمة) الذي كان حاضراً المجلس كشف حماداً عند بلال[3] ، وبعد أن أكد : أن قصة أبي الفرج عن اجتماع حماد والمفضل الضبي عند الخليفة (المهدي) في قصره بعيسباذ مشكوك فيها ، بناء على أن حماداً توفي قبل أن يتولى المهدي الخلافة بنحو ثلاث

---

(١) **مصادر الشعر الجاهلي** ، ص ١٥٦ وما بعد ص ١٥٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٤٣ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٤٢ .

سنوات وقبل أن يبني المهدي قصره بعيسباذ بنحو تسع سنوات[1]، ومن ثمة فإن الشعر الذي ذكر في هذه القصة بأنه لحماد ليس هو شعر حماد، وإنما هو شعر جاء به الذين اختلقوا هذه القصة. وبعد أن ضعف ما نقل عن (المفضل الضبي) بأن حماداً رجل عالم بلغات العرب وبأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يشبه مذاهب رجل ويدخله في شعره ويحمل عنه ذلك في الآفاق[2]. فهذا الخبر عند ناصر الدين الأسد ـ ضعيف متهم؛ لأنه يجعل من حماد شاعراً فحلا ، وحماد لم يأت في مصدر عربي واحد : أنه قال شعراً!!

وإني لم أتبين ما يقصده ناصر الدين الأسد من قوله : لايوجد مصدر واحد من هذه الكتب العربية ذكر لنا : أن حماداً قال شعراً!! مع أنه نفسه ذكر أكثر من مرة ما جاء في الأغاني ، وما جاء في المزهر عن حماد وأنه كان ينظم الشعر وينحله شعراء الجاهلية ، ومع أن الأغاني والمزهر من الكتب العربية التي اتخذها ناصر الدين الأسد مصادر لمؤلفه (مصادر الشعر الجاهلي)!! فأبو الفرج الأصفهاني ذكر في الأغاني بسنده المرفوع إلى المفضل الضبي أنه قال : [إن حماداً قد سلط على الشعر، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل فيدخله في شعره ، ويحمل ذلك عنه في الآفاق، فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد][3] ونقل السيوطي عن أبي حاتم السجستاني قوله : [كان بالكوفة جماعة من رواة الشعر مثل حماد الراوية يصنعون الشعر ويقتنون المصنوع منه وينسبونه إلى غير أهله][4]. وقال أبو الفرج في أغانيه وقال السيوطي في مزهره: إن حماداً نظم قصيدة ونحلها الحطيئة - وأنشدها بلال بن أبي بردة فعرف بلال : أنها منحولة ولكنه قال لحماد : دعها تذهب في الناس]

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي ، ص ٤٤٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٤٣ .

(٣) **الأغاني** ٨٥/٦ .

(٤) **المزهر** ٤٠٦/٢ .

فلا شك في أن كتاب (الأغاني) وكتاب (المزهر) على ما كان عليه المؤلفون القدامى من إهمال تحقيق الروايات التي يجمعونها اكتفاء بذكر سندها - مثل الروايات التي جاءت في الأغاني عن حماد : هما من أمهات الكتب العربية التي يرجع إليها الباحثون في الشعر الجاهلي ، وهما من الكتب العربية التي ذكرت : أن حماداً من الرواة الذين ينظمون الشعر وينحلونه الشعراء . وليس كتابا الأغاني والمزهر . هما الكتابين الوحيدين اللذين ذكرا : أن حماداً كان ينظم شعراً لا يميزه عن شعر فحول الشعراء غير النقادة العليم. أما شعر حماد ، فلقد ذكر أبوالفرج في أغانيه مع ما ذكره من الشعر الملحن: هذه الأبيات :

عفت دار سلمى بمفضى الرغام   رياح تعاقبها كل عام

خلاف الحلول بتلك الطلول   وسحب الذيول بذاك المقام

وأنس الديار وقرب الجوار   وطيب المزار ورد السلام

ودهر غرير وعيش السرور   ونأى الغيور وحسن الكلام

وقال عنها : الشعر لحماد الراوية ، والغناء لابن جامع[١].

٦- إن للباحث الحق كله في قبول رواية ورفض أخرى حسب الأدلة التي وصل إليها واقتنع بها . وإن لأي باحث الحق في أن يتمسك بقول (المدائني)[٢] الذي يؤكد : أن القصيدة التي أنشدها بلال بن أبي بردة . هي للحطيئة ، وأن حماداً كان صادقاً عندما نسبها للحطيئة .. ويترك رواية (أبي عبيدة) عن (يونس) التي وردت في (المزهر) وفي (طبقات الشعراء)[٣] والتي نقلها أبوالفرج الأصفهاني عن (صالح بن سليمان)[٤] والتي

---

(١) الأغاني ١٩٢/٥ طبع بيروت .

(٢) مصادر الشعر الجاهلي ، ص ٤٤٨ .

(٣) المزهر ١٧٦/١ ويلاحظ الهامش .

(٤) الأغاني ٨٤/٦ .

يؤكد : أن حماداً نحل هذه القصيدة الحطيئة . فكثيراً ما اختلف نقاد الرعيل الأول في بعض ما يرويه حماد الراوية ، وفي بعض ما يرويه خلف الأحمر. فلقد بلغ النقاش أشده في قصيدة (لامية العرب) : هل هي من شعر خلف الأحمر الراوية في العصر الإسلامي؟ أو هي من شعر (الشنفرى) الشاعر في العصر الجاهلي ؟ فمن الباحثين المتأخرين من اقتنع بأن هذه القصيدة من الشعر المنحول ، ومنهم من اقتنع بأنها من الشعر الجاهلي.

ولكن ليس للباحث أي حق في أن ينفي من الكتب العربية ما هو موجود فيها . أو ينسب إليها ما لا يوجد بها . فلا بد للبحث من الاعتراف بأن من الشعر الجاهلي المتداول في أيدي الناس : شعراً منحولاً ، وأن حماداً من الرواة الذين اتهموا بأنهم كانوا ينظمون الشعر وينحلونه الشعراء الجاهليين، وأن هؤلاء الرواة هم الذين أثاروا كثيراً من الشكوك حول الكثير من الشعر الجاهلي . ولا بد للمحقق من الاعتراف بأن الكتب العربية . ذكرت : أن حماداً كان ينظم الشعر وينحله الشعراء الجاهليين .

٧- ولابد لنا هنا : أن نقف قليلا عند الشكوك التي أثيرت حول اجتماع المفضل الضبي مع حماد عند المهدي . فنحن إذا ما رجعنا إلى مصادر هذه الشكوك وهي رواية الطبري، نجد الطبري يقول : [في سنة ١٦٤هـ بنى المهدي بعيسباذ الكبرى قصراً من لبن إلى أن أسس قصر الذي بالآجر الذي سماه قصر السلامة][١]. فعيسباذ التي بنى بها المهدي قصريه الأول والثاني وصفها الطبري بالكبرى ، والذي يظهر من هذا الوصف: أن عيسباذ الكبرى امتداد لعيسباذ التي قال عنها ياقوت الحموي في معجمه : [وهذه محلة بشرق بغداد منسوبة لعيسى بن المهدي وأمه وأم الرشيد والهادي الخيزران، وكانت إقطاعا له][٢]- ويقول ياقوت في كلامه عن بغداد : [ثم أقطع المنصور أصحابه القطائع، وسميت بأسمائهم، وقد ذكرت من ذلك ما بلغني في مواضعه][٣].

---

(١) تاريخ الطبري ٣٧٨/٦.

(٢)معجم البلدان ٢٤٧/٦ .

(٣) المصدر نفسه ٢٣٦/٢.

فاستيعاب البحث يقتضي الرجوع إلى جغرافية مدينة بغداد وتاريخها ومعرفة من الذي أقطع عيسباذ لعيسى بن المهدي وأمه وأم الرشيد؟ هل هو المهدي بعد أن تولى الخلافة؟ أو هو المنصور الذي أقطع أصحابه القطائع وسميت بها؟ ثم ألم يسكن المهدي قصراً بعيسباذ إلا بعد أن تولى الخلافة وبنى قصره؟ أم كان يتردد عليها وهو ولي عهد أبيه المنصور؟!

ثم مما هو معروف : أن المفضل الضبي لزم المهدي منذ كان ولياً للعهد ، فلا يبعد أن يكون حماد قد اجتمع بالمهدي في عيسباذ المحلة المنسوبة إلى ابنه عيسى وأمه . فالذين أجمعوا على هذه الرواية ـ لم يصفوا عيسباذ بالكبرى ، ولم يعينوا محل الاجتماع، وهل كان في القصر الذي بناه المهدي بعد أن ولي الخلافة أو في غيره؟ كما هو واضح في رواية الأغاني التي اتفق عليها : (السعيدي الراوية) و (أبو إياد المؤدب) و(عبدالله بن مالك) و(ابن غزالة)[1] .

أما تلقيب المهدي بأمير المؤمنين في هذه القصة ، فإن من المألوف في كل جيل : أن الأعلام في القصص تلقب بأفخم ألقابها وآخرها إلا فيما ندر من الروايات التي يحرص رواتها القدامى على تحديد الزمن ـ فيقولون : عندما كان أميراً للمؤمنين ، أو ولياً للعهد ، وعندما كان وزيراً ، أو قبل أن يلي الوزارة ، فنعت المهدي بأمير المؤمنين ليس معناه : أن القصة حدثت عندما كان المهدي أميراً للمؤمنين .

فإذا كان من المحتمل أن تكون هذه القصة من خيال الرواة لا أصل لها ، فكذلك من المحتمل أن تكون قصة انبنت على خبر حقيقي. وسواء كان لهذه القصة ظل من الحقيقة أم لم يكن ، وسواء كان الخبر المنسوب للضبي عن حماد وأنه كان ينظم الشعر وينحله فطاحل الشعراء الجاهليين ولا يميزه غير ناقد عليم له أصل أم لا أصل له ، فإن تلك القصة بملابساتها ، وإن هذا الخبر بشكوكه ، يدوران حول حقائق تؤكدها المصادر العربية

---

(١) الأغاني ٨٥/٦ .

التي تقول : إن حماداً الراوية شاعر وله شعر معروف ، وإن حماداً من معاصري المفضل الضبي ، وإن لكل من حماد والمفضل صلات بالبيت العباسي خلفاء وأمراء ، ومكانة في مجالسهم.

٨- ومن الجدير بي هنا بعد الذي تقدم : أن أذكّر القارئ بما سبق الكلام فيه عن النصوص التي نجدها في مؤلفاتنا العربية ، متعارضة مثل : أقوال الرعيل الأول في موضوع التدوين في صدر الإسلام ، ومثل الأحاديث التي تروى عن رجل واحد مختلفة المعنى كحديث الذبيح الذي روي مرة عن (ابن عباس) : أنه إسحاق ، ومرة ثانية : أنه إسماعيل . لأقول له : إن مما نقل عن حماد وقيل عنه مختلف متناقض ، مثل ما نقل عن (الأصمعي) : [كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس فهو من حماد إلا شيئاً سمعناه من أبي عمرو بن العلاء] ، ونقل عن الأصمعي نفسه مرة ثانية أنه روى عن (يونس) قوله : [إني لأعجب كيف أخذ الناس عن حماد ، وهو يلحن ويكسر الشعر ويصحف ، ويكذب؟][1].

ففي الواقع : أن هذا التناقض في النصوص والتباين في الأخبار التي جمعها القدامى من المؤلفين مثل ابن جرير الطبري ، وأبي الفرج الأصفهاني والسيوطي وغيرهم ، كثيراً ما دفعت المحققين إلى دوامة لم ينج منها إلا القليل الذين استطاعوا الوصول إلى ساحل الحقيقة .

٩- فمن أنصار حماد من بالغ في ثنائه على حماد وعلى سعة اطلاعه ومعارفه. فلقد نقل (ياقوت الحموي) في (معجم الأدباء) عن (أبي جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨هـ) : [أن حماداً هو : الذي جمع المعلقات السبع الطوال] . ويؤكد مؤلف (نزهة الألباء) ومؤلف المزهر : أن حماداً هو : أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها[2] . ويؤكد (اليافعي) في (مرآة الجنان) : أن حماداً عليم بالشعر وأخباره ، وأيام العرب وأحداثها . ثقة عند

---

(١) **المزهر** ٢/٤٠٦ .

(٢) **نزهة الألباء** ، ص ١٧ ، **والمزهر** ١/١٧٥ .

الخلفاء والأمراء؛ يسألونه عن أشعار العرب وأنسابها وأيامها[1]، فحماد عند هذا الفريق أنار جانباً رائعاً من الأدب الجاهلي، ظهر واضحاً في المعلقات وغيرها مما رواه (حماد) من الشعر العربي.

ومن خصوم حماد من بالغ في النقد والتهم، فلقد قال عنه (سعيد بن وهب الثقفي) : [قلت له : أمل عليّ قصيدة لأخوالي (بني سعد بن مالك) فأملى قصيدة قال : إنها من نظم (طرفة) وهي قصيدة (الأعشى)]، وقال عنه (المفضل الضبي) ما سبق أن نقلناه عن الأغاني وغيرها، فيما تقدم : إن حماداً سلط على الشعر إلخ. وما قاله المفضل الضبي : فيه ثناء على علم حماد وفيه نقد وتهم لما يرويه من شعر شعراء الجاهلية والإسلام، وقال عنه (يونس) : [العجب لمن يأخذ عن حماد، كان يلحن ويكذب ويكسر][2]. وقال (الجمحي) : [أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثهم حماد الراوية، وكان غير موثوق به، وكان ينحل شعر الرجل غيره ويزيد في الأشعار][3] إلى غير ذلك من الآراء التي أُبديت في حماد وفي روايته، مما ينقلنا من موضوع ترجمة محدودة الأبعاد إلى موضوع جدير بأن يوضع فيه كتاب خاص بحياة حماد وآثاره؛ لسنا في حاجة إلى الانتقال إليه، فلقد عرفنا مما تقدم : أن حماداً نشأ في أسرة فارسية خاملة الذكر إلى درجة جعلت الأقوال تختلف في اسم أبيه. أهو : هرمز؟ أم ميسرة؟ أم سابور؟! وجعلت الشبهات تحيط ببداية حياته، هل كان كما يقول مؤلف الأغاني لصاً؟ - أو أنه موهوب لم تتح له ظروفه التفرغ إلا بعد جهد ومتاعب، وبعد أن لفتت الأنظار إليه رواية شعر الأنصار الذي قيل بأنه وجده مع رجل سطا عليه، أو أن حماداً توصل إليه في السنين الأولى من حياته التي شملها غموض أفسح المجال لأقاويل خصومه، فكثرة ما يرويه حماد يدل على أن الرجل اشتغل بالشعر من بداية حياته كغيره من

---

(١) **مرآة الجنان** ٣٢٩/١ .

(٢) **المزهر** ١٧٦/١، ٤٠٦/٢ .

(٣) **الأغاني** ٨٥/٦ وما بعدها ، **والمزهر** ١٧٥/١ .

الذين كانوا يتصلون برواة الشعر ويحضرون حلقاته، والذين لم ينتشلهم الحظ من أحضان الغموض، كما انتشل حماداً فعاشوا وماتوا مجهولين .. وكثرة ما يرويه من الشعر أثارت حول روايته الشكوك ، فنحن إذا اختزلنا عدد القصائد التي ادعى (حماد) أمام (الوليد) أنه يحفظها ، وافترضنا : أنه كان ينشد على كل حرف من الثمانية والعشرين حرفاً - خمس قصائد بدلا من مئة - فإن مئة وأربعين قصيدة لا تسلم من الشكوك بما في ذلك المعلقات .

وعرفنا أن حماداً كان راوية وشاعراً ، وكان نسابة ومؤرخاً ، وأن حماداً لم تشغله مجالسة الخلفاء والوزراء والأمراء وحلقات العلم، عن مجالس اللهو مع أصدقاء كان يرتاح لهم ويرتاحون إليه .. ومجالس لهو حماد اتخذها خصومه هدفاً لنقدهم، وموضوعاً للأقاويل التي أطلقوها حوله، وعرفنا : أن حماداً كان يأخذ من المدونات كغيره من الكوفيين أكثر مما كان يأخذه من حفظة الشعر من الأعراب، والاعتماد على المدونات هو الذي فتح باب النقد على حماد وسائر الكوفيين أمام منافسيهم البصريين، فقالوا عنهم : إنهم يزيدون في الرواية، ويعتمدون على مادوّن في الصحف!! - وعرفنا : أن الكثير مما دوّنه (الأصفهاني) عن حماد - تافه ومختلق، ولعل صلة حماد بالبيت الأموي هي : العامل الأول من العوامل التي جعلت الأصفهاني يحرص على تدوين كل ما يحط من كرامة حماد ، فالأصفهاني من الشيعة المتعصبين المبالغين في تحزبهم ضد كل من سار في ركاب الأمويين .

١٠- وهذا الذي عرفناه عن حماد يكفي لرسم صورة واضحة للرجل الذي وقف جهده على البحث في تاريخ الأدب العربي، وعلى معرفة أنساب البيوت القديمة؛ فخلّف لمؤرخي الأدب العربي ما وصل إليه من شعر شعراء الجاهلية وصدر الإسلام، ومن أبرزه : شعر شعراء المعلقات ، وخلف لمؤرخي الشعوب العربية ما عرفه من أيام العرب وأنسابهم .. فمهما اختلفت الأقوال في حماد الراوية؛ فحماد رجل أفاد التاريخ والأدب العربيين.

البحث الرابع :

أبو العباس : المفضل محمد بن يعلى الضبي

المتوفى سنة ١٦٨هـ

من موضوعات البحث :

١- المفضل : أديب سياسي .

٢- تواضع المفضل الضبي.

٣- حقائق أثبتت وجودها .

٤- ما قيل عن المفضليات.

٥- رصيد المفضل أفاد الباحثين.

أبو العباس : المفضل الضبي أو ابن أبي الضبي

١- يقال للمفضل الضبي : ابن أبي الضبي ، ويكنى : أبا عبد الرحمن. توفي سنة ١٦٨هـ وقال عنه (ابن قتيبة) . هو : [المفضل بن محمد من ولد (سالم بن أبي الضبي) وكان كوفيًا][١]. والمفضل الضبي ، أو ابن أبي الضبي : أديب سياسي . يقال : إنه خرج على (المنصور) مع (إبراهيم بن عبدالله بن حسن) فظفر به المنصور وعفا عنه. لزم (المهدي) وصنف له كتاباً أسماه (الاختيارات) وهو الكتاب المعروف اليوم باسم (المفضليات). ويقول (ابن النديم) : [والمفضليات هي مئة وثمان وعشرون قصيدة ، وقد تزيد وتنقص وتتقدم وتتأخر حسب الرواية ، والصحيحة . هي : التي رواها عنه (ابن الأعرابي) وله أيضاً كتاب (الأمثال) وكتاب (العروض) وكتاب (معاني الشعر) وكتاب (الألفاظ)][٢]. ويقول (السيوطي) عن المفضل : [وكان أوثق من روى الشعر من الكوفيين ، ولم يكن مختصاً باللغة والنحو ، وإنما كان يختص بالشعر ، وقد روى عنه (أبوزيد) شعراً كثيراً. قال (أبو حاتم) : كان أوثق من بالكوفة ؛ المفضل الضبي ، وكان يقول : إني لا أحسن شيئاً من الغريب، ولا من المعاني ، ولا تفسير الشعر][٣].

٢- وجاء في (المزهر) عن المفضليات : [أن (العباس بن بكار) أبدى إعجابه بالمفضليات فقال له المفضل : والله ما هذا الاختيار اختياري ، ولكن (إبراهيم بن عبدالله) استتر عندي ، فكنت أطوف وأعود إليه بالأخبار فيأنس بي ويحدثني ، ثم عرض لي خروج إلى ضيعتي أياماً . فقال لي : اجعل كتبك عندي لأستريح إلى النظر فيها ، فتركت عنده . قمطرين فيهما أشعار وأخبار ، فلما عدت وجدته قد علّم على

(١) **المعارف لابن قتيبة** ، ص ٥٤٥ .

(٢) **الفهرست** ، ص ١٠٢ .

(٣) **المزهر** ٢/٤٠٥ ، ٤٠٦ .

هذه الأشعار، وكان أحفظ الناس للشعر. فجمعت ما علّمه وأخرجته. فقال الناس: اختيار المفضل][1].

٣- ومما جاء في (المزهر) تستشف حقائق تلقي أضواءها على المفضل، منها: تواضع الرجل وصدقه، فهو في الرواية الأولى يقول: أنا لا أحسن شيئاً من الغريب إلخ، وهو في هذه الرواية يقول لابن بكار المعجب بالمفضليات: إنها ليست من اختياري. ومنها: أن المفضل لم يؤلف (المفضليات) للمهدي. وإنما هي اختيارات ضيفه (إبراهيم بن عبدالله). فهو: الذي لفت إليها نظر المفضل الضبي الذي أخرجها للناس، فقالوا عنها: مفضليات الضبي. ومن هذه الحقائق: الحقيقة التي تظهر لنا كلما بحثنا في آثار الرواد وتراثهم. ألا وهي: كثرة المشتغلين بالأدب والتاريخ وكثرة رواة الأخبار والأشعار، وكثرة الأحداث التي حالت بين الكثيرين وبين البروز إلا في بعض المناسبات. مثل (إبراهيم بن عبدالله). وحقيقة ثانية ما فتئت تثبت وجودها كلما بحث الباحثون في تراث الرواد وتراجمهم. ألا وهي: كثرة الأقوال التي تدور حول ما جمعوه؛ فهذا (العباس بن بكار) يروي عن المفضل أنه قال: إن (المفضليات). هي القصائد التي أشر عليها (إبراهيم بن عبدالله) إعجاباً بها .. وقول (ابن بكار) يدلنا على اختلاف أقوال القدامى؛ فقوله يختلف مع ما قيل عن (المفضليات) وإن المفضل جمعها للمهدي. كما اختلفت الأقوال على (سيرة ابن إسحاق) فقال بعضهم: إن (محمد بن إسحاق) ألفها للمهدي بأمر (المنصور)، وقال آخرون: إن (ابن إسحاق) ألفها قبل أن يتصل بالمنصور، وحقيقة ثالثة أثبتها البحث عن التدوين ومدونات قدامى الرواد. ألا وهي: كثرة مدونات القدامى من الرواد، لا سيما الكوفيون، ففي خبر (ابن بكار) أن (المفضل) ترك عند (إبراهيم بن عبدالله) قمطرين من مدوناته، كماترك (كريب) عند (موسى بن عقبة) حمل بعيرمن مدونات (ابن عباس). ولقد مر بنا: أن (حماداً الراوية) كان يحتفظ بمدونات، وكان يدون ما يصل إليه مشافهة، ويرجع إلى مدوناته كلما لزم الأمر إلى الرجوع إليها.

---

(١) المزهر ٣١٩/٢.

٤- فالمفضليات قليل من الكثير الذي جمعه المفضل الضبي؛ اختارها هو أو ضيفه (إبراهيم بن عبدالله). والمفضليات لم تسلم من الزيادة والنقص، ولا من التقديم والتأخير. فلقد مر بنا قول (ابن النديم) : [والمفضليات. هي : مئة وثمان وعشرون قصيدة، وقد تزيد وتنقص وتتقدم وتتأخر حسب الرواية]. وجاء في مصادر الشعر الجاهلي : [أن (أبا عكرمة) ذكر : أن أصل المفضليات التي اختارها المفضل. ثمانون قصيدة فقط ، ثم قرئت على الأصمعي فصارت مئة وعشرين، ثم إن (ثعلباً) روى عن ثلاثة من أصحاب الأصمعي : أنهم قرأوا عليه المفضليات، وأنهم بعد ذلك استقرأوا الشعر فأخذوا من كل شاعر خيار شعره وضموه إلى المفضليات ، وسألوا الأصمعي عن معانيه وغريبه ، وبذلك كثرت المفضليات جداً]. وفي المفضليات صورة رائعة للأدب العربي والعقلية العربية، والحياة العربية .

وللمفضل الضبي غير المفضليات : المؤلفات التي ذكرها (ابن النديم) والتي أبرزت جهد المفضل الضبي في المجال الأدبي وأخبار المجتمع العربي. فلقد نقل (ناصر الدين الأسد) عن (الموشح) لمؤلفه (المرزباني) : [وروى المفضل الضبي: خبراً عن (امرئ القيس) و (علقمة) وشعراً لهما حدثه به (أبو الغول النهشلي) عن (أبي الغول الأكبر)، ونقل عن (النقائض) : ويروي المفضل كذلك خبراً جاهلياً ذا إسناد عن يوم (أعشاش) ، ولقد أسهم المفضل في جمع شعر (امرئ القيس)][1].

٥- فأبو عبدالرحمن : المفضل الضبي ، بمفضلياته ومؤلفاته ورواياته يعد : مصدراً من مصادر الشعر العربي، وأخبار الشعراء وأيام العرب؛ فمما لا شك فيه : أن الرصيد الذي خلّفه له قيمته عند الباحثين في التاريخ والأدب في الماضي وفي الحاضر .

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي ، ص ٢٦٩ ، ٤٨٧ ، ٥٧٥ .

البحث الخامس :

أبو محرز : خلف الأحمر بن حيَّان

المتوفى سنة ١٨٠هـ

من موضوعات البحث :

١- أوجه الشبه بين خلف الأحمر وحماد الراوية ، والفوارق بينهما .

٢- تجني الخصوم والمتطفلين على التاريخ والأدب وأعلام الرواد .

٣- خلف أدى أمانة الرواية ومسئولية التاريخ .

٤- عصامية خلف .

٥- ما يسترعي الانتباه من أقوال النُّقَّادين .

٦- الخصومات الأدبية مثل الخصومات السياسية، لها أحزابها .

٧- هذا هو خلف الأحمر .

أبو محرز : خلف الأحمر

مولى أبي بردة بن موسى الأشعري[1]

١- ما كان لي أن أذكر خلفاً بعد أن تكلمت عن حماد الراوية، فما قيل عن حماد وعن مثاليته فيما يحفظ وقدرته على نظم الشعر وجرأته على إدخال ما ينظمه في دواوين الشعراء قيل عن خلف الأحمر الشاعر الراوية. أجل! ما كان لي أن أذكر خلفاً بعد أن ذكرت صديقه وأستاذه حماداً، لو لم تكن هناك صفات خاصة تيمز الواحد عن الآخر، ولو لم تكن تلك الصفات تفيد البحث في مصادر التاريخ العربي؛ فمن تلك الصفات التي تميز الواحد عن الآخر. أن حماداً كوفي المدرسة، أما خلف فمن أساتذة البصرة .. بيد أن اختلاف المدرسة لم يعصم واحداً منهما من الطعن فيما يرويه ، واختلاف المدرسة لم يقف في وجه الطباع التي تحكمت في تصرف كل من الرجلين، وإن كان تصرف كل من الرجلين لم يصل إلى ذلك المدى الذي وصلت إليه أقوال نقادهما ، فلقد كانت المدينتان : البصرة والكوفة مجالا لكل من الراويتين، ولقد كانت مدرستا المدينتين على ما بينهما من خلاف على بعض النصوص اللغوية والأدبية ذواتي أفق واحد.

٢- أجل ! ما كان لي أن أذكر خلفاً بعد أن تكلمت عن حماد لو لم تكن لخلف آثار شعرية رائعة أعجب بها نقاد الشعر الذين قالوا : إنه كان يقول القصائد الغرّ ويدخلها في دواوين الشعراء[2]. فمن الذين كانوا يقولون ذلك (أبو علي القالي) الذي شك في القصيدة المعروفة بـ (لامية العرب) والمنسوبة إلى (الشنفرى) والتي مطلعها :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم ... فإني إلى قوم سواكم لأميل[3]

---

(١) يقول ابن قتيبة: إن أبا بردة أعتق خلفاً وأبويه الفرغانيين. المعارف، ص ٥٤٤ .

(٢) المعارف ص ٥٤٤ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٤٤ .

ومن الذين اتهموا خلفاً بوضع غرر القصائد : (أبو حاتم) الذي قال عن (الأصمعي) : إنه سمع (خلفاً) ـ يقول : أنا وضعت على (النابغة) هذه القصيدة :

خيل صيام وخيل غير صائمة   تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما[1]

فاتهام خلف الأحمر من قبل (أبي علي القالي)، و(أبي حاتم)، و(الأصمعي) يدل على أن خلفاً كان ذا شاعرية في مقدورها أن تنظم مثل لامية العرب وشعر النابغة، لم يصل إليها حماد الراوية، وإن كان نقاد حماد وخصومه كانوا يقولون : إنه عليم باللغة ومذاهب الشعراء، وإنه من القادرين على نظم شعر في مستوى الشعر الجاهلي، وشعر الحطيئة؛ فلقد مرت بنا في ترجمة حماد الأبيات التي نسبها أبو الفرج الأصفهاني إلى حماد الراوية. ولقد رأينا فيها شعراً بعيداً عن مستوى لامية العرب.

وقوة هاتين القصيدتين اللتين قال عنهما نقاد خلف الأحمر : إنهما من نظمه تلفت نظرنا إلى رأي الذين رفضوا قول (أبي علي القالي) و(ابن دريد) في لامية العرب وإنها من نظم خلف[2]- فمن رأي هؤلاء : أن النفي مثل الإثبات يحتاج إلى أدلة تثبته، ولقد انحصر دليل الذين يشكون في كثير مما يرويه خلف : في معاني ذلك الشعر وبعدها عن أفق الأعرابي .. ففي بعض الشعر الذي رواه خلف : وصف دقيق لم يصل الشاعر الجاهلي إلى مستواه مثل : قول الشاعر ـ (جل حتى دقّ فيه الأجل)، وهذا الدليل في نظر هؤلاء لا يكفي؛ ففي الشعر الذي اتفقت الأقوال على جاهليته : معان لا تقل دقة وروعة عن الشعر العربي في مختلف عصوره. ولقد وقف (العتبي) في وجه النقاد يقسم بحماس : بأن ليس (لآل محرز . خلف الأحمر) بيت واحد من تلك القصيدة التي مطلعها :

إن بالشعب إلى جنب سلع   لقتيلا دمه ما يطل

---

(١) المزهر ١/١٧٦، ١٧٧.

(٢) مصادر الشعر الجاهلي، ص ٤٦٠ عن حماسة الخالديين، مخطوط في دار الكتب والوثائق القومية رقم ٥٨٧ أدب، ورقة ١٢٠ - ١٢٢.

هازئاً من الذين يصرون على أنها من نظم خلف الأحمر، مؤكداً: أن خلفاً نسبها إلى (ابن أخت تأبط شراً) وأنه رثى خاله، ومخالفاً الذين قالوا: إنها من شعر (الشنفرى) والذين قالوا: إنها من شعر (تأبط شراً) مثل (أبي تمام) الذي أثبتها في حماسته على أنها لتأبط شراً.

٣- ويلفت نظرنا ما قاله (الجاحظ): [ولقد ولد الرواة على لسان (خلف الأحمر) و(الأصمعي) أرجازاً كثيرة][1]. فلقد تجنى بعض الرواة على خلف وحماد فوضعوا شعراً ورجزاً، كما يقول ناصر الدين الأسد ـ بدافع العصبيات والخصومات، فهم نقلوا عن (الأصمعي): تهماً موجهة إلى خلف ليثبتوا: أن رواة الكوفة غير منقحين وأنهم أخذوا عن خلف الأحمر الذي أحدث السماع بالبصرة: أربعين قصيدة على أنها من شعر (أبي دؤاد الإيادي) وهي من نظم (خلف الأحمر)، فمن ذلك يظهر لنا: أن التهم لم تكن جميعها كوفية، بل إن كثيراً منها بصري وجهها بصريون إلى خلف الأحمر البصري!! ليقولوا: إن الكوفيين تعجبهم كثرة الرواة، وإنهم بكثرة الرواية يفتخرون[2].

ومن ذلك يظهر لنا: أن حزبية المتنافسين لا تتحرج من إقحام كبار الرواة فيما يسيء لهم سواء أكانوا بصريين أم كوفيين.

٤- ومن أهم الصفات التي تميز بها خلف الأحمر تنسكه بعد أن ودع صباه، فكان يختم القرآن في كل ليلة كما يقولون عنه، وكان كثير التحرج من تبعة ما يروى عنه، فلقد جاء في المزهر عن (محمد بن زيد): [أن خلفاً حاول التخلص من تبعة الشعر الذي رواه؛ فخرج إلى جماهير الكوفة وبين لهم الأشعار التي أدخلها في أشعار الجاهليين وشعراء صدر الإسلام، فقالوا له: أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة، فلم يغيروا فيما دونوه عنه شيئاً فبقي ذلك في دواوينهم[3]!!. وبذلك صح فيهم قول

(١) مصادر الشعر الجاهلي نقلا عن (الحيوان) ٤/١٨١، ١٨٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٥٦، وما بعدها.

(٣) المزهر ٢/٤٠٣.

البصريين : إنهم قوم تعجبهم كثرة الرواية!!. ويقول (محمد بن زيد) عن (خلف الأحمر) : [كان خلف أخذ النحو عن (عيسى بن عمر) وأخذ اللغة عن (أبي عمرو بن العلاء)، ولم ير أحد قط أعلم بالشعر والشعراء مثله، وكان يضرب به المثل، ثم نسك وبذل له بعض الملوك مالا عظيما على أن يشكره ولو ببيت فأبى ذلك!! وعليه قرأ أهل الكوفة أشعارهم ، وكانوا يقصدونه بعد ممات حماد الراوية؛ لأنه كان قد أكثر الأخذ عنه وبلغ مبلغاً لم يقاربه حماد][١]. وقال عنه (أبوعبيدة) : [خلف أستاذ (الأصمعي) ومعلم أهل البصرة][٢].

٥- ومن الصفات التي اشترك فيها الرجلان : حماد وخلف : العصامية ، فكلاهما من أسرة مغمورة غير عربية . فمثلما ولد حماد في أسرة ديلمية بلغ بها الانزواء إلى حيث اختلف الكاتبون عن حماد في اسم أبيه، كذلك ولد خلف في أسرة فرغانية منحها (آل أبي بردة) الحرية .. وإذا كان حماد قد تأثر بشعر الأنصار فاتجه إلى حفظ الشعر وروايته ونظمه، فقد تأثر خلف بمجالس (آل أبي بردة) الأدبية فاتجه هو كذلك إلى حفظ الشعر وروايته ونظمه، وكما قال الذين نقدوا حماداً : إنه كان ينظم الشعر ويدخله في دواوين الشعر، كذلك قالوا عن خلف : وكان خلف يضرب به المثل في عمل الشعر، وكان يعمل على ألسنة الناس فيشبه كل شعر يقوله بشعر يضعه عليه[٣].. بيد أن شعر حماد لم يبلغ مستوى شعر خلف، فشعر خلف عند ناقديه القدامى من الطبقة الأولى، فلقد قالوا عنه : كان خلف راوية عالماً بالغريب وشاعراً جيد الشعر كثيره لم يكن في نظرائه أحد يقول مثل شعره[٤]، وكان من أمرس الناس لبيت شعر. له من الكتب : كتاب (العرب وما قيل فيها من الشعر)[٥]. ونقل ناصر الدين الأسد عن

---

(١) **المزهر** ١٧٧/١ ، **ومراتب النحويين** ٧٥ ، ٧٦ .

(٢) **مصادر الشعر الجاهلي** ، ص ٥٥٤ عن **نزهة الألباء** ، ص ٧٠ .

(٣) **المزهر** ٧٦/١ ، ١٧٧ ، **والمزهر** ٤٠٣/٢ .

(٤) **المعارف** ، ص ٥٥٤ .

(٥) **الفهرست** ، ص ٧٤ .

مصادره : [أن لخلف ديوان شعر حمله عنه أبو نواس][1] إلى غير ذلك من الصفات التي تصور لنا خلفاً وحماداً بلون واحد ، ولا عجب في ذلك ، فإن خلفاً كان على صلة وثيقة بحماد إلى درجة جعلت البعض يعدّ خلفاً تلميذاً لحماد.

٦- والذي يسترعي اهتمام الباحث مما جاء في أقوال الناقدين : الرواية التي تقول : إن خلفاً عندما تنسك . بيّن للناس ما أدخله من الشعر في دواوين الشعراء، فنحن إذا ربطنا خبر (أبي حاتم) الذي جاء فيه : وكان خلف وضع على (عبد القيس) شعراً مصنوعاً عبثاً منه ، ثم تقرأ (تنسك) فرجع عن ذلك وبيّنه . بخبر (الأصمعي) الذي جاء فيه : قال خلف : أنا نظمت هذه القصيدة . خيل صيام إلخ . ونسبتها إلى النابغة . نصل إلى حقيقة تؤكد لنا : أن من الشعر الذي رواه خلف : شعراً منحولاً ، وأن خلفاً كان يسارّ تلاميذه وأصدقاءه بالشعر الذي ينحله ، ولما تنسك تحرّج من الشعر العابث الذي وضعه على عبدالقيس ، فصارح العامة بحقيقة ذلك الشعر ، ولكن العامة من الكوفيين لم يصدقوا خلفاً المتنسك.

وهذه الحقيقة التي تبدو لنا في تراجم رواد الشعر العربي هي التي أفسحت المجال للشك في الشعر الجاهلي؛ فبالغ البعض فلم يصدق بكل شعر جاهلي .

وهذا الشك الذي تجمع حول الرواد الذين رجع إلى أقوالهم المؤلفون في التاريخ الأدبي واللغة العربية وأيام العرب يضطر البحث إلى الإشارة إلى الحقيقة التي قابلتنا في تراجم رواد المغازي والسيرة وقصص الأنبياء ، والتي أكدت لنا : أن الخصومات والتطفل على التاريخ ساقا الكثيرين إلى إسناد روايات إلى ابن عباس وكعب الأحبار وغيرهما ليس لها أصل؛ فهذه الحقيقة التي ظهرت في تراجم أولئك الرواد ، تظهر في تراجم هؤلاء سافرة بدون حجاب ، فلقد تجنّى الكثير من رواة الشعر وأخبار العرب على خلف وحماد وغيرهما فرووا عنهما أشعاراً وأخباراً لا أصل لها . كما يقول الجاحظ!!

---

(١) **مصادر الشعر الجاهلي** ، ص ٤٤٤.

ونحن إذا ما تتبعنا الخصومات العلمية، نجدها إلى القرن الرابع عشر: تثير حول الأعلام من جهابذة العلم والرأي الغبار وتشوش الحقائق وتبعث الشكوك، فلقد قامت في أواخر العهد العثماني في الحرم النبوي: خصومة علمية بين (محمد التركزي الشنقيطي) وبين علماء المدينة وفي مقدمتهم (أحمد البرزنجي) أثارها الاختلاف على إعراب (عمر) أينصرف اسم (عمر) أم لا ينصرف؟ فاشتد الخلاف واشتدت معه حملات أنصار المدنيين على التركزي. فجردته من المعرفة والفهم، واشتدت حملات أنصار التركزي على المدنيين فوصفتهم بالجهل والغباء، وأخذ الحاملون على التركزي ينسجون قصصاً وأخباراً، وقابلهم الحاملون على المدنيين بقصص وأخبار لا حقيقة لها.

٧- فالخصومات، سواء كانت علمية أم سياسية لا تسلم من مبالغات الحزبية، ومما يثيره أنصار المتخاصمين من شكوك تلف بها الحقائق وتطوى معها في زوايا القدم، فيصعب على الباحثين المتأخرين الوصول إليها.. ومن هنا تنبعث المبالغات وتختلف الأقوال حول الحقائق، فإذ كان من الشعر الجاهلي شعر تحوم حوله الشكوك، كذلك من التهم التي انصبت على رواته تهم تحوم حولها الشكوك، فالشعر الذي قد يكون خلف وحماد أدخلاه في الشعر الجاهلي هو أقل مما تقدره الشكوك، وفيه الكثير مما رواه عنهم بعض الخصوم والمتطفلين كيداً ورجماً بالغيب.. فخلف عندما تنسك وصارح الناس بحقيقة الشعر الذي كان يرويه لم يقل: إن جميع ما رواه منحول من نظمه. وخلف الزاهد الذي لم تغره منح الملوك فيشكرهم ببيت واحد أدّى أمانة الرواية ومسئولية التاريخ حقّهما عندما صارح الناس بما أدخله على دواوين الشعراء.

هذا هو: خلف بن حيان. المكنى بأبي محرز: مولى آل أبي موسى الأشعري الذي اعتمد المؤلفون في التاريخ الأدبي وأيام العرب ولغتهم على أقواله، وهذه بعض المميزات التي امتاز بها خلف عن صديقه وأستاذه حماد الراوية.

البحث السادس :

أبوعبيْدة : معمّر بن المثَنّى

المتوفى سنة ٢١٠ أو سنة ٢١١هـ

من موضوعات البحث :

١- لأبي عبيدة صورتان : إحداهما مشرقة والأخرى قاتمة.

٢- الخصومة بين أبي عبيدة والأصمعي خصومة عنيفة وطويلة.

٣- إسحاق الموصلي كان وراء أبي عبيدة ضد الأصمعي.

٤- نقائص أبي عبيدة.

٥- أبو عبيدة لم يتهم في معارفه وإنما اتهم في أخلاقه.

٦- مركب النقص هو الذي أثار أبا عبيدة على مجتمعه.

٧- أبو عبيدة في التحقيقات الحديثة.

٨- رأي المستشرقين في أبي عبيدة.

٩- أبو عبيدة على حقيقته.

١٠- مصادر أبي عبيدة.

١١- أبوعبيدة مرجع من مراجع البحوث التاريخية.

أبو عبيدة : معمر بن المثنى

١- نحن إذا أردنا أن نتكلم عن (أبي عبيدة معمر بن المثنى) : نجد للرجل صورتين رسمهما المشتغلون بالأدب وتاريخه، واللغة ومفرداتها من القدامى الذين أحصوا كل صغيرة وكبيرة على أساتذة اللغة والأدب، ورواة الشعر وأيام العرب في الجاهلية وصدر الإسلام. صورة رسمها المعجبون بأبي عبيدة فلونوها بما يعرفونه عن سعة معارف أبي عبيدة، وعبقريته العلمية، ومكانه في مجال البحوث الرائدة، وما قدمه لهم من أشعار العرب ولغاتها وتاريخها، وصورة رسمها الناقمون على أبي عبيدة فلطخوها بما يعرفونه عن شعوبيته المتطرفة، وخشونة جدله، ومساوئه خارجيًّا يرجع إلى أصل يهودي، وشعوبياً تتبع عورات العرب وزاد عليها. وكما حمل أنصار أبي عبيدة الصورة الأولى في أروقة قصور العباسيين وأندية المثقفين وأسواق الأدب والتاريخ، حمل الصورة الثانية خصومه. ولقد زاد في حماس الأنصار والخصوم التنافس الذي كان بين (الأصمعي) العربي الأصل وبين أبي عبيدة العجمي الدم.

فالصورة الأولى تظهر لنا واضحة فيما نقله (السيوطي)[1] عن (ابن مناذر) الذي قال : [كان الأصمعي يجيب في ثلث اللغة وكان (أبوعبيدة) يجيب في نصفها، وكان (أبو زيد . من الأنصار) يجيب في ثلثيها، وكان (أبو مالك) يجيب فيها كلها]. ويقول السيوطي: [إن (ابن مناذر) يقصد : توسعهم في الرواية والفتوى، فالأصمعي كان يضيق ولا يُجوِّز إلا أصح اللغات، وأبوزيد من الأنصار، من رواة الحديث ثقة عندهم مأمون، وكذلك حاله في اللغة، وأما أبو عبيدة؛ فإنه كان أعلم الثلاثة بأيام العرب وأخبارهم وأجمعهم لعلومهم، وكان أكمل القوم. قال (عمر بن شبة) : كان أبو عبيدة -

---

(١) المزهر ٢/٤٠٣ .

يقول : ما التقى فرسان في الجاهلية والإسلام إلا عرفتهما ، وعرفت فارسيهما ، وهو : أول من ألف في غريب الحديث . وقال (الحافظ) : [لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم منه][1] .

وتبدو الصورة الثانية فيما جاء في المعارف لابن قتيبة الذي قال عن أبي عبيدة : [هو معمر بن المثنى مولى لتيم قريش. كان الغريب أغلب عليه وأخبار العرب وأيامهم، وكان مع معرفته ربما لم يقم البيت الذي ينشده حتى يكسره ، ويخطئ إذا قرأ القرآن، وكان يبغض العرب وألف في مثالبهم كتاباً ، وكان يرى رأي الخوارج ، ومات سنة ٢١٠ أو سنة ٢١١هـ وقد قارب المائة][2] . ففي هذه الصورة تتغلب مساوئ أبي عبيدة فلا نرى معها غير خطوط ضئيلة للصورة الأولى ، كما لا نرى في الصورة الأولى غير مثل هذه الخطوط للصورة الثانية.

فهاتان الصورتان كما تراهما تختلف ملامحهما ؛ فالذين يهمهم الشعر والتاريخ واللغة بحثوا في الجانب المشرق من حياة أبي عبيدة. أما الجانب القاتم فقد وجه الأنظار إليه الذين شغلوا بالخصومات والعنصرية وما لاقاه العرب من شرور الشعوبية والشعوبيين ، والذين شغلوا بالخصومات السياسية وما لاقته الدولة الإسلامية من شذوذ الخوارج وشرورهم.

٢- ولقد كان للخصومة التي اشتعلت بين (أبي سعيد عبدالملك الأصمعي) العربي الأرومة وبين (أبي عبيدة معمر بن المثنى) الأعجمي الأصل ، والتي استمرت زمناً طويلاً ، حيث يعد كل من الأصمعي وأبي عبيدة من المعمرين . أثرها في تلوين الصورتين. فلقد كان لأبي عبيدة تلامذة ومعجبون ، وللأصمعي تلامذة ومعجبون ، ولم يكن حماس الذين أعجبوا بأبي عبيدة وقدموه في بلاط الخلفاء العباسيين بأكثر من حماس المعجبين بالأصمعي الذين أفسحوا له المجال في مجالس البيت العباسي المالك .

---

(١) مرآة الجنان ٢/٤٤ .

(٢) المعارف ، ص ٥٤٣ ، والفهرست ، ص ٧٩ .

ففي مقدمة البواعث التي ذكرها المتحدثون عن تلك الخصومة : التنافس بين الرجلين على الصدارة في مجالس الخلفاء والوزراء وفي المحافل الأدبية . وفي القصة التي ذكرها (اليافعي) في كتابه مرآة الجنان . يظهر : أن الأصمعي . هو : الذي بدأ بالخصومة ، فلقد جاء في مؤلف اليافعي : [أن أبا عبيدة سئل في مجلس (الفضل بن الربيع) عن تفسير قوله تعالى : ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾[1] فالوعد والإيعاد لا يقع إلا بما قد عرف ، ورؤوس الشياطين لا تعرف!! فأجاب على ذلك التعليق: إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم. ومن كلام العرب . قول (امرئ القيس) :

أتقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

فامرؤ القيس وغير امرئ القيس من العرب لا يعرف الغول حتى يمثل بأنيابه] فأعجب الفضل بن الربيع والسائل والحاضرون بهذا الجواب ، فكان هذا الإعجاب هو الذي دفع أبا عبيدة لتأليف كتابه (المجاز) ، وكان كتاب المجاز هدفاً لنقد الأصمعي المتحفظ في كلامه عن القرآن .

ويقال : إن أبا عبيدة عندما بلغه : أن الأصمعي يعيب عليه كتاب المجاز ، وأنه يقول عنه: إنه يتكلم في كتاب الله برأيه ، سأل عن مجلس الأصمعي وذهب إليه ، وقال له : [يا أبا سعيد ! ما تقول في الخبز؟ أي شيء هو ؟ قال : هو الذي نخبزه ونأكله . قال أبو عبيدة قد فسرت كلام الله برأيك!! فإن الله تعالى . قال حكاية عن صاحبي يوسف في السجن : ﴿أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً﴾[2] فقال الأصمعي : هذا شيء بان لي فقلته ولم أفسره برأيي. قال أبوعبيدة: والذي تعيبه علينا كله شيء بان لنا فقلناه ولم نفسره برأينا][3].

---

(١) سورة الصافات، الآية : ٦٥.

(٢) سورة يوسف ، من الآية : ٣٦ .

(٣) مرآة الجنان ٢/٤٤ وما بعدها .

٣- ويقال: إن (إسحاق الموصلي) هو الشخصية التي كانت وراء أبي عبيدة، فهو الذي قدمه إلى (الفضل بن الربيع):

عليك أبا عبيدة فاصطفيه ... فإن العلم عند أبي عبيده

وقدمه وآثره عليه ... ودع عنك القريد بن القريده

والقريد بن القريدة في نصيحة (إسحاق) هو الأصمعي[١]!! ويقول (أبو الفرج الأصفهاني): إن [(إسحاق) كشف للرشيد معايب الأصمعي، ووصفه بقلة الشكر والبخل وضعة النفس، ووصف له أبا عبيدة بالثقة والسماحة والعلم، وفعل مثل ذلك للفضل بن الربيع، ولم يزل حتى وضع مرتبة الأصمعي وأسقطه عندهم، وأنفذوا إلى أبي عبيدة من أقدمه[٢].

فلا غرو! إن قدم (آل سهل) أعداء (آل الربيع): الأصمعي على أبي عبيدة، ولا غرو! إن تفرقت الأنصار من حول أبي عبيدة لتلتف حول الأصمعي، فلقد أفلت شمس آل الربيع وأشرقت شمس آل سهل .. حتى قيل: إنه عندما توفي أبو عبيدة لم يحضر جنازته أحد.

٤- ويقول البعض: إن الناحية الخلقية كانت العامل الأول في عزلة أبي عبيدة، فلقد كان أبو عبيدة سليط اللسان قليل المجاملة كثير النقد. فمما يحكى عنه أنه قال لمضيفه (على بن موسى) عندما أصاب شيء من الطعام ثوبه: لا عليك منه؛ إن مرقكم لا يؤذي: أي لا دهن فيه !! ويقال: إن الأصمعي إذا أراد دخول مسجد أو مجلس. قال: انظروا هل يوجد ذلك ! يقصد: أبا عبيدة؛ خوفاً من لسانه[٣].

---

(١) ضحى الإسلام ٧٥/١.

(٢) الأغاني ٣٥٢/٥، ٣٥٣.

(٣) مرآة الجنان ٤٦/٥.

فتقريب (المأمون) ووزرائه (آل سهل) للأصمعي، وشراسة خلق أبي عبيدة أتاحا المجال لخصومه أن يضعوا أبا عبيدة في نظر الجماهير في مكان لا يحسد عليه، لاسيما أن خصمه عرف بطلاقة اللسان وزخرف القول وحسن الإنشاد. وهذه كلها عوامل تجذب الجماهير وتبعث فيهم الإعجاب. فلقد قال (الباهلي) صاحب كتاب (المعاني) : [إن طلبة العلم إذا أتوا مجلس الأصمعي اشتروا البعر في سوق الدر. وإذا أتوا مجلس أبي عبيدة اشتروا الدر في سوق البعر!! لأن الأصمعي حسن الإنشاد والزخرف لرديء الأخبار والأشعار. حتى يحسن عنده القبيح. والفائدة مع ذلك قليلة، وأن أباعبيدة كان معه سوء العبارة ولكن فوائده كثيرة وعلومه جمة][1].

٥- فأبوعبيدة لم يتهم في كفايته العلمية - كما رأيت - وإنما اتهم في ميوله العقائدية، وفي تحزبه العنصري، وفي سوء عبارته، وعيّ لسانه، وتتبعه مثالب الناس، وطعنه في أنساب الأسر. ولعمر الله إن بعض هذه الصفات لا جميعها يكفي لأن يتجنب الناس أبا عبيدة؛ فلقد جاء في نهاية كلام اليافعي عن أبي عبيدة : [وقيل كان مدخول النسب، مدخول الدين، يميل إلى مذهب الخوارج، وفيه بعض أمور قبيحة، وكانت تصانيفه تقارب المئة][2].

ويذكر (ابن النديم) أبا عبيدة، فيروي قولين عن نسبه : الأول ويسنده إلى (أبي العيناء)؛ لأنه يهودي الأصل، والثاني ويسنده إلى (علان الشعوبي) : أنه من أصل فارسي أعجمي الأصل، ويلقب بسحب، وينقل عن (أبي العباس ثعلب) : أن جنازة أبي عبيدة لم يحضرها أحد؛ لأنه لم يكن يسلم منه شريف ولا غيره[3].

---

(١) مرآة الجنان ٤٦/٢ .

(٢) المصدر نفسه ٤٦/٢ .

(٣) الفهرست ، ص ٧٩ .

٦- ونحن لا نستبعد عن أبي عبيدة الطعن في الأنساب؛ فأبو عبيدة طعن في نسبه، وطعن في عقيدته، وطعن في خلقه، فلا غرو! إن تأججت في نفسه نار الحقد، فمركب النقص كثيراً ما دفع كبار الشخصيات إلى حماقات أساءت إلى تاريخها، ونحن لا نستبعد عن أبي عبيدة شراسة النقد، لا سيما في أيامه الأخيرة، فأبوعبيدة من العباقرة الذين شعروا بتجاهل المجتمع لهم وانصرافهم عنهم بعد تجمعه حولهم، فثارت ثائرته واشتدت نقمته على المجتمع. ولقد جاء في كتاب الأغاني : [أن السبب الذي دفع (زياد ابن أبيه) على تأليف المثالب. كان باعثه : أن زياداً علم أن الناس لا تقرّ ادعاءه إلى أبي سفيان، ثم بنى على ذلك (الهيثم بن عدي) . وكان دعيّاً فأراد أن يُعَيِّر أهل البيوتات تشفياً منهم، وفعل ذلك (أبو عبيدة معمر بن المثنى)، فقد كان أصله يهودياً أسلم جده على يد بعض (آل أبي بكر الصديق) فانتمى إلى ولايتهم، فجدد كتاب زياد وزاد فيه][١].

وأبو عبيدة عبقري ذكي علاّمة. نقل عنه مؤلف (المزهر)[٢] - قوله : ما التقى فرسان في الجاهلية والإسلام إلا عرفتهما وعرفت فارسيهما، وذكر له مؤلف (الفهرست)[٣] نحواً من مئة وثلاثة مؤلفات. وقال مؤلف (الأعلام) إن لأبي عبيدة مئتي مؤلف[٤]- وعبقرية كهذه لا تسلم من الشذوذ، والشذوذ كثيراً ما يدفع إلى العزلة- والعزلة كثيراً ما خيم ظلامها على حياة العباقرة .

٧- وأبو عبيدة في التحقيقات المتأخرة، وضع في إطار من المتناقضات، فلقد قال عنه (الزركلي) : [أبو عبيدة النحوي من أئمة العلم والأدب، وقال عنه (الجاحظ) لم

---

(١) الأغاني ٢١/٢٠ وما بعده .

(٢) المزهر ٤٠٣/٢ .

(٣) الفهرست ، ص ٧٩ .

(٤) الأعلام ١٩١/٨ .

يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه. وكان أباضيًّا شعوبياً من حفاظ الحديث]. وذكر الزركلي بعضاً من كتبه المخطوطة وكتبه المطبوعة. وقال عنه (عبدالعزيز الدوري): [وقد قام (أبو عبيدة) بدراسات واسعة تكاد تشمل حقل الروايات العربية الشمالية بكامله، وكانت هذه الروايات عائلية وروايات قبلية وروايات محلية؛ إضافة إلى روايات الرواة. وقد كتب أبو عبيدة عدداً كبيراً من الكتب في تاريخ العرب، وتاريخ صدر الإسلام، وقد كانت وجهته وجهة اللغويين. أي أنه يجمع الروايات المتعلقة بحادث أو موضوع في كتاب، وهكذا كتب عن المدن والأمصار وعن المفاخر والمثالب القبلية، وفي الأخبار: عن شخصيات تاريخية، وعن المعارك وعن الأحزاب (الخوارج) وعن القضاة، وعن الموالي؛ إضافة إلى دراسات أخرى عن الحديث، والقرآن، والشعر. واشتهر بعلمه بأيام العرب، وأصبحت دراساته للأيام أساساً للمؤرخين فيما بعد، وقد اعتمد أبوعبيدة بالدرجة الأولى على ملاحظاته المكتوبة، ومدوَّناته لا على الذاكرة، ووقف موقفاً يسيء إلى العرب في الصراع الثقافي بين العرب والشعوبية، وقد كتب (كتاب الموالي) تناول فيه المسلمين من غير العرب كما يبدو، وكتب: (كتاب أخبار الفرس) أو فضائل الفرس كما يسميه (ابن النديم) كما أنه كتب الكثير عن مثالب العرب. وكل هذا يتمشى مع الخط الثقافي الشعوبي، وهو لا يتهم بالوضع في رواياته ومنزلته العلمية عالية؛ إلا أن أخباره تكشف عن مثالب متسعة. ومن المحتمل أن يكون أبو عبيدة شعوبيّاً ممن يسمعون (أهل التسوية) وقد ينسجم هذا مع نسبته إلى الخوارج، وكان للحركة الشعوبية أثرها في الدراسات التاريخية، إذ أن أصحابها قاموا بجهود خاصة لتشويه تاريخ العرب والدسّ عليهم، كما أنها أدت إلى رد فعل واضح لدى العرب للقيام بدراسة واسعة لتاريخ العرب وأدبهم][1]. وقد عرض الدوري في كتابه (بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب) نماذج من كلام أبي عبيدة بصورة أوفى وأدق مما يرد في الأغاني؛

(١) علم التاريخ عند العرب، ص ٤٤ وما بعدها وص ٣٢٦.

على أن الحريص على معرفة أسلوب أبي عبيدة يجد في مؤلفاته المخطوطة والمطبوعة التي أشار إليها الزركلي، صوراً واضحة لأسلوب أبي عبيدة ونهجه .

وينقل (أحمد أمين) عن (رسائل البلغاء) : صورة من النقد الذي كان أبوعبيدة يوجهه إلى الحياة العربية، فيقول : [فقد عمد إلى مفاخر العرب فتهكم بها، كانوا يفخرون بقوس (حاجب) مع خساسة عوده وقلة ثمنه، ويذكر قول الشاعر :

فيا ابنة عبدالله وابنة مالك ويا ابنة ذي البردين والفرس الورد

فيهزأ بالشعر ويعجب في سخرية من التمدح بأن أباها ذو بردين وفرس ورد، ويقارن في ذلك بملوك فارس وتيجانها وأن (أبرويز) كان يرتبط تسعمائة وخمسين فيلا على مرابطه، وتخدمه ألف جارية، وفي حجرته التي يشرف منها على الداخل عليه ألف إناء من ذهب][(١)].

٨- وأبو عبيدة في بحوث المستشرقين : [مولى من موالي قبيلة (تيم) ولذلك كان يدافع عن حقوق الموالي ، وهو من أنصار الشعوبية، ويقال : إنه كان خارجياً ولكن مما يجب أن يُفهم: أنه اتفق معهم في بعض المسائل فقط، لذلك كان هناك من الأسباب ما يدعو إلى اتهامه بالزندقة، وقد أثار عليه خصوماً كثيرين أشاعوا عنه : أنه لا يحسن قراءة بيت واحد من الشعر العربي دون خطأ، ومهما يكن من الأمر، فإن أبا عبيدة كان أحد المتعمقين في دراسة اللغة العربية والآداب العربية القديمة، وصنف أبوعبيدة أكثر من مئة رسالة بقيت عناوينها][(٢)].

---

(١) ضحى الإسلام ١/ ٧١ . ولقد أخطأ أبوعبيدة في تقويمه الملوك ببذخها وترفها فالرجال تقدر بأفعالها فالعرب لا تفخر بشيء أكثر مما تفخر بانتصارها على ما بها من فقر على الدولة ذات المال والعتاد والأفيال، وما ذلك إلا بفضل الإسلام الذي جمع قلوبهم وطهرها .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٣٧٧ .

وجاء في سياق بحثهم في علم التاريخ : [وكان أبو عبيدة من المثل البارزة في ذلك النشاط ، فإنه لم يحمل اسمه أي بحث من المئتي بحث المنسوبة إليه. غير أن بعض هذه وردت بجوهرها في مصنفات ألفت فيما بعد آخذة بأطراف الرواية فيما يختص بشمال البلاد العربية ومنسقة في صورة سهله التناول كروايات القبائل المستقلة، وبطون القبائل، فيما يرتبط بالأيام، وتنسحب حتى على الروايات التالية لظهور الإسلام، وعلى الروايات التي احتوت شرح فتوحات الأقاليم المنقسمة بعضها على بعض . وكان أبوعبيدة متهماً بمحاولة الطعن في العرب لمصلحة الشعوبية، ولكن يستشف من تحقيق هذه التهم وجوب حسبانها حججاً على الدراية المجردة من الغرض والتحيز، لا على التحيز المقصود بالذات][1].

وجاء في حديثهم عن أيام العرب : [فقد وردت في (الفهرست) : أسماء كثير من المؤلفين الذين دونوا الأيام، كلها أو بعضها، ولم يصل إلينا واحد من مصنفاتهم، وإنما الذي وصل إلينا عدة مقتطفات لبعض الكتاب المتأخرين، وقد أخذ غالب هؤلاء عن أبي عبيدة. وهناك رواية مرجعها (ابن خلكان) تقول : إن أبا عبيدة خلف كتابين في أيام العرب أحدهما : موجز تحدث فيه عن سبعة وخمسين يوماً وآخر مسهب فصل فيه الكلام عن ألف ومئتي يوم][2].

٩- هذا بعض ما قيل عن أبي عبيدة - معمر بن المثنى - الذي قضى أكثر أيام حياته في خصومات علمية من أعنفها وأطولها : الخصومة التي قامت بينه وبين الأصمعي. فأبو عبيدة والأصمعي متقاربان في المولد، ومتقاربان في الوفاة، وكل منهما عمر نحواً من مئة عام .. ونحن إذا ما تتبعنا فصول تلك الخصومة نجدها : خصومة علمية بين علمين من أعلام اللغة وأخبار العرب وأشعارها؛ استغلها خصوم أبي عبيدة وأنصار

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٤/٤٨٥.

(٢) المصدر نفسه ٣/١٨١ ، ١٨٢ .

الأصمعي في إظهار عيوب أبي عبيدة ونقائصه ويسارية عقائده، فشوشوا عليه وأثاروا الغبار حوله .. ومما زاد موقف أبي عبيدة سوءاً وجعل ظله في المجتمع يتقلص : مكانة الأصمعي عند (آل سهل)، وفصاحته ولين طباعه، وما جبل عليه أبو عبيدة من عيّ وسوء عبارة وخشونة طباع زادها شراسة : رد الفعل الذي أخذ يتفاقم مع الأحداث التي صادفت حياة أبي عبيدة، فانساق مع أحقاد الشعوبية، وجاهر بآراء لم تكن في مصلحته ، وواجه المجتمع بفظاظة في النقد وجرأة في التحدث بمثالب الناس والتأليف فيها ، فلم يسلم من شره أحد كما يقول (أبو الحسن ـ ثعلب)، فكانت حياته الأخيرة ـ حياة عزلة؛ تجاهله الناس وجهلوا وفاته فلم يحضر جنازته أحد .

وهذه المآخذ كما هي واضحة في أقوال نقاد أبي عبيدة ـ لم ترق إلى مكانته العلمية؛ فلم يستصغر واحد من نقاده معارفه ، فكل ما قاله عنه (ابن قتيبة) و(ابن النديم) وغيرهما ممن نقد أبا عبيدة : أنه إذا أنشد بيتاً لم يقم بإعرابه، وأنه غليظ اللثغة!! فالعيّ زائداً اللثغة الغليظة يولدان ركاكة التعبير، ويتعثران بالمرء، إذا ما أنشد شعراً أو قرأ نثراً ، وإنني لأعرف كثيرين ممن تعمقت معارفهم في تاريخ الشعر : يكسرون الشعر إذا ما أنشدوه، وأعرف كثيراً ممن تعمقت معارفهم في اللغة وقواعدها : يلحنون إذا ما قرأوا في صحيفة أو في كتاب، ويكفي لتعرف ذلك إذا ما جلست بجانب الراديو واستمعت إلى محاضرة أو حديث، وأعرف : أن كثيراً من الذين لا شك في معرفتهم قواعد اللغة يخطئون في إعراب ما يقرأون لا لأنهم يجهلون القاعدة، بل بناء على ما يتبادر إلى ذهنهم في أثناء إلقائهم المحاضرة أو قراءتهم الصحيفة .

١٠- وأبو عبيدة كغيره من معاصريه تنحصر مصادره في أساتذة مدرستي الكوفة والبصرة ويعتمد على المدونات - كما تقول دائرة المعارف الإسلامية - ولكنه لا يهمل السماع : فلقد قام أبوعبيدة بدراسات واسعة تكاد تشمل الروايات العربية الشمالية بكاملها ، كما يقول عبدالعزيز الدوري .. ومما يلفت النظر : ما جاء في الأعلام عن

مؤلفات أبي عبيدة المخطوطة والمطبوعة، فدائرة المعارف الإسلامية تؤكد : أن مصنفات أبي عبيدة لم يصل واحد منها إلى الجيل المعاصر! ولعل كتَّاب دائرة المعارف الإسلامية يقصدون مؤلفات أبي عبيدة في التاريخ، فالمؤلفات التي ذكرها الزركلي. هي : (نقائض جرير والفرزدق) و (مجاز القرآن) الجزء الأول. و (العتقة) و (البردة. رسالة). فقد قال عن هذه : إنها طبعت. ولعل النقائض أكثرها انتشاراً. أما المؤلفات المخطوطة فمنها (طبقات الشعراء) و (المحاورات) و(الخيل) و(إعراب القرآن) .

والذي يبدو من أسماء المؤلفات التي ذكرها (ابن النديم) أن منها مؤلفات تشبه الموسوعات ، ومنها رسائل تشبه تلك التي ألفها (ابن الكلبي) فيما ألفه من مؤلفاته الكثيرة، والذي يبدو مما قيل عن أساتذة أبي عبيدة ومصادره : أن (أبا عمرو بن العلاء) في طليعة الذين تتلمذ لهم أبو عبيدة، وأن من مصادره (مسحل بن زيداء) وزيداء هي : بنت (جرير) الشاعر العالم بالأنساب، وجرير. هو : تلميذ جده (الخطفي: حذيفة بن بدر) المعروف بسعة معلوماته في النسب وفي أخبار العرب[1]، ولذلك قيل عن دراسات أبي عبيدة: إنها تعتمد على الرواية العائلية .

وثقة أبي عبيدة بالشعر الجاهلي لا تقل عن ثقة غيره بذلك الشعر ، فهو إذا أورد شعراً جاهلياً وصفه بالشعر الثابت .. ومما جمعه أبو عبيدة من أشعار العرب : شعر (امرئ القيس) ولم يطعن فيما جمعه أبو عبيدة أحد على ما أعلم .. مع أن هناك آخرين كانت لهم مجموعات لامرئ القيس يختلف بعضها عما جمعه أبو عبيدة .. وديوان (زهير) في تحقيق (ناصر الدين الأسد) يرجع إلى أصول بصرية منها : ما هو منسوب إلى أبي عبيدة، ومنها : ما هو منسوب للأصمعي ، والذي لم يذكره الأصمعي. قال عنه (أبو حاتم) : [لم يعرفه الأصمعي، وعرفه أبو عبيدة][2].

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٦٦ .

(٢) مصادر الشعر الجاهلي ، ص ٥٢٩ .

وإني لا أستبعد أن يكون أبوعبيدة رجع إلى مصادر غير عربية فيما يعود إلى التاريخ العربي وإلى غير التاريخ العربي من مؤلفاته، فالذي يستقصي أخبار العرب ويجمع أشعارها؛ خليق بتتبع الأخبار التي لها صلتها بالفرس في مصادرها غير العربية مثل: (يوم ذي قار) وتاريخ اللخميين في الحيرة؛ فمن المعروف: أن أبا عبيدة من الذين كانوا يرجعون إلى المدونات. وفي كلامه عن (يوم كلاب) وعن (قباذ) ما يدل على أن الرجل يرجع إلى مدونات عربية وغير عربية[1].

١١- وفي ختام هذه الترجمة التي حرصنا على أن تكون مختصرة وملمة بحياة أبي عبيدة، ومعارفه، وتراثه ومصادره؛ لا بد لنا من أن نقول: إن أبا عبيدة علَم من أعلام الثقافة العربية، ومرجع من مراجع البحوث التاريخية واللغوية والأدبية، وإن صورتي أبي عبيدة اللتين شاهدناهما فيما تقدم حفلتا بمعان كثيرة تلفت النظر إلى ما كان عليه المجتمع في القرن الثاني من الهجرة النبوية في العراق، وما كان عليه جهابذة العلماء الذين وثق بما قالوه وجمعوه مؤلفو الموسوعات التاريخية، وتلفت النظر إلى مصادرهم التي اعتمدت عليها أقوالهم وتحقيقاتهم.

---

(١) الأغاني ٢٠٧/١٢.

الفصل الثاني عشر

أعلام المؤلفين في التاريخ العربي بعد القرن الثاني من الهجرة

١- أعلام المؤلفين في التاريخ العربي ومؤلفاتهم .

٢- فهرست الموسوعات ومؤلفوها .

٣- المستشرقون، والآثار، وعلم الجيولوجيا .



المبحث الأول :

أعلام المؤلفين في التاريخ العَربيّ ومؤلفاتهم

من موضوعات البحث :

١- التاريخ العربي وكثرة التحقيق فيه .

٢- التاريخ العربي مازال بعضه مغلفاً بالشكوك.

٣- الموسوعات التاريخية؛ نتيجة جهد ومتاعب.

٤- الموضوعات التي عني بها المؤرخون.

٥- مسيرة التاريخ العربي ومراحلها.

٦- من هو المؤرخ بين المؤلفين في التاريخ؟

٧- مرحلة الانتقال من الموسوعات التي تشمل التاريخ العربي إلى الموسوعات التي تعنى بالقطرية : هي بداية التخصص في علم التاريخ.

٨- المؤرخون في الأقطار الإسلامية بعد القرن الثامن من الهجرة.

٩- الموسوعات التي على البحث أن يختارها نماذج للدراسات التاريخية.

١٠- ابن خلدون ونقده.

١١- التأليف التجاري.

أعلام المؤلفين في التاريخ العربي ومؤلفاتهم

١- لا إخالني مبالغاً، إذا قلت: إن التاريخ العربي هو في مقدمة التواريخ التي تناولتها دراسات علمية لم تغادر صغيرة ولا كبيرة؛ إلا ألقت عليها نظرة فاحصة مستقصية، وإنه على ما بذله جامعو التاريخ العربي من جهد في تقصي الحقائق، وفي تحقيق سند الأخبار؛ لا تزال الأضواء تسلط على قضايا التاريخ العربي، وما زال النقاش فيها يتجدد .. وإن التاريخ العربي في مقدمة التواريخ التي لم يهمل الباحثون جانباً من جوانبها، وإنه على ما فقدته المكتبات العربية من المؤلفات التي أحصاها (ابن النديم) في (الفهرست) و (حاجي خليفة) في (كشف الظنون)؛ فإن ما وصل إلينا من الموسوعات التاريخية شيء كثير، وإن في هذا الشيء الكثير الذي وصل إلينا مُثُلاً حافلة بكل ما في الحياة الماضية من تجارب، وما في التجارب من درس ومواعظ .. وإن هذا الشيء الكثير ما زالت تنميه دراسات الأجيال؛ فتضيف إليه موسوعات حافلة بتحقيقات علمية كموسوعة جواد علي، وفيليب حتي وغيرهما من علماء التاريخ.

٢- ولا إخالني مبالغاً، إذا قلت : إن النقد على كثرته، وإن التحقيق على تعمقه لم يزيلا كل لبس وشك عن تاريخ أرض الأنبياء والمقدسات والحضارات؛ أرض الطرق التجارية العالمية، والموانئ البحرية الإستراتيجية، والمعادن النادرة الغالية، والأنهار التي تفيض خيراً وبركة؛ فما زالت هناك غوامض أفسحت مجال النقاش والتحقيق لطلاب الحقائق التاريخية، وما زالت كل جولة يقوم بها الباحثون المحققون تنتهي بنتائج ذات نفع في معرفة الصواب والخطأ في حياة الراحلين الذين ورثنا بعدهم الأرض

العربية بتاريخها ومقدراتها، والتي سنورثها الأجيال القادمة كما ورثناها من أسلافنا، وسيناقش خلفنا هذه الحقبة التي تحملنا فيها تبعة التاريخ، كما نناقش اليوم أسلافنا الذين تحملوا مسئوليات حقب الماضي وتبعاتها.

٣- ولا إخالني مبالغاً، إذا قلت: إن الموسوعات التي عالجت قضايا التاريخ: السياسة والاجتماعية والجغرافية والعلمية؛ هي ثمرة متاعب لا يتحملها؛ إلا الأفذاذ مثل أولئك الذين ساروا في مسالك التاريخ يجمعون لنا أنباء ماضيهم، ويسجلون أحداث حاضرهم: من مسارح السياسة وميادين المعارك، ومعامل الصناعة، وحقول الزراعة، وأساطيل الحرب والتجارة، ومن حلقات العلم، ومجالس الشعر والغناء، وسمر الظرفاء وخدور الحسان اللواتي شاركن في تطور الحياة العربية، إلى غير ذلك مما تجمع منه التاريخ السياسي والأدبي والاقتصادي.

فأنت إذا ما بحثت في أي جانب من جوانب التاريخ العربي ولون من ألوانه، تجد: موسوعات ضافية فيها ما هو في نظرك غث، وقد كان في نظر الأقدمين سميناً، وفيها ما تراه لبحثك جوهراً ثميناً، وقد كان في بحوث الذين سبقوك تافهاً جاءت به المناسبة فتكلم عنه المؤلف بإيجاز وبدون تعليق .. ونجد مؤلفي هذه الموسوعات يحاولون وضع الحياة العربية تحت الشمس، فلم يهملوا التحقيق في مشكلات الإنسان العربي: السياسة والعلمية والاجتماعية، بل هم أخذوا يحققون بكل ما كانوا يملكون من موازين ومؤهلات، وتجد: الكثير منهم سار مع التاريخ العربي من بدايته؛ محاولين تصوير تطوراته، وما كان ينتاب الأمم العربية من نشاط وخمول وبروز وانزواء؛ تبعاً لجدية المسئولين عن مقدراتها، وحماس المتكفلين بمعارفها؛ فهم يبحثون عن عوامل النصر والهزيمة، وارتفاع المستوى الخلقي وانحطاطه، والخلاف المذهبي والتباين العنصري، والنشاط العلمي إلى غير هذا من الموضوعات ذات الأثر في المجتمع العربي والصور التي تجمع منها التاريخ مثل: مجالس المتجادلين ونوادر الرحالين ونكات البخلاء وألحان المغنين، ومثل الأطعمة وألوانها والأشربة ومزاجها والملابس وأنواعها، وكل ما يصور لنا حياة الماضي ومبلغ حضارته.

٤- فالمؤرخون العرب لم يقتصر نشاطهم على الكلام عن التاريخ السياسي ونشوء الدول والشعوب مثل : (ابن جرير الطبري) و(ابن كثير) و(ابن الأثير) وغيرهم؛ فمنهم : الجغرافيون الذين قدموا لنا مؤلفات جغرافية لها قيمتها مثل : (المسالك والممالك) و(صور البلدان) ومنهم : مؤلفون صنفوا في الحياة الاجتماعية مثل : (المبرد) مصنف كتاب (الكامل) و(ابن عبدربه) مصنف كتاب (العقد الفريد) وابن قتيبة مصنف (عيون الأخبار)، و (أبو الفرج الأصفهاني) مؤلف كتاب (الأغاني). ومنهم: المؤلفون في اللغة، ومنهم : المؤلفون في الأنساب، ومنهم: المؤلفون في التراجم، ومنهم المؤلفون في الشعر والشعراء مثل : (ابن دريد) و (ابن الكلبي) و (ابن عبدالبر) و(بن سلام الجمحي) .. فكل واحد من هؤلاء ألف موسوعة علمية لها قيمتها، وكل موسوعة من تلك الموسوعات ـ هي : جزء مكمل للتاريخ لا يستغني عنه الباحثون في التاريخ العربي وأطواره .

٥- ونحن إذا ما تتبعنا المراحل التي قطعها المؤلفون في التاريخ نجد : المسيرة بدأت بجمع الأخبار الجاهلية والإسلامية وكل ما له صلة بالتاريخ العربي، وبالقصص القرآني، ونجد السائرين بدأوا بجمع نصوص من أفواه المخضرمين، وأبطال المغازي، ورواة الحديث، ومما وصل إليهم من الإسفار وعنها، ومن ذخائر (الحيرة) ومخطوطات السريان وتراث فارس واليونان والبيزنطيين والحميريين . ونجد الطليعة من الرواد بدأت بتدوين ما جمعته تدويناً بدائياً لا يصح أن نسميه تأليفاً ـ مهدوا به الطريق لخلفهم الذين نهضوا يجمعون شتات الروايات ويربطون حلقات الأحداث في مؤلفات تدرّجت في أسلوبها وفي تحقيقها مسايرة التطور الفكري .

وما فتئت المسيرة تنتقل من مرحلة إلى أخرى .. ففي القرن الرابع من الهجرة بدأ المؤلفون في كتابة الحوليات، وأخذوا يفردون كل عام بحوادثه، ويقدمون السابق تاريخه على المسبوق، متطورين في التنسيق إلى أن بلغت المؤلفات التاريخية المستوى الذي وصلت إليه موسوعة (ابن كثير) التاريخية (البداية والنهاية). وهذه الحوليات التاريخية، وإن أفادت باستيعابها الأحداث، وتاريخ حدوثها، لم تتح لمؤلفيها فرصة التعمق

والتحقيق التي أتاحها التفرغ للكتابة عن تاريخ قطر من الأقطار، أو مدينة من المدن، أو دولة من الدول؛ ولذلك نجد المادة التاريخية في الموسوعات العامة محدودة وغير متعمقة.

وما فتئت المسيرة تتكبد المتاعب في الوصول إلى حقائق الأحداث في ذلك الزمن الذي لم تكن فيه وسائل الإعلام كوسائل الإعلام المتوافرة للمؤرخ المعاصر، فكان من ذلك أن انحصرت المصادر السياسية في المقربين من رجال الدولة الذين وضعوا القضايا التاريخية في إطار يرضي المسئولين عنها. أما المؤرخ العادي، فلم يكن في مقدوره غير الكتابة عما يشاهده وعما يسمعه، مما يتداوله ويفسره رواة الأخبار؛ أما أسرار الدولة وخفايا مخططاتها فبعيدة عنه، كما هو الحال في عصر البرلمانات والأحزاب، فما يبرم في الخفاء غير ما يناقش علناً في المجالس النيابية، وبالأكثر في البلاد التي تخضع للديكتاتورية ورقابتها.. على أن المؤرخين في الوقت الحاضر يجدون فيما تذيعه محطات الراديو العالمية، وما تنشره الصحف المتحررة من الرقابة، من تصريحات وبيانات وتعليقات ما يكشف لهم بعضاً مما يبرم وراء الأبواب المغلقة.

بيد أن كل العقبات التي كانت تواجه المؤرخ، والصعاب التي كان عليه أن يتحملها، لم تثن عزيمته عن السير قدماً بعلم التاريخ، وعن العمل الدائب لتطوير البحوث التاريخية حسبما تقتضيه الفهوم المتطورة مع الزمن، فكما تطور تنظيم الموضوعات وتنسيقها، تطور كذلك أسلوب المؤرخين .. فمن الإنشاء المرسل إلى الإنشاء المسجع، ثم التحرر من السجع وقيوده.

٦- ولقد أسهم الشعر في تسجيل الأحداث التاريخية، فهناك مؤرخون ألفوا التاريخ نظماً مثل: (نشوان الحميري) الذي نظم قصيدة شملت تاريخ اليمن، ومثل: (ابن عبدالظاهر) الذي ألف للسلطان (بيبرس)، تاريخاً منظوماً .. وكما تنوعت أساليب التدوين كذلك تنوعت الدراسات، واختلفت أحكام المؤرخين على النتائج؛ متأثرة بالأساطير التي لم تفارق التاريخ، والتي تكرر الكلام عنها، ومتأثرة بالنزعات العنصرية والعقائدية، وهكذا تكدّست المؤلفات في التاريخ على رفوف المكتبات

العربية ، وتكدست أمام القراء والباحثين أنواع من العقليات والمناهج والأساليب . وليس من الممكن أن نتحدث في هذا البحث عن جميع المؤرخين الذين أحصتهم معاجم المؤلفين . ونقدم صورة لكل موسوعة من مؤلفاتهم، ولكن لا بد مما ليس منه بد ، لا بد من تقديم مشاهير الأعلام الذين ظهروا فيما بعد القرن الثاني من الهجرة على الرغم مما في ذلك من متاعب البحث عن المشاهير بين المؤلفين ، واختيار النماذج الصالحة من الموسوعات التي وصلت إلينا .

لقد قدمنا فيما سبق من هذا الجزء تراجم بعض الرواد الذين جمعوا الأحاديث النبوية وآثار الصحابة والأخبار التاريخية ، والأنساب ، وأشعار العرب ولغاتهم وأيامهم، والذين نقلوا إلى اللسان العربي تراث الأقدمين، والذين ألفوا في الجغرافية والاجتماع . من أعلام القرنين: الأول والثاني من الهجرة ، كجزء متمم للنصوص التاريخية ، فلقد أصحبت أقوال أولئك الأعلام نصوصاً اعتمد عليها المؤلفون في التاريخ؛ فعلينا الآن أن نختار من أعلام المؤلفين من أصبحت مؤلفاتهم مراجع للمشتغلين بالتاريخ والمتخصصين في دراساته .

وعملية الاختيار ليست بالأمر السهل ، فقليل من المؤرخين هم : الذين لم يخرجوا عن محيط التاريخ مثل : ابن إسحاق ، وابن جرير ، وابن خلدون .. فنحن إذا ما ألقينا نظرة على معاجم المؤلفين نجد : الغالبية الساحقة من المؤرخين لم تقتصر على التأليف في التاريخ، ونجدها قد خرجت بما ألفته في غير التاريخ عن دائرة التاريخ واختصاصاته .. الأمر الذي يجعلنا نسأل : من هو المؤرخ؟! هل هو : كل واحد دوّن الأحداث؟! وأخصر جواب عن هذا السؤال .. مع التسامح أن المؤرخ : هو من تعمّق مع حقائق الماضي وقدّم للحاضر : صوراً واقعية ، فأفاد بمؤلفاته في التاريخ بمثل ما أفاد بمؤلفاته في غير التاريخ، سوءا تفرغ للتاريخ وكل ما له صلة بالتاريخ مثل : (ابن جرير الطبري)، أم لم يتفرغ له؛ فمحمد بن حبيب أفاد بكتابه (المحبر) مثلما أفاد بكتابه (الأنواء) وعرفه الناس مؤرخاً مثلما عرفوه نقادة للشعر.

٧- والقليل من الموسوعات التاريخية هي : التي تقيدت بالمادة التاريخية، واقتصرت على لون من ألوانها؛ فلقد تنوعت البحوث التاريخية تبعاً لتنوع الحياة في الشرق العربي وتطورها، وامتدت مع امتداد الدولة الإسلامية، واتساع رقاعها، وكثرة أحداثها، وتزاحم عناصرها، لا سيما في الزمن الذي أخذت اللامركزية: تعزل الأقطار الإسلامية بعضها عن بعض، وتدفع شعوبها إلى الاستقلال عن عواصم الخلافة في (آسيا) و (إفريقية) و(أوربا)؛ فكما فرض واقع الدول التي نشأت في (الأندلس) الاستقلال عن عواصم الخلافة، فكان على المؤرخين : أن يفصلوا تاريخ الأمويين في أوربا عن تاريخ العباسيين في آسيا .. كذلك فرضت الدول التي استقلت عن (قرطبة) على المؤرخين : أن يكتبوا عنها وعن دول الطوائف في الأندلس التي آلت بها الخصومات إلى الفناء والاضمحلال، وكذلك فرض واقع الدول التي استقلت عن (بغداد) في إفريقية وفي آسيا على المؤرخين : أن يؤلفوا لتلك الدول تاريخاً خاصًّا بها، وفي كل جانب من جوانب حياتها.

وأمام هذا الواقع لم يكن للمؤرخ مناص من الانتقال من عمومية التأليف في التاريخ إلى الجزئية، فأفرد كثير من المؤرخين كل قطر بتاريخه، وأكثر من ذلك أصبح لأكثر الحواضر الإسلامية تاريخ طويل حافل بأحداث لم ير المؤرخون بدّاً من التفرغ للكتابة عنها، وأصبح الذين جمعوا بين الكتابة في التاريخ العام وبين الكتابة في التاريخ الخاص قلة بين المؤرخين.

فهذه الخصوصية وإن كانت تعد نوعاً من البحث المتعمق، وبداية للتخصص، كما نرى ذلك في تاريخ (مكة) للفاسي ، وتاريخ (دمشق) لابن عساكر، وتاريخ (بغداد) لأحمد بن طيفور؛ لم تخرج عن أفق التاريخ ، من حيث نوعية الموضوعات ومصدرها، ومنهج التأليف وأسلوبه، واعتماده على الرواية، وعدم الحيطة فيما ينقله المؤرخ من أخبار.

٨- وجدير بنا وقد تحدثنا عن التاريخ العام والتاريخ الخاص : أن نلقي نظرة عامة على الثقافة التاريخية؛ عندما انتشرت المكتبات العامة والخاصة، وكثرت مدارس التعليم وتنوعت مناهجه، وأخذت الحواجز الدولية تفصل تاريخ الأقطار الإسلامية بما فيها الأقطار العربية - بعضه عن بعض .. بكل ما يفرضه الانفصال السياسي والإداري. فلقد كان من الطبيعي أن تصاحب استقلال الأقطار عن الخلافة، تجزئة التاريخ، وتستحوذ تجزئة التاريخ على نشاط المؤلفين، وأن يبرز في كل قطر أعلام ينتمون إليه .. ويعدّ الأندلس من أغنى الأقطار برجال التاريخ، فقد نبغ فيه كثيرون مثل: (ابن القوطية) المتوفى سنة ٩٧٨هـ، وقد ألف كتاب (تاريخ الأندلس)، و (ابن الفرضي) المتوفى سنة ١٠١٢هـ، وقد ألف كتاب (تاريخ علماء الأندلس)، و (لسان الدين بن الخطيب) وغيرهم، كما نبغ في مصر (المقريزي) المتوفى سنة ٨٢٥هـ، و(العيني) المتوفى سنة ٨٥٥هـ، و (أبو المحاسن) المتوفى سنة ٨٧٣هـ، و (علي بن داود الجوهري) المتوفى سنة ٩٠٠ هـ، و(شمس الدين السخاوي) المتوفى سنة ٩٠٢هـ، و(جلال الدين السيوطي) المتوفى سنة ٩١١هـ، و(ابن إياس) المتوفى سنة ٩٣٠هـ. وظهر في سوريا والعراق نوابغ أفادوا الباحثين بما ألفوه من تواريخ .. وظهر في أقصى الشرق الإسلامي مؤرخون لمؤلفاتهم قيمتها مثل: (همام الدين خاوند) المعروف : بميرخوند - المتوفى سنة ١٤٩٩م؛ فقد استدل بمؤلفاته على أن النقد الورقي استعمل منذ أواخر القرن الثالث عشر من الميلاد. كما ظهر في أقصى الشمال (حاجي خليفة - كاتب جلبي - مصطفى بن عبدالله) المتوفى سنة ١٠٦٩ مؤلف كتابه المشهور (كشف الظنون) وكتاب (تاريخ كبير) و (مرآة الدنيا) الرسالة التي وضعها في علم الجغرافية، وكما ظهر في الحجاز (أبو الطيب الفاسي) المتوفى سنة ٩٣٢هـ مؤلف كتاب (تاريخ مكة) و(نور الدين السمهودي) المتوفى سنة ٦٧١هـ مؤلف كتاب (وفاء الوفاء في أخبار دار المصطفى) و(خلاصة الوفاء) و(ذروة الوفاء) .. وغير هؤلاء كثيرون في كل قطر عربي وإسلامي في الشرق الأوسط. أما الذين نبغوا فيما بين القرن الثاني والثامن من الهجرة فسنختصر تراجمهم في البحث الآتي.

٩- والموسوعات التي وضعت في التاريخ العام أو الخاص كثيرة ومتنوعة الموضوعات؛ فمنها : ما وضع في التاريخ السياسي، ومنها : وما وضع في التاريخ الأدبي والاجتماعي، ومنها : ما وضع في التراجم .. وليس من الضروري للبحث : الحديث عن كل موسوعة وموضوعها، وإنما المهم للبحث هنا : أن نختار من بين الموسوعات التاريخية : الموسوعات ذات الفائدة لهذا البحث، ولاشك في أن موسوعة (ابن جرير الطبري) التاريخية هي : من أكثر الموسوعات فائدة للبحث، فهي مثل للاعتماد على النص والحرص على سند الرواية، وأنموذج للمنهج الذي درج عليه بناة التاريخ الأولون. كما أن موسوعة (ابن خلدون) التاريخية بمقدمتها تمثل المنهج الذي جد على البحوث التاريخية، والذي يميل إلى نقد الخبر والتحقيق في الرواية .

ولقد أغنتنا مقدمة تاريخ (ابن جرير الطبري) عن إطالة الكلام عن أسلوب القدامى من المؤرخين، فالطبري يقول في صراحة : [ليعلم الناظر في كتابنا هذا : أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه مما اشترطت أني راسمه فيه، إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه، دون ما أدرك بحجج العقول وأستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين، وما هو كائن من أنباء الحادثين غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم إلا بإخبار المخبرين ، ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس، فما يكون في كتابي من خبر ذكرناه عن بعض الماضين، مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولا معنى في الحقيقة؛ فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا وإنما أتى من قبل ناقليه إلينا.. وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدِّي لنا] .

فالطبري بما قاله في مقدمة تاريخه رسم لنا : صورة واضحة لمؤلفه، وكشف عن موقفه من الروايات التي جمعها.. وتاريخ الطبري يعد مرآة للعقلية التاريخية ومواقف المؤرخين من الروايات التي تصل إليهم .. وتاريخ الطبري يعد مثلا للاعتماد على الرواية

بالنسبة لأسانيدها وللحرص على جمع كل ما في وسع المؤلف جمعه من الأخبار على ما في بعضها من مبالغات لا وجه لها في الصحة ولا معنى في الحقيقة، كما يقول الطبري.

وجمع الروايات وتبويبها ومعرفة أسانيدها في زمن الطبري يعدّ فتحاً جديداً للتأليف في التاريخ، فليس في قدرة الطبري ولا في قدرة الذين سبقوه ممن تكبدوا مصاعب الجمع والتبويب أكثر مما فعلوه: جمعاً وتبويباً. فلم يكن في استطاعة ابن قتيبة، والبلاذري، والدينوري، واليعقوبي وغيرهم، أن يفعلوا شيئاً أكثر مما قدموه لنا من الأخبار والتراجم والأنساب والأسانيد. وما جمعه الطبري والذين سبقوه يعد تراثاً ثميناً له فوائده الجمة وقيمته الكبيرة؛ فهو الأساس الذي قامت عليه دراسات الحاضر، وهو المرجع للذين يبحثون في ماضي الأمة العربية وقضاياها.

١٠- أما ابن خلدون، فهو أقدم مؤرخ وضع الرواية التاريخية على مشرحة النقد. وإن ابن خلدون ككل ناقد، أخطأ وأصاب فيما نقده من الروايات، وأنا لا أريد أن أتعرض لأخطاء ابن خلدون التي تحدث عنها ناقدوه، ولكنني ألفت النظر إلى أن الكثير من شكوك ابن خلدون لم يبق لها محل في بحوث المؤرخين في عصر الدراسات الأثرية، فما عدّه ابن خلدون مبالغات أقحمتها أخيلة المؤلفين في الأصل التاريخي لا يعدّ اليوم مبالغات وخيالا بعد أن أزاحت معاول الأثريين التراب عن قصور (الجرهائيين) و(السبئيين) و (المعينيين) في الخليج واليمن. وبعد أن تطورت الحياة العربية اليوم، وتبدل فقر شبه الجزيرة العربية المدقع بغنى وافر، فما كان يستكثره ابن خلدون على العرب القدامى. هو شيء طبيعي بالنسبة للعرب في العصر الحاضر، فإذا كان ابن خلدون : يستكثر على (عاد) وشعوب الخليج الإسلامي. العربي. تلك الثروة التي أتاحت لهم بناء المعابد والقصور الملكية مصفحة بالذهب والفضة؛ فلينهض اليوم؛ لينظر ما اكتشفه الأثريون ودونوه على حضارة ماضي الخليج الإسلامي - العربي ولينظر دخل ساحل هذا الخليج اليوم، ويرى الحياة العربية في شبه الجزيرة كيف تطورت. أنا لا ألوم ابن خلدون على شكه فيما جاء في رواية الإخباريين كما يسميهم (جواد علي) عن (عاد)

و (ثمود)، وما تحدثوا به عن زفاف (بوران) في عصر العباسيين الذهبي؛ لأنه لم ير ثروات الجزيرة وترفها في عصر البترول؛ هذه الثروة التي أعادت عصر العباسيين الذهبي وبعثته من جديد في صحارى الجزيرة. وجعلت ما كان يعدّه ابن خلدون مبالغات من وحي الخيال: حقيقة لا مرية فيها. ولقد سبق الكلام عن الحضارات العربية القديمة في الجزء الأول من هذا المؤلف (العرب في أحقاب التاريخ) الذي صدر بعنوان (التاريخ العربي وبدايته).

حقاً، إن لابن خلدون وغير ابن خلدون ممن لم يقنع بماضي العرب الذهبي، في عصور ما قبل الميلاد العذر في شكوكهم، فلقد انقطعت الصلة بين العصور القديمة التي سبقت الميلاد بعشرات القرون، وبين عصر ابن خلدون الذي سبقه ميلاد المسيح بعشرات القرون، فدفن الزمن الطويل كل المعالم والشواهد، فلم يبق على ظهر الجزيرة العربية غير هذه الرمال الصفراء وتلك الجبال السوداء، فكل ما وصل إلى المؤرخ في عصر ابن خلدون: أنباء غامضة تركها قدامى المؤرخين، مجردة من كل دليل، وتناقلتها الأجيال مغلفة بالخيال ومبالغاته.

ولكن الذي يلاحظ على ابن خلدون: أنه في بعض مواقف نقده نسي أصله العربي، كما نسيه اليوم بعض الذين أعجبوا بحضارة الغرب وثقافته العلمية؛ فأخذوا ينظرون إلى التاريخ العربي نظرة كلها ريبة وشك، وأخذوا لا يؤمنون بكفاية العربي وقدرة مواهبه على أن يفعل ما فعله الأوربي في مجال العلم والاختراع.

على أنه مهما كانت صور النقد في مؤلف ابن خلدون، ومهما كانت العوامل التي خضع لها نقده، فهو ولا ريب قد فتح باباً جديداً في تأليف التاريخ وخطا خطوات واسعة في طريق هذه المرحلة التي بلغها التحقيق والنقد في العصر الحاضر.

فمثلما كان مُؤَّلف ابن جرير الطبري (تاريخ الأمم والملوك) مثلاً خالداً للتأليف التاريخي الذي قام على قواعد ليس في قدرتها: أن تحمل أكثر مما حمَّل أولئك

المؤلفون مؤلفاتهم، ولم يكن في قدرة الذين وضعوها أن يجعلوها أكثر قوة وعمقاً مما هي عليه آنذاك، فإن تاريخ ابن خلدون (المبتدأ والخبر) و (مقدمته) مثل رائع لتطور التأليف والعروج به إلى مستوى التحقيق والتحليل والنقد العلمي.

١١- وأخيراً لا بد لنا هنا من أن نقول: إن كثيراً من الرجال قد برزوا بعد القرن الثاني من الهجرة، وإن مئات المصنفات قد ألفت، وإن مهمة هذا البحث لا تلزمنا بإحصاء رجال التاريخ من بعد القرن الثامن كما لم يلزمنا البحث في تراجم الرواد أن نذكر جميع بناة الثقافة التاريخية في القرنين: الأول والثاني من الهجرة، لا سيما في العصر الراهن الذي أصبح التأليف فيه مهنة يشغل بها الكثيرون، وأصبحت أكثرية المؤلفات تجارية فرضت على مؤلفيها حاجة السوق العلمي إليها: عدم التقصي والتحقيق؛ فامتلأت المكتبات التجارية وامتلأت دور الكتب بخضمّ من مؤلفات أحصتها مجموعة من القوائم التي تصدرها المطابع؛ فقليلة جداً المؤلفات التي يبذل مؤلفوها في العصر الحاضر جهداً يتعمق بالدراسات التاريخية؛ ليخرج بنتائج لها قيمتها مثل: (محمد المثل الكامل) لحسين هيكل و (عصر المأمون) لأحمد فريد رفاعي و (النثر الفني) لزكي مبارك و(فجر الإسلام وضحى الإسلام) لأحمد أمين، و(الفتنة الكبرى) لطه حسين و(مصادر الشعر الجاهلي) لناصر الدين الأسد و(تاريخ العرب) لجواد علي و(تاريخ العرب العام) لفيليب حتي، و(العرب قبل الإسلام) لجرجي زيدان.

إنما الذي يستدعيه البحث هو: تقديم بعض أعلام المؤرخين من بعد منتصف القرن الثاني من الذين تركوا مؤلفات أصبحت مصادر لا غنى عنها في البحث التاريخي والإشارة إلى بعض مؤلفاتهم؛ لتتم أمامنا صورة مصادر التاريخ العربي التي يستهدف هذا الجزء رسمها.

البحث الثاني :

فهرست الموسوعات ومؤلفوها

من موضوعات البحث :

١- أقدم مؤلف في السيرة حافظ على كيانه الأصلي هو كتاب الواقدي.

٢- أوائل الذين ألفوا في تاريخ المدن : الأزرقي.

٣- بداية جمع الحديث النبوي : البخاري.

٤- بدأ التأليف في التاريخ بمعناه الأعم : بمؤلفات البلاذري.

٥- من قدامى المسلمين الذين عنوا بتاريخ النصارى : محمد الشابشي.

٦- المسعودي إنسان يمثل دائرة معارف عامة.

٧- ابن الأثير وأسلوبه الرقيق.

٨- أبو الفداء : أمير ومؤرخ وجغرافي ونحوي.

فهرست الموسوعات ومؤلفوها

١- الواقدي : عبدالله محمد بن عمر المدني المتوفى سنة ٢٠٧هـ، أستاذ (ابن سعد) وأحد الأوائل الثقات الذين عنوا بالمغازي والسير. ذكر له (ابن النديم) مؤلفات كثيرة منها : (التاريخ والمغازي والبعث) ومنها : (الطبقات)[١]، وقال عنه : خلَّف الواقدي ستمائة قمطر كتباً . كل قمطر منها حمل رجلين . والواقدي في مؤلفاته اقترب بعلم التاريخ القائم على الحديث . إلى الأسلوب التاريخي ومادته. وتقول دائرة المعارف الإسلامية : (وتاريخ المغازي للواقدي هو : وحده الذي حفظ كيانه وبوضعه الأصلي)[٢]. أما (الطبقات) فلا يعرف الكثير عنها شيئاً.

٢- أبو عمرو الشيباني : إسحق بن مِرار الشيباني بالولاء المتوفى سنة ٢٠٦هـ. من أساتذة الإمام (أحمد بن حنبل). قال (ابن النديم) عنه : روى أشعار القبائل كلها ، وله بنون وبنوبنين يروون عنه كتبه . فمن ولده (عمرو) روى عنه وأخذ منه وصنف كتباً منها (كتاب النوادر)[٣].

٣- الهيثم بن عدي الطائي الكوفي المتوفى سنة ٢٠٧ أو سنة ٢٠٩هـ؛ المؤرخ الذي جمع بين الدراسات التاريخية والأنساب ، والذي سبق المؤرخين العرب في ترتيب الحوادث حسب السنين ، فكان بذلك قدوة للطبري وغيره . ذكر له ابن النديم نحوًا من واحد وخمسين مؤلفاً في التاريخ والنسب والتراجم[٤].

---

(١) **الفهرست** ، ص ١٤٤ .

(٢) **دائرة المعارف** ٤٨٧/٤ .

(٣) **الفهرست** ، ص ١٠١ .

(٤) **المصدر نفسه** ، ص ١٤٥ .

٤- نصر بن مزاحم الكوفي المتوفى سنة ٢١٢هـ قيل : إنه إخباري شيعي . له من الكتب كتاب (صفين) و(الجمل) و(مقتل الحسين) و(مقتل حجر بن عدي) و(أخبار المختار) و(المناقب) .

٥- الأصمعي : عبدالملك بن قريب الباهلي المتوفى سنة ٢١٣هـ أو ٢١٤هـ. مصدر من مصادر كثير من المؤرخين مثل (الدينوري) وغيره. له الفضل في جمع الكثير من الأخبار الجاهلية .. وقد نوّهنا به في تراجم رواد التاريخ في مجال الشعر الجاهلي ولغته التي تقدمت في هذا الجزء. له مؤلفات كثيرة منها : (كتاب جزيرة العرب) و (كتاب القصائد الستة) و (كتاب مياه العرب) و (كتاب النسب)[1] .

٦- ابن هشام : أبو محمد عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المتوفى سنة ٢١٣هـ، قال عنه جرجي زيدان : [وأقدم ما وصل إلينا من أخبار الجاهلية على يد مؤرخي المسلمين فصول نشرها ابن هشام نقلا عن ابن إسحاق] . له (القصائد الحميرية ـ اليمن وملوك الجاهلية) و (التيجان في ملوك حمير)[2] ، وقد سبق الكلام عنه في كثير من بحوث هذا الجزء.

٧- الأزرقي : أبو الوليد أحمد بن محمد المتوفى سنة ٢٢٢هـ، والأزرق جد من جدود العرب إليه نسب أبو الوليد أحمد المؤرخ الذي يعد : أول من جمع الروايات الخاصة بتاريخ مكة . والأزرقي هو من أوائل الذين اهتموا بجمع الروايات التي تهتم بتاريخ قطرهم . إذا لم يكن الأول .

٨- المدائني : أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالله المدائني؛ مولى شمس بن عبدمناف المتوفى سنة ٢٢٥ هـ. ذكر له ابن النديم في فهرسته حوالي مئتين وستة وثلاثين

---

(١) **الفهرست**، ص ٨٢ .

(٢) **تاريخ العرب** لجرحي زيدان ، ص ٢٤ ، **والأعلام** للزركلي ٤/٣١٤.

كتاباً، وزاد على هذا العدد (ياقوت) في معجمه .. وهذه الكتب على ما يظهر لايعدو أكثرها أن يكون فصلا من كتاب ، على أن منها موسوعات مثل : (كتاب المغازي) الذي قال عنه (أبو الحسن الكوفي) : إنه يقع في ثمانية أجزاء[1]. ولقد اعترفت دائرة المعارف الإسلامية بسعة اطلاع المدائني وأمانة بحوثه عندما قالت : [ولما كان المدائني قد تناول جميع الروايات العراقية بأساليب النقد السليم الذي يتمشى ومذهب أهل المدينة ، فقد اشتهر مصنفه بصدق الرواية ، وغدا بذلك المرجع الأول لمصنفات العصر التالي][2].

٩- ابن سعد : محمد بن منيع البصري الزهري المتوفى سنة ٢٣٠هـ. تلميذ الواقدي، وصاحب الموسوعة المعروفة بطبقات (ابن سعد) وبالطبقات الكبرى .. وطبقات ابن سعد أشهر من أن تعرف، وأسلوب ابن سعد في تأليفها واضح؛ فهو يعتمد على الرواية ، ويحرص على التعليق على كل من هو ضعيف في روايته .

١٠- أبو عبدالله : محمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة ٢٤٢هـ . من الإخباريين والرواة، ومن نقدة الشعر الجاهلي. له من المؤلفات (الفاصل في ملح الأخبار والأسفار) و(بيوتات العرب) و (طبقات الشعراء الجاهليين) و (طبقات الشعراء الإسلاميين) وغيرها .

١١- محمد بن حبيب مولى ابن عباس المتوفى سنة ٢٤٥هـ، وأشهر مؤلفاته على كثرتها . كتابه : (المحبر) فهو من نوادر المؤلفات .

١٢- الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر بن محجوب الكناني بالولاء، المتوفى سنة ٢٥٥هـ أشهر مؤلفاته : (البيان والتبيين) الذي لا يزال مرجعاً للباحثين.

١٣- الزبير بن بكار المدني المتوفى سنة ٢٥٦هـ . مؤرخ وشاعر . من سلالة عبدالله ابن الزبير . تولى قضاء مكة، وهو من تلاميذ المدائني . ذكر له (ابن النديم) واحداً

---

(١) الفهرست ، ص ١٤٧ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٤/ ٤٩٠.

وثلاثين كتاباً. منها: (أخبار العرب وأيامها) و(العقيق وأخباره) و(الأوس والخزرج) و(وفود النعمان على كسرى) و (نسب قريش وأخبارها)، وقد طبعت له أجزاء من كتاب (الموفقيات) الذي جمع أخبارًا ونوادر تاريخية.

١٤- محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى سنة ٢٥٦هـ.. والبخاري معروف بصحيحه أكثر مما هو معروف بتاريخه؛ فللبخاري (التاريخ الكبير) و(التاريخ الصغير) وموضوعهما: تراجم رجال السند، وله أيضاً (الضعفاء) في رجال الحديث و (خلق أفعال العباد) و (الأدب المفرد).

وإذا كان أمر الخليفة الأموي (عمر بن عبدالعزيز) الصادر إلى (أبي بكر بن هشام) في آخر المئة الأولى من الهجرة: أن انظر ما كان من حديث رسول الله عليه السلام وسنته واكتبه[1] هو البداية لجمع الحديث على الصورة التي جمع بها (موطأ مالك بن أنس)؛ فإن بداية جمع الحديث سبقها تدوين كبار الصحابة وجمعهم الأحاديث حسب موضوعاتها. فلقد دون (محمد بن شهاب الزهري) مواد الحديث نزولا على أمر عمر ابن عبدالعزيز نفسه كما في بعض الروايات، أو أمر (هشام بن عبدالملك) كما في بعضها الآخر. ولقد فقدت مدوّنات ابن شهاب مع ما فقد من ذخائر الأمويين[2].

أمّا ما فعله أبو بكر بن حزم، فإنه يعدّ البداية لجامعي الحديث من القدامى مثل: (ابن جريج) المتوفى سنة ١٥٠هـ، و(محمد بن إسحاق المدني) المتوفى سنة ١٥١هـ، و(معمر اليمنى) المتوفى سنة ١٥٣هـ، و(سعيد بن عروبة) المتوفى سنة ١٥٦هـ، و(الأوزاعي) المتوفى سنة ١٥٦هـ، و(الربيع بن صبيح) المتوفى سنة ١٦٠هـ، و(سفيان الثوري) المتوفى سنة ١٦١هـ، و(الليث بن سعد) المتوفى سنة ١٧٥هـ، و(حماد بن سلمة)

---

(١) ضحى الإسلام ١٠٧/٢.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٤٨٦/٤، والإسلام والحضارة لكرد علي ١٧٢/١.

المتوفى سنة ١٧٦هـ ، و(مالك بن أنس) المتوفى سنة ١٧٩ ، و(ابن المبارك) المتوفى سنة ١٨١هـ[1].

وهذه المجاميع وإن كانت متعاصرة كما هو واضح من تاريخ وفيات أصحابها ، لم تجمع في مدينة واحدة ، فمن جامعيها : المدني ، والبصري ، والكوفي ، والخراساني ، والمصري؛ وإنما كانت المدينة المنورة نقطة الانطلاق . وهذه المجاميع على كثرتها وعلى اهتمام المدن التي جمعت فيها لم يقدر البقاء لواحد منها ما خلا موطأ مالك . ويعد (صحيح البخاري) أكبر مجموعات الحديث وأصحها ؛ فالبخاري لم يقتصر فيما جمعه على رواية بلد واحد كما فعل من تقدمه مثل : مالك بن أنس الذي جمع أحاديث الحجازيين وبخاصة أحاديث المدنيين ، ولم يتساهل في التصحيح كما تساهل من جاء بعده ، فهو لم يأخذ عن مالك بعض الأحاديث التي سقط من سندها راو أو أكثر ، فهو إن ذكر بعض هذه الأحاديث يذكرها للاستئناس بها مع الإشارة إلى سندها .

فصحيح البخاري نال من التقدير والشهرة أكثر من غيره من الصحاح الموجودة في أيدي الناس : صحيح (مسلم) المتوفى سنة ٢٦١هـ ، وسنن (ابن ماجه) المتوفى سنة ٢٠٩هـ ، وسنن (النسائي) المتوفى سنة ٢١٥هـ ، وسنن (أبي داود) المتوفى سنة ٢٧٥هـ ، وسنن (الترمذي) المتوفى سنة ٢٧٩هـ.

وفي هذه الصحاح : أحاديث اجتهد جامعوها في إيضاح الصحيح منها ، والذي في سنده نظر .. ومن الأحاديث التي جمعت في هذه الصحاح أحاديث وجد فيها المؤرخون نصوصاً تاريخية لها قيمتها الكبيرة في أحكام التشريع وقضايا التاريخ .

١٥- عبدالرحمن بن عبدالله عبدالحكم المتوفى سنة ٢٥٧هـ؛ مؤلف كتاب: (تاريخ مصر - وفتوح المغرب) ، وقد قالت دائرة المعارف الإسلامية عن مؤلفه : [إنه أقدم تاريخ

---

(١) ضحى الإسلام ١٠٧/٢ .

وضع لقطر من الأقطار باستثناء كتاب الأزرقي .. ومما هو جدير بالذكر : أن مؤلف عبدالحكم يحتوي على المواد المميزة للتواريخ الغامضة][1].

١٦- عمر بن شبة المتوفى سنة ٢٦٢هـ. من تلاميذ المدائني. أرخ للمدن الإسلامية الكبرى : مكة، المدينة، البصرة، الكوفة .. وقد لفت الأنظار إلى كتابه عن المدينة (السيد السمهودي) في مؤلفه (وفاء الوفاء) بكثرة ما أخذ عنه. وقد كان كتابه عن المدينة موجوداً في مكتبة عارف حكمت إلى وقت قريب ثم فقد. وقد وجدت أخيراً في إحدى مكتبات المدينة الخاصة نسخة خطية منه . وكذلك لفت السمهودي النظر إلى (ابن زبالة) الإخباري النسابة مؤلف كتاب (أخبار المدينة) .

١٧- ابن قتيبة : أبو محمد عبدالله المروزي؛ نسبة إلى مرو ، المتوفى سنة ٢٧٠ أو سنة ٢٧٦ هـ. مؤلف مكثر، رجع في تأليفه إلى مؤلفات الذين سبقوه، وذلك ما جعل ناقديه يتهمونه بالنقل من المدونات مثل كتاب (الشريف) لمؤلفه (وكيع) . من أشهر مؤلفاته مازالت مرجعاً مهمًا لدى المؤرخين : كتاب (المعارف) و(الشعر والشعراء) و(عيون الأخبار) . وقال عنه (ابن النديم) : سمي الدينوري، لأنه كان قاضي الدينور، وذكر له مؤلفات كثيرة[2].

١٨- أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩هـ. المؤرخ النسابة. من أشهر مؤلفاته : (فتوح البلدان) و (أنساب الأشراف). من مصادره : ابن سعد ، والمدائني، وابن الكلبي وقد تقدم ذكره مع الذين نقلوا المؤلفات الفارسية إلى العربية. ولعل أصله الفارسي هو الباعث لحماسه للنقل من الفارسية إلى العربية. قالت عنه دائرة المعارف الإسلامية : [إن بداية التاريخ بمعناه الأعم ـ أي التوفيق بين المواد المستمدة من السير ومختلف المصادر وإدماجها في رواية تاريخية متماسكة، ترجع إلى

(١) **دائرة المعارف الإسلامية** ٤/٤٩٣ .

(٢) **الفهرست** ، ص ١١٥ .

منتصف القرن الثالث، وأقدم مؤلف سار على هذا النهج هو (البلاذري)][1]. ويقول ابن النديم عن جده جابر: كان شاعراً راوية ووسوس آخر أيامه، وسبب وسوسته أنه شرب البلاذر على غير معرفة فلقب لذلك بالبلاذري[2].

١٩- أحمد بن طيفور: أبو الفضل بن أبي طاهر المتوفى سنة ٢٨٠هـ. له مؤلفات فقدت يبلغ عددها نحواً من خمسين كتاباً من أشهرها كتابه: (تاريخ بغداد) الذي لم يعثر على غير الجزء السادس منه. وقد كتب ابنه (عبدالله بن أحمد بن طيفور) ذيلا على كتاب أبيه تضمن أخبار المعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر من خلفاء بني العباس.

٢٠- أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري المتوفى سنة ٢٨٢هـ المفسر المؤرخ النحوي اللغوي المهندس المنجم الحاسب الراوية إلى غير هذه الصفات التي أسبغها عليه الذين أخرجوا كتابه (الأخبار الطوال) في طبعته الأخيرة.. والحق يقال إنه يعد مدرسة جمعت أفضل المواد الثقافية، فما قيل عن مؤلفاته يؤكد: أن الرجل ذو مواهب نادرة، من مصادره في تاريخه (الأخبار الطوال): عبيد بن شرية، والهيثم بن عدي، والشعبي وغيرهم من الرواد الأوائل.. وتاريخه: الأخبار الطوال من الكتب التي يرجع إليها المؤرخون في العصر الحديث.

٢١- ابن واضح اليعقوبي: أحمد بن يعقوب المتوفى سنة ٢٩٢هـ. من المؤرخين الأعلام الذين عنوا بالجغرافية كما عنوا بالتاريخ، والذين عنوا بتاريخ النصرانية والنصارى. وقد اشتهر بمؤلفيه: (تاريخ اليعقوبي) و (البلدان)، وهذان الكتابان مطبوعان.. والغريب: أن اليعقوبي على شهرته وقرب عهده بالنسبة للذين سبقوه من المؤرخين قد اختلفت الأقوال في وفاته فمن قائل: إنه توفي سنة ٢٨٧هـ وقائل: إنه توفي سنة ٢٩٢هـ.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٤٩١/٤.

(٢) الفهرست، ص ١٦٤.

٢٢- الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير المتوفى سنة ٣١٠هـ ، وابن جرير في رأي الناقدين ثقة في تاريخه ، ثقة في تفسيره. اعتمد عليه المؤرخون والمفسرون الذين جاءوا من بعده؛ فأكثر الروايات التي سجلها في تاريخه وفي تفسيره تعد نصوصاً تاريخية. والروايات التي جمعها في مؤلفيه منها : ما أبدى رأيه معترضاً أو مؤيداً ، ومنها : ما ترك أمر تحقيقه للذين يأتون من بعده.

٢٣- أحمد بن أعثم الكوفي : أبو محمد بن علي المتوفى سنة ٣١٤هـ. مؤرخ عربي؛ نهج في تاريخه نهجاً قصصياً. طبعت بعض مؤلفاته في بمباي طبعة حجرية سنة ١٢٠٠هـ. نقل عنه (أوزلي) وغيره من المستشرقين. من مؤلفاته (الفتوح) إلى أيام الرشيد ، و(التاريخ) من أيام المأمون. وقال ياقوت : ترجم كتابه الفتوح إلى الفارسية ومنها إلى الأوردية[1].

٢٤- ابن الأنباري : محمد بن القاسم الأنباري المتوفى سنة٣٢٨هـ. تصدى للرد على من خالف مصحف عثمان. كما أبرز أشعار فحول الشعراء الجاهليين مثل زهير والنابغة الجعدي ، فهو مؤرخ عالم ناقد أديب.

٢٥- أحمد بن عبد ربه : من المؤرخين الأندلسيين ومن معاصري (الطبري) و(حمزة الأصفهاني). توفي سنة ٣٢٨هـ. وأحمد بن عبد ربه هو مؤلف (العقد الفريد) .. والعقد الفريد ليس مؤلفاً تاريخياً ولكنه لم يخل من أخبار الجاهلية التي رجع إليها الباحثون في تاريخ الجاهليين مثله كمثل الأغاني التي كان موضوعها الأصوات التي جمعها أبوالفرج ولكن شمل أخباراً جاهلية وأخباراً إسلامية وأدباً وطرفاً ونقداً وتقريظاً وتراجم .

٢٦- الهمداني : أبو محمد الحسن أحمد المتوفى سنة ٣٣٤هـ المؤرخ العليم بالخطوط الحميرية ، والجغرافي الخبير بجزيرة العرب ، لا سيما الجنوب منها. صاحب

---

(١) الأعلام للزركلي ٩٦/١ .

كتاب (الإكليل) وكتاب (صفة جزيرة العرب) المصدرين اللذين قدرهما واعتمدهما الكاتب المعاصر : الشرقي والمستشرق .

٢٧- الصولي المتوفى سنة ٣٣٥هـ. امتاز في تأليف (كتاب الأوراق في تاريخ العباسيين) بجمعه بين التراجم السياسية والتراجم الأدبية .

٢٨- علي بن محمد الشابشتي المتوفى سنة ٣٣٨هـ. ذكرته دائرة المعارف الإسلامية عندما ذكرت الذين ألفوا بالعربية في تاريخ الكنائس النصرانية ، وقالت عنه : [إنه المسلم الذي عني في تأليفه بتاريخ الديارات النصرانية في مصر ، وفي غرب آسيا ، وإن من العجيب أن يؤلف مسلم في الديارات النصرانية][1]!!

٢٩- أبو الحسن المسعودي نسبة إلى عبدالله بن مسعود المتوفى سنة ٣٤٥هـ. والمسعودي من القليلين الذين حازوا إعجاب الناقد العربي والمستشرق ، في الماضي والحاضر ، ومن القليلين الذين كانوا أشبه بدائرة معارف شاملة ، فهو كما يتضح في بحث من ترجمه : أحاط بتاريخ اليونان والرومان وكثير من الأمم القديمة ، وعرف الكثير من معتقدات : اليهود والنصارى والزنادقة ، بالإضافة إلى سعة علمه بالتاريخ العربي والتشريع الإسلامي . قال عنه (سيديو) في كتابه : (تاريخ العرب العام) : [ولا نخشى التكذيب إذا قلنا : إنه لم يظهر بين مؤرخي العرب مؤرخ بلغ من الفضل الشامل ما بلغه المسعودي .. وإذا كان المسعودي محتاجاً إلى روح النقد أحياناً فلنذكر : أن حب الاستطلاع حفزه إلى زيارة الأماكن التي أراد الوقوف على تاريخها فكان يساق إلى نقل قصص ذات أصل مشكوك فيه ويظن : أن المسعودي توفي في عاصمة مصر قبل أن يرى العراق مرة أخرى ، ولا تعرف أوربا شيئاً عن كتابيه المهمين (أخبار الزمان ـ والأسط)[2]

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٤٩٩/٤ .

(٢) لعل هناك خطأ مطبعياً ، فإن الذين ترجموا المسعودي لم يذكروا له كتاباً باسم (الأوسط) ولعله يعني كتابه (أخبار الأمم من العرب والعجم) .

الواقعين في أكثر من عشرين مجلداً من القطع الكبير ولكن كتابه: (مروج الذهب ومعادن الجوهر) انتهى إلينا واطلعنا فيه على حوادث عجيبة ونافعة، وتحدث فيه عن تاريخ قدماء العرب والأمم الأجنبية إلى غير أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه][1].

وجاء في الأعلام لخير الدين الزركلي؛ نقلاً عن الذهبي : [عداده في أهل بغداد. وكان معتزلياً ومن مصنفاته : (أخبار الزمان ومن أباده الحدثان) في نحو ثلاثين مجلداً. بقي الجزء الأول مخطوطاً .. و(مروج الذهب) مطبوع. و(التنبيه والإشراف) مطبوع و(أخبار الأمم من العرب والعجم) إلى كثير من المؤلفات التاريخية][2].

وجاء في الفهرست : [هذا الرجل من أهل المغرب يعرف بأبي الحسن على بن الحسن بن علي المسعودي من ولد عبدالله بن مسعود][3] ويبدو مما قيل عن معارف المسعودي : أنه اطلع على مؤلفات فارسية، ويهودية، وعربية في المدن التي رحل إليها وتنقل بين مكتباتها، فهو كما يظهر قد رجع إلى مكتبات (إصطخر) من أرض فارس واطلع على كثير مما احتوته، كما اطلع في بغداد وفي مصر وفي غيرها من المدن على مصادر اعتمد عليها في مؤلفاته، ويبدو أن للرجل حافظة قوية وذكاء نادراً، فكان بذكائه وحافظته وسعة اطلاعه : مجموعة الثقافات .

٣٠- أبو الفرج الأصفهاني : على بن الحسين القرشي المتوفى سنة ٣٥٦هـ أو بعد سنة ٣٦٠هـ كما في الفهرست. مؤلف موسوعة الأغاني . وأبو الفرج بمؤلفه معروف لا يحتاج إلى تعريف .. والأغاني بانتشارها بين مختلف الطبقات وانتشار ما قيل عنها هي أيضاً غنية عن التعريف .. بيد أن أبا الفرج الأصفهاني ظهر في ترجمة حماد

---

(١) **تاريخ العرب العام** ، ص ٤٧٥ .

(٢) **الأعلام** ٥/٨٧ .

(٣) **الفهرست** ، ص ٢١٩ .

الراوية: أنه حاطب ليل ، وظهر في ترجمة ابن شهاب الزهري أنه شيعي متحزب. الترجمتين اللتين تقدمتا في هذا الجزء ، فعلى الذي يرجع إلى الأغاني أن يكون حذراً كثير الحرص، ولقد ذكر له ابن النديم مؤلفات أخرى(1).

٣١- حمزة بن الحسن الأصفهاني المتوفى سنة ٣٦٠هـ، مؤلف كتاب (سنى الملوك)؛ وكتاب سنى الملوك اشتهر في العصر الراهن أكثر مما اشتهر في العصور المتقدمة، فهو من مراجع كثير من المؤرخين في العصر الحاضر. اعتمد عليه جرجي زيدان وجواد علي وغيرهما.

٣٢- إبراهيم بن محمد الفارسي بن إسحاق الإصطخري المتوفى سنة ٣٥٠هـ وإصطخر اسم مدينة نسب إليها كثيرون. و(كتاب المسالك والممالك) اسم سبق الإصطخري إليه كثيرون؛ كما رأيت فيما تقدم من هذا الجزء، والمسالك والممالك لابن خرداذبة أشهر من المسالك والممالك لابن إسحاق الإصطخري؛ فلم يكن لابن إسحاق الإصطخري شأن بين المؤلفين الذين نوهنا بهم، ولكن ظهور كتابه حديثاً في طبعة جديدة أنيقة لفت الأنظار إليه .

٣٣- القاضي أبو القاسم : صاعد بن أحمد الأندلسي المتوفى سنة ٤٦٣هـ، مؤلف كتاب الطبقات . ولكتابه على صغر حجمه فوائده للمؤرخ الذي يبحث في الزاوية التي أهملت زمناً طويلا.

٣٤- نشوان بن سعيد الحميري المتوفى سنة ٥٧٣هـ. قال عنه جواد علي : [قد أفادت قصيدته فائدة لا بأس بها في تاريخ اليمن، وإن لمعرفة نشوان بالخط المسند أهمية بالغة في الحكم على معرفة أهل اليمن بالخط المسند](2). ولنشوان : كتاب يسمى: (شمس العلوم) وكتاب (الحور العين) و (القوافي) و (الفرائد والقلائد) . وقيل عن

---

(١) **الفهرست** ، ص ٢٦٧ .

(٢) **تاريخ العرب** ١/٥٤ و٥٦ .

نشوان: إنه قاض علامة وثائر طموح، استولى على عدد من قلاع اليمن وحصونها وجعل من نفسه ملكًا[١].

٣٥- ابن عساكر : على بن الحسن بن هبة الله أبو القاسم المتوفى سنة ٥٧١هـ المؤرخ المعروف بتاريخه (تاريخ دمشق) زميل (السمعاني) صاحب (الأنساب). وتاريخ دمشق اختصره (عبدالقادر بدران) فحذف الأسانيد والمكررات وسمى (المختصر. تهذيب تاريخ ابن عساكر). طبع من المختصر سبعة أجزاء والباقي لا يزال مخطوطًا[٢] ولابن عساكر مؤلفات أخرى.

٣٦- ابن الأثير : عزالدين أبو الحسن علي بن محمد المتوفى سنة ٦٣٠هـ، صاحب التاريخ المعروف (الكامل) ومؤلف كتاب (أسد الغابة) ، وابن الأثير يطلق على ثلاثة إخوة لكل واحد منهم شهرته العلمية . وتاريخ ابن الأثير (الكامل) وإن لم يسلم من النقد في العصر الحاضر؛ فهو قد لفت الأنظار إليه برشاقة أسلوبه، وما قدمه من النصوص. رجع إليه المتأخرون عندما حققوا قضايا التاريخ. أما كتابه أسد الغابة فيكفي لتقدير أثره؛ أنه قدم لقرائه سبعة آلاف وخمسمائة وخمسين صحابياً كما مر بنا .

٣٧- ابن القفطي : علي بن يوسف الشيباني، وزير حلب المؤرخ المعروف بالقاضي، المتوفى سنة ٦٤٦هـ. بدأ دراسته في مصر وأتمها في بيت المقدس، ثم رحل إلى حلب حيث وقف عشرة أعوام من حياته في البحوث الأدبية، وأكثر مؤلفاته تاريخية، فقد كتب عن تاريخ القاهرة، والمغرب، والسلاجقة - إلى غيرها من الأماكن والدول التي ألف في تاريخها[٣].

---

(١) راجع ترجمة نشوان في مقدمة كتابه (ملوك حمير وأقيال اليمن) .

(٢) الأعلام للزركلي ٨٢/٥ .

(٣) المصدر نفسه ١٧٨/٥ .

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية . [ولم يصل من مؤلفات ابن القفطي غير كتاب واحد وهو : (تاريخ الحكماء) وهو على جانب من الأهمية . أنه معين لا ينضب من المعلومات الخاصة بمعارف العرب عن مؤلفات الإغريق وعن آثار الإغريق. توفي سنة ٦٤٦هـ(١).

ولقد سبق أن تكلمنا عنه في بحث مكتبة الإسكندرية وما يقوله البعض: إن العرب أحرقوها.

٣٨- تاج الدين الساعي، المتوفى سنة ٦٧٤هـ. نحا في تاريخه أسلوب السجع الذي ساد في العراق وفي فارس والذي تحرر منه الدمشقيون مثل : بهاء الدين بن شداد المتوفى سنة ٦٣٢هـ وأبي الشامة، المتوفى سنة ٦٦٥هـ .

٣٩- ابن خلكان : أحمد بن إبراهيم شمس الدين، المتوفى سنة ٦٨١هـ. قالت دائرة المعارف الإسلامية عن كتابه (وفيات الأعيان) : [قد ابتدع ابن خلكان النوع العام في التراجم، والحق يقال : إن دقته تبرر ما لاقاه الكتاب من ذيوع](٢).

٤٠- ابن العبري : أبو الفرج، المتوفى سنة ٦٨٤هـ. تقول دائرة المعارف الإسلامية : [إنه آخر القدماء من مؤلفي السريان]، وقد سبق الكلام عنه في مبحث حرق مكتبة الإسكندرية، وعن مكانته بين المؤرخين .

٤١- ابن سعيد : أبو الحسن علي بن موسى المغربي المتوفى سنة ٦٨٥هـ. مؤلف (المُغرِب في حلى المغرب) وغيره من المؤلفات التي فقدتها المكتبة العربية، فلم يبق من مؤلفاته غير أجزاء متفرقة، اعتمد عليها كبار المؤرخين مثل : ابن خلدون. وتقول دائرة المعارف الإسلامية : [ولم يبق من مؤلفاته إلا أجزاء كافية للدلالة على أنه اعتمد فيها

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١/٢٦٤ .

(٢) المصدر نفسه ٤/٥٠٤ .

على نسخ كثيرة موثوق بها من عدة مؤلفات قديمة، وكان ابن سعيد هذا رحالة لا يكل دءوباً على البحث لا يعتور عزيمته وهن][1].

٤٢- أبو الفداء : إسماعيل بن علي بن عمر الأيوبي. يرجع نسبه إلى عماد الدين الأيوبي. توفي سنة ٧٣٢هـ. وأبو الفداء أمير مؤرخ، ومؤرخ جغرافي. جمع بين العلم والسيف وبين السياسة والتاريخ؛ فبقدر ما كان شجاعاً كان مؤرخاً مدققاً فلم تلهه إمارة حماة وشؤونها عن الأدب والعلم، فلقد ألف كتابه (المختصر في أحوال البشر) وألف كتابه (تقويم البلدان) وقد ترجم الكتابان إلى اللغات الإفرنجية، وله أيضاً غير هذين الكتابين مؤلفات مثل : (تاريخ الدولة الخوارزمية) كما ألف في النحو والصرف[2].

٤٣- اليافعي : عبدالله بن أسعد؛ عفيف الدين، المتوفى سنة ٧٦٨هـ، نسبته إلى بني يافع من حمير. ولد ونشأ في عدن، مؤلف (مرآة الجنان) ، وقد سبق أن أشرنا إليه كثيراً، حيث إن كتابه (مرآة الجنان وعبرة اليقظان) من مصادر هذا الكتاب، ولقد قامت بطبع هذا الكتاب دائرة المعارف العثمانية الحيدرأبادية، وله مؤلفات غير كتابه (مرآة الجنان). ولقد أهدتني هذا الكتاب دائرة المعارف العثمانية مع كتب غيره؛ وذلك عندما زرتها قبل أن تستقل الهند؛ مدعواً من بعض أصدقائي هناك .

٤٤- إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي المعروف بابن كثير، المتوفى سنة ٧٧٤هـ. مؤلف (البداية والنهاية) الموسوعة التاريخية التي سبقت الإشارة إليها في بعض بحوث هذا الجزء.

٤٥- ابن خلدون : عبدالرحمن المؤرخ الناقد. توفي سنة ٨٠٨هـ . وابن خلدون اسم عرف به مؤرخان عربيان شقيقان - الأول عبدالرحمن صاحب التاريخ المشهور والمقدمة المعروفة بمقدمة ابن خلدون . والذي نحن بصدد الكلام عنه . والثاني أخوه

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٤/ ٥٠٠ .

(٢) المصدر نفسه ١/ ٢٢٦ .

(يحيى) وهو أيضاً مؤرخ؛ ولكنه لم يبلغ من الشهرة ما بلغه أخوه. وأصل هذه الأسرة من قبيلة (كندة). وجدها الأعلى (خالد) المعروف بابن خلدون أول من هاجر من اليمن إلى الأندلس من هذه الأسرة. وفي بداية الانحلال السياسي الذي منيت به الدولة الإسلامية في الأندلس ذلك الانحلال الذي ضعضع الكيان الإسلامي، هاجرت الأسرة إلى إفريقيا الشمالية؛ ففي تونس ولد عبدالرحمن بن خلدون. ومنها قام برحلات إلى مصر وإلى الحجاز. زادت في ثقافته وزادت في مصادره. أما أخوه (يحيى) فقد ولد أيضاً في تونس وتوفي في تلمسان سنة ٧٨٠، ولم يعرف له غير كتاب (بغية الرواد في ذكر بني عبدالواد). وقد رجع إلى كتابه بعض المستشرقين.



البحث الثالث :

المستشرقون والآثار، وعلم الجيولوجيا

من موضوعات البحث :

١- المرحلة التي بدأ منها المستشرقون سيرهم.

٢- نشاط المستشرقين.

٣- بواعث الانحراف في بعض بحوث المستشرقين.

٤- المستشرقون كغيرهم يخطئون ويصيبون.

٥- أسلوب المستشرقين في كلامهم عن المقدسات أثار الشكوك حولهم.

٦- الآثار ونصوصها، والجيولوجية ونظرياتها.

٧- اعتراف المستشرقين بالنصوص العربية.

٨- على الباحث ألا يستهين بالنصوص الأثرية والنظريات الجيولوجية.

٩- مؤلفات المستشرقين التي جمعتها لهذا المؤلف.

١٠- مؤلفات المستشرقين على حقيقتها.

المستشرقون ، والآثار ، والنظريات الجيولوجية

١ - لقد كانت (الأندلس) القنطرة الأولى التي عبر منها المستشرقون إلى الشرق الإسلامي ، وكانت المعارف الإسلامية العربية التي ازدهرت ووصل أريجها إلى أوربا النائمة في أحضان التخلف العلمي آنذاك : الحافز الأول لرحلات طلاب العلم والمعرفة من أبناء أوربا في أنحاء البلاد الإسلامية ، وكان (جربرت) الراهب الفرنسي من أوائل الذين رحلوا إلى الأندلس وتتلمذوا على أساتذة (أشبيلية) و (قرطبة) ، وكان (جربرت) هو الذي أمر بإنشاء مدرسة عربية في (إيطاليا) وأخرى في (فرنسا) . بعد أن انتخب حبراً أعظم في سنة ٩٩٩م . وكانت المدارس التي عنيت بالتراث العربي والإسلامي ، واليوناني والعبري . في أوربا : نقطة البداية التي انطلق منها المستشرقون يبحثون في التراث العربي ويؤلفون في تاريخ الشرق الأوسط.

٢ - وكان من نشاط المستشرقين الإنكليز بعد أن امتد نفوذ الغرب على الشرقين: الأدنى والأقصى ، إنشاء الجمعيات وإصدار النشرات العلمية والمجلات الثقافية المختصة بالشرق وثقافته وتاريخه. فأنشأوا في (بتافيا) عاصمة جاوة[1] أول جمعية للمستشرقين سنة ١٧٨١م ، ثم أنشئت الجمعية البنغالية سنة ١٨٧٤ ، وكانت مجلة (الجمعية الآسيوية الملكية) وما زالت أكبر صحف المستشرقين ، وكان من نجاح الجمعيات ما جعل دول أوربا وأمريكا تحذو حذو الإنكليز في إنشاء الجمعيات وإصدار النشرات والمجلات ، فكان لأمريكا ، وفرنسا ، وألمانيا ، والنمسا ، وإيطاليا ، وروسيا ،

---

(١) جاء في كتاب : (المستشرقون) لمؤلفة نجيب العقيقي : بتافيا : عاصمة جاوة في الهند . والمعروف أن جاوة ليست في الهند . ص ٢٣.

وبلجيكا، والدنمارك. نشاط ملحوظ في مكتبات أوربا والتي بلغت نحواً من مئتين وخمسين ألف مؤلف. منها مؤلفات شرقية نقلت إلى اللغات الأوربية. ومنها مؤلفات وضعت عن الشرقين: الأوسط والأدنى.

وكان من تعدد الجمعيات وكثرة المستشرقين في أقطار أوربا ما جعل المستشرقين يحرصون على إقامة مؤتمرات علمية مستشرقة؛ بدأت بمؤتمر باريس سنة ١٨٧٣م، وكان تاريخ الشرق العربي القديم، وآثار دوله في اليمن، وفي وادي القرى، وفلسطين والهلال الخصيب، والتاريخ الإسلامي وحضارته: الموضوعات الرئيسة التي انصرفت إليها أنظار المستشرقين؛ على أن الحضارات الشرقية القديمة في الهند والصين وغيرها إن كانت عند كثرة المستشرقين تأتي في الدرجة الثانية، فهي عند الآخرين لها شأنها في دراستهم، وكثير من الذين عنوا بتاريخ الشرق الأوسط لم يهملوا تاريخ الشرق الأقصى وإفريقية.

٣- ولقد استغلت الكنائس المسيحية المستشرقين في التبشير بالمسيحية، وساق التعصب الأعمى للمسيحية الكثير منهم لمحاربة الإسلام ومحاولة النيل من رسالته وتعاليمه وتاريخه بشتى المفتريات ومختلف التقولات، كما استغلتهم دول الاستعمار في دعم نفوذها السياسي والاقتصادي والثقافي، واتخذت منهم السفراء والملحقين والقناصل.

ومن الطبيعي: أن يثير حنق بعض المستشرقين وتهجمهم على الإسلام ومقدساته. بدافع الموقف العدائي الذي وقفته المسيحية من الإسلام منذ ظهوره، وتحمس بعض المستشرقين للمخططات الاستعمارية والدعاية لها: الريبة والحذر في أقوال المستشرقين عن الشرق وتاريخه عامة وعن العرب والتاريخ الإسلامي خاصة عند المسلمين، ومن الطبيعي: أن يثير هوج بعض المستشرقين وأخطاء الذين لا عمق في بحوثهم ولا أصالة في رأيهم: الشك في النتائج التي نجدها عائمة بين زبد الشكوك

والتهم . ومن الطبيعي أن يجني الحاقد الذي عبثت به الأغراض على النزيه الذي يبحث عن الحقيقة، وأن يجني المعمعي المتطرف على البحاثة المتزن.. ومن هنا اختلفت الآراء الشرقية لا سيما العربية المسلمة فأجحف البعض واعتدل الآخرون.

ولقد تتبعت في فصل القصص القرآني من هذا الجزء : انحراف بعض المستشرقين عن الحقائق التاريخية. ذلك الانحراف الذي تدفعهم إليه تارة نظرة الشك في كل ما جاء في كتب الأنبياء والرسل، وتارة أخرى يدفعهم إليه التعصب للمسيحية والدعاية للاستعمار الذي أعلن باسم الوصاية والحماية والنهوض بالأمم المتخلفة؛ فمنهم : من ورطه جهله باللغة العربية وأسرارها . وما فيها من مجاز وتورية وتشبيه ومخاطبة الفرد بضمير الجماعة، والغائب بضمير الحاضر، وصيغة المستقبل التي تأتي في الحديث عن الماضي إلى غير ذلك من قواعد اللغة العربية وبلاغتها وخصائصها. فبنى آراءه على القشور، ومنهم : من استغل أفهام ضعاف المفسرين والمؤرخين الذين تسلطت على بحوثهم المستعجلة الخيالات الإسرائيلية وما دسّه الكتابيون فيما نسبوه إلى الأسفار من تفسير وتأويل، فارتاب بدافع الشك في كل خبر قرآني.

وقلت : إنه ليس من أمانة التحقيق في شيء : نكران الحقائق إرضاء للميول العقائدية، فيتسلط عدم الاعتراف بالإسلام على التحقيق العلمي، فيقلبه جدلاً كجدل الوثنيين والدهريين ليس من عمق البحث في شيء : أن يعتمد الباحث على الظنون ويجعل منطقه فوق النص بدون أن يرجع إلى أصول اللغة التي ينقل عنها، فيفهم مصطلحاتها وأسرارها، وبدون أن يرجع إلى أفهام تلك الأجيال وطريق تفكيرها . فمن المحال . أن تنطبق مفاهيم العصر الحاضر ومنطقه لاسيما المنطق الغربي على مفاهيم تلك الأجيال ومنطقها، ؛ فتكون حلول العصر الحاضر، وأساليبه في معالجة مشكلات الحياة، هي الحلول التي لا بد لتلك الأجيال من اتخاذها، وهي الأساليب التي يجب عليها أن تعالج بها أمورها.

ولقد مرت بنا في هذا الجزء في بحث (الأسفار الإسرائيلية) نزعة الشك في بحوث بعض المستشرقين وأثرها في بحوث القرن التاسع عشر لا سيما أولئك الذين يثقون في النص اليوناني أكثر مما يثقون فيما جاء في التوراة والإنجيل والقرآن. فللمستشرقين منطقهم ومقاييسهم ونزعاتهم. فمنهم: من يفضل النص اليوناني على نصوص الأسفار، ومنهم: من يفضل النص اللاتيني المسيحي على النص العربي المسلم، ومنهم: من يفضل النص الأثري على كل هذه النصوص. وإن كان النص اليوناني أو المسيحي أو الأثري في حاجة إلى دليل يؤيد ما ينفيه النص أو يثبته[1].

٤- وإنني بعد ذلك كله. أقول هنا: إن الباحثين جميعهم غير معصومين من الخطأ، وإن التحقيقات جميعها ليست متحررة من المؤثرات التي كثيراً ما تدفع إلى التحيز إلى جانب دون جانب وإلى التصلب في الرأي والاكتفاء بالنصوص القريبة من عقلية الباحث أو عقيدته واتجاه ظنونه، وإن المستشرقين كغيرهم من الكتاب والمؤرخين- منهم: البحاثة المتروي، ومنهم: السطحي المستعجل، ومنهم: من تغلّب على المؤثرات التي تحيط بالمؤرخ المحقق فاعتدل، ومنهم: من خضع لها فتطرف، وإن من المستشرقين كثيرين قدموا لنا مادة تاريخية لها فوائدها في معرفة الماضي ومصادر تاريخه. وإن المادة التي قدمها المستشرقون لا غنى للباحث في التاريخ ومصادره عن الرجوع إليها. فليست بحوث المستشرقين جميعها ينقصها التعمق لمعرفة الحقائق التاريخية، وليس المستشرقون جميعهم لا يفهمون اللغة العربية وأسرارها، فلا أراني مبالغاً إن قلت: إن المؤلفات التي خلت من المادة التي جدت في الدراسات التاريخية والتي أسهم المستشرقون فيها بقسط كبير؛ تعد بحوثها ناقصة ضيقة الأفق، وتعد نتائجها في حاجة إلى المزيد من الاطلاع، وإن مثل هذه المؤلفات مثل المؤلفات التي اقتنع مؤلفوها بآراء المستشرقين وحدها فلم يعيروا المصادر القديمة شيئاً من الاهتمام، والتي هي في حاجة إلى مزيد من الاطلاع والمعرفة.

---

(١) راجع بحث الأسفار في هذا الجزء.

٥- وإن من المحال: أن تكون نظرة المستشرقين إلى التاريخ العربي لاسيما الإسلامي ـ مثل: نظرة المؤرخ العربي المسلم الذي تتقيد وجهة رأيه بنصوص لا بد له من الخضوع لها، ويتقيد أسلوبه بما تحتمه عليه العقيدة وتفرضه قداسة بعض القضايا التاريخية: فنظرة المستشرق لا تخضع لغير المنطق، أسلوبه متمرد على المألوف في هذا الشرق العربي؛ لذلك نجد تعبيرات المستشرقين والصفات التي تأتي في بحوثهم تبعث: شك الشرقيين في كثير مما يقولونه، وتجعلهم يصرفون بعض البحوث إلى غير ما قد يكون المستشرقون استهدفوه في بحثهم. ولقد مر بنا ما قاله (درمنغام) عندما بحث في وصاية (أبي طالب) على النبي عليه السلام بعد وفاة جده: [إنه لم يكن غنياً حتى يتاح له أن يعلم الصبي الذي بقي أمياً طول حياته]، فلقد حال اقتناع (محمد رشيد رضا) بأن كل رأي لدرمنغام هو صادر عن غرض وحقد بين السيد رشيد وبين تقصي الحياة العربية قبل الإسلام وجعلته يقول: [إن درمنغام يوهم القارئ بأن أولاد الموسرين بمكة كانوا يتعلمون كأن هناك مدارس يعلم فيها النشء بالأجور كمدارس بلاد الحضارة وهذا باطل لا أصل له][1].

الواقع يؤكد: أن لرأي درمنغام أصلا في الحياة العربية قبل الإسلام، ولقد وضحت الحقيقة التي وصل إليها البحث في الأمية العربية وما معنى الأمية والأميين، وهل كان من العرب من يعرف الكتابة والقراءة؟ وكيف كانوا يتعلمونها؟ وأين كانوا يتعلمونها؟ فلا محل لإعادة ما قلته هناك[2]. فليس كل من يخطئ مرة محروماً من التوفيق في غيرها ـ ولقد سبق أن قلت في بحث (الرواية العربية وموقف التحقيق منها) المتقدم في هذا الجزء عن النصوص الأثرية وعن آراء المستشرقين في التاريخ العربي القديم: إن عقلية المستشرقين وظنونهم تخطئ وتصيب، وإن الذين دوّنوا النصوص من الآشوريين وتلك الأمم ليسوا جميعهم من الذين لا يدونون إلا بعد تحقيق وتدقيق.

---

(١) راجع كتاب الوحي المحمدي، ص ٥٧.

(٢) راجع مصادر التاريخ العربي في العصر الجاهلي في هذا الجزء.

وأخيراً ثارت ضجة في صحيفة (المدينة) حول ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية عن (داود باشا) : [وأنه عين في سنة ١٢٦٠هـ والياً على قبر الرسول في المدينة] : فقد استنكر البعض قول الدائرة : عين واليًا على قبر الرسول عليه السلام، فهذا الباحث المستشرق على ما يبدو، لم يتعمق في فهم الوظيفة التي عين فيها (داود باشا) وما اسمها؟ وما واجباتها؟ ليعرف : أن ليس هناك وظيفة في الكادر العثماني باسم والي قبر الرسول عليه السلام ـ وإنما هي وظيفة عرفت أولا بـ (شيخ الخدام) وأخيرًا بـ (شيخ الحرم) وإن الذين كانوا يعينون في وظيفة (شيخ الحرم النبوي) في العهد العثماني ـ هم : في مستوى (المحافظ) الحاكم الإداري، وكثيراً ما جمعت الوظيفتان فقام بهما موظف واحد ـ فأطلق هذا المستشرق ذلك الاسم على وظيفة (شيخ الحرم النبوي)؛ لأنه عرف أن في الحرم النبوي دفن النبي عليه السلام. وإنني أعتقد : أن الذين نقلوا الدائرة إلى العربية هم بدورهم لم يتقصوا حقيقة هذه الوظيفة التي أطلق عليها المستشرق : والي قبر الرسول عليه السلام ـ ولم يرتابوا في شيء من هذه التسمية كما ارتابوا في غيرها وعلقوا عليه[1].

فمن رأيي : أن كل باحث في التاريخ لا يكترث بما وصلت إليه بحوث المستشرقين ـ هو : باحث ضيق الأفق، كما أن كل باحث لا يعتمد على غير النتائج التي وصل إليها المستشرقون ولا يكترث بالنصوص العربية هو : باحث سطحي قصير المدى .

٦- أما الآثار ونصوصها والجيولوجية ونظرياتها ـ فمما لاريب فيه : أن لكل منهما فائدة وأيما فائدة في تحقيق التاريخ القديم وأزمنته. فلو لم تكشف الآثار : الحجاب عن كثير من الحقائق؛ لبقيت شكوك القرن التاسع ذات الصولة والتأثير على آراء

(١) **دائرة المعارف الإسلامية** ١٢٨/٩ ، وجريدة المدينة العدد ١٧٧١ ـ السنة السابعة ـ وقد أطلق عليها كادر الموظفين في العصر السعودي ـ اسم (مدير الحرم) .

المؤرخين، ولو لم يصل علم الجيولوجيا ودراساته إلى بعض النتائج العلمية؛ لبقيت أحداث الماضي تائهة بين مختلف الظنون التي تخبطت في تحديد عمر الزمن وعصور الغابرين. فقدرت لأقدم حدث تاريخي ألا وهو ظهور آدم وحواء على هذه الأرض : عدداً من السنين لا يتجاوز بضعة آلاف من السنين بالنسبة لتاريخ ميلاد المسيح.

ولو لم تأت الآثار بأدلتها ونصوصها لما آمن الكثير من المستشرقين وغير المستشرقين بما جاء في القرآن الكريم عن (إبراهيم) و (آل يعقوب) وعن (هود) وقوم (عاد) و (ثمود) الذين جابوا الصخر بالواد، ولما صدقوا بما جاء في التوراة عن (اليمن) و(شواطئ الخليج الإسلامي ـ العربي)، حيث الذهب والبخور ومناجم النحاس. ولو لم تتعمق الدراسات الجيولوجية لما عرف التاريخ الزمني لطبقات الأرض التي ضمت آثاراً لسكان العراق الذين عاشوا فيه من أقدم عصور البشرية.

أجل! إن البحوث التاريخية اليوم مدينة لجهد الأثريين، وما قدمه الأثريون من نصوص. وإن الدراسات الجيولوجية لها فضل في المعارف التاريخية بتعيينها أزمنة الأمم . فلقد كانت لمغامرات رواد الآثار في اليمن وما بذلوه في سبيل الكشف عن الآثار في العراق وفلسطين وسوريا ولبنان ومصر واليمن ووادي القرى، نتائج موفقة وأثر كبير في تصحيح المؤرخين نظرياتهم، والحد من موجة الشك التي عمت مصادر تاريخنا العربي. وأثارت الغبار حول أقوال المؤرخين العرب عن الحجاز وأنه كان أكثر أرض الله أشجاراً وعن سبأ ودول التبابعة، وعن الآثار العادية والثمودية في قلب الجزيرة العربية وجنوبها. وإنك لتجد في الجزء الخاص بجغرافية الجزيرة العربية القديمة. الثالث من هذا المؤلف (العرب في أحقاب التاريخ) : تقصياً في جمع النصوص التي تثبت ضخامة ثروة الجزيرة في مختلف عصورها.

٧- فلقد جاء في كتاب غوستاف لوبون (حضارة العرب) : [ومهما تكن الآثار التي ألمعنا إليها آنفاً ناقصة؛ فإنها مما تتم به روايات قدماء المؤلفين، ومما ننظر من

خلاله: ازدهار حضارة العرب الغابرة التي نسيها الناس في الوقت الحاضر. والتي نرتدع بما نعرف عنها من العلم القليل عن عد العرب همجاً .. والعرب هؤلاء قد ظهروا على مسرح التاريخ قبل الرومان بقرون كثيرة، وأنشأوا المدن العظيمة وكانت علاقتهم بأرقى شعوب الأرض وثيقة][1]. ثم إن التهم والشكوك التي وجهت إلى التاريخ الإسلامي لم تصرف بعض المستشرقين عن الرجوع إلى المصادر العربية الإسلامية فهذا (آدم متز) في كتابه (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع) اعتمد على المصادر العربية في مؤلفه القيم.

وليست فائدة البحوث الجيولوجية للأثريين بأقل من فائدة البحوث الأثرية للمؤرخين؛ فهي قد أعانتهم كثيراً في تحديد الآثار التي تراكمت عليها طبقات من تراب هذه الأرض منذ آلاف السنين.

٨- ولقد أصبح اليوم لزاماً على الباحث في تاريخ الماضي القديم: أن يستنير بنظريات الجيولوجيين ونتائج تحقيقاتهم، ولزاماً عليه ألا يغفل النصوص الأثرية، إذا ما أراد أن يصور حقائق الماضي؛ فلقد امتدت آفاق البحث التاريخي، وتعددت جوانبه، وتحتم على التحقيق: ألا يقتصر على مؤلفات القدامى، فلا بد له من الجمع والمقابلة والتجرد من مؤثرات التحيز والتعصب، فليس من حق المحقق العربي أن يتحيز للنص؛ لأنه عربي، وليس من حق المحقق غير العربي أن يرفض نصاً؛ لأنه عربي أو لأنه لا يتفق مع منطقه، فالحقيقة ضالة الباحث فعليه أن يلتقطها حيث وجدها.

٩- ومن مؤلفات المستشرقين - : مؤرخين وأثريين التي جمعتها ورجعت إليها في بعض ما تكلمت عنه في هذا الكتاب (العرب في أحقاب التاريخ). هذه المؤلفات:

---

(١) حضارة العرب، ص ٩٧.

١- كتاب (حضارة العرب)، لمؤلفه المستشرق المعروف (غوستاف لوبون)؛ نقله إلى العربية (عادل زعيتر).

٢- كتاب (فلسفة التاريخ)، تأليف (غوستاف لوبون)؛ نقله إلى العربية (عادل زعيتر).

٣- كتاب (سر تطور الأمم)، تأليف (غوستاف لوبون)؛ نقله إلى العربية (أحمد فتحي زغلول).

٤- كتاب (اليهود في تاريخ الحضارات)، تأليف (غوستاف لوبون)؛ نقله إلى العربية (عادل زعيتر).

٥- كتاب (حضارة بابل وآشور)، تأليف (غوستاف لوبون)؛ نقله إلى العربية - (محمود خيرت).

٦- كتاب (تاريخ العرب العام)، تأليف (ل. أ. سيديو)؛ نقله إلى العربية (عادل زعيتر).

٧- كتاب (العرب والروم)، تأليف (فازيليف)؛ نقله إلى العربية (محمد عبدالهادي شعيرة).

٨- كتاب (الخليج العربي)، تأليف (جان جاك بيريبي)؛ نقله إلى العربية (نجدة هاجر) و(سعيد الغز).

٩- كتاب (ثورة آسيا)، تأليف (تيبور مند)؛ نقله إلى العربية(محمد حمودة).

١٠- كتاب (الأبطال)، تأليف (توماس كارليل)؛ نقله إلى العربية (محمد السباعي).

١١- كتاب (إيران في عهد الساسانيين)، تأليف (آثري كريستنس)؛ نقله إلى العربية (يحيى الخشاب).

١٢- كتاب (موجز تاريخ الشرق الأوسط)، تأليف (جورج كيرك)؛ نقله إلى العربية (عمر الإسكندري).

١٣- كتاب (الحضارة المصرية)، تأليف (جون ويلسن)؛ نقله إلى العربية (أحمد فخري).

١٤- كتاب (تاريخ الجيوش)، تأليف (جورج كاستلان)؛ نقله إلى العربية (كمال دسوقي).

١٥- كتاب (موجز تاريخ العالم)، تأليف (هـ.ج. ويلز)؛ نقله إلى العربية (عبدالعزيز توفيق جاويد).

١٦- كتاب (أنتصار الحضارة - تاريخ الشرق القديم)، تأليف (جيمس هنري برستد)؛ نقله إلى العربية (أحمد فخري).

١٧- كتاب (بلاد ما بين النهرين)، تأليف (ل. ديلابورت)؛ نقله إلى العربية (محرم كمال).

١٨- كتاب (التاريخ العربي القديم)، تأليف (ديتلف نيلسن) و (فرتزهومل) و (ل. رودو كاناكيس) و (أدولف جرومان)؛ نقله إلى العربية (فؤاد حسنين علي).

١٩- كتاب (موسوعة تاريخ العالم)، أصدره (وليام لانجر)؛ نقله إلى العربية (محمد مصطفى زيادة).

٢٠- كتاب (قصة الحضارة)، تأليف (ول ديور انت)؛ نقله إلى العربية (زكي نجيب محمود).

٢١- كتاب (البحر الأبيض المتوسط)، تأليف (إميل لودفيغ)؛ نقله إلى العربية (عادل زعيتر).

٢٢- كتاب (جزيرة العرب)، تأليف (جان جاك بيريبي)؛ نقله إلى العربية (نجدة هاجر) و (سعيد الغز).

٢٣- كتاب (تاريخ اللغات السامية)، تأليف (إسرائيل ولفنستون).

٢٤- كتاب (قصة الشرق الأوسط)، تأليف (كارلتون كون)؛ نقله إلى العربية (برهان وجاني).

٢٥- كتاب (رمال العرب)، تأليف (ولفريد ثيسيفر)؛ نقله إلى العربية (نجدة هاجر) و(إبراهيم عبدالستار).

٢٦- كتاب (ماذا حدث في التاريخ)، تأليف (جوردن تشايلد)؛ نقله إلى العربية (جورج حداد).

٢٧- كتاب (شمال بلاد العرب)، تأليف (أ. موسل)؛ نقله إلى العربية (عبدالمحسن الحسيني).

٢٨- كتاب (السيادة العربية، والشيعة، والإسرائيليات في عهد بني أمية)، تأليف (فون فلوتن)؛ نقله إلى العربية (حسن إبراهيم) و(محمد زكي إبراهيم).

٢٩- كتاب (دائرة المعارف الإسلامية)؛ نقله إلى العربية (محمد ثابت الفندي) و(أحمد الشنتناوي) و (إبراهيم زكي خورشيد) و(عبدالحميد يونس).

٣٠- كتاب (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري)، تأليف (آدم متز)؛ نقله إلى العربية (محمد عبدالهادي أبو ريدة).

٣١- كتاب (العرب في سورية قبل الإسلام)، تأليف (رنيه دليبسو)؛ نقله إلى العربية (عبدالحميد الدواخلي).

٣٢- كتاب (الرافدان)، تأليف (ستين لويد)؛ نقله إلى العربية (طه باقر) و (بشير فرنسيس).

٣٣- كتاب (تاريخ بخارى)، تأليف (أرمينيوس فامبري)؛ نقله إلى العربية (أحمد محمود السادات).

٣٤- كتاب (تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي)، تأليف (جيمس هنري بريستد)؛ نقله إلى العربية (حسن كمال).

٣٥- كتاب (المغازي الأول ومؤلفوها)، تأليف (يوسف هورفتس)؛ نقله إلى العربية (حسين نصار).

٣٦- كتاب (دراسات عن المؤرخين العرب)، تأليف (مارغوليوث)؛ نقله إلى العربية (حسين نصار).

٣٧- كتاب (العرب والملاحة في المحيط الهندي)، تأليف (جورج فضلو حوراني) (العربي المتأمرك)؛ نقله إلى العربية (يعقوب بكر).

٣٨- كتاب (آثار الأردن)، تأليف (لانكستر هاردنج)؛ نقله إلى العربية (سليمان موسى).

٣٩- كتاب (تاريخ الأدب العربي)، تأليف (بروكلمان) المعروف في الأوساط الأدبية والتاريخية؛ نقله إلى العربية (عبدالحليم النجار).

ليست هذه المؤلفات - هي: كل ما ألفه المستشرقون في التاريخ العربي والحضارة الإسلامية، وإنما هي: المؤلفات التي جمعتها، كما قلت من قبل وهي جزء ضئيل بالنسبة لبحوث المستشرقين التي شملت جوانب كثيرة من التاريخ العربي السياسي والحضاري .. تلك البحوث التي وجد فيها المحققون في الماضي الجاهلي، والحاضر الإسلامي ما هو جدير بالأخذ به والرد عليه؛ فأكثر المؤلفات التاريخية التي بحثت في العصور الجاهلية لم تستغن عن آراء المستشرقين ونتائج تحقيقاتهم مثل: تاريخ (جواد علي) وكتاب (مصادر الشعر الجاهلي) .. وأكثر المؤلفات التي وضعت عن الإسلام ونبي الإسلام محمد عليه السلام مكتظة بالرد على المستشرقين الذين تطرفت بهم المسيحية فكانوا مرآة للعقلية الصليبية التي تحكمت على منطق الغرب فترة قصيرة من الزمن وما فتئت تؤثر على بعض المستشرقين وتهيمن على أفكارهم.

وإنك لتجد في هذه المؤلفات التي وضع بعضها خصيصاً في التاريخ العربي، والتي تعرض بعضها له كجزء من تاريخ العالم الكبير مما لا غنية عنه للمؤرخ الذي يكتب في التاريخ العام. وتجد: موضوعات هذه المؤلفات: تحكمت في مناهج مؤلفيها، فانصرف جهد بعضهم إلى ربط الجديد من النصوص الأثرية المكتشفة حديثاً بالقديم من

النصوص، وتقيد آخرون بالمراجع العربية فنبعت آراؤهم من صميم نصوصها. وليس في هذا حرج على المستشرقين فلكل موضوع مراجعه ومناهجه.

١٠ - والمؤلفون المستشرقون - كما قلت من قبل - منهم: المطلع المتأني الذي يسبر الغور ولا يلتفت لغير الحقائق - ومنهم: المعمعي المستعجل الذي لا يكلف نفسه مشاق التعمق للوصول إلى الحقائق. مثلهم في هذا كمثل غيرهم من المؤلفين الشرقيين؛ عرباً وغير عرب .. والحقائق التاريخية منها: ما يرسب في الأعماق، ومنها: ما يطفو على السطح. ولقد يأتيك ببعض الحقائق من لم تزود من معمعي مستعجل، وقد يخون التوفيق العلامة المطلع. وقديماً قالوا: يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر. فإذا كان بعض المستشرقين أخطأهم التوفيق فليس معنى ذلك: أن كل المستشرقين مخطئون، أو أن كل ما يقوله هذا المستشرق الذي أخطأ مرة - هو: خارج عن محجة الصواب. فالمؤرخ الذي وفّى كل صغيرة وكبيرة في بحثه بما لا يجعل للمحوظات الناقدين منفذاً - لم يخلق بعد لا في الشرق ولا في الغرب. وعلى ذلك تجد بحوث هذا الكتاب ترفض ما تشتبه فيه من آراء المستشرقين وأقوال غيرهم من المحققين، وتأخذ منهم ما تطمئن إليه، فالذي يخطئ في موضوع قد يصيب في آخر، وقد يخطئ الألمعي الحذر.

وكذلك ليست النقوش الأثرية جميعها - كما قلت من قبل - : صادقة فيما ترويه، نزيهة من كل ما يريب. فممن كتبها: عاميون، ومنهم: عنصريون، ومنهم عابثون، ومشعوذون. ولقد كان لذلك أثره على الذين اختلط عليهم النص التاريخي القيم بنقوش العامة والعابثين .. على أن هذه الخطوط التي نقشها العابثون؛ أفادت بعض المحققين، فلقد استأنس بها الكثيرون في تحقيق مساكن الأمم القديمة وهجراتها وطرق تجارتها.

وكذلك النتائج التي توصل إليها الجيولوجيون - لم تكن جميعها نتائج قامت على أساس نظريات علمية متعمقة؛ فمنها ظنون غير موفقة شوشت على الباحثين المحققين.

فهكذا نجد دائماً: الغث مختلطاً مع السمين، وهكذا ازدادت متاعب التحقيق العلمي. ومصاعب المؤلفين في التاريخ.

نهاية المطَاف

الموضوعات :

١- الجمع بين الاستيعاب والإيجاز يكلف كثيراً.

٢- مناقشة النصوص والآراء فيها ما فيها من إحراج.

٣- عدم أخذي ببعض التحقيقات لا ينقص مكانتها.

٤- فصول هذا الجزء ونتائجها.

٥- الفكرة التي استهدفها البحث في مصادر التاريخ.

٦- كلمة صريحة.

نهاية المطاف

١ - في كل فصل من فصول هذا الكتاب، حاولت جهدي أن أجمع الاستيعاب والإيجاز، فأقدم صورة مصغرة واضحة لكل مرحلة من مراحل التاريخ، ولكل مصدر من مصادره، ولكل رائد من رواده. ومحاولة الاستيعاب مع الإيجاز في موضوعات واسعة أبعادها، عميقة أغوارها، ومتنوعة أهدافها تشمل التاريخ من عصوره المجهولة إلى عصور الدراسات العلمية والتأليف المركز. لا تسلم من التفريط فيما لا يحق التفريط فيه؛ رغبة في الإيجاز، ولا تسلم من التكرار الذي أراه ضرورياً للاستيعاب، وقد يراه القارئ الباحث من لزوم ما لا يلزم.

٢ - ثم إن مناقشة النصوص والآراء التي أُبديت فيها . للخروج بحقيقة سليمة من التشويش واللبس والظنون الطائشة . فيها ما فيها من إحراج بالنسبة لموضوع بعض النصوص، ومكانة بعض الذين أبدوا رأيهم في قضايا التاريخ ومصادره؛ فتوقي العثرات في المناقشة الصريحة مرام صعب المنال، والمناقشة الصريحة مهما كانت بريئة قل أن تخرج مع الباحث بسلام مما لا يحب التورط فيه من جدل وتفنيد، وإن كان الجدل والتفنيد لا يقصد منهما التقليل من قيمة النصوص أو الغض من مكانة المحققين فيها.

ولقد حرصت الحرص كله على تجنب الشطط في تصحيح ما لابد من تصحيحه، وفي التمسك بما يجدر التمسك به، فإظهار الخطأ فيما رأيت فيه خطأ، والصواب فيما رأيته صواباً . هو : الذي جعلني أرفض مرة نتيجة من نتائج الباحثين وأعترف مرة أخرى بحقيقة من الحقائق التي قدمها أولئك الباحثون أنفسهم، فمن رأيي: أن الذي

يخطئ مرة يمكن أن يصيب مراراً ـ كما قلت من قبل. فأنا إن رفضت رأي جرجي زيدان في تحقيقه الأخير في موضوع مكتبة الإسكندرية وحريقها ـ فقد أخذت برأيه في كثير من بحوث هذا الجزء والجزء الذي تقدمه من هذا المؤلف (العرب في أحقاب التاريخ)، وأنا إن عارضت عبدالعزيز الدوري، وحسين نصار، وجواد علي، وناصر الدين الأسد في بعض النتائج التي وصلت إليها بحوثهم؛ فإنني أجل معارفهم، وأقدر سبقهم، وأكبر سعة اطلاعهم، وأعترف بأن مؤلفاتهم كانت من مصادر هذا المؤلف.

٣- وأنا إن كنت تحدثت عن التهم التي وجهت إلى نصوص القدامى، وأشرت إلى مواطن النقص في معارف الرواد المتجلية فيما أخذه بعضهم على بعض، وفيما كشفته التحقيقات المتأخرة؛ قد نوهت كذلك بفضل مصادر التاريخ ونصوصها القديمة. فأنا عندما صارحت القارئ بما قيل عن الأسفار لم أبخسها قيمتها التاريخية، وأنا عندما لفتّ النظر إلى أنانية نصوص الآشوريين والفراعنة لم أنتقص من قيمتها الأثرية، وأنا عندما كررت القول عن الخيال الذي امتزج بالتراث القديم ـ قلت: إن لكل قصة تاريخية غارقة في الخيال والمبالغة أساساً تقف عليه في خضم المبالغة والظنون، وأنا عندما ذكرت تجريح الروايات ومثالبها والطعن في الرواد ومخادشة بعضهم بعضاً؛ ذكرت بجانب ذلك اعتراف المعترفين بفضلهم وثناء المقدرين لجهدهم .. وإنني كما لم أنس ما ضبطه الكثيرون من المحققين في بحوث المستشرقين من أخطاء تختلف أسبابها، كذلك لم أنس ما أشاد به الكثيرون من حقائق كان للمستشرقين الفضل في إظهارها.

٤- ولقد كان الفصل الأول من هذا الجزء ــ (فكرة التاريخ ومصادره) وكانت نهاية المطاف لأبحاثه ـ أن الشكوى من سقم نصوص التاريخ العربي قبل الإسلام وبعده لا يزيلها غير جهد جماعي تهيئ له الدول العربية الثرية التفرغ والوسائل القادرة على جمع النصوص وتحقيقها، وربط حلقات البحوث المتناثرة في مؤلفات لا تجمعها لغة واحدة ولا يوحدها هدف واحد.

وكان الفصل الثاني: (التاريخ في القرآن). وقد انتهت جولة البحث إلى أن ما جاء في القرآن من أنباء الماضين حقائق تاريخية لم تخطئ العقلية الإسلامية في فهمها على أساس من التاريخ، فالنص القرآني من أصدق النصوص وأصحها.

وقد ظهرت في الفصل الثالث: (الأسفار والتراث القديم). قيمة الأسفار التاريخية، على ما فيها من تفسير وتأويل - ففي الأسفار نصوص لها ثمنها بالنسبة لقدم تاريخها، وبيَّن البحث فضل التراث القديم على المؤلفين في تاريخ الشرق الأوسط، وحدد أبعاد ذلك الفضل، فلم يطفّف المكيال؛ فيبخس ذلك التراث حقه، ولم يبالغ فيضعه فوق مستواه. فمن تراث القدامى: الغث والسمين. وإلى التراث القديم رجع مفسرو التوراة في كلامهم عن آدم وإدريس ونوح وعوالم ما قبل الطوفان، مما أطلقت عليه البحوث: اسم (التاريخ الديني) وذلك ما جعل المستشرقين يقولون: وقصة الخليقة الواردة في سفر التكوين تشبه القصص الواردة في معتقدات (كلدة) و (آشور).

وتحدثنا في الفصل الرابع: (الأساطير والشعر في العصر الجاهلي)، عن الأمية ومعناها الذي يتفق مع الواقع العربي في العصر الجاهلي، وعن ماهية الأساطير الجاهلية ومصادرها، والنصوص التي جاءت في الشعر الجاهلي.

وأبرزنا في الفصل الخامس: (من المدينة بدأ التاريخ وتدوينه)، دور المدينة في الدراسات التاريخية، وبناء الثقافة الإسلامية. فالمدينة المنورة هي ولا شك. أول مدرسة في الإسلام. وفي المدينة وضعت القواعد التي قام عليها التاريخ العربي الإسلامي.

وبينا في الفصل السادس: (التدوين والمدونات في صدر الإسلام)، حقيقة ما ورد من نهي عن التدوين، والهدف من الأحاديث والآثار الواردة في التدوين، تارة تنهى عنه وأخرى تحث عليه. ونفينا عن المسلمين تهمة حرق مكتبة الإسكندرية؛ مظهرين الأخطاء المتعمدة في تشويه السياسة الإسلامية.

وفي الفصل السابع : (مناهل رواد الثقافة والتاريخ)، تحدثنا عن مصادر الرواد وأين وجد أوائل الرواد مصادرهم الفارسية واليونانية والسريانية واللاتينية؟

ولم ننكر في الفصل الثامن : (المؤرخون العرب ورواياتهم)، ما في الرواية العربية من مبالغة وخيال، ولم نهضم المؤرخين العرب حقهم ونجحد جهدهم ونضرب برواياتهم عرض الحائط، وكذلك لم ننكر جهد الموالي والشعوبيين ونجحد ما قدموه للثقافة العربية عامة وللتاريخ خاصة. وأثبتنا : أن العناصر غير العربية التي كان لها فضل على الثقافة العربية والتاريخ، لم تخرج الثقافة العربية عن عروبتها ولغتها؛ وإنما الثقافة العربية هي التي أخرجتهم عن أعجميتهم ولغتهم.

وسرنا في الفصل التاسع : (مسالك رواد التاريخ ومناهجهم)، مع الرواد العرب من المرحلة الأولى التي بدأت منها مسيرتهم؛ متحدثين عن المواد التاريخية التي جمعوها لنا : الأنساب، والجغرافية، والتراجم، وما نقلوه إلى العربية من مؤلفات لها أثرها في التاريخ العربي.

وقدّمنا في الفصل العاشر : (الأوائل من رواد التفسير والمغازي والأنساب ـ في القرنين الأول والثاني من الهجرة)، تراجم بعض الرواد الذين أمست أقوالهم نصوصاً للتاريخ العربي؛ موضحين ما يهم المصادر إيضاحه في حياة أولئك الرواد ومصادرهم وآثارهم.

ولم تكن التراجم التي جاءت في الفصل الحادي عشر : (نقاد الشعر ورواة أيام العرب) أقل قيمة بالنسبة للتاريخ العربي الاجتماعي من تراجم رواد المغازي والسيرة والأنساب؛ بالنسبة للتاريخ السياسي. ولم ندخر جهداً في تبيان معارف نقاد الشعر، ورواة أيام العرب ومصادرهم وتراثهم مثل أبي عمرو بن العلاء، وحماد الراوية، والمفضل الضبي، وخلف الأحمر، وأبي عبيدة معمر بن المثنى.

وقد تجمعت الروايات على اختلاف مصادرها أمام الموسوعات التاريخية؛ فانبروا يحققون أسانيدها، وينسقون تاريخها، ويؤلفون حلقات التاريخ العربي العام.

ولقد قدمنا في الفصل الثاني عشر: (أعلام المؤلفين في التاريخ العربي بعد القرن الثاني من الهجرة)، صورة مصغرة للمؤرخين في العصر الإسلامي، وذكرنا بعض المؤلفات التاريخية؛ موضحين أسلوبها ومناهجها وموضوعاتها؛ بقدر ما يستوعبه نطاق البحث الخاص بالموضوعات ومؤلفيها. وكان للمستشرقين، والأثريين، والجيولوجيين في هذا الفصل مبحث خاص بهم؛ بينا فيه شيئاً من تاريخ المستشرقين، ومتى بدأ نشاطهم وكيف بدأ؟ والمدى الذي وصل إليه، والخدمة التي قدمها الأثريون والجيولوجيون للتاريخ ومؤلفيه؟

٥- هذه فصول هذا الجزء وهذه موضوعاتها.. ومن موضوعات هذه الفصول تتضح لنا الفكرة التي استهدفتها بحوث هذا الجزء؛ ففكرة البحث عن مصادر التاريخ نبعت مما جاء في المؤلفات التاريخية من روايات انتهى سندها إلى رجال عُدّت أقوالهم نصوصاً اعتمد عليها مؤلفو الموسوعات التاريخية .. فمن أين أتى أولئك الرواد بأقوالهم؟ ... إن هذا السؤال يقف أمام كل باحث في التاريخ ينتظر الجواب عنه، ومن خلفه علامات استفهام! فإذا كان الرواد قد أخذوا أقوالهم من الأسفار، ومن تراث اليونان والفرس، ومن أساطير الجاهلية؛ فمن أين وصل إلى مفسري الأسفار والمؤلفين النصوص التي اعتمدوا عليها، فيما فسروه وأولوه في توراة موسى وإنجيل عيسى؟ ومن أين جمع اليونان والسريان والفرس والعرب الجاهليون أخبار الماضي القديم؟ فإذا كانت النصوص التي جمعها ملوك آشور في نينوى، وإذا كانت آثار بابل والجانب الغربي من الهلال الخصيب - هي: مصادر مفسري الأسفار، ومصادر المؤلفين في التاريخ قبل الميلاد من كلدانيين ويونانيين وسريان وفرس، وإذا كانت آثار ثمود وعاد وسبأ وحمير والروايات التي توارثتها الأجيال في قلب الجزيرة - هي: مصادر القصص التاريخي الجاهلي؛ فمن أين عرف سكان الهلال الخصيب من آشوريين وبابليين وغيرهم أنباء العالم المجهول قبل الطوفان وبعده؟! وأين وجدت عاد وثمود الأنباء التي انبنت عليها عقائدها؟!

فالجواب عن هذه الأسئلة فرض على البحث : أن يبدأ بفكرة التاريخ ونصوصه الحجرية في عصرها المجهول، وينوه بالتاريخ الديني الذي عرفته الأجيال من الأنبياء والرسل. ثم يسير مع فكرة التاريخ ونصوصه خطوة خطوة، من مرحلة إلى أخرى، ويشير إلى النصوص على قدر ما اكتشفه بمنظاره ويعلق عليها في حدود ما يملكه من أدلة وشواهد.

٦- وليس من قبيل التظاهر بالتواضع . إن قلت : إنني لم أستوف موضوع نصوص التاريخ ومصادره شمولا ودراسة، وإن ما جاء في مباحث فصول هذا الجزء لم ينر الطريق جميعه من البداية إلى النهاية؛ فالذي يسير مع التاريخ من بدايته لا يسلم من العثرات والأخطاء، والذي يبحث في المشكلات قل أن ينجو من الوقوع فيها؛ فمن المحال أن يتبين من يسير في تلك الطريق الممتدة عبر مئات القرون: المعالم جميعها، ويضع العلامات التي ترشد السائر إلى منعرجاتها ومجاهلها، والعقبات التي مازالت قائمة فيها. فما جاء في فصول هذا الجزء . هو : بكل صراحة؛ محاولة قامت على جهد لم يدخر وسعاً في ترقي المبالغة والاعتماد على المنطق، ولم يقنع بالقليل من البحث والاطلاع على المراجع والاستعانة بها. فأنا لست متواضعاً إن قلت: إن ما جمعته من نصوص وقدمته من نتائج . هو : وميض قد يفيد الذين يريدون السير في طريق مصادر التاريخ العربي ونصوصه، والذين يريدون الإلمام بأطوار الحياة العربية التي ما زال الباحثون مشتغلين بسبر أغوارها، وتفسير غوامضها، ومعالجة قضاياها، وإصدار الأحكام على الذين تحملوا مسئولياتها منذ تجسد التاريخ العربي وبرز تحت الشمس.



خريطة الجزيرة العربية في القرن الأول الهجري (القرن السابع الميلادي)

مقتطفات من آراء رجال الأدب والتاريخ

أحسنت الظن بهذا الكتاب

تحرير : أمين عبدالله مدني

أقدم هذه المقتطفات حسب تاريخ وصولها إليّ واطلاعي عليها شاكرًا لهؤلاء الأعلام من حملة مشاعل الأدب والتاريخ في هذه الحقبة من أحقاب التاريخ العربي : ما أسبغوه على الكتاب من تقدير قد لا يستحقه.

١ - من كلمة فضيلة المغفور له الأستاذ العلامة محمد محمد المدني - عميد كلية الشريعة في مصر سابقًا :

... وما من شك في أن تاريخ العرب القديم منطوٍ على كثير من الغيابات والمجاهل التي توهن السالكين وتحيّر المدلجين. وإنه قد توارد على الكتابة في هذا التاريخ أصناف من الناس. منهم : الذين لا يرون في العرب إلا أوزاعًا من الخلق كانوا في قديم الزمان أصحاب أشعار وأوبار وسكان بواد وقفار ، تدور حياتهم بين حل وارتحال ، وليست لهم جامعة تجمعهم ، ولا أهداف تدفعهم ، وإنما همهم أن يجدوا ما يقيتهم ويعيشهم ، ولو كان فيما يصيدون من حيوان أو يحرشون من ضب.

وأكثر هؤلاء من الذين انحازوا إلى الشعوبية الجائرة ، فجرَّدوا العرب من كل مزية فكرية ، ولم يثبتوا لهم من المواهب إلا موهبة الشعر والخيال ، كالهائم التائه الذي يتعلق بالسراب والآل - ومنهم : الذين بعثهم الاستعمار روادًا له ، ومقدمات ثقافية بين يدي حملات صليبية أو استغلالية. فكان أكبر همهم أن يصوروا العرب لأنفسهم أمة من القعدة العجزة الذين خلقوا ليقادوا ، ولا يصلح أمرهم إلا بأن يساسوا.

وقليل أولئك الباحثون المنصفون الذين عرفوا فضل العرب ، وحاولوا أن ينفضوا عن تاريخهم ذلك الغبار الذري المعنوي الخانق الذي نشره أعداؤهم وحسادهم.

ولكنهم كانوا في كثير من الأحيان متحمسين أو ملقين القول على عواهنه؛ يدفعهم الحب لقومهم العرب على أن يتقبلوا كل ما يساق إليهم من ثناء عليهم وتصوير لبالغ عظمتهم.

ولذلك جاء بحث الأستاذ أمين مدني هادفًا إلى الحقيقة في ذاتها، لا يميل إلى التعصب لأحد أو على أحد، فنراه يقف وجهًا لوجه أمام الآراء المتصارعة، ويناقشها في أسلوب العالم المنصف الذي لا سلطان لشيء عليه إلا الحجة والمنطق، فإذا هو كالدليل الماهر الذي يقود متبعيه إلى الطريق المستقيم، مانحًا إياهم الطمأنينة إليه، بأسلوب فعلي مباشر دون طنطنة أو ادعاء.

وإذا كان لنا أن نتوجه إلى المؤلف بكلمة تحية وتقدير، فإننا نؤثر أن نجعل هذه التحية دعاء إلى الله جلت قدرته، أن يجزيه أحسن الجزاء على ما بذل في سبيل أمته وقوميته، وأن يديم توفيقه، ويبارك في حياته، حتى تفوز المكتبة الإسلامية العتيدة بالأجزاء الباقية من هذا البحث العظيم.

محمد محمد المدني

القاهرة في ٢٧ من نوفمبر سنة ١٩٦٤م

٢- من كلمة المؤرخ الكبير الراحل الأستاذ حبيب جاماتي :

... إنها لمهمة صعبة حقًّا تلك التي باشر صديقي أمين مدني الاضطلاع بها، وإنه لعمل شاق ذلك الذي عاهد نفسه على إنجازه، وأنجز بالفعل بعضه على أحسن ما يكون، وإنها لخدمة قيمة يسديها إلى طلاب المعرفة في دنيا العرب وخارجها، وإنه لسفر جليل هذا الذي يضعه بين يدي القراء - بعد أن بذل في إعداده جهدًا مرهقًا - سدَّ به فراغًا في المكتبة العربية، وحقق به للمثقفين في كل بلد أمنية، وأضاف حلقة قيمة إلى حلقات السلسلة التي صاغها الباحثون لاستكمال كتابة التاريخ العربي،

وتدوين التطورات التي مرت بها جزيرة العرب، وتسجيل المراحل التي انتقل فيها العرب في أحقاب التاريخ.

فلقد حاول المؤلف أن يرفع الستار عن الغوامض، ويمزق النقاب عن الأسرار، ويبدد الشك الحائم حول كثير من حوادث التاريخ العربي، منذ أقدم العصور، بطريقة تحليلية رائعة مبتكرة، معتمدًا على كل ما يتفق مع المعقول والمقبول من المراجع الكثيرة التي ذكرناها ووصفناها بما فيها من مميزات وعيوب، ولا يسعنا إلا الاعتراف له بأنه قام بمجهود غير عادي، وتوصل إلى نتائج على جانب عظيم من الأهمية، ووجه إلى تاريخ العرب في حقباته الأولى، أنوارًا كاشفة بددت الظلمات عن كثير من وقائعه، وبذل في بلوغ هذا الهدف أقصى ما يمكن أن يتوافر لباحث موفق من إمكانات ومحاولات.

فهذا الكتاب قد وضع حلقات كانت مفقودة من سلسلة الأبحاث التاريخية العربية في محلها.

حبيب جاماتي

القاهرة سنة ١٩٦٤م

٣- من مقال البحّاثة المحقق واللغوي المؤرخ الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار :

... وإني لمدرك عظيم الجهد الذي بذله المؤلف العلامة في إعداد فصوله، واستهواني درسه وبحثه مما يلتقي مع بعض دراساتي وبحوثي، فأنا قد كتبت في اللغة العربية كثيرًا، وما زلت، وبحثتها بحثًا، وتفرغت للكتابة في الديانات والعقائد في مختلف العصور، فاضطرتني إلى دراسة تاريخ الآشوريين والبابليين والسومريين والحضر وفارس ومصر وغيرها، وعلاقة بعضها ببعض، واتفاقها أو اختلافها مع ما يتصل بتاريخ العرب منذ بداءته حتى أشرقت عليه شمس الرسالة المحمدية، ومن هنا

كان اهتمامي بكتاب الأستاذ السيد أمين مدني وانصرافي إلى قراءته دارسًا وناقدًا وفاحصًا. ويعلم الله أني امتحنت الكتاب امتحانًا عسيرًا كل العسر وإذا هو يخرج منه بدرجة الفوز المبين مع مرتبة الشرف.

ولو كان لي أن أقترح، وكانت جامعتنا الفتية بالرياض تقبل اقتراحي، لأشرت أن تجعل هذا الكتاب في جزئه الأول المطبوع الأطروحة الأولى لإجازة الدكتوراة تمنحها صاحبه الذي رفع مكانة بلاده وأمته بكتاب يستطيع أن يأخذ مكانه بين أعظم الكتب العلمية التي يتوافر لها العمق والابتكار والشمول.

إن كتاب الأستاذ أمين مدني جدير بهذا التكريم الجامعي الذي يعود على جامعتنا بالتكريم نفسه، ولها أن تفخر بأن باكورتها في منح الدرجات العلمية كتاب يتفرد بين نظائره بالامتياز والتفوق والتبريز.

أحمد عبدالغفور عطار

مجلة قافلة الزيت. ذو الحجة ١٣٨٥هـ

٤- من قصيدة شاعر جلالة الملك عميد شعرائنا الأستاذ أحمد إبراهيم الغزاوي- نائب رئيس مجلس الشورى - المنشورة في جريدة المدينة المنورة :

ولن يعود لنا ما كان من ظفر	إلا إذا صح منا السر والعلن

* * *

الجد بالجد لا بالهزل مرتهن	وأنت منه (الحيا) يَنْهَلُّ - والمزن
أكبرت فيك اقتحام اللج مصطخبًا	(غبر المحيط) الذي ضلّت به السفن
تغوص فيه إلى الأعماق .. في جُنَنٍ	و(الأخطبوطات) في تياره قَرَنُ
وازددت بالله (إيمانًا) بأن له	(آياته) وبها انقادت لك الفطن

وأنت منها بما استقبلت من (عمل) يزهو به (العلم) و(التاريخ) والوطن

في (رحلة) أنت بالأسفار تنخُلُها نخلا .. وتمهرها مهما غلا الثمن

كذاك منك لنا (البرهان) من بلد منه .. استفاض الهدى بالوحي - والسنن

في أمة كانت (الدنيا) - وما برحت بها تَغَزَّلُ .. إعجاباً .. وتفتتن

جردت (تاريخها) مما تغوَّلَهُ من (الأساطير) وهي الدس والأفن

شكراً لسعيك في (موسوعة) ضمنت لك الخلود بما يبقى ويُزدكَنُ

طُوباك فاحْى على (الأحقاب) تنشرُها أسماط دُرٌّ بها (التاريخ) يُؤتمن

أحمد بن إبراهيم الغزاوي

جريدة المدينة الغراء سنة ١٣٨٥هـ

٥- من رسالة الكاتب النقادة والمؤرخ المعروف الأستاذ محمد رفعت :

عزيزي الأستاذ أمين مدني :

تحية مباركة وسلامًا - وبعد فقد تلقيت شاكرًا هديتكم القيمة، وأغتنم هذه المناسبة لأزجي إليكم التهنئة خالصة على ما وفقتم إليه في كتابكم من قدرة فائقة على البحث والتمحيص واستقراء الحقائق من مختلف مظانها في الموضوعات التي عالجتموها بما تنطوي عليه من مسائل خلافية موغلة في القدم غارقة في الغموض، فأجليتموها وكشفتم عنها الغطاء بأسلوبكم الشيق المنبئ عن نفحة مجدية باركت بحوثكم وأعمالكم.

محمد رفعت

ديسمبر عام ١٩٦٥م

٦- من رسالة المستر (يوسف الندر) نائب رئيس شركة أرامكو ـ الذي جمع بين الإدارة الفنية والبحوث العلمية ، ترجمة الأستاذ القدير السيد جعفر سنبل:

حضرة الأستاذ أمين مدني :

أشكركم على النسخة الموقعة من المجلد الأول من موسوعتكم : العرب في أحقاب التاريخ ـ لقد فهمت من المقدمة أنكم تعتزمون إصدار الأجزاء الأخرى في المستقبل .. إني أرجو مخلصًا أن تتمكنوا من ذلك، لأن هذه الموسوعة ستكون معينًا من المعلومات التاريخية التي لا غنى عنها لكل دارس جاد للتاريخ العربي. ولعلكم ترغبون في الاطلاع على المراجعة المرفقة التي وضعها السيد جعفر سنبل؛ ومما جاء في المراجعة أود أن أؤكد : أن الكاتب بطريقته المبتكرة في معالجة الموضوع وترتيب مواده قد وضع مرجعًا حجة في التراث العربي؛ فقد أجاب عن أسئلة كثيرة من الحضارات لم يتمكن أي كاتب آخر من الإجابة عنها حتى الآن، وأقدم واثقًا من نفسه على تحليل عميق لمعظم مظاهر الحياة العربية والمؤتمرات الأجنبية التي اتصل بها ، فخرج من كل هذا بكتاب فريد سد به ثغرة في المكتبات العربية.

وتفضلوا بقبول فائق احترامي .

جعفر سنبل

ج. هـ. الندر ـ نائب رئيس شركة أرامكو

يوسف الندر

٧- من مقال نشرته مجلة الإذاعة السعودية الغراء :

لو سقنا التبسط بالبحث في مؤلف "المدني" القيم لاحتجنا إلى كتابة مئات الصفحات عنه؛ فلقد دخل العلامة المدني في سلسلة نقاش مع الآراء المتباينة في الكشف عن بداية العالم، وتكلم الكاتب العميق عن بداية حضارة الإنسان، وجال جولات موفقة في شتى ميادين الحضارة الإنسانية. فشكرًا للعلامة أمين مدني على هديته القيمة للمكتبة العربية.

مجلة الإذاعة السعودية العدد ٧٢١ . شوال سنة ١٣٨٥هـ
السنة الحادية عشرة

٨- من مقال نشرته مجلة الأديب اللبنانية الغراء. للكاتب الشاعر، والشاعر المؤلف الدكتور زكي المحاسني :

لقد ضم هذا السفر النفيس كلام المؤلف النابغ على عصور ما قبل الإسلام، فبدأ بتحليل فكري لقضية التاريخ العربي، وكيف وقف مؤقف المتشبث العادل أمام لجج التاريخ العربي في خضمه الواسع، معترفًا للأقدمين بالسبق والتقدم. وإنه يكتب تاريخه تعقيبًا وتنقية وتوسعة حاملاً بيده مشعل التحقيق العلمي الذي لا ينبغي أن تخمد أشعته الكاشفة، مقدرًا عسر المهمة التاريخية التي تخصص بها التأليف الحديث.

وقد كانت خطة كتابه هذه في مقدمة أشبه بملخص لرسالة دكتوراة رمى بموضوعها إلى مدى بعيد في البحث والإعداد وصحة الحكم، حتى إن كتابه هذا أستطيع أن أعده مصدرًا جامعيًّا للتاريخ العربي الذي تخصص به المؤلف.

أعود بالقول لقرائي الأعزاء في (الأديب) الحبيب بأن القلم مهما يبذل من جهد فلن يستطيع حمل ذلك الأريج الفواح من كتاب الأستاذ أمين مدني.

زكي المحاسني

مجلة الأديب. أكتوبر سنة ١٩٦٦م؛ الجزء العاشر ، السنة ٢٥

٩- ولقد كان الأستاذ عبدالقدوس - وما زال - من أوائل بناة نهضتنا العلمية المعاصرة ، ولقد كانت مجلته الغراء (المنهل) من أوائل الصحف التي أحسنت الظن بكتاب (العرب في أحقاب التاريخ) ، ولقد كان صاحبها من أوائل الذين تحدثوا عنه في أعداد من منهله وفي غير مناسبة من المناسبات التي يكتب فيها . محسنًا الظن في الكتاب ، وفي النتائج التي توصل إليها.

ولقد كان الأستاذ حمد الجاسر - وما زال - في مقدمة البحّاثين في تاريخ الجزيرة العربية وجغرافيتها. ولقد كان الأستاذ حمد الجاسر آخر من اطلع على الكتاب ، كما قال في جريدة (عكاظ) الغراء في عام ١٣٨٩هـ ، وكان في مقاله من الذين غضوا النظر عن العيوب وأجزلوا فيما تحدثوا به عن الكتاب ومؤلفه وعما بذل من جهد للوصول إلى الهدف الذي من أجله ألف كتاب العرب في أحقاب التاريخ.

ولقد كان للأستاذين علي حافظ وضياء الدين رجب القدح المعلى في العروج بصحافتنا إلى ما بلغته ، ولقد كان ما نشراه في جريدة المدينة عن الكتاب مما ينطبق عليه المثل المعروف : وعين الرضا ...

وإنني عندما أقتطف بعضًا من الكلمات التي احتفظت بأصولها ونوّهت بأصحابها ، أشكر من الصميم الذين حيوا الكتاب بكلمات فُقدت عن غير عمد . وإنني عندما أنوه بأعلام ثقافتنا العربية أنوه بهم مفتخرًا بإنتاجهم القيم الرائع الذي بوأ المعارف العربية مكانها بين المعارف العالمية في عصر التزاحم على البحوث ونقدها ، فاستقبلتها الأمم بما هي أهل له ، فحياهم الله ، ووفقهم فيما نذروا جهدهم له ، والله الموفق.

الفهارس

- فهرس الآيات
- فهرس الحديث والأثر
- فهرس الأعلام
- فهرس الأماكن



فهرس الآيات

اسم السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
البقرة	﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾	١٧	٦٣
البقرة	﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾	٢٦	٥٤
البقرة	﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾	٧٨	١٣٥
البقرة	﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾	٧٩	١٣٧
البقرة	﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾	١٣٦	٧٥
البقرة	﴿فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾	١٧٩	٥٧
البقرة	﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾	١٨٩	٥٤ ، ١٧٠
آل عمران	﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾	٧	١٧١

اسم السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
النساء	﴿ لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾	٤٣	٨٥
النساء	﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ﴾	١٥٧	٥٢
النساء	﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾	١٥٧	٥٠، ٥١، ٥٢، ٦٧
المائدة	﴿وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾	٤٣	٧٤
المائدة	﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾	٩٠	٨٥
الأنعام	فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾	١٤	٣١
الأنعام	﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً ﴾	٩١	٧٤
الأعراف	﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ ﴾	١٥٧	١٣٦
الأنفال	﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾	٤١	٣٤٧
التوبة	﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ ﴾ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾	٣٠	٥٠
هود	﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾	٤٩	٢٨

اسم السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
هود	﴿ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلا قَلِيلٌ ﴾	٤٠	١٤٥
هود	﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾	٥٨	١٤٥
هود	﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾	٦٦	١٤٥
هود	﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾	٨٩	١٤٤
هود	﴿وكلاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾	١٢٠	٢٨
يوسف	﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾	٣	٤٨
يوسف	﴿أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً ﴾	٣٦	٥٣٠
يوسف	﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾	١١١	٤٤
الحجر	﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾	٩	٨٦
النحل	﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ ﴾	٤٧	٣١، ٥٠٤
النحل	﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾	٧٥	٦٢
النحل	﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾	١١٢	٦١

اسم السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
الإسراء	﴿وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلا قَلِيلاً ﴾	٨٥	١٧٠
الإسراء	﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إلا بَشَراً رَسُولاً ﴾	٩٣	١٣٢
الكهف	﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾	١٣	٤٩
الكهف	﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إلا قَلِيلٌ ﴾	٢١	٥٤
الكهف	﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾	١٠٩	٤٤
مريم	﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾	٣٤	٣٤
طه	﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾	٩	٣٠
طه	﴿إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً ﴾	١٠	٣٠
طه	﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ﴾ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً ﴾	٩٩	٣٨
الأنبياء	﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾	٢٤	٥٦
المؤمنون	﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾	٤١	٣٢

اسم السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
المؤمنون	﴿إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾	٨٣	١٦٧
الحج	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾	٥٢	١٣٧
الفرقان	﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾	٥	١٤٠
الفرقان	﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۞ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾	٥-٦	٥٣
الفرقان	﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً ﴾	٣٥	٣٩
النمل	﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾	٧	٣٠
النمل	﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾	٨	٣٠
النمل	﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾	٧٦	٤١
النمل	﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾	٨٨	٦٧
العنكبوت	﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾	٤٦	١٦٧

اسم السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
السجدة	﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾	١٣	٦٣
السجدة	﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائيلَ ﴾	٢٣	٣٩
يس	﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ۞ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴾	١٣-١٤	٦٠-٦١
الصافات	﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾	٦٥	٥٣٠
الزخرف	﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾	٢٣	٥١، ٥٥
الحجرات	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ﴾	١٣	٢٧٥
الرحمن	﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ ﴾	٣٣	٦٧
الممتحنة	﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ﴾	١٠	٣٧٠
الصف	﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾	٦	١٦٦
الجمعة	﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ ﴾	٢	١٣٦، ١٣٨
التحريم	﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾	١٠	٦٢

اسم السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
القلم	﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلافٍ مَهِينٍ ۞ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۞ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أثيم ۞ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ۞ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۞ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾	١٠-١٥	٥٤
الجن	﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾	١٦	٦٣
الأعلى	﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى ۞ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾	١٨-١٩	٤١
البينة	﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً ۞ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾	٢، ٣	٣٧١
العاديات	﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾	١	٣٥٢

فهرس الحديث والأثر

لم يكن النبي عليه السلام يفسر شيئًا من القرآن إلا آيات علمهن إياه جبريل	١٦٩
من أحب أن يقرأ القرآن غضًّا كما نزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد	١٧٤
من قال حين يصبح لا إله إلا الله العظيم سبحان الله العظيم وبحمده، لا حول ولا قوة إلا بالله عوفي من كل بلاء يومئذ	٣٧٤
يكون في أمتي رجلان أحدهما وهب يهبه الله الحكمة والآخر غيلان فتنته على هذه الأمة أشر من فتنة الشيطان	
إذا سألتم عن شيء من غريب القرآن التمسوه في الشعر	٢٠٠
إني كنت أريد أن أكتب السنن وإني ذكرت قومًا قبلكم كتبوا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبدًا	٢٠٢
حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن أنهم كانوا يستقرئون من النبي عليه السلام فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعلموا ما فيها	١٦٩
فقالوا يا رسول الله: أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟	١٥٢
كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن	١٦٩
والذي لا إله غيره ما نزلت آية في كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت وأين نزلت	١٧٤
والله الذي لا إله إلا هو لقد آثرتكم به على نفسي فخذوا منه	١٧٤
يا قوم! تعلمون: والله إنه للنبي الذي توعدكم به اليهود فلا تسبقنكم إليه	١٦٧

فهرس الأعلام

(ت)

(د)

(س)

(ع)

(ق)

(ك)

(ل)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

فهرس الأماكن

(أ)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(س)

(ش)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

المصادر والمراجع العربية

- **الأسد ، ناصر الدين :**

مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية (الطبعة الثانية، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م).

- **الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم محمد الفارسي :**

المسالك والممالك (تحقيق محمد جابر عبدالعال الحيني، ومحمد شفيق غربال، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م).

- **الأصفهاني، حمزة بن الحسن :**

تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء (دار مكتبة الحياة، بيروت) .

- **الأصفهاني، أبو الفرج :**

الأغاني (تصحيح أحمد الشنقيطي، ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م).

- **الألوسي، محمود شكري:**

بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب (عني بشرحه وتصحيحه وضبطه محمد بهجة الأثري، ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م) .

- **أمين، أحمد؛ وزكي نجيب محمود :**

قصة الأدب في العالم (١٣٦٣هـ/ ١٩٥٩م) .

- **الأنباري، أبو البركات كمال الدين عبدالرحمن بن محمد :**

نزهة الألباء في طبقات الأدباء (تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م).

- الأندلسي، صاعد :

طبقات الأمم .

- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي :

فتوح البلدان (١٣١٩هـ/ ١٩٠١م) .

- ابن حجر، أحمد بن علي :

- فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري (تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، ومحب الدين الخطيب، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م).

- الإصابة في تمييز الصحابة (تحقيق عادل أحمد عبدالموجود وآخرين، القاهرة).

- حسن، إبراهيم حسن :

تاريخ عمرو بن العاص (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م).

- حسين ، طه :

الفتنة الكبرى (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م).

- الحموي، ياقوت بن عبدالله :

- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أوطبقات الأدباء (الطبعة الثانية ١٣٤٣-١٣٤٧هـ/ ١٩٢٣-١٩٢٧م).

- معجم البلدان (١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م).

- الخانجي، محمد أمين :

الإسكندر الأكبر (القاهرة) .

- **الخطيب البغدادي، أبو بكر بن أحمد بن علي بن ثابت :**

- تقييد العلم (صدره وحققه وعلق عليه يوسف العش، الطبعة الأولى)

- تاريخ بغداد أو مدينة السلام (تحقيق محمد أمين الخانجي (١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م).

- **ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد :**

تاريخ ابن خلدون (مطبعة الرحمانية ١٣٥٥هـ).

- **ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر :**

وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان (تحقيق إحسان عباس ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م).

- **خليفة، حاجي :**

كشف الظنون (تحقيق محمد شرف الدين، ورفعت بيلكه الكليسي، الأستانة ١٣٦٠هـ).

- **دائرة المعارف الإسلامية** (إعداد وتحرير إبراهيم زكي خورشيد ، وأحمد الشنتناوي، وعبدالحميد يونس) (القاهرة).

- **الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود :**

الأخبار الطوال (صححه وضبط ألفاظه اللغوية محمد سعيد الرافعي، ١٣٣٠هـ/ ١٩١١م).

- **دروزة، محمد عزة :**

تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم (١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م).

- **الذهبي ، أبوعبدالله شمس الدين :**

تذكرة الحفاظ (تصحيح عبدالرحمن بن يحيى المعلمي ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م).

- **رضا ، محمد رشيد :**

الوحي المحمدي . ثبوت النبوة بالقرآن ودعوة شعوب المدنية إلى الإسلام (١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م) .

- **رفعت، إبراهيم :**

مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م).

- **الزركلي ، خير الدين :**

الأعلام : قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين (بيروت) .

- **زيدان ، جورجي :**

- العرب قبل الإسلام .
- تاريخ التمدن الإسلامي.

- **السخاوي، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن :**

الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (١٣٤٩هـ/ ١٩٢٩م).

- **ابن سعد ، محمد بن سعد :**

الطبقات الكبرى (١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م).

- **ابن سلام، أبو عبيد القاسم :**

الأموال (تحقيق محمد حامد الفقي، ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٣م).

- **السمهودي ، نورالدين علي بن عبدالله الحسن :**

وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى صلى الله عليه وسلم (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م).

- **السيوطي، عبدالرحمن جلال الدين :**

المزهر في علوم اللغة وأنواعها (تحقيق محمد أحمد جاد المولي، ومحمد أبي الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، ٦١-١٣٦٤هـ/ ٤٢-١٩٤٥م).

- **صحيح مسلم** (تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م).

- **الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير :**

- جامع البيان عن تأويل القرآن (راجعه وخرج أحاديثه أحمد محمد شاكر ، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م) .

- تاريخ الرسل والملوك . (تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ١٣٨٠-١٣٨٩هـ/ ١٩٦٠-١٩٦٩م).

- **المقريزي، أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي :**

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (دار صادر، بيروت).

- **ابن عبدالبر، أبو عمر يوسف بن عبدالله :**

الاستيعاب في معرفة الأصحاب (تحقيق علي محمد البجاوي) .

- **العقاد، عباس محمود :**

عبقرية المسيح في التاريخ وكشوف العصر الحديث (القاهرة) .

- **العقيقي، نجيب :**

المستشرقون ، بحث عن الاستشراق لدى جميع الأمم منذ فجره من ألف عام إلى اليوم (١٣٦٧هـ/ ١٩٤٧م).

- **علي ، جواد :**

تاريخ العرب قبل الإسلام (٧١-١٣٧٨هـ/ ٥٢-١٩٥٩م).

- **علي، محمد كرد :**

الإسلام والحضارة العربية (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م). القديم والجديث (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م).

- **الغزالي ، محمد :**

نظرات في القرآن (١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م).

- **القالي ، أبو علي إسماعيل بن القاسم :**

الأمالي (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م).

- **ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم :**

المعارف (تحقيق وتقديم ثروت عكاشة).

- **القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبي بكر :**

إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري (١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م).

- **القلقشندي :**

نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب .

- **ابن كثير ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر :**

البداية والنهاية في التاريخ (٤٨-١٣٥١هـ/ ٢٦-١٩٣٢م).

- **مجلة الجامعة الإسلامية**، العدد الثالث ، السنة الثانية، المحرم ١٣٩٠هـ.

- **مجلة العرب**، الجزء الأول، السنة الثالثة، رجب ١٣٨٨هـ.

- **مجلة العربي**، العدد ١٣٤ ، يناير ١٩٧٠م.

- **مجلة الهلال**، العدد السابع، السنة السابعة والسبعون، يوليو ١٩٦٩م.

- **المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي :**

(التنبية والإشراف (دار الصاوي ، ١٩٥٧هـ).

- **ابن منظور، محمد بن مكرم :**

لسان العرب (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م).

- **النجار، عبدالوهاب :**

قصص الأنبياء (١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م).

- **ابن النديم، محمد بن إسحاق :**

الفهرست (القاهرة ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٨م).

- **نصار ، حسين :**

نشأة التدوين التاريخي عند العرب (١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م).

- **النمري، أبو عمر يوسف بن عبدالبر :**

جامع بيان العلم وفضله (إدارة الطباعة المنيرية).

- **ابن هشام، أبو محمد عبدالملك :**

السيرة النبوية (تحقيق مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبياري، وعبدالحفيظ شلبي، مكتبة البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م).

- **الهندي، رحمة الله بن خليل الرحمن :**

إظهار الحق (حيدر آبار الدكن ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م).

- **هيكل، محمد حسين :**

حياة محمد (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م).

- **اليافعي، أبو محمد عبدالله بن أسعد :**

مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان (حيدر آباد الدكن).